حميدة القماطي

دكتور

سيد احمد على الناصرى

استاذ ورئيس قسم التاريخ

كلية الآداب - جامعة القاهرة

تاريخ وحضارة

الرومان



من ظهور القرية حتى سقوط الجمهورية

الناشر

دار النهضة العربية

٣٢ شارع عبد الخالق ثروت - القاهرة

حميدة القماطي

دكتور

سيد أحمد على الناصري

أستاذ ورئيس قسم التاريخ

كلية الآداب - جامعة القاهرة

تاريخ وحضارة

الرومان

من ظهور القرية حتى سقوط الجمهورية



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة وتصدير

لو قدر للباحث أن يتحرى عن الكتب التى كتبت عن تاريخ الرومان فى المكتبه العربية لوجد تاريخا طريفا ، اذ لم يدرك المعنيون بأمر الثقافة والتعليم أهمية تدريس هذا الفرع من التاريخ القديم الا منذ أواخر القرن التاسع عشر مع بداية دخول التعليم العالى العلمانى فى مصر الحديثة . وفى لبنان الحديث .

وأول كتاب طريف نصادفه فى المكتبة العربية هو كتاب « اللالىء المنظومة فى الكلام عن تاريخ (رومه) » وهو مجموعة مقالات نقلها الى العربية نخبة من نجباء مدرسة الادارة الخصوصية الخديوية تحت اشراف ناظر المدرسة الفرنسى المسيو ويدال وصدر الكتاب عام ١٢٩٢ هجرية (الموافق عام ١٨٨٤ ميلادية) وقد جاء فى مقدمة الكتاب الذى يقع فى ٣٣ صفحة أن الكتاب كان مقررا على طلبة مدرسة الادارة العليا وأن الشيخ العلامة المرصفى . هو الذى قام بمراجعة الترجمات ، وأن خديو مصر قد بارك هذا العمل .

وفى نفس الوقت الذى كانت تفتح مصر الأبواب على مصارعيها لتيار الثقافة الأوربية كان لبنان الشقيق يمر بنفس التجربة . فقد أصدر نجيب ابراهيم طراد كتابه « تاريخ الرومانيين من بناء رومية الى تلاشى الحكومة الجمهورية » والذى صدر فى بيروت عام ١٨٨٦ . وجاء فى مقدمة الكتاب « ولا يخفى ما لتاريخ الرومانيين من الفائدة والشهرة فى العـالم ، فان الأوروبيين يدرسونه فى مدارسهم كعلم لابد منه ، لذلك فقد عنيت بجمعه من عدة كتب انجليزية وفرنسوية . وجعلته تحفة لبنى الوطن ، أما لغتنا العربية فمحتاجة كل الاحتياج الى كتب كثيرة . فليت أبناءها الـكرام يقتدون بالعربيين ويقبلون على تنشيط طلبة العلم وأهله ، فيرفعوا مناره ، ويخطوا لهم على جبهة الدهر ذكرا لا يمحى ، وليتهم يقرأون التواريخ

فيدرسوا أسباب نجاح الأمم ، وكيف أفلح اليونانيون وغيرهم فى الأزمنة القديمة والحديثة ليحثوا مطـايا الجهد والاقدام ، ويحاكوا أعظم أمم الأرض تمدنا وفلاحا » .

وفى مصر كان لتأسيس مدرسة الحقوق الخديوية فضل كبير فى ادخال تدريس التاريخ وتاريخ القانون الرومانى،وزيادة الوعى به ، فقد عثرت على بحث موجز كتبه الزعيم الوطنى الكبير مصطفى كامل ، وهو لايزال طالبا فى مدرسة الحقوق الخديوية ومحررا فى نفس الوقت لجريدة المدرسة . وكان هذا البحث بعنوان « أعجب ماكان فى الرق عنـد الرومان » وقد طبع البحث بمطبعة المحروسة سنة ١٣١٠ هجرية (١٨٩٢ ميلادية) ، وقد ذكر مصطفى كامل أن ظاهرة الرق وقوانينه عند الرومان قد استرعت انتباهه فجمع القوانين الرومانية الخاصة بالرق ، ثم تطرق الى دور العبيد فى المجتمع الرومانى ثم عالج العتقاء .. كل هذا عالجه الباحث فى تسـع عشرة صفحة لكنها تعتبر نقطة تحـول من مرحلة الترجمة من اللغـات الأجنبية الى مرحلة البحث والمقارنة والتقصى .

وفى عام ١٩١١ أصدر مصطفى صبرى العضو بجمعية الاقتصـاد السياسى والأحصاء التشريعى وأحد أعضاء نادى المدارس العليا ، كتابا بعنوان « تاريخ الرومان » ، وقرر الكتاب على طلبة شهادة البكالوريا وذكر المؤلف المصرى فى مقدمة كتابه « اننى بكل أسف لم أر فى لغتنا الشريفة العربية كتابا شافيا عن تاريخ هذه الأمة الرومانية المجيدة » ثم استطرد يقول « أن تاريخ الرومان هو علم السياسة بمعناه الحقيقى بحيث أن من لا يدرسه جيدا لا يعتبر سياسيا » لأنه هو تاريخ تطور القوانين . وهذا الكتاب بالرغم من اعتماده على الترجمة الا أن مؤلفه كتبه بمنطق تاريخى أكثر واقعية من المؤلفات المبكرة .

ومع تقدم وازدهار تدريس العلوم الانسانية فى الجـامعة المصرية تأسست كلية الآداب ، ودخلت اللغة اللاتينية والأغريقية لتدرس فيها ، ومع ازدياد الاهتمام بتاريخ مصر فى عصر البطالمة والرومان ، ثم قيـام أقسام التاريخ فى الجامعات المصرية ، أصبح تدريس تاريخ الرومان مقررا

أساسيا • وتلا ذلك عودة نفر ليس بقليل من الشباب المصرى من أوروبا بعد أن أتموا دراساتهم فى جامعات انجلترا وفرنسا وحصلوا على درجة الدكتوراه فى الأنسانيات القديمة ، وعادوا ليقدموا أبحاثهم مكتوبة باللغة العربية معتمدين على المصادر الأصلية وبصورة علمية لا تقل عن أبحاث أقرانهم الأوروبيين •

وفى طليعة هذه المؤلفات الحديثة عن تاريخ الرومان الكتاب الموجز والشيق الذى قدمه أستاذنا الكبير الدكتور عبد اللطيف أحمد على بعد عودته من الولايات المتحدة وهو كتاب «روما عصر الجمهورية والأمبراطورية» وقد صدر الكتاب عن دار النهضة العربية عام ١٩٥٨ ، وميزة هذا المؤلف أنه أول عمل عربى رجع فيه مؤلفه الى المصادر الأصلية حيث يجيد المؤلف اللغة اللاتينية واليونانية ، ومشهود له دوليا فى قراءة النصوص والوثائق من نقوش وكتابات على أوراق البردى الى آخره (١) ، وفى عام ١٩٦٧ أصدر المؤلف نفسه كتابه الثانى فى التاريخ الرومانى بعنوان « التاريخ الرومانى عصر الثورة ــ من تيبروس جراكوس الى اكتافيوس أغسطس » وقد صدر الكتاب أيضا عن دار النهضة العربية ، وقد ركز المؤلف جهده فى معالجة أهم فترات التاريخ الرومانى وهى عصر الثورة الاجتماعية التى أدت الى اندلاع الحروب الأهلية ، وتبدأ هذه الحقبة عام ١٣٣ ق • م وتنتهى بمعركة أكتيوم وتولى أكتافيوس الحكم •

وفى عام ١٩٧٣ خرج علينا الأستاذ الدكتور ابراهيم نصحى بمؤلفه الجديد « تاريخ الرومان » والذى يقع فى جزئين ، الأول يغطى تاريخ روما منذ قيامها وحتى عام ١٣٣ ق • م ، والجزء الثانى يغطى الفترة من عام ١٣٣ ق•م وحتى عام ٤٤ ق•م وهو العام الذى اغتيل فيه يوليوس قيصر • وقد اكتفى الأستاذ الكبير عند هذا الحد من تاريخ الرومان وقد عنى المؤلف وهو من كبار علماء الآثار والتاريخ باعطاء صور شاملة لكافة جوانب الحياة الحضارية والفكرية والفنية ولم يكتف بالجانب التاريخى السياسى

---

(١) وقد اصدر الأستاذ الدكتور عبد اللطيف احمد على مؤلفا خاصا عن مصادر التاريخ الرومانى ــ صدر عن دار النهضة العربية ــ القاهرة عام ١٩٦٣ •

فقط • وهو مرجع عظيم للباحثين • وقد صدر هذا المؤلف عن الجامعة الليبية عندما كان المؤلف يشغل وظيفة أستاذ زائر بها •

ولما كنت أقوم بتدريس تاريخ الرومان فى كلية الآداب جامعة القاهرة فقد كان على أن اقدم برنامجى للطلاب تتحقق فيه نظرتى التى أميل فيها الى الشمولية والوقوف عند النقاط المثيرة للجدل والنقاش ، وتحويل بعض الموضوعات الى مناظرات جدلية مثل موضوع على مع تقع مسئولية اندلاع الحرب الثانية بين روما وقرطاجة ؟ وموضوع هل كان سوللا على صواب أم على خطأ عندما اعتزل الحكم فجأة وهو فى أوج سطوته ؟ فضلا عن تحليل الشخصيات القيادية والزعامية وتبيان مالها وما عليها وقد بذلت ما أستطيع من جهد فى الاطلاع على كافة ما كتب من مؤلفات أجنبية وغير أجنبية فى تاريخ الرومان ، فضلا عن اطلاعى على النصوص القديمة • ولقد حرصت على أن أقدم عصر الجمهورية كاملا فى مؤلف واحد وذلك لاعتقادى أن عصر الامبراطورية — وان كان يرتبط بما سبقه — الا أنه انعطافه جديدة فى تاريخ الرومان ، خرج بروما الى مرحلة جديدة يجب أن تدرس بمنطق وبمنظور مستقل ، وهو ما قدمته بالفعل فى مؤلف مستقل صدر عام ١٩٧٥ • وفى نفس الوقت أشرت فى هوامش الكتاب الى الكتب والمقالات التخصصية التى يمكن لمن يريد المزيد أن يطلع عليها ويستفيد منها ، كما زودت الكتاب بالخرائط والصور التى هى مما لاشك فيه — وسيلة هامة وأساسية من وسائل الايضاح والتبسيط •

وفقنا الله لخدمة هذا الشعب وهذه الأمة

وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون

كلية الآداب جامعة القاهرة ١٩٧٥ — ١٩٧٦ •

المؤلف

د • سيد احمد على الناصرى

أستاذ التاريخ القديم

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

تقـديم الطبعة الثانيـة

لا يسع المرء الا أن يسجد لله شاكرا ، فقد علمنا ما لم نعلم ، وما أوتينا من العلم الا قليلا ، وصلى الله على نبيه وسلم ، خاتم الأنبياء الذى أوصانا بطلب العلم من المهد الى اللحد وبعد :

لقد مضى حين من الدهر ، منذ أن صدرت الطبعة الأولى من هـذا الكتاب ، وذلك منذ عام ١٩٧٦ ، ولم تلبث طويلا حتى نفذت ،فرأيت أن أعيد طبعه ، مجريا عليه التصحيحات المطلوبة ، والأضافات اللازمة ، حتى يصل الى درجة أفضل من التى كان عليها فى طبعته الأولى .

لقد نجح هذا الكتاب المبسط ، المتميز فى أسلوبه ومضمونه ، أن يصل الى قلوب القراء وعقولهم ، كما أن طريقة تحويل القضايا التاريخية الى نقاط جدل وحوار بين الآراء ، ومناظرات علمية ، جعل من الكتاب مسرحا صغيرا ومن القارىء متفرجا ، وشاهدا ، وحكما . مما فتح أذهان الطلاب ، وحرر عقولهم من آلية السرد التقليدى للأحداث،كذلك فأن أسلوب الأيجاز فى القول مع وضوح العبارة،وتجنب الأطناب فى الشرح،والمبالغة فى الوصف، وفر على الطلاب وقتا ، ووقاهم من فقدان خيط الموضوع ، وقلل من عبىء المجهود الذى عليهم أن يبذلوه لأستيعاب الموضوع .

ولقد انتقدنى بعض الرفاق لأصرارى على البدء بالأساطير القومية عند الرومان ، كمقدمة لقافلة التاريخ الروماني ، غير أننى مازلت أرى أن هده الأساطير ليست جوفاء . بل ذات هـدف سياسى ، وتعليمى . وأخلاقى .

تعكس هوية الرومان ، وتشف عن أفكارهم التى آمنوا بها ، كما أن هذه الأساطير القومية ، تدور حول أصل الشعب الرومانى ، وحروبه وبطولاته ، وفلسفته فى الأدارة والحكم ، أى أنها كانت تاريخ الرومان كما كان يدرسه الرومان • وعلى ذلك فمن الأجدر أن تعرف منهم ما قالوه عن تاريخهم المبكر ، قبل أن نستنطقهم التاريخ الذى نراه نحن من خلال الفكر الحديث للتاريخ •

وعلى الله قصد السبيل ،،،

أول يناير عام ١٩٨٢

أستاذ التاريخ القديم
كلية الآداب — جامعة القاهرة
ا• د• سيد أحمد على الناصرى



ITALIA
English Miles
0 50 100
ILLYRIA
DALMATIA
ISTRIA
VENETIA
Carni
Aquileia
Verona
Hadria
Comum
Vercellae
Taurini
Cremona
Mantua
Placentia
Parma
Mutina
Genua
LIGURIA
GALLIA CISALPINA
Ravenna
Rubico F.
Ariminum
Metaurus F.
Sena Gallica
Ancona
MARE ADRIATICUM
Pisae
Luna
Volaterrae
Arretium
Populonia
Clusium
Telamon
ETRURIA
UMBRIA
PICENUM
Asculum
SABINI
Sutrium
Veii
Corfinium
Bovianum
Aesernia
SAMNIUM
Ostia
Velitrae
LATIUM
Circeii
Arpi
Daunia
APULIA
Beneventum
Cannae
Capua
Cumae
Venusia
Brundisium
CALABRIA
Tarentum
Hydruntum
CAMPANIA
Potentia
Paestum
LUCANIA
Velia
Pyxus
Metapontum
Heraclea
Laus
Thurii
(Sybaris)
Croton
Temesa
BRUTTII
Caulonia
Locri
Rhegium
CORSICA
Alalia
Olbia
SARDINIA
Caralis
MARE TYRRHENUM
MARE
Liparaeae
Mylae
Messana
Panormus
Drepanum
Eryx
Thermae
Lilybaeum
SICILIA
Selinus
Agrigentum
Leontini
Syracusae
Gela
Camarina
MARE INTERNUM
Carthago
AFRICA
Gaulos I
Melite I

الفصل الأول

الموقع والمناخ والتضاريس
وأثر ذلك على الحضارة

تلعب البيئة وظروفها دورا كبيرا فى فكر الانسان وحضارته ، فهى التى تشكل طريقة حياته ووسائلها ، وبالتالى ثقافته وقدراته ، ولما كانت البيئة ذاتها تخضع لعاملى الجغرافية والمناخ . فان دراسة تاريخ روما يجب أن يبدأ باستعراض موقع شبه الجزيرة الايطالية الجغرافى ، ومناخها ، وتأثير ذلك على نشأة الحضارة فيها .

ترتمى ايطاليا (١) فى أحضان البحر المتوسط أعظم بحار العالم وأبرزها لأنه شهد العديد من الحضارات تقوم على سواحله كما شجعت الجزر المبعثرة فيه الانسان على أن يتقدم ليستكشف أغواره ، وهو يعد من أهدأ بحار العالم وأكثرها خلوا من عوائق الأبحار التى تهدد السفن ، ونتيجة لذلك فقد تحول هذا البحر ــ الأخضر العظيم كما سماه قدماء المصريين ــ الى خلية من النشاط الانسانى لشعوب ثلاث قارات يربط بينها وهى أوروبا وآسيا وأفريقيا . وبفضل سهولة الأبحار نشأت التجارة والمعاملات والعلاقات بين هذه الشعوب بأجناسها ولغاتها وثقافاتها المختلفة والمتباينة . كما كان يتحكم فى مداخله مضايق هامة مثل مضيق جبل طارق فى الغرب ، ومضيق البسفور والدردنيل فى الشرق ، كما أن طرق الملاحة ــ كانت ولا تزال ــ تمر عبر المضيق الضيق

---

(١) يعتقد بعض البحاثه أن لفظ ايطاليا Italia تحريف اغريقى للاسم الايطالى القديم Vitelia اى « ارض البقر » وكان فى الاصل يطلق على الأطراف الجنوبية لايطاليا حيث قامت المستوطنات الاغريقية فى القرن الخامس ق.م. ثم عمم تدريجيا حتى اصبح قبل نهاية القرن الاول ق.م. يشمل كل المنطقة التى سيطرت عليها روما من حدود بلاد الغال شمالا حتى كعب الحذاء الايطالى جنوبا .

الذى يقع بين طرف ايطاليا الجنوبى الغربى وطرف صقلية الشمالى الشرقى والذى يعرف بممر ميسانا (Messana) نسبة الى المدينة القديمه التى كانت تتحكم من صقلية فى هذا الطريق البحرى •

وقد دأب المؤرخون على تسمية بعض المساحات المحصوره من البحر المتوسط حول ايطاليا بأسماء محددة فمثلا أطلقوا على المياه التى تحد ايطاليا من الشرق باسم بحر الادرياتيك (Adriatic) وهو يعرف بوعوره تضاريس شواطئه ، ويفصل بين شبه جزيرة ايطاليا وشبه جزيرة البلقان ولا تزال فينتسيا من أهم المدن الواقعة على خليجة • وفى الغرب أطلقوا على المياه المحصورة بين شبه الجزيرة الايطالية وجزيره كورسيكا وسردينيا اسم البحر التيرانى (Tyrrhenian Sea) والاسم العربى تحريف لكلمة « تورهينى » وهو أحد الآلهة الاسطورية الاتروسكية التى كانت تتحكم فى تلك المنطقة من البحر ، وفى الجنوب أطلق المؤرخون على المنطقة المحصورة بين كعب الحذاء الايطالى (والتى تعرف باسم خليج تارنتوم) وشاطىء صقلية الشرقى اسم البحر الايونى نسبة الى المستوطنات الأغريقية فى تلك المنطقة والتى جاء معظمها من الاغريق الأيو بين •

يقول علماء الجيولوجيا أن البحر المتوسط حديث التكوين نسبيا فهو مثل شبه الجزيرة الايطالية ذاتها لا يتعدى عمره المليون عام • وحول هذا الرقم من السنين الجيولوجية ، بدأت ايطاليا تتشكل تضاريسيا حيث كان سهل البو الشمالى امتدادا لبحر الادرياتيك ، وبمرور الزمن بدأت الأنهار تلقى ما تحمله من طمى وصخور بركانية فى هذه المنطقة حيث كان يصب فيها نهر البو ونهر اديجى (Adige) حتى برز سهل البو أغنى سهول ايطاليا لأنه من صنع الصخور البركانيه • ويقول العلماء أن الذى ساعد على تشكيل ملامح ايطاليا ثورات البراكين وطمى الأنهار المستمدة من تلك البراكين لأنه هو الذى خلق سهول ايطاليا الهامة مثل سهل اتروريا فى الشمال (Etruria) وسهل لاتيوم فى الوسط Latium سهل كمبانيا فى الجنوب (Campania) ولا يزال خطر البراكين متمثلا فى بركان فيزوفيوس (Vesuvius) قرب نابلى وبركان اتنا Etna فى شرق صقلية •

ان نظرة على الخريطة لتوضـــح من أول وهلة كيف أن التضاريس حددت شبه الجزيرة الايطالية تحديدا طبيعيا لا مثيل له فى باقى أجزاء القارة الأوروبية • ففى أقصى الشمال نجد سلسلة من جبال الألب تضرب قوسا التوائيا فى الشمال وتكاد تعزلها عن بقية القارة الأوروبية ومن ثم صدق القول بأن ايطاليا هى « تعبير جغرافى حتى قبل اتحـــادها » وفى جنوب الألب يقع سهل البـــو المتسع الذى تشرف عليـــه سفوح الألب وأوديته ويجرى فيه نهران هامان نهر اديجى الذى ينبع من أعالى الألب ليتجه شرقا ثم يصب فى خليج الادرياتيك ، ثم نهو البو العظيـــم الذى ينبع من منبعين منبع شمالى وآخر جنوبى من منطقة الألب ثم يلتقيان فى مصب واحد يتجه نحو الشرق ليصب أيضا فى خليج الادرياتيك ومن ثم تحولت منطقة خليج الأدرياتيك الى منطقة غابات وأدغال ومستنقعات عاش فيها قوم عرفوا بسكان البحيرات (Lake dwellers) منذ أربعـــة آلاف سنة تقريبا ولكنها الآن من أحسن وأغنى المناطق فى ايطاليا وأراضيها من أجود الأراضى وحدائقها من أغنى حدائق العـــالم • وجدير بالذكر أن مناخ هذه المنطقة أيضا تختلف عن مناخ الجنوب فهى أقرب الى مناخ غرب أوروبا منها الى مناخ البحر المتوسط •

وتترك الالتواءات الالبية الشمال متجهة نحو الغرب من منطقة الألب الفرنسية ثم تتجه جنوبا وجنوبا بشرق مغادرة شمال ايطاليا وراسمة قوسا جنوبيا يقطع شبه الجزيرة بطولها وهو ما يعرف بقوس جبـــال الابنين (Apennine) ، وتتلوى سلسلة الابنين شرقا وغربا عبر شـــبه الجزيرة مما جعل الجغرافيين يشبهونها بالعمود الفقرى لهـــا ، ونتيجـــة لهـــذا التعرج فقد فصلت سهولا صـــغيرة بينها وبين البحر محـــدثة تنوعات تضاريسية بين أجزاء ايطاليا واختلافات واضـــحة فى خطوطها العرضية بين أقصى الجنوب وأقصى الشمال • ولما كانت البحار تحيط ـــ كما سبق أن بينا ـــ بشبه الجزيرة من كل جانب • فقد كان لكل سهل أو واد منفذ بحرى سواء على البحر الادرياتيكى أو التيرانى أو الأيونى ويطل على حوض

البحر المتوسط مما مكن وشجع وهيأ لأقاليمها روح الانفصال والاستقلال ولكن فى حيز أقل مما كان عليه الحال فى بلاد الاغريق •

لقد هيأت الطبيعة ظروفا أحسن للساحل الغربى لشبه الجزيرة الايطالية ففيه يصب أطول انهارها ، وعليه يوجد أحسن مرافئها وموانيها، وحيث يقل انحدار الجبال مكونة ثلاثة من أعظم وأغنى السهول وهى سهل اتروريا وسهل لاتيوم وسهل كمبانيا والتى اكتسبت خصوبتها من الصخور البركانية والتراب البركانى ، كما كان يرويها عدة أنهار هى أرنو Arno والتيبر (Tiber) وليرى Liri وفولتورنو (Volturno) ومما ساعد على نمو الحضارة فى هذه المنطقة أن هذه البحار كانت المنافذ ورابطة اتصال بين الساحل والداخل حيث لا يوجد عوائق تعيق الملاحة فيها • ولهذا فقد تكدس السكان فى الغرب ، ولما كانت جبال الابنين تكون عائقا بين الشطر الغربى والشطر الشرقى لشبه الجزيرة الايطالية فقد اتجه سكان مناطق السهول غربا سواء للتجارة وأ الانتشار لأن جبال الابنين وقفت كحائط عائق نحو الشطر الشرقى من شبه الجزيرة الأيطالية •

وجدير بالذكر أنه فى هذه السهول الغربية بدأت الحضارات المبكرة لايطاليا •

المناخ : باستثناء الجزء الشمالى ، تتمتع ايطاليا بمناخ البحر المتوسط المعتدل ، ونحن نعرف أن اعتدال مناخ البحر المتوسط راجع الى الرياح الحارة الجافة الآتية جنوبا من صحارى أفريقيا والتى تسود أبان فصل الصيف ، والرياح الباردة الرطبة الآتية عبر الشمال والتى تسود ايطاليا شتاء • كما يلعب نسيم البر ونسيم البحر دورا كبيرا فى تلطيف المناخ فتلطفه نهارا وتدفئه ليلا ، وخريف ايطاليا الواقعى طويل ودفىء ، وفصل الربيع فيها طويل وبارد • وقد أدى ذلك الى قدرة الفلاح الايطالى على أن يزرع المحاصيل التى تحتاج الى فصل طويل من الصيف لكى تنضج مثل الكروم وأشجار الزيتون • كما أن ارتفاع تربة ايطاليا عن سطح البحر لم يساعد على زراعة القمح الذى يعتمد عليه حياة السكان •

وخلاصة القول يمكن أن نقول أن مناخ ايطاليا يتميز بأنه حار جاف

صيفا ، دفء ممطر شتاء ، ويتميز بصفاء الجو من الغيوم ، اد تحظى ايطاليا بـ ٢٣٠٠ ساعة اشراق من الشمس فى السنه ويمكن أن ندرك قيمة هذا اذا ما قارناه بساعات اشراق الشمس فى بريطانيا التى لا تتجاوز ١٥٠٠ ساعة فى السنة . وبعض علماء المناخ يرون أن صفاء الشمس يساعد على صفاء الذهن وهى صمة تتميز بها شعوب البحر المتوسط .

والمطر فى ايطاليا كاف على العموم ولكنه يزيد كلما اتجهنا من الجنوب الى الشمال . غير أن الجنوب يمر بثلاثة أشهر جافة هى يونيو ويوليو وأغسطس . حيث تصل الحرارة الى قمتها . أما السهل الشمالى فمناخة القارى يساعد على سقوط المطر صيفا فتخفف من شدة الحرارة . وجدير بالذكر أيضا أن بينما لا يعرف الجنوب الضباب فان السهل الشمالى المنخفض يسوده الضباب شتاء .

وبفضل المناخ الجاف الحار حفظت الأرض الايطالية لنا الكثير من الآثار التى يرجع بعضها الى ما قبل التاريخ . بل أن علماء الجيولوجيا يجدون فى الصخور الايطاليه نماذج لكل مراحل التطور فى القشرة الأرضية ، اد تجد الصخور الجيريه والبللوريه والجرانيتية والصوانية المتبلورة ، كما أن ايطاليا غنية بالمناجم المعدنيـة وخاصة فى جزيرة سردينيا التى تحتوى على عده مناجم معدنية مثل مناجم الزنك والحديد والنحاس والفضه . ومناجم الحديد والقصدير فى جزيرة البا المتاخمة للشاطىء العربى لايطاليا . لكن عموما نستطيع أن نقول أن ثراء الطبيعة الايطالية ممثل فى أنواع المحاجز وهـذا ساعد الانسان الايطـالى على التفكير فى استخدام هذه المحاجر لتشييد المبانى ، كما تتمتع شواطىء الأنهار بتربة طينيه جيده ساعدته فى صنع أنواع مختلفة من الفخار . وقبل كل شىء تتمتع ايطاليا بأفخر أنواع الرخام فى مناجم توسكانيا وليجوريا وفيرونا مما شجع المثالين على تشكيلها الى آيات الفن الرفيع ، هكذا دفعت الطبيعة الرجل الايطالى ليكونُ بناء وفنانا منْ الطراز الأول .

وخلاصة القول فأن الظروف الطبيعية المختلفة قسمت ايطاليا الى

توسكانيا الحالى وأهم مدنه فلورنسا) • ويجمع هذا السهل بين الثروة الرعوية والزراعية والمعدنية ، واذا ما تركنا سهل أتروريا جنـوبا نجـد الأرض تعود للتضرس من جديد وتنتشر البحيرات وهى فى الأصل براكين خامدة • ثم تتكسر الجبال ليظهر سهل لاتيوم التاريخى الذى منه استطاع الرومان قديما توحيد شبه الجزيرة الايطالية وتحويل مدينتهم روما الى عاصمة لأمبراطورية شاسعة •

تمتعت مدينة روما بمزايا استراتيجية وجغرافية عديدة رشحتها لأن تكون العاصمة الأولى فى شبه الجزيرة الايطالية • وهذه المزايا هى التلال السبعة المحيطة بها ونهر التيبر وسهل لاتيوم الذى تسيطر عليه هذه المدينة وأقامت فيه سلسلة من الطرق العسكرية عبر ايطاليا كلها • ومن أهم التلال التى أحاطت بروما تل البلاتين (Palatinum) الذى هو قلب المدينة حيث يشرف على الفورم ، وتل الكابيتول (Capitolium) الذى يقع فى الشمال الغربى ويشرف على ساحة كامبوس مارتيوس حيث كانت تقام الانتخابات والمهرجانات ، وفى الجنـوب الغربى من تل البلاتين يقـع تل الافنتين Aventine) حيث يحصران بينهما ساحة ماكسيموس الكبرى (Circus Maximus) وفى أقصى الشمال الغربى من روما يقع تل الكويرينال (Quirinalis) وفى الشـمال الشرقى تـل الفيمينال (Veminalis ، وفى الشرق تـل الاسكويلينوس (Esquilinus) وفى الجنوب الشرقى يقـع تل كايليوس (Caelius) أما على الناحية الشرقية من نهر التيبر فتقف تلال جانيكولوم Janiculum) منعزلة وممتدة على طول التيبر تقريبا من الشمال الى الجنوب •

ولم تساعد هذه التلال على تحصين روما فحسب بل حصرت بينها سهولا صغيرة حولتها روما الى ساحات للمدينة مثل كامبوس مارتيوس فى الشمال الغربى من تل الكابيتول ، والفورم الرومانى الذى ينحصر بين تل الكابيتول والبلاتين ، وساحة ماكسيموس بين تل البلاتين وتل الأفنتين ، أما نهر التيبر فكان يقف كحاجز مائى ضد غارات الاتروسيكين وكانت روما تتحكم فى مخرجه،ولكن نهر التيبر كان يندفع من التلال الشرقية حاملا معه الصخور والطمى الى المصب عند أوستيا (Ostia) مما كان يعيق

الملاحة كثيرا ، ولهذا ظل الميناء الرئيسي هو ميناء بويتولى فى سهل كمبانيا بالرغم من بعده عن روما . لكن بالرغم من هذا فقد ربط التيبر بين التلال الشرقية والسواحل الغربية لايطاليا مما أعطى روما أهمية تجارية واتصالية مميزة ، وفى نفس الوقت كانت روما بعيدة عن البحر بقدر يحميها من الهجوم البحرى . والى جانب المميزات النهرية تمتعت روما بشبكة قوية من الطرق العسكرية الكبرى التى دعمت من سيطرتها مثل طريق لاتينا Via Latina ، وطريق آبيا (Via Appia) ، وطريق فلامينيا (Via. Flaminia) ، وفى الجنوب تجد سهل كمبانيا ، وهو سهل ينحصر بين منحدرات الابنين والبحر التيرانى ، وهو يعرف الآن باقليم نابولى نسبة الى المدينة الكبرى فيه ، والتى تقع على خليج نصف دائرى يشرف عليه بركان فيزوفيوس ، والاقليم الذى تقع فيه نابلى اقليم خصب بسبب الرماد البركانى الذى يغطى أرضه ولذا اشتهر بمحاصيلة الوفيرة فى الغلال والكروم والفواكه والخضراوات وأشجار الزيتون وكان من أهم موانيه ميناء بويتولى (Puetoli) الذى كان من أكبر موانى ايطاليا القديمة .

ولهذا كما يقول بوليبيوس كان (١) سهل كمبانيا محط أنظار الغزاة والطامعين وكان الاغريق أول من وصل الى شواطئه وبنوا مستوطنات فيه دافعين السكان الأصليين نحو الداخل . وكان أهم وأكبر المستوطنات الاغريقية مستوطنة كوماى Cumae التى لا تبعد سوى بضع مئات من الأميال جنوبا من روما .

(١) ولمن يريد المزيد عن جغرافية ايطاليا القديمة يمكنه الرجوع الى المراجع الآتية :

Cary, M., (The Geographic Background of Greek and Roman History Oxford 1949.; Rose J. H. The Mediterranean in the Ancient World, London 1923.; Semple, E. C. The Geography of the Mediterranean Region. New York : Holt, Rheinhart and Winston, 1931, Thompson, J. O., History of Ancient Geography, Cambridge, 1948. Grant, M. The Ancient Mediterranean, London, 1969.

أيضا انظر : ابراهيم نصحى ـ تاريخ الرومان ـ الجزء الأول من اقدم العصور حتى عام ١٣٣ ق .م. منشورات الجامعة الليبية ـ كلية الآداب (١٩٧١) الفصل الأول (من ص ١١ ـ ٢٢) دولت احمد صادق ـ جغرافية العالم ـ الجزء الأول آسيا واوروبا ـ القاهرة مكتبة الانجلو المصرية ص ٤١١ وما بعدها .

على أى حال ، لقد تكدس السكان فى منطقة السهول ، كما أن وجود سلسلة جبال الابنين فى الشرق كانت بمثابة حواجز دفعت السكان الى الاستيطان فى السهول الغربية ، خاصة لأنها سهول غنية بالأنتاج الزراعى ، وتتحكم تجاريا فى المناطق الداخلية •

أما منطقة الهضاب الواقعة فى وسط ايطاليا وعلى طول ساحل الأدرياتيك فهى منطقة صعبة التضاريس بسبب الصخور الرملية والالتواءات والهضاب الانكسارية مثل هضبة كالابريا Calabria ، كما تكثر فيها الزلازل وتنشط فيها البراكين وتكثر المستنقعات التى يتربى عليها البعوض مهددة السكان بخطر وباء الملاريا والأوبئة المختلفة •

والمنطقة الأخيرة هى منطقة جنوب ايطاليا وصقلية ويتميز هذا الاقليم بشدة حرارته وجفافه • ولكنها كانت منطقة غنية فى العصور القديمة بدليل أن الاغريق استوطنوها وأقاموا المستوطنات حول كعب الحذاء الايطالى ، وعلى ساحل صقلية الشرقى والجنوبى والشمالى ، وكانت مدينة تارنتوم (Tarentum) من أهم المدن التى تحكمت فى الخليج الجنوبى لشبه الجزيرة الايطالية لدرجة أنه تسمى بأسمها • ويكاد طرف جزيرة صقلية الشمالى الشرقى أن يلامس كعب الحذاء الجنوبى الغربى • وكانت صقلية فى العصور القديمة غنية بأرضها البكر وبقمحها الذى كان أساسيا. فى قوت الشعب الرومانى [1] • وقد اتجه سكان الجنوب الى الشرق حيث الوطن الاغريقى الكبير ، بينما أقام القرطاجيون محطانهم التجارية فى الغرب من الجزيرة ، وتدخل جزيرتا سردينيا وكورسيكا ضمن الجنوب • والجزيرتان تقعان بعيدا فى عزله • ويعيش سكانها على المراعى الشاسعة وزراعة السهول الغنية فضلا عن المناجم الغنية بالقصدير •

---

(١) ولهذا وصفها شيشيرون فى احدى خطبه بانها صومعة الأمة والمرضعة التى يعيش الشعب الرومانى من ثدييها انظر :

Cicero. In Verrem, 2-2-5.

وعن اهمية صقلية فى الاقتصاد الرومانى انظر :

Hincent, M. Scramuzza, Roman Sicily (Vol III of Economic Survey) pp. 240-263.

الفصل الثانى

الأساطير القومية عن فجر التاريخ الرومانى

اعتاد الرومان أن يقولوا « لم تبن روما فى يوم واحد » . وهذا حق . فقد مرت المدينة بتطورات كبيرة منـــد أن كانت مجموعة من الأكواخ الطينية التى اتحدت فيما بينها لتكون قرية ، ثم تكبر القرية لتشمل ما حولها من القرى التى قامت عند سفوح التلال السبعة ، ولتصبح مدينه . ثم تكبر المدينة لتصبح دولة ، وتتوسع الدولة لتصبح امبراطورية ، وتصـــبح روما عاصمة لأعظم امبراطورية عرفها التاريخ .

ولكن فى فجر التاريخ لا نجد لروما تاريخا مكتوبا ، بل نجد الأساطير الخرافية القومية الغامضة التى تتحدث عن عالم يحيطه ضباب الغموض والخرافة . عالم يلتقى فيه الآلهة السماوية بالرجال من بنى البشر ويختلطون ويتصادقون ، ندا لند . لقد لجأ الرومان الى التعليل الغيبى الخرافى بعد أن حاروا فى تحديد أصولهم العرقية وكيف وجدوا أنفسهم فى هذه البقعة الجميلة والغنية من أوروبا . وكانوا يجدون فى هذه الخرافات الأسطورية أرضاء لنزعة الأنا المتاصلة (Egoism) فى شخصيتهم ويروون لأبنائهم الروايات عن سلفهم الصالح الذى كان دائما القدوة الأسمى للخلف [1] .

وعندما أصبح لروما مؤرخون لم ينس هؤلاء الأساطير والحكايات القديمة فدونوها بحرص كمقدمة لقافلة التاريخ الرومانى . ولكن المسئول عن جمع هذه الأساطير فى ملحمة شعرية خالدة وجدت مكانها فى قلوب الرومان وغير الرومان هو الشـــاعر العظيم بوبليوس فرجليوس مارو المعروف لدى العالم الحديث باسم فرجيل ، لقد كتب فرجيل الأنـــاده كميثـــاق تاريخى ووطنى للشـــعب الرومانى بـــاء على رغبـــة مؤسس

---

(1) عرف البعض الاسطوره بأنها التاريخ المقدس انظر
Mircea Elide. Myth and Reality New York. 1963. p 12-13

الامبراطورية ومجتمعها العظيم الامبراطور آغسطس فى الربع الأخير من القرن الأول • ق م •

وبالرغم من أن فرجيل لم يكن فى الأصل رومانيا (١) خالصا لأنه ولد فى مزرعة ريفية بالقرب من مانتوا (Mantua) فى شمال ايطاليا وأغلب الظن أن دماء كلتيه كانت تجرى فى عروقه • ولكنه تعلم وعاش فى روما حيث نمت ملكة الشعر فى نفسه . وازدهرت عندما وجد يد الرعاية من الدولة تمتد اليه ؛ والامبراطور المبارك المفجر لعهد الخير والسلام تشرف بنفسه على تشجيعه ، لقد غطت الأنياده على كل أعمال فرجيل الأخرى واكسبته شهرة عظيمة عندما قرئت أبياتها على مسامع الامبراطور الأول مرة ما بين عام ثلاثين وخمس وعشرين قبل مولد المسيح •

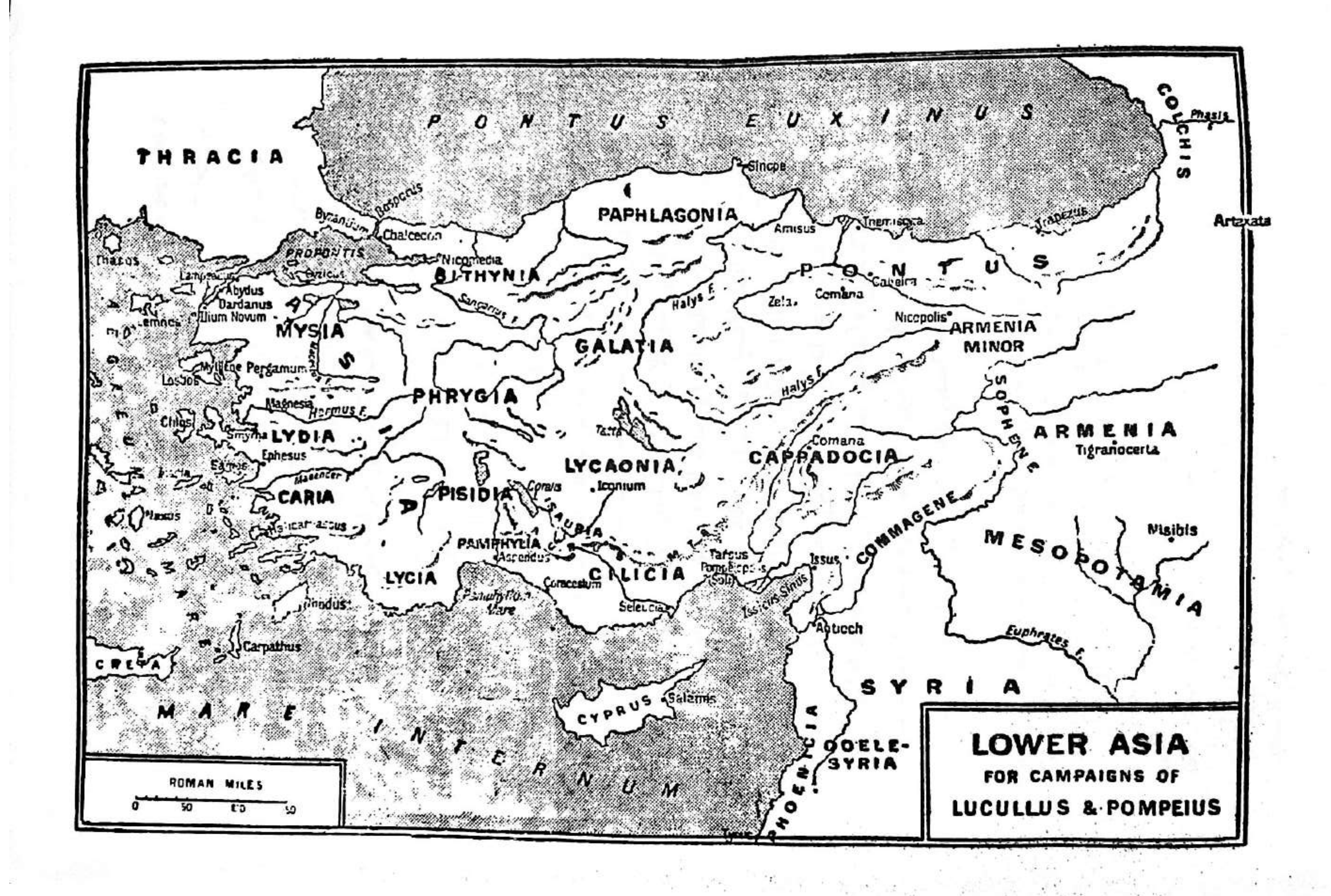
لقد جمع فرجيل بطولات الأولين وسحر اللغة اللاتينية فى ملحمة شعرية جعل بطلها شابا طرواديا اسمه أينياس (Aeneas) وكرس كتب الأنياده الأثنى عشره لتسجيل معامرات هذا الرومانى الأول ـ فى عالم الحرب والسلام ، ومنذ ما يقرب من ألفين عام عندما خرجت على العالم الأنيده وهى لا تزال كما كانت درة نادره من الأدب الحاد يتلهف على قراءتها كل من تحدثه نفسه بأن يكون مثقفا . يرددها المثقف الرفيع باللاتينية ويقرؤها المثقف العادى مترجمة الى لغته الوطنية •

لقد بدأ فرجيل أنيادته من حيث انتهى هوميروس الاغريقى من اليادته (بالرغم أن سبعة قرون ونصف تقريبا تفصل بينهما) فالأليادة تنتهى بالمنظر الجنائزى حيث وارى الطرواديون بطلهم المحبوب هكتور . الذى خر صريعا تحت أقدام اخيليوس بطل الاغريق ؛ بينما تبدأ الانياده أحداثها بعد أن مر على سقوط طرواده سبع سنوات . ونحن نعلم أن طرواده سقطت بفعل خديعة الحصان الخشبى المملوء بالجنود الاغريق الذين فتحوا الأبواب للجيش الاغريقى ليدخل المدينة بعد حصار بائس ومرير دام عشر سنوات .

---

(١) اعتمدت فى تلخيص الاساطير القوميه الرومانيــة على العرض المبسط والشيق فى كتاب :

E Royston Pike. «Republican Rome A Young Historian Book) weidenfeld & Nicolson, 1966 PP 7 27



LOWER ASIA
FOR CAMPAIGNS OF
LUCULLUS & POMPEIUS

وعمل جنود الاغريق فى المدينة العظيمه حرقا وتدميرا ، وقتلا وسبيا فى مواطنيها •

وكان من بين الناجين من زعماء طرواده البطل اينياس الذى نهض من بين الانقاض وهو يحمل أباه العجور انخيسيس (Anchises) (١) على كتفه ، ويمسك بيده نه الصعير اسكانيوس (Ascanius) ، كما لم ينس ايباس آلهته ، ومن المحراب المقدس فى منزله حمل معه تماثيلها تمسكا منه بالتقوى (Pietas) • ولهدا كافأته الآلهة على تقواه ، فأرشدته الى طريق النجاه من المدينة المحترقة كما أن أمه فينوس ربه الجمال جعلت نجمها فى السماء (٢) يرشده فى متاهات العالم الذى خرج اليه •

وراح اينياس يضرب فى البحار سنينا سبع ، وهو يتجول كالربان التائه، ولكن المعوقات والمخاطر لم تمنعه من تنفيذ الواجب الذى كان يناديه من داخل أعماقة وهو أن يجد أرضا جديدة ليقيم عليها مدينة جديدة • وأخيرا خط الربان رحاله فى سهل لاتيوم على الساحل الغربى من ايطاليا • حيث حمل رسالة السلام والصداقة الى ملك البلاد الذى كان يسمى لاتينوس بل وتزوج من ابنته لافينيا (Lavinia) وقاد جيشه ضد أعدائه الاتروسكيين الذين كانوا يسكنون المنطقة الشمالية من سهل لاتيوم ، وتستطرد الانيادة لتروى لنا كيف أن أينياس اختير ملكا على البلاد بعد موت الملك لاتينوس ولكنه لم يمكث فى العرش طويلا ، اذ أنه سقط قتيلا فى معركة ضد الأتروسكيين وحلفائهم الروتوليين (Rutulians) وادعت الانيادة أن جثمانه اختفى لأنه صعد الى السماء • ومن ثم أقام

---

(١) تقول الروايات ان انحيسيس جامع ربة الجمال فينوس وانجب منها اينياس ولهذا عرفت الربة فينوس بأنها جدة الشعب الرومانى Venus genetrix وعن الرحيل من طرواده ، انظر فرجيل الأنيادة ـ الكتاب الثانى ٣٠٠ ، ٨٠٠ ، ٨٠٤ ويمكن الرجوع الى الترجمة العربيه للانادة فى سلسلة الدراسات الاغريقية واللاتينية ـ فرجيلوس (١) الحزء الأول ـ الهيئه المصرية العامة للكتاب القاهرة ١٩٧١ ـ الكتاب الثانى ترجمة مر محموعة من الأساتذة ومراجعة د . عبد المعطى شعراوى ص ١٣٢ ، ١٤٩ ، ١٥٢ •

(٢) وهو الآن يعرف « بالزهرة » الذى يظهر فى الصباح المبكر او عند الغروب وقد اختير هذا الاسم لذلك النجم لأنه من اجمل نجوم السماء.

اللاتين نصبا تذكاريا لهذا الرجل الذى وصفوه بأسم « الأب والرب » (Pater et Deus) ، وبالرغم من الأعمال العظيمة التى قام بها اينياس الا أنه لم يعز اليه بناء مدينة روما بل تروى الأساطير أن اللاتين أطلقوا اسم زوجته على مدينتهم الأولى تخليدا لذكراها ، وأصبحت تعرف باسم مدينة لافينيوم (Lavinium) • وفى الحقيقة كانت هذه المدينة النواة الأولى لمدينة روما الخالدة التى قامت على ضفاف نهر التيبر Tiber وتحت سفح تل البلاتين •

فى البدء كان يسكن هذه القرية الصغيرة شعب من أصل اغريقى هاجر الى ايطاليا قبل اندلاع الحرب الطروادية بستين عاما تقريبا (١) • وأغلب الظن أن هذا الشعب جاء من اقليم أركاديا فى شبه جزيرة البيلوبونيسوس (شبه جزيرة المورة) ، وأقليم أركاديا كما نعرف أقليم رعوى يتميز بجباله وأنهاره ، ولكنه كان اقليما مغلقا لوقوعه فى قلب شبه الجزيرة ، مما جعل أهله بسطاء قرويين رعاة متيمين بالخرافات ، وربما استهوت الهجرة الى ايطاليا الاركاديين كما استهوت الهجرة الى أرض أمريكا الجديدة أهل ايرلندا فى وقت ما فى العصر الحديث •

وقد قام زعيم المهاجرين الاركاديين وكان يسمى ايفاندروس Evandros ينشر الثقافة والحضارة والفنون بين سكان ايطاليا الأول وعلمهم الموسيقى وفن الكتابة ووضع لهم تشريعات وقوانين • وبالرغم من أن هذه هى الحقيقة التى ربما كان فرجيل يعرفها الا أنه أهملها (٢) لأنه كان ملتزما بسياسة القصر الامبراطورى وبالهندسة العامة للامبراطورية لأن أنيادته كانت جزءا من هذا التخطيط المعنوى المنسجم مع السياسة العامة الذى كان يقدس المبارك الجالس على العرش أغسطس العظيم • ومن الواضح أنه كان أمام فرجيل الكثير من الموضوعات الأسطورية ونصف الأسطورية الا أنه اختار ما يناسب مزاج أغسطس خاصة أن فرجيل كان

---

(١) أبان عصر الحضارة الموكينية .

(٢) بدليل ان هوراتيوس لمح الى ذلك فى قوله الشهير :

Graecia Capta ferum Victorem Cepit, et artes Instulit agresti Latino.

لقد اسرت بلاد اليونان الاسيرة ، آسرتها (يقصد روما) وجاءت بالثقافة الى سهل اللاتين الريفى .

شاعر البلاط وتحت رعاية الامبراطور ولما كان أغسطس هو ابن يوليوس قيصر بالتبنى ، والذى كان بدوره قد ادعى بأنه ينخرط من نسل اينياس ابن ڤينوس ربة الجمال ، والطروادى أنخيسيس ، فقد كان تأليه اينياس تأليها لأغسطس نفسه واشادة برسالته الخالدة ، فكما أقام اينياس أساس الشعب اللاتينى،أقام أغسطس أساس امبراطوريته ومجتمعه العظيم، ودعائم السلام التى احتوت العالم المسكون بأسرة •

ومن بين الكتاب القدماء الذين تناولوا موضوع فجر الشعب الرومانى بلوتارخوس الاغريقى (Plutarchus) ، لقد عاش بلوتارخوس بعد فرجيل بنحو مائة عام تقريبا • وتخصص فى مقارنة سير مشاهير الاغريق بعظماء الرومان ، ولهذا سمى مؤلفه بالسير المتوازية (Bioi Paralleloi) ومن المؤكد أن بلوتارخوس قرأ ملحمة فرجيل جيدا قبل أن يشرع فى الكتابة عن حفيدى اينياس وبطلى تاريخه ، ومؤسسى روما أعنى الأخوين ريموس ورومولوس (Remus and Romulus)

يبدأ بلوتارخوس بحثه بالتساؤل عن معنى لفظ روما والسبب الذى جعله يطلق على العاصمة الرومانية ، وعرض تضارب التفسيرات والأقاويل فى ذلك • ولكنه يقول أن الرأى الغالب يرى أن بعد سقوط طرواده هرب بعض اللاجئين وركبوا السفن وراحوا يضربون فى البحر ويضرب البحر بهم ، حتى وصلوا الى شاطىء توسكانيا (Tuscania) عند مصب نهر التيبر ، وهناك قامت احدى الأميرات الطرواديات المهاجرات واسمها روما بحرق السفن حتى لا يفكر الرجال فى الرحيل الأنهن ضقن ذرعا بالبحر وركوبه ، ولما علم الأزواج بهذا انتابهم الغضب الشديد ولكن أمام الأمر الواقع اضطروا لتدبير حياتهم فأقاموا مجموعة من الأكواخ الطينية عند سفح تل البلاتينوم (Platinum) وسرعان ما استطابوا الاقامة • فالبلد ثرى وأرضه بركانية خصبة ، كما وجدوا سكانها كرماء مضيافين ، ومن ثم توجهوا بالشكر والعرفان الى الأميرة « روما » وكرموها بأن أطلقوا اسمها على القرية التى أقاموها ويقول بلوتارخوس ، أن هذا ، كما يدعون يفسر عادة النساء الرومانيات فى تقبيل أزواجهن وأقاربهن عند التحية ، لأن

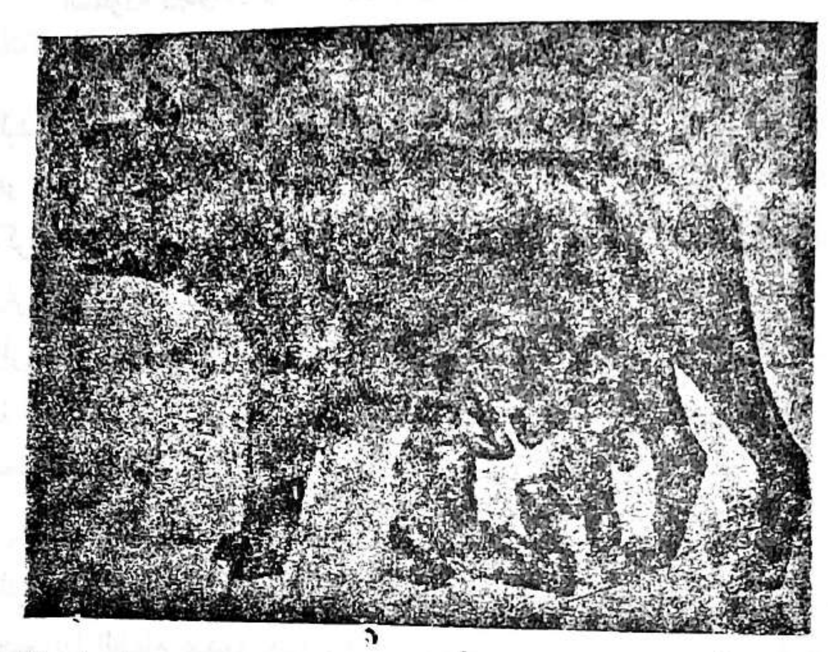
الأميرة روما وصحيباتها أخذن يقبلن الرجال تهدئة لغضبهم عندما علموا بأمر حرق السفن .

ونعود مرة أخرى لملحمة فرجيل لنكمل سير الأسطورة . فبعد موت أينياس ، خلفه ابنه اسكانيوس ، الذى لم يعجبه موقع لافينيوم ، لأنه يقع فى منخفض يجعل المدينة غير مناسبة من الناحية الصحية ، ومن ثم نقل موقع المدينة الى مكان عال ، وأطلق على المدينة الجديدة اسم « ألبا لونجا (Alba longa) أى ذات الجدار الأبيض الممتد (١) وبمرور الزمن ازدادت أهمية ألبا لونجا حتى أصبحت عاصمة لسهل لاتيوم بأكمله وأصبحت القبائل اللاتينية تتردد عليها للتسوق منها . لقد بنى اسكانيوس مدينته على غرار المدن القديمة وجعل فى قلب المدينة ميدانا كبيرا (Forum) على غرار الأجورا « الاغريقية » ، حيث يتجمع سكانها ويتناقشون فى أمور الدين والدنيا ولكى يبتهلون للآلهة فى غابة قريبة يتوسطها ينبوع من الماء ، وفى المعبد الكبير الذى أقاموه هناك من أجل الرب جوبتر (Juppiter) العظيم أو جوبتر الكابيتولينى .

وعاش الجميع فى سلام ووئام وتوالى الملوك من أسرة اينياس حتى حكمت ما يقرب من مائة عام ، وأخيرا دب النزاع بين أخوين من ملوك الأسرة هما نوميتور (Numitor) وأموليوس (Amulius) وتمكن الاخير من انتزاع العرش من أخيه الأكبر نوميتور ولم يهتم نوميتور كثيرا بما حدث لأنه كان رجلا زاهدا فى الدنيا . ولكن الملك المغتصب خشى من انتقام أولاد أخيه فأمر بقتل الابن الذكر وأرسل الابنة وكان اسمها ريا سيلفيا (Rhea Silvia) لتقضى بقية حياتها راهبة فى معبد الربة فستا (Vesta) ربة الموقد والتى عرفت بالطهارة ، وكانت الراهبات

---

١) من الطريف ان المصريين القدماء اطلقوا على ممفيس لفظ « أنب حج » اى ذات الجدار الابيض ، وهنا يجدر البحث عن تقارب التشبيه بين المدينتين وعما اذا كان الرومان قد سمعوا عن ممفيس مباشرة او عن طريق وسيط ام ان التسمية ليست سوى من باب المصادفة او نتيجة لأن المدن القديمة كانت جدرانها تطلى عادة بالجير الابيض .



الذئبة روما ترضع الطفلين ريموس ورومولوس وتعرف أحيانا بذئبة الكابيتول

Lupa Capitolini.

(متحف الكابيتول - روما)

اللائى يقمن على خدمة معبدها عذراوات ممنوعات من الزواج • وكان عقوبة الراهبة التى تفقد عذريتها أو تحمل سفاحا هو الموت رجما أو حرقا أو اغراقا فى التيبر •

اسطورة ريموس واخيه رومولوس :

ويستطرد فرجيل ليخبرنا كيف أن ارادة القدر كانت أقوى من ارادة البشر ، اذ حملت الراهبة العذراء رياسيلفيا • وأعلنت أن والد مافى بطنها هو رب الحرب مارس (Mars) ، ولما جاءها المخاض وضعت طفلين ذكرين وتجمع الناس لمعاقبة الراهبة الآثمة فألقوا بها وبولديها فى نهر التيبر وغرقت الأم ، أما الطفلان فقد نجيا من الموت لأن نهر التيبر فاض فجأة وارتفع ماؤه ، وألقى بالسلة التى كانت تحوى الطفلين الى الشـــاطىء ، وزحف الطفلان حتى وصلا الى جــذع شجرة تين أصبحت فيما بعــد شجرة مقدسة •

وبينما كان الطفلان يبكيان أقبلت ذئبة ضخمة ذات ثديين ممتلئين باللبن وراحت ترضعهما من لبنها ، كما راح طائر من فصيلة «نقار الخشب» يجمع لها الطعام عندما بدءا يكبران ، ولهذا قدس الرومان الذئبة « ونقار الخشب » وحدث ذات مرة بينما كان راعى الملك أموليوس يرعى غنمه وكان اسمه فاوستولوس (Faustulus) عثر عليهما وحملهما الى كوخه حيث سرت زوجته بهما ، واتخذوهما ولدين لهما يرعيان الغنم مثلهما • وقد سمى الراعى أحدهما ريموس والآخر رومولوس (١) •

ويقول بلوتارخوس منذ نعومة أظفارهما كان الطفلان يتمتعان بجمال البنية وكمالها ، مما يناسب وضعهما الربانى الخاص • ولما شبا عن طوقهما أظهرا من المروءه والشهامة والرجولة قدرا يفوق بكثير غيرهما • لقد برعا فى رياضة الجرى،وفن الصيد بقدرماأظهرا منشجاعة فىتعقب اللصوص وقطاع الطرق والقبض عليهما وتقديمهم للعدالة ، بل وتخليص المظلومين،ورد الحق لهم • وسرعان ما ذاع صيتهما بين سكان سهل لاتيوم • ولما خشى رعاة الملك من عواقب سلوكهما قبضوا عليهما وأتوا بهما فى أول الأمر أمام جدهما نوميتور الذى لم يتعرف عليهما ، ثم مثلا بعد ذلك أمام عمهما

(1) Livy I, 7 — 8.

الملك أموليوس • وروى الشابان قصة حياتهما البزية ، وذاع نبأ المعجزة ولم يمض على ذلك كثير اذ تعـرض الملك المغتصب أموليوس لمؤامرة دبرها له ريموس ورومولوس وساعدهما فيها فريق من الشباب الذين تجمعوا حولهما • وحاول أموليوس مقاومتهم ولكنه خر صريعا أثناء القتال الشرس • وهكذا أعيد العرش أخيرا الى جدهما نوميتور الملك الشرعى ونال شقيقه عقابه •

ويوما بعد يوم تزايد اتباع ريموس ورومولوس • وكان معظمهم من العبيد المارقين على أسيادهم ، ومن الخارجين على القانون والهاربين من أحكام العدالة ، ومن الفقراء المعدمين وكان هذا يضايق اللاتين من سكان مدينة ألبا لونجا • ولما تزايد عدد اتباعهما قرر الاخوان بناء مدينة خاصة بهما ، وفرح سكان ألبا لونجا لأن هذا سيخلصهم من عبث اتباع الأخوين • وكانت الخطوة الأولى هو اختيار مكان المدينة الجديد ولكن الأخوين اختلفا عليه فالأخ الأكبر رومولوس اختـــار سفح تل البلاتين حيث شبا وترعرعا وهما يرعيان الغنم معا ، بينما حبذ أخوه ريموس مكانا آخر عند سفح تل الافنتين (Aventine) حيث كان جدهما نوميتور يرعى قطعانه وماشيته • ولما اشتد الخلاف بينهما لجأ الى تحكيم جدهما ، ولما كان الحفيدان عزيزين على الجد ولا يريد أن ينحاز لأحدهما ضد الآخر فقد اقترح عليهما الرجوع الى الفأل عن طريق ملاحظة حركة الطيور فى السماء وقراءة الطالع (Augurium) وكان الأتروسكيون خبراء فى علم قراءة الغيبيات والكشف عن الطالع ، والتنبؤ بالمستقبل سواء عن طريق التطهير أو غيرها من الوسائل التى تستكشف الغيب •

ورضى الأخوان بتحكيم الطيور وخرجا فى الصباح الباكر ووقف كل منهما على الربوة التى أختارها لبناء المدينة ، بينما كانت مياه التيبر تتدفق أسفل السهل ، وكانت المسافة التى تفصل بين المكانين المختارين تزيد على ثمانمائة متر • وأقام كل منهما لنفسه نقطة يراقب منها السماء وقضيا يوما كاملا حتى هبط الليل وهما قائمان يرقبان السماء بنظر ثاقب حتى طلع الفجر ، عندئذ صاح ريموس مهللا بأنه رأى مجموعة من طائر الحداة

يبلغ عددها ست ، ولما كان هذا الطائر نادر الظهور فى ايطاليا فقد أدعى ريموس بأنها بشائر الآلهة تعلن عن رضاها للمكان الذى اختاره لوضع أساس المدينة الجديدة . وما أن هم يضرب المعول الأول لكى يضع حجر الأساس عند سفح تل الافنتين حتى سمع صياح أخيه رومولوس مدعيا بأنه رأى اثنى عشرة حدأة تحلق فوق رأسه ، ولم يصدق ريموس هذه الأدعاء ولكن اتباع رومولوس لم ينتظروا نتيجة الجدل بين الأخوين فبدأوا العمل على الفور عند سفح البلاتين (وهو نفس المكان الذى كان ايفاندروس المهاجر الاركادى قد اختاره منذ أكثر من قرن ليحط فيه رحاله) ولكن ريموس انفجر غاضبا للخدعة التى لجأ اليها أخوه وأخذ يضرب أسوار مدينة أخيه أثناء بنائها ، ويقفز فوق الخنادق التى حفرت لوضع الأساس مستهزءا مما أدى الى مواجهة ساخنة بين الأخوين لجأ بعدها الى السلاح وسقط ريموس قتيلا مضرجا فى دمائه وأكمل رومولوس المنتصر بناء روما .

اسطورة بناء مدينة روما :

قديما لم يكن بناء مدينة جديدة شيئا سهلا ، بل كان ذلك يستلزم شعائر عديدة ومعقدة ، واضطر رومولوس أن يستعين فى ذلك بجيرانه الاتروسكيين الذين علموه الشعائر الدينية ، حيث حفر حفرة عميقة ألقيت فيها القرابين المقدمة لأرواح العالم السفلى ، ثم بشائر الثمار والمحاصيل فى المنطقة ، ثم ألقى كل مهاجر بحفنة من التراب الذى جلبه معه من طرواده ، حتى امتلأت الحفر وردمت ، ثم أقيم فوقها مذبح مقدس يتوسطه موقد دائم الاشتعال كرمز لاستمرار الحياة فى المدينة الجديدة .

بعد ذلك ربط رومولوس بقرة بيضاء وثورا أبيض فى محراث سلاحه

ويقول يوتروبيوس ان الاساس وضع يوم ٢١ ابريل من السنة الثالثة بعد مهرجان أولمبيا السادس ، وبعد ثلاثمائة واربعة وتسعين سنة من سقوط طرواده ، اى عام ٧٥٣ ق . م .

(1) Livy, I, 1 — 7.
Eutropius I, 1 — 20.

من نحاس وأمسك بدفته وراح يخط حدود (١) مدينته حيث أقام حوائطها وعند الفتحات التى أريد لها أن تكون بوابات المدينة ، رفع المحراث من الأرض ويقــول بلوتارخــوس فى شرح ذلك أن فوق الخطوط أقيمت الحوائط التى اعتبرت مقدسة لا تقرب الا من خلال فتحات البوابات ، والتى تعطى الفرصة للتحرك والدخول والخروج طبقا لحاجة الناس ، ولهذا حرمت الشعائر الدينية على الرومان أن يأتوا المدينة الا من أبوابها ومن يتعدى حدود ذلك فقد أخطأ فى حق الآلهة • كما أن ترك مكان للبوابات كان بمثابة ترك مدخل للأرواح لتغدو منه وتروح • لأن الرومان القدماء اعتقدوا أن أرواح الموتى تعيش معهم داخل المدينة وتشاركهم الحياة فيها •

وبينما كان رومولوس يشق بمحراثه خطوط المدينة كان يتلو صلوات وترانيم مقدسة للآلهة ، لكى تجعلها مدينة قوية وعظيمة ، وخص فى ابتهاله أباه الآله مارس رب الحرب ورب الزراعة عند اللاتين القدماء لكى يرى عمله ويباركه •

حكاية خطف السابينيات :

وازدهرت المدينة الجديدة ونمت بسرعة واسعة لأن رومولوس حرص على الا يرد لاجئا أو مهاجرا • فتدفق على المدينة سكان من كل صوب ، منهم العبد الهارب من ظلم سيده ، والمدين الفار من مطــاردة الدائن ، والمتمرد الغاضب على الوضع القائم ، وغيرهم من اللاجئين الجدد ، وقد التزم رومولوس بقدسية الحماية «Asylum» لمن يطلبها فكان يرنض تسليم اللاجئين للحكام حتى ولو كانوا مجرمين • وكانت النتيجة أن ازداد عدد الرجال على عدد النساء لدرجــة جعلت روما تبــدو وكأنها مستعمره من الشباب الأعزب والفقير ماديا واجتماعيا ، مما جعل امكانية زواجهم من القبائل المجــاوره أمرا محــالا • وبالطبع لم يعجب ذلك رومولوس لأن عظمة المدينة هو بكثرة سكانها • ومن ثم راح يخطط لحل هذه المشكلة • فلجأ الى حيلة بارعة اذ ادعى أنه قد عثر أثناء العمل

---

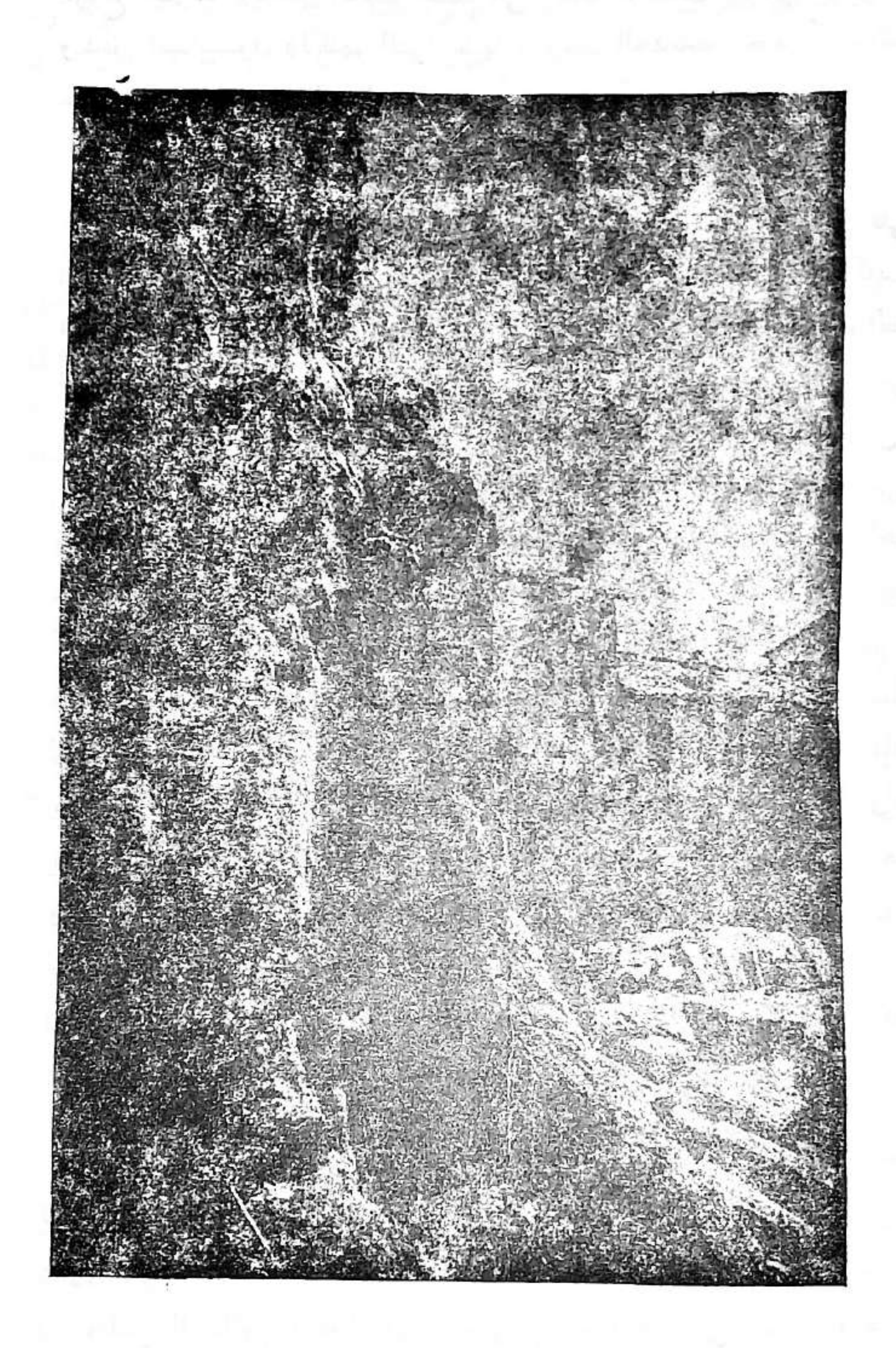
(١) اعتبرت هذه الخطوط هى الحدود الوهمية لمدينة روما وعرفت باسم البوميريوم (Pomerium (Poemerium

على بقايا مذبح لآله محلى قديم اسمه كونسوس (Consus) [1] مدفونا تحت الأرض . وأعلن أن الاحتفال بعيد هذا الآله سوف يكون فى الحادى والعشرين من الشهر الثامن (شهر أغسطس)، وأنه سوف يقيم بهذه المناسبة مهرجانا كبيرا تجرى فيه الألعاب الرومانية (Ludi Romani) والتى كانت تشمل سباقا للعربات التى تجرها الخيول . ومباريات رياضية . وملاهى متنوعة للتسلية . ثم تنتهى هذه الألعاب بتقديم القرابين والطقوس لهذا الآله . ودعا كل القبائل المجاورة لحضور هذه الألعاب . وطلب منهم احضار بناتهم معهم . وفرحت القبائل بهذه الدعوة وحضرت الى روما نسائها وبناتها . وبينما هم يمرحون أعطى رومولوس اشارة البدء الى رجاله فهجموا على النساء والبنات ونزعن البنات العذراوات من بين أحضان أمهاتهن وأبائهن . وقد تضاربت فى ذلك الأقوال فى عدد الفتيات اللاتى خطفن فقيل ثلاثين وقيل خمسمائة وسبع وعشرين . وقيل ستمائة وثمان وثلاثين ، رجما بالغيب ، وكان معظم الفتيات من بنات قبيلة السابيين (Sabines) احدى القبائل الايطالية القديمة .

وانقضى المهرجان بهرج ومرج . ووعد ووعيد من جانب آباء البنات المخطوفات وهدد السابينيون باعلان الحرب على روما ، مالم يعيد رومولوس اليهم بناتهم ، وبالطبع رفض رومولوس مدعيا أنهم يتحملون نتيجة خطئهم ، فقد رفضوا أن يزوجوا بناتهم من شعبة الرومانى . واندلعت الحرب بين روما والسابينين ، وبالرغم من قوة الرومان وتفوقهم رجالا وسلاحا الا أن السابينين تمكنوا من محاصرة قلعة الكابيتول قلب روما التى لا تقهر ، وقاومت القلعة بشجاعة بقيادة رئيس حاميتها تاربيوس Tarpeius ، وكان لهذا القائد ابنة جميلة اسمها تاربيا (Tarpeia) ذهبت ذات يوم لتملأ جرتها فقبض عليها السابينيون وحملوها الى ملكهم تاتيوس Tatius ، فأغوى الفتاة بأن تخون وطنها وتفتح أبواب القلعة ليدخل السابينيون مقابل جمع الحلقات الذهبية التى كانت تزين

---

(١) ان تشابه اسم هذا الاله مع اسم رب القمر المصرى خونسو (Khonso) الذى هو ابن آمون طيبة وزوجته موت يثير الشك عما اذا كانت الديانة المصرية قد تسللت أيضا الى روما فى الأزمنة الغابرة ؟



صخرة طاربيا فى روما القديمة عند سفح الكابيتول
حيث كان يلقى بالخونة من أعلاها

دروع جنوده وبالفعل عادت الفتاة الى القاعه وفتحت مغاليق الأبواب وتدفق السابينيون ولكنهم ألقوا عليها دروعهم الحديديه احتقارا للخائنة حتى هلكت تحت ضربات الحديد .

النساء السابينيات يتدخلن لوقف الحرب :

واحتل السابينيون تلال المدينة بينما عسكر الجيش الرومانى على التل المقابل ، ودارت رحى القتال فى السهل الذى يفصل بينهم ، وكانت المبارزات أشبه بتلك التى جرت بين الاغريق والطرواديين أمام حوائط المدينة فمثلا بارز بطل من أبطال السابينين اسـمه مينيوس كورتيوس Mettius Curitus بطلا رومانيا اسـمه هوستيوس هوسـتيليوس Hostius Hostilius وقتله عنـد بوابة المدينـة واندفـع رومولوس برجاله يطارد السابينيين،واستمر الحال بين كر وفر،دون انتصار حاسم لأحد من الطرفين ، وأخيرا تدخلت نساء الرومان السابينيات لوقف الحرب بين آبائهم وعشيرتهم وبين أزواجهم الرومان الذين أصبحوا أمهات لأبنائهم ، واندفعن صائحات لفصل الطرفين المتقاتلين موضحات عدم جدوى القتال لأنهن أصـبحن زوجات وأمهات للرومان ، وتلك ارادة القـدر . وكان توسلهن مؤثرا لدرجة أن الطرفين قبلا وقف الحرب وعقد السلام وأن يتحد الشعبان الرومانى والسابينى ، ويتزاوجا فيما بينهما مكونين شعبا واحدا يحكمه زعيم رومانى تارة وزعيم سابينى تارة أخرى بالتبـادل ، وتقاسم رومولوس الرومانى وتاتيوس السابينى العرش ، ولما مات تاتيوس أصبح رومولوس الحاكم الأوحد على الشعبين الرومانى والسابينى ، وهكذا عبرت الأسطورة عن امتزاج الشعبين .

وحكم رومولوس سبعا وثلاثين عاما ، ثم اختفى فجأة ، وروى أن صاعقة نزلت عليه من السماء فى يوم غابت شمسه ، وأظلت فيه الدنيا كالليل ، ودوى الرعد والبرق ، وزمجرت الريح ، واجتمع الآباء شيوخ العشائر فى مجلس السناتو وادعوا أن رومولوس قد صعد الى السماء وأصبح ربا يعبد(١)،وروى آخرون أن شيوخ السناتو انقضوا على رومولوس وهم

---

(١) تحت اسم كويرينيوس Quirinius

خاشع فى محراب أحد المعابد وأنهالوا عليه طعنا بالخناجر وقطعوه أربا أربا ، وحمل كل شيخ قطعة من لحمه أخفـاها تحت عباءته وادعوا أنه قد اختفى .

خلفاء رومولوس الأسطوريين :

وحاول الرومان التخلص من الحكم الملكى بعـد موت رومولوس ، ولكنهم لم يستطيعوا ادارة المدينة بدونه فلجأوا الى تعيين ملك من أصل سابينى اسمه نوما بومبيليوس (Numa Pompilius) (١) . ويروى عن هذا الملك أنه رفض فى أول الأمر قبول العرش لأنه كان يهوى حياة الحرية ، ويحيا هادىء البال فى مزرعته الريفية منكبا على دراسة الفلسفة وممارسة الشعائر الدينية ، ولما جاءته رسل السناتو تعرض الأمر عليه رفض قائلا لهم أنه رجل سلام وأنه خير لهم أن يبحثوا عن ملك يقودهم فى حروبهم ولكنهم أصروا على اختياره ملكا . وكان اختيارهم موفقا وكما يروى بلوتارخوس أن هذا الملك كسب عطف الناس وحبهم لأنه بدأ فى تحويل الشخصية الرومانية العنيفة الشرسة التى شخصية هادئة متحضرة مسالمة . كما وزع الأراضى على من لا يملكون ، وشجع الصناع على النهوض بصناعاتهم وعرضها للتجارة . كما ألغى عادة تقديم البشر كقرابين للآلهة (Human Sacrifice) ونظم سلك الكهنة وجعل له قواعد محددة ، ثم بنى معبدا للربة فستا ربة الموقد وفى وسطه أقام لها مذبحا يتوسطه موقد دائم الاشتعال طوال العام لا يطفأ الا فى اليوم الأول من شهر مارس حيث بداية السنة الرومانية القديمة (٢) لكى ينظف المصباح ثم يعاد اشعاله فى احتفال خاص .

---

(١) عن ملوك السبعة أنظر : Eutropius I, 1 — 20.

(٢) تقول الروايات الرومانية ان التقـويم الرومانى الذى وضـعه بومبيليوس كان يبدأ فى شهر مارس وكانت السنة عشرة اشهر فقط ولما وجد الملك نوما بومبليوس أن التقويم ناقص اضاف شهرين هما شهر يناير وفبراير الى أول العام القديم وليس الى آخره ، ولا يزال أثر ذلك واضحا فى أسماء الشهور الأفرنجية فمثلا شهر سبتمبر يعنى فى اللغـة اللاتينية الشهر السابع (بينما ترتيبه هو التاسع فى السنة الافرنجية) واكتوبر يعنى فىاللاتينية الثامن ونوفمبر التاسع وديسمبر يعنىالعاشر ـومن الواضحان هذه الأسماء بقيت بأسمائها القدمة حتى بعد اضافة شهرى يناير وفبراير الى

كذلك بنى الملك نوما معبدا كبيرا للرب يانوس Janus الذى سمى باسمه شهر يناير . وكان يانوس هو رب البداية ، بداية كل شىء فى الدنيا ، مثل الساعات الأولى للنهار واليوم الأول فى الشهر والشهر الأول فى السنة .. الخ . وكان لهذا المعبد عدة أبواب فى جانبه الشرقى والغربى ، وفى وقت السلم تغلق هذه الأبواب بينما تفتح أيام الحرب ، ويقال أن هذه الأبواب بقيت مغلقة طيلة الأربعة والثلاثين عاما التى حكم فيها الملك نوما ، ولكنها فتحت بعد موته وظلت مفتوحة حتى أقام الامبراطور أغسطس حكمه الامبراطورى ، أى أن روما قضت ما يقرب من سبعمائة عام فى الحروب المتواصلة وهى الفترة التى تفصل بين حكم الملك نوما والامبراطور أغسطس ، ولكى يتمكن الملك نوما من السيطرة على شعبه الجامح لجأ الى سلاح الغيبيات فملأ خيالهم بالرعب الدينى ، مدعيا أن مخلوقات عجيبة قد ظهرت له ، وأن أصواتا مروعة تصل الى آذانه . وصدق الرومان البسطاء هذه الادعاءات فرهبوا جانبه ، وزادوا عليها أنه كان على علاقة باحدى جنيات البحر تدعى ايجيريا (Egeria) التى كانت تسكن احدى عيون الماء داخل احد كهوف تلال روما . وقد علق بلوتارخوس على هذه الرواية بأنه من الصعب على الانسان أن يصدق وجود علاقة بين الملك نوما وحورية الماء ، ولكنه لايجد استحالة فى افتراض أن الملك نوما كغيره من مشاهير المشرعين ادرك ثقل المهمة الملقاة على عاتقه فى كبح جماح شعبه العنيد والمتمرد ، وادخال تغيرات كبيرة وكثيرة ، عندئذ زعم لنفسه سلطة الهيه التى — ان لم يكن هذا حقيقيا — كانت بكل تأكيد ذريعة ملائمة لصالح هؤلاء الذين طبقت عليهم .

الروايات الرومانية واصل الملوك الاتروسكيين :

ولما مات الملك نوما عادت الفوضى والشغب والحروب المتواصلة وتقول الأساطير أن ملكين خلفاه ، الأول هو توللوس هوستيليوس (Tullus Hostilius)

أول التقويم الذى طوره يوليوس قيصر ثم البابا جريجوريوس فى القرن السادس عشر ليصبح التقويم الأفرنجى الحالى وجدير بالذكر أن الرومان قسموا أيام السنة الى أيام حلال Fasti وايام النحس أو الحرام Nefasti حيث يحرم العمل ويعطل كافة النشاط فيها .

وهو رومانى ، والثانى هو أنكوس ماركوس Ancus Marcus وهو من أصل سابينى ، وكان حفيدا للملك العظيم نوما ، وبالرغم من أن انكوس ماركوس أحب السلام الا أنه لم يتردد فى قيادة الرومان فى حملات عسكرية ناجحة. وتذكره الأساطير بأنه أول من أقام جسرا يربط بين ضفتى التيبر العظيم ، أقامه من ركائز خشبية ومن ثم سماه جسر سوبليكوس (Pons Sublicius) (١) ويعنى الجسر ذو الركائز .

ويقول بلوتا رخوس أن فى ذلك الوقت قامت ثورة اجتماعية فى مدينة كورنثا الاغريقية ضد الحزب الديموقراطى الحاكم فيها ، وفر قادة الحزب هربا من انتقام الارستقراطيين الاوليجارخيين . ولم يكن امامهم سوى الهرب الى ايطاليا ، وكان من بين الهاربين تاجر ثرى وذكى يدعى ديماراتوس (Demaratus) كانت له صلات بالتجار الاتروسكيين فى ايطاليا ، ولذ هرب الى مدينة تاركوينيا (Tarquinia) الاتروسكية وأقام فيها . وهناك تزوج من سيدة من أهلها انجبت له ولدين ، مات احدهما صغيرا أما الآخر وكان اسمة لوكومو Lucumo فقد كبر وأصبح رجلا مسئولا ، وتولى ادارة تجارة أبيه . وتزوج من سيدة اتروسكية اسمها تاناكويل Tanaquil كانت من كبريات الأسر وأغناها وكانت على قدر كبير من التعليم والطموح.

أدركت تاناكويل أن لامستقبل لزوجها فى تاركوينيا لأن سكانها ينظرون اليه على أنه نصف أجنبى ، برغم ثرائه وكياسته ، وأقنعته بالهجرة الى المدينة الجديدة روما ليجرب حظه فيها حيث لا فرق بين أجنبى ومواطن ، كل يقدر حسب أعماله وقدراته . فجمعا مالهما وسافرا الى روما حاملين امتعتهم ومواشيهم ، وما أن أشرفت القافلة على تل يانيكو لم (Janiculum) (٢) بالقرب من احدى بوابات مدينة روما حتى حدث شىء غريب ، اذ ظهر نسر ضخم انقض على رأس لوكومو فخطف غطاء

---

(١) وهى كلمة مركبة من (Pons) أى الجسر و (Sublica) أى ركيزه .

(٢) وهى مجموعة التلال المتمدة على طول الشاطىء الغربى لنهر التيبر من الشمال الى الجنوب فى مواجهة الضفة الشرقية لنهر التيبر وتلال روما السبعة .

رأسه وطار بها عاليا فى السماء ، ثم راح يحوم حول عربتهما ، وهو يحدث أصواتا عالية ثم أعاد غطاء الرأس فوق رأس لوكومو واختفى عائدا من حيث أتى .

وعلت الدهشة لوكومو (١) بينما فرحت زوجته وهللت لأنها كانت تفهم لغة الطيور وحركاته فى السماء ، كبقية قومها الأتروسكيين ، وروت له أن هذا النسر ما هو الا رسول السماء لانه ملك الطير ، وقالت أنه يرمز الى قرب وضع تاج الملك فوق رأسة . وفرح الزوجان لهذا الفال الحسن وسارا فى طريقهما واجتازا بوابة العاصمة . وهناك نزلا بأحد أحياء روما الجميلة واشتريا منزلا كبيرا . واضطر لوكومو الى تغيير اسمه الى لوكيوس تاركوينيوس (Lucius Tarquinius) وفيما بعد عرفة التراث الشعبى باسم لوكيوس تاركوينيوس بريسكوس (Priscus) أى الكبير ، تمييزا له عن احد خلفائه الذى تسمى بأسمة . وعلى أى حال فقد اقام تاركوينيوس سعيدا فى روما ، وسرعان ما ذاع صيته حتى أصبح صديقا للملك أنكوس ماركوس الذى كان لايزال على قيد الحياه وبعد موته صدقت النبوءة واختاره خليفة له .

جعل تاركوينيوس حكمه حكم سلام ، فأدخل الحضـارة والرقى والتمـدن الى روما ، وجعل سـكانها يتعلمون من اجـدادة الاغريق والأتروسكيين ، فقام بتجفيف المستنقعات ، وجعل المدينة تبدو جميلة . ووضع أساس معبد كبير وجميل ، ووسع الميدان الذى كانت تقام فيه المهرجانات والأعياد ، وأدخل علم رؤية الطالع عن طريق رصد حركات الطيور . وتروى الحكايات الشعبية ان نهاية تاركوينيوس كانت حزينة فقد اغتاله أبناء الملك أنكوس ماركوس لأنه اختار خليفة له دونهم ، اذ اختار شابا اسمة سرفيوس تولليوس (Servius Tullius) لايعرف له أصل،وتضاربت الأقوال عنه،فقيل انه ابن عبدة لاتينية وقيل انه اتروسكى الاصل اسمة الحقيقى ماستارنا Mastarna ، ولكن القتلة لم ينجحوا فى

---

(١) ويرى البعض انه لفظ يطلق على الحاكم عند الاتروسكيين ، تماما مثل الفرعون عند المصريين والمينوس فى كريت .

الوصول الى الحكم لان الملكة تاناكويل اخفت نبأ موت زوجها حتى تمكن سرفيوس من تأمين العرش •

سرفيوس توLLيوس احكم ملوك روما :

تروى الأساطير الرومانية ان سرفيوس توLLيوس كان احكم ملوك الرومان واشدهم حبا للعدل • وفى خلال حكمة الذى بلغ أربعا وأربعين عاما لم يدخل حربا الا فيما هو ضرورى ، لأنه كان محبا للسلام ولنشر المدنية والتقدم • اذ وسع حدود المدينة واحاطها بأسوار عالية ، وأنشأ بها بعض المرافق العامة • كما أنه عدل من قوانينها فجعلها أكثر رحابة واتساعا ، لأنه اعطى للطبقات الدنيا من الشعب الرومانى بعض الحقوق وقدرا كبيرا من الحرية فى التعبير عن أنفسهم • وتقول الروايات الرومانية أن نهاية توLLيوس كانت هى الأخرى حزينة اذ سقط صريعا نتيجة لمؤامره غادرة دبرها أحد أحفاد لوكيوس تاركوينوس بريسكوس ويدعى تاركوينيوس، وقيل أن هذا الأخير كان متزوجا من ابنة الملك القتيل وكانت تدعى توليا (Tullia) وكانت امرأة طموحا وشريرة لأنها هى التى حرضته على ارتكاب هذا الجرم الشائن ، وقيل انها دفعت عربتها الى ميدان المدينة العام أو الفورم لتهنىء زوجها بالعرش ، ولما طلب منها زوجها العودة الى المنزل عادت مسرعة ولكن فى طريقها عند التل الأسكويلينى (Esquilinus) وقعت عيناها على جسد أبيها المسجى طارقا فى بحيرة من الدماء ، فأشاحت بوجهها عنه وهى تحث سائق عربتها بأن يسرع ويلهب الجياد بالسياط ، وعادت الى البيت وعجلات عربتها ملوثة بدماء أبيها •

هكذا تولى تاركوينوس المتغطرس (Tarquinus Superbus) كما لقبوه — العرش بمؤامره دنيئه • وكان أول قرار منه هو حرمان الملك القتيل من شعائر الدفن ، ولما لفت الكهنة نظره الى قسوة القرار أجاب « أن رومولوس نفسه لم يجبر أحدا على طقوس الدفن » •

كان تاركوينوس المتغطرس صقر حرب ، لم يكف أبدا عن اشعالها طيلة حكمه الذى بلغ خمسا وعشرين عاما ، ولكنه كان عسكريا ماهرا كما كان بناء ومعمرا للمدينة ، فكان أول من بنى معابد لثلاثة من آلهة

الأتروسكيين والرومان هم جوبتر Jupiter (المعادل لزيوس الاغريقى) وزوجته جونو (Juno) (المعادلة للربه هيرا الاغريقية) ومنرفا Minerva (المعادلة للربة الاغريقية أثينا) وكان جدة تاركوينوس الكبير قد شرع فى بنائها (١) .

حكاية ظهور سيبيل العرافة :

وتروى الأساطير الرومانية أن حادثا هاما حدث أثناء حكم تاركوينوس المتغطرس هو ظهور النبية الرومانية « سبيل » (Sibyl) التى جاءت اليه حاملة تسعة كتب دينيه قالت أنها تحوى أسرار ومستقبل الشعب الرومانى ، وطلبت ثمنا باهظا مقابل هذه الكتب التسعة . ورفض الملك دفع ذلك الثمن الباهظ . ولكنها عادت بعد فترة وجيزة بست منها فقط وطلبت نفس الثمن فرفض الملك بحجة كيف يدفع ثمنا باهظا كان لكتب تسعة مقابل كتب ستة فقط ، فعادت سبيل من حيث جاءت ولكنها ظهرت مرة ثالثة وهى تحمل ثلاثة منها فقط وطالبت نفس الثمن الباهظ بعد أن أحرقت الكتب الستة الأخرى ودهش الملك لهذا التصرف الغريب وسأل العرافين المشورة فنصحوه بدفع الثمن الذى تريده والحصول على هذه الكتب ، وأنه ارتكب خطأ كبيرا فى عدم دفعه المال الذى تريده منذ اليوم الأول الذى ظهرت فيه ، لأن هذه الكتب تحوى أسرارا دينية فى غاية الأهمية لمستقبل روما والشعب الرومانى . ونفذ الملك نصيحتهم على الفور ودفع للنبيه ما تريد وحصل على الكتب الثلاثة التى حفظت على الفور فى تابوت من الحجر وضع فى حجرة بنيت خصيصا فى سفح تل الكابيتول وتقول الأساطير الرومانية أن هذه الكتب بقيت ألف عام يستخدمها الكهنة ويلجأون اليها عند الاحداث الكبرى والأزمات القومية الخطيرة .

الرواية الشعبية لطرد تاركوينوس واعلان الجمهورية :

بعكس نهاية من سبقوه ، كانت نهاية تاركوينوس مسالمة . اذ طرد

---

(١) من المؤكد ان عبارة هذا التالوث الرومانى جاءت الى روما عن طريق الاتروسكيين وليس نقلا عن الاغريق مباشرة . اذ وجدت آلهة اتروسكية مماثلة لآلهة الرومان .

ولم يقتل ، ويروى الرومان أن السبب فى طرده هو سلوك ابنه الشائن الذى كان يدعى سكستوس (Sextus) ، اذ ارتكب سكستوس عملا فاحشا عندما اغتصب سيده رومانية تدعى لوكريتيا كانت زوجة لنبيل يدعى لوكيـوس تاركوينـوس كوللاتينـوس (Lucius Tarquinus) Collatinus وابن عم أبيه . ولم تسكت هـذه السـيدة على الفعل الفاحش فقتلت نفسها واعترفت وهى تلفظ أنفاسها لزوجها ولصـديقة بروتوس (Brutus) بحادث الاعتـداء عليها وأوصتهما بالانتقـام من « الوغد سكستوس » . وعندئذ أسرع هذان النبيلان الى حمل السلاح ضد هذه الأسرة الحاكمة (١) . ولكن الملك تاركوينوس وابنه سكستوس كانا خارج روما فلما عادا أغلق الرومان بوابة المدينة فى وجههما عندئذ التجأ تاركوينوس وأسرته الى الأتروسكيين طالبين الحماية .

وبعد انتهاء الملوك السبعة الذين حكموا روما (Septem Reges) Romae ، قرر الرومان الغاء نظام الملكية التى كرهوها وأصبحت كلمة ملك (Rex) (٢) لفظا مكروها فى الحكم معادلا للفظ « طاغية (Tyrannus) عند الاغريق » .

ومن ثم قرر الرومان اعتبار الحكم فى بلادهم أمرا عاما (Res Publica) أى جمهوريا ، ويتولى الحكم قنصلان (Duo Consules) ينتخبان سنويا ولمدة عام واحد من قبل الشعب مباشرة (٣) . وكان أول قنصلين انتخبا هما كوللاتينوس وبروتوس زعيما الثورة ضد الملك المتغطرس .

---

(1) cf Livy I, 57 — 60.

(٢) وبالرغم من هذا بقيت هذه الكلمة فى سلك الوظائف الدينية فقط ففى حالة موت القناصل أو استقالتهما أو بطلان انتخابهما كان الرومان يعينون ملكا مؤقتا Interrex لرئاسـة الجمعية العـامة (Comitia) التى كانت تشرف على انتخاب القنصليين وذلك لمـدة خمسة أيام فقط لا يجوز مدها اطلاقا بل يجوز تعيين ملك مؤقت آخر بعد الخمسة أيام عند الضرورة .

(٣) ربما استقى الرومان هذا التغيير من الدستور الأسبرطى الذى كان يفرض تعيين ملكين لا ملك واحـد ولكن بالوراثة وليس بالانتخاب . ونلاحظ أن سلطة الملك فى اسبرطة كانت محـدودة وكان كل ملك يراقب الآخر ويعترض عليه ويجوز تقديم الملك الى المحاكمة اذا اخطأ وهو نفس الشىء الذى كان يحدث لقناصلة روما .

ويكاد علماء التاريخ الرومانى يتفقون على أن هذه الثورة واعلان الجمهورية حدث بالفعل عام ٥١٠ (أو ٥٠٩ ق • م) ويعتبرونه تاريخا لقيام الجمهورية الرومانية •

الاتروسكيون يحاولون اعادة الملك بالقوة الى العريش :

وتقول الروايات أنه كان للملك تاركوينوس المطرود أصدقاء كثيرون من الأتروسكيين فرجاهم مساعدته فى العودة الى العرش ، وسرعان ماجهز الأتروسكيون جيشا كبيرا زحف على العاصمة روما ، وازاء هذا الجيش الغازى أدرك الرومان أن نظامهم السياسى الجديد فى خطر ، فهبوا للدفاع عنه • وكان يقود الجيش المعادى زعيم تحالف المدن الاتروسكية ويدعى لارس بورسينا (Lars Porsena) • وكان لارس بورسينا يتمتع بشهرة عسكرية كبيرة بين الاتروسكين والرومان على السواء • واضطر القنصلان الجديدان الى ملاقاة هذا الجيش وخاضا ضده أولى المعارك وأصبح هذان القنصلان أول قنصلين يقودان جيشا للحرب ضد العدو •

حكاية هوراتيوس البطل :

وتروى ملاحم البطولة الرومانية شجاعة الرومان وبلاءهم فى هذه الحرب وصدهم للمعتدين ، وكيف أن شيوخ روما تباحثوا الأمر مع القنصلين وقرروا تدمير الجسر الذى كان يربط بين ضفتى نهر التيبر حتى يعيقوا مرور الجيش الاتروسكى ولا يعطوه فرصة للعبور واحتلال روما • ووضعت خطة هى ارسال متطوعين لمناوشة طلائع الجيش الاتروسكى حتى يتمكن الجنود الرومان من هدم الجسر ، وكما تقول ملاحم البطولة برز حارس بوابة روما وكان يدعى هوراتيوس متطوعا ومعه شابان هما سبوريوس لارتيوس (Spurins Lartius) وصديقه هرمينيوس (Herminius) • وراح الأبطال الثلاثة يناوشون طلائع الجيش الاتروسكى وسط سخرية لارس بورسينا وضحكاته ولكنه عرف بعد لحظات أنهم أبطال حقيقيون وتمكنوا بالفعل من صد طلائع جيشه واضطروه الى التراجع • وبينما كان الجسر يتصدع نادى الرومان من الجانب الآخر للنهر على هوراتيوس وصديقه للعودة قبل انهياره •

وسارع صديقاه وعبرا في آخر لحظة أما هوراتيوس فلم يعبر وظل يقاتل الأتروسكيين حتى نزفت دماؤه ، وأعجب لارس بورسينا من شجاعته . وطلب منه أن يستسلم مقابل ضمان حياته . ولكن الفتى الروماني الشجاع رفض وألقى بنفسه وسلاحه في نهر التيبر ، وظل يسبح وعيون الأتروسكيين والرومان ترقبه ، وكاد يغرق بسبب ضعفه وثقل سلاحه ولكنه ظل يصارع الأمواج حتى وصل الى قرب الشاطيء ، وهناك تلقفته آلاف الأيدي الرومانية وأخرجته من الماء . حيث توج كبطل الأبطال وظل في وجدان الشعب الروماني بطلا .

وتستطرد الأساطير قائلة أن لارس بورسينا قفل راجعا بعد أن أعجب بشجاعة الرومان وتقول بعض الأساطير أن بورسينا احتل المدينة بالفعل ولكنه عاد وتركها .

هذه هي الأساطير الوطنية الرومانية التي كانت تقرأ في كتبهم التعليمية (١) ، والأساطير الرومانية جزء غني من التراث الفكري الروماني الذي تناقلته الأجيال عبر الأجيال . ومن هذه الأساطير والتراث استقى شعراء وفنانو الرومان ، بل وشعراء أوروبا وكتابها وفنانوها ، على مر العصور الهامهم وخيالهم . وقد تبدو لنا هذه الأساطير ساذجة ومضحكة ولكن الرومان كانوا يعتقدون أنها كانت حقيقية . وان تاريخهم المقدس بدأ بها . كما أنها كانت تشكل أفكارهم وعاداتهم بل ونظرتهم الى السياسة ومشكلة الحكم . فكانت الأمهات يروين للأبناء هذه الأساطير منذ المهد . وعندما كانوا يكبرون كانوا يتعلمونها في المدارس وعندما يصبحون رجالا يقرأونها في أعمال كتابهم وشعرائهم وفلاسفتهم .

هذا هو تراث الرومان الذي منه تكونت ثقافتهم العظيمة ، تراث

---

(١) كلمة أسطورة باللاتينية هي (Legenda) وهي مشتقة من الفعل Legere أي يقرأ ومن ثم تعني الكلمة المقروءة أو المسطرة للقراءة

يتيه بالكبرياء والوطنية والشجاعة وأصل الشعب وتاريخه ومستقبله ، تراث يمجد البطولة والفضيلة (١) والبساطة والتقوى (Pietas) وضبط النفس والصبر والتحدى ، بل والعناد ، هذه الصفات هى التى جعلت الرومانى يحس بأنه خلق ليحكم العالم • وقد كان •

وجدير بالملاحظة أنه بينما كانت الأساطير الاغريقية تحلق فى سماء الخيال بعيدا عن الواقع وعن الأهداف الوطنية القومية للشعب الاغريقى نجد الأساطير الرومانية تتجه الى خدمة قيام الدولة المتحدة سياسيا وبناء المواطن العظيم الذى عليه تقوم هذه الدولة العظيمة وتنفخ فى صورته وتنمى فيه روح الكبرياء والأستعلاء والتفوق ، وتجعل من الماضى نموذجا اسمى للحاضر وتحول المثل والفضائل الى روايات شعبية محببة الى الناس حتى يتشبهوا بالأبطال العظام • وربما أثرت عقلية الرومان الواقعية وميلهم الى المادية النفعية والعملية ووعيهم التام بمفهوم السياسة والدولة فجعلهم يبتعدون عن الأساطير المجردة ويفضلون عليها الروايات الشعبية ذات الرسالة الوطنية والقومية (٢) •

---

(١) كلمة رجل باللاتينية هى Vir ومنها اشتقت كلمة شجاعة اى ان الشجاعة من صفات الرجل الأساسية .

(٢) عن أهمية هذا التراث القديم أنظر :

cf Luigi Pareti, Storia di Roma,

Torino, 1952 = **Donald Kagan** : Problems in Ancient History, Vol. 2. The Roman World, Macmillan Company, New York, Second Reprint (1967), PP. 18 — 12.

الفصل الثالث

فجر التاريخ الرومانى

لقد رأينا فى الفصل السابق التاريخ المقـدس الذى تخيلته الروايات والأساطير الرومانية لنشأة روما . ولهذا فان الباحث سوف يفاجأ فى هذه المرحـلة بتاريخ غامض مغلف بالخرافات ومن ثم وجب علينا استعراض التاريخ الذى تخيله المؤرخون الرومان للفترة المبكرة من تاريخهم . ولكن قبل أن نفعل ذلك وجب علينا الحديث عن مؤرخى روما القدماء الذين عالجوا هذا الموضوع فى كتاباتهم لأنهم مهما كتبوا فهم مصدرنا المقروء والأساسى لتاريخ الشعب الرومانى (1) .

مؤرخو روما الاقدمين :

وأقدم المؤرخين الرومان الذين نسـمع عنهم هو فابيوس بكتـور (Fabius Pictor) الذى ازدهر عام ٢٢٥ ق . م وأصبح مشـهورا وكتب باليونانية سجلا لتاريخ روما منذ اينياس حتى عهده . وبعد ذلك بزمن قصير كتب ماركوس بروكيوس كاتو (Marcus Procius Cato) مؤلفا عن أصل المدن الايطالية وتاريخ روما منذ ملوكها السبعة حتى عام ١٤٩ ق . م . ولما كان هذا المؤلف أول مؤلف كتب عن تاريخ روما باللغة اللاتينية فقد أعطى أهمية كبيرة ، ولكن للأسف لم يصل الينا كلمة واحدة منه لأنه فقد . وتلى ذلك العديد من المؤرخين الذى تناولوا تاريخ روما المبكر أو غسق التاريخ الرومانى حتى ظهر اساطين المؤرخين الرومان فى القرن الأول قبل الميلاد وأبان القرن الأول الميلادى . وعلى رأس هؤلاء

(1) Cf. Luigi Pareti, op. cit. p. 57 = Kagan, op. cit. p. 21

المؤرخين يجيء تيتوس ليفيوس (Titus Livius) الذى عرفه الأوربيون باسم ليفى أوتيت ليف اختصارا لاسمه (١) .

وقد نشر ليفيوس مائة واثنين وأربعين جزءا لم يتبق لنا منها سوى خمسة وثلاثين جزءا ، وقد سجل ليفيوس كل الأساطير المبكرة التى رواها بكتور وغيره من كتاب السجلات القديمة ، بالرغم من أنه ادرك أن التاريخ الذى كتبه من سبقوه تطغى عليه الرومانسية والخيال الشاعرى فتلوث الحقيقة التاريخية ، ولكنه يجد عذرا لذلك فى قوله « على المرء الا ينتظر الدقة عندما يعالج موضوعات حدثت فى وقت ضارب فى القدم كهذا » .

ولقد أجمع هؤلاء المؤرخون الرومان على أن تاريخ تأسيس مدينة روما هو عام ٧٥٣ ق . م . وهو يوافق المهرجان الأولمبى السادس واستخدموه فى تسجيل التواريخ القديمة فيقولون عام كذا قبل تأسيس المدينة (Ab urbe condita) (٢) ولكن الطريقة المتبعة عند المؤرخين الرومان هو استخدام تاريخ تولى القناصل لمناصبهم (٣) لأن نظام استخدام قبل الميلاد (B.C.) (٤) وبعد الميلاد . (Anno Domini) A.D. لم يستخدم الا منذ القرن السادس الميلادى (٥) .

---

(١) الأولى بالانجليزية Livy والثانية بالفرنسية Tite Live عاش ليفيوس ما بين ٥٩ ق . م . — ١٧ م وكتب تاريخ مدينة روما منذ تأسيسها وحتى العام التاسع قبل الميلاد ويعتبر تاريخ ليفيوس أهم مصدر من مصادرنا عن هذه الفترة المبكرة المليئة بالروايات الخيالية .

(٢) واحيانا يذكر منذ عام تأسيس المدينة Anno urbis conditae

(٣) وهى نفس الطريقة المستخدمة فى التاريخ اليونانى اذ كانوا يكتبون فى العام كذا من تولى الملك كذا .. او الاستراتيجوس كذا . حدث كذا

(٤) تعنى بالانجليزية Before Christ (اى قبل المسيح) . Ante Christo بالايطالية او بالفرنسية Avant Christe أما A.D.Anno Domini فهى تعنى فى عام مولانا (يسوع) .

(٥) أول من ادخل هذه الطريقة هو احد كبار الرهبان Abbot يدعى ديونيسيوس Dionysius الصغير وهو رومانى ولم ينتشر استخدامه فى أوروبا الا بعد ذلك بقرنين او ثلاثة قرون على الأقل . اى مابعد القرنين الثامن والتاسع الميلادى .

٢ — علم الآثار يعطى ابعادا حقيقية للتاريخ الرومانى :

على أى حال يمكن استخراج عدة حقائق من بين الأساطير مثل العناصر السكانية التى تكون منها الرومان ، فقد ذكرت الأساطير هجرة بعض القبائل من آسيا الصغرى واختلاطهم بأهل البلاد الأصليين من سكان سهل لاتيوم ثم الاختلاط بالقبائل الايطالية المجاورة وشعب الأتروسكين فى الشمال والذى كان بدوره على معرفة بالاغريق والحضارة الاغريقية وهم الذين جلبوا هذه الحضارة الى الرومان لأن الاغريق الذين أجادوا ركوب البحر لابد وأن يكونوا قد وصلوا الى شواطىء ايطاليا منذ أيام الموكينيين أجداد الاغريق الأول ، ولقد ثبت بالدليل القاطع وجود آثار موكينيه فى صقلية وجزيرة اسكيا شمال غرب روما منذ النصف الثانى للألف الثانى قبل الميلاد ، بل ليس من المستبعد أن يكون أهل كريت قد سبقوا الموكينيين فى الوصول الى صقلية فى النصف الثانى من الألف الثانى قبل الميلادى . لقد أعطى علم الآثار تاريخا أبعد بكثير من التاريخ الذى تخيله المؤرخون الرومان وهو ٧٥٣ ق . م . (١) .

مثلا أثبتت الحفائر أن أقدم انسان سكن الكهوف فى صقلية وايطاليا فى العصر الحجرى القديم (Palaeolithic) يرجع الى تاريخ قدره العلماء على وجه التقريب بالألف العاشر قبل الميلاد ١٠٫٠٠٠ ق . م . وكان سكان ايطاليا فى العصر الحجرى القديم يعيشون على جمع الثمار وصيد الأسماك والحيوانات وعرفوا النار ولكنهم سكنوا الكهوف الجبلية .

لقد كان المؤرخ الرومانى العظيم تيتيوس ليفيوس يعتقد أن التاريخ الرومانى يبدأ قبل سبعة قرون قبل مولده أى منذ منتصف القرن الثامن قبل الميلاد (٢) . وكان يتخيل أن هذا التاريخ هو أبعد ما يمكن أن يذهب اليه ذهن المؤرخ فى ذلك العصر ولكن علم الآثار كشف عن حقيقة مغايرة

---

(١) من احسن المراجع عن التاريخ المستخرج من الواقع الأثرى :
R. Beloch, The Origins of Rome, New York, 1960, (especially pp. 85-100)

حيث تحاول تغطية الفترة ما بين ٧٠٠ ق . م . وحتى ٥٥٠ ق . م .

(٢) كان مومسن أول من طالب باهمال هذا التاريخ الأسطورى ولكن المؤرخين المحدثين يروون انه يمكن الاستفادة من هذا التراث التاريخى

وهو أن استيطان ايطاليا بدأ منذ أكثر من ألف عام قبل هذا التاريخ ، اذ كشفت الحفائر الأثرية عن بعض أنواع الأسلحة الحجرية تثبت وجود سكان فى ايطاليا منذ الالف الثانى ق • م واستمر الاستيطان عبر عصر النحاس والبرونز • كذلك أخرجت الحفائر أوانى فخارية من هذا العصر فى الطبقة الأولى فى المنطقة المجاورة لنهر التيبر • وهى من أهم المناطق التى نشأت فيها الحضارة لأن نهر التيبر هو أكبر الأنهار فى غرب شبه الجزيرة الايطالية • وهو المنفذ الوحيد الذى يربط بين البحر الابيض وعمق البلاد • كما أن هذا النهر قد كون على مر العصور سهلا بركانيا غنيا أضفى عليه النهر أهمية استراتجية فهو بعيد عن البحر بقدر يحميه من عدوان الشعوب البحرية والقراصنة وهو فى نفس الوقت قريب من البحر المتوسط تلك البحيرة التى نشطت بالتجارة والرحلات البحرية • كما أن سهل لاتيوم كان يربط بين جنوب ايطاليا وشمالها عن طريق طرق القوافل التى تمر به •

وأصبح الآن معروفا أن الاستيطان الأول لسـهل لاتيوم بدآ قرب مجموعة التلال الجبلية التى يترواح ارتفاعها بين مائتين ومائة وخمسين قدما والتى تقع على مقربة من نهر التيبر وعلى مقربة من هذا المكان كانت هناك أيضا مجموعة أخرى من التلال استوعبت مع المنطقة داخل مدينـة روما عندما أسست وأصبحت داخل حدود أسوراها ومن ثم عرفت روما بأنها المدينة ذات التلال السبعة (Septem montes Romae)

٣ ـ الحضارات المبكرة فى ايطاليا :

اولا ـ العصر الحجرى القديم والجديد :

لقد خبرت ايطاليا مثل غيرها من العالم القديم سلسـلة طويلة من الهجرات قبل أن تتشكل الملامح الراسخة لشخصية سكانها القدماء •

بالرغم من لا معقوليتها الا انها مصدر اشتق من مصادر أدرى القدماء بها • وبها بعض الحقائق المفيدة •

Plinio Fraccaro, «History of Rome in the Regal Period, JRS, 47 (1957) pp. 59-56 = Kagan, op. cit, pp. 21-29.

(١) وجدت انه من الأفضل ان أوجز تاريخ هذه الفترة لانهـا تهم الاثرى المتخصص فى تاريخ ايطاليا اكثر مما تهم طالب التاريخ الرومانى العام

ويعتقد علماء حضارات ما قبل التاريخ أن الانسان المفكر أو العاقل (Homo-Sapiens) ظهر فى ايطاليا منذ خمسين الف سنة قبل الميلاد عندما ذاب الجليد وبدأ الدفء وبدأ انسان ذلك العصر يعيش على صيد الحيوان وجمع الثمار مستخدما الحجر غير المشذب كسلاح له ولهذا سميت هذه الحقبة المبكرة بالعصر الحجرى القديم (Palaeolithic) ولم يترك انسان تلك الفترة سوى بضع أسلحة وآلات من حجر الصوان والحجر البلورى . كما عثر المنقبون الايطاليون على بقايا من الهياكل العظمية فى صقلية وشمال ايطاليا . ويعتقد العلماء أن ملامح ووسائل حياة انسان العصر الحجرى القديم استمرت حتى ظهرت ملامح حياة جديدة أطلقوا عليها العصر الحجرى الجديد ..

ويحدد العلماء عمر هذه الحضارة ما بين ٥٠٠٠ ــ ٢٠٠٠ ق ، م عندما ساد ايطاليا وحوض البحر المتوسط وأواسط أوربا طريقة معيشة وحضارة بدائية تستخدم أيضا الحجر ولكن بعد شحذة وتهذيبه . وأن هذه الحضارة جاءت نتيجة لتطور الحياة السابقة وليس بشرطا أن تكون نتيجة لهجرة جديدة لان عنصر الاستمرارية موجود بين العصر الحجرى القديم والجديد بشكل واضح ، وقد نشأت الحضارة الجديدة فى أماكن متفرقة وكانت قريبة الشبه من حضارات الشرق الأدنى خلال نفس العصر .

على أى حال ، فقد ظهر فى ايطاليا عنصر سكانى ، اتفق العلماء على تسميته برجل البحر المتوسط ويعتقد العلماء أن هذا العنصر البشرى دخل ايطاليا من شمال افريقيا عبر مالطه وصقلية كما تسللت نفس العناصر البشرية الى أسبانيا عن طريق جبل طارق ثم اجتاحت سواحل أسبانيا وفرنسا الى أن وصلت الى شمال ايطاليا .

وقد أمكن لعلماء الآثار تتبع حضارة انسان البحر المتوسط فى العصر الحجرى الجديد الممثلة فى بعض الاوانى الفخارية والاسلحة ، وأنه كان يعيش على جمع الثمار وصيد الحيوانات بالرغم من أنه عرف الزراعة والرعى . وأنه كان يقيم فى الكهوف ثم سكن الاكواخ المستديرة المبنية

= كما انها لاتزال محل جدل لاعتمادها على التفسير الاثرى ولمن يريد المزيد يمكن الرجوع الى ابراهيم نصحى ــ المرجع السابق الجزء الأول من ص ٢٣ ــ ٤٤ .

من الطين والاعشاب وأقام حظائر للماشية • كما كانوا يدفنـون موتاهم مع بعض متاعهم مما يشجعنا على الاعتقاد بأدراكهم لفكرة الحيـاة الأخرى وقد شمل جنس البحر المتوسط فيما بعد عدة خصائص عنصرية أخرى مثل الكلتيين ، وسـكان الشرق الأدنى والأغريق ، والقبائل التيوتونية والقوط والفرنجه •

ثانيا : عصر النحاس ٢٠٠٠ ق • م :

(ا) حضارة البالافتى : Palafitte

وبينما كان الشرق الأدنى يشـهد موجات مـن هجـرات القبـائل الحيثية (Hittites) ، والايرانية ، والاغريقية ، كان هناك عنصر ينتمى أيضا الى العنصر الهندو ــ أوروبى يندفع جنوبا عبر منافذ الالب ليستقر فى سهولة ايطاليا الغربية • وكان هؤلاء المهاجرون الجدد يتحدثون لغـة هندو ــ أوروبية أيضا • وكانوا يعرفون النحاس ويستخدمونه فى أدواتهم وأسلحتهم ، وكانوا يسكنون وسط البحيرات عن طريق بناء أكواخ مقامة على ركائز خشبية ، ويمارسون صيد السمك بحرا ، وصيد الحيوانات برا ، كما عرفوا الزراعة وتربية الحيوانات وما يميز مظاهر حياة سـكان الركائز المائية (Palafitte) عن سـكان العصر الحجرى الحديث هو أن هذه الشعوب كانت تحرق موتاها ولا تدفنها • وقد عثر المنقبون فى أماكن اقامة هؤلاء العناصر على كميات من حجر الكهرمان ممـا شجع العلماء على الاعتقاد بأن هؤلاء الاقوام عرفوا ومارسوا التجارة عبر منافذ الالب ولم يمض وقت طويل حتى اندمج سكان البحيرات مع جيران جدد لهم ايضا طريقة حياة مميزة •

(ب) حضارة الترراماري (Terramare) ١٥٠٠ ق • م • :

كان الترراماريون أيضا من سكان عصر النحـاس • وقد ظهروا فى سهل البو ، وتعتبر حضارتهم امتدادا لسكان وسط أوروبا عبر الألب • وقد سكنوا السهول وبنوا اكواخهم ايضا على ركائز خشبية • وقد اطلق العلماء المحدثون على حضارتهم اسم الترراماري أى الأرض الجيدة تلميحا الى حسن اختيارهم للسهول ذات التربة وكانوا متقدمين فى الزراعـة

واستخراج واستخدام النحاس ، وتربية قطعان الماشية والجياد المدربة ويعرفون الكثير من الفواكة والبقول والحبوب والأسلحة • وأحيانا يشار الى حضارتهم بأسم حضارة الابنين (Apenninic Culture) ويقترح العلماء الايطاليون أن بقايا هذه الحضارة خاصة فى مجال اللغة ورثها الصقليون (Sicels) واللاتين وغيرهم من القبائل الايطالية • كما كانوا يحرقون موتاهم مثل سكان البحيرات حيث كانوا يحتفظون برفات موتاهم بعد حرقها ، فى جرار فخارية تدفن فى مقابر مع قليل من المتاع الشخصى ، وربما يدل ذلك على عدم اعتقادهم فى الحياة الأخرى بعكس سابقيهم •

(ج) وصول الحضارة الموكينية ١٥٠٠ — ١١٠٠ ق • م • :

فى هذه الاثناء وكما اثبت الأثريون الايطاليون أن الموكينين الاغريق الذين عرفوا التجارة غربا حتى شواطىء ايطاليا (١) هم أول من حمل التجارة غربا اليها وأول من أقاموا مستوطنات لهم هناك • ولم يكن الموكينيون وحدهم الذين عرفوا ايطاليا بل سبقتهم كريت وجزر بحر ايجة • وكانت صقلية وسردينيا من أهم المناطق التى ظهرت فيها معالم الحضارة الموكينية خلال عصر النحاس والبرونز • اذ لاحظ العلماء وجود بقايا قلاع،وابراج،وحوائط ضخمة،مثل تلك التى اشتهر بنائها الموكينيون ويعرفها الايطاليون المعاصرون اليوم باسم (Nuraghi) تشبيها بقلاع وابراج العصور الوسطى •

وهكذا عرف سكان صقلية وسردينيا خلال عصر البرونز ملامح الحضارة الموكينية عن طريق التجارة معهم وربما اقاموا هذه التحصينات والقلاع تحت الحاح حاجتهم الى الدفاع عن انفسهم،خاصة بعد ان ساد حوض البحر المتوسط الغربى نشاط بحرى شديد •

ثالثا : حضارات عصر الحديد :

جاء الانتقال من عصر النحاس والبرونز الى عصر الحديد تدريجيا

---

(١) سيد احمد على الناصرى — اضواء على الحضارة الموكينية — حوليات كلية الآداب جامعة القاهرة المجلد التاسع والعشرون ١٩٦٦ (القاهرة ١٩٧٣) ص ٩٦ وما بعدها •

وأن هذا التحول تم فى ايطاليا حوالى عام ١٠٠٠ ق ٠ م ٠ كانت شعوب الشرق الأدنى هى أول من عرف الحديد ، ومن الشرق الأدنى عبر البلقان وبحرا عبر جنوب ايطاليا ، دخل هذا المعدن الجديد الى شبه الجزيرة الايطالية ، قرب نهاية الالف الثانية قبل الميلاد ٠ كما يعتقد العلماء ان الحديد ربما جاء مع هجرة شعب جديد ينتمى الى الاسرة الهندو أوروبية ويمارس حرق موتاه ، تسلل تدريجيا من شمال ايطاليا ثم انتشر غربا وجنوبا ، كما دخلت حضارة عصر الحديد أيضا من البحر المتوسط جنوبا وتسللت شمالا ٠ وهذا العنصر الجديد عرف باسم حضارة الڤيلانوڤيين ٠

حضارة الفيلانوفيين (١٠٠٠ — ٧٥٠ ق ٠ م ٠) :

عمم العلماء اسم قرية فى بولونيا تدعى ڤيلانوڤا (Villanova) على حضارة هذا العصر حيث وجد فيها آثار لحضارة عصر الحديد٠وقد انتشرت هذه الحضارة من الشمال الى الجنوب عبر اتروريا (توسكانيا) وبعض مناطق سهل لاتيوم ، ويميل العلماء الى تقسيم الحضارة الڤيلانوڤية الى شمالية : أى جاءت مع هجرة القبائل الهندو أوروبية الذين كانوا يتحدثون لغة أيضا هندو أوروبية ويمارسون عادة حرق الموتى ، وجنوبية ، جاءت مع المهاجرين من الشرق عبر جنوب ايطاليا عن طريق البحر المتوسط ٠

وتتميز آثار الڤيلانوڤيين الشمالية بالأوانى الفخارية ذات الشكل المخروطى (Diconical) والتى كانوا يضعون فيها رفات موتاهم ويزينونها بالرسومات الجيومتريه (الهندسية المجردة) ، وكذلك بصناعة الادوات الحديدية المزينة بنفس النوع من الرسومات ٠ كما عرفوا العربات ذات العجلات الحديدية ، ويبدو أنهم بادلوا صناعاتهم من الحديد الذى يكثر فى مناجم ايطاليا ، بالادوات الزجاجية والكهرمانية ، مما يدل على نشاط تجارى مع الشرق ومع وسط أوروبا ٠

أما الحضارة الڤيلانوڤية الجنوبية فقد اتجهت بالرغم من تشابهها الحضارى العام مع التيار الشمال الحضارى الى الاستفادة من خبرات الشرق ومهارة صناعاته ، كما أن اهلها ظلوا يمارسون عادة دفن موتاهم مما يدل على تمسكهم بالاعتقاد بالحياة الأخرى ، بالرغم من أن بعضهم ظل يحرق موتاه ويحتفظ برفاتهم فى جرار مستديرة الشكل أشبه بالاكواخ

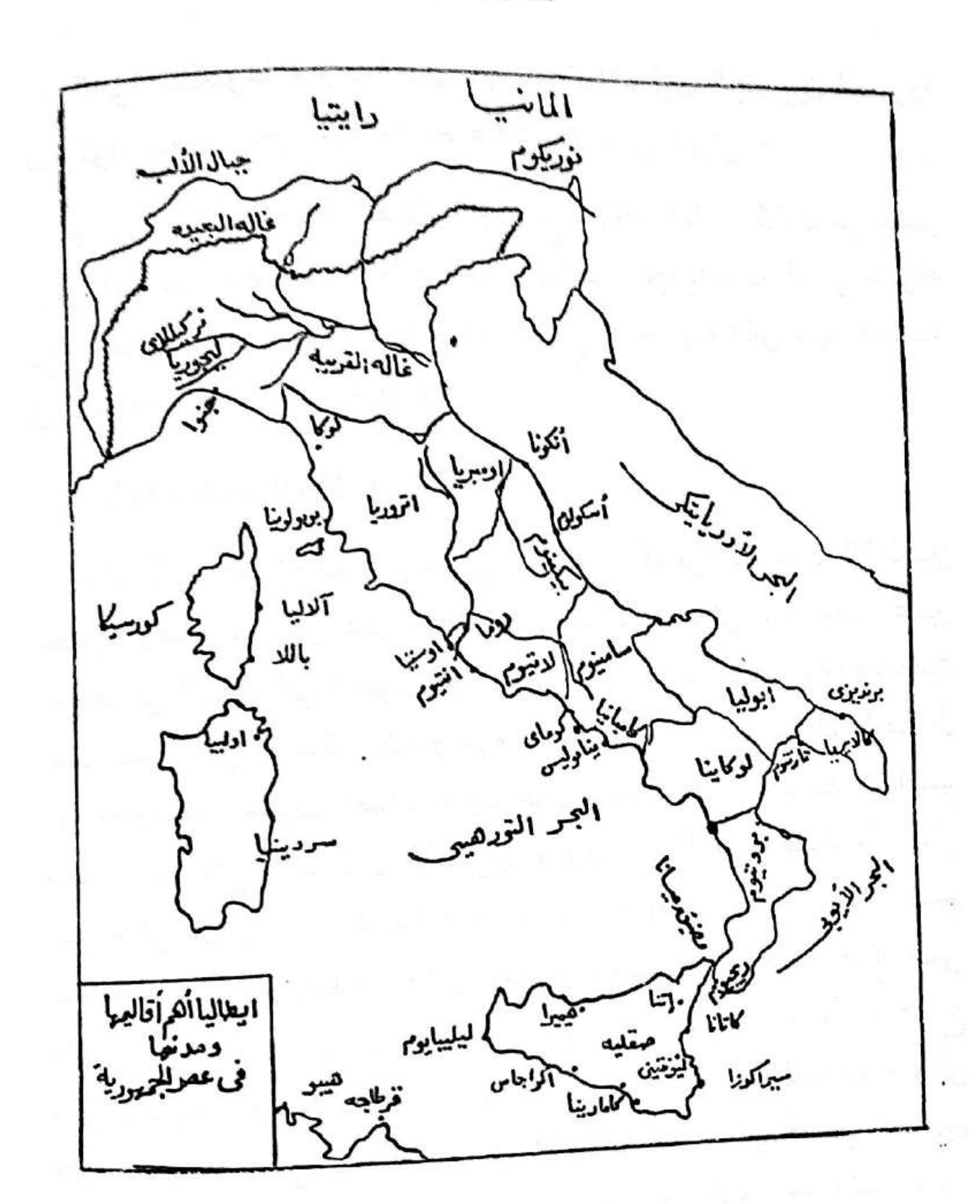
التى كانوا يسكنوها . وهذا يدل على ان الفلانوفين الجنوبيين استمروا يشاركون شعوب بحر ايجة ملامح عاداتها فى دفن الموتى .

وبمرور الزمن اختلط الفيلانوفيون مع سكان ايطاليا الأول من عنصر البحر المتوسط وقد أدت اقامة هذه العناصر الجديدة فى أماكن متفرقة من ايطاليا الى ظهور بعض التباين فى الملامح الحضارية لكل منها خاصة فى اللغة والثقافة وطرق الحياة .

رابعا : ظهور القبائل الايطالية :

ولم يكن الفيلانوفيون وحدهم هم الذين كونوا مقومات الايطاليين حضاريا وعنصريا ، بل كان هناك عنصر سكانى تسلل منذ وقت غير معروف من الشمال الى الجنوب أو جاء من الشرق عبر الادرياتيك ويتحدث لغات تنتمى الى الاسرة الهند وأوروبية واتخذوا لهم موطنا فى الجبال الواقعة وسط وجنوب ايطاليا . وسرعان مافرض هؤلاء الوافدون لغتهم وشخصيتهم على السكان الأصليين . وبمرور الزمن نجد القبائل التى تعيش فى روما تتحدث لغة هندوأوروبية أطلق العلماء عليها اسم سابلليه (Sabellian) والتى بدورها انقسمت الى فرعين فرع سمى باللهجة الامبرية (Umbrian) وكان يتحدث بها فى الشمال ، وفرع سمى باللهجة الاوسكانية (Oscan) كان يتحدث بها فى الجنوب . والى هاتين اللجهتين تنتمى لهجات القبائل الايطالية غير اللاتينية مثل السابيين والايكويين ، والسمنيين ، والفولوسكيين ، وبمرور الزمن بدأ التقارب بين هذه القبائل وبدأت تشترك فى عادات وشعائر دينية مشتركة منها ما سماه الرومان بعد ذلك بالربيع المقدس (Ver Sacrum) وهى عادة نشأت لمواجهة تزايد السكان . وكان بمقتضى هذه الشعائر يوهب الطفل الى رب معين من آلهة ايطاليا ، وعند سن معينة يطالب بالهجرة والبحث عن وطن جديد يستوطنه أبناء شعبه من جيله ، فيساعد قومة على الانتشار عبر منطقة واسعة .

ورويدا رويدا انتشرت القبائل السابللية جنوبا حتى طرف الكعب الايطالى ، بل دخلت الى سهل كمبانيا الغنى ، بينما استوطنت احدى قبائلها


المانيا
رايتيا
جبال الألب
نوريكوم
غاله البعيده
غاله القريبه
جنوا
لوكا
أنكونا
اوببريا
اتروريا
أسكولوم
بوبولونيا
البحر الادرياتيكي
كورسيكا
آلاليا
باللا
روما
اوستيا
انتيوم
لاتيوم
سامنيوم
ابوليا
برنديزى
كامبانيا
كوماى
نيابوليس
لوكانيا
تارنتوم
كالابريا
اولبيا
سردينيا
البحر التورهيني
بروتيوم
البحر الأيوني
ريجيوم
كاتانا
هيميرا
صقليه
ليلبيايوم
اكراجاس
كامارينا
سيراكوزا
قرطاجه
ايطاليا أهم أقاليمها ومدنها في عصر الجمهورية

وهم الفولوسكيون الساحل البحرى الممتد بين سهل لاتيوم وسهل كمبانيا ٠

وأغلب الظن أن القبائل الايطالية فى وسط وجنوب شبه الجزيرة الايطالية لم تعرف حضارة المدن ، ولا خبرت تنظيم الدولة ، بل نظمت نفسها على أساس القبيلة والاقليم ، ولم تعرف أى تجمعات سكانية أكثر من قراهم البدائية ٠ ولكنهم كانوا يتحدون فيما بينهم اذا ما حاق بهم خطر خارجى وبعد زوال هذا الخطر يعودون الى التفكك ٠

وبعكس القبائل اللاتينية لم يعرف الايطاليون آية محاولة لنظام حكم مثل حكم الملوك أو غيرهم ٠ ولكنهم كانوا يفوضون زعماء القبائل لادارة شئونهم فى مجالس بدأت تتخصص فى جوانب مختلفة من الادارة والتنظيم ٠

أما من ناحية العقائد الدينية فلم يكن الايطاليون يختلفون كثيرا عن اللاتين ، فجمعوا متطلباتهم المادية فى رغبات نفسية جسدوها فى شكل آلهة مثل النماء (Fertility) والاخصاب .. الخ ٠ ولم يتوصلوا الى تحويل هذه الآلهة الى صور بشرية (Anthropomorphism) الا بعد مرور عدة قرون ، لكن هذه القبائل كانت حساسة فى مراعاة الشعائر الدينية تجاه هذه الآلهة ، ولهذا نشأ فيها بعض جماعات من الكهنة لمراقبة سير الشعائر والطقوس ، وربما كان ذلك أصل التقوى الرومانية ٠ وقد كانت هذه القبائل فى بادىء الأمر معادية لسكان لاتيوم وخاصة للرومان ٠ ولكن بعد تجربة مريرة ومثيرة من العلاقات ، أصبح الايطاليون حلفاء الرومان وجنودهم المخلصين وشكلوا الجزء الأكبر من الشعب الأيطالى

خامسا : استيطان اللاتين لسهل لاتيوم وشواطىء نهر التيبر :

قبل عام ١٠٠٠ ق ٠ م لم يكن لسهل لاتيوم آية قيمة حضارية أو جغرافية تبرر الأهمية المدهشة التى حققتها سكانه له عندما برزوا كشعب له هوية واضحة فى القرن الثامن قبل الميلاد ٠ كان سهل لاتيوم القديم الذى لا تزيد مساحته عن ١٥٠٠ ميل محصورا بنهر التيبر شمالا حيث

يسكن الاتروسكيون وغيرهم من القبائل المنتسبة اليهم ، ومن الغرب يحده ساحل البحر المتوسط ، أما من الشرق والجنوب فكان يحده سلسلة التواءات جبال الابنين ، حيث كان تقطن قبائل ايطالية ، مثل السابينيوز والايكويون والهرنيكيون (Hernici) والفولوسكيون • وهى قبائل عدوانية أغلقت المنطقة فى وجه اللاتين • كما كانت منطقة الساحل الغربى منطقة تكثر فيها المستنقعات التى تتخلف كل عام من أثر فيضان التيبر ، وتسبب الأوبئة الملارية،وقد استغرق تجفيف هذه المستنقعات وقتا طويلامن أجل تعميرها • ويفترض علماء الجيولوجيا أن منطقة سهل لاتيوم خبرت فترة طويلة من ثورات البراكين أبان عصر البرونز نتج عنها مجموعة التلال التى سكنتها القبائل اللاتينية وجعلت تربة هذا السهل بركانية ثرية ذات محصول زراعى وفير •

ويلاحظ علماء ما قبل التاريخ وجود آثار سكانية فى سهل لاتيوم ترجع الى العصر الحجرى الحديث • وربما كان هؤلاء السكان من عنصر البحر المتوسط الذى سبق الحديث عنه أبان العصر الحجرى الحديث ، ولكن قبل عام ١٠٠٠ ق • م بقليل تسلل الى هذا السهل قبائل تنتمى حضاريا الى الفيلانوفيين وامتزجوا بالسكان القدماء • وكان الفيلانوفيون كما رأينا يتحدثون لغة هندو أوروبية ، تطورت لتصبح اللغة اللاتينية ، وبمرور الزمن نشأت لهجات لاتينية متباينة حسب الاقاليم المختلفة ، ولكن طابع لهجة مدينة روما هو الذى طغى على سائر الاقليم •

كان سكان سهل لاتيوم الأوائل يسكنون أكواخا طينية ، أقاموها على سفح تلال روما السبعة ، ويعملون بالفلاحة والرعى ، ويعيشون فى مجتمع زراعى بدائى تسوده نوع من الحياة الجماعية البدائية • ثم انقسموا الى شعوب لكل شعب منطقة يسكنها وله قرية كبرى (Oppidum) تعلو سفح التل الذى تعيش حوله ، أو يلجأون اليه للحماية من الغزاة ، ومهربا من رطوبة السهل المنخفض •

وكما قلنا كانت حضارة سهل لاتيوم فى العصر الحجرى تنتمى الى حضارة العصر الحديدى التى نعرفها باسم الحضارة الفيلانوفية • وكانوا

يمارسون عادة حرق موتاهم ، ويحفظون رفاتهم فى جرار مستديرة تشبه الأكواخ التى عاشوا فيها . مما يبين ارتباط الحياة بالموت فى نظرهم وأن الميت يسكن بيتا لا يختلف عن بيوت الأحياء .

لقد بدأ اللاتين فى تكوين اتحادات فيما بينهم منذ وقت مبكر . ومن الواضح أن هذه الارتباطات التى وحدت هـذه القبائل وجمعت شملها كانت دينية فى المقام الأول . ومن أشهر هذه الاتحادات الحلف اللاتينى الذى كان يجتمع المشتركون فيه كل عام لعبادة الرب الأكبر لهم جميعا وهو جوبتر (Jupiter) . ولكن نطاق المهرجان السنوى اتسع ليشمل أمورا غير دينية تهم شئون المتحالفين وأحوالهم وقد لعبت مدينة ألبا لونجا (Alba longa) دورا كبيرا فى هذا التحالف نظرا لموقعها المتوسط بين القبائل اللاتينية المتحالفة .

سادسا : قيام مدينة روما فى سهل لاتيوم :

وفى منتصف القرن الثامن قبل الميلاد ظهرت قرية عند سفح البلاتين قدر لها أن تكون سيدة على سهل لاتيوم بأكمله ، بل شبه الجزيرة الايطالية كلها ، ومن بعد حكمت العالم أجمع . تلك هى قرية روما . وقد أعطى المؤرخون الرومان لقيام روما تاريخا تقليديا ، هو عام ٧٥٣ ق.م(١) معتمدين على أسطورة ريموس ورومولوس حفيدا أحـد ملوك مدينة البالونجـا ومن سلالة البطل الطروادى اينياس ، والرواية وان كانت خرافية الا أن التاريخ معقول من الناحية الأثرية . اذ لم يعثر الأثريون على أى أثار لمواد تسبق هذا التاريخ اللهم الا فى احدى قرى الأقتين والتى يرجـع تأسيسها الى العصر الحجـرى الحـديث . ولكن الأثريون لا يقبلون التفسير الأسطورى لبناء مدينة روما ، ويرفضون أن ذلك تم بمحض الصدفة ، ويرون أن الأختيار جاء نتيجة للمزايا الاقتصادية الاستراتيجيـة لهـذه المدينة بالنسبة لسهل لاتيوم . اذ كان هذا السهل محصنا ، ويمكن الدفاع عنه ، ويتحكم فى نهر التيبر ، حيث كان الاتصال بعمق البلاد متوفرا ، فضلا على أنه كان الملتقى لشبكة الطرق الطبيعية التى تغطى كافة أجزاء ايطاليا .

---

(١) انظر Europius, loc cit, I, 11 — 20.

وهذا هو سر سيطرة روما فيما بعد على كافة مناطق ايطاليا وتحكمها في منتجاتها لأنها كانت المنفذ الوحيد على البحر لنهر التيبر العمود الفقرى للاتصال والتجارة بين عمق ايطاليا في الشرق والبحر المتوسط في الغرب •

ولم يمض وقت طويل ، حتى انضمت باقى القرى اللاتينية التى قامت عند سفوح التلال السبعة الى مدينة روما • وهكذا خبرت القرى اللاتينية تجربة الادماج السكانى (Synoekismos) بين القرى الصغرى من أجل قيام وحدة سكانية أكبر ، ذات مجتمع أكثر تعقيدا وتخصصا في العمل عن ذى قبل ، وهى تجربة مر بها الاغريق في القرن التاسع ق م • وأصبحت هذه القرى أحياء في مدينة روما ، بينما أصبحت المساحة الفاصلة بين هذه القرى أرضا مثالية للساحات العامة (Forum) تمارس فيها النشاط الاجتماعى والسياسى والاقتصادى ، والملتقى اليومى بين كافة سكان القرى التى أدمجت في مدينة روما •

ويرجح العلماء أن روما كانت نقطة التقاء بين حضارتين مختلفتين.حضارة ڤيللانوڤية وافدة ، تمارس عادة حرق الموتى ، وأخرى محلية ، تنبع من جبال الابنين ، وتتمسك بدفن الموتى منذ أقدم العصور • ولما كانت روما تجاور حدود هذه القرى جنوبا فقد اختيرت الأراضى الواقعة خارجها كمقبرة لكافة القرى المتحدة • ويقول علماء الآثار أن بقايا الدفنات هى التى تمثل القبور اللاتينية ، أما الأوانى التى تحمل رفات الموتى بعد حرقها فهى تمثل قبور العنصر السابينى •

ومنذ مطلع القرن السابع ق • م نجد الوضع الحضارى للمدينة الجديدة يتحسن سواء من ناحية هندسة المقابر أو صناعة الأوانى الفخارية بل وتظهر بعض الأوانى الاغريقية وبعض الصناعات الزجاجية مما يعكس بداية عصر التجارة الخارجية وبداية تسلل الحضارة الاغريقية الى سهل لاتيوم بفضل مستوطنة كوماى التى لم تكن تبعد سوى بضع مئات الأميال عن جنوب روما ذاتها • وحول ذلك التاريخ ظهر تطور هام • الا وهو ظهور الابجدية اللاتينية واستخدامها في الكتابة . كما ازدادت العلاقة الوثيقة بين القرى السبعة وراحت تشترك في عبد سوى هو عيد

التلال السبعة (Septimonitum) • وهو كما يبدو ذا طابع ديني (١) •

وكما يتضح كان يحكم كل قرية من القرى السبعة فى البداية رئيس عليها يعرف باسم الملك (Rex) ويحكمها بمعاونة مجلس من النبلاء ورؤساء العشائر • وبالرغم من أن سلطات الملك كانت واسعة الا أنه كان مقيدا بالعرف المدون الذى يلتزم به الناس ويعرف بالقانون • كان الملك لا يستطيع سن أى قانون الا اذا دعى السكان القادرين على حمل السلاح الى اجتماع عام ويحصل على موافقتهم على القانون المقترح Lex ووعدهم بالالتزام به (٢) •

وكما ذكرت كان الوازع الدينى هو الرابطة الأساسية بين القبائل اللاتينية وهو جوهر اتحاد قرى التلال السبعة (Septi montium) هذا الوازع الدينى المشترك بين هذه القرى كان مصدره ايمان غامض يستولى على نفوس هذه القبائل وهو ايمان بقوى خفية خارقة مصدرها الطبيعة وترتبط بالمراعى والحدائق والحقول والكهوف والأنهار • ومن ثم كان الغرض من هذا الحلف المقدس هو ارضاء هذه الأرواح الخفية وعدم اغضابها حتى لا يفتك غضبها بالمراعى والحقول والقطعان ، ولهذا كان الرومانى يحرص دائما على حفظ السلام مع الآلهة (Pax deorum) كما كان يحرص على قراءة الطالع • وتصديق الفأل • وكانت مهمة الملك الأساسية فى نظرهم هو ارضاء وتسكين هذه الأرواح نيابة عن الشعب ، ولهذا بقيت عند الرومان فيما بعد وظيفة كهنوتية هى ملك الاضاحى (rex sacrorum) حتى بعد الغاء نظام الملكية ورغم كره الرومان للفظ الملك •

وبازدياد أهمية مدينة روما وسيطرتها على حلف التلال السبعة الدينى تضاءلت أهمية مدينة ألبا لونجا القديمة وليس من المستبعد أن يكون الرومان هم الذين دمروها كما تفاخر مؤرخوهم فيما بعد • ولعل

---

(1) Beloch. op. cit. PP. 09 — 95.

(٢) ومن هنا يجىء اصل كلمة « القانون » Lex من الفعل ligare اى يلتزم او يرتبط بالشىء •

تزايد أهمية مدينة روما الناشئة ، هو الذى جذب اليها أنظار شعب قوى أكثر حضارة واستقرارا ، كان يعيش شمال نهر التيبر . وذلك هو الشعب الاتروسكى صاحب الحضارة الشهيرة والعريقة .

هكذا قامت مدينة روما لتطل من ناحية الغرب على البحر المتوسط الذى كان يعرف آنذاك بالبحر الكبير ، أما من ناحية الشرق كانت تحدها سلسلة جبال الابنين (Apennine) حيث تقطنها قبائل شرسة مقاتلة من الشعوب الايطالية عرفوا باسم الاومبريين (Umbrians) والسابينيين (Sabines) ، وفى جنوب هذه الجبال كان تسكن أشد القبائل الايطالية شراسة وهم السمنيون (Samnites) أما فى أقصى الشمال فقد كان يوجد سهل اتروريا حيث كان يسكنه الاتروسكيون .

سابعا : الاتروسكيون وحضارتهم :

ذكرت الأساطير الرومانية أن الأتروسكيين قاوموا بشـدة اينياس واتباعه من الطرواديين عندما حلوا بسهل لاتيوم ، أى أن الأتروسكيين كانوا يحتلون جزءا من ايطاليا قبل مجىء الرومان اليها . ولكن فرجيل لم يعرف منذ متى جاء الأتروسكيون الى ايطاليا ولازلنـا نحن لانعرف أيضـا (١) .

كان الأتروسكيون يعتقدون أن أجدادهم عاشوا فى ليديا غرب آسيا الصغرى وأنهم هاجروا الى ايطاليا تحت وطأة مجـاعة اجتاحت وطنهم الأصلى (٢) . وعلى أى حال استوطن الاتروسكيون السهل الواقع شمال

---

(١) وربما حدث ذلك قبل عام ١٠٠٠ ق . م بقليل .

(٢) cf. Herodotus, I, 94

ويدعم ذلك الرأى علماء الآثار لما وجدوه من قرابة كبيرة بين حضارة غرب آسيا الصغرى مثل البابلية والاشورية والفنيقية والمصرية من ناحية وبين الحضارة الاتروسكية من ناحية اخرى . فالنماذج الزخرفية الاتروسكية شديدة الشبه بتلك التى اخرجت من آثار ما بين النهرين كما ان براعة التنبؤ وقراءة المستقبل من تحركات امعاء الاضحيات يؤكد قرابتهم بالبابليين والحيثيين . كما ان ايمان الاتروسكيين بالحياة الاخرى بعد الموت بقربهم من الحضارة الفرعونية . كما ان بعض الكلمات الاتروسكية تثير احتمال ان هذه اللغة شبه سامية لكن الرأى السائد الآن بأنهم لابد وان يكونوا اما من اصل اسيوى جاء من ليديا فى آسيا الصغرى ، أو ربمـا خليط من العنصر الفينيقى والفيلانوفى وهذا هو راى الاستاذ جلبرت بيكار .

سهل لاتيوم وأقاموا فيه حضارة من أبرز حضارات العصر القديم اذ بنوا المدن وعمروها وبلغ عدد مدنهم اثنتى عشرة مدينة أقامت فيها بينها اتحادا كونفدراليا ، له مجلس شعبى كبير ، يعقد مرة كل عام فى احدى الأماكن المقدسة حيث تقام المهرجانات الرياضية والثقافية وتقام الشعائر الدينية •

ولقد تمكن علماء الآثار الايطاليون من الكشف عن أطلال هذه المدن الاتروسكية • ولدهشة العلماء عثروا على منازل الأتروسكيين الرحبة المجهزة بكل وسائل الحياة المنزلية كالحمامات وغيرها • بل كشفت الحفائر أيضا عن معرفة الأتروسكيين للقراءة والكتابة ، ولكن الى الآن لم يتمكن العلماء من قراءة هذه الكتابة والكشف عن أصل اللغة التى كانوا يتحدثون بها • ولكنهم يعتقدون أن طريقة كتابتها لم تكن تختلف كثيرا عن الأبجدية اليونانية•وقد تمكن العلماء حتى الآن من رصد ١٠٠٠٠ شكل كتابى ترجع الى الفترة ما بين القرن السابع ق•م• وعصر أغسطس ولكن معظمها أسماء أعلام وعبارات دينية مكررة التى اذا استبعدناها ينكمش هذا الرقم الكبير ليصبح ثلاثين كلمة (١) •

ولا شك أن حاجز اللغة يقف عائقا كبيرا أمام الكشف عن سر هذا الشعب الغريب وحضارته • برغم أننا نعلم أن الامبراطور كلاوديوس (٤١ ــ ٥١ م) ألف عملا ضخما عن الأتروسكيين وحضارتهم بلغ عشرين مجلدا حسب أقوال المؤرخين الرومان •

ولقد أمكن تصوير الكثير من جوانب هذه الحضارة بفضل اكتشاف جباناتهم الكثيرة ، والمزينة بمناظر من الفريسكو ، تمثل حياتهم اليومية التى كانوا يتمنون لموتاهم أن يحيوا مثلها • ومن أشهر هذه القبور المصورة مجموعة القبور التى عثر عليها فى مدينة تاركوينيا (Tarquinia) والتى يعتقد العلماء أنها موطن الملك تاركوينوس الذى سبق الحديث عنه وتصور هذه الرسومات مناظر الصيد والقنص ، ومناظر ترفيهية للحواة والسحرة والمصارعين ولاعبى الأكروبات والخيالة ، الى جانب

---

(١) وقد نشرت فى : — Corpus Inscriptorum Etruscarum, Leipzig, 1, 1893-1902, Vol. II, Fasc. 1 — iii, 1907 — 1936.

مناظر من الشعائر والطقوس الدينية التى يقوم بها الرجال والنساء على السواء • كما صورت هذه الرسومات المآدب الكبيرة التى كان يقيمها الاغنياء وسط عازفى الموسيقى سواء على المزامير أو الهارب • وحيث يقف الخدم من الرجال والنساء لتلبية أوامر سادتهم ورهن اشارتهم • وفى هذه المآدب كان الرجال يضجعون متكئين على الأسرة بجانب النساء مما يبين أنهم كانوا شعبا متحررا بعكس حضارة بلاد الاغريق التى أبخست المرأة حقهـا ، وحرمتها من التمتع حتى بحق المواطنـة ، وحرمت عليها الظهور فى الألعاب والمهرجانات • كانت المرأة الاتروسكية تعيش على قدم المساواة مع الرجل وتتمتع باحترام المجتمع • وربمـا تعلم الرومان من الأتروسكيين طريقهم فى معاملة نسائهم ، حيث كانت المرأة الرومانية سيدة قادرة (Patrona) مسيطرة تتمتع باحترام المجتمع بل أن نساء الرومان لعبن دورا فى أحداث البلاد كما سنرى فيما بعد •

كان الاتروسكيون مثل الفينيقيين ، بحارة وتجار مهرة ، بنوا الاساطيل التجارية التى كانت تمخر عباب البحر المتوسط وتنافس سـفن الاغريق والقرطاجيين ، بل نسمع عن احتراف الاتروسكيين للقرصنة البحرية خاصة ضد القرطاجيين والاغريق منافسيهم فى غرب البحر الأبيض ، ولم يعتمد الاتروسكيون على التجارة وركوب البحر فحسب ، بل اقاموا صناعات مثل المطروقات والمسكوكات الحديدية التى كان مركزها مدينة بوبولونيا Populonia وجزيرة البا (Elba) ، وكانت الصناعة مصدرا اقتصاديا كبيرا للبلاد التى سادها الرخاء والعمران • فعمرت المدن وزخرت بحوانيتها ومرافقها ومعابدها ومصانعها ، وحول المدن أقيمت الأسـوار العاليـة لتحصينها وحمايتها وفى داخلها اقيمت شبكات الطرق المعبدة تربط بين جوانبها واحيائها • كما برع المعماريون الاتروسكيون فى بناء جسـور المياه (aqueducts) وردموا المستنقعات وحولوها الى مناطق عمرانية وبذلك تخلصوا من خطر الامراض الفتاكة الناتجة عنها كالملاريا •

كل هذا كان يحدث بينما لم تكن روما سوى مجموعة من الاكواخ الطينية، يسكنها ريفيون بسطاء ، يعيشون على زراعة الأرض ، وتربية قطعان

الماشية لدرجة أن بعض العلماء يعتقدون أن الاتروسكيين هم الذين بنوا روما وليس الرومان وأن هذه المدينة لم تكن سوى مستوطنة اقامهــا الأتروسكيون فى سهل لاتيوم • وليس هناك أدنى شك فى أن الأتروسكيين حكموا وسيطروا عليها كما تبين الاساطير الرومانية ، التى سبق أن أشرنا اليها ، كما أن آخر ملوك روما الثلاث كانوا اتروسكيين •

لقد تمكن علماء الآثار من تحديد تاريخ قيام روما الفعلى وهو حوالى عام ٧٥٣ ق • م عندما اتحدت القرى الرومانية فيما بينها لتكون مدينــة واحدة لها سوق واحدة (Forum) يتم فيها الفصل فى المشاكل القانونية والحكم بين الناس كما كان يتم فيها كافة الشئون العــامة التى تخص سكان المدينة وسلطاتها •

ويعترف الرومان بصراحة (١) ــ بفضل الأترورين على حضــارتهم فالمهندسون المعماريون الذين خططوا ونفذوا بناء معبــد جوبتر فوق الكابيتول كانوا اتروريين • كما أن الرومان قلدوا الأترورين فيما يختص بمظاهر الوظائف الادارية والسياسية الكبرى مثل ارتداء العباءةالارجوانية (التوجا Toga) والامساك بالعصا العاجية ، وتزين الرأس بالاكليل الذهبى فى شكل غصون الكروم ، الى غير ذلك من مظاهر السلطة وشارتها مثل خاتم السلطة،والكرسى المحمول(التختروان)،ورمز الحكم (Fasces) (٢) وهى حزمة العصى والبلطة • كل هذه المراسيم والمظاهر كان يتمتع بهــا الملك الاتروسكى الذى كان يلقب باللوكومو (Lucumo) (٣) •

ولم يقتصر فضل الأتروســكيين على الرومان فى مجــال الرسميات والمراسم والشارات فحسب ، بل شمل جوانب أخرى من الحضارة مثل

---

(١) يجوز لغويا وصف الاتروســكيين بالاترورين لان الاسم الأول صفة من اتروريا كما أن الاغريق لقبهمالتورهينيين (Tyrrhenoi) كما لقبهم الرومان ايضــا بالتوســكين (Tusci) نســبة الى تســكانيا (Tuscania) وهو اسم آخر لسهل اتروريا .

(٢) ومنها اشتق انصار موسولينى كلمة فاشستى (Facisti)

(٣) بينما يعتقد بعض المؤرخين ان كلمة (Lucumo) وجمعها (Lucumi) يعنى طبقة الارستقراطين الذين بعد أن قويت شوكتهم انتزعوا الحكم من الملك .

فن الرسم على الحوائط • بل أن (١) آلهه الرومان لم تدخل الا عن طريق الأتروسكيين الذين تعلموها بدورهم من الاغريق ، ومن الأتروسكيين تعلم المهندسون المعماريون الرومان فكرة الاقبية وأقواس النصر • وفى مجال الديانة تعلم الرومان من هذه الشعب العظيم الرجوع الى حركات الطير فى السماء وترجمتها وقراءة الطالع والمستقبل عن طريق مراقبة حركات أمعــاء وأكباد الحيوانات المقــدمة قرابين للالهة • ولهذا ظلت شــهرة الأتروسكيين عالية فى هذا المجال حتى الى وقت متأخر كما أعترف بذلك شيشرون نفسة ، وكان العرافون الأتروسكيون (Haruspices) يلقون تقديرا واحتراما عاليا من جانب الشعب الرومانى • كذلك تعلم الرومان من الأتروسكيين المهرجانات الجنائزية التى كانت تقام توديعا للعظماء وفى هذا المهرجانات كانت تجرى المبارزات بالسيوف حتى الموت ، ولقد عشقت الغوغاء الرومانية هذه المبارزات لأنها كانت تشبع الرغبة فى التشفى وسفك الدماء التى تتميز بها نفسية رجل الشارع الرومانى وأصبحت من أهم وسائل الترفية فى المناسبات العامة التى كان يتدفق الجمهور لامتاع نفسه بها فى مدرجات الرياضة وحلبات المصارعة • والتى كانت تعرف باسـم الجلادين (Cladiatores) كما اشاد المؤرخ الرومانى ليفيوس بفضل الأتروسكيين على الرومان فى مجال الجيش والحرب •

ثامنا : روما تحت الحكم الاتروسكى :

سيطر الأتروسكيون منذ القرن السابع على سهل كمبانيا الغنى فى الجنوب، ومن ثم حاول الأتروسكيون ضم سهل لاتيوم حتى يمكن الاتصال البرى بين سهل كمبانيا وبين موطنهم فى سهل اترووريا • ويلحظ علماء الآثار بوضوح تأثير الحضارة الاتروسكية فى سهل لاتيوم منذ منتصف القرن السادس ق • م • وقد اكتسح الاتروسكيون سهل لاتيوم بفضل جيوشهم المدعمة بالسلاح وبفضل حضارتهم الراقية ، وتدعى الأساطير الرومانية أن

(١) يرى بعض الباحثين ان فرجيل ينتمى الى اصول اتروسكية وذلك استدلالا من اسم عائلته (Maro) التى هى كلمة اتروسكية ترمز الى السلطة كما تعرف الباحثون اللغويون حديثا على كلمة كيكيرو (شيشرون) تحريف للفظ الاتروسكى (Cekha) كيخا او « القائد » وهنا يثير تساؤل هل كان الاتروسكيون يتحدثون لغة سامية . انظر :
Franks, Bourne, A History of the Romans, Bostton, 1966, p. 82.

أول ملك اتروسكى تولى عليهم هو لوكيوس تاركوينوس وكان رجلا مثقفا هاجر من اقليم تاركوينى (Tarquini) فى اترووريا الى روما حيث أكتسب شعبية كبيرة بل وانتخبه الرومان خليفة لملكهم الراحل انكوس مارتيوس (Ancus Martius) ومهما تقول الاساطير الرومانية الا أنهـا تعترف بالسيطرة الاتروسكية على سهل لاتيوم •

ويؤكد علماء الآثار أن الأتروسكيين حكموا سهل لاتيوم لمـدة لا تقل عن مائة عام تغطى الفترة ما بين القرن السـادس والجزء المبـكر من القرن الخامس حيث تشير الأساطير الى المغامرين الاتروسكيين من أمثال لارس بورسـينا وآل تاركوينوس الذين حاولوا نهب القـرى اللاتينية والاسـتيلاء على سـهل لاتيـوم نظـرا لادراكهم بأهميته التجـارية والحضارية (١) •

ومهما يقال كان للسيطرة الاتروسكية فضـل توحيد القرى اللاتينية فى شكل مدينة متحدة وكوحدة سياسية واجتماعية بالمعنى الذى رسمته المدينة الاغريقية فى الشرق وربما تقليدا للمـدن الاغريقية التى أقامهـا الاغريق فى جنوب ايطاليا وصقلية وكان الاتروسكيون يعرفون بناء المدن المحصنة بالقلاع والمسكونة باعداد كبيرة من السكان • واتحدت مدن التلال السبعة تحت سيطرة الملك الاتروسكى ، وربما أطلق عليها لفظ رومون (Rumon) (أي مدينة النهر)وأحاطوها بسور ضخم وجففوا ـــ المستنقعات التى كانت تفصل بين القرى اللاتينية وأقاموا الفورم الرومانى بينها وأصبح هذا الفورم هو نواة النشاط السياسى والتجـارى للمدينة بل للعالم كله فيما بعد • وتدفق على المدينة الجـديدة سكان يعملون بالصناعات وبالتجارة ليكونوا الطبقة العاملة التى بدأت تحقق الحياة التجارية فى المدينة وتدفعها قدما الى الامام •

هكذا تحت حكم الاتروسكيين أصبحت روما مدينـة ذات شقين شق يتحدث باللاتينية وشق يتحدث الاتروسكية • وقد استفاد اللاتين كثيرا مـن الاتروســكيين الذين كانوا بدورهم قد تعلموا الكثير من الحضارة الاغريقية ، بل وعن طريق الأتروســكيين أمكن للاتين تعريف

1) R. Beloch, op. cit, p. 89 — 100.

آلهتهم ومعبوداتهم الريفية بنظيراتها الاغريقية ، ولكن فى نفس الوقت حافظوا على شخصيتهم الدينية مستقلة عن الفكر الاتروسكى • ومن هذا الوفاق الحضارى أوجد اللاتين ثالوثهم الدينى فوق تل الكابيتول وهو الآله جوبتر وزوجته جونو (Juno) وابنته منيرفا (Minerva) ، ومن الجدير بالذكر أن فكرة الثالوث أخذها الرومان عن الأتروسكيين كما وجد اللاتين بطبيعتهم الفطرية الميالة الى الاعتقاد بالقوى السرية الخفية والأرواح ضالتهم المنشودة فى براعة الاتروسكيين بعلوم التنجيم وقراءة حركات الطير والتنبؤ بالغيب •

التنظيم السياسى والاجتماعى والعسكرى المبكر للشعوب اللاتينية :

بدأ تنظيم المجتمع الرومانى بالطريقة البدائية وذلك بظهور التقسيمات البدائية المثلة فى الأسرة والعشيرة (Clan) والقبيلة • وقد انتشر ذلك التقسيم من روما الى باقى القبائل الايطالية ، ثم تطور الامر الى تجميع العشائر المتقاربة فى شكل اتحاد أشمل ، وهو الجمعيات الشعبية (Curiae) وقد كان لروما المبكرة ثلاثة قبائل كبرى تكون ثلاثين جمعية شعبية ، ومن الملاحظ أن هذه الجمعيات الشعبية كان متأثرة بالوضع الجغرافى أو الاقليمى وأنها كانت تقوم هذا الأساس • وأصبحت القبيلة بمثابة الشعب (Populus) • وفى أواخر عصر الأتروسكيين أضيفت منطقتا الكويرينال Quirinal وتل الفيمينال (Viminal) وتغير بالتالى التقسيم القديم وأصبحت روما تتكون من أربعة قبائل مقسمه حسب وضع كل منها الجغرافى •

وتحت تأثير الأتروسكيين تغير أيضا نظام القتال القديم من الهمجية واللانظامية حيث نجد تنظيما من الاتباع الذين يقاتلون حول زعيم العشيرة الى نظام أكثر أحكاما • وتروى الأساطير الرومانية أن أحد ملوك الأتروسكيين القدماء الذين حكموا روما مدينة وهو سرفيوس تولليوس (Servius Tullius) أوجد نظاما عسكريا يقوم على النظام السياسى والاجتماعى وصفة المؤرخ الرومانى تيتوس ليفيوس [1] وربما

(1) cf. H. Last, «The Servian Reforms», J. R. S. 35 (1945), p. 30 ff

أن ما فعله هذا الملك هو تجنيد كل المواطنين الرومان للعمل فى الجيش مقسما الجيش حسب الطبقات الاجتماعية وحسب مقدرة كل طبقة اقتصاديا لأن كل فئة كانت تنفق على نفسها أثناء القتال . اذن فقد كان تنظيم الجيش حسب الثروة، وليس حسب القرابة السياسية أو الاجتماعية لهذه القبائل. وقد وقد ارتبطت حقوق المواطنة دائما بالخدمة فى الجيش وتكونت الجمعية الشعبية الكبرى (١) على غرار الجمعيات الشعبية العشيرية وأصبحت هذه الجمعية الكبرى هى التى تجمع وتنتخب الملك أو توافق على قراراته وظلت الجمعية الشعبية العامة تتكون من الثلاثين تجمعا التى قامت فى الماضى ولكن كان لكل تجمع صوت واحد ، تقرره أغلبية أفرادها فيما بينهم . وأصبح هذا المجلس الشعبى هو الذى يمنح حق الأمبريوم (وهو قبول السلطة نيابة عن الدولة) لمن ينتخبون من الطبقات الغنية (٢) بينما تمسك الأغنياء بالجيش وتنظيمه الطبقى وحولوه الى مؤسسة تشريعية ودينية وسياسية . وبذلك تكونت بذور الصراع بين العامة وبين الاشراف .

الحالة الاقتصادية فى روما ابان حكم الاتروسكيين :

عن طريق التنقيب عن الآثار تمكن العلماء من رصد ملامح رواج صناعى وتجارى فى هذه الفترة . اذ كان هناك مواد ذات صناعة محلية كما ظهرت جمعيات الحرفيين التى تحدث عنها بلوتارخوس . فكان هناك نقابات لصناع النحاس ، والبرونز ، ونقابات للصباغين ، والموسيقيين ، وعازفى المزامير ، والعاملين فى الجلود ، والفخار ، والحدادين ، كما لاحظ الأثريون كثرة قيام المعابد والمرافق الدينية التى يرجع معظمها الى القرن الخامس . كما ظهرت المهرجانات والألعاب السنوية، التى كانت تقام فى ساحة الرب مارس (Campus Martius) فى روما وكانت تجرى على الطريقة الاتروسكية . كما تطورت الفورم الرومانية، ووسعت، وأقيم فيها بنايات مثل الرواق الكبير (Cloaca Maxima) وأقيمت شبكة للصرف ، ويرجع الفضل فى ذلك

---

(1) cf H. Last, «The Servian Reforms», J. R. S., 35 (1945), p. 30

(2) H. Mattingly «HistoricalRevision» : Servius Tullius and the Comitia Centuriata», Proceedngis of Cambridge Philological Society, 179 (1948), 15ff.

الى نشاط الاتروسكيين فى تطوير نظام الصرف والرى ، وخبراتهم المتقدمة فى هذا المجال .

فى ذلك الوقت أيضا توسعت روما وكبرت وأصبحت مدينة منفتحه على سائر العالم وتدفق اليها مشاهير الفنانين والمهندسين للاشتراك فى مشروعات عمرانية وثقافية فيها ، فجاء اليها المثال الشهير فولكا من مدينة ڤيى (Vulca of Veii) ليصنع تماثيل معبد جوبتر . وصنع داموفيلوس وجورجايوس الاغريقيان تماثيل معبد ربة القمح كيريس (Ceres) ، ونشأ فى ذلك الوقت أيضا حى تجارى فى مدينة روما سمى بالحى الاتروسكى (Vicus Tuscus) ، وتكون تجمع هامشى من الصناع والتجار الأجانب تحت رعاية الملوك الاتروسكيين بل ومنحوهم حق الخدمة فى الجيش كما رعى الملوك الاتروسكيون فقراء اللاتين، وضمنوا لهم عملا دائما فى المشروعات الكبيرة . ومن هؤلاء تكون قسم جديد من الشعب هو العامة (Plebs) التى أصبحت مميزة عن تجمع الأجانب والغرباء والمتطفلين الذين سماهم الرومان بالاتباع (Clientes) .

وحاول الملوك الاتروسكيون تدعيم شعبيتهم بين سكان سهل لاتيوم عن طريق بناء المعابد مثل معبد الربه ديانا (ارتيميس) فوق تل الافنتين (Aventine) ذلك المعبد الشهير الذى وصفه الفقيه الرومانى الشهير فارو Varro بأنه معبد مفتوح لكل اللاتين . وربما بنى الاتروسكيون ذلك المعبد فى روما خصيصا لمنافسة معبد الربة ذاتها فى مدينة أريكيا (Aricia) احدى المراكز الهامة فى التحالف اللاتينى التى ازداد نفوذها وأصبحت خطرا على النفوذ الاتروسكى فى روما .

تاسعا : طرد الملوك الاتروسكين واعلان الجمهورية :

انتهى العصر الاتروسكى فى روما فى أوائل القرن الخامس قبل الميلاد وتروى الأساطير أن آخر الملوك الاتروسكيين كان تاركوينوس المتغطرس ، والذى طرد عام ٥٠٩ بسبب تغطرسه وسوء سلوك أسرته . ولكن هناك من الأدلة ما يشير الا أن طرد تاركوينوس لم يضع نهاية للحكم الاتروسكى لأن الأساطير تروى لنا سلسلة من الصراع بين الشعبين حيث قاد الأتروسكيين

لارس بورسينا (Lars Porsenna) ملك مدينة كلوسيوم الاتروسكية (Clusium) ويلاحظ الأثريون تدهورا فى مركز روما الحضارى والتجارى فى حوالى منتصف القرن الخامس مما يشير الى زوال الحكم الاتروسكى • وربما كان الارستقراطيون اللاتين ورؤساء عشائر الأسرة اللاتينية هم الذين طردوا الملك الاتروسكى كتطور طبيعى من الحكم الملكى الانفرادى الى حكم الصفوة الأرستقراطى كما رأينا فى تاريخ الاغريق • خاصة أن الشعب الرومانى لم يكن قد وصل بعد الى مرحلة الاندماج والوعى للقيام بثورة أبان هذه الفترة•وقد يكون اسقاط الحكم الاتروسكى جاء نتيجة لتحالف اللاتين مع مستوطنة كوماى الاغريقية ضد التوسع الاتروسكى ، لأن المساحة الخاضعة للأتروسكيين زادت من خمسين ميلا مربعا الى ٣٥٠ ميلا مربعا كما أن الأتروسكيين قاموا بعدة حملات ضد مدينة أريكيا (Aricia) احدى المراكز اللاتينية المتمردة ضد الحكم الاتروسكى • واتحدت مدن اللاتين مع شقيقاتها أريكيا ضد الاتروسكيين وبمعاونة مستوطنة كوماى الاغريقية هزم الاتروسكيون الذين ارتدوا الى روما وهناك انتهز رؤساء العشائر والنبلاء الفرصة وأسقطوا الحكم الملكى الاتروسكى وأقاموا مكانه الجمهورية الارستقراطية الرومانية • والتى يحكمها قنصلان منتخبان سنويا ولمدة عام واحد من قبل الشعب ومن بين أعضاء الأسر الغنية •

الفصل الرابع

الصراع الطبقى وانعكاساته على تطور القوانين والتشريع ونظم الحكم فى فجر الجمهورية

لقد استغرق تطور التشريع فى الجمهورية بعد قيامها وقتا طويلا ومر بمراحل متعددة ، وبعكس الحال فى بلاد الاغريق لم يكن هناك مشرعا عبقريا معينا وضع أساسه مثل لوكرجوس أوسولون ، بل كان نتاج عقلية وتفكير الشعب الرومانى ومن نتاج خبراته المريرة فى الأزمات والحروب ومن خلال تجاربه مع الدول الأجنبية ، ومن أجل وضع نظام لمنع الصراع بين طبقات الشعب الرومانى .

ولم تكن روما فى بداية الأمر ذات نظم ديمقراطية لأن الحرية (Libertas) فى نظر الرومانى كانت دائما هى الألتزام بالقوانين ، التى تنظم علاقات الناس بصرف النظر عما اذا كانت عادلة أم غير عادلة ، ومن أجل ذلك نشأت طبقة من الشعب اعتبرت نفسها وصية على القوانين والحارسة على تطبيقها وسنها . وكانت هذه الطبقة بالطبع هى الارستقراطية الراقية .

وكما سبق أن ذكرنا أن النظام الجمهورى الذى أقامه الرومان بعد طرد الملك الأتروسكى ، كان يرأسه قنصلان ينتخبان سنويا ولمدة عام واحد ، وكان اختيارهما يتم بالانتخاب المباشر بواسطة كل الشعب ممثلا فى تنظيماته القبلية ومجلسه المعروف باسم الجمعية المئوية (Comitia centuriata) وفى الحقيقة كانت سلطات القناصل محدودة اللهم الا فى حالة الحرب حيث كانا يعطيان سلطات استثنائية مطلقة وهو الأمبريوم (Imperium) المتمثل فى حقهما فى تجنيد جيش من الشعب وقيادته خارج البلاد . أما الهيئة التى كانت تدير الشئون اليومية والتشريعية والسياسية والعسكرية فى البلاد فهى مجلس السناتو الذى ورث سلطات واختصاصات المجلس

الملكى الاستشارى • وكان شغل السناتو الشاغل فى بادىء الأمر هو التشريع وسن القوانين ولكن وبمرور الزمن ازدادت كفاءة السناتو عن طريق ضم القناصل السابقين وكبار الموظفين والعسكريين اليه وأصبح أشبه ببيت الخبرة الرومانى وازداد عدد أعضائه من مائة فى عصر الملكية الى ثلاثمائة فى صدر الجمهورية وظل هذا العدد ثابتا الى وقت طويل • كانت عضوية السناتو وقفا على طبقة النبلاء والأشراف الذين لقبوا باسم الآباء (Patres) واذا صدقت الرواية فان أغنياء الطبقة الوسطى من رجال الأعمال سمح لهم بالانضمام الى هذا المجلس بنسبة محدودة ومن ثم عرف السناتو باسم الأباء والمختارون (Patres et Conscripiti) وكانت عضوية السناتو محل اختيار الرقيبين اللذان كان من سلطتهما شطب الأعضاء الذين يخرجون عن حدودهم لأن عضوية السناتو كانت تشغل مدى الحياة • وكان هذان الرقيبان ينتخبان كل خمس سنوات من أجل الاشراف على التعداد السكانى (Census) ثم اتسعت اختصاصاتهما فشملت الرقابة على السناتو وحماية الأخلاق والسلوك العام وقبل كل شىء سنة السلف (mos maiorum) وكان السناتو يجتمع فى بادىء الأمر فى ساحات المعابد ثم بنى له فيما بعد قاعات خاصة مثل تلك التى بناها الملك هوستيليوس وعرفت باسم كوميتياهوستيليا (Comitia Hostilia) ثم أقيم له مدرج خاص بناه بومبى عرف بمدرج بومبى (Curia Pompeii) [1] كما بنى يوليوس قيصر مدرجا عرف باسم مدرج يوليوس (Curia Julia)

وكان الارستقراطيون والنبلاء يعرفون باسم الآباء (Patres) بينما كانت باقى الطبقات تعرف بالعامة (Plebs) أما العبيد فلم يكونوا يعتبرون من المواطنين ويعتقد بعض المؤرخين أن كلمة آباء ترمز الى أن هذه الطبقة هى من سلالة المواطنين الأحرار الأصلاء منذ أيام قيام المدينة عندما اختار رومولوس رؤساء القبائل ليكون منهم مجلسا استشاريا له بينما يرى آخرون أن هؤلاء الآباء من سلالة الغزاة الاتروسكيين الذين فرضوا

---

(١) وهى التى اغتيل تحت منصتها (Rostrum) يوليوس قيصر فى ١٤ مارس عام ٤٤ ق.م .

أنفسهم على البلاد واعتبروا بقية الشعب عامة أقل مرتبة منهم • ويرى فريق ثالث أن هؤلاء الآباء ليسوا الا سلالة القبائل السابينيه بينما يرجع أصل العامة الى سكان سهل لاتيوم القدماء ويرى غيرهم أن العكس هو الصحيح ، ويرجح بعض المؤرخين أن هؤلاء الآباء ليسوا سوى سلالة الاتروسكين الذين كانوا يتحكمون فى البلاد • وعلى أى حال كانت نسبة الاشراف أو الشيوخ أقلية بالنسبة الى غالبية سكان الرومان من الطبقات الوسطى والدنيا (١) • ولما كانت هذه الأقلية النبيلة تتمتع بامتيازات عديدة فقد حنق عليها العامة الذين ساءهم أن يعتبروا مواطنين من الدرجة الثانية بل أن كلمة العامة (Plebs) فى اللغة اللاتينية لم تكن تختلف كثيرا عن معنى الدهماء أو الغوغاء بالرغم من أنها كانت تشمل الطبقة المتوسطة الميسورة الحال الى حد ما •

حقيقة لقد كفل الدستور الرومانى للعامة حق التصويت واختيار القناصل ولكنهم ظلوا محرومين من الترشيح لهذه الوظائف ، أيضا كفل الدستور الرومانى لأى فرد من العامة حق التعاقد فيما عدا التعاقد على الزواج من بنات الاشراف الذى اعتبر باطلا ، واعتبر القانون أبناء مثل هذا الزواج غير شرعيين ، وكذلك حرم العامة من بعض الامتيازات الدينية التى انفرد بها الأشراف وحدهم الى جانب هذا كله كان العامة فى حالة اقتصادية سيئة ، اذ كان الأشراف هم الذين يملكون بينما كان العامة يشكلون غالبية الذين لا يملكون ، الا قلة قليلة منهم عملت بالتجارة وادارة الحوانيت فى المدينة واستطاعت أن تجمع لها ثروة لا بأس بها • ولما كانت غالبية العامة فقيرة معدمة فقد اضطرت الى الاستدانة ومن ثم أصبحت ضحية للدائنين والمرابين الجشعين • وكان معظم المتعاملين فى الربا من الأشراف والنبلاء • ولما كان القانون الرومانى قاسيا لا يرحم فيما يختص بالمدين الذى لا يرد الدين والفائدة فى الوقت المحدد فقد سبب ذلك سخطا بين الفقراء ، فمثلا كان من حق الدائن أن يحبس المدين فى بيته أو فى زنزانة

---

(١) من دراسة اسماء الاسر الارستقراطية فى مطلع القرن الخامس ق.م تبين ان تعدادها كان يتراوح ما بين ٤٥٠٠ مواطن او الف اسرة وتمثل حوالى ٧٪ او ٨٪ من مجموع المواطنين .

أو يبيعه فى سوق الرقيق كعبد ، ولم يقتصر هذا الغبن على المدين وحـده بل تعداه الى زوجته وأولاده وأحفاده ووصل حد الغبن أن أعطى القانون الرومانى للدائن حق تنفيذ حكم الاعدام فى المدين العاجز عن سداد الدين •

أما من ناحية الملكية الزراعية فلم تكن بأى حال من الأحوال تتناسب مع الطبقات الاجتماعية • فقد استولى الأشراف على المزارع الشاسعة (Latifundia) حتى الأراضى المملوكة للدولة (Ager publicus) والتى أساسا كانت تتكون من الأراضى المصادرة والتى استولى عليها الجيش الرومانى بقوة السلاح فى عصر التوسع فقد وضع الأشراف أيديهم عليها وأستأجروها بأثمان رمزية ولم يلتفتوا لصراخ العامة أو مطـالبة الجنود المسرحين بحقهم فى تلك هذه الأرض لأنهم هم الذين أضافوها للدولة بقوة السلاح •

وعاما بعد عام تزايد سخط العامة حتى فاض الوعاء بما فيه عام ٤٩٤ ق • م • ووقتها كانت روما مشغولة فى حروبها مع القبائل الفولوسكية (Volscians) التى كبدتها خسائر فادحة وقع معظمها على كاهل العامة الذين وجدوا أنهم يضحون بالكثير بينما لا يتمتعون الا بالقليـل من الحقوق • مما أدى الى تذمرهم واستعدادهم للتمرد ضد طبقة الأشراف •

وتقول الروايات الشعبية أن الناس استيقظوا ذات صباح ليجـدوا رجلا كهلا من العامة يجلس حزينا فى ساحة المدينة الرئيسية ولما ســأله بعض المارة وشأنه كشف لهم عن ظهره حيث بدت آثار طعنات وجروح تلقاها وهو يدافع عن شرف البلاد ، ثم أخبر الناس أنه جندى قديم عاد من الحروب ليجد أن بيته قد أحرقه الأعداء الفولسكيون ولما حاول أن يبدأ حياته من جديد طالبه جباة الضرائب بما عليه من متأخرات مما أضطره الى الاســتدانة بالربا الفاحش وتزايدات الديون حتى اضـطر الى بيع مزرعته الصغيرة التى ورثها عن أجداده ولكن ذلك لم يكن كافيا لتسديد ديونه ، ومن ثم فقد حريته وأصبح عبدا مملوكا لدائنه ، وألقى به صاحب الدين فى سجنه الخاص وراح يضربه بالسياط تباعا وأخيرا قرر الدائن اعدامه ولهذا هرب •

أثارت هذه الرواية مشاعر العامة ، وحدث شغب وفتنة ، وحطم المدينون السجون ليخرجوا وينضموا الى الجمع الغفير الذى بدأ يتجمع فى ساحة المدينة ، وهتفت جماهير العامة بسقوط القنصلين ، وعقد السناتو جلسة طارئة جرى فيها نقاش حاد بين بعض الشيوخ الذين طالبوا بالتنازل عن بعض الحقوق المجحفة وبين الأعضاء المتشددين الذين طالبوا باستخدام القوة والارهاب ضد هؤلاء الرعاع للقضاء على هذا الشغب والتمرد . وفى أثناء هذه الظروف العصيبة،جاءت الأنباء بأن العدو بدأ يزحف على المدينة ولم يجد السناتو أحدا من العامة يقبل التطوع لصد هذا العدوان لأن منطقهم كان : أن روما وطن الأشراف وعلى الأشراف وحدهم أن يدافعوا عن هذا الوطن .

وازاء ذلك اضطر السناتو الى اصدار وعد بالتنازل عن بعض حقوقه من أجل ارضاء العامة وصدق العامة هذه الوعود . وساروا الى الحرب واحرزوا النصر وعادوا ليجدوا الشيوخ يتباطأون فى تنفيذ هذه الوعود فأضرب العامة مرة أخرى واعلنوا عصيان القوانين وانسحبوا من المدينة كلها الى تل قريب عبر نهر أنيو Anio وأعلنوا انهم سوف يبنون مدينة خاصة بهم لأنه لا يوجد مكان لهم فى روما وأعلنوا أن هذا التل مكان مقدس (mons sacra) وهناك ارغم السناتو على تنفيذ وعوده وعادت العامة من الجبل المقدس يهللون لانتصارهم على الاشراف فقد وافق السناتو على أن ينتخب العامة نقيبين لهم (Tribuni) يعادلان منزلة القنصلين ويتمتعان بسلطات قوية مثل حق الاعتراض (intercessio) وحق التشريع وسن القوانين (rogatio) ، وحق منح المساعدة (auxilium) ، وحق الحصانة البدنية ، (Sacrosanctitas) من أجل حماية العامة ، [1] وهى سلطات هامة لدرجة أن زعماء روما وأباطرتها فيما بعد حرصوا على الحصول على سلطات التريبيون بأية وسيلة

---

(١) وفيما بعد اصبح لهم حق حضور جلسات السناتو ، ودعوته الى الانعقاد والتشاور معه قبل اتخاذ قراراتهم وبذلك تحول نقباء العامة من قاده معارضة هدفهم الاعتراض والاعاقة الى الرقابة الادارية والتشريعية .

Livy, 4, 1-8, cf F.E. Adcock, «Consular Tribunes and Their Successors,» J.R.S. 47 (1957) pp 9-14.

(tribunicia potestas) . وفيما بعد زيد عدد الترابنة من اثنين الى عشرة ، كذلك حصل العامة على حق انتخاب موظفين ماليين (aediles) من أجل الاشراف على المعابد وأماكن العبادة وتنظيم الاعياد والمهرجانات والتجمعات الخاصة بالمناسبات العامة .

وبالرغم من أن العامة قد حصلوا على امتيازات كبيره بعد حركتهم الكبرى وأصبح نقباؤهم يتمتعون بسلطات كافية لحماية مصالح العامة الا أن السيطرة الفعلية بقيت فى أيدى الاشراف النبلاء والذى ساعد هؤلاء على ذلك هو غياب القانون المكتوب الذى يحفظ ويضمن للعامة حقوقهم . اذا كانت العدالة تطبق طبقا للعرف والسوابق العرفية التى كان مصدرها النبلاء وحدهم . ولهذا اقترح نقباء العامة ٤٦٢ ق . م وضع قوانين ثابتة للبلاد حتى تعرف كل طبقة حدودها ويعرف الفرد بدوره حقوقه وواجباته فى المجتمع .

وضع اساس التشريع الرومانى :

وبعد سنين من الصراع على الحقوق تكونت لجنة من عشرة من الحكماء عرفت بلجنة العشرة (decemviri) لوضع أساس تشريعى دستورى للقوانين وانتهت اللجنة من عملها واعلنت هذه القوانين على الناس عام ٤٤٩ ق . م ونقشت على ألواح ، ولهذا عرفت بقوانين الالواح الاثنى عشر . ولم يتبق الا شذرات من هذا التشريع الذى يبدو أن مواده التشريعية كانت قاسية مثل قوانين دراكون فى أثينا ، ولكن بعضها كان على جانب من المعقولية لاعترافه بحقوق الناس ، فضلا على أن اللغة التى صيغت بها هذه القوانين كانت على درجة عالية من النقاوة والوقار ، مما يدل على أن هذه اللجنة كانت من الرجال المحنكين فى مجال القضاء والتشريع لقد كان للرومان عبقرية فى التشريع (١) وسن القوانين وصياغتها . وهو التراث

---

(١) يقول العلماء اذ كانت عبقرية الاغريق هى فهم الجمال والبحث عنه وعبقرية العبرانيين هى اللاهوت والتعاليم السماوية فان عبقرية الرومان هى صياغة القوانين ووضع التشريع .

الخالد الذى خلفوه للانسانية حيث لا تزال روح قوانينهم تشكل التشريع فى عصرنا الحديث (١) ٠

لم تكن الالواح الاثنى عشرة كافية لارضاء العامة ، اذ أن الصراع الاجتماعى ظل قائما بينهم وبين الاشراف طوالماية سنة أخرى ، وخلال هذا الصراع تمكن العامة من هدم الحواجز الاجتماعية سواء كانت نسبا أم مالا ٠ فمثلا حصل العامة فى عام ٤٤٥ ق٠م٠على حق الزواج (conubium) من بنات الاشراف ، وأصبح مثل ذلك الزواج شرعيا ، وكذلك الأبناء الذين ينجبون منه شرعيين ، وبعد ذلك هدأ الصراع بسبب انشغال الأمة فى رد عدوان الغاليين عن اراضيها وبعد طرد الغاليين عاد الصراع الى الانفجار مرة أخرى (٢) ٠

وفى مواجهة هذا الصراع قدم نقيبا العامة ليكنيوس (Licinius) وسكستيوس (Sextius) فى عام ٣٧٦ ق ٠ م مجموعة من الاقتراحات لتخفيف حدة الصراع بين الطبقتين المتنازعتين ٠ ويعتبر عام ٣٧٦ ق ٠ م نقطة التحول فى التشريع الرومانى،اذ أصبح أكثر فاعلية وتنظيما،حيث ركزت القيادة العسكرية والادارية والتنفيذية للدولة فى يد القنصلين ٠

وقد تضمنت هذه الاقتراحات تحديد الحد الأقصى للأراضى العامة التى تؤجر للأفراد بحيث لا تزيد عن ٥٠٠ فدان رومانى (Iugera) (٣) وما زاد على ذلك يوزع على المعدمين والذين لا يملكون ، كذلك تضمنت هذه الاقتراحات وضع حد للمرابين بالربا الفاحش الذى ارهق الفقراء مثل تخفيض ما جمع من فوائد من الدين الأصلى وأن يكون أحد القنصلين من العامة (Plebian) وأن يعين واحد من العامة ليشترك فى حراسة الكتب المقدسة التى باعتها الكاهنة « سيبيل » الى الملك تاركوينوس المتغطرس ٠

---

(١) انظر محمود محمد السقا : الفلسفة والقانون الرومانى فى العصر العلمى ، القاهرة ١٩٧٣ .

(٢) Livy, 4, 1-8 ; H. Stuart Jones, C.A.H. Vol. 7, pp. 519-520.

(٣) cf E.S. Staveley, J.R.S., 43 (1953) p. 30-36.

وبعد عشر سنوات ، وبعد صراع عنيف ، وافق السناتو على اقتراحات وتشريعات ليكينيوس وسكستيوس وأصبحت قوانين معترفا بها . وهكذا أصبح العامة فى عام ٣٣٦ ق . م . متساوين الى حد ما مع طبقة الأشراف حتى ولو كان ذلك من الناحية الأسمية ، لأن القناصل ظلوا ينتخبون من طبقة الأشراف فقط .

ورغم عبقرية الرومان التشريعية واعتدالهم فى نظرتهم الى المشاكل الاجتماعية (على الأقل اذا ما قارناهم بالاغريق) فقد فشل القانون الرومانى فى تحقيق العدالة الاجتماعية بين كافة المواطنين لأن عاملا النسب والثراء ظلا لهما اعتبارهما الخاص . وأكثر من هذا فان المجتمع الرومانى شأنه شأن أى مجتمع آخر ، كان يقوم على الرقيق الذين كانوا يقومون بدور العجلة الانتاجية سواء فى المزارع أو المصانع أو المنازل . لقد كانت آلاف العبيد فى نظر المواطن والمشرع الرومانى مخلوقات بشرية محرومة من أى حق انسانى ، ولدت لتستخدم كالدواب ، ومثلها تباع وتستبدل فى أسواق النخاسة بل ولصاحبها الحق فى قتلها اذا - هرمت وأصبحت غير قادرة على العمل ، وظلت تلك هى نقطة الضعف فى التشريع والنظام الاجتماعى الرومانى حتى وقت متأخر ولذا فان السخط والاستهتار والغضب كان يملأ قلوب العبيد فى الحقول والمزارع ، ولم يكن يهمهم سلامة المجتمع الرومانى أو رفاهيته ، على العكس التام من نظرة كل من الأشراف والعامة ، الذين دفعهم حرصهم على سلامة المجتمع ، والحفاظ على الأمن ، الى حل الصراع الاجتماعى بينهم بالطرق التشريعية ، وليس بالعنف والثورة ، مما يوضح عقلية المواطن الرومانى التى تميزت بطاعة القوانين والالتزام بها مهما اختلفت درجتها فى العدالة .

وتخفيفا عن العبء الذى كان يقع على عاتق القنصلين ، ابتكر المشرعون الرومان وظيفة جديدة هى وظيفة البرايتور القضائى (Praetor لأن

---

(١) كذلك سمح لاثنين فقط من ابناء المالك بامتلاك ٢٥٠ فدانا لكل واحد اى ٥٠٠ فدانا اخرى للابناء .

(٢) cf Kurt Fritzu The Re-organization of the Roman Government in 377 B.C.. Historia, 1950, pp. 37-41 , D. Kagan, op. cit.. p 45-48

القنصلين لم يقـدرا على ادارة الشئون العسكرية والقضـائية فى نفس الوقت • فعين البرايتور المدنى (Praetor urbanus) لتصريف العدالة داخل العاصمة وقد زادت سلطاته فيما بعد للاشراف على تطبيق العـدالة فى المقاطعات والأقاليم التى ضمتها ايطاليا لها عن طريق وكلائه (Praefecti) ولما كانت وظيفة البرايتور جزءا من سـلطات القنصلية فقـد منح حق الامبريوم القضائى (Imperium) لأنه كان ينوب عن القنصلين فى غيابهما، وكان أيضا ينتخب سنويا •

كما ظهرت فى ذلك الوقت أيضا منصب الايديلية (aediles) للمعاونة فى الاشراف على ادارة شئون الاقاليم التابعة لروما • وبلغ عددهم أربعـة اثنين من الأشراف لهم سلطات الزامية واثنان من العـامة لهم سلطات اشرافية وبالتالى بدأ سلك من الوظائف يتبلور عرف فيما بعـد بسلك الوظائف العامة والشرفية •

كذلك بدأ التشريع الرومانى ينشط لحل قضايا الديون والرهونات والفوائد وراح المشرعون الرومان يصدرون القرارات بهدف تحـديد الفائدة على الديون كما الغيت فكرة استعباد المدين الذى يعجز عن دفع ديونة وذلك فى عام ٣٤٢ ق • م ، ولكن التشريعات الفاصلة التى حرمت فقدان الحرية بسبب العجز عن تسديد الدين طبقت رسميا وعمليا عام ٣٢٦ بمقتضى قوانين بابيريوس الشهيرة (Lex Poetilia Papiria) والتى تعرف بقوانين حقوق الفرد •

كذلك أصبحت القوانين الرومانية أكثر تسامحا ازاء اشراك العامة فى سلك الوظائف الكهنوتية جنبا الى جنب مع الأشراف • وصـدر تشريع يقضى بأن ينتخب من العامة خمسة رجال للاشتراك فى مجلس العشرة الذى يشرف على حراسة الكتب السايبلية المقدسـة • وفى عام ٣٠٠ ق • م • صدر تشريع يزيد عدد الكهنة الى ثمانية والعرافين الى تسـعة على أن يكون أربعة كهنة من العامة وخمسة من العرافين من الأشراف ولم يبق فى يد الأشراف من الوظائف الدينية سوى ملك الأضاحى (Lex sacrorum) وبعض وظائف الكهانة الخاصة ببعض العبادات غير الأساسية فى الوظائف الدينية •

وضع أساس الوفاق بين الطبقات : (Concordia Ordinum)

ومن أجل الوئام بين الطبقات أقيم معبد الوئام (Concordia) واستمرت سياسة افساح مكان للعامة للاشتراك فى ادارة الدولة والتى بدأت منذ عام ٣٦٧ ، ففى عام ٣٥٦ انتخب أول دكتاتور من العامة ، وفى عام ٣٥١ أنتخب أول رقيب من العامة، وفى عام ٣٣٧ انتخب أول برايتور قضائى من هذه الطبقة ذاتها ، وصدر قانون يحرم تولى أكثر من وظيفة فى نفس العام والا يتقدم المواطن لشغل نفس الوظيفة الا بعد مرور عشر سنوات على شغله لآخر وظيفة وكان ذلك كله من أجل اعطاء الفرصة للعامة للمشاركة فى تولى الوظائف لأن عدد الأشراف كان محـــدودا • ولكن فى عام ٣٢٩ ق • م صدر تشريع بضرورة الحصول على موافقة السناتو على أى مشروع قرار قبل عرضه على المجالس المئوية للحصول على الموافقة النهائية عليه •

وفى عام ٢٨٧ صدر قانون هورتنسيوس الشهير (Hortensius) الذى شهد مولد المجلس القبلى (Comitia Tributa) الذى اعطاه الحق فى جعل موافقة هذا المجلس على أى مشروع حقا يرفعه لدرجة القــانون الملزم وبذلك اصبح المجلس القبلى مجلسا شعبيا اساسيا وفعليا وممثلا لكل العامة هكذا أصبح فى روما ثلاثة مجالس شعبية هى مجلس الكوريا Curia القديم بقايا مجلس العامة فى عصر الملكية ، ثم المجلس المئوى (Comitia Centuriata) والذى ظهر فى القرن الخامس ليصبح المجلس التشريعى للعامة وأعلى جهاز تشريعى فى الدولة ، وظل يحتفظ بسيطرته ابان القرن الثالث ويجتمع فى المناسبات العامة وللانتخاب الوظائف الكبيره مثل القناصل والبرايتوريين والرقباء ، ولاعلان الحرب أو عقد الســلام ، أو لمحاكمة قضايا الخيانة العظمى وغيرها من القضايا التى تصل عقوبتها الى الاعدام ، وبالرغم من أنه كان أسميا للعامة ولجميع فئات الشعب الرومانى الا أنه تحجر فيما بعد، وأصبح معقلا للمحافظين والأغنياء ، ففقد بذلك رسالته الحقيقة والهدف الأساسى لقيامة •

ومن ثم فقد ظهر المجــلس القبلى (Comitia Tributa) والذى بدأ يكسب نفوذه حتى قبل عام ٢٨٧ ق • م بهدف اشراف العامة على قوائم تسجيل المواطنين وادارة عمليات الاقتراع ومراقبـــة تحركات اصـــحاب

الاقطاعيات وتحديد نفوذهم . وبمقتضى قانون هورتنسيوس اصبح ذلك المجلس من أقوى واحدث المؤسسات الدستورية الرومانية لسهولة اجتماعه فى أى وقت ، ولسهولة الحصول على التصويت على أى قرار يعرض عليه حيث أصبحت قراراته لها قوة القانون الرسمى ، وكان كغيرة من المجالس الشعبية يعقد فى الفورم ويؤخذ التصويت حسب أغلبية ممثلى كل قبيلة والتى بلغ عددها خمسة وثلاثون ، وأصبح الشى الوحيد الذى يميز بين المجلس المؤى والمجلس القبلى هو أن الأول كان يرأسه ويدعوه للانعقاد نقباء العامة اما الأخير فكان بدعوة للاجتماع أى موظف فى الدولة يشغل وظيفة من الوظائف العامة الكبرى .

روما وحلفائها اللاتين :

عرف العالم القديم دولا وامبراطوريات كثيره وشاسعة ولكنه لم يعرف دولة قامت قوية ومتماسكة ومنظمة بفعل التشريع الدقيق مثلما عرف الدولة الرومانية حتى ان اعداءها اعجبوا بها وحاولوا تقليـــدها والمنهزمون من الايطاليين لم يحزنوا على هزيمتهم لأنهم ادمجوا فى كيان دولة قوية ومنظمة وحقق لهم السلام والعدل والحياة الكريمة ، ولكن هذا البناء القانونى والدستورى الذى نظم العلاقة بين روما وايطاليا لم يجىء فى يوم وليلة بل استغرق وقتا طويلا ومر بمراحل متعـــددة واكتمل تدريجيا وتعرض لامتحانات قاسية عندما هاجم بورهوس صقلية وروما ، وأيضا خلال حروب هانيبال المريرة .

لقد ابتلعت روما جيرانها اللاتين والأيطاليين واحده بعد الأخرى ثم نظمت علاقتها مع كل واحده على انفراد .

يروى التراث الشعبى أن خلال سنوات الصراع الطبقى الذى اجتاح روما لم تغلق أبواب معبد يانوس أبدا ، دليل على استمرار الحروب بين روما وجيرانها الأيطاليين . لقد كانت روما تمر بمرحلة التوسع ومواجهة أخطار جيرانها المعادية لها . فضلا عما عرف عن الرومان كشعب يهـوى الحرب والقتال . وكان أول الشعوب التى تعاملت معها روما بأسـلوب الحرب هم الاتروسكيون . وقد سبق أن ذكرنا جانبا من الاسـطورة الرومانية التى تحدثت عن شـجاعة هوراتيوس ورفيقية وكيف نجحا فى

تدمير الجسر الذى كان يربط بين ضفتى التيبر ليعيقا مرور لارس بورسينا وكيف أن هذا القائد الأتروسكى اوشك بالفعل على احتلال روما لولا تصدى احد الشجعان الرومان له وكان يدعى سكايفولا (Scaevola) وتروى الأساطير أن سكايفولا كان شجاعا لا يخاف الموت أو يخشى الالم لدرجة أنه وضع أمام رفاقه ممن حذروه من محاولته قتل بورسينا وما سيلقاه من عذاب بعد ذلك وضع يده اليمنى فى النار دون أن يتألم • وازاء محاولة الاغتيال التى تعرض لها بورسينا،أدرك خطورة احتلال روما ومقاومة الرومان له مستقبلا فأثر أن يعقد السلام مع الرومان مقابل شروط معتدلة وغادر الأراضى الرومانية بعد أن حمل معه رهائن من الرومان ضمانا لتنفيذ المعاهدة • وتستطرد الاسطورة الرومانية فتروى انه كان من بين الاسرى فتاه رومانية عنيده اسمها كلويليا (Cloelia) أبت أن تظل فى الأسر فدبرت أمر هروبها اذ ألقت بنفسها فى نهر التيبر وسبحت عائدة الى روما •

ولما ارسل بورسينا مطالبا بعودة الفتاة الهاربة اعادها الرومان اليه كدليل على حفاظهم على السلام • ولما أعيدت الفتاة سربورسينا من شجاعتها ومن حسن نيه الرومان فأطلق سراحها وعقد هدنة مع روما مقابل شروط أكثر اعتدالا • ومهما كانت الاساطير ، فانها ترمز الى أن أتروريا ظلت تفرض سيطرتها على روما ولو رمزيا لسنين غير طويلة بعد طرد الملك الرومانى وأعلان الجمهورية وأن الاتروسكيين تجنبوا استمرار فرض سيادتهم على الرومان ، فلجأوا الى حل المشاكل بينهم سلميا ، لأن الأتروسكيين لم يكونوا شعبا على نفس القدر من اتقان القتال كالرومان •

وعلى أى حال فان الاساطير الشعبية لا تذكر للأتروسكيين دورا فى محاولة تاركوينوس الثانية عام ٤٩٦ لاستعادة روما بل تذكر أن أنصار هذا الملك المخلوع كانوا من القبائل اللاتينية الحاقدة على الرومان وأن روما واجهت هذا الخطر بشجاعة فائقة وتمكنت من تحقيق أول انتصار لها على هذه القبائل قرب بحيرة ربجيللوس (Regillus) •

بعد هذه المعركة وضعت مدينة روما قدمها على أول طريق المجد والتوسع اذ فرضت سلطانها على جيرانها من اللاتين وأصبحت تتحكم فى

سهل (١) لاتيوم باكمله عن طريق عقد المعاهدات المتعددة مع مدنه ، لكن سهل لاتيوم لم يكن سهلا كبيرا اذ لم تزد مساحته على ثمانية آلاف كيلو متر مربع وكان معنى ذلك أن روما راحت تتطلع الى ضم اجزاء ايطاليا اليها وبناء الدولة القوية القائمة على التشريع الذاتى .

وبعد فرض سيطرتهم على هذا السهل وجد الرومان انفسهم وجها لوجه مع بعض القبائل المقاتلة خاصة أهل أيكويا (Aequia) وفولوسكيا (Voloscia) وقد استمرت هذه المواجهة سنوات عديدة من القتال والصراع ولم تكن حرب روما فى تلك الفترة المبكرة سوى مناوشات دموية وعمليات سطو وغارات على حدود العدو . اذ لم يكن جيش روما فى هذه المرحلة من التاريخ جيشا نظاميا دائما بل جماعة من المتطوعين يختارون من فلاحيها الذى كان عليهم اعــداد سلاحهم بأنفســهم وتجهيز طعامهم ومئونتهم على حسابهم كما كان هؤلاء المتطوعون لا يتقاضون راتبا أو مكافأة بعد انتهاء مهمتهم ولكن كان عليهم القتال لأن — الجنسية وحقوق المواطنة ارتبطت بالخدمة العسكرية .

تكوين الجيش الرومانى :

عزت الأساطير الشعبية الرومانية الى الملك سرفيوس تولليوس (٢) فكرة تنظيم الجيش على اساس الثروة والوضع الاجتماعى وبناء على ذلك وضع المواطنون الاغنياء فى مقدمة الجيش لأنهم كانوا يستطيعون تجهيز أنفسهم بالسلاح الجيد وبالخيول بينما وضع الفقراء فى الصفوف الخلفية لعدم قدرتهم على اقتناء الخيول والأسلحة الثقيلة . ورددت الأساطير ان سرفيوس توللیوس كان أول من قسم الشعب الرومانى (Populus) باغنيائه وفقرائه الى ١٩٣ وحده مئوية (Centuria) أى أن كل وحده كانت تشتمل على ماية محارب . وكان كل فرد يقف بما يتناسب مع الامتيازات الاجتماعية لطبقته . وكان النبلاء يشكلون ثمانى عشرة وحده مئوية وهى سلاح الفرسان الذى يتقدم المجموعات الأخرى ، ويلى ذلك باقى الجيش الرومانى الذى يشمل ١٥٧ وحدة مئوية ، مقسمة حسب الوضع الطبقى

(1) cf Livy 8, 1-2,
(2) Cf. Trebte and King, op. cit., p. 100 ; op. cit.

لرجالها الى خمس مجموعات تبدأ بأغنى رجال الطبقة المتوسطة الذين كان لهم ثمانون وحده مئوية ويتدرج الوضع الى فقراء الطبقة المتوسطة ، كما كان الجيش يشمل على وحدتين مئويتين من الصناع الفنيين (Fabrum) ووحدتين أخرتين من عازفى النفير (Cornicium) وضـاربى الطبول (Tubicinum) أما الوحدة المائة والثالثة والتسعين فقد كانت تتكون من المواطنين المعدمين الذين لا يمكون شراء سلاح . وقد نظر اليهم الرومان على أنهم لا يقدمون للوطن شيئا سوى امداده بالخلف واثرائه بالرجال ولذا اطلق عليهم لقب المنجبون (Proletarii) (١) ومقابل ذلك فقـد كان لهم حق التصويت فى الجمعية المئوية (Comitia centuriata) ونتيجة لقيام تنظيم الجيش على الثروة الشخصية فقد كان هذا التنظيم يتغير بعـد اجراء التعـداد (Census) الدورى الذى كان الرومان يحرصون عليه .

ولم يكن أى من الجنود يتقاضى راتبا أو اجرا لان الرومان اعتبروا الخدمة فى الجيش حقا على كل مواطن يتمتع بامتيازات المواطنه فيها ومن ثم سيطر النبلاء على الجيش وبالتالى ادعوا حق الافضلية فى شئون الدولة ونتيجة للتطورات العسكرية التى تطلبت القتال لاسابيع طويلة بعيدا عن الحدود مما جعل المعدمين لا يقدرون على الإنفاق على انفسهم طوال هذه الفترة أدخل نظام الرواتب (Stipendium) كمقابل لتعويض الجنود عن الاسلحة والنفقات ومدت فترة الخدمة فى الجيش الى ست عشرة سنة . ومن المعتقد ان هذا التغير حدث فى نهاية القرن الخامس أى حوالى ٤٠٤ ق . م ولم يكن هذا هو التغير الوحيد التى تعرض له الجيش الرومانى بل واحدا منها (٢) .

---

(١) ومن هذه الكلمة صيغ لفظ البروليتاريا العمالية وهى كلمة مركبة من اللفظ اللاتينى (Proles) (سلالة وأحفاد) و litarii اى المجلبون .

(٢) من التغيرات الاخرى ، التطوير الذى حدث ابان الحرب البونيقية والتطوير الذى أجراه ماريوس وآخرها التطوير الذى اجراه الامبراطور اغسطس .

على أى حال بعد موقعة ريجوللوس بدأت الروايات الشعبية تتحدث عن بطولات الجنود والجنرالات الرومان • فقد تغنت الروايات بشـجاعة جايوس ماركيوس (Gaius Marcius) وذلك الجنرال الارستقراطى الشجاع الذى أبلى بلاء حسنا فى الحرب ضد مدينة كوريولى Corioli احدى مدن القبائل الفولوسكية حتى انه لقب بالكوريولانى (Coriolanus) أو قاهر كوريولى ، وتذكر الروايات أنه بعد عودته تعرض لمؤامرات رجال العامة الذين اتهموه بمحاولة فرض نفسه دكتاتورا على البلاد مما اضطره الى الهرب واللجوء الى جانب الفولوسكيين ، ثم قادهم ضد روما وكاد يحتلها وبالفعل اقترب الى مسافة خمسة اميال منها لولا توسلات زوجته وامه العجوز فقفل راجعا حيث قضى ما تبقى من عمره يلوم نفسه ويندب حظه على رفع السلاح فى وجه وطنه •

كذلك تغنت الروايات الرومانية بسيرة رجـل آخر هو كنكيناتوس (Cincinnatus) ذلك النبيل ذى الثروة المتواضعة الذى اختاره مجلس السناتو دكتاتورا عسكريا لينقذ الجيش الرومانى من حصار القبائل الايكوية عند جبل الجيدوس (Algidus) وتروى احدى الرويات ان وفد السناتو الذى جاء ليبلغ كنكيناتوس بقرار اختياره دكتاتورا وجده يعمل فى حقله بنفسه،ورفض ان يستمع الى قرارهم قبل أن يغتسل،ويغير ثيابه،ويضع على كتفيه التوجا (toga) العباءه السيناتورية • وبعد ذلك جلس فى هدوء يستمع الى قرار تعيينه دكتاتورا ثم انصرف مع وفد السناتو حيث كان ينتظرهم قارب صغير نقلهم الى روما • ولما وصل الى المدينة استقبلته الجماهير بعاصفة من التصفيق والهتاف • وما أن طلعت شمس اليوم التالى حتى كان كنكيناتوس يقود جيشا رومانيا من المتطوعين بعد أن حملوا معهم زادا يكفيهم خمسة أيام وعـددا من الخوازيق الخشبية • وعنـد جبـل

---

(١) Livy, ii, 39, 40 وقد خلد شكسبير الاسطورة بالرواية الشعرية التى كرسها له وسماها باسمه ولكن الشاعر الانجليزي اضاف نهاية درامية لحياة هذا البطل الخائن فقد جعل الفولوسكيون أنفسهم يقتالونه .

وعن هذه البطولات انظر : Eutropius I, 17 - 20.

الجيدوس نصب كنكيناتوس هذه الخوازيق كسياج تحمى الجيش الرومانى ثم تمكن من محاصرة الأيكويين حتى استسلموا وأرغم قادتهم على المرور تحت النير الرومانى (عبارة عن حربتين منصوبتين رأسيا وحربه ثالثة موضوعة أفقيا فوق طرفى الحربتين الأخرتين) علامة على الاستسلام الكامل . وعاد كنكيناتوس منتصرا الى روما ولم يمض على تعيينه اربع وعشرين ساعة وهناك سلم مهام وظيفته واستأذن من السناتو ليعود الى حقله ليكمل حرثه (1) .

تجدد الصراع بين الرومان والاتروسكيين :

وبعد انتصار الرومان على الايكويين والفولوسكيين بدأوا فى تصفية حساباتهم القديمة مع الاتروسكيين . ولم يكن الاتروسكيون همجيين مثل القبائل اللاتينية من سكان الجبال ، بل كانوا شعبا متحضرا بنوا المدن الكبيرة وصنعوا الأسلحة ونظموا الجيش مما جعل المعركة معهم تأخذ طريقا مخالفا كلف الرومان الكثير من الدماء .

كانت المعارك تدور بين الرومان والأتروسكين حول مدينة ڤيى Veii التى تقع على الجانب الآخر من نهر التيبر ، ولا تبعد عن روما سوى اثنتى عشرة ميلا من الشمال . وقد سجلت حوليات الشعب الرومانى أن أربع عشرة معركة قامت بين الفريقين حول هذه المدينة التى سقطت اخيرا فى يد الشعب الرومانى عام ٣٩٦ ق . م وقد حاولت أساطير البطولة الرومانية أن تقارن بين حصار الرومان لمدينة ڤيى وحصار الأغريق الاسطورى لمدينة طروادة ، اذ ادعت الروايات الرومانية أن حصار الرومان استمر عشر سنوات مثل حصار طروادة ، ولكن الذى لاشك فيه أن حصار الرومان للمدينة استمر فترة طويلة لأن الرومان اضطروا لأول مرة الى صرف مرتبات للمحاربين . لأن المحاربين المتطوعين اضطروا للبقاء طويلا ولم يستطيعوا العودة لغرس البذور أو حصد الثمار كما كانوا يفعلون فى المعارك الأخرى .

(1) Livy, iii, 27 9.

وكماتغنت الأساطير الاغريقيةببطولة أوديسيوس وشجاعته فى تدميرطروادة أشادت الروايات الرومانية ببطولة الجنرال الروماني كاميللوس (Camillus) وتستطرد الأساطير فتروي أن هذا الجنرال لجأ الى حيلة ذكية اذ أنه حفر نفقا تحت الأرض وصل الى داخل المدينة المحاصرة وطبقا لخطة هذا الجنرال فقد توقف الحفر تحت قلعة المدينة الرئيسية وهناك راح كاميللوس ينصت الى ترانيم كهنة الاتروسكيين في المعبد وهم يذبحون الاضـاحى قربانا لآلهتهم • وسمع احد الكهنة يروى لزعماء الاتروسـكيين أن من يكمل الشعائر الدينية سوف ينتصر • ولم ينتظر كاميللوس فاندفع الى المعبـد وأكمل الشعائر الدينية ثم اندفع الى الطريق العام وفتح بوابات المدينـة ليتدفق الجيش الرومانية اليها (١) •

لقد كان سقوط فيبى بمثابة بداية النهاية للسيـطرة الاتروسكية إذ تهاوت المدن الاتروسكية مستسلمة واحدة تلو الأخرى أمام قوة الجيش الرومانى الذى علمته التجارب الكثير ، وكان الرومان كرماء مع الميـدن الاتروسكية فتركوها تتمتع باستقلالها المحلي فى اطار الدولة الرومانية المتحـدة •

صراع روما مع الغاليين :

لم يتخلف فى وجـدان الرومان وتراثهم ذكريات تفوق فى المبالغـة والتهويل والرعب مثل روايات هجوم القبائل الغالية علي روما • لم يكن يدور بخلد الرومان أى خوف من تهديد الغاليين لهم لأن هؤلاءكانوا بعيدين عنهم نسبيا فهم يعيشون في المنطقة الشاسعة من الأرض المحصـورة بين الالب والراين وجبال البرانس والمحيط الاطلنطي وبعض الاجزاء المطـلة على حوض البحر المتوسط • ويفصل بين بلادهم وبين ايطاليا نهر البـو وسهلة العظيم • وكان سكان هذه المنطقة من عنصر سكاني واحد وثقافة تكاد أن تكون واحدة حتى منذ أيام العصر الحجري الحديث • كما أن المنطقة بأكملها تعرضت للامتزاج مع العنصر الكلتى (Celtic) الذى جاء اليها عبر نهر الراين وأصبح يشكل العنصر الغالب للغاليين • وباستقرار

---

(١) وتقول الروايات الشعبية ان كاميللوس نفى بعد عودته منتصرا بسبب استيلائه علي بعض الاسلاب لنفسه بدلا من توزيعها على جنوده .

الغاليين فى هذه البلاد بدأت تتكون لهم طريقة حياة وثقافة متميزة وقد استفادوا كثيرا من حضـــارة الاغريق التى تسللت اليهم عبر مستوطنـــة ماسيليا (Massilia) (مارسيليا) التى أسسها الاغريق فى القرن السادس قبل الميلاد أثناء حركة التوسع والانتشار الاستيطانى .

ولكن الغاليين لم يكونوا شعبا مسالما يميل الى الاستقرار ، بل عرف عنهم التقلب والتغير نتيجة للمزاج الحاد الذى كانوا يتصفون به ، وكثيرا ما كانوا يغادرون قراهم واكواخهم ومراعيهم بحثا عن أرض جديدة ويفعلون ذلك فى شكل هجرة منظمة ، يحملون معهم نســاءهم وأطفالهم ومتاعهم ، ولم تخل هذه الهجرة من القتال ومن ثم اشتهر الغاليون بحبهم للقتال والعنف الذى وصفه الرومان بالبربرية ، لقد سرت شائعة فى روما تقول ان رجلا كان يسير ليلا امام معبد الربه فستا فسمع صوتا ينادى « اخبروا القنصلين بأن الغال قادمون » ولكن احدا لم يعبأ بهذا الانذار حتى جاء عام ٣٩٠ ق . م عندما تدفقت القبائل الغالية من الشمال وحاصرت مدينة كلوسيوم (Clusium) الاتروسكية، وفى ساعة الخطر طلب الاتروسكيون من جيرانهم وحلفائهم الرومان النجـدة ، وأوفد الرومان رسلهم الى الغاليين يبينون لهم أن أهل مدينة كلوسيوم حلفاء لهم ويطلبون منهم فك الحصار عنهم فرفض الغاليون غير مكترثين بالرومان مما أدى الى المواجهة المباشرة بينهم وبين الرومان وترك الغاليون مدينة كلوسيوم واتجهوا الى روما نفسها لاحتلالها .

وفاجأ الغاليون جيشا رومانيا كان قد أرسل لصدهم وحاصروه من كل اتجاه عند نهر آلليا (Allia) على مسافة أحد عشر ميل تقريبـــا من شمال روما ، ولم يجد جيش روما فرصة لحفر الخنادق وتحصين نفســه وانما أخذ على غرة ، ووجد الرومان أنفسهم محاصرين من قبل جنـــود برابرة ، يقــاتلون بجنـــون ، ويرفعـــون عقـــيرتهم بالصـــياح والأغانى الحماسية .

وكانت النتيجة أن هزم الجيش الرومانى وسحق وفر الناجون اما الى مدينة فيبى القريبة أو الى روما ليخبروا السناتو والشعب بنبأ هذه الهزيمة المشينة .

مذبحة لاعضاء السناتو :

وفى الثامن عشر من شهر يوليو (١) وصلت جحافل الغال الى بوابات روما ليجدوها مهجورة بلا حراس ، لأن الشعب كله هرب واحتمى داخل أسوار القلعة فوق الكابيتول ، وهم يستمعون الى صراخ الغاليين يدوى الليل كعواء الذئاب ، وفى اليوم التالى دخل الغاليون عبر بوابات وطرقات روما المهجورة . لقد اتخذ السناتو الرومانى قرارا شجاعا وهو نقل الرجال والشباب والأسلحة وعدد كبير من النساء والشيوخ والأطفال الى أعلى القلعة لمقاومة الغال . أما أعضاء السناتو فقد أبى عليهم كبرياؤهم أن يهربوا فجلسوا بوقار كالآلهة فوق مقاعدهم العاجية بعد أن وضعوا على أكتافهم عباءاتهم السيناتورية ، واتخذوا مجالسهم فى ساحة المدينة وفى حدائق منازلهم المطلة عليها ، مقدمين أنفسهم قربانا للآلهة من أجل انقاذ باقى الشعب الرومانى .

ولما شاهد الغاليون هؤلاء الشيوخ الرومان بوقارهم وشعرهم الأبيض وهدوئهم الملائكى حسبوهم آلهة أو على حد تعبير ليفيوس نفسه تماثيل للآلهة « لأنهم كانوا أشبه بتماثيل الآلهة موضوعة فى مكان مقدس » . ولكن أحد الغاليين مد يده ليتحسس لحية أحد هؤلاء الشيوخ وكان اسمه ماركوس بابيريوس (Marcus Papirius) فضربه ذلك الشيخ بعصاه العاجية وكان هذا بمثابة الفتيل الذى أشعل البارود فأنطلق الغاليون وثارت ثائرتهم وقتلوا الشيوخ عن آخرهم ويعرف ذلك بمذبحة السناتو الكبرى ، ولم يكتف الغاليون بذلك بل راحوا يجرون فى الطرقات يقتلون كل من تقع عليهم عيونهم ويحرقون المنازل والمعابد .

كل هذا كان يتم والرومان رابطى الجأش عبر أسوار القلعة المحصنة ولما حاول الغاليون تسلق أسوار القلعة ردهم الرومان بعنف ولم يجد الغاليون بدا من ضرب الحصار حولها أملا فى سقوطها .

وقاوم الرومان ذلك بفتح طريق كانوا يتلقون منه المؤن والعتاد من أصدقائهم وضيعوا الفرصة على الغاليين أنفسهم الذين بدأوا يعانون من

---

(١) وقد ظل الرومان لمئات السنين يعتبرون هذا اليوم يوما نحسا dies negra عليهم ويتشاءمون من مقدمة .

النقص فى الطعام والعتاد ، خاصة أن الرومان راحوا يقطعون طريق التموين عنهم ٠

ولم يجد الشعب الرومانى ساعة المحنة بدا من استدعاء بطله كاميللوس ليعين دكتاتورا على المدينة ، وأرسل شاب من القلعة ليحمل هذا النبأ الى بطل ڤييى ٠ ولكن الغاليين اقتفوا آثار الطريق الذى نزل منه هذا الرسول من أعلى القلعة وقرروا أن يدخلوا القلعة عبر هذا المطلع الصخرى الوعر ٠

ويقص علينا بلوتارخوس رواية طريفة من التراث الشعبى الرومانى ، قصة ما حدث أثناء هذه الليلة عندما تمكن فريق من الغاليين من تسلق ذلك المطلع الوعر حتى كادوا أن يدخلوا القلعة دون أن يراهم أحد « ولكن مجموعة من الأوز المقدس التى كانت تعيش بالقرب من معبد الربة جونو ، والتى اعتادت أن تطعم فى الأوقات السابقة بوفرة والتى آلت الى حالة هزيلة بعد أن أهملت ٠٠ اعتراها الأرق والقلق بسبب الجوع ، أحست بصوت تسلل الغاليين فراحت تصيح وهى تجرى هنا وهناك حتى ايقظت المعسكر بأكمله وهرول الرجال الى السلاح وردوا المتسللين على أعقابهم خاسرين » ثم عاقبوا قائد الحراس لاهماله واجبه ٠

واستمر حصار الغال للقلعة سبعة شهور متتالية والرومان صامدين بينما ضاق الغاليون ذرعا بسبب نقص المؤنة وانتشار الوباء بين صفوفهم لدرجة أنهم تركوا جثث الموتى دون أن يدفنوها ٠

هذا بينما ظل كاميللوس بطل الرومان عاجزا عن تجهيز قوة لكسر هذا الحصار وأخيرا قبل الطرفان اتفاقا أن يغادر الغاليون روما مقابل غرامة من الذهب يدفعها الرومان وبينما كان الرومان يجمعون الذهب من نسائهم ويزنونه للمحتلين لاحظوا أن الغاليين يتلاعبون فى الميزان فاحتجوا على ذلك غاضبين فما كان من قائد الغال الا أنه استل سيفه ودفع به فى الميزان صائحا الويل للمهزوم (Vae Victis) وبلغ من شدة غضب الرومان أن طالب فريق منهم بنقض الاتفاق والعودة الى السلاح ، وفجأة وصل كاميللوس البطل على رأس جيش جرار وجمع الذهب المبعثر

على الأرض - وسلمه لضباطه قائلا « أن من عادة الرومان تحرير وطنهم بالحديد (أى بالسلاح) وليس بالذهب » وفر الغاليون منسحبين وتقفى كاميللوس أثرهم حيث فتك بهم أشد فتكه .

وكما يتضح فان هذه الروايات التاريخية يغلب عليها الخيال الحالم وهو الأسلوب الذى عالج به المؤرخون الرومان تاريخهم المبكر ، وما من شك فان المؤرخ يقف حائرا ازاء هذا التراث الممزوج بالخرافة ولكنه يستطيع استشفاف بذور الحقيقة مجردة من الغلاف الخرافى . ولعل ما يجعل مهمة المؤرخ شاقة وصعبة عدم وجود الأدلة المادية الأخرى مثل الحوليات التى كان الرومان يسجلون فيها كل عام أهم الأحداث التى تتعرض لها مدينتهم لأن الغاليين أحرقوا كل شىء حتى الوثائق السابقة على هذا الهجوم فقدت أيضا أثناء القتال .

ولكن الذى لاشك فيه أن هجوم الغاليين على روما واحتلالهم لهـا كان حدثا كبيرا فى معالم التاريخ الرومانى لأن المؤرخين أولوه عناية كبيرة فيما بعد وعلى الأقل فهو بالنسبة لنا نهاية عصر التاريخ الذى يقوم على الرواية والتخمين أو ما نسميه بالتاريخ الحالم أو فجر التاريخ الرومانى وبداية عصر التاريخ الواقعى الذى يقوم على الوثائق والآثار والنظـرة الواقعية للتاريخ .

الفصل الخامس

اكتمال ملامح الجمهورية وتبلور شخصية المواطن الروماني

(٥٠٠ ـ ٢٦٤ ق.م)

تجمع الروايات الشعبية الرومانية على أن روما الفعلية هي تلك التى قامت بعد طرد الغاليين ، اذ تتحدث عن موكب النصر الذى استقبل به كاميللوس البطل المنتصر ، وعوذة الكهنة وهم يحملون تماثيل الآلهة المقدسة وقالوا انهم كانوا قد دفنوها حتى لا يصل اليها دمار العدو البربرى ، وكأن عودة الآلهة هو عودة الروح المعنوية والوعى الى الرومان . ولكن الرواية تستطرد متحدثه عن الدمار الذى حاق بروما والمجاعة التى انتشرت بين الناجين من الموت الذين برزوا أحياء من بين الأنقاض ، لدرجة جعلت الرومان يفقدون الأمل فى اعادة بناء المدينة وأعادتها الى الحالة التى كانت عليها قبل الحروب وراحوا يرمقون مدينة ڤييى (Veii) الكبرى بعين الحسد لأن أهلها تمكنوا من اعادة بنائها بعد فك حصار الغاليين عنها ، وداعب خيال الرومان فكرة ترك روما والانتقال الى ڤييى التى أخضعوها لسلطانهم منذ سنوات بقيادة بطلهم كاميللوس . واجتمع حكماء الرومان ونبلاؤهم لمناقشة هذا الاقتراح ، ودعى شيخ مسن اسمه لوكريتيوس ليفتتح النقاش ولكن قبل أن يتفوه ببنت شفة سمع صوت أحد قادة الوحدات المئوية (Centurion) يأمر ضباطه بالتوقف واقامة البيارق فى هذا المكان « لأنه لا يوجد أحسن منه » ولم يقل لوكريتيوس شيئا بل صلى للآلهة معتبرا ذلك الفأل أمرا من عندهم وتحذيرا بعدم هجرة روما واعادة بنائها فى مكانها القديم . وهلل الرومان لهذا لأنهم كانوا يحبون مدينتهم بشدة ، لأن أجدادهم مدفونون فيها ، ولا يريدون ترك موقد المدينة المقدس فينطفىء .

كذلك فان حب الرومان لوطنه ، ينبعث من حبه لبيته ولأسرته ، لأن الأسرة الرومانية كانت بحق نموذجا مصغرا للمجتمع الروماني بأكمله .

الاسرة الرومانية :

تعنى كلمة أسرة باللاتينية (Familia) أى البيت وكل من يعيش تحت سقفه سواء من الوالدين أو الأبناء وزوجاتهم (Filii, Filiae) أو الأحفاد أو الأجداد وأبناء الأخوة أو الأخوات الذين (familias) يعولهم رب الأسرة بعد موت عائلهم ، كذلك كانت الأسرة تشمل العمات اللائى لم يتزوجن . أى أن الأسرة الرومانية كانت أكثر شمولا وتشعبا من المعنى المحدود للكلمة ذاتها فى مجتمعنا الحديث ، وياليت المعنى يتوقف على الأهل والأحفاد ، بل تعداه ليشمل الأتباع (Clientes) الذين كانوا يعيشون فى حمى رب الأسرة ويأكلون من خيراته ويدينون له بالولاء والطاعة (مثلما كان الحال فى المجتمع الأوربى فى عصر الاقطاع) ، كذلك شملت الأسرة الخدم والعبيد الذين كانوا يقومون على خدمة رب الأسرة . كل هؤلاء كانوا تحت تصرف رب الأسرة وادارته ، وكان يلقب بعاهل الأسرة (Pater familias) وهو عادة أكبرهم سنا وأعلاهم مقاما . وكان يعتبر من يعيش تحت حماه واشرافه بمثابة بطانه له (Manus) (١)

ولكن السلطة التى كان يمارسها رب الأسرة كانت تختلف حسب طبقات الأسرة فهو مثلا كان يمارس سلطة رب الأسرة (Patria potestas) على زوجته وأولاده ، أما بالنسبة للاتباع فهو الحامى (Patronus) وبالنسبة للخدم والعبيد هو السيد (dominus) ومهما اختلفت الأحوال فقد كان رب الأسرة الرومانية دكتاتورا مطلقا بحكم العرف والقانون والدين ، فقد كان من حق رب الأسرة أن ينزل العقاب بأى فرد من أفراد الأسرة ، بل كان له حق الحياة أو منعها (Ius Vitae Necisque) عن ابنائه واحفاده ، وبكل ما يتبع ذلك مثل قتل الرضع أو القائهم فى العراء حتى الموت أو بيعهم كرقيق ، ولكن العرف الدينى اشترط موافقة مجلس العائلة الذى

---

(١) بشرط ان يكون زواجه شرعيا (Cum manu) وان يكون الاولاد قد ولدوا فى ظل زواج عادل . (Iustae nuptiae)

كان يتكون من الأقارب والاصدقاء قبل اصدار مثل هذا الحكم • ولكن قلما كان الأب — يتعنت فى استخدام سلطانه ضد ابنائه •

وكانت سلطة الأب على الأسرة تسقط بموت الأب أو فقدانه لحقوق المواطنة (Deminutio Capitis) أو بكتابة عقد يحرر بمقتضاه الابناء من سلطاته • كذلك سمح القانون والعرف الرومانى بتنازل الأب عن سلطاته لشخص غيره فى حالة التبنى أو زواج بناته اللائى يذهبن لسلطة أزواجهن •

وعند بلوغ الابن مبلغ الرجال كان يمارس سلطاته كمواطن حر دون أن يتعارض ذلك مع سلطات الاب ، ولكن سلطاته المدنية تظل تعتمد على سلطة الاب • فمثلا لم يكن فى مقدور الابن أن يحرز ثروة أو عقار الا بما يجود به الأب أو يسمح للأبن بامتلاكه ، وأصر القانون الرومانى على جعل الأب وحدة دون أحد سواة يتحكم فى ممتلكات الاسرة سواء بالبيع أو الرهن أو التنازل •

الاعتقاد بالارواح والخفية :

توارث الرومان أبا عن جد الايمان الشديد بالغيبيات وبالأرواح الخفية السرية بل اعتبر العرف الرومانى هذه الأرواح جزءا لا يتجزأ من وجود الأسرة الرومانية لأنها تقيم داخل المنزل وتهيمن عليه وعلى أفراده — ولم يحاول الرومانى تصوير هذه الأرواح بالرغم من أنه حاول تسميتها وتحديد خصائص كل منها • ولما كانت هذه الأرواح كثيرة وغامضة وتتشابه شكلا وموضوعا فقد كان يحاول أن يتعامل معها ككل ، ففى الصلوات التى كان يتقدم بها لهذه الأرواح كان يخاطب المجهول ذكرا كانت أم انثى ، مفردة أم جمعا ، ويجىء على رأس هذه الأرواح يانوس روح الدار ، أو باب الدار على الأخص ، لأن من الباب يدخل ويخرج كل شىء يحدث للأسرة خيرا كان أم شرا ويؤثر على حياتها كاستقبال مولود أو عروس أو توديع احد أفراد الأسرة الى القبر •

كان يانوس كما سبق أن رأينا رب البدايات وفاتحة كل شىء مثل بداية السنة (١) أو اليوم أو الساعة أو الحصاد ، وكان معبده يتوسط الفورم الرومانى ببواباته التى لا تغلق الا فى أيام السلام . أما على مستوى الأسرة فقد كان يانوس يشرف على الأسرة ورفاهيتها . وكان يصور برأس انسانية لها وجهان لكى يرقب جيدا ما يدخل من الباب أو يخرج منه خاصة الأرواح الشريرة التى قد تسبب الأزمات أو تعكر صفو الأسرة .

ويلى يانوس ربه الموقد فستا (Vesta) (٢) التى تبعث الدفء والحياة والسعادة فى الدار . ولم يحاول الرومان تصويرها أبدا لأنهم على حد تعبير شاعرهم الكبير أوفيديوس اعتقدوا أنها ليست سوى الموقد الدائم الاشتعال (٣) (Ignis Inextinctus) ، ولهذا حرصت الأسرة على التوجه لها بالصلاة فى كل مرة تجتمع فيها حول مائدة الطعام ، حيث تقدم للموقد قطعة من شطيرة مملحة تقوم بصنعها بنات الأسرة . وكما كان الموقد يتوسط البيت الرومانى كان الموقد يتوسط مدينة روما بيت الرومان الكبير ، وهناك فى قلب الفورم الرومانى كان يقف معبد فستا الكبير ذلك البناء الدائرى الشكل على طراز المنازل الرومانية القديمة ، وفى قلب المعبد توجد الشعلة المقدسة التى لا يسمح باطفائها الا فى اليوم الأول من شهر مارس بداية السنة الرومانية القديمة ، حيث ينظف المحراب والموقد ثم يعاد ايقاده فى احتفال دينى كبير . وكان يرعى الموقد المقدس فريق من الراهبات العذروات Vestales قيل أن عددهن كان ستا فقط ،وكن يخترن من بين عدد كبير من المرشحات فى سن تتراوح ما بين السادسة

---

(١) ولهذا اشتق شهر يناير بداية السنة من اسمه
cf Trebte & King, op. cit., p. 123 ff.

(٢) وهى تعادل الربه هستيا عند الاغريق .
Ovid, Fasti, 6. 295-6.

(٣) كذلك اشار اليها شيشرون بقوله تلك النار التى لا تخمد
Ignem illum Sempiternum (Cicero, Dom. 144.)



صورة لاحدى راهبات الربة فستا

والعاشرة ، ويختارهن الكاهن الأعظم Pontifex Maximus بنفسه (١) . وبموجب الاختيار تنتقل المسئوليات من رب الأسرة الى سلطة الكاهن الأعظم ، الذى كان يرعاهن أو يعاقبهن بالجلد أذ أهملن الموقد أو تركنه ينطفىء ، أما من تفقد عذريتها فكان عقابها الدفن وهى حيـة ، وكانت الراهبات يخد من ثلاثين عاما (٢) فى محراب الربه ، بعدها يجوز لمن تربد منهن أن تتزوج ولكن الزواج كان عندهن أبغض الحلال .

كما أعطى الرومانى أهميـة كبيرة للربات اللائى يشرفن على مخزن الزاد والتموين فى الدار Penates (٣) وكان عددهن اثنتان يهيمن على خير الدار وملىء المخزن بالزاد ، ولذا كان محرما على أى شخص أن يدخل المخزن الا اذا كان طاهرا ، وكانت ربات الخزين عادة تشارك قستا محرابها وتشاركها قرابينها التى كان يلقى بها فى الموقد ، وقد صـورهن الفن الرومانى وهن يرقصن طربا وسعادة ويحملن بين أيديهن زق الشراب ، رمز الرخاء والخير ، كما كان لهن معبدهن الخاص فى قلب المدينة ، حيث قيل أن تماثيلهن القديمة كانت مدفونة هناك منذ أن جاء بهن أينياس عند قدومه من طرواده ، ونظرا لأهميتهن كانت القرابين تقدم لهن سنويا من قبل الكاهن الأعظم ، والقناصل والموظفين القضـائيين من درجة البرايتور ، وكذلك عند تولى الدكتاتورية أو تسـليم مناصبها ، كما كان الجنرالات الرومان يحرصون على تقديم القرابين لهن قبل الذهاب الى ميادين القتال .

ويلى ربات الخزين فى الأهمية مجموعة أخـرى من الأرواح أطلق

---

(١) فى كل مرة يختار الكاهن الأعظم فتاة كان يقول لها العبارة المشهورة « وآخذك انت ايتها المحبوبة » te, Amata, Capio

(٢) فى مقابل ذلك كانت الراهبات تمنح عددا من الامتيازات مثل التحرر من وصاية الاب ، او ارتداء زى العروس ، والقداسة .

(٣) واسمهن يشتق من اللفظ اللاتينى Penus اى مخزن الدار .

الرومانى عليهن اسم الأرواح الحارسة lares (جمع روح lar) وكن فى الأصل روح الحقول وخيراتها الداخلة الى المنزل،ولكنهن أصبحن بعد ذلك يعتبرون روح الأجداد الأسلاف الذين رغم رحيلهم يستمرون فى رعاية البيت والحرص على رفاهيته (١) • وكان كل بيت رومانى يحرص على الاحتفاظ بروح الأسرة lar Familiaris الذى يحرص على بقاء سلالتها وعدم انقراضها،وكانت صورة تلك الروح الحارسة تلف فى عباءة toga وتحفظ مع ربات المخزن فى محراب صغير (٢) بالقرب من موقد الدار حيث يتوجه الرومانى وأولاده وأحفاده لها بالتحية والقرابين كل صباح قبل تناول الافطار وبعد الغداء ثم تقـدم لهن القرابين ، وفى كل مناسبة اجتماعية تحتفل بها الأسرة ، مثل عيد ميلاد الأب أو استقبال العروس أو وليد ، أو قدوم غائب ، أو بلوغ ابن مبلغ الرجال وارتدائه عباءة الرجال لأول مرة toga Virilis ، كما كانت القرابين الخاصة تقدم الى روح السلف المقدسـة •

وعلى أى حال لم يفرق الرومانى أبدا بين الموقد وربات المخزن وروح السلف العظيم لأنها ترمز الى شىء واحد وهو رخاء المنزل ودوام الحياة فيه وبقاء سلامته •

وأخيرا لم تنس الأسرة الرومانية روح الجينات التى تحفظ السلالة Genius والتى يتوارثها ذكور الأسرة من الأجداد الى الأحفاد • ولهذا السبب كانت الأسرة تحرص على تسمية الأحفاد بأسماء الأجداد اعتقادا بعودة أرواح الأسلاف فى الأحفـاد ، وبدون هـذه الروح لا يستطيع الرومانى انجاب أبناء يكثرون سلالة الأسرة •

---

(١) ويقال ان عبادتهن فى المنازل ترجع الى الأيام الخوالى عندما كان الرومان يدفنون موتاهم داخل المنازل وقبل ان تحظر قوانين الالواح الاثنى عشر عليهم ذلك •

(٢) هى اللاراريوم lararium.

ولما كانت الأسرة الرومانية نموذجا مصغرا من المجتمع الروماني فقد عبدت الدولة روح سلالة سكان مدينة روما Genius urbis Romae كما نسمع عن عبادة سلالة الشعب الرومانى Genius Populi Romani حيث أقيم له معبد فى ساحة الفورم الرومانية ونحت له تمثال على هيئة رجل كث اللحية ، يمسك فى يده اليمنى قرن الرخاء Cornucopia وفى يده الأخرى الصولجان ، حتى الأماكن العامة مثل الحمامات والمسارح حرص الرومان على الاحتفاظ بروح سلالتها التى كانت فى العادة تتخذ شكل اللحية (١) •

وفى عصر الامبراطورية الرومانية « أدخل الامبراطور أغسطس عبادة روح سلاله يوليوس قيصر ثم عدلت فأصبحت عبادة روح سلالة أغسطس Genius Augusti كمنقذ للأمة الرومانية وموحد للامبراطورية •

وكان الاحتفال بها يقع فى التاسع من شهر أكتوبر من كل عام وهو نفس اليوم الذى يقام فيه الاحتفال بروح سلالة الشعب الرومانى وقد قصد بذلك اقناع الفرد الرومانى بأن الامبراطور ليس الا تجسيدا لروح الشعب الرومانى •

وهكذا يتضح مما سبق مدى حرص الرومان على اجلال الأرواح والغيبيات التى كانت جوهر الديانة الشعبية لجماهير الفلاحين الرومان البسطاء ، والتى آمنت بالشعوذه والقوى الخفيه والطالع وحرصت كل الحرص على ارضائها وعدم الخروج عن طاعتها وهى فى جوهرها ديانة بسيطة غير معقدة ، تعكس القيم الروحية عند الشعب الرومانى •

---

(١) ولهذا كان الاحتفال يقام من اجل روح سلالة رب الاسرة Genius Paterfamilias بصورة تفطى على الاحتفال الذى كان يقام من اجل روح سلالة ربة الاسرة Juno mater familias

منازل الرومان :

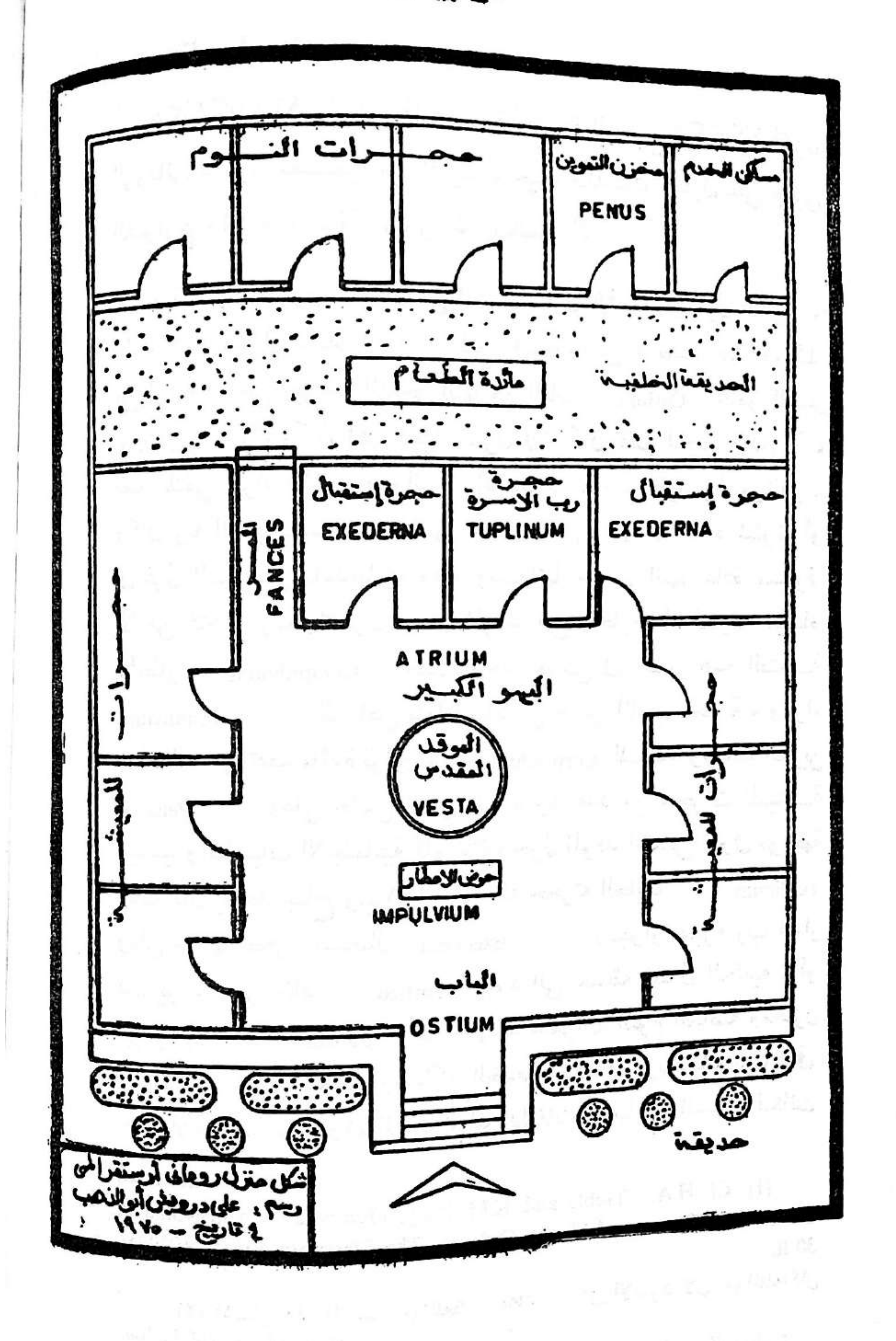
هكذا كانت الأسرة الرومانية صورة مصغرة للمجتمع ، كما كان المنزل الرومانى صورة مصـــغرة من المدينة ، حيث تكدست المنازل على جانبى الشوارع والأزقة الضيقة بصورة غير منظمة (١) .

ولقد ساد فى روما نوعان من المنازل منازل الأغنياء ومنازل الفقراء . ولقد كانت منازل الطبقة الأولى بالطبع واسعة وفسيحة تحيط بها الحوائط من أربعة نواحى ويواجه الداخل اليها من الباب Ostium البهو الكبير atrium (٢) وكان أهم أجزاء المنزل لأنه كان قلب الحياة والحركة ، ففيه يلتقى أفراد الأسرة ومواليهم وأصدقائهم ، ومنه يودعون موتاهم ، وكان ربة الدار تتصدر عادة البهو حيث تقضى وقتها فى ادارة شئونه أو فى غزل الصوف يساعدنها فى ذلك وصيفاتها . كان البهو عادة مسقوفا الا من فتحه مربعه لتسرب دخان الموقد الى الخارج أو لصرف ميـــاه الأمطار Compulvium حيث يوجد حوض فى اسفل هذه الفتحـة Impulvium للتخلص منها أحيانا عن طريق أنابيب فخارية ، ووراء هذا الحوض تقف مائدة قرابين مربعة Certibulum للموقد ولربات الخزين Penates وعلى جانبى البهو كان يوجد عدد من حجرات المعيشـــة اليومية والمناسبات الاجتماعية كلها تلتف حول الموقد المقدس . وفى مواجهة الباب كان يوجد جناح رب الدار يتوسطه حجرته الخاصة Tublinum وعلى جانبها حجرتا استقبال Exederna . وبجوار حجرة رب الدار كان يوجد ممر خاص Portico يقود الى حديقة المنزل الخلفية ، أو الى رواق خاص Fances حيث توجد حجرات النوم الخاصة ومخازن التموين ، ومائدة الطعام ، ومساكن الخدم . وقد انتشرت هذه المنازل فى أحياء الأغنياء بالمدينة وفى الريف ، أما الطبقات الدنيا من الشعب فكانت

---

(1) Cf H.A. Treble and K.M. King, «Everyday life in Rome in the Time of Caesar and Cicero, Oxford, The Clarendon Press ; 1929, p. 30 ff.

(٢) اشتق هذا الاسم من اللفظ ater اى الاسود لان حوائطه كان يغطيها آثار دخان الموقد .



شكل منزل روماني أرستقراطي
رسم : علي درويش أبو النصب
في تاريخ - ١٩٧٠

تعيش فى مجمعات سكنية مستأجرة يتكون كل مجمع من عدة طوابق ، ويشغل كل طابق عدة حجرات واسعة ، يتوسطها الموقد ، ولها نوافذ على الطريق أو على فناء الدار ، وكان صاحب المجمع السكنى عادة يشغل الطابق الأول ، حيث يقيم فيه حانوته ، ويحيط حول هذه المجمعات السكنية شوارع وطرقات من كل جانب ولذا فقد سميت بالجزر Insuale ، ولعل الدارس يدهش كيف أمكن للأسرة الرومانية الفقيرة أن تحيا فى هذه الجحور ليقوم عليها المجتمع الرومانى الذى كانت وحدته هو الأسرة .

ولكن الحقيقة هى أن المجتمع الروماني فى أخلاقه والتزاماته قام أساسا على الأغنياء وسكان الاقاليم وأهل الريف لأن غوغاء المدينة Vulgus اشتهرت بالاستهتار واللامبالاه ، وبالكسل واستمراء البطالة وبالسلوك الذى يتنافى مع كل المثل التى عرفت عن الرومانى ، بل ساء سلوكهم أكثر وأكثر فى نهاية عصر الجمهورية .

صفات الرومان :

يتميز الرومانى بحبه الشديد للوطن أو لأرض الآباء Patria ويلى حب الوطن التمسك بالتقوى Pietas وهى تشمل معان تفوق التفسير العصرى لهذه الكلمة فهى تعنى الالتزام بالأخلاقيات اليومية ازاء الدولة والمجتمع والأفراد وازاء النفس والأهل والأسرة ، وقبل كل شيء ازاء الآلهه . والالتزام بالواجب اينما كان والتمسك بسنه الأولين mos maiorum وعدم الخروج عليها .

ومن أهم صفات شخصية الرومانى الجدية والحزم Gravitas والثبات والعزم Constantia ، وحب العمل والاجتهاد Industria ، وضبط النفس والاعتدال Continentia ، واتباع النظام وحسن السلوك Disciplina ، وصحة النفس والبدن Fortitudo ، والرجولة والنشاط والقوة Virus والعناية بصحة البدن ، لأن العقل السليم فى البدن السليم Mens sana, Corpore Sano

---

(١) ومن هذا اللفظ اللاتينى اشتقت كل معانى الوطنية فى معظم اللغات الاوروبية المعاصرة وهى Patriotism

كل هذه الصفات الرومانية الصارمة(١) كانت على النقيض من طباع الاغريقى، الذى أحب الرقة والمرح والجمال والمعرفة وحب الاستطلاع والجدل والرغبة فى التجديد من أجل اكتشاف الجديد ، والتقلب فى الرأى ، والتحرر من كل التزام ، وخلاصة القول كان الأغريق عاطفيين خياليين بينما كان الرومان عقلانيين واقعيين وعمليين •

كاتو الاكبر كممثل لشخصية الرومانى :

كثير من المؤرخين المعاصرين يعتبرون كاتو الأكبر (٢٣٤ — ١٤٩ ق٠م) نموذجا لشخصية الرومانى القديم • ولقد وصف كاتو نفسه بقوله انه رجل شديد وصارم (٢) Vir fortis et strenuus •

كان كاتو فلاحا مزارعا عمليا يحتقر الفنون الجميلة لأنها فى نظره اداة ميوعة وتلويث للشخصية الرومانية الجادة ، ولذلك احتقر الأغريق ومقت فنونهم • كذلك لم يعط كاتو أى اهتمام لدراسة الفلسفة لأن الوقت من ذهب ، بل كان يتفاخر بأنه يقضى يومه فى ضيعته يعمل وسط عبيده ، يأكل من طعامهم ، ويشرب من نبيذهم الفج ، ويرتدى أبسط الثياب • ولكنه كان ينظر الى عبيده نظره غير انسانية ، فكان يفاخر بأنه لا يدفع فى ثمن العبد الا دراهم معدودة لأنه يريد مخلوقات قادرة على العمل ولايهتم بصباحة الوجه أو حسن الخلق ، بل نصح الناس أنه من الأفضل اقتصاديا ارهاق العبد فى العمل حتى تخور قواه ثم بيعه وشراء عبيد جدد من الاعتدال فى تشغيل العبد لكى يعيش عمرا أطول • كذلك تفاخر بأنه حارب من أجل روما ضد قرطاجه ووصل الى قمة المناصب الادارية فى الدولة

(١) كان الالمان من الشعوب النادرة التى حاولت التمسك بهذه الصفات الرومانية فى العصر الحديث خاصة ابان حكم الرايخ الثالث •

(2) Cf. Moses Hadas, A. History of Latin literature, Columbia University Paperback 1964, p. 59...60 f = Livy XXXIV, 40.

وكان احب منصب اليه هو منصب الرقيب Censor (١) الذي كان من واجبه مراقبة سلوك الناس وأخلاقهم ، ويروى عنه أن حذف اسم احد أعضاء السناتو من قائمة العضوية لأنه ارتكب جريمة بشعة فى نظره وهو تقبيل زوجته فى حضرة ابنته . وقد عرف بأنه كان زوجا مثاليا محبا لأسرته وأبا مثاليا ، وكان يقول أن الزوج الطيب لخير من عضو مجلس الشيوخ ، وكان يعتبر الرجل الذى يعتدى بالضرب على زوجته وأولاده متهما بالتعدى على أمانة كان يجب عليه أن يحافظ عليها ويقدسها . وكان يرفض أن يدع ابنه يتلقى المعرفة من عبد مثقف بل كان يشرف على تعليمه القراءة والكتابة والنحو ومبادىء القـانون والرياضـة والسباحة والرماية وركوب الخيل وتحمل المشاق .

وبالرغم من أن كاتو الأكبر يعتبر فى نظر الكثيرين مثـالا للرومانى القح الا أن بلوتارخوس هاجمه بشدة ، منتقدا طريقه معاملته للعبيد مبينا أنهم كانوا بشرا،وليسوا متاعا ، أو حاجات يلقى بها عندما تبلى ، حتى الحادثه المشهورة التى تفاخر بها كاتو دائما وهى أنه ترك أثناء اشتراكه فى الحرب فى أسبانيا حصانه الذى كان يريحه ركوبه حتى لا يحمل الدولة نفقـات نقـله ــ هاجمها بلوتارخوس قائلا أن ذلك يدل على خساسة النفس أكثر

---

(١) لم تكن وظيفـة الرقيب جزءا من سـلك المناصـب العـامة Cursus honorum (انظر ص ١٠٠) اى انه لم يكن متمتعا بأى سلطة ملزمة ولكنه عرفيا كان يتمتع بسلطات نافذة المفعول كالقانون تماما . ولذالم يكن يسمح لأحد بتولى هـذا المنصب الا اذا كان قنصلا سابقا او حاصـلا على البرايتورية على الأقل . واختصاصات الرقيب كانت تقوم على مراقبة الاخلاق والوضع الاجتماعى والملكية ، وكان من حقهم انزال رتبة المواطن الاجتماعية اذا ثبت عليه اساءة استخدام حقوق مواطنته كالجبن فى الحرب او الاختلاس من الأموال العامة . . الخ وكان من مهام الرقيب مراجعة قوائم مجلس السناتو وحذف اسماء من يراهم غير جديرين بمسئولية المنصب وترشيح أسماء جديدة بدلا منهم بل كان للرقيب حق مراقبة جمع الضرائب من الملتزمين والاشراف على تنفيذ عقود العمل التى تكون الدولة طرفا فيها مثل بناء الطرق او المشروعات العامة .

مما يدل على سموها (١) ولكن بالرغم من هذا اعترف بلوتارخوس بصلاحه وتقواه واستقامته وحماسته الدائب من أجل الصالح العام ، كما أشاد بأمانته وشجاعته وزهده وعفته . ولهذا اعتبر كاتو الرومانى الامثل سواء فى نظر المؤرخين القدماء أو المحدثين .

التعليم والتربية عند الرومان :

عندما يولد الطفل الرومانى ، يؤتى به الى حجر ابيه ، ليقرر الاحتفاظ به أو التخلص منه ، ولم يحظر ذلك التقليد الا فى القرن الثالث بعد الميلاد ، واذا قرر الأب الاحتفاظ بالوليد ، يعطى الطفل اسما فى اليوم التاسع ان كان ذكرا أو فى اليوم الثامن ان كانت أنثى ، ويسمى هذا بيوم التطهير Dies Iustficus حيث تقدم القرابين بهذه المناسبة وتقام وليمة كبرى ثم يعلق حول رقبة الرضيع حجاب ليحميه من شرور السحر والحسد ، وكان الوالد والوالده يتوليان بنفسهما تربية ابنهما جسمانيا وروحيا ، وكان الطفل يلقى فى بيت أبوية تربية حازمة تهدف الى جعلة قويا تقيا مطيعا للقوانين والعرف ، معتدلا قولا وفعلا ، مطيعا لمن أكبر منه سنا ، معتمدا على نفسه صالحا وذكيا .وبينما كانت الأناث يتلقين من امهاتهن أصول الطهى والغزل ، كان الابناء يتعلمون على أيدى آبائهم أصول الزراعة مثل حرث الأرض ، وبذر الحب ، والحصاد ، الى جانب السباحة ، وركوب الخيل والملاكمة واستخدام السلاح ، أيضا كان الأب يحرص على تلقين ولده أصول القراءة والكتابة ومبادىء الحساب ومبادىء القانون والعرف . والالمام بقدر يسير من الرياضة بغرض اللياقة العسكرية . ولم تكن الدولة تتدخل فى شئون التعليم بتاتا ، اذا كان الأب لا يستطيع تعليم أبنائه بنفسه فانه كان يرسلهم الى احد المعلمين الخصوصيين Litteratores حيث يتعلم الأولاد جنبا الى جنب اصول القراءة والكتابة والحساب ومطالعة نصوص الألواح الأثنى عشرة وحفظها عن ظهر قلب . واحيانا كانت الأسرة تأتى بمدرس خاص ليعلم الابناء داخل المنزل Litterator ، وكثيرا ما كان

(1) Plutarchus, Cato Maior.

هذا المعلم اغريقيا وذلك لاهتمام الرومان فى عصر الجمهورية بالثقافة الاغريقية خاصة الياذة هوميروس أو ليفيوس اندرونيكوس اللاتينية ، وغيرها من أعمال مشاهير الشعراء والأدباء الاغريق والرومان . اما المرحلة العالية فى التعليم الرومانى فقد كانت تعليم الخطابة والبلاغة ، على الطريقة الاغريقية لأن تعلم الثقافة الاغريقية كان يعتبر المرحلة العالية فى نظام (١) التعليم الرومانى .

وأحيانا كان التعليم يشمل علم قياس الأرض والموسيقى الى جانب الخطابه والبلاغة، ولم تتدخل الدولة بتاتا فى التعليم حتى عصر فسباسيانوس عام ٦٩ ميلادية – عندما جعل الدولة تتكفل لأول مرة بدفع رواتب معلمى البلاغة الأغريقية والرومانية (٢) .

وكانت مرحلة التعليم العادى تنتهى عند بلوغ الابن سن السادسة عشر أو الرابعة عشر حيث يقام فى كل عام فى السابع عشرة من شهر مارس عيد الفتية Liberalia ، وفيه يخلع الفتيان فى حضرة اللاريس رداء الطفولة Pullae toga praetexta وهى العباءة ذات الاطراف الأرجوانية المزركشه ، ويضعون بدلاً منها عباءة الرجال Toga virilis ويذهبون لأول مرة مع آبائهم وأصدقائهم الى الفورم الرومانى حيث يقيدون أسماءهم فى قوائم المواطنين ، ومنذ تلك اللحظة كان الابناء يعتبرون فى نظر القانون رجالا ، قادرين على الزواج ومؤهلين لاداء الخدمة العسكرية .

وكما كان بعض الشباب يبدأون المرحلة التأهيلية من التعليم Tirocinium حيث يختار الابن اما المجال السياسى والمدنى حيث يعهد به الى خبير فى السياسة والادارة يصحبه الى قاعات المحاكم والى اجتماعات الفورم ، أو المجال العسكرى حيث يعهد به الى معلم عسكرى يدربه مبدئيا على العسكرية من أجل أن ينضم الى صفوف الجيش فيما بعد ليعمل ضابطا فيه .

---

(١) فيما بعد اصبح تعليم اللغة اليونانية يبدا من المرحلة الأولى عن طريق مربية أغريقية .

(٢) انظر كتابى : التاريخ السياسى والحضارى للامبراطورية الرومانية ، القاهرة ، دار النهضة العربية ١٩٧٥ ، ص ١٧٨ .

سلك الوظائف الدينية : Cursus honorum

لم يعرف التاريخ الانسانى شعبا استطاع اذابة الطبقية بالهدوء وعلى المدى الطويل مثل الرومان ، فمنذ بداية الصراع الطبقى أصبح هنـاك وفاقا Concordia بين العامة والنبلاء ، وقد تم ذلك عن طريق التشريع الدقيق ، وقد نجح هذا التوفيق بسبب حرص كل من الاشراف والنبلاء على سلامة الدولة ورسالتها ، ولكن الفصل الأول يرجع الى عبقرية الرومان التنظيمية ، والمعرفة بالصياغة القانونية والتجديد والتعريف القانونى • ومن ثم رسمت لكل طبقة حدودها ، وأعطت لكل ذى حق حقه Suum cuique وهذا جزء هام من مكونات الشخصية الرومانية •

وبعد أن اجتازت الأمة خطر هجوم الغال عليها ، تعمق الاحســاس بالدولة لدى الأفراد نتيجة لذوبان الصراعات الأجتماعية ساعة المحنــة ، وأصبح كل المواطنين حريصين على سلامتها ، و فى نفس الوقت ظهرت ملامح الجمهورية الرومانية سياسيا مما أدى الى تكوين جهاز تنفيذى وادارى وتعيين عدد من المواطنين لملء الأجهزة كمفوضــين عن الدولة • وأصبح هناك سلكا من الوظائف الشرفية Cursus honorum يتدرج فيهـا المواطن من ادناها الى اقصاها بتسلسل دقيق دون أن يتخطى احداها حتى يصل الى وظيفة القنصل التى هى قمة السلطة والشرف •

وكانت الخدمة فى الجيش شرطا أساسيا وتقليديا قبل الدخول فى سلك الوظائف حيث يقضى الشباب الرومانى عادة الفترة ما بين سن الســادسة أو السابعة عشر حتى سن السابعة والعشرين يصل بعدها الشاب الى منصب نقيب فرقة رومانية Tribunus legionis أو قائد فصيلة خيالة فى القوات المساعدة Praefectus alae

وبعد ترك الخدمة العسكرية يلتحق الشاب بأول وظيفة مدنية وهى عضوية مجلس العشرين Viginti وهو مجلس ذو اختصــاصات

بسيطة ومحدودة ، بعد ذلك يتطلع الشاب الى وظيفة الكوايستور (١) •
كانت الكوايستورية أولى درجات الوظائف العامة ، وهى وظيفة نشأت فى عهد الجمهورية (٢) ، وكان عدد شاغليها اثنين ثم زيد الى أربعة بعد فتح هذا المنصب امام العامة • وكان المرشحون ينتخبون من قبل الجمعية القبلية• وطبقا لنصوص الالواح الاثنى عشر كانت الكوايستورية فى الاصل وظيفة قضائية • ولكن أصبحت فيما بعد تختص بالشئون المالية وشئون الخزانة ، اذ كان اثنان منهما يبقيان فى المدينة Quaestores urbani للأشراف على الخزانة العامة Aerarium ويراقبان جمع الضرائب والمكوس والغرامات وحفظ الوثائق السياسية الهامة • أما الكوايستوران الآخران فكانا يساعدان القنصلين فى ميدان القتال وفى الاشراف على نفقات الجيش أو يرسلان للاشراف على الشئون المالية فى الاقاليم ولهذا زاد سوللا عددهم الى عشرين ويوليوس قيصر الى أربعين • ولكن أغسطس أنقص العدد الى عشرين مرة أخرى •

ومن الكوايستورية يصعد المرشح الى سلم المناصب الأعلى كالأيدلية وأ التربيونية Tribunicia

سبق أن ذكرنا كيف أن نقباء العامة حصلوا على تعيين مساعدين لهم فى ادارة مصالح العامة Aediles plebis ويشتق اسم الايديل من أسم Aedes وهو معبد ربة القمح Ceres التى كان العامة يولونها عناية خاصة بل واقاموا لها معبدا ، وحيث كان الايديلان يمارسان منه مهامهما • ولكن بعد ذلك اتسعت سلطاتهما لتشمل ادارة السجن وتنفيذ الأحكام التى يصدرها نقباء العامة خاصة الاعدام ، كذلك أصبح من اختصاصهما ادارة المرانق العامة والاشراف على دار المحفوظات الخاصة بقرارات نقباء العامة Plebiscita أو قرارات مجلس السناتو Senatus Consulta وفى عام ٣٦٧ ق • م ادخل النبلاء وظيفة مماثلة ، ولكن من نوع راق يتمتع

---

(١) تعنى كلمة كوايستر Quaestor باللاتينية الباحث . وطبقا لقانون Lex Villia Annalis الذى صدر عام ١٨٠ ق.م كان يشترط الا يقل سن المرشح لهذه الوظيفة عن ثمانية وعشرين عاما وان يقضى المرشح عامين قبل الترقى للوظيفة الأعلى •

(2) Plutarchus, Cato maior.

حاملها بحق استخدام الكرسى المحمول Sella curulis ومن ثم سميت Aediles curules ولكن لما سمح للعامة بتولى الوظائف العليا أصبحت هذه الوظيفة الخاصة أولا بالتناوب بين العامة والاشراف ، ثم بعد ذلك لكل من الفريقين حيث ينتخبان فى الجمعية القبلية تحت اشراف احد القناصل ، وصبقا للبروتوكول الرومانى يتقدم الايديل الكورولى على الايديل الشعبى لان الأول كان يملك حق التحكيم المدنى فى الأسواق أما الأخير فكان لا يملك سوى حق فرض الغرامة . أما فيما عدا ذلك فقد كانت مهام كل منها تكاد تكون واحدة وهى مراقبة الاسواق والتجارة Cura annonae والتفتيش على الموازين والمعايير والاسعار وضبط حالات الغش ، كذلك شغلت مهام هذه الوظيفة رعاية المبانى والمعابد والمرافق العامة Cura Urbis ونظافة الشوارع ورصفها كما شملت مهامهم الاشراف الصحى على الحمامات والحانات والمساكن ، والاشراف الاخلاقى والمعنوى على العادات والتقاليد ومحاربة البذخ والبدع الدينية الشرقية أو الأجنبية . كما شملت هذه الوظيفة أيضا الاشراف على اقامة المهرجانات والالعاب الرياضية Cura Ludorum Sollemnium والانفاق عليها من معونة الدولة أو من دخل الغرامات أو من دخولهم الخاصة ، ولهذا أصبحت هذه الوظيفة باهظة التكاليف ولا يقبل عليها سوى الموسرين والراغبين فى التبرع من أموالهم . ومن ثم كانت وسيلة السياسيين الطموحين الانفاق ببذخ لارضاء جماهير الشعب الرومانى استثمارا لشعبيتهم مستقبلا .

وبعد الحصول على الكوايستورية يجوز للمرشح أن يتقدم لمنصب التريبونية اذا كان من العامة وقد سبق الحديث عن هذه الوظيفة وسلطاتها .

وبعد ذلك يخطو المرشح نحو الوظيفة الاعلى وهى البرايتورية . كانت البرايتورية تلى القنصلية فى الأهمية والسلطة السياسية ، وهى وظيفة ترأس الجهاز القضائى وتشرف على تطبيق القانون خاصة المدنى . كان البرايتور يفحص القضايا مبدئيا ويصدر تعليماته الى القاضى Iudex

الرومانية الكاملة ولهم الحق فى ارث ممتلكات والديهم من الطرفين سواء الرومانى واللاتينى ، كما كان من حق المواطنين اللاتين الذين يتعاملون تجاريا مع روما أن يلجأوا الى القضاء الرومانى لرفع دعوى قضائية امام المحاكم الرومانية ضد أى مواطن رومانى وبنفس الحق أصبح من حق الرومانى المتعامل تجاريا مع المواطن اللاتينى أن يرفع عليه دعوى امام المحاكم الرومانية ، ويتمتع الطرفان بحماية القانون الرومانى فى حالات الارث والتعامل التجارى •

أما بعد ثورة الحلفاء اللاتين على روما وهزيمة روما لهم عام ٣٣٨ق•م حلت روما الحلف اللاتينى القديم لتضع قواعد تنظيمية جديدة من طرف واحد هو طرفها وبالقوة وكان هذا هو نقطة التحول فى سياسة روما من الظهور بمظهر الشقيقة الحامية لشقياتها فى الحلف والمدافعة عنهم الى صاحبة سياسة الارغام على الأدماج بالقوة ، والى سياسة التفرقة فى امتيازات التعامل حسب ولاء كل مدينة لاتينية لروما ، وحتى لاتسمح بظهور اتجاه عدائى أو انفصالى عنها كما حدث مع اللاتين بدأت روما بضم مالا يقل عن ست مدن أو اقاليم Municipia لاتينية ثائرة بعد اخضاعها وادمجتها ادماجا كاملا فيها مع منح سكانها الجنسية الرومانية الكاملة ، وتسجيلهم فى قوائم المواطنين الرومان مع ادراجهم فى القبائل الرسمية مع السماح باستمرار اجهزة الحكم المحلى فيها • كما طبق هذا الحق أيضا على المستوطنات التى كان الحلف اللاتينى القديم قد أقامها بالاشتراك مع المستوطنين الرومان فى المناطق الاستراتيجية الهامة •

أما باقى المدن اللاتينية بالاضافة الى المدن الاتروسكية المخلصة لروما فقد منحوا الجنسية الرومانية غير الكاملة أى التى لا تشمل حق الاقتراع أو الترشيح للوظائف sine suffragio ومقابل ذلك الزموا بالمساهمة فى تجهيز الجيش الرومانى عندما يقرر السناتو والقنصلان ذلك ويفرض على كل مقاطعة أو مدينة من هذا النوع نسبة معينة Formula تقرر حسب تعداد سكانها وامكانيتها وعلى ضوء قوائم مواطنيها • كما سمح لهـذه الفئه بحق الحكم المحلى بشرط أن يتركوا الشئون الخارجية والسياسية

لروما فلا يحق لهم سلوك مسلك سياسى مخالف لما تقرره روما ، كما لا يحق لهم الدخول فى أحلاف مع المدن اللاتينية الأخرى ، أو عقد معاهدات معها . وبالاضافة الى ذلك حرم التزاوج والتصاهر بين هـذه المدن والمقاطعات وبعضها البعض كما حرم على مواطنيهم أيضا التعامل فيما بينهم وانما يتعاملون ويتصاهرون مع روما فقط وبذلك نجحت روما فى تفتيت العلاقات بين هذه المدن والمقاطعات اللاتينية بينما ربطتهم بها وحدها فقط .

لقد كانت هذه الشروط الفردية الجـديدة ذات فائدة كبرى للمدن والمقاطعات اللاتينية فقد ضمنت لهم روما الحماية والدفاع ضد أى عدوان خارجى ، كما ضمن مواطنوها حمـاية القانون المدنى لهم فى تعاملهم مع الرومان ، الى جانب تمتعهم بالسيادة الذاتية لادارة شئون أنفسهم . وكان هؤلاء المواطنون دون الجنسية الكاملة يطمعون فى الحصول على الجنسية الرومانية الكاملة مستقبلا اذا ما أحسنوا التعامل مع روما وبذلك نجحت فى ربطهم بها عاطفيا وكسب ولائهم تعلقا بأمل رضا روما ومنحهم حق الجنسية الكاملة،وقد ثبت نجاح هذه السياسة الرومانية اذ بقى هؤلاء اللاتين على ولائهم لروما حتى فى أحلك ساعات صراعها سواء مع القبائل السمنية أو مع بيرهوس أو أثناء حروب هانيبال .

روما والدويلات الايطالية الأخرى :

ولم تكن معاهدة ٣٣٨ بداية لادماج سهل لاتيوم والمستوطنات اللاتينية سياسيا واجتماعيا فى روما فحسب ، بل بداية لربط وتوحيد ايطاليا بكامل شعوبها وحضاراتها تحت قيادة وزعامة روما اللاتينية ولم يعد امام ايطاليا المتحدة سوى اكتساح حوض البحر المتوسط وبناء الامبراطورية فقد كان هذا العمل العظيم الذى قامت به العقلية الرومانية المتيمة بالتخطيط السياسى والقانونى غزوا هادئا وتوحيدا وثيقا لشبه الجزيرة الايطالية لم يعرف العالم القديم له مثيل . فقبل عام ٣٣٨ ق . م كان الرومان يمحون المدن المهزومة من الوجود مثلما فعلوا مع مدينة فيى Veii أو سحقها وترك سكانها يتحرقون شوقا للانتقام من الرومان عندما تسنح الفرصة بذلك . اما بعد عام ٣٣٨ ق . م فقد ابتكرت روما سياسة ربط الدويلات الايطالية

من قبل الامة ولهذا لم يكن الموظف يتقاضى عنها راتبا أو اجرا (١) خلال عمله بل كان يكتفى بما يحصل عليه من امتيازات شرفيه ومظهريه .

سلك الوظائف الدينية :

كان الرومان من أكثر شعوب العالم القديم التى خشيت من عدم رضاء الآلهة والتزمت دائما بعدم اغضابها بل وباستشارتها قبل اتخاذ أى عمل لأن هدف الرومانى كان دائما وابدا هو السلام مع الآلهة Pax deorum ومن ثم فان الجهاز السياسى للدولة كان ملتزما بما يقرره الجهاز الدينى الذى كان يلعب دورا استشاريا كبيرا بالنسبة للدولة بل وللمواطن الرومانى العادى الذى يتمسك بالتقوى ويؤمن بالفأل وقراءة حركات الطير وتتحكم فيه الغيبيات الدينية . ولذا فقد كان هناك جهاز معقد من الجماعات الدينية التى تخصصت فى ناحية معينة من نواحى الشعائر الدينية وتعزى الروايات الى الملك نوما وضع قواعدها ، وتنظيم جهازها .

وفى بداية التاريخ كان الاشراف هم الذين يشغلون هذه الوظائف ولكن منذ عام ٣٠٠ ق . م بمقتضى قرار أوجولنيوس Lex ogulnia سمح للعامة بمشاركة الاشراف فيها ، ومن أهم الجماعات الدينية Collegia كهنة المواقد المقدسة فى المعابد Flamines وراهبات فستا العذراوات Vestales والمفسرون والعرافون Augures et Auspices وراقصو ومنشدو المعابد Salii وحماة العهود والمواثيق مع الشعوب الأجنبية Fetiales ، وكهنة الطهارة والتطهير Lupercii ، وكهنة الاخوان الأرفاليون Fratres arvales ، وهيئة كهنة المجالس القبلية Curiones ثم مجلس الكهانة الأعلى Pontifices .

لكن مع تقدم الجمهورية اعيد النظر فى هذا الجهاز الدينى ، ووزعت سلطات الملك الدينية على أجهزة وجماعات ، وظهرت ملامح سلك من الوظائف والاختصاصات الدينية ، وترأس هذا الجهاز الكاهن الأعظم Pontifex Maximus الذى ورث السلطة الدينية التى كانت للملك . واصبح

(١) كانت الدولة تدفع نفقات تكاليف السفر والانتقال للموظف فقط .

السلك الدينى يقوم على أربعة جماعات عليا Quattuor summa collégia
هى :

١ - مفسرو حركات الطير وقارؤ الطالع : Augures et Auspices

وزاد عددهم الي ست عشرة فى صدر الجمهورية بعـد ما كانوا ثلاثة يختارون من بين القبائل الثلاثة الأولى ، ويعزو الرومان تأسيس هذه الهيئة الى رومولوس • وكانت الدولة تستشير مفسرى حركات الطير والعرافين قبل اتخاذ أى قرار ، وكان من حق العرافين معارضة أى قرار بحجة سوء الطالع ولهذا سعى كثير من السياسيين الى الدخول فيها لأنها وظيفة تتحكم فى القرارات السياسية فضلا على أنها كانت تشغل مدى الحياة • كذلك فقد كان الأفراد من الناس يأخذون رأي العرافين أيضا فى حياتهم ومشروعاتهم الخاصــة •

وكما كان القنصلان يلجأن الى العرافين فقد كان رب الأسرة أيضـا يلجأ اليهم ولهذا فقد كان جهاز العرافين من أهم الأجهزة الدينية •

٢ - مجلس الكهنة : Collegium pontificium

وهي أهم هيئة أوكل اليها مهمة الاشراف ومراقبــة وادرة الشـعائر الدينية ووضع اللوائح والقواعد لها وارضاء الآلهة من أجل خير الفرد وخير الدولة ، ويترأس هذا المجلس الكاهن الاعظم Pontifex maximus
وترجع الاساطير تأسيس هذا المجلس الى عصر الملك نوما ، حيث شـغل سلطات الكاهن الاعظم • وقد تزايد عدد هذه الهيئة حتي وصل الى ست عشرة من العامة والاشراف •

ومن أهم الادوار التي لعبها هذا المجلس هو التحكم فى تحديد مواعيد الأعياد وأيام الحلال Fasti وأيام الحـرام Nefasti ، والاشراف على التقويم واضـافة ما يرونه من أيام للتوفيق بين التقويم الزمنى والأعياد الموسمية ، ولذلك كان من حقهم أبطال أي انتخاب بحجة عدم دقة التقويم ، وظلوا هكذا الى أن وضع يوليوس قيصر قواعد التقويم الرومانى على أساس تقويم ثابت لا تلاعب فيه وذلك فى عام ٤٦ ق • م ، ولكنهم ظلوا

مصدرا اساسيا فى التشريع الرومانى الذي كان ينبع من الاصول الدينية ويدلون بآرائهم امام المحاكم الرومانية .

ويترأس هذا الجهاز – كما قلنا – الكاهن الأعظم ، ونظرا لأهمية هذا المنصب الذى هو قمة الجهاز الدينى فقد كان يختار عن طريق لجنة من ممثلى القبائل واحيانا كان السناتو يختاره بشرط أن يوافق عليه مجلس القبائل . وكانت تشغل مدى الحياة ولها مهابة الملوك بدليل أن قصر الكاهن الاعظم كان يحتل ارقى جزء فى قلب المدينة التى لا يجوز له مغادرتها على الاطلاق .

وكان يشترط أن تكون زوجة الكاهن الاعظم فوق الشبهات ولا يجوز له الزواج الا بامرأة واحدة . وكان الكاهن الاعظم هو الذى يعاقب الكهنة لأنه لا يجوز لأى احد من الموظفين توقيع العقاب عليهم ولا يجوز لاحد ان يستدعيهم للمحاسبة الا الرقيب Censor ، وكانت هيئة راهبات الربة فستا يخضعن له خضوعا مباشرا وكذلك كهنة المواقد المقدسة Flamines ، ولما كان مجلس الكهانة هو الجهاز الاستشارى للسناتو فقد حرص السياسيون على شغل وظيفة الكاهن الاعظم مثل يوليوس قيصر الذى شغلها وكذلك الاباطرة ابتداء من أغسطس وحتى سقوط الأمبراطورية ، وبازدياد مسئوليات الكاهن الاعظم فقد اوجد له مساعد للاشراف على الاضاحي Rex sacrorum كما استقلت بعض اختصاصاته فى مجالس تكمل الجهاز الرباعى وهي :

٣ – كهنة الولائم : Collegium epulonum

وكانت مهمتهم الأشراف على الولائم والاحتفالات الخاصة بها نيابة عن الكاهن الأعظم . وكان عدد هذه الهيئة سبعة .

٤ – كهنة حماية وتفسير الكتب المقدسة : Quindici sacris faciundis

وعددهم خمسة عشرة وكان اعضاؤها عادة من القناصل والبرايتورين السابقين ، وهى وظيفة تشغل مدى الحياة ومهمة حامليها حراسة الكتب السابلية وتفسير نصوصها بناء على طلب السناتو .

هذه هى الاجهزة الدينية الأربعة الكبرى . ولما ادخلت عبادة الاباطرة اضيف اليها هيئة خامسة هى هيئة عبادة الاباطرة Sodales augustales

أما عن اختيار الكهنة فقد كان ذلك يتم بالانتخاب أو بالأتفاق بعد استطلاع رأى الرب الذى سوف يصبح الكاهن تابعا له ، ثم يقام مأدبة احتفاء بدخول العضو الجديد ، ويرتدى مثل باقى الكهنة العباءة الرسمية ذات الاطراف الارجوانية التى كان يرتديها حملة الوظائف الرئاسية . ومثل الوظائف المدنية،لم تكن المناصب الكهنوتية ذات أجر،بل شرفيه،حيث يتمتع الكهنة باحترام ووقار الناس ، فضلا عن بعض المزايا الأخرى مثل الجلوس فى المقدمة فى الاحتفالات والاجتماعات والاعفاء من الخدمة فى الجيش والاعفاء من كل الألتزامات المدنية بما فى ذلك دفع الضرائب ، واحيانا كان يسمح للكهنة باستغلال الأراضى الموقوفة حول المعبد الذى يخدمون فيه،ويحصلون على التبرعات والرسوم من الأفراد ، فى نفس الوقت كانت الدولة تتحمل نفقات المعابد والاضاحى والمهرجانات الرسمية حيث كان الكهنة يحصلون على نصيب من الاضاحى التى تنحر بل كانت الدولة احيانا تمد الكهنة بعدد من الخدم والعبيد لخدمتهم .

أما العبادات الأجنبية التى لم تعترف بها الدولة فقد تركتها تدير شئونها بنفسها دون تدخل من السلطة ، وكانت هذه المعابد تنفق على نفسها من التبرعات التى يجمعها مريدوها ، ويترك المعبد لادارة كاهنة أو كهنته ما دام ذلك لا يتعارض أو يتدخل فى مسائل الدولة الرسمية .

وخلاصة القول كان الرومان يعتبرون المعبد مؤسسة تابعة للدولة ، ويكون فى خدمتها ، ويبرر تصرفاتها السياسية ، باعطائها الشرعية الدينية ، وهذه النظرة الرومانية على النقيض من نظرة اليهود الى المعبد، فهم يرون أن الدولة خادم للمعبد ، ومنفذ لارادته ، وقد كان هذا الأختلاف فى النظرة سببا فى قيام الخلاف بين الرومان واليهود فى عصر الأمبراطورية .

الفصل السادس

توحيد ايطاليا وبداية التوسع الخارجي

(٢٦٤ — ١٣٣ ق٠م٠)

السيطرة على ايطاليا :

بالرغم من انحســار غزوة الغاليين الكبرى الا أن اراضى روما بقيت مطمعا لغزوات قبائل متعددة من الغال لمدة اثنين وأربعين عاما اقتربوا خلالها من العاصمة ولكنهم لم يتمكنوا أبدا من احتلالها ٠ ووسط هذا الخطر الكبير انتهز أهل ڤولوسكيا وأيكويا فرصة ضعف روما وانشغالها فراحوا يستردون ما فقدوه على يد هذه المدينة ، كذلك تمكن الاتروسكيون من استرداد الكثير مما فقدوه ، حتى حلفاء روما من اللاتين بلغ بهم السخط على حليفتهم حد التعاطف مع اعدائها بالرغم من انهم لم يرفعوا علنا الحراب تمردا عليها ٠

هكذا أصبحت روما مطوقة بالاعداء من كل جانب ولكن بطولة الرومان وعنادهم وشجاعة قائدهم كاميللوس كسرت هذا الطوق ٠ فسحقت روما الا يكويين والڤولوسكيين وخربت اراضيهم ، وذعر الاتروسكيون لمطالب روما وسلموا لها مدينة سوتريوم ، التى كانت تطالب بها بل اقامت روما سلسلة من المستعمرات الوقائية فى اتروريا كنقط للمراقبة ولحماية سهل لاتيوم ٠

وهكذا لم تمض عشر سنوات منذ الغزوة الغالية الكبرى حتى كانت روما قد استعادت مكانتها بل زادت عليها ٠ ولم يعد احد يجرؤ على تحدى هذه المدينة الناهضة أو يعوقها عن طريق المجد الذى كانت تسير اليه بخطى ثابته ٠ وأصبحت مكانتها القيادية بين المدن والقبائل الايطالية أمرا لا يجادل ، ولكن لم ينته الحاقدون على روما والمتشككون فى نواياها بل

كان هناك من يتحين الفرصة للقضاء على هـذا الخطر الذى سوف يلحق بهم ومن ثم خاضت روما عدة معارك شرسة مع جيرانها من القبائل الأيطالية .

حروب روما مع القبائل السمنية : Samnites

كان السمنيون احدى القبائل الجبلية التى تسكن مرتفعات جبال الأبنين Apennines الجنوبية ويسيطرون على مساحة شاسعة من الأراضى تمتد من ساحل الادرياتيك مارة بشمال روما وجنوبا حتى خليج تارنتوم Tarentum ، وكانوا عنصرا سكانيا يتميز بالشراسة وحب القتال ، وفى لغتهم الوطنية كان يسمون انفسهم بالسابينيين Sabines ولكن الكتاب الاغريق والرومان اطلقوا عليهم اسم السمنيين Samnites وهو الأسم الذى غطى على اسمهم الاصلى . وكان السمنيون يتحدثون لغة ايطالية قريبة الشبه من اللغة اللاتينية وتسمى اللغة الاوسكانية Oscan

وكانت القبائل السمنية تعيش حياة القبائل البدائية الجماعية متعاونة فيما بينها ودون تميز طبقى بين أفرادها ، ويعيشون على رعى قطعان الماشية والاغنام ، وزراعة المساحات الضيقة من أراضيهم الجبلية ، ولما كانت ظروف حياتهم صـعبة ولا تكفى لاعدادهم الغفيرة ، فقـد اضطروا للتوسـع والاستيلاء على السهول ، مثل سهل كمبانيا فى الغرب ، حيث أقام الأغريق معظم مستوطناتهم ـــ وسهل لوكانيا Lucania فى الجنوب وبذلك راحو يدفعون الڤولوسكيين امامهم مما كان يسبب الحرب بينهم وبين الرومان . وهكذا كان السمنيون خطرا دائما يهدد أمن وسلامة المستوطنات الاغريقية فى جنوب ايطاليا .

وكان محتما ان روما لابد وان تدخل حربا معهم ، وفى عام ٣٥٠ ق . م بلغ توسع القبائل السمنية أقصاه لدرجة تحـدى روما وحلفائها اللاتين خاصة بعد أن تعلموا خلال صراعهم مع المستوطنات الاغريقية فكرة استخدام الفيلق فى الحرب Phalanx وتطبيقة فى الظروف الجبلية التى كانوا يعيشون فيها وكان على روما أن تدفع ثمنا غاليا لتأديب واخضاع هـذه القبائل خاصة فى ظروف بدأ فيها حلفاء روما فى الثورة عليها .

الحرب السمنية الأولى .

بدأت الحرب عندما هاجم السمنيون فى عام ٣٤٣ ق٠م دويلة سيديكينى Sidicini جنوب كابوا Capua فاتجهت هذه الأخيرة الى نجـدة روما واسرع الرومان لقبول طلب كابوا لأنه يدخلهم فى تحالف مع أكبر مدينة فى ايطاليا ولأن ذلك يعطيهم المبادأة فى جر السمنيين الى حرب فى وقت مناسب للرومان من أجل اعطاء روما منفذا ، ولا نعرف تفاصيلها نظـرا لكثرة الأساطير حولها ، ولكن روما نجحت بمساعدة حلفائها الأيطاليين فى هزيمة السمنيين وضم سهل كمبانيا كله حتى مدينة نابولى Neapoli.

وهكذا انقذت روما كابوا ، ولـكن الجنود اللاتين الذين قاتلوا لم يفهموا السبب فى اشتراكهم فى حرب بعيدة عن سـهل لاتيوم وبدأوا فى التمرد ، وقد ساعد روما فى ذلك ظهور الملك الاسبرطى اراخيدامنوس Archidamnus فى ايطاليا عام ٣٤٣ – ٣٤٢ ق ٠ م لنجدة مدينة تارنتوم واضطر السمنيون الى عقد الصلح مع روما على أساس ان يحتل السمنيون منطقة سيديكينى Sidicini وأن يتحالف الرومان مع كابوا ٠ وكان ذلك فى عام ٣٤١ ق ٠ م ٠

ثورة الحلف اللاتينى على روما :

شعر الحلفاء اللاتين بأهميتهم فى هذه الحرب ، وسخطوا على عـدم اشراك روما لهم فى وضع شروط صلح عام ٣٤١ ق٠م ومن ثم ، فقد اعلنوا أن الرومان قد خانوا أهل سيديكينى الذين طلبوا الحماية وأن السمنيين قد بدأوا فى احتلال هذه المنطقة عام ٣٤٠ ق ٠ م ، وانضم الى المعترضين أهل كمبانيا حلفاء روما الجدد ٠ كما أن اللاتين أرسـلوا ممثليهم الى روما طالبين المساواة الكاملة فى الحقوق مع الرومان أو الانفصال الكامل عن روما ٠ معلنين ان روما لا تتحالف معهم بل تسيطر عليهم ٠ ورأوا أن الفرصة متاحة فى الثورة مستغلين خطر السمنيين لارغام الرومان على الاستجابة لمطالبهم ، ولكن الحلفاء اللاتين أساءوا التقدير لأنهم كانوا أكثر تعرضـا لخطر السمنيين من روما ذاتها – والمحصنة بقلاع التيبر ، ووجد الحلفاء الايطاليون أنفسهم بين شقى الرحى بين السمنيين فى الشرق والرومان فى الغرب ، وتمكن الرومان من مهادنة السمنين ، ثم سحقوا الثوار اللاتين عام

٣٣٨ ق٠م معلنين انتهاء الحلف اللاتينى القديم وبداية سيطرة القوة الرومانية على سهل لاتيوم وقبل سكان كمبانيا شروط روما الجديدة فعادوا للتحالف معهـا ٠

وضع قواعد جديدة للتعامل مع اللاتين :

كان الحلف اللاتينى الذى الغى بعد هزيمة الثوار اللاتين عام ٣٣٨ق٠م حلفا قديما تطور من فكرة الحلف الدينى المشـترك بين القبائل والمدن اللاتينية وربما من حلف اريكيا Aricia القديم ومنذ أن كانت روما تحت السيطرة الاتروسكية ٠ ثم نجحت روما فى التغلغل فى هذا الحلف الدينى والسيطرة عليه خاصة بعد طرد الأتروسكيين ، وتحول الحلف من المفهوم الدينى ليصبح حلفا سياسيا وتشريعيا بناء على معاهدة عقدت بين جمهورية روما الجديدة وبين مدن الحلف اللاتينى من ناحية أخرى — عرفت بمعاهدة كاسيوس سبوريوس Cassius Spurius ثم اعيد تجديدها عام ٣٥٨ ق ٠م بعد اضافة نصوص تزيد من قبضة روما وسيطرتها على سهل لاتيوم ، ويرى البعض أن معاهدة كاسيوس الشهيرة كانت اعلانا من جانب روما بعدم نيتها فى السيطرة والتوسع فى سهل لاتيوم مقابل تحالف المدن اللاتينية مع روما فى الحرب من أجل الدفاع عن السهل وحماية حدوده ، وعلى أن يتعهد الطرفان بمراعاة السلام والصداقة واعتبار أي عدو لاحدهما عدوا للطرف الآخر ٠ كما تعهد الطرفان فى المشاركة فى اعداد الجيش المشترك للحرب مقابل أن تقسم الأسلاب بعد النصر بينهما بالتساوى كما تضمنت هذه الاتفاقية القديمة منح بعض الحقوق السياسية الرومانية للمواطنين اللاتين المتحالفين ٠

وبمقتضى المعاهدة القديمة اعطت روما حقوقا وامتيازات ليتمتع بها الرومانى فى المدن اللاتينية المتحالفة ويتمتع بها أيضا مواطن أى مدينـة لاتينية متحالفة فى روما ذاتها أو فى داخل أى مدينة متحالفة أخرى ٠ وهذه الحقوق هى حق التزاوج Conubium ، وحق التعامل التجارى وتحرير عقود يحميها القـانون الرومانى المدنى Commercium وحق التنقل والاقامة بين روما والمدن اللاتينية المتحالفة ، وبذلك كان أبناء الرومان من اللاتينيات أو ابنـاء اللاتين من الرومانيات يولدون متمتعين بالجنسـية

أو للجنة والتقصى Reciperatores (١) كما كان البرايتور يصـدر الفتاوى Edicta فى حالة تعذر وجود نص قانونى ينطبق على قضـية معينة ، كذلك كان البرايتور يعين نوابا عنه لادارة شئون القضايا فى الاقاليم الايطالية ، كما كان من الطبيعى ان ينوب البرايتور عن القنصلين فى حـالة عدم تواجدهما داخل البلاد ودعوة مجلس الشيوخ الى الانعقاد وكان من حق البرايتور أن يصاحب احد القناصل الى ميدان الحرب .

وعلى أى حال كان حامل البريتورية مؤهلا لترشيح نفسه الى وظيفة القنصلية .

وكانت القنصلية وظيفة عسكرية فى الدرجة الأولى ولأن حاملها يتمتع بالامبريوم العسكرى Imperium militare وهى الحق الدستورى لتسيير الجيوش ، وهذه السلطة لا تصبح نافذة المفعول الا خارج أسوار مدينة روما الوهمية Extra pomerium كذلك كان القنصـل يتمتع بالامبريوم المدنى Imperium domi وهى سلطة تختص بالقضاء والتشريع Iurisdictio coercitio وهى ليست مطلقة مثل الامبريوم العسكرى لأن القانون الرومانى اعطى للموطن حق الاستئناف Provocatio ضد قراراتها .

على أى حال كان القناصـل يهتمون بالجانب العسـكرى أكثر من الجانب المدنى : وذلك طمعا فى الانتصارات العسكرية التى تكسبهم الشهرة وهتاف جنودهم Acclamatio من أجـل منحهم لقب القـائد المظفر Imperator ومن ثم يحق لهم المرور تحت قوس النصر Triumphus الذى يقام فى العاصمة والهتاف لهم من قبل الجماهير ، كما اعتاد القـادة المنتصرون الاحتفاظ باللقب Imperator ليكتب بعـد المناصب التى حصلوا عليها وعدد المرات التى نودى بهم بهذا اللقب ، كما كانت الاسر والعشائر الرومانية تتفاخر بعدد أفرادها وعدد المرات التى شغلوا فيها هذا المنصب ويسجلون المناسبات التى انتصروا فيها على لوحات تعلق فى بهو الدار (الاتريوم) .

---

(١) كانت هذه اللجنة تتكون عادة من خمسة او ثلاثة اعضاء من شباب السانتو من اجل بحث قضية معينة ووضع توصياتهم ازاءها .

وهكذا يتبين من نوعيـة الوظائف وتدرجها واختصاصات كل منهـا مدى التنظيم الذى تتميز به العقلية الرومانية ، ومدى اهتمام الدولة بأشتراط وجوب قدر ادنى من الخبرة والعمل السـياسى قبل تولى آى من هـذه المناصب .

ولكى تسير الامور بدقة ومنعا للتسلط أو استغلال المنصب فقـد وضع المشرعون الرومان الحوليات القانونية Leges annales لتوضيح المواصفات والشروط اللازمة لكل وظيفة والحد الادنى لسن المرشـحين وشرط انقضاء مدة معينة بين آخر وظيفة كان يشغلها المرشح قبل شـغل المنصب الجديد (١) وبمرور الزمن اصبح هناك قواعد تنظيمية بخصوص سلك المناصب Certus ordo magistratum التزمت بهـا الدولة والمواطنون حتى أجرى الامبراطور أغسطس اصلاحاته وتعديلاته عليها .

وجدير بالذكر أن المرشحين للمناصب ابتداء من الكوايسـتور حتى القنصل كانوا من بين أعضاء مجلس السناتو وهذا يبين الالتصاق الوثيق بين السناتو وبين الجهاز التنفيذى والادارى للدولة . بل ان شاغلى المناصب كانوا عادة يتشاورون مع السناتو ويعودون الى مدرجاته بعد انتهاء مدة توليهم للوظيفة مما جعل السناتو رأس مال من التجربة وذا خبرة قومية ومسئولية فى ادارة شئون الدولة مدنيا وعسكريا ، وأشبه ببيت الحكمة الرومانية ، ومركز أعصاب الجمهورية .

وجدير بالذكر أيضا أن المناصب الرومانية كانت كلها تعتبر تكليفا شرفيا

---

(١) كان يحق لأى مواطن ان يرشح نفسه اكثر من مرة لشغل وظيفة معينة بل أن الرجال البارزين كانوا يحرصون على تولى المناصب الحساسة اكثر من مرة بالرغم من وجود قانون قديم صدر عام ٣٣٠ ق.م. يحظر تولى الفرد لوظيفة القنصل اكثر من مرة قبل مرور عشر سنوات على آخر مرة تولى فيها هذا المنصب ولكن هذا القانون اغفل ابان الاخطار والحروب التى تعرضت لها روما ابان القرن الرابع والثالث ق .م. وذلك من اجل اعطاء القادة فرصة لاكمال المهام الملقاة على عاتقهم ولضمان استمرارية العمل الاصلاحى والقيادى .

بالدولة القائدة اللاتينية أى روما عن طريق اعتبار هذه الدويلات اقاليم تابعة لها Municipia ومساواتهم بالمدن اللاتينية . ومن ثم اصبحت كلمة اقليم Municipia تعنى المدن الحواضر القائمة وراء سهل لاتيوم أو فى اتروريا أو كمبانيا والتى تتمتع مواطنوها بالحقوق السياسية الرومانية فيما عدا حق الاقتراع والتقدم للترشيح للوظائف أى مواطنون بدون حق الاقتراع . Cives sine suffragio بالاضافة الى تحريم امتلاك أى اراضى لسكان هذه الاقاليم فى روما . ومقابل هذه الحقوق كان يفرض على سكان الاقاليم المساهمة بالمال والرجال لتسليح واعداد الجيش الرومانى للحرب كما حرم الرومان عليهم اعلان الحرب أو عقد معاهدات داخلية فيما بينهم ، أما فيما عدا ذلك فكان من حق الاقاليم Municipia ادارة شئونها بنفسها كما كانت قبل ارتباطها مع روما وطبقا لقوانينهم وتقاليدهم وبذلك اصبح موقف الاقاليم وسطا بين الاستقلال التام والتمتع ببعض حقوق الجنسية الرومانية لأن روما مدت الامتيازات - اللاتينية الى ما وراء سهل لاتيوم لتشمل ايطاليا كلها والتى اعتبرتها روما أقاليم تابعة لها .

روما والمستوطنات :

منذ أيام الحلف اللاتينى القديم ، لم تتوقف روما عن سياسة اقامة المستوطنات الدفاعية فى المناطق الاستراتيجية الهامة ولكنها بعد عام ٣٣٨ بدأت تنشر هذه المستوطنات فى كافة انحاء ايطاليا كلها لتحقيق الحماية من العدو الخارجى سواء الغالبين فى الشمال أو السمنيين فى الشرق ، ولضمان خضوع اللاتين والايطالين لها ، وفى نفس الوقت للمساعدة على الهجرة وتخفيف وطأة تزايد السكان بضم اراضى جديدة . كانت روما قد اقامت مستوطنتين فى جنوب سهل اتروريا وعلى الأراضى التى انتزعت من مدينة ڤييى Veii التى دمرتها روما وكذلك أقامت عددا من المستوطنات فوق الأراضى التى أنتزعت من الڤولوسكيين Volosci ، وكانت هذه هى كل المستوطنات اللاتينية قبل ثورة الحلفاء الايطاليين .

أما بعد عام ٣٣٨ فقد زاد النشاط الرومانى فى نشر المستوطنات وأصبحت جزءا من سياسة روما . ففى خلال الخمسين عام التى تلت ذلك أسست روما عددا من المستوطنات فى أوستيا Ostia عند مصب نهر التيبر على البحر المتوسط فأقامت أنتيوم Antium على الساحل الغربى ومن الجنوب من اوستيا ، وتيرراكينا Terracina ومنتورناى Minturnae وسنويسا Sinuessa كلها أيضا تقع على امتداد الساحل الغربى لسهل لاتيوم ، من أجل حماية شواطئه وموانية كبديل عن الاسطول الدفاعى ، لأن روما لم يكن لها فى ذلك الوقت اسطول بحرى يدافع عن شواطئها ، كذلك اقامت روما سلسلة أخرى من المستوطنات فى كمبانيا وابوليا بهدف اقامة حلقة من القلاع المحصنة فى وجه القبائل السمنية التى تسكن منطقة سامنيوم Samnium فى الشرق ، كذلك اقامت روما سلسلة أخرى من المستوطنات فى منطقة اومبريا Umbria فى الشمال الشرقى وفى منطقة الشمال بهدف منع الغاليين من التسلل جنوبا . اذا فقد كانت هذه المستوطنات مستوطنات عسكرية دفاعية فى المقام الأول .

وقد فرق الرومان بين نوعين من المستوطنات ، المستوطنات القائمة أساسا على المواطنين الرومان ،والمستوطنات القائمة أساسا على الحلفاء اللاتين وكانت الأخيرة تفوق المستوطنات الرومانية عددا ، اذ بلغ عدد المستوطنات اللاتينية التى أقيمت حتى الحرب البونيقية الأولى واحد وعشرين مستوطنة يقابلها تسعة مستوطنات رومانية فقط . كما ان عدد المستوطنين فى المستوطنات الرومانية كان أقل بكثير منه فى المستوطنات اللاتينية فمثلا حتى مطلع القرن الثانى قبل الميلاد كان متوسط تعداد سكان المستوطنة الرومانية ثلاثماية أسرة بينما وصل تعداد سكان المستوطنة اللاتينية الى مابين ٢٥٠٠ الى ٣٠٠٠ أسرة ويقال أن سكان مستوطنة فينوسيا Vinusia التى كانت تقع على بعد ثلاثين ميلا شمال تارنتوم بلغوا ما يقرب من ٢٠٫٠٠٠ لاتينى . ومن ثم فقد استرعى صغر حجم المستوطنين نظر الرومان الى اعتبارهم جزءا لا يتجزأ منها لأنهم لا يقدرون على أن يكونوا وحدة سياسية مستقلة عنها، وبالتالى ظلوا مواطنين رومان كاملى الحقوق والجنسية . اما سكان المستوطنات اللاتينية فقد عوملوا مثل الحلفاء اللاتين أو مثل سكان الاقاليم

Municipia المتحالفة مع روما فقــد كان لهم حق الســيادة المحلية والاستقلال الذاتى فى الادارة والتشريع فكان لهم حكوماتهم وقوانينهم وسمحت لهم روما فى بعض الاحيان بسك عملات خاصة ، كما كان من حق اللاتينى المهاجر الى روما أن يحصل على الجنسية الرومانية بشرط التخلى عن وضعه اللاتينى Exilium ، ولما خافت روما من كثرة المهاجرين من المستوطنات طمعا فى الجنسية الرومانية ادخلت تشريعا جديدا يشترط على المستوطن اللاتينى الذى يريد الهجرة الى روما ان يترك من ورائه ولدا حفاظا على بقاء المستوطنات ، ويلاحظ أيضا أن المستوطنات الرومانية كان صغيرة واشبه بالحاميات العسكرية فى المناطق الاستراتيجية ولذا فلم تكن تجذب المهاجرين الرومان اليها،ومن ثم فقد أعفى الرومان المستوطنين من الخدمة العسكرية نظرا لأنهم كانوا مستوطنين عسكريين فى الدرجة الأولى وموكلين بالدفاع عن حدود الدولة الجديدة ، اما المستوطنات اللاتينية فقد ازدهرت الى مدن كبرى لعب بعضها دورا كبيرا فى احداث التاريخ الرومانى خاصة فى الشمال .

حلفاء الشعب الرومانى : Socii

ولكى تكمل روما حصارها للسمنيين استحدثت السياسة الرومانيــة نظام الحلفاء (Socii) مع المدن الاغريقية والايطالية التى لجأت اليهــا بهدف حمايتها من خطر هذه القبائل الجبلية الشرسة ، وذلك عن طريق عقد معاهدات متعددة بدرجات متفاوته من التساوى Foedus aequum الى المعاهدة القائمة على غير التساوى Foedus inaequum وذلك حسب الأهمية العسكرية لكل مدينة متحالفة وعلاقتها واخلاصها لروما . وكانت هذه المعاهدات تلزم المتعاهدين بالخدمة فى الجيش الرومانى اثناء الحرب تحت شطر مستقل وهو الفرق المساعدة Auxilium وان يتركوا لروما تدبير السياسة الخارجية . مقابل أن تحترم روما استقلال الحلفاء ولا تفرض عليهم ضرائب وتسمح لكل حليف بالاحتفاظ بجيشه الخاص وعندالاشتراك فى الحرب يقودهم قائد رومانى فقط — كما تقوم روما بمد قوات الحلفاء بالمؤن والعتاد اثناء الحرب وتقتسم معهم الاسلاب والغنائم ، مقابل ذلك كان من حق المتحالفين التمتع بالحقوق اللاتينية مثل حق التعامل المدنى

وحق التصاهر والتزاوج فى نفس الوقت الذى اعترفت فيه روما بحقهم فى تمتعهم بالاستقلال الذاتى والتشريعى •

الحرب السمنية الكبرى : (٣٢٧ - ٣٠٣ ق.م.)

كانت الحرب السمنيه الثانية أو الكبرى أكثر شراسة وعنفا . اذا استغرقت ما يقرب من أربع وعشرين عاما • وقد اندلعت هذه الحرب عام ٣٢٧ ق • م على أثر نزاع حدث فى مدينة نابلس Naples عندما تصارع الرومان والسمنيون من أجل السيطرة على المدينة • ونجح الجانب الرومانى فى الاستيلاء عليها وأصبحت نابلس مدينة متحالفة مع روما وعلى أثر ذلك اندلعت الحرب المنتظرة والتى كان الطرفان يعدان لها من أجل السيطرة على ايطاليا • ولا يزال تاريخ معارك هذه الحرب غامضة ولكننا نعرف منها أن الرومان عانوا هزائم مريرة أمام السمنيين ولكنهم انتصروا فى النهاية • وكان من أشد الهزائم تلك التى تعرضوا لها عام ٣٢١ ق • م عند سلسلة الشعب الكودينية الواقعة بين كابوا Capua وبينبقنتوم Beneventum هناك حوصر الجيش الرومانى واضطر للاستسلام وأرغم على المرور فى ذل تحت نير الحراب ، ثم جرد الجيش الرومانى المهزوم من السلاح وفرق للعودة بعد أن أرغم القنصلان اللذان كانا يقودان الجيش على ان يتعهدا بالانسحاب من اقليم سامنيوم وكمبانيا واخلاء الحاميات والقلاع العسكرية التى كانت تحيط باقليم سامنيوم وكمبانيا ، ولما وصل الجيش الرومانى المهزوم وعرض القنصلان على السناتو ما تعهدا به رفض المجلس هذه الشروط المهينة بالاجماع ولم يجد القنصلان بدا من حفظ وعد الرجوله والشرف الذى قطعوه مع العدو فعادا ليقدما نفسيهما الى قائد القبائل السمنية ليفعل بهما ما يريد وقد انتابه الغضب لأن باقى الجيش الرومانى لم يعد اليه وانتقم من هذين القنصلين (١) •

وخلال هذه الحرب تعلم الرومان كثيرا وطوروا من تكتيكاتهم العسكرية وتعلموا حرب الجبال والمرتفعات وأعادوا تقسيم الفرقة الرومانية لتحارب فى ثلاثة صفوف بثلاثة طرق وأسلحة مختلفة وبعد التدريب الشاق والتطوير

---

(1) Livy IX, 2-6

الذى جمع بين التراث الاغريقى العسكرى الذى كان يقوم على الفيلق Phalanx وبين حرب الجبال والتكتيك الذى كان يستخدمه السمنيون ، عاد الرومان الى الحرب عام ٣١٦ ق • م ولكن روما عانت أيضا عدة هزائم ووقف الحلفاء اللاتين باخلاص مع روما فى محنتها دفاعا عن أراضيهم ، وظل الصراع قائما على أشده حتى ظهر القائد الرومانى الحازم أبيوس كلاوديوس الأعمى Appius Claudius والذى كان رقيبا فيما بين عامى ٣١٢ ـ ٣١٠ والذى رأى أنه لابد من اعطـاء المزيد من الوســائل الديموقراطية فى الأراضى الرومانية من أجل اشعار الرومان بالغيرة والوطنية والموت دفاعا عن الوطن ، كما أوجد أبيوس كلاوديوس سياسة انشاء الطرق العسكرية المعبدة خاصة الطريق من روما الى كابوا لتســهيل تحركات الجيش تحت أى ظروف (١) •

وهكذا تم بناء طريق أبيوس الشهير ، وبالرغم من هذا لم يكسب الرومان الجولة الثانية فى الحرب الثانية فى الحرب السمنية بل اصبح الطرفان فى وضع متساو من القوة والعدد ، كما شهدت هذه الفترة بعض الخيانات من حلفاء الجانبين لأن حلفاء روما خافوا من تزايد بطشها مستقبلا خاصة اذا كسبت الحرب فأنقضوا عنها وانضموا الى السمنيين • وكانت الحرب بطيئه وطويلة وفادحة الخسائر للطرفين وكما يتضح من هدنة عام ٣٠٣ أن النصر لم يكن حليف أى فريق لاننا نجـد السمنيين يحتفظوا بأراضيهم الاصلية ولم يفقدوا منها شيئا كما ان قوتهم العسكرية ظلت بنفس القوة التى كانت عليها قبل اندلاع الحرب وقادرة على تحدى روما •

الحرب السمنية الثالثة : (٢٩٨ ـ ٢٩٠ ق•م•)

ولكن بعد عام ٣٣٠ ق • م بدأ ميزان القوة يميل نحو روما مرة أخرى حيث بدأت توسع من منطقة نفوذها وسيطرتها وأصبح حلفاؤها يفوقون السمنيين • وبدأ الفرق واضحا بين الرومان وبين السمنيين وحلفائهم من الأتروسكيين ، والأمبريين ، والغاليين الذين خاضوا معركة مشتركة عام ٢٩٥ ق • م بهدف كسر قوة روما ووقف زحفها • وقد وقعت هذه المعركة فى منطقة سنتيوم Sentinum فى اقليم اومبريا Umbria وبالرغم من

(١) ولهذا سمى هذا الطريق طريق آبيوس Via Appia تخليدا له •

أن الرومان فقدوا قائدهم ديكيوس موس Decius Mus الا انهم سحقوا هذا التحالف المعادى واضطر السمنيون للأستسلام فضمت روما أراضيهم وأدخلتهم فى حوزتها مع القبائل اللاتينية الأخرى وقبلوا ان يدرجوا ضمن قائمة حلفاء روما ، لكنهم ظلوا بالرغم من ذلك يتحرقون شوقا للانتقام من الرومان الذين احسوا ازاءهم بالحنق والكراهية وراحوا يتحينون الفرصة للانتقام والثورة من جديد • أما الاتروسكيون والغاليون فقد ظلوا فى حالة حرب مع روما حتى خاضوا معها معركتهم الأخيرة عند بحيره فاديمو عام ٢٨٣ وكادت روما ان تكون فى حكم السيدة على كل ايطاليا لولا أن حربا جديدة فرضت عليها عندما حاول حلفاؤها فى المستوطنات الاغريقية الثورة عليها واستدعاء قائد اغريقى مغامر هو بيرهوس ملك ابيروس لنجدتهم •

حروب بيرهوس فى جنوب ايطاليا :

وبعد ان فرغت روما من نزاعها مع القبائل السمنيه وجدت نفسها تشتبك فى معارك مع مدينة تارنتوم Tarentum أكبر وأغنى المدن التى أنشأها الاغريق فى جنوب ايطاليا واقواها جميعا بسبب تدخل روما فى شئون المستوطنات الاغريقية التابعة لتارنتوم وازاء هذا الخطر الرومانى استنجد اغريق الغرب بأشقائهم فى الوطن الأم (١) وبسرعة استجاب بيرهوس Pyrrhus ملك مملكة ابيروس Epirus الجبلية(٣١٩ــ ٢٧٢ ق • م) فى اقصى غرب بلاد اليونان لطلب مدينة تارنتوم • وكان بيرهوس الذى تربى وتعلم فى مصر وتزوج من أميرة بطلمية فى عصر فيلادلفوس محاربا

---

(١) لم يكن بيرهوس فى الحقيقة اول ملك او زعيم اغريقى يذهب لنصرة اغريق الغرب على اعدائهم فقبل ذلك ذهب ملك اسبرطة ارخيدامنوس Archidamnus (٣٤٣ ــ ٣٤٢ ق.م) لنجدة تارنتوم وظل يحارب ـ ايطاليا حتى عام ٣٣٨ ق.م ، ثم تلاه الاسكندر ملك ابيروس خال الاسكندر الاكبر والذى ظل يحارب فى ايطاليا من ٣٣٤ حتى عام ٣٣٠ ق.م. وفى عام ٣٠٢ ق.م جاء الملك الاسبرطى كليونيموس Kleonymus ثم تلاه اجاثوكليس ملك سيراكوزه فى صقيله الذى عبر مضيق ميسانا الى ايطاليا عام ٢٩٨ ق.م وظل يحارب حتى عام ٢٨٩ ق.م وباءت كل هذه المحاولات بالفشل ولم تنجح تارنتوم فى فرض نفوذها وبناء الامبراطورية الاغريقية فى الغرب •



القائد المغامر بيرهوس Pyrrhus

ممازا وانتهاريا وطموحا يحلم بمجد مثل مجد الاسكندر الأكبر وبامبراطورية مثل امبراطوريته تقوم فى الغرب وليس فى الشرق وعلى أمل أن تساعده الممالك الهللينستية بالمال والرجال ، أبحر على الفور الى جنوب ايطاليا يصحبه ٢٥٫٠٠٠ رجل وعشرين فيل ، لادخال الرعب فى قلوب الرومان الذين لم يروا هذه الحيوانات الضخمة من قبل . فضلا على ان الرومان واجهوا لأول مرة جيشا محترفا مدربا تدريبا رفيعا بشكل تراث عبقرية الاسكندر الأكبر فى المجال العسكرى ، وتقدم فى فن الاستراتيجية العسكرية فى العصر الهللينستى ، فقد كان جيش بيرهوس يقاتل فى تشكيل الفيلق المنظمة التى ابتدعها الاغريق وأضاف عليها فيليب وابنه Phalanx الاسكندر المقدونيان الكثير . وكان كل فيلق يتكون من ستة عشر وحده من الجنود حاملى الحراب تتصدى فى مقدمة الجيش فى جبهة قوية لا يمكن اختراقها بينما كان الجيش الرومانى يحارب فى تشكيل الفرق الثقيلة Legiones كما أن جنود الفرق الرومانية لم يحاربوا متلاصقين مثلما فعل جنود الفيالق . وقد اكتسحت قوات بيرهوس الفرق الرومانية فى معركة هيراقليا عام ٢٨٠ ق . م ولكن الرومان ليسوا بالشعب الذى ينحدر بسهولة بل قاوموا ببسالة ، مما كلف بيرهوس أربعة آلاف قتيل . ويروى بلوتارخوس موقفا دراميا مؤثرا وذلك أن بيرهوس وقف يرقب جثث قتلاه من أعلى مرتفع يطل على ميدان القتال وقال وهو يتحسر « أن ثمة انتصار آخر مثل هذا سوف يؤدى به الى الهزيمة » (١) . كما روى أن بيرهوس لاحظ أن كل قتلى الرومان البالغ عددهم سبعة آلاف تلقوا الجروح فى صدورهم وتعجب من هذا قائلا « لو كان هؤلاء جنودى لهزمت العالم ! » .

وبعد هذه المعركة سارع السمنيون للانضمام الى بيرهوس وكذلك عدد من المدن التى كان لها ثأر قديم مع روما . وتقدمت جحافل بيرهوس نحو روما ذاتها ولكنه لم يحاول احتلالها اذ توقف عند براينستى على بعد

---

(١) ومن هنا اشتق من اسمه التعبير « الانتصار البيرهوسى Pyrrhic Victory اى الانتصار المكلف فى خسارته

أربعين ميلا منها ، ومن ثم آثر أن يفاوض الرومان وهو فى مركز القوة .
وأرسل الى السناتو يعرض التفاوض وجاء رد السناتو يحمله الشيخ
الاعمى أبيوس كلاوديوس Appius Claudius وكان لايزال يشغل
منصب الرقيب ، وهو أن السناتو والشعب الرومانى (١) لا يتفاوض مع
غاز ما دام موجودا فوق الأرض الرومانية . استأنف بيرهوس القتال
وتمكن من هزيمة الرومان مرة أخرى فى اسكولوم فى اقليم أبوليا
Asculum عام ٢٨٩ ق . م بعد خسارة مكلفة وفجأة هجر بيرهوس جبهة
القتل فى ايطاليا ونقل قواته وعتاده الى صقلية ليشتبك فى حرب عنيفة
مع القرطاجيين الذين كانوا فى ذلك الوقت حلفاء للرومان ، وكاد بيرهوس
أن يطرد القرطاجيين فعلا من الجزيرة ولكنه فجأة غادر صقلية بجيشه وعاد
الى ايطاليا . وهناك لاقاه الرومان فى بينيفنتوم Beneventum عام
٢٧٥ ق . م والحقوا به هزيمة ساحقة . وازاء هذا اضطر بيرهوس الى
العودة الى حيث جاء بعد ان فقد ثلث قواته التى أتى بها الى ايطاليا (٢) .

لقد نجحت روما فى هزيمة خصمها نتيجة للروح القتالية والوطنية التى
واجه بها الشعب الرومانى هذا الغازى . وهذه الروح الوطنية الغيورة
التى سادت الشعب كله بمختلف طبقاته نتيجة للتغيرات الكبرى فى التشريع
الرومانى وإعادة تنظيم أجهزة الحكم من أجل اشراك العامة بقدر كفاءاتهم
والتى تمت حوالى عام ٣٦٧ ق . م ، ومن ثم واجه الرومان واللاتين بيرهوس
متحدين ، كذلك فان اعادة توحيد ايطاليا بعد سقوط الحلف اللاتينى القديم
عام ٣٣٨ ق . م اعطت روما قدرا أكبر من السيطرة على مقاطعات ايطاليا
الأخرى وقلل من فرص الثورة عليها مما جعلها تواجه بيرهوس وهى أكثر
اتحادا من قبل ، كما أن هجوم أغريقى أجنبى وجد الشعوب اللاتينية
والايطالية خلف روما خوفا من الخطر الجديد القادم من خارج البلاد ،
كذلك كانت حملة بيرهوس ضد روما ووقوف قرطاجة حليفة روما آنذاك

---

(١) وهو Senatus Populusque Romanus واختصارها S.P.Q.R.
(٢) وقد حاول بيرهوس بعد ذلك غزو مقدونيا ولكنه فشل فهجر
ميدان القتال هناك املا فى غزو البيلوبونيسوس وحاول حصار اسبرطة ولكنه
فشل واخيرا لقى حتفه اثناء معركة فى طرقات مدينة ارجوس عام ٢٧٢ ق.م
وبذلك انتهت حياة اغرب مغامر عسكرى عرفه التاريخ .

ضد المغامر الاغريقى دليلا على نجاح فلسفة نظام التحالف وعلى الثقة والاحترام للمعاهدات التى عقدتها روما ، كما اننا يجب الا نبخس القيادة السياسية الرومانية القوية والراسخة حقها فى تحقيق ذلك النصر .

وبعد رحيل بيرهوس بدأ الرومان فى محاسبة القبائل السمنية وكل من تعاون معه على الأرض الرومانية . ولم يجىء عام ٢٧٢ ق . م حتى كانت أراضى شبه الجزيرة الايطالية الواقعة من نهر الروبيكون شمالا Rubicon (١) الى شبه الجزيرة الايطالية جنوبا قد وقعت فى حوزة الجمهورية الرومانية . ولم يعد هناك فى ايطاليا من يجرؤ على تحد روما ولم تعامل روما رعاياها من المدن والقبائل على قدم المساواة بل كان هناك درجات من الأفضلية والاستقلال . وبدأ المستقبل مشرفا لمدينة روما ولكن كان عليها ان تقطع طريق المجد الوعر وتدفع ثمن الامبراطورية بالدم والعرق والكفاح من أجل العظمة والمجد Gloria ولم تكد تمض سنوات معدودات تلتقط فيها روما انفاسها حتى وجدت نفسها تخوض حربا شرسه تختلف عن كل الحروب التى دخلتها لأنها كانت حربا هددت وجودها ذاته .

توثق عرى الاتحاد الايطالى بزعامة روما بعد هزيمة بيرهوس :

هكذا بعد افشال مخططات بيرهوس فى جنوب ايطاليا لبناء الامبراطورية الهللينستيه فى الغرب الاغريقى Magna Graecia وانسحابه عائدا الى بلاده أصبحت روما القوة الكبرى فى ايطاليا بل ولا يدانيها قوة أخرى فى حوض البحر المتوسط سوى قرطاجه التى كانت فى ذلك الوقت حليفه لروما ويربط بينهما معاهدة من الصداقة Amicitia ، ومن ثم بسطت روما نفوذها على كل ايطاليا من أريمينوم وبيسا شمالا حتى ريجيوم وبرنديزيوم جنوبا ، ودعمت من روابطها التشريعية والسياسية لاقامة اتحاد صلب ومتشابك وبدرجات متفاوته من الحقوق والجنسية ظل قائما حتى قيام الحرب الاجتماعية الكبرى فى مطلع القرن الأول ق . م والتى انتهت

---

(١) وهو نهر صغير فى شمال ايطاليا يصب فى بحر الادرياتيك على مقربة من مدينة اريمينوم Ariminum القديمة (ريمينى الحالية Remini

بمنح جميع سكان ايطاليا حقوقا واحـدة ومتساوية الا وهى الجنسـية الرومانية .

كانت سياسة روما الداخلية فى تلك الفترة المبكرة تقوم على مبدئين أولهما الأدماج الكامل فى الدولة الرومانية ، ومساواة الشعوب المدمجة بالمواطنين الرومان فى الجنسية والحقوق والواجبات، وثانيهما التحالف بحيث تصبح المنطقة أو الدولة أو المدينة مستقلة تماما الا انهـا ترتبط بالتزام التحالف مع روما ، فمواطنوها من الناحية السياسية حلفاء Socii لكن من الناحية القانونية اجانب Peregrini فيما عدا ذلك فقد كان كل من المواطنين الرومان Cives والحلفاء الاجانب (Socii-Peregrini) ملزمين بأداء الخدمة العسكرية للدولة عندما يقرر السناتو والقنصـلان ذلك ، لكن لم يكن كل المواطنين فى المناطق المنضمة الى ايطاليا متساوين فى التمتع بحقوق الجنسية الكاملة ، وكذلك لم يكن كل الحلفاء على درجة واحدة بالنسبة لعلاقاتهم مع روما التى كانت تعطى اقرب المقربين اليها امتيازات خاصة لأخلاصهم لها ، كما انها كانت تعاقب الحلفاء الذين يثورون أو يتمردون عليها بتخفيض الامتيازات . ولنلق مرة أخرى نظرة سريعة على هذا الجهاز الفدرالى الغريب الذى ادى الى قيام دولة متحدة ، وأبرز قدرة العقلية التشريعية الرومانية .

أولا : المواطنون الرومان : Cives Romani

كما قلت لم يـكن كل المدمجين ادماجا كاملا فى الأرض الرومانية Ager Romanus متساويين فى حقوق الجنسية ، ولذلك اعتبروا فئتان : فئة المواطنين كاملى الحقوق ، وفئة المواطنين غير كاملى الحقوق . وتشمل الفئة الأولى مواطنى روما الأصليين ، وما أدمج ادماجا كاملا من قرى سهل لاتيوم المحيطة بها ، أو فى مناطق استراتيجية بعيدة عنها . وكان هؤلاء المواطنون الكاملو الحقوق مقيدين اما فى القبائل الأربع التى تعيش فى المدينة، أو فى الواحد وثلاثين قبيله الموزعة على الاقاليم . وهم المواطنون الذين تقسم عليهم الأراضى المستولى عليها فى ايطاليا حيث كان يوزع على كل منهم مساحة تتراوح ما بين ٣ الى ٧ فدان رومانى ، كما شمل تعريف المواطنين سكان المستوطنات الدفاعية الصغيرة العدد والتى كانت تبعث بها روما الى

السواحل وأ الى الحدود للدفاع عنها . ولذلك اعفتهم روما من الخدمة العسكرية لأنهم جنود مواطنين . وفى البدايه كانوا أقل درجه من سكان روما الاصليين ولكن تدريجيا اصبحوا مساويين مع الرومان فى الحقوق والواجبات ، كما شمل تعريف المواطنين لسكان بعض الاجزاء من ايطاليا التى ادمجتها روما فيها ادماجا كاملا بعد انهيار الحلف اللاتينى القديم وبعد هزيمه روما لثورة اللاتين ومن هده المدن توسكولوم (Tusculum) ولانوڤيوم (Lanuvium) واريكيا (Aricia) والتى أصبحت مند عام ٣٣٨ ق . م يطلق عليها ــ مدن الشعب الرومانى Oppida civium Romanum وبعد ذلك اطلقت عليهم روما لفظ الاقاليم municipia وقد فرق الرومان قليلا بين مواطنيها القدماء وهده الفئه الأخيرة فقد منحوا حق ممارسة الجنسية الرومانية الكاملة عند تواجد مواطنيهم داخل روما بل وكانوا يسجلون ضمن قوائم خاصة للمواطنين اما فى اقاليمهم فكانوا يتمتعون بنظمهم الادارية والمالية والمستقلة لكن مع اشراف روما على القضاء،اد فكان البرايتور الرومانى يبعث بنوابه Praefecti للتفتيش على تطبيق العدالة فى الأقاليم ، ولم يسمح لها سك نقود خاصة . وهكذا يعتبر هؤلاء من الناحية الفعلية مواطنين تحت التنميد وكانت هذه المدن والاقاليم تتنافس فى ارضاء روما املا فى المساواة الكاملة مع الرومان أو الحصول على حق الجنسية الرومان الكاملة .

اما الفئة الثانية من المواطنين الرومان فهم المواطنون غير كاملى حقوق الجنسية أو مواطنون بدون حق الاقتراع أو الترشيح للوظائف الرسمية Cives sine suffragio وهؤلاء كانوا يتمتعون ببعض امتيازات الجنسية الرومانية فقط مثل حق الاستئناف Provocatio وحق التجارة والتعامل Commercium وحق التصاهر والتزاوج (Conubium) ولم تكن هذه الفئة من المواطنين مقيدة فى سجلات القبائل الرومانية الخمس والثلاثين وبالتالى فقد كانوا يعتبرون الى حد ما مثل سكان الاقاليم (Municipia) وفى البدء كانت بمثابة امتياز يعطى للاقاليم التى تنضم برغبتها الى روما ، ولكن أصبحت فيما بعد تعنى وضعا سياسيا آقل من المواطنين الكاملى الحقوق،فقدسمح لسكان الاقاليم بحق التمتع بالحكم الذاتى

مثل الاحتفاظ بمجالسها التنفيذية الاقليمية (أو مجالسها البلدية) ومجالسها الشعبية . ولما كانت روما تشجع انتشار القانون الرومانى بين اقاليم ايطاليا فقد فرضت حق الأشراف القضائى عليها ، حيث كان البرايتور الرومانى يرسل عددا من نوابه praefecti الى كافة انحاء ايطاليا للاشراف على تطبيق العدالة دون التدخل فى النظام القضائى المحلى ، فمثلا نسمع عن اسماء مختلفة للقضاء فى المدن الايطالية المختلفة منها (Medix) فى كوماى والدكتاتور فى كايرى Caere ، ولما كان هـذا النوع من المواطنين منتشرا فى مناطق ايطاليه ذات تراث قديم سابق على حضارة الرومان أو معاصرلها فقد تركت روما لها لغاتها الاصلية وعبادتها الخاصة ولكن تحت اشراف مجلس الكهنة الرومانى Pontifices ، ولكن روما لم تسمح لهم بسك عملتهم الخاصة . وتدريجيا بدأت روما تمنحهم الحقوق الكاملة تدريجيا منذ عام ٢٦٨ ق . م وحتى ١٥٠ ق . م عندما أصبحوا مواطنين كاملى الحقوق .

وبهذا تكون روما قد منحت الجنسية الكاملة أو الناقصة لجزء كبير من وسط ايطاليا يمتد من لاتيوم غربا الى بيكنيوم شرقا أى من البحر الادرياتيكى الى البحر المتوسط بما فى ذلك جنوب اتروريا وشمال كمبانيا .

ثانيا : الحلفاء أو المقاطعات المتعاهدة مع روما :

اما فيما عدا ذلك من أجزاء مختلفة سواء فى شمال ايطاليا أو جنوبها فقد ربطتها روما معها عن طريق نظام التعاهد الفردى الذى جعـل من مواطنيها الأجانب Peregrini حلفاء Socii للشعب الرومانى مقابل اعطائهم حقـا هو حق الأجنبى (١) (ius peregrinum) وبعض هؤلاء منح تقديرا لاخلاصه درجة ترفعه الى وضع اللاتين (ius Latinum) أى

---

(١) قسم الرومان الشعوب الى اعداء (hostes) واصدقاء (amici) والعدو هو ذلك الذى لا يربطهم به عـلاقات او اتصـالات او معـاهدات ولا يدخل حتى مدينتهم ، اما الغريب الذى يربطهم به علاقات او معاملات فكان يعتبرا اجنبيا (Peregrini) ولكن صديق . .

الى وضع حلفاء روما القدماء من اللاتين قبل انهيار الحلف اللاتينى عام ٣٣٨ ق . م وقد رضيت روما ان تترك سكان هذه المقاطعات يتمتعون بالاستقلال الذاتى ويكونون حكومات محلية وبمقتضى المعاهدة المتعددة التى يعقدها كل واحد منهم مع روما يصبح له حق التعامل والتزاوج مع الرومان . ولذلك اطلقت روما على بعضهم اسم المقاطعات الحرة Civitates liberae ولكن المعاهدات التى كانت تعقد مع روما كانت تتفاوت فى درجاتها فكان هناك معاهد متساوية Foedera aequa ومعاهدات غير متساوية Foedera inaêqua أى ترغم صاحبها على حق الاذعان الالزامى للشعب الرومانى ، ومقابل التحالف كان على سكان هذه المقاطعات مد روما بما تطلبه من قوات وبحاره (خاصة من المدن الاغريقية فى جنوب ايطاليا) ، أو فى بعض الاحيان كانت روما تفرض اتاوة مالية على الحليف مقابل المساعدة العسكرية stipendarius وفيما عدا ذلك فقد تركتهم روما أحرارا . أيضا نجد روما تقوم بتفتيت المناطق ذات القوميات الى مقاطعات صغيرة تربطها بمعاهدات فردية مثل أقاليم اتروريا واليونان العظمى فى جنوب ايطاليا منعا للخطر مطبقة سياسة قسم واحكم Divide et impera وفى نفس الوقت الذى فتتت فيه روما المناطق ذات القوميات الخاصة الى جزئيات ترتبط معها بمعاهدات تحالفية مقابل الامتيازات السالفة الذكر ، نجحت روما فى ادماج ايطاليا كلها فى وحدة عليا سمت بها الى درجة دولة المقاطعات المتحدة ، ذات درجات الامتيازات السياسية المتفاوته والمتغيرة والمنظمة فى شكل هرم قمته سكان روما الأصليون ، وهم المواطنون الرومان ثم سكان سهل لاتيوم والمستوطنات الرومانية ثم سكان المناطق المندمجة فى وسط ايطاليا ثم باقى مقاطعات ايطاليا فى الشمال والجنوب وفى هذا الهرم تفاوتت الامتيازات من بين الجنسية الكاملة التى يحملها المواطنون الكاملى الحقوق ، الى المواطنين الناقصى الحقوق ، الى انصاف المواطنين فى الاقاليم الى الحلفاء الاصدقاء بدرجة الوضع اللاتينى الى الحلفاء الخاضعين .

ان المزايا التى حققتها روما للاتحـــاد تفوق المسئوليات التى فرضتها عليه لأن الاتحاد كان لابد وأن يرغم المقاطعات والدويلات القائمة فى ايطاليا على أن تتنازل عن قدر من استقلالها وتلتزم بتقديم العون العسكرى والمالى لروما عند اللزوم .

وفيما بعد ، اندمج اللاتين الذين تمتعوا بالجنسية الرومانية فى روما حتى أصبحوا تدريجيا رومانا ولم نعد نعرف الفرق بين اللاتينى أو الرومانى ، وهناك بعض الحلفاء الذين فضلوا البقاء حلفاء مع الاحتفاظ باستقلالهم الذاتى مقابل تسليم روما سياستهم الخارجية والمشاركة العسكرية . وبينما كان المواطنون الرومان يدفعون ضريبة مباشرة تجبى حسب امكانياتهم المادية بالاضافة الى الاتاوة العسكرية tributum التى تجبى عند الحرب فقد كان الحلفاء معفون من الضرائب المباشرة الا هؤلاء الذين يقيمون ويمتلكون ارضا تابعة للشعب الرومانى فكانوا يدفعون ايجارا سنويا Vectigal كما كان المواطنون الرومان والحلفاء متساويين فى دفع المكوس على البضائع التجارية (portoria) ، اذن يتضح ان الحلفاء لم يكونوا فى وضع سىء ولم يكونوا وسيلة للاستغلال أو الابتزاز .

لقد حققت روما لايطاليا السلام (Pax) فاختفت الحروب الداخلية التى كانت سائدة قبل سيادة روما على ايطاليا ، بل ان توحيد ايطاليا خلق قوة مرهوبة الجانب مما جعل العدو الخارجى يتفادى غزو ايطاليا خاصة بعد هزيمة بيرهوس ، فلم يهاجمها أحد باستثناء هانيبال ، ومن ثم حققت روما لشعوبها الســلام الخارجى ، وأصبحت سواحلها آمنة ، وبحارها مفتوحة للنشاط التجارى لشعوبها ، ان حزم روما مع الشعوب والقبائل الايطالية وقيامها بدور رجل البوليس والقاضى المشرع بينهم قضى على الحزبيات والصراعات الداخلية ، ولم يعط لهذه القبائل والدويلات فرصـــة للتجمع والتحالف ضد روما ، كما ان التباين فى منح الحقوق السياسية وتحريم عقد معاهدات بين الدويلات وبعضها البعض حيث كانت كل منها تعقد معاهدتها منفردة مع روما أكد سيادة روما كقوة ثابته وزعيمة لا تنافس على ايطاليا وحقق السلام الداخلى ، وبالتالى حقق الأمن والطمأنينة ، مما شجع على

النشاط التجارى خاصة وان القانون الرومانى كان يكفل الحقوق للمتعاملين ويحقق لهم مظلة من الحماية . لقد ازدهرت المدن التجـارية الاغريقيـة فى جنوب ايطاليا بشكل لم يسبق له مثيل كما ان شبكة الطرق الكبرى التى اقامتها روما زادت من الترابط ، وقربت بين أجزاء ايطاليا ، وساعدت على انتشار الثقافة والحضارة بين أجزائها ، فتدفقت الحضارة الاغريقية من الجنوب الى الشمال ، واختفت اللغات والثقافات المحلية تدريجيا ليحـل محلها ثقافة واحدة تقوم على اللغة اللاتينية والقانون الرومانى ، وتدريجيا بدأت اجناس ايطاليا المتباينة تندمج لتصبح أمة واحدة ذات عنصر وثقافة واحدة نسميها بالرومانية ، وتوحدت ايطاليا سياسيا واجتماعيا وحضاريا واقتصاديا ، فى دولة تفوق مساحتها كل من مقدونيا ، وقرطاجه ، ودولة البطالمة فى مصر ولا يفوقها سوى مساحة دولة السليوكيين فى سوريا وآسيا الصغرى .

هكذا كانت هزيمة بيرهوس نقطة التحول فى التاريخ الرومانى بعد أن حققت روما نصرا عسكريا حاسما لأول مرة ضد عدو خارجى ، واصبحت الزعيمة التى لا تنافس على كافة المقاطعات الايطالية التى أخـذت روما ترغمها على الدخول فى التحالف معهـا ولذلك اصـبح لفظ الايطاليين (Italici) يعادل فى المفهوم الرومانى الى حد ما لفظ الحلفاء (Socii) واصبح هناك حدا وهميا يفصل بين الرومان المواطنين (Cives) وبين الحلفـاء والايطاليين (Socii) تماما مثل الحد الوهمى الذى كان يفصل بين ايطاليا وولايات الامبراطورية فيما بعد . وظل هذا الفاصل الوهمى قائما قانونيا ومعنويا حتى قيام الحروب الاجتماعية الكبرى فى مطلع القرن الأخير قبل الميـلاد .

فالبرغم من احترام روما لمعاهداتهـا مع حلفائها اللاتين والأيطاليين وتحملها للعبء الأكبر من النفقات والمسـئوليات العسكرية للدفاع عن ايطاليا كلها ، الا أن هؤلاء الحلفاء ظلوا يطالبون بالجنسية الرومانية الكاملة ولم يكن دافعهم ابدا الظلم الرومانى وسوء استغلال الموظفين الرومان أو

الابتزاز المالى ، بل كان الدافع الأول دافعا عاطفيا ونفسيا مقصـــدة أن يكونوا شبيهين بالرومان لكى يتمتعوا بالقيمة المعنوية التى تحققها الجنسية الرومانية لحاملها ، أيضا كان للجنسية الرومانية فوائد ايجابية عظيمة تحقق مظلة من الحماية الجسدية والمادية لحاملها خارج ايطاليا وداخلها بينما لم يكن للحلفاء حق التمتع بالحصانة البدنية والمالية التى يتمتع بها الرومانى . كما كان للجنسية الرومانية مزايا تجارية فكان القانون يحمى حق الرومانى فى امتلاك العقارات والأراضى فى المقاطعات الايطالية حيث يشرف على ذلك البرايتور القضائى ، وكان حكام الولايات الرومان بدرجة البروقنصل يقومون بذلك العمل خارج ايطاليا . ومن الناحية العملية كانت تجارة الرومانى مؤمنة أما تجارة الايطالى فكانت مغامرة ومجازفة وبدون مظلة للحماية ويتعرض للخطر ، خاصة اذا ما حاول منافسة الفرسان الرومان من طبقة رجال الاعمال لامتيازاتهم المضمونة ، هكذا كانت الامتيازات المادية بالاضافة الى الدافع العاطفى والنفسى هو الذى كان يدفع حلفاء روما من اللاتين والايطاليين الى المطالبة بالحقوق الكاملة المتمثلة فى الحصول على الجنسية الرومانية ، ولم يكن السناتو ولا الشعب الرومانى متحمسين للاستجابة لهذه المطالب باستثناء بعض السياسيين من انصار ثورة العدالة الأجتماعية كما سنرى فيما بعد .

الصراع بين روما وقرطاجة (١) :

طبقا لرواية بلوتارخوس ابحر بيرهوس من صقلية عائدا الى ايبروس ، وبينما كانت سفينته تبتعد عنها علق قائلا « يالها من ميدان قتال مدهش نتركه للقرطاجيين وللرومان ! » .

واذا كان بيرهوس قد قال هذا فعلا فقد صدق قوله ، اذ لم تمض سنوات حتى قدر لاعنف صراع عرفه التاريخ القديم أن يندلع بين امتين قديمتين ، احداهما امة ثرية ، عجوز ، صعبة المراس ، والأخرى امة جديدة متدفقة بالحياة والحركة ذات تصميم على النصر وليس دونه ، ومتفائلة بما حققته من انتصارات داخل ايطاليا .

(١) هذا الاسم تحريف للاسم الفينيقى للمدينة وهو « قرط حداشت » وقد حرفه الاغريق الى « كارتاجا » والرومان الى « كارثاجو » ، والعرب الى قرطاج او قرطاجة .

قرطاجة :

قديما وقبل أن تكبر روما (١) لتصبح مدينة كبيرة كانت قرطاجة عاصمة الامبراطورية القرطاجية مدينة كبيرة ومزدهرة ولها سمعة تجوب الآفاق ، بعد أن تشربت بروح الحضارة الهللينستيه واستفادت منها. وكانت قرطاجة تقف شامخة فى شمال افريقيا مطلة على البحر المتوسط بالقرب من مدينة تونس الحالية فى مواجهة ساحل صقلية الغربى . وكانت فى الاصل مستعمرة فينيقية أسسها مهاجرون معظمهم من مدينة صور القديمة Tyre على الساحل السورى . ويقدر الأثريون حديثا تاريخ تأسيس قرطاجة مابين ٦٧٣ — ٦٦٣ ق . م وليس كما كان يعتقد سابقا ما بين ٨٦٠ — ٨١٤ ق.م، وقد قدر لهذه المستعمرة من بين المئات من المستعمرات التى أقامها الفينيقيون أن تكبر وتنمو وتزدهر للتفوق حتى على المدينة الأم (٢) التى خرجت منها ، واصبحت من كبريات المستوطنات الفينيقية على ساحل البحر المتوسط ، بل لتصبح هى بدورها مؤسسة لعديد من المستوطنات فى جزيرة صقلية وفى أسبانيا وسردينيا . وكانت المدينة تقف كقلعة Byrsa يحتمى من خلفها التجار والزراع ولها حصن طبيعى يحمى السفن من هياج البحر فضلا على انها تتحكم فى منطقة اعطتها السيطرة على غرب البحر المتوسط ومن ثم استحقت لقب ملكة البحار Regina marium

وليس هناك ما يدل على ان قرطاجة كانت مملكة بل تشير كل الظواهر على أنها كانت جمهورية تحكم من جانب النبلاء والاشراف (٣) بنظام نعرفه بالحكم الارستقراطى ، وقد حافظ الاشراف على نقاء دمائهم الفينيقى الارستقراطى بينما اختلطت دماء الطبقات الوسطى والدنيا بسكان شمال أفريقيا القدماء سواء من الليبيين أو البربر ، مكونين عنصرا ممزوجا هو

---

(١) خلد لنا فرجيل فى الانياده اسم قرطاجه عندما ذكر قصة علاقة البطل اينياس مع ملكة قرطاجة ديدو . أما التاريخ التقليدى لتأسيس قرطاجة فهو عام ٨١٤ ق.م وهو تاريخ رفضه الاثريون الآن .

(٢) خاصة بعد اضمحلال صور تحت توسع الامبراطورية الآشورية .

(٣) وقد ابدى ارسطو اعجابه بقوانينها الاولبجارخية (القوانين ٢ ، ٨) . وعن الفينيقيين ودورهم فى الحضارة الاغريقية ، انظر كتابى « الاغريق » الطبعة الثانية والمراجع والمصادر التى ذكرتها تحت هذا الموضوع . كذلك انظر : رشيد الناضورى : المغرب الكبير فى العصور القديمة ، القاهرة ١٩٦٦ ص ١٦١ وما بعدها .

العنصر « الليبى ـ الفينيقى » والذى كان مصدرا للطاقة والثراء فى المدينه ، فمنهم كان البحارة والزراع والصناع المهرة والعاملون فى المناجم الغنية .
ولم يكن على البحر وحده تعيش قرطاجة ، بل هيمنت على سـهل غنى بالخيرات هو سهل « باجراداس » (Bagradas) وعلمت سكانه من البربر طريقة فلاحة الأرض وزراعتها ، كما عمل بالزراعة الجنود المرتزقة الذين كانوا يكونون نواة جيشها وذلك بعد تسريحهم • كانت قرطاجة أول من وضع الأسس الثابتة لاسـتغلال العبيد فى المزارع المتخصصة فى زراعة بعض المحاصيل المعينة ولهذا امر السناتو الرومانى فى عام ١٤٦ ق • م بعد تدمير قرطاجة بترجمة موسوعة « ماجو » القرطاجى الخاصة بالزراعة والتى ظلت مرجع الرومان الأول فى الزراعة ، ومن بعد أصبحت مرجعا للأسبان والمور وهى أصل اسـتغلال العبيد فى زراعة قصب السكر فى جزر الاطلنطى والامريكتين فى مطلع العصر الحديث • لكن على أى حال ، كانت الغالبية العظمى من أهل قرطاجه تعمل بالتجارة بين أنحاء العالم ولهذا كان اسطولها أقوى الاساطيل البحرية فى حوض البحر المتوسط فى ذلك الوقت ولا ينافسه فى ذلك أحد •

وقد توسعت قرطاجه فى انشـاء المستعمرات غربا (١) وهى محطات تجارية وأسواق للتجارة قبل أى شىء آخر ، ومنها كانت تجنى أرباحـا كبيرة جعلت منها أغنى مدينة فى غرب البحر المتوسط • بعد أن ورثت امبراطورية الفينيقيين التجارية ، واتسع نفوذها من ميناء بنغازى حاليا الى مضيق جبل طارق ، وشمالا حتى البرتغال الحالية ، وسيطرت على معظم جزر البحر المتوسط مثل مالطة وسردينيا وكورسيكا وجزءا من صقلية وجزر البليار •

ولما كان القرطاجيون شعبا نشطا فى التجارة فقد آثروا التوسع التجارى على التوسع العسكرى ، لأنهم اعتبروا النفوذ الاقتصادى أجـدى من

---

(١) وذلك لأن مدينة سيرتيس Syrtis (سرته الحالية) الليبية الاغريقية حدث من نشاطها شرقا
B.H. Warmington, Carthage, London, 1960 ; also Gilbert and Collette Charles-Piccard, Daily life in Carthage, London, 1960.
كذلك : رشيد الناضورى : المرجع السابق ، ص ١٧٧ وما بعدها .

المجد العسكرى • ومن ثم لم يهتموا بالجيش الوطنى على نحو ما فعلت روما سياسيا ، بل احتفظوا بقوات رمزية معظمها من المرتزقة ، كما انها لم تسع الى دعم ممتلكاتها لخلق الامبراطورية الثابتة ، بل كان كل ما تريده هو بسط نفوذها التجارى وجمع الضرائب ، ولهذا وصفذ المؤرخون الاستعمار القرطاجى بأنه استعمار ذو نظر قصير ،وهذا يجعلنا نرجح ان روما كانت البادئة والمسئولة عن اندلاع الحرب وليس قرطاجة ، لان روما انتوت بحزم تصفية المستعمرات الفينيقية فى صقلية والاستيلاء عليها وبالطبع لم يكن من السهل أن يقبل القرطاجيون فقدان مستعمراتهم فى صقلية تلك الجزيرة الغنية بقمحها وزيتها ونبيذها وصوفها ومناجمها •

كان جهاز الحكم فى قرطاجه يقوم على أربع مؤسسات هى : الشوفيتيم (Shophetim) وهما القاضيان اللذان ينتخبان سنويا ، ثم مجلس الشيوخ الذى كان يتكون من ثلاثماية عضو ، ومجلس العامة ، ثم المحكمة العليا وكان عدد أعضائها مايه عضوا ، وباستثناء مجلس العامة كان الأغنياء يسيطرون على أجهزة الحكم سواء كانوا تجارا أم اقطاعيين • وجدير بالذكر ان قادة الجيش القرطاجى رغم انتخابهم داخل مجلس العامة الا أنهم كانوا عادة من الاثرياء •

هكذا كان الحكم الفعلى من الناحية العملية فى ايدى الاثرياء ، فهم يسيطرون على المحكمة العليا ، وعلى السناتو القرطاجى ، ولجنة الثلاثين ، التى كانت تعد وتجهز موضوعات المناقشة داخل هذا المجلس •

وقد تحدث ارسطو عن لجنة الخمسة التى كانت تنفذ القرارات وتدبر شئون المالية والاقتصاد والجيش والاسطول وقد تحالفت هذه اللجنة مع المحكمة لفرض نفوذها وسيطرتها على سياسة البلاد مما ساعد على تفشى الفساد وظل هذا الحال حتى قام هانيبال باصلاحاته الجذرية •

اندلاع الحروب البونيقية الأولى :

اطلق الرومان على القرطاجيين اسم البونيقيين (Punici) وهو تحريف لغوى لتميزهم عن اجدادهم الفينيقيين • ومن ثم عرفت هذه

(*) وقد عرفها كثير من الاساتذة بالحروب « البونية » وهو تعريب خاطىء شاع فى المؤلفات العربية •

الحروب باسم الحروب البونيقية ، وقد انطلقت أول جـولة من هـذه الحرب الضروس حوالى عام ٢٦٤ ق . م واستمر القتال حتى عام ٢٤١ق.م.

أما سبب هذه الحرب المباشر (١) فهو سبب تافه ، لا يمكن أن يدعو للحرب لولا أن النية للصراع كانت مبيته . وذلك السبب هو أن جماعة من الجنود المرتزقة الصقليين استولوا على الحكم فى مدينة ميسانا الاغريقية (Messana) واصبحوا مهددين من قبل ملك مدينة سيراكوزه زعيمة المدن الاغريقية فى صقلية . ومن ثم اسرع هؤلاء الجنود الى طلب النجدة من كل من قرطاجه وروما فى آن واحد . ولكن قرطاجه كانت اسرع فى تلبية هذا الطلب من روما لما عرف عنها من عداء للمدن الاغريقية فى صقلية، وفى الحال أرسلت حامية من رجالها لدعم الحكم الجديد، بينما كان السناتو لا يزال يقلب الامر جدلا ونقاشا ، وبعدها أعلن السناتو استنكاره لفعلة قرطاجه بارسال قواتها الى مدينة تواجه طرف ايطاليا الجنوبى،وامر بارسال الجيش الرومانى فورا الى مدينة ميسانا ، واستولى الجيش الرومانى على هذه المدينة دون أية مقاومة ، وعاد قائد الحامية القرطاجية الى بلده ليلقى جزاءه ، جزاء كل قائد يهزم فى المعركة ، وهو الصلب حيا حتى الموت ، طبقا للعادة القرطاجيه .

وسرعان ما تلى ذلك انتشار القتال بين الرومان والقرطاجيين فى اجزاء متعددة من صقلية وانحسر القرطاجيون فى مناطق محدده على ساحل الجزيرة الغربى حتى يسهل للاسطول القرطاجى تزويدها بالمؤن والعتاد .

ومن خلال الاشتباك الأول مع القرطاجيين عرف الرومان أهمية بنـاء

---

(١) من حسن الحظ لدينا مصادر دقيقـة عن الحروب البونيقية مصدرها المؤرخ الاغريقى بوليبيوس والذى استخدم مادته التاريخية فيما بعد المؤرخ الرومانى ليفيوس كما ان هناك عـددا من كتـاب الحـوليات التاريخية الرومانية الذين كتبوا عن هذه الحرب مثل فابيوس وكنكيوس وبعد ذلك يجىء كتاب السير من امثال كورنيليوس نيبوس وبلوتارخوس ، واخيرا تجىء أعمال دبودورس الصقلى وابيانوس وبالرغم من ان هذا الاخير عاش فى القرن الثانى الميلادى الا انه اعتمد على مصادر اصلية ودقيقة. وللمزيد من المصادر عن نظام الحكم فى قرطاجة : انظر رشيد الناضـورى المرجـع السابق ص ١٨٠ وما بعدها .

(٢) عن الصراع بين قرطاجة والمدن الاغريقية فى صقلية ، انظر : رشيد الناضورى ، المرجع السابق ص ١٨٧ وما بعدها .

السفن ، ومزايا الاسطول فى نقل المؤن ، والعتاد ، ونقل الجنود بسهولة الى جبهات نائيه عبر البحر ، ومن ثم شرعوا فى بناء اسطول كبير لأول مرة ، وتروى الروايات الشعبية أن الرومان حصلوا على سفينة قرطاجية كبيرة من النوع الذى يعرف بذات الخمس صفوف من المجدفين (Quinqueremes) كل صف فوق الآخر ، ولم يمض شهران حتى كان للرومان اسطول مكون من ماية سفينة من هذا النوع ، بالاضافة الى ثلاثين سفينة أصغر حجما تعرف بذات الطوابق الثلاثة (من المجدفين) (Triremes) واستغل الرومان البحارة الاغريق من ابناء المستعمرات الأغريقية فى جنوب ايطاليا وصقلية ، بل تروى الروايات ان الرومان طوروا فى فن القتال البحرى بأن اضافوا الى البوارج الكبرى افريزا على جانبى السفينة يتسع لمرور شخصين فى وقت واحد ، ووضعوا فى مقدمة السفينة خطافا كبيرا يتدلى من الصارية ويمكن التحكم فيه حتى اذا ما هاجم الرومان سفينة معادية تندفع البارجه الرومانية نحوها وينزل الجنود الخطاف على ظهر السفينة المعادية ويجرون هذه السفينة اليهم ثم يقفز رجالهم على ظهرها ويقتلون جنود العدو ويستولون عليها . وقد أثبت الرومان كفاءة هذا الاختراع فى معركة بحرية كبيرة مع الاسطول القرطاجى قرب مدينة ميلاى (Mylae) فى الشمال الشرقى من صقلية عام ٢٦٠ ق . م حيث دمرت البوارج الرومانية الحديثة شطرا كبيرا من الأسطول القرطاجى وولى الجزء الباقى الأدبار ، وكان ذلك أول انتصار بحرى يحرزه الرومان فى تاريخهم الطويل . ولذا احتفى الرومان بهذا النصر وأقيم قوس كبير لقائد المعركة فى مدينة روما . ولم يكن انتصار روما فى هذه المعركة يعنى تدهور المجد القرطاجى البحرى وسيادة الأسطول الرومانى ، لأن الاسطول الرومانى تعلم دروسا قاسية من الزوابع وهياج البحر ومهارة القرطاجيين ، ودفع ثمنا باهظا من سفنه ورجاله . كذلك تلقى الرومان درسا قاسيا عندما حاولوا غزو قرطاجه فى عقر دارها ، وردوا على أعقابهم خاسرين ، ولم تثنى هذه الكوارث الرومان عن عزمهم على تملك السيطرة على البحر فراحوا يبنون الاسطول تلو الاسطول ، حتى تمكنوا من احراز نصر حاسم على القرطاجيين عند جزيرة ايجاتيس (Aegates) فى الطرف الغربى من جزيرة صقلية وذلك فى

عام ٢٤٢ ق ٠ م وكان الوهن قد بلغ من الطرفين مبلغه فعقدت هدنة بينهما ليلتقط كل من الطرفين المتحاربين أنفاسه ، ولكن روما لم تتمتع بهـذا السلام القصير ، اذ عاودتها الاخطار ولكنها تمكنت من القضـاء عليهـا والسيطرة على صقلية تماما وادخالها فى ممتلكات الجمهورية الرومانية عام ٢٤٢ ق ٠ م ٠

وساد السلام بعد ذلك ، وتمنى الرومان أن يسود لعدة سنوات حتى يركنوا فيها الى الراحة وينعموا بمزايا السلام ، ولأول مرة منذ أيام الملك نوما أغلق الرومان بوابات معبد يانوس (١) ، ولكن لم تكد تمض ثلاث سنوات حتى عاد القتال وفتحت بوابات المعبد الرومانى من جديد لتبقى مفتوحة على مصراعيها لقرنين من الزمان ، وكان المسئول عن نقض الهدنة هم الرومان ، لأنهم استولوا على جزيرتى سردينيا وكورسيكا اللتان ثارتا على القرطاجيين وضمتهما اليها ٠ وفى نفس الوقت هاجم الغـال ايطاليا مرة أخرى ، وردتهم روما عبر الالب بشق الأنفس ، كما خاضعت روما حربا ثالثة مع القراصنة الألليريين (اليوغوسلاف) الذين كانوا يهددون شمال بحر الأدرياتيك ٠ ولأول مرة وجد الرومان الاغريق يقاتلون معهم ضـد هؤلاء القراصنة ومن ثم بدأت علاقة حميمة بين المستوطنات الاغريقيـة والرومان ٠

ظهور هاميلكار بارقا وتأسيسه قرطاجنه (قرطاجه الجديدة) :

وفى نفس الوقت الذى كان القرطاجيون فيه مستعدين لجولة جديدة مع الرومان بعد أن عاد اليهم الأمل فى النصر بيزوغ قائد فذ من بينهم هو هاميلكار برقا (Hamilcar Barca) الذى يعتبره المؤرخون أعظم شخصية عرفها التاريخ الى حد يفوق هانيبال نفسه ٠ فقد كان جنديا بارعا ومخططا موهوبا وسياسيا (٢) داهية ، اشترك فى الجولة الأولى ضد الرومان ، والحق بهم عدة هزائم ورد القوات الرومانية الغازية على أعقابها خاسرة ، وقد تمتع هذا القائد بقدرة رائعة على الكراهية والتصميم على الانتقام من الرومان الذين سلبوا بلاده الكثير من ممتلكاتها التى كانت تدر علبهـا

---

(١) انظر ص ٣٣

(2) Polybius, III, 9-10.

الخيرات والرخاء • كما أدرك هذا السياسى والقائد الداهية أن قرطاجة الافريقية قد أصابها الوهن والشيخوخة ، بل ونضبت مواردها الاقتصادية بعد أن سلبتها روما اياها ، كما أدرك أن الشعب القرطاجى وزعماءه ليسوا بالقدر المعنوى العالى ، فقرر أن ينقل جبهة القتال الى أسبانيا ، تلك الأرض العذراء ذات المصادر الغنية ، وبالرجال الأشداء حيث يستطيع منها تجنيد جيوش يهزم بها الرومان (١) ، وبالفعل غادر هاميلكار قرطاجة الى آسبانيا عام ٢٣٦ ق • م • ومن ثم يعتبر بوليبيوس ظهور هاميلكار بارقا سببا من أسباب اندلاع الحرب البونيقية الثانية •

ويروى أنه قبل مغادرته قرطاجه زجاه ابنه هانيبال أن يصحبه معه الى اسبانيا ولكن الاب اضطحب الابن الذى كان يبلغ وقتئذ التاسعة من عمره ــ الى معبد الرب بعل مولوخ (Baal Moloch) وامام محراب هذا الرب الفينيقى أخذ الأب علي ابنه عهدا بأن يكره الرومان حتى الموت ، وبأن يقاتلهم حتى آخر رمق (٢) •

وبعد أن وصل هاميلكار الى أسبانيا أمن المنطقة الساحلية الواقعة فى الجنوب الشرقى وهناك وقرب الشاطىء أنشأ قرطاجه الجديدة (Carthago Nova) التى عرفت باسم قرطاجنه (Cartagena) (٣) ومن هذه المدينة راح يشن حربا بلا هواده على الرومان حتى سقط قتيلا فى احدى المعارك عام ٢٢٨ ق • م •

وبعده خلفه زوج ابنته هاسدروبال (Hasdrubal) ولكنه لم يبق طويلا اذ اغتيل بعد سبع سنوات من تولية • عندئذ اجمع الجيش القرطاجى على اختيار هانيبال قائدا وزعيما •

الحرب البونيقية الثانية :

وعندما بدأت الأمور تتعقد كان هانيبال فى العقد الثالث من عمره ، فتيا ، صارما ، يتمتع بثقة رجاله الى أقصى درجة ، وقد أدرك هذا القائد بداهته ونظرته البعيدة ان الحرب مع روما قادمة لامحالة وعليه أن ينشب

---

(1) T. Frank, Roman Imperialism, New York, 1919 p. 120—121.

(2) Livy 21, 5 - 18.

(3) Polybius III, 14 — 15. وهو الاسم الاغريقى لمدينة قرطاجنه الجديدة Karthaga nea ولا تزال هذه المدينة تحمل هذا الاسم فى اسبانيا حتى اليوم .



هانيبـــال

لاحظ لمحة الحزن ، ونظرة التفكير العميق التى اضفاها الفن الواقعى الرومانى لتجسيم ملامح البطل العدو ومأساته (متحف الفاتيكان)

اظافره أولا قبل أن تنشب روما أظافرها • وأن يسبق بالضربة القاضية فاكتسح شمال اسبانيا حيث استولى على مدينة ساجونتوم (Saguntum) المتحالفة مع روما فى هجوم عاصف قبل أن تحرك روما ساكنا • فكانت ضربة مهينة لسمعة روما العسكرية ولنفوذها واحترامها خاصة أن أهل هذه المدينة طلبوا العون عدة مرات من روما •

وأرسلت روما وفدا من السناتو الى قرطاجه لتقديم الاحتجاج والشكوى على هذا العدوان الذى قام به هانيبال(١) على مدينة متحالفة معها، ويطالب بتصحيح هذا الخطأ على الفور ، اذا اتهم الوفد الرومانى القرطاجيين بأنهم يلقون الوقود فى النار بتعيينهم شابا متوقدا للحرب مثل هانيبال . بينما رد القرطاجيون بأن روما قد أخلت بعهودها بانحيازها الى جانب ساجونتوم ضدهم ومحاولة تدخلها فى حرب ضدهم بلا سبب ، وأن السبب فى الأزمة ليس هانيبال بل أهل ساجونتوم ، وعلى طريقة الدبلوماسية الرومانية التى تميل الى الدراما والتمثيل فتح كوينتوس فابيوس رئيس الوفد عباءته Toga وقال للقرطاجيين « اننى أحمل لكم فى هذا الشق السلام وفى ذلك الشق الحرب فاختاروا ما تطلبون » فأجابه القرطاجيون فى تحد وكبرياء بأن يعطيهم ما يشاء لأنهم لا يعبأون « فانتاب الغضب سفير روما وأجاب « حسن ، فانى أعطيكم شق الحرب » ، عندئذ أجاب القرطاجيون بأنهم يقبلوه وسوف يتحملون ذلك بنفس الروح التى قبلوها به (١) •

هكذا بدأت الحرب البونيقية الثانية وهى أشرس جولة عرفتها هذه الحرب التى استمرت سبعة عشر عاما من القتال العنيف بين الخصمين العنيدين وكان كلاهما يقاتل وهو يعلم جيدا أن من ينتصر فى هذه الحرب سوف تكون له السيادة على الجزء الغربى من حوض البحر المتوسط ، وأن من يخسر سوف يخسر وجوده ذاته، اذن فقد كانت معركة حياة أو موت • ولما كان الرومان يرتعدون خوفا من اسم هانيبال فقد اطلقوا على هذه الفترة من الحرب اسم « حروب هانيبال » ، لأن شخصية هذا الزعيم الذى كرس حياته ونذرها لتدمير روما هى التى كانت تشكل جوهر سير المعارك والاحداث •

---

(١) هانيبال هو الاسم الذى اطلقه الرومان على هذا القائد القرطاجى وهو تحريف لاسمه البونيقى وهو « حنو بعل »

(1) Livy XXI, 18 ; Appian The spanish wars, VI, 13

لم يكن لهذا البطل الشجاع ما تحقق لعظماء العالم الحديث مثل نابليون بونابرت وروميل من ذخيرة وعتاد وجيوش ، بل كان عليه أن يواجه فرق الجيش الرومانى ذات المستوى العسكرى الرفيع مثلما كان على الاسكندر الأكبر أن يواجه جيوش الامبراطورية الفارسية الكثيفة بامكانيات عسكرية محدودة ، ولكن هانيبال استعاض عن الكثرة وقلة العتاد بالتخطيط العسكرى الحكيم ، ولم يكن فى مفهومه الكم بل الكيف الذى يقرر مصير الحرب • ولهذا يعتبره بعض المؤرخين العسكريين أعظم عبقرية عسكرية عرفها العالم قديما وحديثا •

هانيبال يعبر الألب :

غادر هانيبال قرطاجنة فى صيف عام ٢١٨ ق • م ليعبر جبال الألب ، يتقدم جيشا قوامه تسعين ألفا من جنود المشاة الأسبانيين والقرطاجيين ، واثنى عشر ألفا من الفرسان النوميديين (الجزائريين) ، وفرقة تتكون من سبعة وثلاثين فيلا مدربا جىء بهم خصيصا من أفريقيا • ولما علم الرومان بذلك حاولوا قطع الطريق عليه ، فأرسلوا جيشا بقيادة القنصل كورنيليوس سكيبيو Cornelius Scipio أبحر لتوه الى جنوب بلاد الغال (فرنسا) ، ولما وصل الجيش الرومانى ، وجد أن ركب هانيبال كان قد تحرك منذ فترة فى طريقه ليعبر نهر الرون وأنه من الصعب اللحاق به ، ولما ادرك كورنيليوس سكيبيو ذلك ، قرر أن يبعث بجيشه الى أسبانيا ليقطع خط الامداد على هانيبال ، بينما أسرع عائدا الى روما ليجند جيشا آخرا ينتظر به هانيبال عندما يهبط بجيوشه من جبال الالب • وفى نهاية الصيف وقرب الخريف اقتربت جحافل الجيش القرطاجى الى مطلع جبال الألب ، ولم تهن عزيمة هانيبال أمام هذه الجبال الشامخة التى تحوى فى متاهاتها البرد والجوع والمرض • واخترق ركب هانيبال مطلع الألب لمدة خمسة عشر يوما فى تجربة قاسية ومريرة مارا فى ممرات لا تعدو أن تكون افريزا ضيقا حول فوهة هوة سحيقة ، وحيث تقطن القبائل الجرمانية العدوانية ، وقد راح ضحية السقوط فى الهوة السحيقة عدد كبير من دواب الحمل والجياد ، كما نفق عدد آخر من البرد والجوع ، ولم يكن الجنود احسن حالا من الدواب فقد هلكت الآلاف منهم موتا من الوهن والمرض

والجوع ، ودفنت جثثهم تحت تلال الثلوج التى تغطى هــذه الجبال .
وقرب منتصف شهر أكتوبر وصلت قافلة هانيبال الى قمة الالب حيث
بدت روما من بعيد مستسلمة غارقة فى الضباب من أسفل السهل الساحق
العميق ، والشاسع الامتداد . ووقف هانيبال يشير الى رجاله قرب منال
المجد والمرام ليرفع من روحهم المعنوية المنهارة ، وليجــدد فى نفوسهم
الحماس من جديد . ولكن قوى الطبيعة فى هذه المنطقة الوعرة كلفته
ثمنا باهظا ، ولم يكن النزول من القمة الى أسفل الوادى أقل خسارة
وارهاقا من الصعود اليها ، وبعد سبعة أيام أخرى من الشقاء والبرد والجوع
هبط الركب الى منطقة السفوح المغطاة بالأشجار وحيث تنتشر المراعى ،
وحيث تعيش القبائل الغالية فى قرى متناثرة . ومن هذه القرى أمكن
لهانيبال أن يتزود بالمؤن . ان ثمن عبور الألب الذى دفعه هانيبال قد
ينزل الدهشة فى قلوب الباحث عن الحقيقة . اذ لم يتبق من جنود المشاه
سوى عشرين ألفا ومن الفرسان سوى سته آلاف . وكان على ما بقى من
هذا الجيش الجرار أن يتحدى العدو فى عقر داره ، وأن يشتبك مع فرقه
العسكرية التى تشمل مائتين وخمسين ألف راكب وراجل . وكانت كل
الشواهد الاستراتيجية والعسكرية فى صالح روما فيما عدا شخص واحد
فقط هو هانيبال العظيم . ومن ثم كانت كل جيوش روما تحارب شخصا
واحدا فقط هو هانيبال .

وجاء أول اشتباك بين الطرفين قرب نهر تيكينوس احد روافد نهـر
البو فى شمال غرب ايطاليا ، وأبلى القرطاجيون بلاء حسنا وكادوا ان يقتلون
القائد الرومانى سكيبيو لولا شجاعة ابنه الذى لم يكن قد تجاوز السبعة
عشر ربيعا ، اذ تمكن من المقامرة بحياته لانقاذ أبيه الجريح ، وانسحب
الجيش الرومانى هلوعا من عنف جيوش ذلك القائد القادم عبر الالب ،
ثم انضم لجيش سكيبيو المنــدحر جيش رومانى آخر بقيــادة القنصل
سيمبرونيوس (Sempronius) أملا فى تطويق هانيبال ، واشتبك معهما
هانيبال فى معركة شرسة دارت رحاها قرب نهر تريبيا حيث الحق هانيبال
بالجيشين الرومانيين الذى يبلغ تعدادهما أربعين ألف رجل هزيمة ساحقة

(١) وهو الذى صار فيما بعد اسكيبيو بطل أفريقيا وقاهر هانيبال .

واندحرا ، يجران ذيول الهزيمة الى تجمع الجيوش الرومانية عند مدينة أرمينيوم (Ariminum) ، وكان هذا يعنى انسحاب روما وهجرها لشمال ايطاليا من نهر الروبيكون (Rubicon) حتى نهر البو لتصبح فى سيطرة هانيبال ولولا تقلب الجو من ثلوج وأمطار وزوابع لطارد هانيبال الجيوش الرومانية جنوبا •

مصيدة بحيرة تراسيمينوس :

قضى هانيبال شتاء عام ٢١٧ ق م • فى سهل البو يستريح ويستمتع ويدرب جنوده ، وما أن قدم الربيع ، حتى بدأ يتحرك نحو جبال الابنين (Apennines) ثم عبرها ، وما أن هبط منها حتى وجد جيشين رومانيين جرارين فى انتظاره يقود الأول القنصل سرفيليوس (Servilius) وقاعدته اريمنيوم ، وعلى بعد خمسة عشر ميلا يتأهب الجيش الثانى من قاعدته فى ارتيوم (Arretium) بقيادة القائد فلامينيوس (Flaminius) وبسرعة الهمت البديهة العسكرية هانيبال باستراتيجية هذين القائدين الرومانيين وهي محاولة تطويقه ، وانطلاقا من منطق أن من له الضربة الأولى ، له السيطرة على مستقبل المعارك ، تحرك هانيبال ليبطل مفعول هدف التحرك الرومانى وليحول الصياد الى صيد وذلك بخدعة عسكرية هى غاية فى المكر والذكاء ، اذ تظاهر هانيبال بتخريب حقول سهل أتروريا وقتل الماشية ، وحرق القرى ، لكى يغرى فلامينيوس بتتبعه ، وبالفعل سار فلامينيوس فى أثره املا فى اللحاق به حتى وجد القائد الرومانى نفسه محصورا بين بحيرة تراسيمينوس فى اقليم اتروريا (Trasimenos) وبين قوات هانيبال التى لاترحم والتى تحصنت فى التلال المحيطة بالبحيرة ودخل ثلاثون ألف رومانى مصيدة سهل اتروريا مارين من الممر الضيق الذى يؤدى اليه ، وما ان انتهى دخول الجيش الرومانى السهل حتى أعطى هانيبال اشارة باغلاق طرفى الممر ، وظهرت فجأة القوات القرطاجية من وراء الكثبان والتلال تحيط بالرومان من كل جانب ، ويشهد أساتذة التاريخ انها لم تكن معركة بل مذبحة ، راح ضحيتها خمسة عشر ألف رومانى ما بين الوادى والبحيرة ، بل ان بعض جنود الرومان فضلوا أن يلقوا بأنفسهم فى مياه البحيرة ليموتوا غرقى على أن

(١) ومكانها الآن لا جودى بيروجيا Lago di Perugia او Lago di Trasimeno

يلقوا مصرعهم تحت جحافل الجيش القرطاجى • ولما حاول ستة آلاف من طلائع الجيش الرومانى شق طريقهم عنوه عبر مدخل الوادى ـ ونجحوا بالفعل ـ وجدوا أنفسهم فى غداة اليوم التالى فى أحضان القوات القرطاجية فحصدوهم حصـدا ، وحارب قائد الجيش الرومانى فلامينيوس ببسالة لآخر رمق فى حياته حتى سقط قتيلا ، وقد بلغ اعجاب هانيبال بشجاعته أن راح يتفحص جثث القتلى حتى عثر عليه ، وحمل جثمانه ليوفيه حقـه من الاجلال والتعظيم وأشرف على دفنه فى احتفال عسكرى مهيب • ولعل القارىء يدهش أن خسائر هانيبال فى هذه المعركة لم تتعد سوى ألفا ونصف ألف قتيل مقابل افناء جيش رومانى بأكمله •

وهكذا أصبح الطريق مفتوحا الى روما ، اذ لم يعد يبدو فى الخمسة عشر ميل الباقية اليها أى قوات رومانية ولكن هانيبال لم يقصد احتلالها بل اتجه شرقا يحرق الحقول ويخرب المزروعات ويقتل القطعان ويشتت القرى ، وينهب كل ما يقابله لكى يجعل روما تجوع ، ثم تجثو على ركبتيها تطلب منه الصلح ويملى هانيبال عليها شروطه •

السناتو يعين دكتاتورا لحكم البلاد :

ولما وصلت الأنباء الى روما ساد جو من الكآبة والذعر ، ولكن شيوخ السناتو بما عرف عنهم من صلابة وعناد لم يحركوا ساكنا ، ولا اهتزت فيهم شعرة واحدة • ولم يدر بخيالهم ولو للحظة ، قبول الهزيمة ، وارضاء هانيبال • وكل ما فعلوه ، هو أنهم عينوا دكتاتورا لحكم البلاد Dictator طبقا للقانون الرومانى نظرا للخطر الفادح الذى يهدد وجود الأمة وحريتها ووقع الاختيار على داهية عسكرى هو كوينتوس فابيوس ماكسيموس Quintus Fabius Maximus ليكون دكتاتورا على البلاد ويتولى القيادة •

كانت فلسفة فابيوس العسكرية هى تأجيل الهجوم الى أقصى حـد لارهاق العدو من ناحية ، وتبديد طاقته مع الاستفادة فى نفس الوقت من هذا الامتناع عن التعامل مع العدو ، فى التحصين والاستعداد وتدمير كل الطرق المؤدية الى روما ، وحرق الحقول ، وتدمير القرى،حتى يبدو هانيبال

كما لو كان فى قلب صحراء جرداء ومهجورة تلالها خرائب وأطلال (١) .

ومرت بضعة أسابيع متباطئة وثقيلة ، لم يفعل فيها فابيوس شيئا سوى اعداد نواة الجيش الرومانى من جديد عن طريق التدريب العنيف ولما تم له ذلك بدأ يتعقب مؤخرة جيش هانيبال بحرص شديد ، بحيث لا يلفت نظره لكى يوفر على نفسه اشتباكا قد يقضى على البقية من جيشه وتذهب ثمرة جهده سدى ، وكانت مهمة القوات الرومانية لا تتعدى قتل الهاربين من جيش العدو وقطع الامدادات عنه والمقاومة بأدنى خسارة من أجل تحقيق أكبر خسارة وكأنه تاجر يبلغ به الحرص حد اغلال يده الى عنقه .

ولم ترض هذه السياسة الباردة الهادئة نفوس الرومان وقلوبهم التى كانت تتوقد شوقا للقتال وتحرير الوطن الغالى فاتهموه بأنه متباطئ Cunctator وانتظروا حتى انقضاء الحد الاقصى لتولى الدكتاتورية وهو ستة شهور ، ثم رفضوا تجديدها ، ولعل الدافع الى ذلك ما جاء من أنباء أن هانيبال يغلظ فى عقاب الايطاليين الذين لا يخرجون على ولائهم للرومان وينضمون اليه ، ولم يدر فى مخيلة الرومان ان فابيوس كان من أعظم عبقريات الجيش الرومانى وأن خطته وحدها هى التى أنقذت الجمهورية من السقوط والجيش الرومانى من الفناء ، وان فلسفة التباطؤ العسكرى لا تقل أهمية عن فلسفة الهجوم والاكتساح ، وأن فكرة الدفاع والتحصين وبناء القوة العسكرية ليس فى الحقيقة الا هجوما مؤجلا لحين انتظار نقطة ضعف تظهر فى جبهة العدو .

ولكن الوطنية المتدفقة والتلهف على الدفاع عن الحما والشرف أنفذ طاقة الصبر التى اتصف بها الرومان ، ومن ثم اختير بدلا منه قنصلان من أبـرز قـادة جيش همـا ايميليـوس باولوس Aemilius Paulus

---

(١) وهى نفس الخطة العسكرية التى اتبعها القائد الاثينى بريكليس فى بداية الحرب البيلوبونيسية الكبرى . ولقد ادرك الرومان بعد انتصارهم على هانيبال مدى اهمية هذا التكتيك وقالوا عنه لقد انقذ الدولة بتباطئه Cunctandu restituit rem publicam.

ومن امثلة الخداع الذى مارسه هانيبال تسيير قطيع من الثيران بعد أن ربط فى قرونها حطبا مشتعلا ، ثم سيره نحو معسكر الرومان فى كمبانيا مما ادى الى احداث الهرج ، واستغل ذلك وافلت من حصار الرومان له .

بطـل الحـرب الالليرية ، والآخـر هو جايوس تيرنتيوس فارو (١) .
Caius Terentius Varro

مذبحة الرومان الكبرى فى كاناى : Cannae

بدأ باولوس وفارو خطة جديدة وهى حشد أكبر قدر من المجندين وبناء الجيش الذى يفوق أى جيش جندته روما فى تاريخها ، والاسراع فى اعداده وارساله للتعامل مع العدو . وكان هذا الجيش يزيد فى عدده وعدته عن الجيش العادى فبينما كان الجيش الرومانى يتكون فى العادة من فرقتين Legiones ، كل فرقـة تشتمل على ٤٢٠٠ جندى مشـاه ومائتى فارس ، كان هذا الجيش يتكون من ثمان فرق وكل فرقة تضم خمسة آلاف وثلثمائه فارس . كما بلغ عدد المتطوعين الايطاليين فى الفرق المساعدة رقما مقاربا للجيش الرومانى ، وباختصار كان على هانيبال أن يواجه قوة ضاربة يبلغ تعدادها ثمانين ألف رجل . وكان يقود هـذا الجيش المتحـد الجنرالان باولوس وفارو بالتناوب .

وتحرك الجيش الرومانى يبحث عن هانيبال وقواته فى سهول ايطاليا الى أن التقى الجيشان فى أحد أيام صيف عام ٢١٦ ق . م بالقرب من مدينة كاناى الواقعة على ضفاف نهر اوفيدوس Aufidus فى مقاطعة ابوليا Apulia

كان الجيش الرومانى واثقا من نفسه الى حد الغرور ، معتمدا على عدده الخيالى ، ومن ثم اندفع المشاه الرومان الى قلب التشكيل القرطاجى أملا فى الحاق ضربة قاضية بهذا الجيش ، وليدفعوا القوات القرطاجية تجاه النهر . ولـكن هانيبال أسرع بتطبيق نفس التكتيك الذى اتبعـه فى تراسيمينوس وبسرعة راوغ الزحف الرومانى ليدور من حوله وليجد الجيش الرومانى نفسه مرة أخرى فى مصيدة ، ودارت أعنف مجزرة عرفها التاريخ، ولما توقف القتال كان هناك خمسون ألف رومانى تبعثرت جثثهم على أرض المعركة . ومن بين القتلى كان الجنرال باولوس نفسه ، كما سقط سرفيليوس

(١) اتهمه الارستقراطيون الرومان بوضاعة الأصل ابوه كان قصابا ومن ثم فكان ديماجوجيا ويشكل جبهة المعارضة داخل السناتو بالرغم من الثقة الكاملة فى اخلاصه لأداء الواجب ، ولعل اختيار السناتو كان مقصودا به ارضاء المعارضين للنبلاء ولسناتو من اجل الوحدة الوطنية فى وجه الكارثة التى تحيق بالوطن .

القنصل الأسبق وعدد كبير من نبلاء الرومان ورجال السناتو • وطبقـا للمعلومات التى أوردها لنا الكتاب فان خســارة القرطاجيين لم تزد عن خمسة آلاف رجل (١) •

وبعد انقشاع غبار المعركة عن الميدان ، بدت جثث الرومان ملقاه هنا وهناك ، وراح هانيبال يتفقد الميدان ، تعلوه ابتسامة الرضا والزهو ، زهو القائد المنتصر ، وفى أثناء ذلك عرض عليه مساعدة ماهرابال Mahrabal قائد فرسانه النوميدى ان يأذن له بالانطلاق الى روما واعـدا اياه أن يجعلها تجثو على ركبتيها وان يجعل هانيبال يشرب نخب النصر فيها بعد خمسة ايام فقط • ولكن هانيبال رفض طلبه فصاح حزينا فى وجه سيده **« انك تعرف ياهانيبال كيف تحرز نصرا ولكنك لا تعرف كيف تستخدم مثل ذلك النصر ! »** ولكن هانيبال كان يعرف عواقب هذه المخاطرة على طول الطريق الى روما ، وهو طريق وعر يسيطر على جانبيه حلفاء روما مما قد يجعل من رجاله صيدا ثمينا للكمائن • فضلا على أنه يعرف جيدا أن الرومان لن يستسلموا ، وأن مقاومتهم لن تتوقف •

وبالرغم من أن الجنرال ڤارو فقد معظم جيشه ، اذ لم يتبق لديه سوى عشرة آلاف رجل بعد معركة كناى • ولكن ڤارو ضرب المثل الأعلى للقادة العسكريين فى رباطة الجأش والتحمل • وقاد ما تبقى من جيشه عائدا الى روما حيث استقبل استقبالا عظيما بالرغم من أنه كان عائدا من هزيمـة كبرى وبالرغم من أنه كان مكروها من أعضاء مجلس الشيوخ لوضاعة أصله الاجتماعى مما جعله فى نزاع تام مع الأرستقراطيين ، ولكن السناتو تناسى هذه الخلافات وأصدر قرارا شكر فيه ڤارو لأنه تمكن من انقـاذ بعض الفرق الرومانية وقادها بسلام الى المدينة والتى يمكن أن تصبح نواة جيش رومانى جديد ، ومن ثم أعلن السناتو رضاه عنه لأنه أنقذ الجمهورية • ثم أصدر السناتو قرارا بأن تغلق أبواب العاصمة ، حتى لا يهرب أحد خارجها • وبينما كان السناتو يستعرض هذه الكارثة الوطنية ويبحث فيما ينبغى عمله كان عويل الأمهات الرومانيات يغطى على النقاش ، فأرسل المجلس

(1) Livy, 25, 12, 5, ; idem 22, 44, I ; Polybius 3, 113.

الى الامهات يرجوهن أن كن يردن البكاء على رجالهن فليفعلن ذلك فى بيوتهن حيث لا يسمعهن أحد ، وبدأ السناتو باعادة بناء جيش رومانى، فأطلقوا سراح المسجونين ، وسلحوا العبيد واللصوص والمجرمين ، وجندوا الصبيان، ولم يتردد السناتو أن يقوم بأعمال خرافية لارضاء النزعة الرومانية الغيبية التى كانت تشكل جزءا من شخصية الرومانى . فدفنوا احدى راهبات الربه ڤستا حية لخروجها على العرف الدينى واتخاذها عشيقا . كما ذبحوا رجلين وامرأتين من الاغريق والغاليين قربانا لالهة العالم السفلى حيث ذهب الآلاف من الجنود الرومان ، كل ذلك بسبب الهزة النفسية الشديدة التى أحدثتها تلك الحرب فى المجتمع الرومانى .

أعدت روما جيوشا لم تعرف مثلها من قبل لأعددا ولا عدة ، وراحت تنتظر فى قلق ورعب ظهور هانيبال الرهيب . واستعدت المدن الايطالية لمقاومة هانيبال حتى الموت وأعلنت وفاءها التام لروما وللاتحاد اللاتينى ، ووسط هذا القلق والخوف برز ابن بار لروما وعبقرية عسكرية عظيمة وهو القائد الرومانى الشهير بوبليوس كورنيليوس سكيبيو (١) Puplius Cornelius Scipio وكان سكيبيو قد عين لقيادة القوات الرومانية المرابطة فى اسبانيا وكان عمره وقتذاك لم يتجاوز الخامسة والعشرين وكان على هذا القائد الذى برز من وسط الخوف والقلق والعناد والتحدى ان يواجه أسطورة العصر .

كان تكتيك القائد سكيبيو فى البداية هو تعطيل سيل الامدادات التى كان يتلقاها هانيبال من أسبانيا ، ولكن فى عام ٢٠٧ ق . م تمكن جيش قرطاجى بقيادة هاذدروبال Hasdrubai — شقيق هانيبال — أن يحطم العوائق التى اقامها سكيبيو وأن يسير ليلحق بجيش هانيبال فى جنوب ايطاليا وزاد ذلك من رعب الرومان وخوفهم ولكن مرة أخرى ازداد الرومان اصرارا وعنادا فى مقاومة المعتدى .

مقتل هاذدروبال :

ولما حاول هاذدروبال ارسال بعضا من الرسل الى أخيه هانيبال ، تمكن

---

(١) وهو ابن سكيبيو القائد والذى له الفضل فى انقاذ ابيه من الموت انظر ص ٨٧ .



سكيبيو بطل افريقيا
وقاهر هانيبال

كلاوديوس نيرون Claudius Nero قائد الجيش الرومانى المعين لرصد تحركات هانيبال من ايقاع هؤلاء الرسل فى كمين، وبعد أن حصل منهم على ما يريد من أخبار وخطط ، قام باصطحاب قوة صغيرة من جيشه ، تاركا باقى الجيش ليراقب هانيبال وتحركاته ، أما هو فقد انطلق بسرعة خاطفة ومعه ثمانية آلاف من خيرة رجاله ليلحق بالقنصل ليفيوس Livius الذى كان يقف بالمرصاد لقوة الامداد التى جاء بها هاذدروبال الى ايطاليا وقطع كلاوديوس نيرون مسافة مائتين وخمسين ميلا وهو يسير ليل نهار طوال سبعة أيام حتى انضم بقوته الى جيش القنصل ليفيوس تحت ستار الظلام . ولما أدرك هاذدروبال فى الصباح أن معسكر الجيش الرومانى قد دعم ليلا ، حاول التقهقر وتفادى الدخول فى معركة يفرضها عليه العدو ولكن القنصلين كلاوديوس نيرون وليفيوس اجبراه على الدخول فى معركة حامية الوطيس عند شاطىء نهر ميتاوروس Metaurus وكانت النتيجة نصرا كاملا للرومان وهزيمة ساحقة لهاذدروبال الذى لقى حتفه بعد أن أبيد جيشه ، وبسرعة خاطفة تسلل كلاوديوس نيرون عائدا من حيث أتى حيث انضم الى قواته الأساسية وكأن شيئا لم يحدث حتى أن هانيبال لم يلحظ أو يرقب تحركه الخرافى الا عندما فوجىء برأس أخيه تلقى فى معسكره لتلقى الرعب فى قلبه وكرسالة تحد من القنصل كلاوديوس نيرون الى قائد الجيش المعتدى.

معركة زاما الكبرى عام ٢٠٢ ق.م :

أثر مقتل هاذدروبال تأثيرا كبيرا فى نفسية هانيبال . وحزن عليه كثيرا، وبدأ اليأس يحيط به ، بل بدأ يدرك عدم جدوى بقاء جيشه فى ايطاليا خاصة وأنه امام خصم عنيد لن يستسلم ، ولكنه ظل يكابر ويعاند طوال أربع سنوات ، راح فيها يحرق الحقول ، ويقتل الماشية ، ويهدم القرى العامرة، وكان هدفه أن يجبر روما تحت ضغط الخسائر الاقتصادية على الاستسلام وارجاع كل ما سلبته من قرطاجة .

ولجأ سكيبيو الى حيلة بارعة ، هو أن يترك جيشا دفاعيا فى ايطاليا ليقاوم غارات هانيبال، بينما يذهب هو بقواته الهجومية الى قرطاجة فى أفريقيا ليفرض على خصمه معركة فى عقر داره كما فعل هو معهم . وبالفعل

استدعى القرطاجيون قائدهم هانيبال من ايطاليا للدفاع عن الوطن القديم فى افريقيا . وغادر هانيبال ايطاليا ليجد جيشا رومانيا عنيدا بقيادة سكيبيو ايمليانوس ينتظر ملاقاته .

وفى التاسع عشر من شهر أكتوبر عام ٢٠٢ يوم حدوث خسوف الشمس الذى مكننا من تحديد تاريخ المعركة بدقة ، دارت أعنف معركة عرفها التاريخ قرب زاما على مشارف قرطاجه (١) .

كان جيش هانيبال يتكون من جنوده القدامى الذين حنكهم طول القتال ووعورته وصلابة التدريب الشاق المتواصل ، فضلا عن شعبية هانيبال وثقة جنوده فيه ، حيث خاض بعضهم معه أعظم المعارك مثل معركة كاناى Cannae وتراسيمينوس Trasimenos ، فضلا عن امتلاكه لفرقة من الفرسان النوميديين (الجزائريين) خيرة المقاتلين فى العالم القديم ، بالاضافة الى فيلق من الافيال الضخمة تعدادها ثمانون فيلا مدربا سارت فى المقدمة ، ولهذا اضطر سكيبيو ايميليانوس الى تفرقة جيشه الى جماعات صغيرة متناثرة تركت وسطها طريقا لتمر منه أفيال هانيبال وفرسانه ومشاته ، ثم أطبقوا عليهم من كل جانب ، ودارت رحى الحرب والقتال على طول أربع ساعات تقريبا . وما ان مالت الشمس نحو المغيب حتى وجد هانيبال ميدان القتال مليئا بجثث جنوده المبعثرة وطلائع القوات الرومانية تستعد لملاقاة قلب الدفاع القرطاجى الذى استعد للهجوم والقضاء على الرومان ، ولكن فى تلك اللحظة أعطى اسكيبيو أمرا لفرسانه بالهجوم من كل اتجاه على قوات هانيبال ، بل وتمكن من ادخال هذه القوة فى كماشة أحكم القائد الرومانى اغلاقها وكانت نكبة للقرطاجيين اذ فقدوا عشرين ألف رجل وعددا آخر يفوق ذلك العدد وقع فى الأسر ، وهرول هانيبال مذعورا الى مدينة قرطاجه للاحتماء بها وتحصينها وكان ينوى المقاومة ولكن

---

(١) يرى اساتذة التاريخ العسكرى ان التكتيك الذى استحدثه هانيبال فى هذه المعركة يفوق تكتيكه حتى فى معركة كاناى ويقوم هذا التكتيك الجديد على فكرتين الاولى استخدام الاحتياطى للقوات فى الوقت المناسب ، أما الثانية فهى استخدام الجزر الدفاعية أو القنافذ Hedge hogs وهى نقاط محصنة تظل تقاوم حتى بعد نجاح العدو فى الاستيلاء على الاراضى . ولا تزال الجيوش الحديثة تدخل فى معاركها هذا التكتيك الذى يجعل من هانيبال عبقرية تفوق حتى نابليون ذاته .

شيوخ القرطاجيين بدأوا يعارضون[1] هانيبال، وتحت الحاحهم اضطر أن يقبل سلاما رومانيا قاسيا سلب قرطاجه كل ما تملك ، ولأول مرة ذاق الرومان حلاوة النصر بعد معارك مريرة .

هكذا أملت روما شروطها على قرطاجه ، وهى أن تجرد قرطاجه من كل ممتلكاتها وتسلم اسطولها ـ سر قوتها ومصدر رخائها ـ كما تعهدت قرطاجه ألا تعلن حربا على أحد الا بعد أخذ موافقة السناتو الرومانى . كما دفعت قرطاجه غرامة مالية باهظة الى روما تعويضا لها عن الخسائر التى أنزلها هانيبال بالحقول والمزارع الايطالية .

هكذا بمقتضى تنازل قرطاجه عن ممتلكاتها أصبحت اسبانيا ولاية رومانية سموها ولاية هسبانيا Hispania ، كما فصل الرومان منطقة نوميديا Numidia (الجزائر) عن قرطاجه وجعلوها مستقلة بشرط أن يدخل ملكها فى تحالف مع الرومان ، وفى ذلك الوقت فتحت روما أبوابها للثقافة الهللينستية القادمة من الاسكندرية ، ومن المستوطنات الاغريقية فى صقلية ، وامتزج الفكر الرومانى بالأغريقى ومن هذا المزيج الغريب تكونت الحضارة ، التى تعرف بالاغريقو رومانية [2] وهى الطابع الحضارى الذى ساد العالم كله حتى نهاية الوثنية وانتصار المسيحية .

ان المراقب للأحداث من موقع محايد ، ليرى أن هانيبال بالرغم من براعته العسكرية الا أنه كان لابد وأن يخسر الحرب فى النهاية حتى ولو انتصر فى زاما على الرومان ، لأنه كان يشن حربا عدوانية ضد شعب عنيد مثل الشعب الرومانى لا يمكن هزيمته ، ولهذا لجأ هانيبال الى سياسة تدمير الموارد الاقتصادية على أمل استسلام الرومان ولكن ذلك لم يجد شيئا امام الرومان . وقد لعبت سياسة الدكتاتور الرومانى فابيوس ماكسيموس المتباطىء دورها فى ارهاق هانيبال ودعم الصمود الرومانى

---

(١) كان الزعيم القرطاجى هانو يتزعم معارضة هانيبال وكان قد رفض من قبل طلبا لدعمه فى ايطاليا .

(٢) وافضل تسميتها هكذا بدلا من قولنا الاغريقية الرومانية .
Graeco — Roman

ولذلك عزى أساتذة التاريخ العسكرى النصر له قبل القائد سكيبيو الاغريقى بطل زاما . وقالوا عنه أن تباطئه انقذ الدولة .

مسئولية اندلاع الحرب البونيقية الثانية :

يتفق المؤرخون القدامى والمحدثون على السواء على أن الحرب البونيقية الثانية والتى لمع فيها هانيبال كزعيم وقائد عسكرى فى قرطاجه ، هى أكبر وأخطر حرب خاضتها روما فى تاريخها ، بل وقلبت نتائجها الأوضاع فيها رأسا على عقب ، وكما لمح المؤرخ بوليبيوس أن بنهاية هذه الحرب بدأ عهد جديد فى تاريخ البحر الأبيض ، بل ان بعض المؤرخين المحدثين يرون أنه بداية الطريق نحو الامبراطورية الرومانية فى الخارج والثورة الاجتماعية فى الداخل .

ولعل من حسن حظ المؤرخين المحدثين أن لدينا فيضا كبيرا من التراث وكتابات المؤرخين القدامى عن اسباب وتطورات ودوافع هذه الحرب . ويجىء على رأس المؤرخين الرومان تيتوس ليفيوس ذلك المؤرخ الرومانى الوطنى الغيور والملتزم باظهار الدروس الاخلاقية للتاريخ والمتيم بالزخرفة البلاغية والشعر النثرى مما جعله يفقد الحس التاريخى الباحث فى اغوار القضايا والازمات للاتيان بالأسباب المحركة لهذه الحرب . لكن الظروف عوضت لنا ذلك النقص فى منهج ليفيوس بالتراث التاريخى الكبير الذى خلده لنا أعظم المؤرخين نضجا وادراكا الا وهو بوليبيوس المؤرخ الأغريقى الذى عشق روما وفهم دورها كموحدة للعالم المسكون فعاش فيها وكتب تاريخها وسار فى صحبة جنرالاتها ولكنه بالرغم من ذلك ككونه أغريقى لم يكن يلم بكل صغيره وكبيره فى اعماق التاريخ الرومانى مثل ليفيوس الرومانى الذى كتب من بعده بقرن أو يزيد واستوعب كل ما كتب ولهذا فان مقارنة اعمال هذين المؤرخين العظيمين تكمل الصورة وتجعلها دقيقة ووافية .

أما فيما عدا ذلك من مؤرخين آخرين فقد كانوا تبريريين يبحثون عن تبرير سلوك روما قانونيا ، ولاثبات أن اللوم يجب أن يقع على كامل أسرة آل برقا وخاصة هانيبال ، لكن بالرغم من أن الكتاب القدماء سواء كانوا اغريقا أو رومان تبنوا وجهة النظر الرومانية بدرجات متفاوته وهى

وجهة نظر المنتصر ، ولذا فان المؤرخين المحدثين يحاولون ابعاد الروح المتحيزة من ذلك التراث القديم ، والدليل على أن مسئولية الحرب قابلة للجدل هى أنها كانت موضوعا شائعا للمناظرات التعليمية فى المدارس الرومانية ، اذا كان الأطفال فى المدارس يدخلون فى مناظرات حول قضايا هذه الحرب ، مثل هل كان ينبغى أم لا ينبغى على هانيبال ان يعبر الالب ؟ وهل كان من الخطأ ام من الصواب الا يسير هانيبال الى روما بعد هزيمة الرومان فى كاناى ؟ وليس طلاب المدارس فقط الذين دخلوا فى هذه المناظرات ، بل أساتذة البلاغة والربطوريقا والجدل ، فضلا عن أبحاث هواة التاريخ العسكرى الرومانى ونظمه وتكتيكاته ، والباحثون فى روح القيادة العسكرية ، التى أبرزت هذه الحرب اثنين منها هما هانيبال وسكيبيو الافريقى ، وكذلك الذين يضربون بهذه الحرب المثل للاختبار الحقيقى لمعدن الرومانى والجمهورية الرومانية الذى صمد ولم يتزعزع فى وجه هذه المخاطر المميتة .

ومهما برر هؤلاء الكتاب القدماء وجهة النظر الرومانية معتمدين على المهارة القانونية لشرعية اعلان الحب لاقناع الرومان المتيمين بالقانون والجدل القانونى بأنها كانت حربا عادله Bellum Iustum ، تلك التى خاضتها روما ، لأن المسئولية تقع على هانيبال وآل برقا لأنهم كانوا ينوون الانتقام من روما بسبب هزيمتهم فى الحرب البونيقية الأولى ، وفقدانهم صقلية وسردينيا ، وأن روما حاولت أن توقفهم عن التعدى على مدينة حليفه معها هى ساجونتوم ، ولكن هانيبال قام بالهجوم عليها واحتلالها فى نوفمبر عام ٢١٩ ، بعد أن حاصرها ثمانية أشهر كاملة ، وأن روما بالرغم من هذا لم تتعجل الحرب بل أرسلت الى قرطاجة فى أفريقيا وفدا برئاسة فابيوس فى مارس عام ٢١٨ يطلب عقاب هانيبال وتسليمه الى الرومان جزاء عدوانه على مدينة حليفة مع الرومان وخيرت القرطاجيين بين أمرين احدهما الحرب أو الاذعان repetitio rerum ، ولما رفض السناتو القرطاجى مطالبا بخصر المشكلة حول الخلاف القانونى فى تضامن روما مع ساجونتوم فى ضوء المعاهدات المعقودة مع روما ، والتى لاتقر موقف روما ، قام فابيوس بتمثيلية سبق أن أوردناها وأعلن الحرب على قرطاجه .

ومن ثم فقد دخل المؤرخون المحدثون فى جدل حول من المسئول عن هذه الحرب هل هى سياسة روما الاستعمارية ورغبتها فى خلق امبراطورية واسعة ومن ثم كان عليها أن تصفى النفوذ القرطاجى فى أسبانيا ؟ أم أن السبب هو المرارة التى كان يحس بها القرطاجيون بعد فقدان صقلية وسردينيا مصدر ثرائهم وبعد أن فرضت عليهم غرامة باهظة من جانب الرومان بلغت ١٦٠ تالنت ومن ثم كان عليهم أن يعوضوا هذا النقص بالبحث عن أرض جديدة فى أسبانيا ؟ ، أم أن اللوم يقع على الحقد الدفين الذى كان يقبع فى أسرة آل هاميلكار بارقا التى كانت تتحرق شوقا للانتقام من الرومان ؟ ويجىء على رأسهم هانيبال الذى يرى المؤرخون الرومان أنه لو لم يتول القيادة شاب متهور ، مغرم بالقتال مثله ، لما اندلعت الحرب ؟ ويرى فريق ثالث ان كلا الطرفين لم يكن له نية للحرب لكن الأزمات التى قامت مع وجود الرواسب القديمة هى التى وضعتهما فى موضع القتال ، فروما كانت تحرص على مهابتها ونفوذها وتعاملها مع حلفائها وأنه كان عليها أن تفعل ما فعلت والا فقدت ثقة حلفائها فيها وخرجوا عن طاعتها عندئذ يكون ذلك مكسبا معنويا وسياسيا لهانيبال وقرطاجه ، وأن قرطاجه لم تنس الهزيمة المريرة التى حاقت بها ولابد وأن تحاول رد كرامتها المسلوبة جزئيا ، ولكنها لم يكن فى نيتها الدخول فى حرب فاصلة مع روما تنتهى باحتلالها وتحويلها الى منطقة نفوذ لأن هذا التفكير الجامح لا يصدر من عبقرية عسكرية مثل هانيبال تعرف أين تقف وأين حدودها ، كما أن معاهدة قرطاجه مع مقدونيا تعترف وتسلم بوجود روما ونفوذها فى أسبانيا .

ويقول المدافعون عن روما ومسئوليتها عن هذه الحرب ان روما لم تكن ابدا تفكر فى التوسع والاستعمار عندما أعلنت الحرب على قرطاجة لأنها لم تكن تسير على نهج امبراطوريات الشرق القديم مثل بابل ومصر وفارس لأن التوسع فى هذه الامبراطوريات كان نتيجة لوجود الحاكم القوى المتسلط الذى يريد أن يفرض نفوذه عن طريق الأمة التى يحكمها على البلاد المجاورة لمركز قوته ، كما أن ظروف روما كانت تختلف عن ظروف امبراطوريات الشرق القديم التى كانت تتكون من امم وشعوب

مختلفة العنصر والثقافة ولاتلتقى فى جهاز الدولة الا فى فكرة الخضوع لسلطان الحاكم المتسلط ، بينما نجد روما دولة ذات شعب متجانس لغة وثقافة وعنصرا ، ترفض الحاكم المتسلط حيث لا يسمح نظامها بقيامه ، وأن الرومانى كان قانعا بالبقاء داخل حدود ايطاليا ، ولم يكن يسعى للتوسع ولكن الظروف والأزمات التى كان على روما أن تواجهها باصرار هى التى دفعتها الى طريق التوسع الاستعمارى فسارت فيها وهى مسيرة الى أن وجدت نفسها سيدة على البحر المتوسط ، ويرد البعض بأنه ربما يكون من الجائز أن روما لم تكن تتبع سياسة توسعية استعمارية فى تلك الفترة ولكنها كانت فى طريقها لأن تفعل ذلك ، اذ أنها كانت أمة متصلفة مغرورة ، انانية حريصة على النفوذ والثراء وان هذه هى الدوافع النفسية التى تدفع الأمم دائما سواء فى الشرق أو فى الغرب الى سلوك طريق التوسع والاستعمار ، وأن المؤرخين التبريريين أخفوا الوسائل التى اتبعتها روما فى التوسع وبسط النفوذ مثل الاستيلاء على سردينيا وتدخلها فى أسبانيا بطريقة دفعت قرطاجه الى فقدان هدوئها،كما أخفى الكتاب الرومان الدافع الحقيقى للعدوان الرومانى وهو التحريض الدائم من جانب مستوطنة مارسيليا ، تلك المستوطنة الاغريقية التى أنشأتها مدينة فوكايا بالقرب من مصب نهر الرون ، وراحت تتوسع تجاريا فى أسبانيا ، وتنافس تجار قرطاجة الذين كانوا يحتكرون التجارة فى شبه جزيرة ايبيريا ، ولقد اشتد هذا التنافس بعد قيام قرطاجة الجديدة التى حولت جنوب أسبانيا الى جزء من الامبراطورية القرطاجية ، وكانت ماسيليا احدى المدن الصديقة والمخلصة لروما ، والتى وقفت مع روما فى السراء والضراء ، عندئذ كان على روما الوقوف الى جانبها بحق الصداقة ، كذلك كانت هناك صداقة تجارية حميمة بين مارسيليا ومستوطنه ساجنتوم وهى مدينة ايبيريه ذات أهمية استراتيجية محدودة وتقع على بعد مائة ميل جنوب نهر الأيبيرو ، وتحت وساطة ماسيليا تم التقارب بين روما وساجونتوم وعقد ما يشبه الاتفاق بينهما عام ٢٣١ ق.م مما ناقض اتفاقات روما السابقة مع قرطاجة . ووجدت روما نفسها تستخدم ساجونتوم كمخلب القط لوقف التوسع القرطاجى فى اسبانيا وحرمانها من الثراء الذى يدره عليها تلك المنطقة ، ثم نجد روما

تتدخل فى السياسة الداخلية فى ساجنتوم من أجل اسقاط الحزب المتعاطف مع القرطاجيين والاتيان بحزب معاد لهم . ومن ثم قام هذا الحزب بالتحرش والعدوان على قبائل أسبانية متحالفة مع قرطاجة وهى قبائل التوربوليتاى Toroboletae . والحق يقال أن روما لم تكن تقصد شن حرب على قرطاجه بل مجرد تهديدها باستخدام القوة بهدف ارهابها ، وهى نفس السياسة التى استولت بها روما على سردينيا خاصة أنها كانت مشغولة فى صراع مع مقدونيا ، لم تكن قد انتهت منه بعد . ويقال أيضا أن روما فى ذلك الوقت كانت تشهد صراعا سياسيا داخليا بين حزب المزارعين وأصحاب الاقطاعيات من ناحية ، والذى كان لسان حالة فلامينيوس ، وكان ينادى بعدم التورط فى حروب توسعية خارج ايطاليا ، وبين حزب التجار وأصحاب رءوس الأموال ، والذى كان يدعو للتوسع ، وفتح آفاق جديدة أمام رءوس الأموال الرومانية ، ومن ثم دعى أن تكون سياسة روما سياسة عالمية ، ولكن عندما اشتد الصراع فان الحزب الأخير لم يكن يدعو علنا للحرب التوسعية . ومن الجدير بالذكر ايضا ان السناتو الرومانى لم يكن لديه مخطط توسعى ينفذه ، بل كان جهازا عمليا يتعامل مع الأزمة الطارئة فى ضوء واقعها وظروفها ، فاحتلال سردينيا مثلا لم يكن حلقة من حلقات التوسع ، بل مجرد عمل ارهابى موجه لانذار قرطاجة مستقبلا ، كذلك فان حروب روما ضد الغال كانت حروبا دفاعية بالرغم من أنها لفتت نظرها الى وجوب حماية حدودها الشمالية من التوسع والعدوان ، كما أن حروب روما فى الليريا لم تكن سوى عمل بوليسى لتأمين البحار وتطهيرها من القراصنة ، ولذلك فان تدخلها فى أسبانيا لم يكن سوى اظهار التضامن مع حلفائها وليس كجزء من مخطط استعمارى للتوسع فى الغرب . هكذا كانت روما فى مرحلة دفاعية ، ولم تكن روما تدرك نتائج تدخلها لأنها كانت تتعامل مع كل موقف حسب لحظته ، وحسب ما ينبغى عليها أن تفعل فى ضوء ظروفه ، وأن هانيبال تحداها فتحدته الى درجة اعلان الحرب عليه .

وبقدر مايدافع المدافعون عن روما فى هذه الحرب ، بقدر مايلقون اللوم على أسرة آل هاميلكار بارقا ، وخاصة هانيبال من أجل القاء مسئولية هذه الحرب على قرطاجه التى كانت تعتبر جنوب اسبانيا منطقة نفوذ تابعة لامبراطوريتها

ومصدر ثرائها ورخائها ، والذى من أجله كانت على استعداد للدفاع عنه .
وقد حاولت تحديد مسار السفن الرومانية باتفاق قديم عقد عام ٣٤٨ق . م
فى حدود لم تسمح للسفن الرومانية بتعديها ، وفى عام ٢٣٧ أرغم الرومان
قرطاجه على تسليم سردينيا ودفع غرامة حرب باهظة قدرها ١٢٠٠ تالنت
وأن الهدف الأول من وراء نقل القوة من قرطاجه فى أفريقيا الى قرطاجنه
فى أسبانيا لم يكن تعويض ما فقدته قرطاجه من ثراء فحسب ، بل تجنيد
جيش قوى من القبائل الأسبانية توطئة لهجوم انتقامى على روما . وأن
هاميلكار بارقا وضع معالم سياسة الانتقام من الرومان وأعد الدولة للحرب،
فقد كان يتمتع بكراهية شديدة تجاه الرومان بعد هزيمة صقلية وفقدان
سردينيا ، وقد أورث هذه الكراهية لابنه من بعده ، وأن هناك شطرا
كبيرا من القرطاجيين الذين كانوا يحسون بمرارة الهزيمة ويتمنون الانتقام
من روما التى أفقدتهم جزءا كبيرا من امبراطوريتهم التجارية . ولما سقط
هاميلكار بارقا قتيلا عام ٢٢٩ ق.م، تولى من بعده هاذدروبال وكان دبلوماسيا
ماهرا حقق فى صمت توسع قرطاجه فى أسبانيا بسرعة تدعو للاعجاب
وضم اليه العديد من القبائل الأسبانية فى شبه جزيرة أيبيريا وأصبح يهدد
مصالح ومستوطنات ماسيليا المدينة الاغريقية الحليفة لروما ، ولابد أن
تكون ماسيليا قد لفتت نظر السناتو الرومانى الى الخطر القرطاجى فى
أسبانيا لأن شيوخ السناتو باتوا يتحدثون عن نوايا قرطاجه فى الانتقام ،
وازاء ذلك ، أرسلت روما وفدا الى هاذدروبال عام ٢٢٦ ق.م لمطالبته بعقد
اتفاق يحدد نفوذ قرطاجه فى شبه جزيرة أيبيريا بحيث لايتعدى نهر الأيبرو
شمالا Ebero ، ثم سارعت وعقدت معاهدة تحالف مع مستوطنه
ساجونتوم التى كان يربطها بماسيليا صداقة وتعاون تجارى ، بالرغم من
أن ساجونتوم كانت تقع على بعد ماية ميل جنوب نهر الأيبرو أى أنها
كانت تقع داخل منطقة نفوذ قرطاجه الذى اعترفت به روما بمقتضى اتفاقية
نهر الأيبرو ، ومن ثم برزت مسألة قانونية هل من حق روما أن تعقد معاهدة
مع مدينة تقع داخل منطقة اعترفت هى بأنها منطقة نفوذ قرطاجه ؟ وهل
هذا الاتفاق الجديد ألغى الاتفاق مع قرطاجة الذى عقد عام ٢٢٦ ق.م ؟
وهل كانت اتفاقية نهر الأيبرو تنص على شىء مقابل شىء quid pro quo

وهو ألا تتوسع قرطاجه فى شمال نهر الأبيرو مقابل ألا تتدخل روما فى شئون جنوبه ؟ واذا كان المؤرخ بوليبيوس يقول أن اتفاق التحالف مع ساجونتوم قد تم قبل تولى هانيبال بيضع سنوات أى أنه تم بعد عقد معاهدة نهر الأبيرو عام ٢٢٦ ق ٠ م وان صح ذلك فان روما تكون هى المسئولة عن نقض هذه المعاهدة التى كان يمكن تكون معاهدة تعايش سلمى مثل تلك المعاهدات التى تمت بين روما والممالك الهللينستية فى الشرق ، حتى ولو افترضنا جدلا أن اتفاقية التحالف مع ساجونتوم قد تمت قبل معاهدة نهر الأبيرو فانها تكون قد ألغيت بمقتضى الاتفاق الجديد مع قرطاجه أى فى كلتا الحالتين ليس لروما الحق فى التحالف مع ساجونتوم ٠ ولكن الكتاب الرومان يتهربون من هذه النقطة بقولهم أن اتفاقية الأبيرو لم تكن اتفاقية شىء مقابل شىء ، بل كانت تعهدا الزاميا من جانب قرطاجه بتحديد منطقة نفوذها وهذا ما نستبعده لأن كلتا الدولتين كانتا على قدر كبير من القوة وأن كليهما كانتا تحترم نفوذ الأخرى ٠ ويقول المدافعون عن هانيبال أنه بمقتضى اتفاقية نهر الأبيرو فان هجوم هانيبال على ساجونتوم بعد عدوانها على قبيلة أسبانية متحالفة مع قرطاجه كان فى داخل نصوص الالتزام التعاهدى بين روما وقرطاجه ، وبالتالى لم يكن عملا من الأعمال العدوانية ٠ ويؤكد فريق من المدافعين عن قرطاجه بأن روما عقدت مع قرطاجه معاهدتين الأولى اتفاق لوتاتيوس عام ٢٤١ ق ٠ م والثانى اتفاق نهر الأبيرو عام ٢٢٦ ق ٠ م وأن التحالف مع ساجونتوم لابد وأن يكون قد جاء على الأقل بعد معاهدة لوتاتيوس وبالتالى لم تكن ساجونتوم من بين المدن التى تعهدت قرطاجه أمام روما بالابتعاد عنها ، واحترام استقلالها ، كما أن هانيبال لم يهاجم ساجونتوم الا بعد تمادى هذه المستوطنة فى عدوانها على القبائل الأسبانية المتحالفة مع قرطاجه خاصة قبائل التوربوليتاى ، ويقول المهاجمون لهانيبال الذى تولى بعد هاذدروبال انه كان يتوقد حقدا على الرومان ، وأن الاشتباك بين ساجونتوم وقبيلة التوربوليتاى كان اشتباكا صغيرا لا يستحق التدخل العسكرى بالمستوى الكبير ولدرجة محاصرة واحتلال ساجونتوم ، و أن روما حذرته فى فسحة من الوقت بأن مثل ذلك التصرف سوف يعتبر بمثابة اعلان الحرب (Casus belli)

ولكن رفض الاذعان للرومان ، ولولا أنه كان يضمر العدوان ، لما
حول هـذا الاشتباك الصغير الى حرب كبيرة لاتعرف عواقبها ، رأن
ساجونتوم كانت شوكة فى ظهر قرطاجه ، لكنها لم تكن بذات قيمة عسكرية،
بدليل أن روما لم تتعجل بارسال قوات عسكرية للدفاع عنها كما فعلت
مع ميسانا عام ٢٦٤ ق ٠ م ، ومن ثم فان روما لم تبدأ العدوان ، انما احتلال
هانيبال لساجونتوم هو الذى أشعل الحرب (١) لأنه كعسكرى قدير
أدرك أن الحرب مع الرومان قادمة لا محالة ، ومن ثم لجأ الى جر الرومان
الى المعركة، واجبارهم على اعلان الحرب حتى يكسب تأييد وعطف حكومته
وشعبه ٠ وهناك من يلقى اللوم على هانيبال وحده ، ويقولون أن خلفاء
هاميلكاربرقا فى أسبانيا سلكوا طريق العدوان مستقلين عن رأى مجلس
الشيوخ فى قرطاجه ، ولكن هذا الاتهام اتهام أجوف لأنه لاهاميلكار ولا
هاذدروبال كانوا يسلكون طريقا مستقلا عن رأى القيادة فى الوطن ؛ لأنهم
كانوا يعتبرون أنفسهم قادة عسكريين للأمة فى أسبانيا ، وأنهم كانوا أذكياء
يدركون ن قيادة قرطاجه فى أيدى الشيوخ الارستقراطيين المتعاطفين مع
الرومان أو على الأقل كانوا يحرصون على ما معهم ولا يجازفون فى الدخول
مع حرب قد تفقدهم ما معهم ، ولهذا فقد كانت قرطاجه تتحاشى منافسة
روما فى البحر المتوسط ، بل على العكس فقد كان هؤلاء الارستقراطيون
يعلمون أن عليهم دفع أقساط الغرامة الباهظة التى يدفعونها لروما ، وأن
أسبانيا هى الأمل الوحيد الذى قد يساعدهم على تسديد هذه الغرامة
الباهظة ، وانه مهما كانت مشاعر الحزب الحاكم فى قرطاجه فقد كان على
استعداد للدخول فى حرب مع روما من أجل المحافظة على ثروته ، ولكنهم
لم يخاطروا بالحرب لذات الحرب والا لأعلنوها من قبل فى مناسبة أفضل
عندما كانت روما مشغولة فى حرب مع أعدائها ، ويقول المدافعون عن
أسرة آل بارقا أنهم لم يكونوا وحدهم فى أسبانيا بل كان يصاحبهم مستشارون
سياسيون ، وعلى اتصال دائم بالوطن ، وبالتالى لانستطيع أن تعتبر كراهية
أسرة آل بارقا، ورغبتهم فى الانتقام، هو الدافع الأول للحرب، وأن فكرة الطموح
والرغبة فى الانتقام دعاية أطلقتها روما عندما رفض هانيبال تهديدات الوفد

(1) Livy idem, Appian, idem.

السيناتورى عام ٢١٩ ق٠م ، وأن المؤرخ الرومانى فابيوس بكتور روج لذلك بقصد التشهير بهانيبال وملوك آل برقا ومن أجل تبرير عدوان روما ولأثبات أن هانيبال كان وحدة المسئول وليس السياسيون فى قرطاجه ٠

لقد كان فعلا هناك فريق من الأغنياء فى قرطاجـه ينادون بالتسايس مع روما ويعارضون سياسة آل برقا ، ولكن الحقيقة التى لا يمكن انكارها هى أن هانيبال تصرف بمقتضى موافقة حكومته فى أفريقيا ، وأنه كان القائد المختار ، وحاكم قرطاجه وأن انكار أو تحدى مكانته كان كافيا لشـطر قرطاجه الى شطرين شطر افريقى ، وشطر أسبانى ، وهذا ما كان يدركه معارضوه فى لحظة خطر محدق بالأمة كلها ، كما كان هانيبال عسكريا ودبلوماسيا عبقريا شهد له أعداؤه وأصدقاؤه على السواء وكان يعرف كيف يسيطر على جيش قرطاجه الذى كان يقوم أساسا على مرتزقة مأجورين كما ظهرت عبقريته أثناء حصار ساجونتوم وفى أثناء حملاته السريعة فى شرق أسبانيا ، ولعل السناتو القرطاجى كان يدرك أن هذا هو القـائد المناسب للخطة المناسبة ٠ ويلقى المدافعون عن هانيبال اللوم على روما لأنها هى التى أجبرت قرطاجه على الحرب ، والقرار الذى حمله فابيوس عام ٢١٨ الى قرطاجه كان قرارا تخييريا rerum repetitio بين الحرب أو تسليم هانيبال ومساعديه للمحـاكمة ، وأن السناتو القرطاجى حـاول الجدل فى نقطة قانونية هى هل هناك شرعية فى تدخل روما لنجدة ساجونتوم التى بدأت العدوان ؟؟ وأن تدخل روما لا يتفق ونصوص اتفاق نهر الأيبرو Ebero ولا اتفاق لوتاتيوس عام ٢٤١ ولهذا كان هدف المؤرخين الرومان هو تبرير سلوك روما من الناحية القانونية لدرجة أن بعضهم نقل مكان ساجونتوم من جنوب نهر الأيبرو الى شماله ، ومن ثم فقد كان هناك جدل يقتضى البحث والتحكيم ، ولكن روما سارعت عندما وجـدت مجلس الشيوخ القرطاجى فى حالة عدم قرار الى اعلان الحرب على هانيبال ٠

وهناك فريق ثالث يرى أن الحرب كانت حتمية على الطرفين بدافع الظروف ، وأن الطرفين وجدا نفسيهما فى حرب لم يكونا يفكران فى الدخول فيها ٠ فمثلا دخلت روما الحرب من أجل ساجونتوم وهى مدينة صغيرة ليست بذات أهمية استراتيجية وبعيدة عن روما ، وليس هناك ما يلزم

قرطاجه بتركها تعبث بين حلفائها ، بل وينظم العلاقات الرومانية القرطاجية اتفاق نهر الأبيرو Ebro ، ولهذا عارض فريق من السناتو الرومانى أن تدخل روما حربا من أجل مدينة غير هامة ، و فى وقت كانت الحرب فيه محتملة مع فيليب ملك مقدونيا ، ولكن الفريق الآخر من السناتو جادل بأن السكوت على سقوط ساجونتوم يلحق العار بالهيبة الرومانية ، ويصغر من شأن روما أمام حلفائها مما قد يأتى بأوخم العواقب ، وقد يكسب قرطاجه مركزا سياسيا على حساب روما ، اذن فالدافع لدخول روما الحرب ليس هو التوسع ، أو الاستعمار ، ولكن الحفاظ على المهابة ، خاصة أن ماسيليا الصديقة للرومان كانت تنتظر عملا حاسما ضد قرطاجه وتحرض روما على ذلك .

أما قرطاجه فبالرغم من مرارة الهزيمة الأولى ، وبالرغم من كراهيـة هاميلكار وخلفائه للرومان بعد فقدان سردينيا ، فانها لم تكن تسعى لمهاجمة روما ، بل على العكس كان الحزب الارستقراطى الحاكم فى قرطاجه يدعو للتنايس مع الرومان ، وان نجاح هاميلكار فى أسبانيا لم يكن لهـدف عدوانى بل من أجل تعويض ماخسرته قرطاجه وأن قرطاجه عوضت ، بالفعل ما خسرته . ولو لم تهاجم ساجونتوم حلفاء قرطاجه فى أسبانيا لما استولى هانيبال عليها ، بل وتركها وشأنها ، ولكن هـذه المدينة جرت بسلوكها القطبين الكبيرين الى الاشتباك فى حرب مريرة . ولهذا نجد روما تحاول اقناع مواطنيها ذوى الثقافة العالية بأنها كانت على حق فى اعلان الحرب على قرطاجه وأن هذه الحرب حرب عادله Bellum Iustum

لقد كان من الممكن للطرفين أن يتعايشا سلميا فى غرب البحر المتوسط لو احترم كل طرف حدود الآخر ومنطقة نفوذه ، وكان يمكن لاتفاقيـة لوتاتيوس عام ٢٤١ أن تلعب دورا فى حل الأزمة سلميا ووضع أسـاس للتعايش السلمى modus vivendi بين روما وقرطاجه تماما مثلما حدث الحال بين الممالك الهللينستيه شرق البحر الأدرياتيكى ، وأن السـلام كان يهم قرطاجه مثلما كان يهم روما لأنها كانت تبحث عن التجارة والاستغلال التجارى ولا تهدف للتوسع العسكرى ، كما أن روما كانت على استعداد لأن تترك لها التجارة فى جنوب أسبانيا بعد أن انتزعت منها صقلية وسردينيا ، ومن ثم فان كلتيهما كانتا فى حالة دفاع عن النفس وأن كان الميزان يميل

قليلا نحو العدوان بالنسبة لروما .

الآثار الاقتصادية للحرب البونيقية فى ايطاليا :

يجدر بنا أن نقول أن الرومان قد دفعوا ثمنا باهظا للنصر الذى حققوه ، فعشرين عاما من القتال والدمار تركت بصماتها على المجتمع الرومانى . فالاقتصاد الرومانى عانى الكثير من ويلات الحرب بسبب تدمير هانيبال للحقول وللقرى ، وبسبب قتله لقطعان الماشية والأغنام ، ولم يعد الريف الايطالى غنيا هادئا كما كان قديما ، بل انتشر الفقر وهجرت القرى وترك الفلاحون الايطاليون مزارعهم للعمل فى الجيوش الرومانية مما أدى الى تدهور الزراعة ، وتحولت الحقول الخضراء الى مناطق من الأرض البور ، وفى نفس الوقت الذى عانت فيه طبقة الزراع من ويلات الحرب استفاد رجال طبقة الفرسان الذين جنوا ثروات كبيرة من هذه الحروب عن طريق قيامهم بمشروعات لحساب الدولة [١] ، كما استفادت طبقة أخرى من تجارة الرقيق والأسرى الذين كان يؤتى بهم الى روما حيث يباعون فى أسواقها بابخس الأثمان ، وتدفق العبيد على روما ورخصت أسعارهم ، وفى نفس الوقت لم يطق الجنود الرومان العائدون من الحرب الطويلة العيش فى الريف ومزاولة الزراعة بعد أن تعودوا على حياة المغامرات ، وعلى جنى الاسلاب والغنائم والتنقل من بلد الى بلد . ولهذا هجروا الزراعة وآثروا أن يرحلوا الى العاصمة روما لينضموا الى غوغاء المدينة ، يتسكعون بلا عمل ويطالبون بالخبز من الدولة ، كما أن طباعهم الجافة وقسوتهم التى تعلموها من ميادين القتال جعلتهم أميل الى العنف والثورة على الاوضاع الظالمة فى المجتمع الرومانى .

---

(١) والدليل على ازدهار هذه الطبقة هو تبلور النقد الرومانى لاول مرة فى صورة عملة نقدية لها احترامها الدولى وهى الدينار **denarius** الذى كان يساوى عشرين قطعة برونزية من فئة الآس **asses** ، وفى عام ٢٢١ ق.م. عندما خفض وزن الدينار الرومانى ليساوى ست عشر آس اضطرت مصر البطلمية الى أن تقيم عملتها على أساس الدينار الرومانى وحذى حذوها سائر الممالك الهللينستية وهو بداية السيطرة الرومانية على اقتصاد البحر الابيض . وسرعان ما اصبح الدينار الرومانى ونصف الدينار Victoriatus وربع الدينار **Sestertius** عملات متداولة فى كل ايطاليا وسائر بلدان البحر الابيض المتوسط .

وقد انتهز بعض الأغنياء الجدد هذه الظروف فوضعوا أيديهم على الأراضى المهجورة خاصة أراضى الدولة Ager Publicus التى كانت فى الأصل تؤجر للفلاحين المحدودى الدخل ، وكون هؤلاء الأثرياء اقطاعيات شاسعة Latifundia واقتنوا قطعانا من العبيد من أسواق النخاسة ودفعوا بهم الى العمل فى اقطاعياتهم تحت ظروف قاسية لاترحم يستهلكونهم حتى الموت ثم يشترون غيرهم . وهكذا زادت نسبة البطالة بين الرومان بسبب امتلاء الاسواق بالعبيد والأسرى . فى نفس الوقت ظهرت أسر رومانية ثرية راحت تلعب دورا فى السياسة الرومانية معتمدة على نفوذها وثرائها وبدأ الطموح يلعب بخيالها ، بل وبخيال العسكريين من الرومان بعد أن عرفوا طعم النصر ، وبالتالى لم تعد روما تحارب دفاعا عن نفسها كما كانت قديما بل بدأت تتبع صراحة وعلنا سياسة التوسع وفرض النفوذ وهذا هو أول الطريق الى الامبراطورية (١) أما الأسرة الرومانية التى كان يضرب بها المثل فى الوحدة والترابط فقد تفككت كما انهارت القيم والمثل العليا القديمة وبدأ الفسق والفجور يحيقان بالمجتمع ، وساد الانحلال بعد أن فقدت روما ما يقدره المؤرخون المعاصرون بمليون رجل تركوا من ورائهم أرامل وأسر دون رعاية ، بل وبدأت الأفكار والشعائر الانحلالية الوافدة من الشرق تتسلل الى روما ، وتكتسح المثالية الدينية والأخلاقية القديمة ، فدخل الى ايطاليا عبادة باخوس رب الخمر (ديونيسوس الاغريقى) والربه الام كوبيلى Cybele وزوجها اتيس Attis وغيرهم مما دفع السناتو الى اصدار قرارات تحارب هذه البدع الشرق (٢) .

وبالرغم من كل هذا ، فقد خرجت روما من حروبها مع هانيبال سيدة لاعلى ايطاليا وحدها ، بل على البحر المتوسط بأكمله ووضعت روما قدميها على أول الطريق الى التوسع والامبراطورية ، وخلقت الظروف طبقات

---

(1) Of Tenny Frank, «Roman Imperialism, New York, MacMillan and Co., 1914, pp. 120 ff.

(٢) أول هذه القرارات صدر عام ١٨٦ ق.م وكان ضد شعائر العربدة والفسق التى كانت تقام بين مريدى عبادة ديونيسيوس الذى تسللت عبادته الى روما من جنوب ايطاليا حيث المستوطنات الاغريقية ، اما عبادة الربة الفريجية كوبيلى فقد وافق على اعتمادها السناتو عام ٢٠٥ ق.م بعد استشارة الكتب السيبلليه المقدسة .

من الضباط الذين راحوا يحلمون بالتوسع وغزو البلاد الأخرى من العالم بقوة السلاح من أجل الحصول على سمعة ومجد شخصى مثل ذلك الذى حققه سكيبيو قاهر افريقيا Scipio Africanus وقاهر هانيبال ، كما تغيرت اخلاق الرومان وأصبحت قاسية عنيفة لا ترحم تريد النصر بأى ثمن ولهذا لم تهدأ روما وتستريح من عناء هـذه الحروب بل نهضت لتخوض حربا أخرى مع الاغريق فى بلادهم وفى الشرق الهللينستى .

احوال العالم الهللينستى قبل احتلال روما له :

بعد انتصار روما على هانيبال فى معركة زاما الكبرى عام ٢٠٢ قبل الميلاد اتمت سيطرتها على الجانب الغربى من حوض البحر المتوسط ومن ثم بدأت تتطلع الى السيطرة على الجانب الشرقى منه حتى تكتمل سيادتها عليه . لقد كان الجانب الشرقى يتكون من الممالك الهللينستيه التى يحكمها ملوك على الطريقة الشرقية ، لقد قامت هـذه الممالك على أشلاء امبراطورية الاسكندر التى تفككت بعد موته وبعد صراع وحروب داميـة بين الورثة انتهت باتفاق عام ٢٧٩ ق . م . والذى بمقتضـاه تم الاعتراف بانتهاء امبراطورية الاسكندرية وقيام ثلاث قوى مؤثرة فى العالم الهللينستى هى دولة البطالمة فى مصر وال أنتيجونوس فى مقدونيا وآل سليوكوس فى سوريا وآسيا الصغرى .

كانت مقدونيا بالفعل أصغر الممالك الهيللينستية مساحة وأقلها ثراء ولكنها كانت أكثرها وطنية وحبا للقتال من أجل استعـادة امبراطورية الاسكندر تحت نفوذها ، وبعكس الحال فى مصر وسوريا كانت مقدونيا تتكون من شعب وطنى يعيش فى أرض آبائه وليس هناك ما يهدد وجوده أو يقلق بال حكامه ، ولهذا كانت مقدونيا أقوى عسكريا من غيرها من الممالك الهيليسينية ، فضلا عن الكبرياء القديم بأنها الأرض التى خرج منها فيليب الثانى والاسكندر الأكبر ولهذا كانت سياسة ملوكها من أسرة آل أنتيجونوس Antigonos هو اعادة فرض السيادة المقدونية على بلاد اليونان ، ومن ثم حرصوا على أزكاء روح القومية القتالية ، والتدخل

الدائم فى شئون بلاد الاغريق ، ولكن قيام العصبتين الايتولية (١) والآخيه عرقل أحلامها ، كما أن بطالمة مصر ظهروا بمظهر المدافعين عن حرية بلاد الاغريق ، وبالتالى وقفوا ضد مقدونيا ، التى كانت تقف أيضافى وجه انتشار نفوذهم فى بلاد اليونان ، وظهر الموقف خطيرا بعد أن أدى العداء بين العصبة الايتولية والعصبة الاخيه فى بلاد اليونان الى تحالف العصبة الاخيه مع مقدونيا ، التى أقامت ثلاثة قلاع عسكرية وصفت بأنها الأغلال التى تقيد بلاد الاغريق الوسطى ، ومن ثم نشط البطالمة فى تحرير بلاد اليونان وتشجيع الآثينيين على النهوض ومقاومة التدخل المقدونى ، ولما كانت مقدونيالاتريد أن تتدخل لروما فى شرق البحر المتوسط ، فقد كان هذا يعنى حتمية شبوب الصراع بين مقدونيا التى تريد أن تبرز كقوة جديدة ، وبين روما التى تريد أن تكمل سيطرتها على حوض البحر المتوسط وبالتالى وجد البطالمة فرصتهم فى التحالف مع روما وساعدوها أبان الحرب البونيقية .

أما مملكة البطالمة فقد قامت فى مصر على أشلاء الحضارة الفرعونية فى وادى النيل ، وضمت اليها ساحل سوريا وبرقة وقبرص وبعض الجزر فى بحر ايجه ، وقد حاول البطالمة أن يبنوا امبراطورية لكن عدم وجود الأرض الوطنية والشعب الخالص أحبط أمالهم ، فهم كانوا يعتبرون حكاما أجانب فى نظر المصريين الذين حكموهم عن طريق جيش قــوى من المرتزقة وعن طريق انشاء جهاز بيروقراطى حازم ونظام ادارى مركزى يقوم على الاحتكار الاقتصادى ، ولقد نجح البطالمة فى توسيع نفوذهم طالما كان ملوكهم أقوياء أما عندما بدأ الخلاف والضعف يدبان فى البيت الحاكم ، فقد بدأ الانهيار الخارجى وقويت شوكة المصريين فى الداخل خاصة بعد موقعه رفح عام ٢١٧ ق . م . التى اشترك فيها المصريون لأول مرة كمقاتلين فى الجيش البطلمى (٢) .

كانت سياسة البطالمة الثلاثة الأوائل هى توسيع نفوذهم السياسى فى

---

(١) انظر : ابراهيم نصحى : تاريخ مصر فى عصر البطالمة ، الجـزء الأول الطبعة الرابعـة مكتبة الانجـلو المصرية القـاهرة ١٩٧٥ ص ١٢٧ وما بعدها .

(٢) M. Rostovtzeff, «The and Economic History of the Hellenistic world, The Clarendon Press 1941, vol. 11, pp. 1026 ... 1032.

بحر ايجه وبلاد اليونان ، ومن أجل هذا حاولوا بناء الاساطيل البحرية لنشر النفوذ الاقتصادى والمعنوى ، ومن ثم فقد حاولوا دائما الاستيلاء على ساحل فينيقيا بهدف لحصول على خشب الأرز لبناء السفن ولكنهم اصطدموا هناك بملوك سوريا من أسرة آل سليوكوس ، وقامت حروب مريرة بينهم حول جنوب سوريا أو سوريا الجوفاء ، كذلك اهتم البطالمة بنشر تجارتهم شرقا عبر البتراء مما زاد من حدة الصراع مع سوريا ، وعلى ذلك فقد قام تحالف ضد مصر من مقدونيا وسوريا (من فيليب الخامس وانطيوخوس الثالث) من أجل اقتسام ممتلكات مصر الخارجية ولم يجد البطالمة بدا من التحالف مع روما التى كانت فى حاجة فى ذلك الوقت لمساعدة مصر لها اقتصاديا أبان حروبها المريرة مع هانيبال ، ومن الواضح أن مصر قدمت مساعدات كبيرة لروما بدليل أن الأخيرة أرسلت سفارة الى مصر بعد هزيمة هانيبال لتقـديم شكر السـناتو والشعب الرومانى للملك البطلمى ،(١) ولكن هذا التحالف تغيرت موازينه كلما ضعف مركز البطالمة وقويت شوكة روما ، مما أدى الى تدخلها المستمر ، وفرضها الحماية على مصر تمهيدا لاحتلالها ، وللغرابة كانت مصر آخر ولاية هللينستية استولت عليها روما وذلك عام ٣٠ ق . م .

أما دولة آل سليوكوس فى سوريا وآسيا الصغرى فقد كانت أكبر الممالك الهللينستية مساحة ، اذا امتدت من حدود الهند شرقا حتى سواحل بحر ايجه غربا ، وشملت دويلات الشرق القديم ذات الحضارات العريقة مثل بلاد ما بين النهرين وفارس وسوريا بحضارتها الارامية المختلفة ، ولهذا فقد كان اتساع مساحتها وتباين أجناسها ولغاتها عقبة فى بناء دولة ذات مفهوم قومى واحد ، لكن الحضارة الهللينستية كانت أسرع انتشارا فيها من مصر ذات الحضارة العريقة ، كما أن بعد المسـافة بين العاصـمة انطاكية الواقعة على نهر العاصى (Orontes) وبين ولاياتها البعيدة أدى الى انتشار الثورة ومحاولات الاستقلال ، حقا لقد حاول آل سليوكوس دعم

(١) انظر : عبد اللطيف احمد على ، مصر والامبراطورية الرومانية فى ضوء الأوراق البردية ، بيروت ١٩٧٢ ص ٤ . كذلك أنظر مصطفى العبادى ، مصر من الاسكندر الى الفتح العربى ، مكتبة الانجلو المصرية _ القاهرة ١٩٦٦ ص ٦١ .

نفوذهم عن طريق بناء عدد من المدن الهللينستية لتكون بمثابة مراكز للاشعاع الحضاري ودعما للنفوذ السياسي، ولكن هذه المدن كانت قليلة ومتباعدة حيث غرقت فى بحر الحضارة الشرقية (١) لولا ظهور الملك القوى انطيوخوس الثالث الذى أعاد السيطرة على الممتلكات الآسيوية فى الشرق ثم اتجـه لطرد البطالمة من فينيقيا وسوريا ، وقد أدى ذلك الى قيام الصراع المرير بين البطالمة وآل سليوكوس — والذى سبق الحديث عنـه ومما شجع انطيوخوس الثالث على ذلك ضعف البطالمة فى مصر • ولهذا أيضا تحالف مع فيليب الخامس لاقتسام ممتلكات مصر الخارجية مما ساعد على اتجاه مصر نحو التحالف مع الرومان •

أما بلاد اليونان التى كانت تطمع فيها مقدونيا ويسعى البطالمة لنشر نفوذهم السياسى فيها فقد تغير حالها منذ أن فقدت أثينا قيادتها على بلاد اليونان وخاصة بعـد موقعة خايرونيا الشهيرة عام ٣٤٨ ق•م ووقوعها تحت سيطرة مقدونيا ، اذ فقدت حيويتها السياسية بينما ظلت أثينا مركز الحضارة والفلسفة الاغريقية ومحط الدارسين والعلماء من كافة أنحـاء العالم المسكون ، أما اسبرطة فقد عاشت فى معزل تام عن الاحداث • وبعد تدهور نظام دويلات المدن القديم (Polis) ظهرت موجه من التحالفات السياسية الاقليمية على أساس قومى أو جغرافى ، ومن أهم هذه الاحلاف العصبة الآخية التى قامت بين الدويلات الآخية الواقعة جنوب كورنثا فى عام ٢٨٠ حيث منحت الحقوق السياسية المشتركة للأعضاء (Sympoliteia) ولما نجح الحلف سمح بضم دويلات غير أخيه وبذلك أصبح أعضاء الاتحاد يتمتعون بحقوق سياسـية مشتركة فى نفس الوقت الذى احتفظت كل وحدة باستقلالها الداخلى ، كما ساهموا فى قيام حكومة اتحادية ، وقد بلغ هـذا الحلف أقصى نشاطه بعـد عام ٢٠١ ق • م • عنـدما انضمت سيكيون اليـه ولمع اسـم زعيمها آراتوس الذى قاد الحلف فى تنافس شديد مع الحلف الايتولى مما أدى الى انضمام الأخير الى مقدونيا وعندما ضم أراتوس مدن أركاديا للحلف ، ثارت ثائرة اسبرطة وعادته ، وبلغ الذكاء

---

(1) Cf. W. Tarn 8 Griffith Hellenistic Civilization, University Paperbacks p. 129 ff.

بالزعيم آراتوس أن تحالف مع روما عام ١٩٨ ق٠م ونال ثمن هـذا التحالف بأن ادمجت روما معظم أجزاء البيلوبونيسوس فى العصبة الآخية ، لكن هذا التحالف كان مؤقتا ومنفعيا ، لأنه سرعان ما تصادم الحلف مع روما وثار عليها مما أدى الى غزو روما لبلاد اليونان وتدمير كورنثا عام ١٤٦ ق٠م وحل الحلف الاخى ٠

أما الحلف الايتولى فقد نشأ من اتحاد القبائل الايتولية الواقعة الى الشمال من خليج كورنثا وتطور الى عصبة اتحادية مثل الحلف الاخى وذلك منذ القرن الرابع ق٠م ٠ وعلى العكس من الحلف الاخى ظلت القيادة فى أيدى الأيتوليين ومن أسباب نجاح هذا الحلف هو احترام اسـتقلال الأعضاء والاكتفاء بتبادل الجنسيات والتساوى فى الحقوق Lsopolitia بين الأعضاء ولهذا ظل هذا الحلف قائما حتى تدخلت روما فى بلاد اليونان، وكان الحلف الايتولى بطبيعته معاديا لمقدونيا منذ قيامه ولهذا تحـالف أولا مع روما ، ولمـا بدأ الايتوليون يحسون باطماع روما تركوها الى التحالف مع انطيوخوس الثالث ملك سوريا فى حربه مع روما ولما هزم انطيوخوس الثالث بدأ الحلف ينهار حتى اندثر تماما ٠

والى جانب الممالك الهللينستية الثلاث المتصارعة ، كان يوجد دولتان صغيرتان ولكنهما كانتا على درجة كبيرة من الثراء مما أدى الى طمع الدويلات الهللينستية فيها وهما مملكتا برجامون فى آسيا الصغرى وجمهورية جزيرة رودس فى الجنوب الغربى من آسيا الصغرى ، وكانت مقدونيا تطمع فى رودس ذات الثراء الفاحش والنشاط التجارى الكبير بينما كان انطيوخوس الثالث يأمل فى ضم برجامون خاصة وأنه اقتطع أجزاء كبيرة من ممتلكاتها فى آسيا الصغرى ، ولهذه الاسباب وجـدت رودس وبرجامون نفسيهما تقفان مع دولة البطالمة وتتحالفان مع روما حماية لاستقلالهما وبالايجـاز كان العالم الهللينستى سياسيا ينقسم الى محورين هما :

(ا) محور سوريا ومقدونيا المعادى للرومان ٠

(ب) محور البطالمة ورودس وبرجامون المتحالف مع الرومان ٠

أما من الناحية الاجتماعية والاقتصادية للعالم الهللينستى فقد كانت

مختلفة تماما عن العصر الكلاسيكى عصر بيريكليس وديموستنيس . فقد استبدل نظام دويله المدن بنظام الدويلات القومية والممالك الصغرى وبدأ مركز الثقل فى العالم الاغريقى ينتقل شرقا الى خارج أوروبا ، وتدفق الاغريق على الممالك الهللنيستية الشرقية سواء فى مصر أو فى سوريا . وبالرغم من تدفق الثراء بعد غزو الاسكندر للشرق الا أن الفقر المدقع بدأ يظهر فى المدن الهللينستية فى بلاد اليونان منذ القرن الثالث ق . م وسرعان ما بدأت اليونان تعانى من المجاعات والثورات الاجتماعية التى تطالب بالمساواة ، وبشر الفلاسفة بالأيديولوجيات الاشتراكية بعد أن بدأ حجم السكان يتناقص لعدم رغبة الناس فى الانجاب بسبب الفقر المدقع وارتفاع نفقات المعيشة ، ولهذا فقد حاولت دويلات بلاد اليونان وهى خائرة القوى معارضة روما ، ولكن معركتهم كانت خاسرة ومقاومتهم جوفاء لأن الطاقة القديمة قد هلكتها الأزمات الاقتصادية والاجتماعية الطاحنة ، وقد يرجع السبب فى تزايد الفقر فى بلاد اليونان بعد تقسيم امبراطورية الاسكندر الى قيام الممالك الهللينستية المستقلة فى الشرق واحتفاظها بالثراء وبالتالى لم يعد هناك ثراء يتدفق على الوطن الأم مثلما كانت الحال ابان امبراطورية الاسكندر ، ونحن نعرف أن بلاد اليونان فقيرة اقتصاديا ولم يكن لديها ما تصدره الى ممالك الشرق الهللينستى مقابل القمح ، وبالرغم من الهجرة المستمرة الى الشرق والعمل كجنود مرتزقة فى الممالك الهللينستية الا أن السكان تزايدوا بدرجة لا تتناسب مع طاقة البلاد الاقتصادية وقد انعكس ذلك فى كتابات المؤرخين منذ نهاية القرن الرابع . ففى منتصف القرن الثانى ق . م ذكر بوليبيوس ان الاغريق يعزفون عن انجاب أكثر من ولد وعلى الأكثر ولدين . كما تؤكد الأدلة الكثيرة انتشار عادة التخلص من الأطفال خاصة الفتيات . وقد زاد من أزمة النقص فى السكان الحروب الكثيرة التى قامت فى بلاد اليونان والضحايا الذين كانوا يذبحون عند الاستيلاء على مدينة ، أو يباعون فى أسواق العبيد الدولية ، ومن ثم بدأت الفلسفات تطالب بالرحمة ازاء العبيد الذين كانوا مركز الثورة ضد الفقر والظلم الاجتماعى . وقد ساعد على تفجر الثورات المجاعات المتعددة والأوبئة وجشع بعض الطبقات البرجوازية

من الحرفيين والتجار والتناقض المزعج بين الأقلية الغنية المثقفة (١) والغالبية التى طحنها الفقر فى عصر ارتفعت فيه الأسعار بدرجة مدهشة خاصة ابان القرن الثانى والأول ق • م ، نعم كان بعض الأثرياء البرجوازيون يتبرعون من أموالهم ولكن للدولة والمعبد ، وليس للأفراد الفقراء ، ولم يعرف هذا العصر بالرغم من الدعاوى الى حب البشرية Philanthropy أى تعاون منظم من أجل انقاذ الفقراء من العوز والحاجة ، ولا قام بذلك حتى أنصار الدعاوى الى الأخوة والمساواة من أمثال الرواقيين والكلبيين ، فمثلا ركز الرواقيون على الروح وليس الجسد ، فالعبد الفقير يمكن أن يكون ملكا فى مملكته الروحانية الخاصة ، أما الكلبيون فقد امتدحوا الفقر ومارسوا الزهد ، والفضيلة هى فى نظرهم التجرد من الملكية ، واذ كنا نسمع عن الثراء الخرافى فى الفن والأدب والاحتفالات فيجب كما قلنا أن نفرق بين الممالك الهللينستية فى آسيا الصغرى خاصـة بعض الجزر مثل رودس وبرجامون ، وبين بلاد اليونان ذاتها ، حتى فى بلاد اليونان اختلفت الحالة بين شمال بلاد اليونان وبين بلاد اليونان الوسـطى ، لكن التناقض بين الشرق الهللينستى وبين بلاد اليونان الفقيرة كان شاسـعا لكنها جميعا عاشت على الكفاف بدليل عجزها عن ترميم آثارها ومبانيها وعجزها عن اعادة بناء الطرق التى دمرتها الزلازل والحروب •

كانت هناك ارهاصات للثورة الاجتماعية فنسمع عن الاضرابات التى يقوم بها أصحاب المهن والحرف (باستثناء الصناعات التى تقوم على العبيد) للمطالبة برفع الأجور ، لكن الثورات الاجتماعية فى بلاد اليونان كان الدافع اليها أساسا الديون والربا الفاحش الذى يمارسه بعض الأغنياء ضـد المديونين الفقراء • وبدأ الحالمون يروجون ويتحدثون عن الشعوب البربرية التى تحيا على سجيتها وهى النماذج التى استلهم منها تاكيتوس مؤلفه « بلاد الجرمان » Germania وكذلك بدأ ظهور أصحاب نظريات الممالك

---

(1) M. Rostovetzoff, The Social and Economic History of the Hellenistic World, The Clanender Press 1941, Vol. II, pp. 1115 — 11126.
حيث دافع عن دور الطبقة البرجوازية فى الحفاظ على بقايا التراث الاغريقى فى وجه الثوار والملوك ويعارض هذا الراى المؤرخ وولبانك انظر : Walbank, JHS, 64, 1944.

الفاضلة أو اليوتوبيا بصورة تختلف عن الصورة التى رسمها أفلاطون وأرسطو ، والتى فيها لا يلعب الرجـل الفقير أى دور يذكر فيها ، لكن كتاب اليوتوبيا فى العصر الهللنيستى بدأوا يتحدثون عن جزر فى المحيط الهندى مثالية الحياة ولا فرق فيها بين الناس ، أو مملكة الشمس التى تخيلها يامبولوس Iambulus والتى تساوى فيها الناس اجتماعيا وعقليا فى نفس الوقت ، يعملون معا ويتقاسمون الانتاج معا ولا يوجد مكان للجشع أو الطموح بين الناس • أما من الناحية الفعلية فنسمع عن الثورات الاجتماعية الطبقية التى يتزعمها الفقراء والعبيد ضد الأغنياء ابتداء من القرن الثالث ق • م خاصة فى اسبرطة على يد الملك أجيس Agis الرابع فى حوالى عام ٢٤٤ ق • م وأكملها خليفته كليومينيس الثالث حيث ألغيت الديون وأعيد تقسيم الممتلكات بالتساوى بين جميع فئات الشعب الأسبرطى ولما ألغى أنتيجونوس دوسون هذه الاجراءات الثورية بعد استيلائه على أسبرطة قامت الثورة الاشتراكية للمرة الثانية بقيادة الملك نابس Nabis عام ٢٠٧ ق • م كما كان هناك ثورات عديدة قامت بها البروليتاريا العمالية فى كل مكان تحت وطأة الفقر والعوز والضياع •

والآن بعد أن استعرضنا العالم الهللينستى من الناحيتين السياسية والاجتماعية فلنر التطورات التى أدت الى وصول روما اليه وضمها ولاياته خاصة مقدونيا وبلاد اليونان •

حروب روما مع فيليب الخامس ملك مقدونيا ٢١٥ ـ ١٩٤ ق•م :

لم يكن وجود هانيبال فى قلب ايطاليا ، يخرب الحقول ، ويحرق القرى يمثل قمة التحدى للوجود الرومانى فحسب ، بل كان قبول روما ــ وهى فى هذه الظروف القاسية ــ التحدى للدخول فى حرب أخرى مع مقدونيا ــ الأرض التى خرج منها الاسكندر الأكبر وحقق برجالها أعظم امبراطورية عرفها التاريخ ــ هو التحدى بعينه • كانت مقدونيا فى ذلك الوقت أقوى الدويلات فى بلاد اليونان وجزرها ، وذلك بفضل ملكها فيليب الخامس الذى كان يحلم أن يعيد لمقدونيا امبراطوريتها التى كانت قد تحللت الى ممالك متقاتلة ومتنافسة بعد موت الاسكندر الأكبر ، منها مملكة البطالمة فى مصر ، ومملكة آل سليوكوس فى سوريا آسيا الصغرى ، بالاضافة الى

مملكة رودوس Rhodes الثرية التجارية ، ومملكة برجامون الصغيرة الغنية فى آسيا الصغرى ، وكذلك أعضاء الحلف الايتولى والآخى ، ولكن قبل أن يحقق فيليب الخامس مشروعه العظيم ، بزغ نجم روما فى سماء البحر المتوسط كدولة قوية صارمة تعنى ما تقول ، وتأخذ ما تريد ، ولعله أدرك مدى أطماع هذه الدولة واصرارها ابان الحروب البونيقية ولهذا وجد أن من مصلحته التعاطف مع هانيبال ، ومن ثم تحالفت مقدونيا مع قرطاجه بينما انحازت بقية الدويلات الاغريقية التى كانت تنظر الى مقدونيا وملكها فيليب الخامس نظرة الخوف من الأطماع والسيطرة — انحازت الى روما ، وكانت أسرة البطالمة تتزعم هذا الاتجاه الذى كان يرى فى الرومان أقرباء فى العنصر والحضارة والثقافة ، وأن هناك الكثير من التراث المشترك الذى يجمع بين الاغريق والرومان ، فهم اذن أقرب لهم من القرطاجيين حلفاء الفرس وأعداء الاغريق القدماء ، أما مملكة سليوكوس فى سوريا وآسيا الصغرى فقد اتخذت موقفا متعاطفا مع مقدونيا وهانيبال ، لأن آل سليكوس كانوا يحكمون سوريا حيث أجداد هانيبال الساميين ، فضلا عن أن آل سليكوس كانوا على خلاف شديد مع البطالمة بسبب النزاع على منطقة سوريا الجوفاء ، بل قام بين البطالمة والسليوكيين حروب بسبب هذا التنافس القاتل ومن ثم كان من المتوقع أن يتخذ آل سليوكوس موقفا معاديا لموقف البطالمة وباقى الاغريق وهو التحالف مع مقدونيا وهانيبال ضد روما والبطالمة ورودس وبرجامون (١) .

كان على روما أن تتعامل بقسوة شديدة مع مقدونيا لردعها قبل أن تصبح خطرا حقيقيا على أمنها فى البحر المتوسط . ولهذا اندلعت عدة حروب بين روما ومقدونيا . كانت الأولى عام ٢١٥ ق . م واستمرت حتى عام ١٩٤ ق . م وكانت روما فى موقف الدفاع من مقدونيا حتى عام ٢١١ ق . م ؛ فى ذلك العام عين الرومان قائدا حاكما على أسبانيا خلفا لوالده الذى قتل فى الحروب البونيقية ، وكان هذا القائد هو بوبليوس كورنيلليوس

(١) فى نفس الوقت قامت جبهة محايدة اساسها الحلف الاخى والحلف الايتولى ، أما اسبرطة فتقوقعت على نفسها تعيش على اطلال مجدها الذى ضاع ورفضت ان تلعب اى دور فى الصراع .

سكيبيو Publius Cornelius Scipio، وسرعان ما أبدى هذا القائد الجديد مهارة منقطعة النظير لأنه هو الذى اقترح سياسة التوسع فى أسبانيا ، وهو الذى وجه الضربه القاضية الى قرطاجه مستغلا الصراع الداخلى الذى حدث داخل قرطاجه بين المؤيدين لهانيبال والمعارضين له والذى انتهى بالتآمر عليه وذلك بدعوة الرومان الى قرطاجه • وقاد سكيبيو القوات الرومانية التى هزمت هانيبال فى موقعة زاما الكبرى عام ٢٠٢ ق • م ، على أى حال أعطت هزيمة هانيبال الرومان فرصة للتفرغ لقتال فيليب ومن ثم بدأت روما تصبح المهاجمة بعد أن كانت المدافعة وذلك بعد أن فرغت من المعارك مع هانيبال •

الحرب المقدونية الثانية :

كان سبب اندلاع هذه الحروب هو تحالف الملك فيليب (١) الخامس ـ ملك مقدونيا ـ والملك انطيوخوس الثالث Antiochus ـ ملك سوريه ووريث الامبراطورية السليوكية ـ مع هانيبال وضد روما ، وكون فيليب الخامس وانطيوخوس الثالث تحالفا مشتركا ضد مصر البطلميه من اجل اقتسام الشرق وامبراطورية الاسكندر بينهما ، فى نفس الوقت تحالفت مصر مع روما ضد هانيبال لأنه بعد هزيمة هانيبال أرسل الرومان سفارة الى بطليموس الثالث تشكره على تعاطفه وتأييده للرومان ابان الحروب مع هانيبال •

كان بين أعضاء السناتو فريق من الشيوخ ذوى الميول المتعاطفة مع الاغريق وزعيمتهم أثينا ومصر البطلمية ، وقد ضغطت هذه الجماعة على الدولة للاستجابة لدعوة من الاغريق لحمايتهم من فيليب وأنطيوخوس ، كما أن روما أرادت أن تنتقم من فيليب بالذات الذى هاجم روما مستغلا هزيمتها فى كاناى • ولذلك أعلنت روما الحرب على هذين الملكين عام ٢٠٠ ق • م ، ولم تستغرق الحرب طويلا اذ نجح القائد الرومانى الشهير فلامينيوس Flaminius فى هزيمة الملك فيليب الخامس فى موقعة كونوس،

---

(1) Appian, Macedonian Affairs, 1, 2, 3, translated by Horace White **LCL**, also polybius 15 —20 ; 25—27

كيفالاى (١) Cynos Cephalae فى تساليا عام ١٩٦ ق ٠ م ، وفى أثناء انعقاد الألعاب الاسثمية (٢) فى صيف ذلك العام أعلن فلامينيوس قراره الشهير بمنح الحرية لكافة المدن اليونانية التى كانت تخضع لفيليب الخامس وتدفع له الجزية ٠ وقد بالغ بلوتارخوس فى وصف الهتاف والصياح الذى استقبل به الجمهور الاغريقى الذى كان يشهد المباريات فى كورنثا ذلك القرار الرومانى لدرجة أنه الطيور التى تصادف طيرانها فى السماء سقطت ميتة من صدمة الصيحة ، وعاد فلامينيوس الى روما بعد أن أعاد تقسيم حدود مقدونيا مع جيرانها الاغريق ، الذين راحوا يعبرون عن امتنانهم لتلك الدولة الكبرى التى تحارب وتقاتل من أجل الحفاظ على حرية الآخرين (٣) ٠

الصراع الثانى بين روما والاغريق : ١٩٢ — ١٨٩ ق ٠ م :

أساء الاغريق استخدام الحرية التى منحهم القائد الرومانى اياها ، ولم تمض سنوات قليلة حتى عاد الاغريق الى الاقتتال فيما بينهم ، ودعى الحلف الايتولى الملك انطيوخوس الثالث لتحريرهم من السيطرة الرومانية وتحت الحاح القائد هانيبال الذى كان يقيم كلاجىء فى قصر الملك انطيوخوس الثالث منذ هزيمته — دخل الملك انطيوخوس بقواته الى بلاد اليونان عام ١٩٢ ق ٠ م وسارعت الجيوش الرومانية الى بلاد اليونان وطردت الغازى السورى الذى انسحب عائدا الى آسيا الصغرى ، ولكن القائد الرومانى سكيبيو الاغريقى بطل زاما أصر على تعقبه حتى لحق به عند ماجنيزيا فى آسيا الصغرى Magnesia عام ١٩٠ ق ٠ م حيث دارت معركة عنيفة هناك سحقت فيها قوات انطيوخوس الثالث وقيل ان عدد قتلاه بلغ خمسين ألفا بينما لم يخسر الجيش الرومانى سوى ثلثماية رجل ٠ وقبل انطيوخوس شروط الرومان صاغرا بعد أن جرد من مناطق كثيرة من ممتلكاته فى آسيا الصغرى حيث قسمت بين أصدقاء روما الاوفياء

---

(١) اى موقعة رؤوس الكلاب تشبيها لمجموعة التلال التى كانت اشبه برؤس الكلاب فى تساليا ٠

(٢) وكانت تقام عند خليج كورنثا مرة كل أربعة اعوام انظر كتابى الاغريق ٠

(٣) Livy, 33 ; 30 — 33.

هناك (١) • فمثلا جردت الأسرة السليوكية من أراضيها الواقعة فى شمال جبال طوروس، وضمت هذه المنطقة، الى أراضى مملكة برجامون، التى كان ملكها اتاللوس مواليا للرومان (٢) • كذلك فرض الرومان على أنطيوخوس غرامة باهظة لتسببه فى هذه الحرب • كما اشترط الرومان عليه تسليم هانيبال لهم لأن بقاءه حيا يعنى احتمال اندلاع الحرب بين روما وقرطاجه مرة أخرى ، ووافق الملك السورى على ذلك صاغرا، ولكن هانيبال تمكن من التسلسل هاربا قبـل تسـليمه حيث التجـأ الى قصر ملك بيثينيا Bithynia الدويلة الواقعة فى شمال آسيا الصغرى • ولما علم الرومان بذلك طالبوا هذا الملك بتسليمهم هانيبال وعندما أدرك هانيبال أن الرومان يتعقبونه وسوف يقبضون عليه ، انتحر بتناول سما كان يخفيه فى خاتمه لاستخدامه عندما يلزم ويفقد الأمل •

هكذا مات أحد الابطال العظام الذين اذاقوا روما ويلات الحرب ، مما جعلها لا تنساه أبدا على طول تاريخها ، فقد كان هانيبال أعظم عبقرية عسكرية رفها التاريخ بشهادة الابطال العسكريين أنفسهم خاصة نابلون بونابرت الذى كان يحتذى به فى القيادة وتدريب الجيوش • ولكنه كان سيهزم حتى لو كان قد انتصر فى زاما لأن كان معتديا ، ولأن القرطاجيين كانوا لا يدعمون ممتلكاتهم مثل الرومان •

اندلاع الصراع للمرة الثانية بين روما ومقدونيا ١٨١ - ١٦٨ ق • م

منذ هزيمتهم على يد فلامينيوس عام ١٩٦ ق • م والمقدونيون يتحرقون شوقا لملاقاه الرومان واستعادة مجدهم الضائع وسيطرتهم المنهارة ، وتد تزعم هـذه الحروب - التى تعرف بالحـرب المقدونية الثالثـة الملك

---

(١) Polybius, 24. 11 —12

(٢) فى نفس الوقت رفضت روما ان تعيد الاراضى التى كان انطيوخوس قد اغتصبها من مصر نظرا لأن بطليموس الخـامس حاول ان يلعب على الطرفين اى على انطيوخوس الذى كان قد صاهرة مقابل ارض سـوريا الجوفاء كدوطة الزواج على ان يحتفظ بطليموس شقيق العروس بدخل سوريا وان يلعب على روما باظهار تعاطفه معها ، ولما راى بطليموس ان صهره قد انهار انقلب عليه ، وحرض روما على قتله ، ولكن روما اهملته ثم عاقبته بحرمانه من اعادة ممتلكاته اليه .

بيرسيوس Persecs ابن الملك فيليب الخامس • لقد نادى بيرسيوس بوحدة بلاد اليونان تحت قيادة مقدونيا وتكوين جبهة واحدة قوية (١) ضد روما وكان هذا الاعلان بمثابة خرق لاتفاق عام ١٩٦ ق•م والعودة الى القتال ، وبدأ المقدونيون المعارك بنجاح حتى جاء عام ١٦٨ ق•م عندما نجح القائد الرومانى ايميليوس باولوس Aemelius Paulus فى اجبار الملك برسيوس على الدخول فى معركة فاصلة دارت راحاها عند بودنا Pydna فى مقدونيا حقق بعدها الرومان أعظم انتصاراتهم على طول تاريخهم ، اذ سقط ما يقرب من عشرين ألف مقدونى قتيلا ، والقى القبض على الملك برسيوس نفسه وأرسل أسيرا الى روما ليسير فى موكب النصر ذليلا ، وأسر الرومان اعدادا غفيرة من الاغريق قادوهم الى روما كرهائن ومن بين هؤلاء الرهائن كان المؤرخ الشهير بوليبيوس Polybius الذى أعجبته روما ومجدها فكرس حياته للكتابة عن تاريخ بزوغ قوتها فى البحر المتوسط كسيدة على أقطاره جميعها ، كما وجد بوليبيوس أصدقاء من قادة الرومان الذين ساعدوه بل واصطحبوه معهم فى معاركهم ليسجل أخبارها •

وبالرغم من هزيمة مقدونيا الا أن روما رفضت حتى تلك اللحظة ضم الولايات الاغريقية اليها ، ولكنها اكتفت بتقسيم مقدونيا الى مقاطعات صغيرة فرضت على كل منها ضريبة سنوية قدرها مائة تالنت ، وحرمت قيام أى تعاون تجارى بينها Commercium كما حظرت عليهم أيضا المصاهرة Conubium هكذا حلت روما ما أفنى فيه فيليب الثانى والد الاسكندر كل عمره ، ودفن الأمل فى توحيد الاغريق بزعامة مقدنيا الى الأبد •

(١) بارك بوليبيوس ذلك بقوله « كان الاغريق كلهم يتحاربون مع بعضهم البعض ، انه من فضل الالهه عليهم انهم اصبحوا يتصافحون ، ولهم عقل واحد فى مواجهة السحب التى تتجمع فى الغرب (يقصد الخطر الرومانى) حتى يقاوموا غزو البرابرة وينقذون الشعب الاغريقى ومدنه » «Polybuis, 103, 9» ، ويقول الاستاذ داسكلاكيس كان ذلك اعترافا بزوال الفوارق بين الاغريق والمقدونيين — وتحقيق وحدة العنصر والثقافة انظر :

Ap, Dascalakis, The Hellenism of the Ancient. Macedonians, The Institute for Balkan Studies, Thessalonike 1965, p. 39 f.

الحرب البونيقية الثالثة والأخيرة ١٤٩ - ١٤٦ ق٠م :

منذ هزيمتهم فى زاما الكبرى راح القرطاجيون يعملون بجد واجتهاد لاستعادة سلطانهم ولم يكد يمض نصف قرن حتى بدأت المدينة تستعيد مجدها التجارى وازدهرت الحياة فيها وأصبحت تهدد بالفعل المصالح الرومانية ٠ وفى عام ١٤٩ ق ٠ م ٠ كان كاتو الأكبر Cato Maior يتولى منصب الرقيب العام فى روما ٠ وكان رومانيا غيورا ومتطرفا لدرجة أنه لم يرد أن يرى (١) قرطاجه بلد هانيبال غازى ايطاليا تعود اليها الحياه ، ومن ثم راح يلقى مجموعة من الخطب النارية ضد قرطاجه يطالب فيها الرومان باعلان الحرب عليها ، وكان ينهى كل خطبه من هذه الخطب النارية الحماسية بالعبارة « قرطاجه يجب أن تدمر ! » Delenda est Carthago وراح ينفخ فى الدخان ، وازاء الحاحه اقتنع الرومان بوجوب القضاء على قرطاجه قبل أن يمتد نفوذها من جديد وتعود الى محاربة الرومان ، وظلت روما تتحين فرصة اعلان الحرب على قرطاجه وتدميرها، الى أن جاءتها الفرصة عندما شب نزاع بين قرطاجه وجارتها نوميديا Numidia (الجزائر) وسارعت روما بمنطق غير مقنع الى اعلان الحرب على قرطاجه بحجه أنها أعلنت الحرب على جارتها نوميديا دون أن تأخذ رأى روما ، وهذا مخالف لنصوص معاهدة استسلام قرطاجه عام ٢٠٢ ق ٠ م ، والحق يقال ان قرطاجه التزمت بنصوص هذه المعاهدة لأنها تقدمت بطلب الى روما تشتكى فيه من تصرف جارتها نوميديا وملكها ماسينسا Masinissa صديق الرومان الوفى ، وتطلب من روما التدخل ، ولكن روما لم تفعل شيئا ازاء مطالب قرطاجه عام ١٥٠ ق ٠ م ، فاضطرت الأخيرة الى أخذ حقها بيدها وهاجمت نوميديا عام ١٥٠ ق ٠ م عندئذ أعلنت روما الحرب على قرطاجه بحجة مخالفة المعاهدة القائمة بينهما ، ووجدت قرطاجه نفسها محاصرة بين القوات الرومانية من الشرق ، وقوات النوميديون الذين عرفوا بمهارة فرسانهم وجرأتهم من الغرب ، وتمكن النوميديون من هزيمة قرطاجه ، وكان يمكن أن ينتهى الأمر عند ذلك الحد ، الا أن الجيش الرومانى استولى عليها وأشعل فيها الحرائق والنيران ، وسوى مبانيها ومنازلها وأسوارها

---

(1) Plutrarchus, Catto maior, 25—26.

بالأرض ، وشتت أهلها واختفت (١) قرطاجه من الوجود عام ١٤٦ ق ٠ م وظلت غائبة عنه مائة عام أخرى عندما أمر القائد الرومانى يوليوس قيصر عام ٤٦ ق ٠ م باعادة بنائها بشرط أن تكون مدينة رومانية وذلك أثناء الاحتفال بمرور مائة عام على تدمير قرطاجه ، وعلى أى حال أعلنت روما زوال اسم قرطاجه من الوجود وضمها اليها كولاية رومانية تحت اسم ولاية افريقيا Provincia Africana بعد أن أقيمت فيها مستوطنات رومانية ، وبعد أن ضمت أراضيها الى روما بعد التدمير ٠

هكذا دمرت روما قرطاجه ، من أجل ابعاد منافس تجارى عن طريقها ولتصبح سيدة بلا منازع على حوض البحر المتوسط ٠

الجولة الرابعة والأخيرة بين روما والاغريق ١٤٩ — ١٤٦ ق٠م :

سبب هذه الحرب هو النزاع على عرش مقدونيا ، اذ ظهر فى عام ١٤٩ ق ٠ م رجل اسمه اندريسكوس Andriscus ادعى أنه ابنا للملك برسيوس الذى هزمه الرومان ، ومن ثم طالب بعرش مقدونيا ٠ وقد نجح اندريسكوس فى أول الأمر فى هزيمة الرومان وتوحيد البلاد تحت زعامته ، ولكن سار اليه فى العام التالى (١٤٨ ق ٠ م) القائد الرومانى ميتيللوس Metellus وسحقه عند بودنا وأعلن بعدها ضم مقدونيا الى روما كولاية رومانية ٠

ولكن هزيمة مقدونيا لم تكن نهاية الاغريق الذين كانوا يتجمعون حول الحلف الاخى Achaean league الذى كان يتبع سياسة وطنية معادية للرومان ، وحدث فى عام ١٤٩ ق ٠ م أن اندلعت خلافات ومعارك بين الحلف الاخى واسبرطة وعرضت اسبرطة الأمر على السناتو الرومانى للتحكيم ، ولكن أعضاء الحلف الاخى لم ينتظروا قرار السناتو بل استغلوا فرصة انشغال روما فى عدة حروب ضد قرطاجه وفى أسبانيا وضد مقدونيا وهاجموا اسبرطة وهزموها ٠ ولما فرغت روما من حروبها قررت معاقبة الحلف الاخى بنزع بعض المدن من عضويته ، وأرسلت الأوامر الى الحلف فرفضها ، واستعد زعماء الاغريق للحرب مع روما ، وانضم الى أعضاء الحلف الاخى اغريق سط بلاد اليونان وبوءتيا وأيد الاغريق الفقراء فى

(1) Appian. Punic Wars, 8.19 ; 132 — 135.

كل المدن الاغريقية حرب الحلف الاخى ضد الرومان لأنهم كانوا يأملون فى تحويل هذه النهضة فى الروح الاغريقية الى حرب تؤدى الى عدالة اجتماعية بينهم • ولما رفض الاخيون والمتعاطفون معهم من الاغريق مطالب روما أرسلت اليهم روما أسطولا وجيشا بقيادة القنصـــل لوكيوس ميتللوس Lucius Metellus وبينما سار القائد متللوس لاخضاع وسط بلاد اليونان الثائرة ضد الرومان نجح مومبوس فى عام ١٤٦ فى هزيمة قوات الحلف الاخى فى معركة ليوكوبترا Leucopetra عند خليج كورنثا عام ١٤٦ ق•م•

تدمير كورنثا ١٤٦ ق•م :

ودخلت قوات موميوس الى كورنثا ونهبت كنوزها وحملتها الى روما ثم باعت سكانها كعبيد وقتلوا ما تبقى من سكانها ثم أضرمت فيها النيران وكان ذلك انذار (١) (تماما مثلما فعل الاسكندر بمدينة طيبة) لكافة المدن الاغريقية بأن روما سوف تتعامل بشـــدة مع من يثور عليها أو يحرض الآخرين على الثورة ضدها • وفى الحقيقة (٢) تخلصت روما من قرطاجه وكورنثا من أجل المصالح التجارية فى البحر المتوسط لأنها شعرت أن هاتين المدينتين تستوليان على نصيب الأسد من التجارة فى البحر المتوسط ومن ثم تخلصت منهما لتصبح هى الوريث الوحيد لهما والتاجر الأول فى ذلك البحر كله الذى أطلقوا عليه « بحرنا » (Mare nostrum)

لقد ضم الرومان أرض كورنثا اليهم ، وشكلوا لجنة من أعضاء السناتو للاشراف على تصفية الحلف الاخى واتحاد مدن اقليم بوءتيا واقليم فوكيس لأن الاتجاه الذى ساد بين المـــدن الاغريقية فى ذلك الوقت هو انشـــاء الاتحادات الكونفدرالية بينهم ولم يكن ذلك من مصلحة روما بل كان مصلحتها فى سياستها القائلة فرق وأحكم (Divide et Impera) ومن ثم سمحت روما للمدن الاغريقية بعقد معاهدات انفرادية معها فقط وليس بين بعضها البعض ، أما أثينا واسبرطة نظرا لأنهما وقفتا على الحياد ولم تتدخلا ضد روما فقد تركتهما روما بحالهما كحلفاء لها • ولم تفرض عليهما

---

(1) Pausanias, Description of Creece, 7. 16.

(2) Jerome Carcopino, Points de Vue sur l,imperialisme romain Paris 1934, pp 10 — 13 (= Donald Kagan op. cit, p. 182 — 183).

الضرائب كما فعلت مع باقى الاغريق • ولم تحاول روما تنظيم الاغريق فى ولاية واحدة بل جعلت ادارتهم تحت اشراف الحاكم الرومانى على ولاية مقدونيا •

روما تستولى على مملكة برجامون :

وفى عام ١٣٣ ق • مات الملك آتاللوس الثالث (Attalus III) ولما كان هذا الملك هو آخر سليل لهذه الأسرة فقد أوصى أن تؤول المملكة من بعده الى حلفائه الرومان ، وقبل الرومان الوصية شاكرين لأن ذلك وفر عليهم حربا ، ولكن مدعيا للعرش ظهر مثيرا فى شعب هذه المملكة الروح الوطنية وكراهية الرومان بل نجح هذا المدعى أن يهزم القنصل الرومانى كراسوس (Crassus) عام ١٣٠ ق • م • ولكن القنصل الرومانى الآخر واسمه بربرنا (Perperna) قضى عليه وقتله •

هكذا وباستيلاء الرومان على مملكة برجامون كون الرومان ولاية آسيا عام ١٢٩ ق • م ، حيث جعلها ذلك سيدة على الجانبين من بحر ايجه ، ووضع بين يدها قاعدة متقدمة فى عمق الشرق الأدنى وآسيا الصغرى ، ولكن بالنسبة لشعب برجامون وآسيا الصغرى فقد كان ضمهم الى روما بداية مأساة بالنسبة لهم لأنهم وقعوا ضحية للصراع السياسى الذى نشب فى روما ، وتعرضوا فيه للنهب ولأبشع أنواع الاستغلال الرومانى •

والآن يأتى سؤال ما هو أثر الحروب التى خاضتها روما من ٢٦٤ ق • م وهو تاريخ اشتعال الحرب البونيقية الأولى الى ١٤٦ وهو تاريخ سحق مقدونيا والاغريق وللاجابة على هذا السؤال نلخصه فى النقاط التالية :

نتائج الحروب على المجتمع والفكر الرومانى :

أولا : **السناتو** : برز السناتو من هذه الحروب أقوى سلطانا عن (١) ذى قبل ، وأصبح هو مركز أعصاب روما ، الذى يواجه الازمات السياسية

---

(١) دعم السناتو سلطاته بقرارين قرار فيليا اناليس Villia Annalis عام ١٨٠ الذى اشترط ان يكون الحد الأدنى للترشيح لوظيفة الكوايستور أو الى الوظائف العليا ثمانية وعشرين عاما ، ولا يجوز الترقية الى وظيفة أعلى الا بعد قضاء عامين على الأقل فى الوظيفة القديمة • والقرار الثانى =

ويدبر الشئون العسكرية والاقتصادية ، كما أصبح السناتو يشرف على علاقات روما الخارجية وعلى الاقتصاد المالى وشئون الدولة وعلى تنظيم الولايات الرومانية والتحكم فى القوات وتسييرها ، ومن الجدير بالذكر أن السناتو سلب الجمعية القبلية والجمعية الشعبية سلطاتها ولم تعد ذات فائدة . وقد سيطرت بعض الأسر الارستقراطية المعروفة على السناتو فى ذلك الوقت ، وتردد أسماء ما بين ١٥ و ٢٠ من هذه الأسر الأرستقراطية مثل آل كلاوديوس وآل فابيوس وآل كورنيليوس وآل فالليريوس وآل ايسيليوس .

ثانيا : بروز مشكلة الرقيق : ازداد عدد الرقيق فى روما بسبب الحروب، ونتيجة لأسر القوات الرومانية للكثير من أهالى البلاد المقهورة تعويضا لنفقات الحرب ، وازداد بالتالى الاعتماد على الرقيق ، بسبب نقص الرجال الذين انضموا الى القوات الرومانية ، وتركوا الحقول ، كما التهمت الحروب عددا كبيرا منهم ، ونتيجة لذلك فقد ارتفع ثمن الايدى العاملة الرومانية ووجد أصحاب الاقطاعيات الرومانية أنه من الأيسر لهم اقتصاديا أن يعتمدوا على الرقيق لأن أثمانهم رخيصة ، كما أن أثمان الرقيق فعلا أصبحت رخيصة لكثرة عددهم وأصبحوا عماد الاقتصاد الرومانى يعملون كمزارعين ورعاة ، وفى المنازل كخدم ، كما كانوا يعملون فى الصناعات وبأعمال الكتابة والتسجيل ، بل أن الرقيق القادمين من بلاد متحضرة كبلاد اليونان كانوا يعملون كمدرسين لأبناء الرومان مما دعا كاتو الى الانزعاج أن يصبح العبيد أساتذة للرومان . وقد كان لتدفق العبيد على المزارع والاقطاعيات (Latifundia) أن اختفى ملاك الأراضى الصغار ، واضطروا الى هجر الأرض أو بيعها للاقطاعيين والهجرة الى العاصمة روما والانضمام الى الغوغاء الرومانية التى كانت تستمرىء البطالة ، والتى كانت تكون عبئا على الدولة ، وعلى استعداد للثورة وأحداث الشغب ، ومن هنا نشأت الغوغاء الرومانية ، وفى نفس الوقت اندلعت ثورات العبيد فى مناطق متعددة من

=

هو قرار فوفيوس وايليوس Lex Fufia et Aelia وصدر عام ١٥٣ ق.م وقد اعطى للمسئولين الكبار والترابنة العامة الحق فى فض الاجتماعات العامة بحجة انها ضد الطالع الحسن او تبشر بفال سىء . وبهذين القرارين سيطرت العناصر الرجعية على سياسة السناتو .

أنحاء العالم الهللينستى والرومانى ، خاصـة فى صقلية حيث قاد العبـد السورى يونوس ما يقرب من ربع مليون عبد هارب ولم يستطع الرومان القضاء عليه الا بعد مجهودات شاقة وهذا كلف الجمهورية الكثير .

ثالثا : اعتماد روما على القمح المستورد : ولما توسعت روما ، وضمت اليها مناطق غنية بالقمح ، مثل صقلية وشمال افريقيا ، تدفق القمح الجيد الرخيص على البلاد، ونافس القمح الرومانى فى الاسواق، مماأدى الى أن الفلاحين الرومان توقفوا عن زراعة القمح لأن قمح الولايات كان أرخص من القمح الذى كانوا يزرعونه ، ومن ثم لجأ بعضهم لزراعة محصولات أخرى غير القمح مثل الكروم وبدلا من الزراعة لجأوا الى تربية الماشية والاغنام وصناعة زيت الزيتون والنبيذ ، ومن الملاحظ أن هذا الاتجاه فى الزراعة ناسب أصحاب الاقطاعيات ورؤوس الأموال أكثر مما ناسب أصحاب المزارع الصغيرة والمتوسطة ، ولجأوا الى اغراء الطبقات المحرومة باغراق الأسواق بمنتجات مزارعهم التى ازدهرت بفضل طاقة العبيد المهرة خاصة العبيد الآسويين الذين كانوا خبراء فى زراعة الكروم . ومن ثم أصبح النبيذ الرومانى يصدر الى دويلات البحر المتوسط بدلا أن كانت هذه الدويلات تصدر نبيذها الى روما . وفى نفس الوقت زاد الاستهلاك المحلى لهذا النبيذ .

رابعا ـ بداية سياسة الجشع وفساد الموظفين :

اضـطر الرومـان الى تغيير سـياستهم ازاء الولايـات الجـديدة خاصة أن روما بدأت تضم بعض الولايات اليها لأن روما فى البداية لم تكن ترغب فى ضم أى أراضى ، بل كانت تؤثر فرض المصالح ، ولكنها ازاء ميزات استراتيجية جديدة اضطرت الى ضم بعض المقاطعات الهـامة مثل صقلية ، التى أعلنت أنها جزء لا يتجزأ من روما ، كذلك فعلت بأراضى قرطاجه التى ضمتها اليها وحكمتها حكما مباشرا وكان لهذا أثره السىء فقد طمع الرومان فى هـذه الولايات الغنية وظهرت طبقـة من الموظفين الفاسدين الذين راحوا يتهافتون على المناصب أملا فى جمع الثروات ونهب البلاد مما سبب مشاكل فيما بعد .

خامسا ـ تدهور الفكر والديانة الرومانية القديمة :

أثـرت الحـرب أيضـا على الديانة الرومانيـة ، فقـد انهـارت الآلهة القديمة التى وجدت منذ تأسيس المدينة ولم يعـد لها عباد ولم

تصبح ذات احترام من قبل الكثيرين ، كما أثرت الحروب على نفسية الناس وظهرت عقدة الخوف من المستقبل ، وعدم ضمان الحال . فلجأوا الى الخرافات والشعوذة والغيبيات والسحر ، وانتشرت العبادات السرية والصوفية والمنادية بالمهدى المنتظر . بل فى لحظات الازمات رجع الرومان الى النواميس السيبلية كما حدث عام ٢٠٥ ق . م بل وفى حالة اليأس لجأ الرومان الى ربة أجنبية هى الربة كوبيلى (Cybele) الفريجية الأصل[١]، ودخلت هذه الربة البربرية الى حصن الآلهة الرومانية وجاءت معها شعائرها الماجنة العاطفية المجنونة ، وأصبح لها اتباع كثيرون فى روما لدرجة أثارت قلق الرومان المحافظين وجعلتهم يطالبون بانقاذ التراث من تأثير الشرق الماجن ، وتلى ذلك أيضا تدفق الآلهة الشرقية الغريبة والبوهيمية مثل الربة ايزيس المصرية التى أصبحت من أشهر الآلهة داخل العاصمة الرومانية ، والرب مثراس الاسيوى وأدونيس الرب السورى وغيرهم ، بل تدفقت الفلسفات الشرقية الاجتماعية مثل الابيقورية والفيثاغورثية والرواقية . مما جعل الصراع الاجتماعى والفكرى والطبقى أمرا محتما لأنها بدأت تطرح أفكار الثورة من أجل العدالة .

وتتيجة لهذا ظهر صوت كاتو الأكبر الذى يمثل التطرف الرومانى المحافظ منذرا من عواقب تدفق العبادات الشرقية والآلهة الغريبة واستخدام الرقيق ولكن انذاره كان كصوت صارخ فى البرية .

سادسا : ازدياد تأثير الحضارة الاغريقية على روما : وعندما توسعت روما فى بلاد الاغريق وتعاملت معهم بطريقة مباشرة عرفت لأول مرة مزايا حضارتهم ، وأصبح هناك زعماء من الرومان عشاق للحضارة الاغريقية مثل اسكبيووفلامينيوس وايمليوس وأصبح معظم المدرسين من الاغريق وظهر الطابع الاغريقى فى الذوق الرومانى فيما يختص بتأثيث المنازل وفى العمارة وفى الملابس وفى الفن وفى جوانب أخرى خاصة فى مجال الفكر والفلسفة (٢) .

---

(١) كما جاء معها فى نفس الوقت زوجها اتيس Attis الذى كان فى نفس الوقت ابنها .

(2) Theodor Mommsen, The History of Rome, New York 1911. Vol. 2, pp. 442 — 443.

ولهذا ظهر كاتو الأكبر يبث الكراهية ضد الحضارة الأغريقية وعشاقها مطالبا بقرارات تحرم البذخ والترف الممارس على الطريقة الشرقية ، وطرد المدرسين والفلاسفة الاغريق ، ولكن لم تستطع روما الاستغناء عنهم ، وانما حاولت محاربتها عن طريق القوانين أو تجاهلتها .

ولعل أهم مظهر من مظاهر التقدم الحضارى فى روما وتأثير الحضارة الهللينستية عليها هو ما نشاهده من ازدهار الفكر والشعر والفن والفلسفة ، ومن الأدب الاغريقى بدأ أدب رومانى يتخلق فى هذه الأونة والفضل يرجع الى الأسرى [1] الاغريق الذين جيء بهم الى روما من أمثال ليفيوس اندرونيكوس (Livius Andronicus) الذى جيء به الى أسواق روما حيث تعلم اللغة اللاتينية بسرعة لدرجة أنه ترجم أوديسة هوميروس ولأول مرة عرف الرومان فن الملاحم الشعرية ولهذا أطلقوا عليه اسم أبو الأدب الرومانى ، ومن أعظم شعراء ذلك العصر انيوس (Ennius) ٢٣٩ — ١٦٩ ق . م ذلك العبد الذى اشتراه كاتو عام ٢٠٤ ق . م وعرفه على الابيقورية والفيثاغورثية . وتحت التشجيع كتب انيوس عددا من الكوميديات ، والتراجيديات المقلدة لأسلوب الشاعر المسرحى الاغريقى يوربيديس ومن وحى هوميروس كتب انيوس ملحمته الشعرية باللاتينية وعلى الوزن السداسى وسماها الحوليات وهى التى روى فيها تاريخ روما الاسطورى من النشأة حتى عام ١٧٢ ق . م . ، ولهذا يسميه البعض بهوميروس الرومانى . فى ذلك الوقت أيضا لمع اسم نايفيوس (Naevius) ٢٧٠ — ١٩٩ ق . م الذى كان من زعماء العامة واشتهر بهجائياته اللاذعة ضد الارستقراطيين وقد قلد الاغريق فى مسرحياته الا أنه يعتبر أول من أدخل المسرحية التاريخية عندما كتب ملحمة الحرب البونيقية الأولى وقارن فيها بين قرطاجه التى هدمها الرومان ، وطرواده التى هدمها الاغريق .

وعلى قمة اعلام الأدب والفكر فى ذلك العصر يجىء الشاعران الشهيران بلاوتوس (Plautus) (٢٥٤ — ١٨٤ ق . م) ، وزميله تيرنتيوس (Terentius) (١٥٩ — ١٥٩ ق . م) ، لقد كافح الأول لكى يشق طريقه

(1) M. cf. Moses Hadas, A History of Latin literature Columbia Paperback edition 1964, pp. 33 ff.

الى عالم المسرح حتى أصبح من أشهر أعلامه ، ويقال أنه كتب مائة وعشرين رواية كوميدية لم يتبق منها سوى واحد وعشرين رواية ، وجميعها تقليد للمسرح الكوميدى الأثينى،خاصة للشـاعر ميناندروس رائد الكوميديا الأتيكية الحديثة • ويعتمد بلاوتوس فى كوميدياته على عنصر اختلاط الفهم بين ابطال الرواية مما ينتج عنه مواقف ضاحكة ، وحينا آخر يلجأ الى « التهريج » و « القفشات » لانتزاع الضحك من جمهوره • أمـا زميله تيرنتيوس فقد كان مترفعا ورزينا فى كوميدياته ، كأنه يكتب ليضحك صفوة المثقفين ، ومن ثم اهتم بالحبكة المسرحية وبالعقدة الدرامية وبالبناء المسرحى ، وقد ترك تيرنتيوس بعض الحكم والأمثال التى ظل الرومان يرددونها من بعده طويلا مثل « الحياة هى الأمل (Dum Spiro, Spero) والحظ يسـاعد الشـجعان (Fortes fortuna adiuvat) (١) ، وبقدر الرجال تكون الآراء (quot homines, tot sententiae) (٢) وقوله « انسان أنا وأظن لا شىء Homo Sum, humani nihil a me alienum puto (٣) من صفات الانسان غريبة عنى ، ولمـا كان أسلوبه صعبا فقد أعرضـت عن رواياته العامة التى يقال أنها غادرت المسرح أثناء عرض احداها مفضلة عليها مشاهدة السيرك •

كذلك يجب الا ننسى المؤرخ العالمى بوليبيوس Polybius صاحب فكرة التاريخ العام (٢٠٣ – ١٢٠ق•م) الذى جىء به كرهينة سياسية من بلدته ميجالوبوليس فى البيلوبونيسوس الى روما ، حيث درس وتعلم ، ونشبع بالأفكار الرومانية ، وأصبح من أعظم مؤرخيها ، وأخذ يتنقل مع قادتها العظام ، ومن ثم وضع أساس التاريخ العالمى (٤) •

ومن رواد الأدب والشعر فى تلك الفترة لوكيليوس (Lucilius) (١٥٠ – ١٠٣) رائد الشعر الهجائى الساخر ، كما يجب أن نشير الى كاتو

---

(1) Phormio I, 4, 26.

(2) Idem., 2, 4, 14.

(3) Heaut. I, 1 35.

(٤) انظر : تأملات فى طبيعة الفكر التاريخى عند الاغريق – الجمعية التاريخية للدراسات التاريخية – الموسم الثقافى ١٩٧٢ – ١٩٧٣ ص ٩٢ وما بعـدها •

الرقيب ٢٣٤ — ١٤٩ ق ٠ م كأديب بارع وكمؤلف لـكتاب الأصـول (Origines) الذى روى فيه تاريخ روما ، وكمؤلف لكتاب عن الزراعة وكأستاذ عظيم فى فن الخطابة التى أعطى سرها لابنه عنـدما نصحه قائلا « أمسك بالفكرة وستتوالى الكلمات (Rem tene, Verba Sequentur)

سابعا : ظهور الغرور الرومانى والاحســاس بالعظمة : وفى خـلال الانتصارات والتحدى الذى واجهته روما ظهرت الوطنية فى أوقات الخطر والأزمات ، وأثرت فى تفكير الرومان السياسى والاجتماعى والثقافى ، وظهر نوع جديد من الكتاب الرومان الذين كتبوا عن تاريخ روما بصورة مغرورة مبتكرة تبالغ فى مجد روما (Gloria Romana) وقدرها من أجل التأثير على الشـعوب المهزومة مثلما فعـل المؤرخ فابيوس بكتور ، كما ظهرت السجلات الرومانية التى كانت تعلق فى الفورم كنوع من الدعاية المحليـة للاستهلاك الشعبى ، وأصبح هناك عدد من الرومان الذين كتبوا وشعروا بمجد روما الساحق ونسجوا الأساطير الخيالية وتصورها على أنها مشيئة القدر ، الذى أراد لها أن تحكم العالم ٠

لكن بالرغم من هذا كان على روما أن تدفع ثمن حروبها الكثيرة اذ حتم عليها القدر أن تخوض صراعا اجتماعيا مريرا وحروبا أهلية دامية شهدت قيام الدكتاتوريات العسكرية التى أغرقتها فى بحر من الدماء ، ولم تفق روما منها طوال قرن كامل ، وكان عليها أن تنتظر حتى مجىء اكتافيوس ليتمكن من وضع حد لكل هذه الفوضى وليعبر بروما الى عهد جديد ٠

الفصل السابع

عصر الثورة والصراع الطبقى

(١٣٣ – ٣١ ق ٠ م)

أولا – دوافع الثورة :

ما أن جاء عام ١٣٣ حتى وجدت روما نفسها تتحكم فى امبراطورية شاسعة ، تمتد فيما وراء البحار ، وتشمل أجناسا مختلفة ، ولم تعد روما كما كانت مدينة صغيرة تتحكم فى عدة مئات من الأميال داخل ايطاليا . وهذا جعلها تواجه مشاكل جديدة وغريبة عليها لم تتعود عليها أجهزتها ومؤسساتها وقوانينها القديمة ٠ والتى أصبحت عاجزة عن مسايرة هـذه الظروف الجديدة ٠

مثلا بدأ المجتمع الرومانى يعانى من صراعات طبقية داخلية نتيجـة لتصارع الطبقات فيه من أجل الوصول الى السلطة ،وكان الصراع الرئيسى مصدرة طبقة رجال السناتو ، ذلك الجهاز القوى الحكيم والذى ازداد قوة ابان القرن الثانى وفى أثناء الحروب البونيقية ٠

وكانت طبقة السناتو تضم الى جانبها الأغنياء الجـدد وأصـحاب الثروات والاقطاعات التى حاول السناتو التحالف معها فى جبهة واحـدة لحكم البلاد عرفت باسم طبقة الفضلاء Optimates محاولة فرض ديمقراطية طبقية عاقلة ، ومحافظة تتمسك بالجمهورية القديمة ، ولذلك عرفوا باسم الجمهوريين بالرغم من أن الفساد كان متفشيا فيها ، وفى جنرالاتها العابدين للسلطة والمجد والثروة ٠

أما الطبقة الثانية فهى طبقة الشعبيين Populares أو الديموقراطيين الديماجوجيين ، والذين كان ينضم اليهم عادة رجال طبقة الفرسان Equites وهم رجال الطبقة المتوسطة الذين كونوا رؤوس أموال من العمـل فى

التجارة وفى جميع الضرائب ، ولكنهم كانوا محدودى المناصب ، ومن ثم فقد كانوا يتوقون الى مساواة أنفسهم بأعضاء السناتو الذين نظروا اليهم بدورهم على أنهم رجال وضعاء جشعين ، لاينحـدرون من أصول نبيلة مثلهم ، ولهذا تزعم الفرسان مطالب الشعبيين من أجـل مقاومة التعنت الارستقراطى • وحاولوا استخدام أموالهم فى بث الاضطرابات وتمويل الانقلابات والمؤامرات من أجل اسقاط النظام القديم ووضع نظام جديد يعطيهم نفوذا أكبر فى حكم البلاد •

وقد اندلع الصراع بين هاتين الطبقتين واستمر ما يقرب من قرن كامل من التاريخ الرومانى • ولقد حاول قادة الأطراف المتنازعة حل المشاكل الاجتماعية والطبقية عن طريق القوانين والتشريعات ، ولهذا تعرف هذه الفترة بعصر الاصلاحيين الديمقراطيين الذى تمكنوا من حـل الكثير من المشاكل بالتشريع العادل ولكنهم لم يستطيعوا القضاء على المشكلة من جذورها ، ولهذا اتخذ الصراع زاوية أخرى ، بعد أن دخل ميدانه كبار الجنرالات الرومان الذين برزوا من المعـارك • هؤلاء الجنرالات كانوا يحرصون على الانتصار فى المعارك بأى وسيلة لأن الانتصار يعنى المجـد والشهرة والبروز فى مجال السياسة الداخلية فضلا عن استخدام نفوذهم العسكرى للضغط على السناتو لمنحهم المزيد من الامتيازات بالأضافة الى جمع الثروات الباهظة من الحروب وقد حاول هؤلاء أيضا كسب العامة بتملقهم وتوزيع الهدايا عليهم ورفع راية العصيان ضد السناتو (١) •

كذلك زاد من حدة الصراع التنافس على الترشيح لمناصب حـكام الولايات بين القناصل السابقين أو القائمين مقامهم Pro-Consules طمعا فى الحصول على الثروات ، ونهب المقاطعات ، وتجنيد الجيوش منها ، والتهديد بالثورة أو التمرد أو الحروب فى وجه السناتو • ومن هنا بدأ ما يمكن أن نسميه بالصراع على السلطة خاصة بعد بروز أسماء لامعة من الجنرالات ذوى النفوذ العسكرى والسياسى ، والتى صـارت تتحكم فى الأمور لدرجة أن هؤلاء الجنرالات أقاموا فيما بينهم التحالفات العسكرية

(١) مثلا وزع الجنرال لوكوللوس Lucullus بعد عودته من آسيا الصغرى عام ٨٠ ق • م مائة الف جره نبيذ على العامة تبرع بها من اقطاعيته (٥) •

لفرض ارادتهم على الدولة وهو ما يعرف بالائتلافات الثلاثية Triumviri
ولكن مثل هذه الائتلافات كانت تنهار بعد تحقيق أهدافها والقضاء على أعدائها
ثم يبدأ بينهما التنافس القاتل والذى كان سرعان ما يؤدى الى الصراع
والانهيار . وقد انتشر هذا النوع للحكومات فى الفترة ما بين ٥٩ ، ٣٠
ق . م .

ومن ملامح الصراع الطبقى أن الخط الفاصل بين النبلاء والعامة لم
يعد حادا وفاصلا كما كان . اذ أن الكثير من المناصب العليا فتحت أمام
العامة حتى فواصل الزواج أو التصاهر بين العامة والأشراف زالت بمرور
الزمن ، بل وتمكن بعض زعماء العامة من دخول مجلس السناتور والجلوس
فى مدرجاته .

كذلك ظهرت طبقات ثرية فى أعقاب الحروب ، واقتنت الضياع الشاسعة
وسيطرت على الحياة السياسية ، وفرضت نفسها على السناتو ، وقد سمى
رجال السناتو هؤلاء الناس بالرجال الجدد Homines novi أو الآباء
المضافين (Patres Conscripti) ومما زاد من حدة الشقاق صدور قانون عام
٢١٩ ق . م . حرم على رجال السناتو استغلال مناصبهم بالقيام بمشروعات
تجارية سواء فى ايطاليا أو فى باقى الولايات مما أعطى فرصة لرجال طبقة
الفرسان من الاستفادة بالانفراد وحدهم بالتجارة وادارة المال والأعمال
فى المقاطعات الايطالية والولايات وجنوا ثروات طائلة مما زاد من حقد السناتو
على هذه الطبقة . كما برزت الى الوجود طبقة من رجال المال والأعمال ،
هى طبقة الفرسان وأصبحت بمثابة مجموعة ضغط داخل الدولة مستغلة
رؤوس الأموال التى جنتها من أجل زيادة نفوذها السياسى الذى كان
بوضعها الطبقى الوضيع محدودا . أما باقى المواطنين فكانوا يمثلون العامة
(Plebs) والتى بدورها كانت تحنق على النبلاء والفرسان على السواء ،
وتتعطش لتحسين واصلاح وضعها الاجتماعى والاقتصادى خاصة وانها كانت
تحس أنها طبقة الجنود التى صنعت النصر وحققت لروما الامبراطورية
ولكنها خرجت من النصر بخفى حنين .

فى ذلك الوقت ظهرت الفلسفات الانسانية التى تنادى بالعدالة

الاجتماعية والمساواة بين الطبقات ، وتحارب الاستغلال وتدعوا الى الاشتراكية والمؤاخاه ومن أشهر هذه الفلسفات الفلسفة الرواقية التى أصبح لها معجبون كثيرون من بين الرومان أنفسهم • كما ظهرت الأحلام بمملكة الشمس الاشتراكية المثالية الخالية من الفساد والطوابق الاجتماعية وصراع السلطة وجشعها • وكان الشرق الهللينستى هو مبعث هذه الفلسفات والأحلام (١) •

مشكلة ملكية الاراضى الزراعية :

كان للملكية الزراعية أهمية كبيرة فى الوضع الاجتماعى والسياسى فى روما فى ذلك الوقت ، فقد تضاءلت نسبة ملاك الأراضى الزراعية فى تلك الفترة نتيجة لدمار الحروب ونضوب الريف من الفلاحين ، وتحول الاقطاعيين الى زراعة الكروم بدلا من القمح ، وبسبب منافسة قمح صقلية وأفريقيا للقمح الرومانى مما أدى الى ارتفاع سعره وقلة الطلب عليه • فضلا عن انتشار البطالة بسبب تدفق آلاف العبيد على روما واستغلال أصحاب الاقطاعيات لهم بدلا من العمال الرومان ، وكانت النتيجة هجر الريف والتدفق على العاصمة ولهذا برزت طبقة من غوغاء المدينة (Vulgus) أصبحت تطالب السناتو بحل مشكالها المتزايدة ، وتوفير الغذاء والقمح لها بل وراحت تعبر عن حقدها الطبقى ازاء الأثرياء • وفى نفس الوقت زاد انتاج الاقطاعيات الجديدة بسبب ديناميكية العبيد المهرة ، وزادت نسبة الاستهلاك بسبب كثرة الانتاج وزيادته على الطلب خاصة فى مزارع الكروم وأصبحت روما تصدر فائضها الى الغرب بل والى الشرق •

مشكلة تزايد عدد العبيد وسوء احوالهم الاجتماعية :

وبالرغم أن الحروب الطويلة قضت على نسبة كبيرة من القوى الرومانية العاملة ، الا أنه سرعان ما أوجد أصحاب الأعمال بديلا لهذا النقص البشرى عندما تدفق على ايطاليا الآلاف من العبيد من المناطق التى اكتسحتها الجيوش الرومانية مثل مقدونيا وبلاد الاغريق وأسبانيا وبلاد الغال وقرطاجه وآسيا الصغرى لدرجة أن مؤرخى هذه الفترة يصفون حروب روما ابان تلك الفترة بأنها عمليات سطو للاستيلاء على أكبر عدد من

---

(١) انظر ص ١٧٢ •

العبيد الذين سيقوا الى روما للعمل فى المزارع والمصانع ووصل الحال الى أن أصبح خمس سكان ايطاليا من العبيد الذين يعملون فى المزارع والمصانع أو فى المنازل (Vernae) سواء فى الريف أو الحضر . كما قام قراصنة كيليكيا بتوريد أعداد كبيرة من الأسرى الى الأسواق الرومانية خاصة أن العبيد الآسيويين اكتسبوا ميزة خاصة لذكائهم ومهارتهم وخبرتهم فى فنون الزراعة . وكان العبيد اما يقبض عليهم فى الحرب ويتحولون الى عبيد بحق الحربة (Sub-hasta) أو بعد الاستسلام (Sub-Corona) وكان السناتو يغمض عينيه عن أعمال القرصنة بسبب حرصه على رواج سوق العبيد، ولم يتدخل لقمع القراصنة الا بعد أن تزايد خطرهم، وأصبح يهدد المصالح الرومانية ذاتها .

وقد أدى الاستغلال البشع لطاقات العبيد ومعاملتهم معاملة غير انسانية حيث كانوا يستهلكون حتى الموت عملا بنصيحة كاتو فى بحثه عن الزراعة (١) كما كانوا يساقون وهم مكبلون بالأغلال للعمل فى الضياع تحت الشمس المحرقة، وفى الليل يوضعون فى زرائب الماشية ، ويلقى اليهم بالقليل من الطعام . وقد أدى سوء أحوال العبيد الاجتماعية الى التذمر والحقد ضد المستغلين الرومان ، وظلوا يتحينون الفرصة للثورة ورفع السلاح .

بدأت ثورات العبيد بعد عام ١٣٨ ق . م . واضطر الرومان الى صلب الآلاف منهم حتى يخاف الباقون . كما حدثت ثورات أخرى خارج ايطاليا مثل ثورة العبيد فى ديلوس حيث السوق الدولية لهم ، وثورة عبيد منجم اللاوريون قرب أتينا حيث بلغ من شدة الثورة أن أعلن العبيد هناك دولة مستقلة وسكوا لهم عملة خاصة . وقاد ارستونيكوس - ابن يومينيس الثانى ملك برجامون العبيد فى حرب الاستقلال ضد روما معلنا هدفه وهو تحقيق مملكة الشمس الاشتراكية العادلة .

وكان أبشع ثورات العبيد فنفاثورة عبيد صقلية عام ١٣٦ ق . م . عندما قاد عبد سورى اسمه يونوس ٧٠,٠٠٠ من العبيد مناديا بالحرب من أجل

(1) De Agricultura = cf. E. Bréhaut, Cato the Censor Farming, London 1933. als., cf. Moses Hadas, A History of Latin literature, Columbia paperback edition 1964, p. 61 ff.

عقاب الرومان وهلك فيها الآلاف من ملاك الأراضى والضياع قبل أن تتمكن روما عام ١٣١ ق . م . من القضاء عليها .

وبالرغم من هذا كله لم يحاول السناتو الاصلاح لأنه كان هيئة رجعية متزمته قصيرة النظر تتشبث بكل قوة بامتيازاتها ، ولم تحاول التنازل عنها ، وفى نفس الوقت احتكرت المناصب العليا لنفسها ، وبسطت نفوذها حتى على نقباء العامة الذين أصبحوا مسيرين من ورائها والعوبة فى أيديها .

الابتزاز وسوء الادارة فى الولايات :

فى تلك الفترة أيضا ساءت الأحوال فى الولايات التابعة لروما بسبب سوء الادارة فيها وكان يحكم كل ولاية حاكم رومانى بدرجة برايتور سابق أو بدرجة قنصل سابق، ويتمتع بالامبريوم البروقنصلى Imperium Proconsulare ويساعده ثلاثة مندوبين عن السناتو (Legati) وقد تفشى الفساد فى حكم الأقاليم نتيجة للرشوة والنهب وابتزاز السكان واستغلال المسئولين الرومان لمناصبهم فى جمع الثروات الطائلة . كان حاكم الولاية الرومانى مسئولا عن جمع الضرائب فى ولايته ولكن الذى كان يقوم بجمع الضرائب جماعات من الملتزمين تعرف بجامعى الضرائب (Publicani) وكان معظمهم من رجال المال الجشعين القساه الذين اذاقوا شعوب الولايات الويل .

وقد حاول السناتو القضاء على هذا الابتزاز المالى والفساد عندما صدر قانون كالبورنيوس Calpurnius عام ١٤٩ ق . م بشأن انشاء محاكم لمحاربة الأبتزاز المالى على أن تتكون هـذه المحكمة من خمسين عضوا من أعضاء مجلس الشيوخ ، ولكن رجال طبقة الفرسان طالبوا بعضوية هـذه المحكمة ، ولم تنجح هذه المحكمة نظرا لتواطؤ أعضاء السناتو مع المتهمين من حكام الولايات الذين كانوا ينتمون الى نفس طبقتهم ، ولأن أعضـاء المحكمة كانوا ينتظرون الفرصة لجمع الثروات بنفس الطريقـة عنـدما يتولون منصب حـكام الولايات ، كما أن بعض الحكام دفعوا الهـدايا والرشاوى من أجل تعيينهم فى مناصبهم لأعضاء محكمة الأبتزاز المالى .

مشكلة الحلفاء الأيطاليين :

لم يكن الايطاليون أسعد حالا من غوغاء المدينة ، فعندما حققت روما أحلامها التوسعية ، لم تعد فى حاجة اليهم ، ومن ثم تغيرت نظرتها نحـوهم

وأصبحت تعاملهم كرعايا خاضعين مثل غيرهم من الشعوب غير الايطالية فكان الجنرالات يعطون الجندى الايطالى نصيبا أقل من الأسلاب مما كان يعطى للجندي الرومانى ، وكان يسمح بجلد الايطالى بينما حرم القانون الرومانى ذلك بالنسبة للجندى الرومانى منذ عام ١٩٩ ق ٠ م ، وعندما كان يسافر المسئولون الرومان الى المقاطعات الايطالية كانوا يتصرفون بصلف واستعلاء مقيتين • وقبل كل هذا وذاك أحس الايطاليون أنهم هم الذين جلبوا الانتصارات التى حققتها روما ، وبالرغم من هذا فلم يكونوا متمتعين بالجنسية الرومانية الكاملة بل ببعض الحقوق اللاتينية المحددة وكان هذا مدعاة للثورة التى تطالب أما بالمساواة الكاملة مع الرومان أو الانفصال التام عنهم •

دور الفلسفات الاغريقية فى طرح الافكار للثورة :

سبق أن أشرنا الى الأزمات السياسية والاجتماعية والاقتصادية التى سادت فى العصر الهللينستى أبان المحنة النفسية التى تعرض لها الاغريق والتغير الشامل فى ظروف الاغريق ابان ذلك العصر ، وكيف كان رد الفعل على هذه التطورات هو ظهور فلسفات جديدة طوباوية ، لكنها تختلف عن الجمهوريات الفاضلة التى رسمها أفلاطون وأرسطو والتى تحيزت الى الطبقة الراقية وتجاهلت محنة الفقراء والعبيد ، ويجىء على رأس هذه الفلسفات الفلسفة الابيقورية والفلسفة الرواقية اللتان وجدتا لهما معجبين من بين القادة والمثقفين الرومان وعادوا بأفكارها الى روما •

كانت الفلسفة الأبيقورية (Epicureanism) (١) بعكس الفلسفة الرواقية (Stoicism) تخاطب البسطاء من الناس لأنها الى حد كبير فلسفة ريفية انطلاقية ، ولذلك فقد انتشرت فى الريف الايطالى قبل أن تنتشر فى مدينة روما ، وذلك لأنها لم تلق أى اقبال من جانب المثقفين والارستقراطيين• والفلسفة الأبيقورية فلسفة تهتم بالفرد أكثر مما تهتم بالدولة والنظم وتدعو الى التخلى عن الطموح السياسى والظهور ، وكانت الى حد كبير فلسفة

---

(١) عن ابيقور والابيقورية انظر : اميرة حلمى مطر ـ الفلسفة عند اليونان ـ دار النهضة العربية ١٩٧٤ ص ٣٧٩ •

تبشيرية تنتقل من الفرد الى الفرد ، ومن مكان الى آخر أشبه بالطرق الصوفية فى المجتمع الاسلامى ، ولم يكن لها فلاسفة أيديولوجيون يخططون لها من أجل وضع قواعدها ، بل كانت فلسفة تلقائية .

ولقد نسبت الفلسفة الأبيقورية الى مؤسسها الأول الفيلسوف ايقوروس (Epicurus) الاغريقى (٣٤١ — ٢٧٠ ق . م) والذى يرجح أن ولد فى جزيرة ساموس ودرس فى أثينا أصول الفلسفات ، ثم عاد الى أيونيا حيث افتتح مدرسة فلسفية وكون له مريدين حوله ، وفى عام ٣٠٦ ق . م عاد الى أثينا كعبة المدارس الفلسفية حيث راح يعلم الفلسفة فى حديقة كيبوس الشهيرة (Kepos) وظل يقيم بأثينا طوال الست والثلاثين سنة الباقية فى عمره .

وقد ألف أبيقوروس العديد من الأبحاث والمؤلفات الفلسفية ، فقد للأسف معظمها ولم يتبق منها سوى ثلاث مقالات وبعض الشذرات التى عثر عليها بين خرائب مدينة هركولانيوم (Herculaneum) — تلك المدينة التى غطاها تراب بركان فيزوف بعد ثورته الكبرى — أما معلوماتنا عن فلسفته فقد جاءت الينا عن طريق تلميذه الرومانى الشاعر لوكريتيوس (Lucretius) (٩٩ — ٥٥ ق . م) ذلك التلميذ الوفى التى كرس حياته لتمجيد فلسفة أستاذه فى قصيدته الشهير عن طبيعة الأشياء (De rerum natura) ، والتى فيها مجد أستاذه أبيقوروس على أنه أول من دعى لخلاص النفوس من الجهل والخرافات الغيبية والرعب من المجهول والخوف من الحياة الأخرى . ووضع نظاما أخلاقيا يستطيع الفرد عن طريقة أن يحيا حياة هادئة وسعيدة متحررة من الخوف سواء من أى كارثة قد تلحق به أو من الموت الذى يرتعد فرائض الجميع عند التفكير فيه . ولتأكيد هذا النظام قدم أبيقوروس تفسيرا لهذا العالم المادى الذى نعيش فيه ، وذكر أنه ليس سوى عالم مكون من ذرات صغيرة (atoms) ، لا تفنى أو تدمر . ومن هذه الذرات تتكون الأجسام والتى بدورها تختلف حسب أوزان وأحجام وأشكال الذرات الموجودة فى كل جسم من هذه الأجسام فى الطبيعة . وهذه الذرات الصغيرة التى تتكون

منها الأشياء التى تسبح فى الفضاء وفق نظام واحد، وبسرعة واحدة طبقا لقانون الطبيعة ولكنها تتجمع وتتحدد لتكون الأجسام، أو تتفوق وتتبعثر فتختفى هذه الأجسام وتموت ، وحتى خلال وجـود الأجسام تظل هذه الذرات الصغيرة تدور وتتذبذب بنفس النظام والسرعة الموجودة فى الفضاء اللانهائى • وعندما يموت الكائن الحى أو يفنى الجسم المادى تتفرق هذه الذرات لتعود الى السباحة فى الفضاء الى أن تعود وتتحد لتخلق كائنا أو جسما جديدا •

أما فيما يختص بوجود الآلهة فقـد آمن أبيقوروس بأنها قد تكون موجـودة ولكن فى مكان بعيـد عن الكون ، ولا تتدخـل فى شئون المخلوقات أو قانون الطبيعة ، ولأن أسس التفكير الأبيقورى لا يقـوم على الدقة العلمية المطلقة أو على الافتراض ، فقد نفت نفيا مطلقـا وجود أى وجود قبل الوجود ، أو الحياة بعد الفناء بالنسبة للانسان • ويذهب الى القول بأن هناك حياة واحدة جـديرة بأن تحيا وهى الحياة الخيرة • والحياة الخيرة هى حياة الاستمتاع فى تعقل بكل ما يقدمه العالم بحيث يتحقق الرضا فى النفس ، والحكيم هو الذى يتحكم فى الظروف الموجودة لاستخدامها بطريقة أفضل ، والخير هو المتعة التى تجىء عن طريق ارضـاء مطالب الحواس ارضـاء عابرا ولكن عن طريق حب الذات الراقى واللذة العقلية والتواضع الاجتماعى • هكذا جاءت الأبيقورية بنظريتها عن اللذة والمادة ونكرانها لتدخـل الآلهة فى أمور ومصائر النـاس ، ومحاربتهـا للغيبيات والخرافات الدينية لتواجه عداء المحافظين على تقاليدهم وتراثهم وسخط ذوى النفوذ والجاه • وهناك من يروون تأثر بولوس الرسـول بالمذهب الأبيقورى خاصة فى التسامح والسمو الروحانى والاعتراف بتساوى الناس بمختلف أوضاعهم بما فى ذلك الرجال والنساء والاصرار على متع الصداقة (amicitia) الخالصة •

ومن الذين أخلصوا للأبيقورية من الرومان رجل المـال والأعمـال المثقف تيتوس بومبونيوس اتيكوس (Titus Pomponius Atticus) صديق شيشيرون الوفى ، والذى تبادل معه سلسلة من الرسائل الأدبيـة

الرواقية والتى تعتبر من أهم أعمال شيشيرون والمسماة « رسائل الى اتيكوس »
(Epistulae Ad Atticum) كما أن يوليوس قيصر نفسه قد تأثر فى سلوكه
الى حد كبير بالفلسفة الرواقية ، أيضا تأثر بها صهره رجل السناتو الشهير
لوكيوس كالبورنيوس بيسو (Lucius Calpurnius Piso) لدرجة أنه كرس
حياته لرعاية هذه الفلسفة وتشجيع اتباعها ، كذلك نسمع عن فيلوديموس
(Philodemus) الأبيقورى الذى عثرنا على بعض كتاباته فى خرائب
هركولانيوم ، ومن بعض العشاق الرومان لهذه الفلسفة أيضا مانيليوس
توركواتوس (Titus Manilius Torquatue) الذى جعله شيشيرون المتحدث
باسم الأبيقوريين فى مؤلفه الفلسفى الشهير فى تعريفات الخير والشر
(De Finibus Bonorum et malorum) ، ومن المعروف أن كثيرين من
الذين تجمعوا حول يوليوس قيصر وأيدوه كانوا من الأبيقوريين ، وفى نفس
الوقت نجد رجلا مثل كاسيوس لو نجينوس (Cassius Longinus) المعروف
بتعصبه الأعمى للجمهورية القديمة من بين بين الأبيقوريين المخلصين ، الى
جانب ذلك استهوت مبادىء هذه الفلسفة عددا كبيرا من زعماء روما ،
وبالرغم من أنها كانت أقل تأثيرا وذيوعا من الرواقية لكنها سارت فى ثبات
واخلاص وفق تعليم مؤسسها من أجل تحطيم الرعب التقليدى الذى أوجدته
الديانة فى ضمير ووجدان الناس من الحياة المستقبلة ، وفى أرض الأرواح
المخيفة فى عالم الآخرة والذى هو مصدر كل قلق وألم يقعان على الناس
فى حياتهم العامة والخاصة . وليس هناك مجال للشك فى أن المذهب
الأبيقورى بدعوته الى التحرر من الخوف والقلق (ataraxis) قد جلب
الهدوء والسكينة فى النفوس المضطربة وقت الأزمات العاصفة . وساعدت
الجماهير الرومانية على الاستيقاظ من الغفوة القديمة والتطلع الى مستقبل
أفضل دون خوف أو قلق بعد أن أصبح الانسان يدرك أنه « سيد قدره
وربان روحه » .

أما الرواقية (stoicism) [١] فكانت ذات تأثير أقوى على السياسة الرومانية والمجتمع الرومانى أبان القرن الثانى • وقد استقت هذه الفلسفة اسمها من الرواق (stoa) التـــهير الذى كان موجــودا بالقــرب من السوق العــامة فى أثينا (agora) حيث كان المعــلم زينون (٣٣٦ ــ ٢٦٣ ق • م) ذلك الفيلسوف الفينيقى الذى قدم من مدينــة كيتون فى قبرص لكى يحاضر فى أصول الفلسفة الجديدة • كانت الفلسفة الرواقية أكثر ســموا تدعو الى أن الكون يحكمه قانون يتحكم فى نهج الطبيعة ، وهذا القانون لا يتحرك طبقا لميكانيكية معينة أو يسير عشوائيا وانمــا يحكمه عقل الهى أكبر لا يخطىء أبدا • ولذا جاءت النصــائح الرواقية تقول « اتبع الطبيعة ، اتبع العقل ، اتبع الفضيلة » ، وكلها طرق متنوعة للتعبير عن شىء واحد بعينه وهو العقل الأكبر الذى صنع هــذا العالم بعقله وبقدرته الآلهية • كذلك نادت الرواقية أنه فى داخل الانسان يقبع « العقل » وعلى ذلك فهناك صلة قرابة بين العقل الأكبر والانسان • ولقد وهب الانسان عقله الصغير ليحكم تصرفات الجسد وشهواته ورغباته ، وليوقف كل ما يعيق الانسان عن معرفة وطاعة العقل الأكبر • وعلى ذلك فان الانسان يستطيع بقوة ذاته الداخلية أن يتحكم فى عواطفه ، فاذا ما نجح فى ذلك حقق السلام النفسى الأبدى • والرجل الحكيم هو الذى اذا ما أصابته مصيبة ــ كائنة ما كانت ــ آمن بأن ذلك ارادة العناية الالهية • وأن السعادة هى الفضيلة (virtus) ، والفضيلة هى التفانى فى أداء الواجب مع التوفيق بين ارادة العقل الأكبر وبين واقعة ، لأن الانسان مهما كان يبقى سيد ارادته المطلق ، وأنه بقدر ما يتمكن من السيطرة على ارادته بقدر ما يحقق سعادته • ولا يوجد فى نظر الرواقى درجات للخير ، فاذا كنت على حق فأنت على حق بدرجة مطلقة واذا كنت على خطأ فأنت مخطىء بدرجة مطلقة أيضا • وفى كلتا الحالتين يتوقف ذلك على خصيصتك الداخلية • وأن الخير فيما هو

---

(١) عن الرواقية انظر : عثمان امين ــ الفلسفة الرواقية ــ القاهرة مكتبة الانجلو المصرية ١٩٧١ كذلك انظر :

E. V. Arnold, Roman Stoicism, London 1911. : M. Pohlenz, Die Stoa 2, vols. (1948).

وكذلك اميرة حلمى مطر ــ المرجع السابق ص ٣٩١ .

كائن وموجود وواقع لأنه صادر عن العقل الأكبر والأكمل ومن ثم على الانسان أن يتحرر من كل الروابط العرفية التى يرسمها لنفسه ويقف كالصخرة فى وجه الأحداث لا يتزعزع ايمانه بالعقل الأكبر أبدا .. ويقول الرواقيون أن الانسان يستطيع أن يحقق التوافق بين الواقع وارادة العقل الأكبر عن طريق أداء الواجب الذى يجعله قادرا على التوفيق بين ارادته الذاتية وارادة العقل الأكبر . ومن ثم تستطيع أن تقول أن « العقل » و « الواجب » هما المحوران اللذان تقوم عليهما الرواقية .

كذلك بشر زينون بفكرة دولة العالم المتحد التى تجمع بين الصالحين من البشر بالمؤاخاة عن طريق ارتباطهم بالعقل الأكبر ، وهذه المدينة العالمية التى تقوم على ولاء الرجال العاقلين هى مدينة الطبيعة ، مدينة العقل ، مدينة الله . وكان هذا التصور لمجتمع يشمل البشرية كلها يتوافق مع الأفكار التى ظهرت بعد قهر الاسكندر الأكبر للعالم وتوحيده ، وتنادى بهجر فكرة دولة المدينة المحدودة ومجتمع الممالك أو الامبراطوريات الصغيرة واستبدال ذلك بقيام دولة العالم الأكثر رحمة واتساعا لأن ذلك يتوافق مع نظرة العصر الهللينستى الأكثر اتساعا . وقد تحقق ذلك نسبيا فى قيام الامبراطورية المقدونية ، ولكن كان على روما أن تكمل تحقيق دولة العالم كاملة . وفى هذه الدولة العالمية تصور الرواقيون المواطن وقد تحرر من جميع الروابط العرفية والتقاليد السلوكية والفكرية التى توارثها ، ولا يلتزم الا بشىء واحد وهو الالتزام والتمسك بالعقل الربانى والانصياع بمبدأ قانون الطبيعة العام . ولقد كانت اليوتوبيا (Utopia) التى رسمها زينون هى المثل الأعلى الذى الهم الكثير من مفكرى وكتاب المدن الفاضلة بطرق مختلفة ، فمثلا فى القرن الثالث ق . م استلهم منها يامبولوس (Iambulus) الروائى الهللينستى « فكرة مملكة الشمس الفاضلة » التى تخيل وجودها فى جزر المحيط الهندى والتى جعل فيها مواطنيها متساويين اجتماعيا وفكريا وماديا لأنهم يعملون معا كالنحل فى الخلية ويعيشون فى وئام ومساواة تامة .

ولقد قيــل أن المذهب الرواقى انتهى بحماس خلقى وافلاس منطقى خاصة فى الفترة المتأخرة عند ما كثر فلاسفته وتعددت أفكارهم ومذاهبهم .

وعندما نجحت روما فى استيعاب الممالك الهللينسية فى الشرق وفـد على المدينة فليسوف جاء من رودس هو باناتيوس (Panaetius) الذى راح يبشر بالرواقية حتى أن الفلاسفة أطلقوا عليه مؤسس الرواق الأوســط ، وسرعان ما أصــبح باناتيوس صــديقا للقائــد الرومانى سكيبيو ايمليانوس (Scipio Aemelianus) ، وقد طور باناتيوس الذى وفد من جزيرة صديقة للرومان ـ النظرية الرواقية القديمة مناديا بأن روما هى أفضل دولة لتحقيق فكرة الدولة العالمية وفقا للنظرية الرواقية ، وهى وحدها دون غيرها القادرة على قيادة العالم الى دولة الشمس ، كما أشاد باناتيوس بالقانون الرومانى لأنه قام على قانون الطبيعة (ius naturae) واستمد منها تشريعاته ، وأشاد به لأنه وسط بين كل اتجاهات نظم الحكم ، فهو يجمع بين الملكية والأرستقراطية والديموقراطية الجماهيرية ، ولهذا فهو عين العقل والمنطق ، ومن ثم بدأ يشبه القانون الرومانى الأخلاقى بالتعاليم الرواقية التى بشر بها لتلائم الانسان ، وبالفعــل تركت العقيدة الرواقية بصماتها على القضاء الرومانى . وقد أعجبت أفــكار باناتيوس الرواقية الارستقراطيين الرومان لأن الرواقية فى حد ذاتها تمثل الأرستقراطية الأخلاقية بما فيها من نزوع الرومانى الى الزهو والكبرياء بقوة صلابته وتفانية من أجل الواجب والفضيلة ، واحتقاره للضعفاء الذين لا تؤهلهم صفاتهم الذهنية للصمود .

لقد استهوت الرواقية عــددا كبيرا من المثقفين ورجال السياســة فى روما وتجاوب الرومانى فى يسر مع العقيدة الرواقية . وكان المشجعون على نشر هذه الفلسفة الأرستقراطية ،اذ فتحوا بيوتهم للفلاسفة الرواقيين وجعلوهم يعلمون أولادهم ويتسامرون معهم حيث يدخلون فى مناظرات ومناقشات فى السياسة والمنطق والأخلاق . ومن بين أقطاب الرومان الرواقيين سكيبيو ايمليانوس وموكيوس سكايفولا (Mucius Scaevola) الذى تولى القنصلية عام ١٣٣ ق . م وابنه الذى صار فى عام ٩٩ ق . م قنصلا مثل أبيه ، ومن

بينهم أيضا سكستوس بومبى Sextus Pompeius ، بوركيوس كاتو اليوتيكى (Porcius Cato Uticensis) وعدد كبير من فقهاء الرومان الذين عاشوا خلال القرنين الثانى والأول ق ٠ م ٠ لكن برزو فيهم اثنان هما سكايفولا الثانى وكاتو الأصغر لأنهما حاولا نقل الأفكار الرواقية من مجال النظرية الى عالم التطبيق ، اذ يروى عن سكايفولا أنه أثناء ولايته فى آسيا كان ينفق على نفسه من ماله الخاص وتفانى فى تطبيق العدالة والحق ، وحارب استغلال جامعى الضرائب من رجال طبقة الفرسان للشعوب فى ولايته ٠ أما سلوك وتصرفات كاتو الأصغر فقد كانت تطبيقا عمليا للمبادىء الرواقية خاصة فى ادارته للولايات التى عين عليها حاكما ، وقبل هذا وذاك مهدت الافكار الرواقية الانسانية والتى تتحدث عن الحق والعدل والمساواة لجيل من الثوار أو المصلحين التشريعيين ، وبدأت الأفكار الرواقية تحرك القادرين من الزعماء للتفكير فى التغير الشامل من أجل تحقيق الأفضل ٠

٢ ـ مراحل الثورة الاجتماعية :

بعد الحديث عن المشاكل التى خلقتها الحروب العديدة التى خاضتها روما ، والظروف الفكرية التى سادت ابان تلك الحقبة ، علينا أن نتعرض لعصر الثورة الاجتماعية الذي استمر ما يقرب من قرن كامل من الزمان من عام ١٣٣ ق ٠ م عام ٣١ ق ٠ م ٠

لقد كان من أهم نتائج الحروب على الحياة فى روما هو أن النظام القديم للجمهورية ، والذى وضع أساسه عندما كانت روما محدودة المساحة والسكان ، لم يعد يصلح بعد أن توسع نفوذها لا ليشمل ايطاليا كلها بل بلدان دويلات خارج ايطاليا مثل أسبانيا وشمال ايطاليا وبلاد اليونان وبعض الممالك الهللينستيه فى الشرق ، وبالتالى لم يعد النظام القديم قادرا على مواجهة المشاكل التى خلقتها الظروف الجديدة ، وبقدر ما ولدت الحروب الحاجة الى التغيير بقدر ما جعلت من السناتو هيئة سلطوية شديدة النفوذ ترفض بصلابة تغيير النظم القديمة التى تقوم على الطبقية والاقطاع وجعل الحكم وقفا على فئة واحدة هى الفئة الأرستقراطية

وازاء الظروف الجديدة تولدت جبهة معارضة من رجال Optimates ، الفرسان الذين كانوا يحقدون (١) على رجال السناتو والارستقراطيين ويطالبون بالمساواة فى حكم البلاد ، بينما كان السناتو ينظر بعين الاحتقار الى رجال طبقة الفرسان لأنهم يجيئون من أصول اجتماعية وضيعة ، واستطاعوا عن طريق التجارة والربا والجشع واستغلال الفتوحات الرومانية من تكوين ثروات باهظة بينما كان محرما على رجال السناتو التجارة طبقا لقانون قديم صدر عام ٢١٩ ق . م ، ونتيجة لذلك أصبح بعض رجال الفرسان أكثر ثراء من بعض رجال السناتو ، وبالتالى بدأوا يحرضون على هدم الحواجز التى كانت تفصل بين الطبقات خاصة بينهم وبين السناتو . وقد أطلق لقب الفرسان فى الأصل على الأفراد الذين يتمكنون من احراز ثروة تؤهلهم من تجهيز أنفسهم بجواد (equus) عند الحرب ولذلك سموا بالفرسان (Equites) ثم تطور هذا المفهوم ابان القرن الثالث ق . م ليصبح لقب رجال الفرسان يعنى طبقة التجار ورجال الأعمال . ولكى يتمكن رجال الفرسان من أهدافهم تحالفوا مع العامة Plebs. مكونين جبهة الديمقراطيين الشعبيين Populavs التى راحت تعارض الجبهة الأولى التى كان يطلق عليها جبهة الجمهوريين الارستقراطيين (Optimates) ، وكان لكل جبهة مفهومها فى تحقيق الديموقراطية . ولما كان رجال الفرسان أثرياء فقد أبدوا استعدادهم لتمويل الانقلابات والثورات من أجل هدم النظام الجمهورى القديم ، واستخدموا نفوذهم المالى لاستثمار نفوذهم السياسى ، وأصبح لهم عملاء من القادة العسكريين ومن رجال السناتو أنفسهم . وقد ساد الصراع بين هذين الحزبين بمختلف الطرق والوسائل واستغلت فيه المشاكل التى سبق الاشارة اليها . وقد اتخذت الثورة الاجتماعية عدة طرق ومرت بعدة مراحل يمكن ايجازها على النحو التالى :

---

(١) عن تاريخ طبقة الفرسان ابان عصر الجمهورية انظر :
H. Hill, The Roman Middle Class in the Republican Period, New York. The MacMillan Co. 1952.

مراحل الثورة الرومانية :

١ - مرحلة ظهور المصلحين الديمقراطيين :

وهى فترة قصيرة لجأ فيها المصلحون من الثوار الى تولى المناصب العامة فى الجمهورية ثم سن عدد من القوانين والتشريعات الاصلاحية ، ومن أشهر هؤلاء المصلحين الاخوان جراكوس (The Gracchi) وقد نجحت هذه المرحلة بالفعل فى حل بعض المشاكل ، ولكن المعارضة ضدها عمقت مفهوم الصراع حتى صار أخطر عما كان عليه من قبل [1] .

٢ - مرحلة الاستيلاء على السلطة والتصفية الدموية :

وخلالها لجأ بعض الزعماء الثوريين الى طريقة أخرى بعد فشل طريقة التشريع الثورى ، وهى الانضمام الى الجيش والقيام بحملات عسكرية وتحقيق انتصارات تذهل الرومان ، وترفعهم الى الشهرة والمنزلة الرفيعة وعن طريق تكوين جيوش خاصة ابان ولايتهم لبعض المناطق فى الخارج ، ثم وعد جنودهم بآمال كبار حتى يكسبوا ولاءهم عندئذ يتمكنون من قيادة هذه الجيوش - التى تحولت بالفعل الى شبه جيوش خاصة - ثم يهددون السناتو بالانصياع لمطالبهم أو التهديد بالهجوم واحتلال لعاصمة ولهذا أصبح التنافس على تولى حكم الولايات شديدا بين هؤلاء القادة خاصة فى الولايات القريبة من ايطاليا مثل بلاد الغال حيث يمكن تجنيد الجيوش ، وجمع الأموال من أجل التهديد بالثورة المسلحة ضد السناتو أو من أجل السناتو . ولهذا يمكن أن نطلق على هذه المرحلة أيضا مرحلة الحرب الأهلية ومن أشهر زعماء هذه المرحلة الجنرالان ماريوس (Marius) وسوللا Sulla

٣ - مرحلة قيام التكتلات الثلاثية بين القادة :

ولما كان القائد العسكرى لا يستطيع بمفرده اسقاط الجمهورية مهما بلغت قوة نفوذه بسبب صلابة السناتو ودهائه وسيطرته على أجهزة الحكم

---

(١) لمن يريد ان يطلع على المؤلفات والمقالات الحديثة التى عالجت الفترة من ظهور الاخوين جراكوس حتى عصر سوللا يمكن الرجوع لى المسح العلمى الذى قام به الاستاذ باديان Badian (من عام ١٩٤٨ حتى ١٩٥٩) :
cf. E. Badian, Historia, 1962, p. 197 ff.

فقد لجأ القـادة الطموحين الى تكوين تكتلات ثلاثية بينهم بهدف فرض نفوذهم ووصايتهم على الدولة وتصفية معارضـيهم وهو ما يعرف عنـد الرومانى بنظام حكم الثلاثة (triumviri) وبالطبع كان هذا النظام غـير شرعي، بل كان فى البداية سريا ثم أضحى علنيا وقانونيا • ولكن هـذا النظام أيضا لم ينجح لأن الزعماء الثلاثة عادة ما يكونوا متنافسين وتوحدهم المصلحة ، وبالتالى كان من السهل على السناتو أن يوقع بينهم حتى يصفى بعضهم البعض ، وكان العضو الذى يتبقى حيا بعد الصراع يجد نفسـه دكتاتورا مطلقا • وقد شهدت روما قيام تكتلين الأول عام ٥٩ ق • م بين قيصر وبومبى وكراسوس ، والثانى عام ٤٣ ق • م وكان بين اكتافيوس وانطونيوس ولبيدوس ولكن هذا النظام فشل فى وقف الصراع الاجتماعى الى أن نجح اكتافيوس فى التخلص من زميليه وتحقيق السلام الرومانى والآن لنعالج كل مرحلة بشىء من التفصيل •

المرحلة الاولى : المصلحين الاجتماعيين :

كانت لثورة العبيد الكبرى فى صقلية عام ١٣٦ ق • م بقيادة العبـد السورى يونوس (Eunus) (١) والتى استمرت حتى عام ١٣١ ق • م بداية لمزيد من المشاكل التى تنتظر الجمهورية • وقد قام بعض القادة بمحاولات محدودة لانقاذ البلاد من هذا الخطر ، ولكن محاولاتهم لم تنجح • ولقد شعر سكبيو ايمليانوس بتزايد الضعف فى الجيوش الرومانية بسبب عدم الاقبال على التجنيد وذلك لهجرة الفلاحين من الريف وقيام الاقطاعات الزراعيـة الشاسعة التى يعمل فيها العبيد ، والمعروف أن المزارعين والفلاحين الرومان هم الذين كانوا يمدون الجيش بالرجال والمتطوعين ولهذا اقترح القنصل جايوس لايليوس (Gaius Laelius) فى عام ١٤٠ ق • م بالعودة الى تطبيق قوانين ليكينيوس وسكستيوس التى صدرت عام ٣٦٧ ق • م والتى حددت مساحة الاقطاعيات التى كونها الأغنياء من الأراضى العامة الى ٣٢٠ فدان

---

(١) سك يونوس عملة برونزية عليها صـورته متمثلا هيئة الملك انطيوخوس انظر :

C.A.H., Plates IV, p. 2 ; J. Vogt, Struktur des antiken Sklavenkriege (1957). Green Past and Present, London 1961, p. 10 ff.

رومانى • وتوزيع ما يزيد عن ذلك على الفقراء الذين لا أراضى لهم ، ولكن السناتو الغاضب عارض هذا الاقتراح بشدة واضطر القنصل الى سحب مشروعه ، ولما حاول أحد نقباء العامة وهو جايوس ليكينيوس كراسوس (Gaius Licinius crassus) أن يتقدم بمشروع مماثل ، حرض السناتو أحد زملائه من التراينة الموالين للسناتو للاعتراض عليه وابطال مشروعه • ولما حاول أحد شيوخ السناتو الاصلاحيين وهو آبيوس كلاوديوس Appius Claudius Pulcher أن يواصل المشروع ويتبناه داخل السناتو، قوبل بمعارضة شديدة من غالبية الأعضاء •

ظهور تيبريوس سمبرونيوس جراكوس :

وأخيرا تقدم أحد المصلحين بعزم واصرار لارغام السناتو على التراجع والموافقة على مشروع تحديد الملكية الزراعية فى الاقطاعيات التى كونت من الاراضى العامة للدولة • ذلك هو تيبريوس سمبرونيوس جراكوس (Tiberius Sempronius Gracchus) ولد تيبريوس عام ١٦٣ ق •م من أسرة عريقة فى الزعامة والمعارضة ، وكان يكبر شقيقه الأصغر جايوس بحوالى عشرة سنوات • وكان والده رجلا له تاريخ فى السياسة فقد كان قنصلا أحرز انتصارين عسكريين ابان فتح أسبانيا استحق عليهما اقامة قوسين نصر ، كما تولى منصب الرقيب عام ١٦٩ ق •م وكان صارما فى رقابته على الأخلاق والسلوك العام مثل كاتو الأكبر •ولكنه كان ينحاز للفقراء والضعفاء ضد الأغنياء والاقطاعيين ولهذا كان محبوبا فى أسبانيا حيث قام باصلاحات اجتماعية ، ونظم توزيع الأراضى ، وكان فى هذه الأسرة أربعة مصلحين اجتماعين حملوا الاسم الخالد جايوس سمبرونيوس جراكوس • لكن أشهرهم جميعا المصلح الأخير الذى قام بالاصلاح بعد توليه منصب نقيب العامة عام ١٣٣ ق • م •

ويرجع الفضل فى اعداد تيبريوس للحياة السياسيه الى أمه كورنليا (١)

---

(١) عن تاريخ اسرة هذه السيده انظر :
J Carcopino Autour des Gracques, Paris 1928, Chapter 2

Cornelia ابنة سكيبو الكبير (١) . وكانت سيدة فاضلة عرفت بالكمال والكبرياء والاعتداد بالنفس، كما عرفت بثقتها وبلاغتها، وقد كرست هذه السيدة نفسها بعد موت زوجها لتربية ولديها تيبريوس وجايوس . وكانت شديدة الاعتزاز بهما . ويروى لنا بلوتارخوس كيف أن سيدة من أثرياء الرومان زارتها فى بيتها ،وراحت تريها حليتها الثمينة، ثم سألتها عما اذا كان لديها جواهر مثلها لتريها اياها ، أخذتها كورنيليا الى حجرة مجاورة حيث ينام تيبريوس وجايوس كطفلين وديعين وأشارت الأم الى ولديها قائلة فى كبرياء لزائرتها هذه جواهرى (٢) وقد تعلم الولدان من أمهما البساطة والرقة فى الحديث والبلاغة المؤثرة التى تملك أفئدة الناس . ولم تكتف الأم بذلك بل هيأت كل فرص التعليم لولديها فأحضرت لهما أشهر الأساتذة لتعليمهم منهم ديوفانيس الموتولينى(Diophanes of Mytilene) استاذ البلاغة والخطابة الشهير ، والفليسوف الرواقى الشهير بلوسيوس الكوماوى (Blossius of Cumae) (٣) الذى غرس فيهما مبادىء الاصلاح الرواقى والمثالية الفكرية والتفانى فى سبيل الحق والواجب .

ولما بلغ تيبريوس مبلغ الرجال ، انضم الى صفوف الجيش كعادة الرومان الذين يبغون مستقبلا فى السياسة والحكم . وفى سن الخامسة عشرة عشرة اصطحبه زوج أخته سكيبو ايميليانوس الى أفريقيا حيث تفرج على الدمار الذى أحدثته روما بقرطاجه ، وكان أول من حاول قياس أسوار المدينة المدمرة ، وقد أعجب به زوج أخته سكيبيو ايمليانوس بشدة وتناقش معه فى كثير من المسائل والمشكلات السياسية التى كانت تواجهها روما آنذاك . ثم عين كوايستورا ماليا فى أسبانيا حيث قام بالتوسط بين الثوار الأسبان والقنصل الرومانى فى أسبانيا مانكينوس (Mancinus) من أجل انقاذ الجيش الرومانى المحاصر وقد ساعدته سمعة أبيه الطيبة على

---

(1) D.R. Dudley, J.R.S., 1941, p. 94 ff

(2) CCf. Plutarchus, Tiberius Gracchus 8, 2.

(٣) عن شخصية هذا الفيلسوف انظر :

T.S. Brown Classical Journal, 1947, p. 471 ff.

وعن تأثر تيبريوس بالفلسفة والافكار الاغريقية انظر مقاله :

T.S. Brown, Classical Journal, 1947, p 471 ff.

أن يستجيب له الأسبان ويقبلوا عقد هدنة معه ، ولكن السناتو عندما علم بأمر هـذه المعاهدة ثار ومزق الوثيقـة ولولا تعاطف الرأى العـام مع تيبريوس لطالب السناتو بمحاكمته أيضا .

وقبل أن يتقدم تيبريوس الى وظيفة نقيب العامة دعم نفسه بالمصاهرة اذا تزوج من ابنه آبيوس كلاوديوس بولكر (Appius Claudius Pulcher) زعيم السناتو ، والذى كان ينخرط من أسرة عريقة فى السياسة والأرستقراطية وكان مشهودا لها بالاصلاح والتمرد والعناد ، اذ يروى عن أحد اسلاف هذه الأسرة وهو آبيوس كلاوديوس الأعمى أنه أقام على نفقته الخاصة قوس نصر عندما رفض السناتو أن يعترف باحدى الانتصارات التى حققها ما بين عامى ٣١٢ و ٣١٠ق.م ويروى أن تيبريوس كان يشغل وظيفة عضوية مجلس العرافين رغم حداثة سنه عندما تقدم اليه كلاوديوس آبيوس بولكر ليسأله عما اذا كان يرغب فى الزواج من ابنته ، وعندما أجاب تيبريوس بأن يقبل ذلك بكل سرور انطلق الشيخ الوقور آبيوس كلاوديوس يرقص طول الطريق حتى وصل الى داره ، وهناك قابلته زوجته قائلة « ماذا دهاك يا آبيوس الا اذا كنت قد وجدت زوجا لابنتنا مثل جراكوس الشاب » (١) .

وفى عام ١٣٣ ق . م عندما كان تيبريوس فى الثلاثين من عمره ، تقـدم لترشيح نفسه لمنصب نقيب العامة ، وكان قد عقد العزم على أن يفعل شيئا لتطبيق أرائه الرواقية ووقف الظلم الانسانى الذى شاهده فى الريف الايطالى أثناء عودته من أسبانيا عندما مر باقليم أتروريا وراعه الخراب الذى حاق بالريف ، وحزن لرؤية القرى وقد هجرها أصحابها منذ حروب هانيبال ، وحز فى نفسه أن يشاهد الانتهازيين الذين استولوا على هذه الأراضى وجعلوا منها اقطاعيات شاسعة (Latifundia) جلبوا لها قطعانا من العبيد ليعملوا فيها كالدواب ، يعاملون بقسوة متناهية ، ويعيشون فى ظروف دون المستوى الانسانى ، يعملون وهم يرتلون فى الأغلال والقيود تحت وهج الشمس اللافح ، حتى اذا ما جاء الليل سيقوا كالأغنام ليبيتوهم فى حظائر رطبة تقبع تحت الأرض ، بعد أن يلقوا اليهم بكسرات من الخبز واناء من الماء . لقد

(1) Plutarchus : Tiberius Gracchus, 8.

أحس تيبريوس المثقف ، والمشبع بالأفكار الفلسفية التى تنادى بالعدل الاجتماعى بما يجيش فى نفوس هذه المخلوقات من حقد على الرومان وتطلع للثورة .

ولقد ساعد تيبريوس فى دخول مجال العمل السياسى تاريخ أسرته العريق ومكانته بين الجماهير الرومانية ، ولم يجد أى صعوبة فى الوصول الى منصب أحد نقباء العامة ليهاجم الأشراف والاقطاعيين وليتقدم بمشروعه الشهير عام ١٣٣ ق . م الخاص بالمطالبة بتطبيق قانون ليكينيوس وسكستيوس القديم والذى يحدد الملكية الزراعية للفرد الواحد ـ ٥٠٠ فدان رومانى بالاضافة الى مثل هذه المساحة تقسم بين ولدين من أبناء المالك . كذلك لفت تيبريوس الأنظار الى الاقطاعيات فى صقلية التى أقامها البعض من أراضى الدولة العامة ، واستولوا عليها بحق وضع اليد ، مع العلم بأن المفروض أن تؤجر هذه الأراضى الى الفقراء من الفلاحين أو الى ذوى الملكيات المحدودة ، ومن الطبيعى أن يهب رجال السناتو لمعارضة هذا المشروع مثلما عارضوه من قبل ، ولكن تيبريوس بأسلوبه الخطابى البالغ التأثير ألقى عددا من الخطب النارية مصورا الأسى الانسانى الذى شاهده أثناء عودته من أسبانيا مارا باقليم أترووريا ، مبينا كيف أن الرجال الذين خاضعوا المعارك من أجل روما هم الفلاحون الصغار الذين هجروا الريف بسبب قيام الاقطاعيات الجديدة . وتساءل فى هذه الخطب عمن يدافع عن روما أهم العبيد الذين لا يجوز تجنيدهم فى الجيش الرومانى خاصة وأنهم يضمرون الحقد والثورة ، أم الفلاحون الذين هجروا الريف الى المدينة ليعيشوا فى أحياء قذرة داخل العاصمة بلا عمل ويشكلون خطرا على الدولة ؟ ومن بين الخطب التى سجلها لنا بلوتارخوس قول تيبريوس فى احدى خطبه الشهيرة التى قدم للمشروع بها « أن للذئاب والدببة كهوفا وأماكن يأوون اليها وينامون فيها ، أما الرجال الذين يحملون السلاح ويعرضون حياتهم للخطر دفاعا عن الوطن ليس لديهم شيء سوى الهواء وأشعة الشمس ، وعليهم أن يتنقلوا من مكان لآخر بزوجاتهم وأطفالهم لأنهم لايجدون مكانا يريحون فيه رؤوسهم » ثم يقول تيبريوس «أن جنرالاتنا يحثون هؤلاء الرجال على الدوام للقتال من أجل الحما ومن أجل محراب

الأسرة ومدفنهـا بينما لا يملك معظم هؤلاء الرجـال الشـجعان لا حما ولا محاريب ولا مقابر لأسرهم .... أنكم تقاتلون وتموتون من أجل ثراء ورفاهية الآخرين ... أنهم يسمونكم بسادة العالم بينما أنتم فى الحقيقة لا تملكون حتى موضع قدم تدعون ملكيته » (١) .

لقد كان المشروع الذى قدم له تيبريوس بهذه الخطب الرنانة مشروعا قديما ولكنه مصاغ فى صورة أكثر اعتدالا من مشروع عام ٣٦٧ ق . م . كما اشترك فى صياغته عدد من أعضاء السناتو الذين كانوا يميلون الى الاصلاح الاجتماعى منهم آبيوس كلاوديوس صهر تيبريوس وزعيم السناتو، واثنان من فقهاء القانون الرومانى منهم ليكينيوس كراسوس (Licinius Crassus) وموكيوس سكايفولا (Mucius Sacevola) قنصـل عـام ١٣٣ ق . م وموجزه هو مطالبة الدولة بمصادرة الأراضى التى تزيد ملكيتها عن ٣٢٠ فدان مع التجاوز عن ملكية ١٦٠ فدان لولدين من أبناء المالك . كذلك تضـمن القرار تقدير المسـاحات المؤجرة وتعويض الملاك عن أى اصلاحات أو مبان قاموا بها فى الأراضى المزروعة . وبعد حصر المسـاحة المصادرة تقسم الى حصص صغيرة تتراوح ما بين ثمانية وتسـعة فدادين رومانية وتوزع على المعدمين مقابل ايجار رمزى يدفع الى الدولة . ونص المشروع على عدم قابلية التصرف فى هذه الحصص من الأراضى سواء بالبيع أو الرهن أو التنازل بعد توزيعها على الملاك الفقراء .

هكذا كان المشروع تقليـديا وكريما مع ملاك الاقطاعيات عن طريق الوسائل غير الشرعية ، مصاغا من أجل الصالح العام ولانقاذ الدولة من خطر البطالة ، ومن أجل اعادة تعمير الريف المهجور حتى يمكن تجنيد أبناء الفلاحين للخدمة فى جيش الدولة . وقد يأخذ بعض المؤرخين المعاصرين على تيبريوس بأنه لم يستشر السناتو قبل تقديم مشروعه الى الجمعية الشعبية . ولكن كيف يتأتى له ذلك وهو يعلم أن السناتو سوف يعترض عليه كمـا اعترض على غيره من قبل ؟ كما كان من حق نقيب العامة أن يقدم مشروعه

---

(1) Plutarchus, Tiberius Gratchus, 8, 4.

الى الجمعية الشعبية دون استشارة السناتو ونجد سابقة لذلك فى جايوس فلامينيوس (Gaius Flaminius) عندما قدم مشروعه عام ٢٣٢ ق ٠ م أثناء شغله منصب نقيب العامة عقب الحرب البونيقية الأولى الى الجمعية القبلية ودون استشارة السناتو مطالبا بمصادرة الأراضى العامة التى استولت عليها روما جنوب أريمينوم (Ariminum) قبل نصف قرن مضى وتقسيمها الى حصص صغيرة توزع على أبناء العامة الفقراء ٠ وكان نجاحه فى تنفيذ قراره رغم أنف السناتو سابقة شجعت المصلحين من بعده ومنهم تيبريوس جراكوس نفسه ٠

مؤامرات السناتو ضد المشروع :

كان مشروع تيبريوس يلقى بالطبع التأييد الكامل من الفلاحين المعدمين ومن صغار الملاك ومن رعاع العامة ، ففى يوم الاقتراع على المشروع أمام الجمعية الشعبية تدفق الفلاحون على العاصمة بأعداد غفيرة ٠ وبدأت الجلسة بخطبة تيبريوس التى سبق الاشارة اليها ، ثم طلب تيبريوس من أحد مساعديه قراءة المشروع على الحاضرين وفجأة قام نقيب آخر من العامة اسمه أكتافيوس Octavius يعترض على المشروع لأن من سلطة نقيب العامة وحده الاعتراض على مشروع مقدم من نقيب آخر للعامة ٠ وكان اكتافيوس النقيب عميلا للسناتو (١) اذ تعود السناتو أن يسيطر على الجمعية الشعبية عن طريق شراء ذمة أحد نقباء العامة لاستخدام حقه فى الاعتراض لعرقلة أى قرار قد يعرض على الجمعية ضد مصالح السناتو ٠ وتوقف عرض المشروع فى الحال ، ثم حاول تيبريوس أن يؤجل الاقتراع عليه الى الجلسة التالية أملا (٢) فى أن يقنع زميله أوكتافيوس بسحب اعتراضه ٠ وفى اليوم الثانى عندما أعيد المشروع كرر أوكتافيوس اعتراضه وساد الغضب بين الأعضاء وكاد مجلس الجمعية أن ينقلب الى مظاهرة معادية ضد أوكتافيوس ٠

---

(1) Appian, Bella Civilia, I, 7-27.

(٢) يرى ابيانوس ان الاجتماعات كانت تعقد على طوال ايام متوالية ولكن الاستاذ سكالارد يقترح أن العبارة الاصلية التى اعتمد عليها ابيانوس كان تعنى الجلسة التالية وليس اليوم التالى وذلك لاعطاء فرصة للنقيب المعارض للتفكير والدراسة .

Scullard, op. cit., p. 28, note 9 (p. 384)

ثم نصح بعض الأصدقاء تيبريوس بأن يعرض مشروعه على السناتو لعله يقنع الشيوخ بضرورة الموافقة على مشروعه ، وبالفعل قام بعرضه على السناتو الذى اعترض عليه بشدة موجها اللوم الشديد الى تيبريوس ، ولما ادرك تيبريوس عدم جدوى التفاهم مع السناتو قرر اللجوء الى وسيلة أخرى هى طرد زميله أوكتافيوس من عضوية نقيب العامة وبالتالى يبطل اعتراضه على المشروع •

عزل اوكتافيوس النقيب :

وفى الاجتماع الثانى للجمعية القبلية خير تيبريوس الحاضرين بينه وبين أوكتافيوس ، وجاء الاقتراع ضد أوكتافيوس بسبعة عشر صوت مقابل ثمانية عشر صوت ، وحاول تيبريوس أن يعطى أوكتافيوس فرصة أخيرة بتعطيل اعلان نتيجة الاقتراع ولكن الأخير ركب رأسه فاضطر تيبريوس الى اعلان نتيجة الاقتراع بطرد أوكتافيوس من المجلس وقام أعضاء الجمعية بازاحته بالقوة من الجمعية [١] •

وبعد طرد أوكتافيوس النقيب،أثار أعضاءالسناتو جدلا حول شرعيةهذا الاجراءوحول حدود وظيفة نقيب العامة،وقالوا أن الموقف قد تغير منذ ابتكار هذه الوظيفة من أجل حماية العامة لأن العامة أصبحوا يشكلون غالبية أعضاء السناتو ومن ثم فليسوا فى حاجة الى ترابنة لحماية مصالحهم ، وأن وظيفة النقيب الآن هى تمثيل اعتراض الدولة على القرارات الطائشة التى قد تتخذها الجمعيات الشعبية فى لحظة هياج عندما يثيرها ديماجوجى بخطبة عاطفية • ولكن بازاحة أوكتافيوس هدم تيبريوس مخطط السناتو وقلب الأوضاع رأسا على عقب وازاح القاعدة التى يرتكز عليها سيطرة السناتو على الجمعيات الشعبية ونقباء العامة • وبالتالى أصبح مؤكدا أن

---

(١) يقترح الاستاذ ايرل ان تحالفا بين آل بوبيليوس وآل كورنيليوس سكيبيو وآل أوكتافيوس تشكل فى مطلع عام ١٣٣ ق.م للوقوف وجه تيبريوس جراكوس واصدقائه وان هذا التحالف المعارض هو الذى رشح النقيب أوكتافيوس للوقوف فى وجه تيبريوس انظر :

D. C. Earl ,Latomus, 1960, p. 657.

السناتو لابد وأن يتخذ خطوة لاعلان خروج تيبريوس عن القواعد العرفية للدستور الرومانى عند نهاية مدة توليه لمنصب النقيب .

ومن ناحية أخرى أثار أنصار تيبريوس نقطة معارضة لرأى السناتو وهى أن سيطرة السناتو على المجالس الشعبية عن طريق شراء ذمة أحد النقباء أمر مخالف لقواعد الدستور الرومانى لأن ذلك يغير من الهدف الذى من أجله قامت وظيفة النقباء ، وانقاصا للحقوق التى اكتسبها العامة بعد كفاح طويل ، وأن هناك فرق بين الارستقراطيين من طبقة العامة الذين دخلوا السناتو وأصبحوا غالبية فيه وبين فقراء العامة ، وأنه اذا كانت الأرستقراطية من طبقة العامة لا تحتاج الى نقيب يحميها فان جماهير الرعاع والمعدمين لا زالت فى حاجة الى حماية النقباء ، وأنه ليس من حق النقيب الذى تنتخبه العامة ليدافع عنها ويمثل مصالحها أن يخون القضية ليصبح مخلب قط للسناتو ضد الجماهير التى وثقت فيه ، وأنه اذا استمر هذا الوضع فلا أمل فى الاصلاح التشريعى الذى تفرضه الظروف من أجل انقاذ الجمهورية من الصراع الدموى الطبقى ومن نضوب موارد التجنيد فى الريف .

على أى حال اعاد تيبريوس صياغة مشروعه الاشتراكى بعد رفض السناتو له بطريقة قاسية وحازمة ، اذ أنه أسقط من النص القديم الفقرة التى تنص على تعويض الاقطاعيين عن الأراضى التى سوف تنزع منهم ملكيتها والتى تمت الى أرض الدولة العامة (Ager Publicus) كما تضمن المشروع فقرة جديدة تنص على انشاء لجنة ثلاثية لفحص وتقسيم الأراضى (Viri agris iudicandis assignandis) وأختير أعضاؤها الثلاثة من تيبريوس نفسه ومن شقيقه الأصغر جايوس ومن صهره آبيوس كلاوديوس. مع منحها سلطة الامبريوم القضائى لاعادة فحص الملكية الزراعية كلها وتبيان ما هو ملكية وراثية خاصة وما هو مسلوب من أراضى الدولة العامة ثم مصادرة الأراضى المسلوبة والزائدة عن الحد وتوزيعها على المعدمين وصغار الملاك ومن أجل البت فى المنازعات التى قد تنشأ حول أحقية الدولة فى ملكية بعض الأراضى المزروعة والتى يملكها الاقطاعيون ، ولكن اللجنة

الثلاثية واجهت صعوبات لعدم وجود دعم مالى يساعدها فى القيام بمهمتها مثل دفع أجور المساحين ونفقات التحرك والانتقال ورواتب الموظفين المساعدين فضلا عما يحتاجه الملاك الجدد من مساعدات مالية للاستقرار فى الأرض الجديدة وبداية حياة الفلاحة ، ومدهم بالبذور والآلات والمواشى والانفاق عليهم حتى دخول المحصول من أراضيهم الجديدة ، وكان السناتو يعلم أن هذه اللجنة لن تنجح فى القيام بعملها بدون الدعم المالى الذى يسيطر عليه • ولهذا حاول السناتو تعطيل تنفيذ المشروع برفضه الموافقة على الاعتمادات المالية المطلوبة وتسويف الأمر حتى انتهاء العام وانتهاء مدة تولى تيبريوس للتربيونيه عسى أن يهجر المشروع وينسى ، ولكن خطة السناتو تعرضت لموقف حرج عندما دخلت الخزانة الرومانية أموال جديدة من مملكة برجامون •

ثروة الملك أتاللوس ملك برجامون :

كان الملك أتاللوس الثالث ملك مملكة برجامون الأسيوية قد أوصى بأن تؤول ثروته الطائلة للشعب الرومانى وكذلك مملكته ، نظرا لعدم وجود وريث يخلفه ، عندئذ طالب تيبريوس بتخصيص الاعتمادات المطلوبة للجنة من ثروة الملك أتاللوس الثالث • ولكن هذا المطلب أثار أعضاء السناتو وأظهر تيبريوس بمظهر الثائر والمتمرد وليس بمظهر المصلح (١) عن طريق التشريع ، وبدأوا فى تهديد تيبريوس بكل الوسائل بما فى ذلك حياته ذاتها • ومما زاد من غضب السناتو أن تيبريوس أعلن أنه سوف يرشح نفسه لمنصب التريبيون (النقيب) مرة أخرى عام ١٣٢ • ق ولم يكن هناك أى نص فى القانون الرومانى يمنع ذلك ولكن اعادة الترشيح كان أمرا جديدا على السياسة الرومانية ، ولا يوجد له سابقة وبالتالى راحوا يطلقون الشائعات المغرضة ضده بأنه يسعى لاعلان نفسه ملكا على البلاد وأنه يسعى لتأمين تاج وصولجان وازياء الملك أتاللوس الثالث لنفسه تمهيدا لذلك الغرض •

---

(١) يقترح الاستاذ سكالارد ان تيبريوس لابد وان يكون قد علم قبل السناتو بامر وصية اتاللوس نظرا للعلاقة القديمة بين اسرته واسرة ملوك اتاللوس بل يرجح ان رسول الملك الذى جاء بحمل الوصية ربما يكون قد نزل ببيت تيبريوس جراكوس الصديق

Scullard, op. cit., p. 94.

تيبريوس يرشح نفسه للمرة الثانية :

كان تيبريوس مضطرا لترشيح نفسه للمرة الثانية من أجل منصب النقيب لحماية مشروعه من الالغاء ولحماية نفسه من المحاكمة والموت أو الاعتداء ، والاجراء سليم قانونا كما ذكرنا لكنه غريب على الرومان (١) ، ولأن ارادة الجماهير فوق القانون فاذا أرادت الجماهير اعادة انتخابه لما وقف فى وجهها أى قانون ، ولكن الادارة الأوليجارخية الرجعية باتت تعمل على القضاء على الثائر تيبريوس بكل الوسائل خاصة أن تيبريوس لم يحظ بعد بتأييد الطبقة الوسطى من سكان المدينة .

كما أن مؤيديه من الفلاحين انشغلوا فى جنى المحصول ابان حملته الانتخابية الثانية ، ويقال أن تيبريوس فى خطبه وعد الناس باجراءات ثورية اذا ما نجح فى الانتخابات مثل تقصير مدة الخدمة العسكرية ، ونقل حق الاستئناف من الدولة الى الأفراد ، والسماح لرجال طبقة الفرسان بالانضمام الى محاكم الابتزاز التى أنشئت عام ١٤٩ ق.م بمقتضى قانون كالبورنيوس لمحاكمة حكام الولايات من رجال السناتو والذين يتهمون بابتزاز سكان الولايات والتى كانت تتكون عادة من أعضاء السناتو وحدهم ، كما تضمنت دعوته تعويض الحلفاء الايطاليين عن الخسائر التى قد تلحق بهم عند تطبيق قانون الاصلاح الزراعى . وبالرغم من أن هذه المطالب تأخذ الشكل الغوغائى فى العرض الا أن تنفيذها كان ضرورة حيوية من أجل الابقاء على الجمهورية (٢) .

وبالرغم من فتور الحماس الشعبى لتأييد تيبريوس فى المرة الثانية الا أن النتائج المبكرة كانت فى صالحه . ولما شعر السناتو بذلك أوقف عملية التصويت بحجة ظهور « فال شيىء » وعندما أبلغ هذا القرار للمجلس القبلى المنعقد عن طريق فوليفوس فلاكوس Fulvius Flacchus زاد الموقف اشتعالا ، وزادت الأمور صعوبة عندما علم المجتمعون بأن مجلس السناتو

---

(١) عن قضية اعادة ترشيح النقباء لانفسهم انظر :

A. H. M. Jones, Proceedings of Cambridge Philological Society, 1960, p. 35 ff.

(2) cf Plutarchus, Tiberius Gracchus. 16.

يعقد جلسة طارئة فى معبد ربه العقيدة Fides لبحث اتهام تيبريوس (١) بالتطلع الى الحكم الملكى وتطبيق قانون قديم ينص على اعدامه بصفته طاغية •

وعندما طلب السناتو من القنصل سكايفولا اعدام تيبريوس رفض أن يشترك فى هذه الجريمة البشعة لأنه مثل تيبريوس كان ينتمى بالمصاهرة الى أسرة آل كلاوديوس لأنه كان رواقيا يؤمن بالاصلاح ، عندئذ تطوع فريق من رجال السناتو المتطرفين لتنفيذ الجريمة وجمعوا اتباعهم (Clientes) وعبيدهم (Servi) وكان يتزعمهم القنصل ناسيكا (Nasica) واندفعوا الى الفورم الرومانى وحاصروا المجتمعين ، وهرب نقباء العامة الآخرين خوفا على حياتهم ، ودارت معركة حامية الوطيس سقط فيها تيبريوس وثلاثمائة من أتباعه قتلى (٢) ثم ألقى بأجسادهم فى نهر التيبر الذى احمرت مياهه من الدماء • وفى الوقت الذى كانت تطفو فيه جثث القتلى فى التيبر كان بوبليوس لايناس قنصل عام ١٣٢ يقيم محكمة طارئة لمحاكمة اتباع جراكوس حيث صدر الحكم بالاعدام على عدد كبير منهم ، ونفى الباقون وصودرت أملاكهم ، أما القنصل القاتل سكيبيو ناسيكا (Scipio Naisca) فقد عينه السناتو كاهنا أعظم وأرسل فى مهمة رسمية الى برجامون حيث بقى فيها شبه منفى حفاظا على حياته من غضب العامة الى أن مات فى نهاية عام ١٣٢ ق • م •

استمرار اللجنة الثلاثية فى أداء عملها :

بالرغم من موت تيبريوس جراكوس الا أن السناتو لم يجرؤ على الغاء اللجنة الثلاثية الخاصة بفحص ونزع الأراضى تطبيقا لمشروع تيبريوس جراكوس والذى كان يعرف أحيانا بقانون سمبرونيوس (Lex Sempronia)

---

(١) يرى بورن أن تخوف بعض معارضى تيبريوس كان ينبع من تخوفهم من ان يتبع وسائل ثورية اشتراكية ضد الأغنياء كما فعل الملك الاسبرطى الثائر كليومينيس Cleomenes
H.C. Boren, A.J.P., 1961, p. 858.

(٢) عن المكان الذى سقط فيه تيبريوس قتيلا انظر :
D.C. Earl, Latomus, 1960, p. 657.

بل على العكس ساعدة على العمل حتى يمتص غضب الجماهير وينسيهم الجريمة البشعة ، فمثلا نجد بوبليوس لايناس القنصل الذى عقد محاكمات ظالمة عام ١٣٢ لمحاكمة أنصــار تيبريوس جراكوس يتفاخر بأنه يســاعد اللجنة الثلاثية فى أداء عملها بالرغم من موقفــه العدائى ضــد الأخوين جراكوس • وبعد مقتل تيبريوس ضمت اللجنة اليها عضوين من أنصار الزعيم القتيل هما ماركوس فولفيوس فلاكوس (Marcus Fulvius Flaccus) وجايوس بابيريوس كاربو (Gaius Papirius Carbo) ، وعملت اللجنــة بنشاط محموم لدرجة أنها نجحت فى تسكين ٧٥٫٠٠٠ معدم فى الأراضى المنزوعة وبذلك ازدت طاقة التجنيد ما يقرب من ٢٠٪ عما كانت عليه من قبل وذلك خــلال ست ســنوات فقط من عملها • وبذلك حقق مشروع تيبريوس جراكوس هدفه الأساسى وهو زيادة الطاقة العسكرية لروما بالرغم من تعقيد عملها بسبب التصرف فى الأراضى المستولى عليها وبسبب ضياع وثائق الملكية فى حالات كثيرة،مما جعل أحكام اللجنة لا تسلم من الأخطاء• وفى عام ١٢٩ ق • م نجد فولفيوس فلاكوس يترأس اللجنة الثلاثية ويثير قضية كبرى وهى أحقية الحلفاء الايطاليين فى الاستفادة من قانون الاصلاح الزراعى فى المناطق التابعة لهم ، وتوجه الحلفاء الايطاليون الى ســكيبيو ايمليانوس قاهر قرطاجه ، والذى كانوا يعرفونه جيدا ، لأنهم حاربوا تحت قيادته ، وطالبوه بعرض وجهة نظرهم أمام السناتو ، فوافــق على ذلك ونجح فى نقل السلطة القضائية للبت فى المشاكل بالنسبة للحلفاء الايطاليين من اللجنة الثلاثية الى القنصلين (١) مما عطــل مهمة اللجنة بسبب تغيب

---

(1) Appian, Bellum Civile, I, 19, 2.

فى ذلك يتبع الأستاذ سكالارد الرأى الذى رآه لاست ومارش :

(H, Last, C.A.H. IX, p. 42).

F B. March, History of the Roman world (146 - 31 BC, 2nd edition p. 408.

وهو أن سكيبيو حذر اللجنة من البت فى المشاكل القــانونية بنزع أراضى من الحلفاء الايطاليين بل واحالة هذا الموضوع الى القنصل توديتانوس قنصل عام ١٢٩ ق.م الذى كان موجودا فى الليريكوم لكى يبت فيه لكن عمل اللجنة لم يتعطل انظر :

H. Scullard, op. cit., p. 32 note 17 (p. 386).

القنصلين معظم الوقت خارج البلاد • وعندما تدخل سكيبيو عام ١٢٩ فى القضية قام نزاع كبير بينه وبين أنصار تيبريوس جراكوس ، خاصة أنه كان مكروها لموقفه العدائى عندما تحدث فى المجلس ضد كاربو الذى كان يدافع عن أحقية تيبريوس فى ترشيح نفسه للمرة الثانية ، وتسبب فى احباط مشروعه الخاص بأحقية اعادة الترشيح لمنصب نقيب العامة لأى فرد يريد، ويروى أن حوارا احتد بين كاربو وسكيبيو بخصوص جريمة قتل تيبريوس أيد فيه سكيبيو عملية الاغتيال وأوجد لها مبررا ، وعندما قابلت الجماهير تبريره بالهياج اجابها بأنه لم ترهبه صرخات العدو المسلح فكيف ترهبه صيحات الرعاع الجوفاء ؟ ؟ • وفى شهر مايو عام ١٢٩ ق • م أعلن سكيبيو أنه سوف يلقى بيانا حول حق اللاتين والحلفاء الايطاليين فى الاستفادة من قانون الاصلاح الزراعى فى الأراضى الواقعة فى حيازتهم أو يتناول حقهم فى الحصول على الجنسية الرومانية الكاملة • وذهب سكيبيو ليعد خطبته فى بيته ، ولدهشة الجميع وجد فى صباح اليوم الثانى ميتا فى داره • ولا يعرف السبب فى موته عما اذا كان لذلك نتيجة لأسباب طبيعية أو بفعل فاعل سواء كان ذلك زوجته سمبرونيا شقيقة تيبريوس وجايوس جراكوس التى كانت تريد الانتقام لمقتل أخيها أو بفعل أحد أنصار تيبريوس جراكوس (١) •

ثورة الحلفاء الايطاليين وتدمير مدينة فريجللاى :

برزت قضية أحقية الحلفاء الايطاليين فى الحصول على الجنسية الرومانية الكاملة عام ١٢٥ ق • م عندما تبنى فولفيوس فلاكوس أحد أقطاب الحزب الجراكى ورئيس اللجنة الثلاثية وقنصل ذلك العام — قضية الحلفاء الايطاليين بهدف اصلاح الموقف بين الحزب الجراكى والايطاليين ، فتقدم بصفته قنصل عام ١٢٥ ق • م بمشروع ينص على منح الجنسية الرومانية الى الحلفاء الايطاليين أو منح حق الاستئناف أمام المحاكم الرومانية لمن

---

(١) عن قضية موت سكيبيو المفاجئة والاتهامات والشائعات انظر :
cf J. Carcopino, op. cit, Chapter III.
لكن الراى الغالب ان الموت كان طبيعيا انظر :
E. Badian, J.R.S., 1956, p. 226.

لايريد التجنس بالجنسية الرومانية منهم ، وقد قوبل هذا المشروع بالترحاب الشديد من قبل اللاتين والايطاليين ، وزاد من شعبية الحزب الجراكى ، بينما عارضه بشدة كل من النبلاء والسناتو من جهة ، والطبقة الوسطى والعامة من الرومان من جهة أخرى ، لأن هذا الادماج سوف يهدد قواعد الحكم الأوليجارخى الارستقراطى من ناحيــة ، ويساوى بـين الرومان والايطاليين من ناحية أخرى ، ولهذا عارضه العامة بشدة وفشل المشروع ثم نجح السناتو فى ابعاد فلاكوس بارساله فى مهمة عسـكرية فى جنوب بلاد الغال من أجل الحصول على المزيد من الأراضى الزراعية لاسـكان الفقراء والمعدمين • وقد أدى ذلك الى انتشار السـخط بين الايطاليين المقيمين فى روما فلجأوا الى أعمال الشغب والفوضى ، عندئذ أصدر السناتو لوائح انتخابات عام ١٢٤ ق • م وبناء على مشروع من نقيب العامة تقرر طرد الايطاليين من روما وترحيلهم الى المناطق التى جاءوا منها ، وحرمان اللاتين من حق التصويت ابان انتخابات ذلك العام • وقد أحـدث قرار رفض منح الجنسية الرومانية وقرار الطـرد من المدينـة والحرمان من التصويت صدمة كبرى بين الحلفاء الايطاليين وتحفزوا للثورة ضد روما ، وكانت مدينة فريجيلاى الفولوسكية من أشد المدن ثورة على الرومان بعد علمها بقرار السناتو ، ومنها انتشرت الثورة فى باقى المدن اللاتينيـة والايطالية وأصبح موقف روما صعبا ، وسارع الجيش الرومانى بمحاصرة المدينة الثائرة فريجيلاى (Fregellae) حتى دخلها بطريق الخيانة ثم أزالها من الوجود(١)وسوى بأسوارها الأرض كنذير عاقبة لكل الحلفاء الايطاليين أو اللاتين الذين يفكرون فى الثورة على روما ، وفى نفس الوقت ساد بين الرومان عداء شـديد ازاء الايطاليين والحزب الجراكى الذى اتهم بأنه المحرك وراء الثورة ، حتى جايوس جراكوس الشقيق الأصغر لتيبريوس جراكوس والذى كان لتوه قد وصل الى روما عائدا من سردينيا لم ينج من الاتهام واضطر الى الدفاع عن نفسه من أجل اثبات براءته من هذه التهمة •

---

(١) ويعلل سالمون هذه القسوة بحقد الرومان الدفين على السمنيين
انظر : E.T. Salmon, Phoenix. 1962, p. 110.

جايوس جراكوس والسناتو ١٢٤ - ١٢١ ق.م :

عاد جايوس جراكوس فجأة عام ١٢٤ ق . م من المهمة التى كان السناتو قد بعث به فيها الى سردينيا لمدة خمس سنوات وذلك فى عام ١٢٦ ق . م متمنيا الا يعود حيا منها بسبب رداءة الجو فى هذه الجزيرة وانتشار الاوبئة فيها ، ولكن عزلة الجزيرة ساعدت جايوس على التفكير العميق والتخطيط الدقيق من أجل اكمال رسالة أخيه الراحل . وبالرغم من عداء السناتو وتوجسه خيفة منه فقد رشح جايوس نفسه لمنصب التريبون عام ١٢٤ وتجمع حوله أنصار أخيه وتدفق على العاصمة الايطالية الفلاحون لتأييده مثلما فعلوا مع أخيه منذ عشر سنوات ونجحوا فى انجاحه لشغل منصب نقيب العامة فى العاشر من شهر ديسمبر عام ١٢٤ ق . م أى بعد عشر سنوات بالضبط من التاريخ الذى انتخب فيه أخوه الراحل لنفس المنصب .

كان جايوس خطيبا مفوها ومؤثرا ، وسياسيا محنكا ، اذ كان ذا طاقة حية بشكل يفوق أخاه الراحل ، بل كان أكثر اخلاصا للمشروع الاشتراكى ولسياسة الاصلاح الزراعى وفى صورة أعمق وفى حدود أبعد من تصور أخيه مما جعله يصطدم مع السناتو فى صراع قانونى شرس بالرغم من محاولاته لتفادى ذلك الصدام ، وتجمع حوله أنصار الحزب الجراكى الذين اعتبروا أخاه أول شهيد سقط فى سبيل العدالة الاجتماعية ، كما تجمع حوله الفقراء والمعدمون ، وأصبحت شعبيته كاسحة لدرجة أن أعيد انتخابه تريبونا للمرة الثانية فى صيف عام ١٢٣ ق . م ولم يجسر السناتو على الاعتراض ، وخلال الفترة التى شغل جايوس فيها منصب النقيب من عام ١٢٣ الى عام ١٢٢ نجح فى استصدار عدد كبير من القرارات والقوانين الاصلاحية بغرض حل المشاكل التى كان يعانيها المجتمع الرومانى ، ونجح جايوس فى تحويل منصب النقيب من كونه وسيلة لألاعيب السناتو ومخططاته ، الى جهاز سلطوى مستقل له كيانه ، وهو تطور كبير فى تاريخ ذلك المنصب الذى أصبحت سلطاته تفوق فى قوتها حتى سلطات القناصل ، كما حول مقره الى خلية حية تعج بالنشاط والحركة ، فكان يستقبل الناس من كل الطبقات ومن كل أنحاء ايطاليا سواء الذين يأتون لطلب العمل

أو من أجل التعاقد مع الدولة لتنفيذ مشروعات عمرانية وآخرون يأتون لطلب المشورة أو تلقى الأوامر أو لطلب وساطة النقيب فى المنازعات الاقليمية أو الخاصة • لقد كان جايوس يسيطر على قلوب الناس ببلاغته المؤثرة وبأسلوبه (١) المبسط السلس الى جانب ذكائه ومعرفته ما يجب عمله ، ولهذا فقد كان جايوس أول ديماجوجى مفوه ومصلح ذكى فى نفس الوقت ، ففى خلال العامين الذين قضاهما فى منصبه نجح فى تنفيذ عدد كبير من الاصلاحات والقرارات الهامة التى الحقت أكبر الأذى بالحزب الارستقراطى وزعزعت من قبضة السناتو على البلاد وبلغت ما يقرب من سبعة عشر قانونا يمكن تقسيمها الى قرارات قضائية واقتصادية واجتماعية وقوانين خاصة بادارة ولايات الجمهورية •

اصلاحات جايوس جراكوس :

ما ان أمن جايوس لنفسه منصب النقيب حتى بدأ بأثارة مأساة أخيه وعبأ شعور العامة ضد القتلة الذين تعدوا على الحرمة المقدسة لشخص نقيب العامة (Sacrosanctitas) ، وضد المحكمة الطارئة التى شكلت برئاسة بوبيليوس لايناس لمحاكمة أنصار الحزب الاشتراكى وأصدرت حكمها على عدد كبير منهم بالموت دون أن تعطيهم حق الاستئناف أمام الشعب الرومانى • وبعد أن عبأ شعور الجمعية القبلية قدم مشروعا بأثر رجعى يحرم على السناتو أو القناصل تشكيل محاكم طارئة لمحاكمة السياسيين الا بعد منحهم حق الاستئناف أمام الشعب ويعاقب من خالف ذلك وبالتالى (٢) طبق هذا القرار على بوبيليوس لايناس وصدر الحكم بنفيه من البلاد •

وما أن انتقم جايوس لمقتل أخيه حتى بدأ فى تنظيم تحالف من رجال الطبقة الوسطى ورعاع العامة فى المدينة وصغار الفلاحين فى الريف لتكوين

---

(١) عن بقايا بعض خطبه انظر :

M. Malcovati, Oratorum Romanorum Fragmenta, 2nd edition 1955.

(2) Ne quis iudico Circumveniatur cf. N. J. Miners, Classical Quarterly 1958, p. 241 ff.

ميليشيا شعبية تكون بديلا له عن الجيوش العسكرية والتى كان يسيطر عليها جنرالات رجال السناتو ، ومن أجل ارغام السناتو على عدم التعرض أو التآمر على مشروعاته الاصلاحية ، التى تهدف فى المقـام الأول الى خلق جهـاز ادارى حازم وذكى لمواجهة المشـاكل الاقتصـادية والاجتماعية والنفسية المتخلفة عن الحروب الكثيرة التى خاضتها روما وأهمها انتشار البطالة فى المدينة ، وتكدس الغوغاء فى العاصمة وسكناهم فى أحياء وأكواخ قذرة ، وعدم ثبات أسعار القمح ، ونضب مصادر التجنيد فى الريف ، وتدهور مستوى الجيش الرومانى ، واندلاع الثورات خاصة بين العبيد ، وانتشار التذمر بين الحلفاء ، وفساد الادارة فى الولايات • وادرك جايوس أنه لا يمكن انقاذ الجمهورية من هذه المشاكل الملحة الا بكسر احتـكار السيطرة الادارية التى يفرضها السناتو ، تلك الهيئة الاوليجارخيه المتطرفة والمحدودة الأفق والرافضة لأى اصلاح أو تجديد •

مشروعات تعمير الريف :

لقى الريف اهتماما كبيرا من جانب جايوس من أجل كسب تأييد الفلاحين ودعما لجبهته الجديدة • اذ نجح جايوس باعادة سلطة الأمبريوم القضائى للفصل فى المنازعات الى اللجنة الثلاثية للاصـلاح الزراعى والتى كان سكيبيو ايميليانوس قد حرض السناتو على سحبها من اللجنة واعادتها الى القنصلين مما عطل عمل اللجنة طويلا بسبب انشغال القنصـلين فى الشئون الخارجية ومن ثم نجح فى حل الكثير من المشاكل الزراعية • كذلك وضع جايوس برنامجا لبناء شبكة من الطرق الفرعية تربط بين العاصمة روما وبين الريف وبين القرى والأسواق لتشجيع التجارة من ناحية وتسهيل مشاركة الفلاحين فى الاجتماعات السياسية التى تعقد فى روما ، وبذلك سهل مشاركة الشعب فى الحكم بشكل لم يسبق له مثيل ، فضلا عن أن هذه المشروعات أوجدت عملا للعاطلين وقضت على أزمة البطالة وخففت من تكاليف انتاج المحاصيل الزراعية • وقد أشرف جايوس بنفسه على مشروع شبكة الطرق ، حتى انتهى منه فى فترة وجيزة ، مما زاد من شكوك السناتو فى نوايا جايوس •

مشروع القمح المسعر لارضاء رعاع العاصمة :

ولكى يدعم من شعبيته بين غوغاء العاصمة وفقرائها ، نجح جايوس فى استصدار قرار من الجمعية القبلية يعرف بقانون القمح (Lex Frumentaria) وهو أعظم ما خلده جايوس من قوانين . وهذا القانون فرض على الدولة أن تستورد كميات كبيرة من القمح من مناطق انتاجه سواء داخل ايطاليا أو خارجها وعرض هذه الكميات للبيع بحيث يخصص لفقراء العاصمة حصة شهرية منه مقابل ثمن معقول ، وذلك من أجل حماية الفقير من ارتفاع الأسعار ومن خطر المجاعات ، ولعل مثل هذا المشروع جاء من الهام وتأثير الأفكار الفلسفية مثل الرواقية وغيرها ممن كانت تنادى بحق الفرد على الدولة ووجوب رعاية المعوزين والمحتاجين تطبيقا للعدالة والاشتراكية ، ويرى آخرون أن هذا المشروع وضع من أجل تحرير ارادة الأتباع الفقراء (Clientes) من سادتهم الأغنياء والذين كانوا يتحكمون فى أصواتهم الانتخابية مقابل اطعامهم ومدهم بالخبز . وكانت سيطرة الارستقراطيين على القمح تحقق لهم السيطرة على أصوات الفقراء وفى ذلك يكمن سر قوة وسيطرة الجهاز الأوليجارخى السيناتورى ، لأن الاقطاعيين من أعضاء السناتو كانوا يتحكمون فى أسعار القمح داخليا ويرغمون الناس على انتخابهم مقابل تخفيض سعره ، وبالفعل حقق هذا المشروع استقلال الأتباع عن سادتهم الأرستقراطيين وجعلهم أقل اعتمادا عليهم وبالتالى جعل التصويت السرى أكثر فاعلية وجدية . ولقد كسب جايوس شعبية كبيرة بسبب هذا المشروع ، لأنه كان أول رومانى نادى بحق المواطنين المعدمين فى التمتع بخيرات الولايات الأجنبية التابعة لروما ، لأن معظم القمح كان يجىء من ولايات تابعة لروما على شكل جزية مقدمة لها ولا يكلف روما سوى نفقات النقل البحرى أو البرى ونفقات التشوين . ومن أجل تأمين هذا المشروع كان على الدولة أن تنشىء عددا كبيرا من صوامع التخزين والتشوين مما أعطى فرصة لتشغيل أعداد كبيرة من العاطلين ، وقد نجح جايوس فى استخدام أموال الملك أتاللوس الثالث والتى أوصى بها للشعب الرومانى ، وذلك للانفاق على هذه المشروعات .

ويبدو أن الحزب الأرستقراطى والسناتو لم يعارضا مشروع القمح المسعر لأنهما كانا يران فيه وسيله لا سكات الفقراء والهائهم عن فكرة الثورة الاجتماعيـــة •

وهناك عدد من المؤرخين ينتقدون بشـــدة مشروع القمح لأنه تسبب فى خلق طبقة عاطلة متسكعة أصبحت تتعيش على هذا المصدر ولا تسعى للعمل مما زاد من عدد غوغاء المدينة ، كما هاجر كثيرون ممن وجـدوا أن القمح المسعر أجود نوعا وأرخص ثمنا من القمح الذى ينتجونه فى حقولهم، وألزم الدولة باعالة هذه الغوغاء (Vulgus) والتى أصبحت تهدد الأمن والنظام فى العاصمة ، بل أصبحت عنصرا خطيرا قد ينـدلع منها أعمال الشغب السياسى أبان الانتخابات وتطالب بالخبز والتسلية (panis et circumcenses) مقابل الاستكانة ، ويدافع آخرون عن هذا المشروع بقولهم أن جايوس لم يقصد سوى تثبيت الأسعار بالنسبة للمستهلك ، وأن روما لم تكن تدفع شيئا مقابل قمح الولايات وأن سعر القمح الجديد لم يكن رخيصا جدا بل يزيد عن الأسعار التى يباع بها فى مصر وصقلية وأسبانيا وشمال ايطاليا •

ومهما يكن من أمر فقـد كان لهـذا القرار أكبر الأثر على مجريات السياسة فى روما ، لأن طبيعة ايطاليا ومناخها لا يساعدان على جعلها بلدا منتجا للقمح الرخيص التكاليف وبكمية تكفى لسد حاجة السـكان لأن أراضى ايطاليا الوسطى تقف على ارتفاع ألف قدم فوق سطح البحر مما يعيق زراعته ، كما أن مشكلة نقله من الريف الايطالى الى روما كانت صعبة ومكلفة مما يزيد فى الأسعار وذلك بسبب وعورة الطرق والتضاريس، أما النقل البحرى للقمح من الولايات البعيدة فكان أرخص وأيسر وبالتالى أقل تكلفة من القمح الايطالى ولهذا كان محتما آجلا أو عاجلا على روما أن تعتمد على قمح الولايات الأجنبية سواء فى صقلية أو أسبانيا أو مصر أو شمال أفريقيا • وبدأت روما منذ صدور ذلك القرار فى الاشراف على عمليات القمح والنقل والشحن والتخزين والتوزيع مما أعطى الدولة لأول مرة فرصة فى وضع قطاع من العمل بين يديها وادارته بنفسها دون اللجوء الى الوسطاء الاستغلاليين •

ارضاء جامعي الضرائب من رجال طبقة الفرسان :

ولكن يكسب تأييد ودعم رجال الفرسان الأثرياء ولكى يوقع بينهم وبين أعدائهم التقليديين وهم أعضاء السناتو ، استصدار جايوس قرارين فى غاية من الأهمية ويعكسان ميكيا ڤللية السياسة الرومانية ، لقد كان الفرسان يحقدون على سيطرة السناتو على ادارة شئون الولايات المالية والادارية خاصة فى الولايات الغنية مثل آسيا الصغرى • وكان السناتو يتبع نظاما خاصا فى جمع الضرائب وهو تكليف حاكم الولاية بجمع الحصة المحددة من الضرائب فى كل مدينة أو منطقة ثم يقوم حاكم الولاية ـ الذى كان عادة من رجال طبقة السناتو ـ بدوره بارسال المال الى خزانة الدولة فى روما • مما كان يحرم الفرسان فرصة الابتزاز والاستغلال ، ولارضائهم استصدر جايوس مشروعا جديدا خاصا بجمع الخراج من الولايات وهو أن تقوم الدولة بعمل مزاد كل خمسة سنوات لتأجير عملية جمع الضرائب فى مناطق ولاية آسيا ـ تحت اشراف الرقباء (Censores) مقابل مبالغ باهظة لا يقدر عليها الفرد بل يقدر عليها شركات المال والتجارة (Publicani) التى كانت فى يد الفرسان وبذلك ضمن جايوس للدولة دخلا ثابتا مباشرا ومضمونا وقضى على الاحتكار الفردى الذين كان يقوم به جامع الضرائب نيابة عن حكام الولايات الذين كان معظمهم يسعون وراء الأثراء بأقصر الطرق •

ومن ثم حرم رجال السناتو من فرصة استغلال ونهب الولايات التى يحكمونها وزاد من قوة ونفوذ رجال طبقة الفرسان الذين أصبحوا أكثر ثقة فى أنفسهم • ولكن جايوس لارضاء الفرسان قدم رعايا الولايات ضحية لجشع شركات جمع المال فراحت تستغل الرغايا لأقصى درجة ممكنة لتزيد من أموالها • ولكن البعض يدافعون عن هذا المشروع بأنه كان فى صالح دافعى الضرائب فى الولايات لأن اعادة تقدير الخراج كل خمس سنوات يعطى فرصة لوضع حالة المحصول وتقدير الأسعار فى الاعتبار بدلا من تقرير نسبة ثابتة لا دخل لها بالكوارث أو سوء المحصول أو ارتفاع الأسعار والتكاليف ، ويقولون أنه كان أيضا فى صالح جامعى الضرائب لأن المشروع تضمن فقرة تحمى شركات المال من خسائر الحرب أو كوارث الطبيعة

ويلزم الدولة فى هذه الحالة بتخفيف مستحقاتها المالية ، وفتح المجال أمام كبار الأثرياء لأن القانون اشترط على من يريد دخول مزادات الضرائب أن يكون لديه ثروة لا تقل عن ٤٠٠ر٠٠٠ سستركيس رومانى .

أما القرار الثانى الذى قصد به ضرب الفرسان برجال السناتو فقد كان قانون اكيليوس (Lex Acilia) الذى استصدره جايوس عام ١٢٣ق.م والذى يختص باعادة تنظيم محاكم الابتزاز المالى ضد حكام الولايات الذين يثبت ادانتهم وقد أبعد هذا القرار من هيئة المحكمة — والتى كانت تتكون عادة من خمسين عضوا من كبار الموظفين من رجال السناتو — أبعد أعضاء السناتو وأقرباء المتهمين من كبار الموظفين من التواجد ضمن المحلفين فى المحكمة ، منعا لتعاطف رجال السناتو مع بعضهم البعض ، خاصة أن أعضاء هذه المحكمة كانوا عادة من رجال السناتو الذين تولوا مناصب حكام الولايات أو على وشك أن يتولوا هذا المنصب أملا فى جمع الثروات فكيف كان يتأتى لهم محاكمة رفاقهم وهم مثلهم — مستغلون جشعون ؟ ومن ثم فقد كانوا يبرئون زملاءهم فى معظم الأحيان . ولكن بمقتضى مشروع اكيليوس أصبح الفرسان يشتركون فى محاكمة حكام الولايات السابقين من أعضاء السناتو ويكشفون ألاعيبهم وفضائحهم المالية والتى كانوا على معرفة دقيقة بها بحكم عملهم فى مجال المال والادارة ، وكان رجال طبقة الفرسان يتطلعون الى عضوية هذه المحكمة منذ أمد بعيد ، وأخيرا أعطاهم جايوس هذه الفرصة مما ساعد على توسع وتعميق العداء بين الطبقتين المتنافستين وألقى بالسيف بينهما ، ويعاب على هذا القانون أنه كان سيفا مسلطا فوق رقاب حكام الولايات وليس فوق جامعى الضرائب من رجال الفرسان ، والذين كان عملهم الأول الكسب ، وبالتالى كانوا أكثر جشعا ونهما من أعضاء السناتو ، كذلك فقد أعطى ذلك القانون فرصة للفرسان لشهر سلاح قاتل فى وجه الشرفاء من حكام الولايات اذا ما وقفوا فى طريق الفرسان ومنعوهم من نهب السكان ، وكان يتوجب على جايوس جراكوس أن يدرك أخطاء هذا القانون ولكن هدفه الأول

لم يكن حماية سكان الولايات من الابتزاز بل تفويض سلطة السناتو عن طريق الوقيعة بينهم وبين رجال الفرسان •

الاصلاح العسكرى :

ومن القوانين الاصلاحية التى استصدرها جايوس جراكوس القانون العسكرى (Lex militaris) والذى فرض على الدولة تحمل نفقات كساء واعداد الجيوش دون خصم ذلك من رواتبهم ، كما شمل هذا القانون نصا حرم تجنيد الصبيان دون السابعة عشر وقصر مدة التجنيد وكان المقصود بذلك القانون كسب رضاء الجيش ورفع معنويات الجنود ، دعما لشعبية الحزب الجراكى •

مشروع جايوس بخصوص المسالة الايطالية : (Lex de Sociis)

وازاء الحاح اللاتين والايطاليين فى المطالبة بالجنسية الرومانية الكاملة كنوع من الحصانة ضد تعنت واستغلال الموظفين الرومان قدم جايوس جراكوس أثناء توليه منصب نقيب العامة للمرة الثانية — مشروعا غاية فى الجروءة والشجاعة وهذا القانون يقضى بمنح الجنسية الرومانية الكاملة للحلفاء اللاتين ومنح الحلفاء الايطاليين حقوق اللاتين المميزة (Latinitas) (الذى يعرف بالحقوق اللاتينية) وتدفق على العاصمة الايطاليون واللاتين لتأييد هذا المشروع ولكن السناتو والطبقة الوسطى من الشعب الرومانى عارضت[1] بشدة هذا المشروع لأنه ليس فى مصلحة لا الأغنياء ولا الفقراء من الرومان التساوى مع الايطاليين واللاتين ، وتحمل اضافة مواطنين جدد يزيدون من عبىء المسئولية الملقاة على عاتق الدولة فضلا عن صفة الأنانية الشديدة التى كان يتميز بها الرومانى والاحساس بالتسامى على غيره من أبناء ايطاليا • ومن ثم بدا تحريض السناتو وزعماء العامة من

---

(1) E. adian : Foreigen Clientelale, p. 185. ff, p. 299 ff.
ويرى باديان ان الذى صوت ضده هو دروسوس وذلك ما بين ديسمبر عام ١٢٣ او يناير عام ١٢٢ ق.م. واضطر جايوس الى مغادرة روما الى افريقيا للاشراف على مشروع المستوطنات الزراعية هناك وبذلك ترك المجال لعدوه دروسوس ليضع مخططه بالوقيعة بين الرومان والايطاليين من ناحية، وبين اللاتين والايطاليين من ناحية أخرى ، مما اضعف المشروع الاصلى الذى قدمه حايوس وقضى عليه تماما .

أجـل افشـال المشروع ، وبالفعل كان ذلك هو المشروع الوحيـد الذى فشل فيه جايوس • ولو قدر لهـذا القانون أن يصـدر لوفر ذلك على الجمهورية الكثير من الدماء وأنقذ الجمهورية من الترنح والسقوط •

تخفيف العبء المالى وانشاء المستوطنات الزراعية :

ولتخفيف العبء المالى عن كاهل الناس استصـدر جايوس قرارا فى عام ١٢٢ ق • م يقضى بتقليل وزن الدينار الرومانى • ومعنى ذلك أن المواطن الرومانى أصبح يدفع ضرائب أقل بعد تخفيض قيمة الدينـار ، كما أصبح حلفاء روما من الايطاليين يدفعون ضرائب أقل أيضا وتم ذلك دون الحاجة الى استصدار قانون بتخفيض الضرائب •

أما قوانينه الخاصة بانشاء مستوطنات تجارية وزراعية فى ايطاليا وفى أفريقيا فقد كان الهدف منها تخفيف العبء عن تضخم السكان وامتصاص الزيادة السكانية فضلا عن توفير فرص اقتصـادية للفـلاحين والتجار والحرفيين واختـيرت الأماكن الجـديد فى كابوا (Capua) وتارنتوم (Tarentum) وقرطاجة •

وكان أكثر المشروعات طموحا القرار الخاص بانشاء مستوطنة كبرى تدعى يونونيا (iunonia) بالقرب من أطلال قرطاجة لاسـتيعاب ٦٠٠٠ رومانى وايطالى • وبمقتضى قانون روبريوس (lex Rubria) [1] شكلت لجنة لتنفيذ هذا المشروع برئاسة جايوس وسلح بسلطة الأمبريوم وسافر بنفسه الى أفريقيا بالرغم من دعاية السناتو ضده وتخويف الناس من لعنة قرطاجة التى قد تحيق بالمستوطنة الجديدة •

---

(١) يتفق كل من ليفى وبلوتارخوس وابيانوس على أن روبربوس كان قنصلا عام ١٢٢ ق.م ويؤيد ذلك لاست •
بينما يرى باديان انه كان قنصلا عام ١٢٣ ق.م انظر :

E. Badian, Foreign Clientelae 264-70 B.C, New York Oxford University Press, 1958, p. 300 f.

وقد امكن تحديد اماكن تقسيمات الأراضى فى مساحة كبيرة فى تونس انظر :

J. Bradford, Ancient Landscapes, 1957, p. 197 ff = R. Chevallier, Melanges d'Arch. 1958, p. 61 ff.

بداية التآمر ضد جايوس جراكوس :

عندما سافر جايوس الى أفريقيا ليقضى سبعين يوما هنـاك ترك فى روما فوليوس فلاكوس (Fulvius Flaccus) لتصريف شئون الحـزب الجراكى ، وكان هـذا الأخـير رجلا متطرفا أهوجا ينقصـه الحكمة والدبلوماسية مما سبب تدهورا كبير فى مركز الحزب ،كما أن غياب جايوس الطويل بعيدا عن الصراع أعطى الفرصة للتآمر عليه ، واستغل السناتو مشروع منح الجنسية الرومانية للحلفاء لا يغار صدور العامة ضد جايوس. ووجد السناتو نقيبا عميلا هو ليفيوس دروسوس (Livius Drusus) وكان رجلا ملتويا ذكيا وقادرا على اقناع العامة . اذ بدأ بالتنـديد بمشروع الجنسية مثيرا كبرياء الرومان وتساميهم على الايطاليين ، ونجح فى تحريض الجمعية القبلية فى الاعتراض على المشروع ورفضه ، بل استصدر قرارا بطرد الغرباء من اللاتين والايطاليين الذين تجمعوا فى المدينـة لانجـاح المشروع وبصفتهم محرومين من حق التصويت .

وبتخطيط من السـناتو بدأ النقيب ليفيوس دروسوس فى منافسـة جايوس جراكوس بتقديم عدد من مشروعات القوانين مثل قانون تحريم اسـاءة معاملة الجنود الايطـاليين فى الجيش الرومانى من أجـل الهاء الايطاليين وامتصاص غضبهم ، ومشروع آخر يقضى بانشاء اثنى عشرة مستوطنة فى ايطاليا لافساح المجال للمعدمين بامتلاك أراضى جـديدة ، ومشروعا ثالثا يقضى بأعفاء المستفيدين من الاصلاح الزراعى من دفع الضرائب الزراعية .لكن معظم هذه المشروعات كانت للدعاية وبهدف الحاق الفشل بمشروعات جايوس وشد البساط من أسفل قدميه .

وعندما عاد جايوس من أفريقيا كان الوقت قد فات لأنه وجد السناتو وليفيوس دروسوس قد نجحوا فى بث الانشقاق بين التكتل الجراكى ، وهبطت شعبية جايوس بسبب رعونة وحـدة طبـع فولفبوس فلاكوس الزعيم الاشتراكى ، فبدأت الاتهامات توجـه الى جايوس وطالب أعوانه باسقاطه . ولما حاول التقدم لشغل منصب النقيب للمرة الثالثة بعد انتهاء مدته الثانية فى ديسمبر عام ١٢٢ ق . م فشـل فى تأمين المنصب، وبذلك سقطت عنه حصانات التريبون ولم يتبق له سوى حصانة الامبريوم الذى

حصل عليه بمقتضى قانون روبيريوس لانشاء مستوطنة يونونيا . ولكى يسقط هذه الحصانة المتبقية نجح السناتو فى انجاح قراو يقضى بالغـاء قانون روبيريوس . وبذلك زالت كل الحصانات عن جايوس ولم يعد فى استطاعته حتى دعوة الجمعية القبلية للاجتماع ، ولما أحس بأن رجـال السناتو يتعقبونه فى كل مكان كون حرسا خاصا من أصدقائه الأوفياء لحمايته من أى عدوان يقع عليه . وبالرغم من هذا حاول جايوس تفادى أى اشتباك أو مواجهة مع السناتو حتى لا يعطى أعداءه فرصة اعلان قرار السناتو الأخير ضده . ولكن السناتو راح يتمنى أن تبدأ الشرارة الأولى للمعركة . ولسوء الحظ هيئت له هـذه الفرصة أثر حادث مؤسف ، اذ حدث أن القنصل لوكيوس أوبيميوس (Lucius Opimius) ذلك الرجل الرجعى المتطرف ومدمر مدينة فريجيللاى — كان يقوم بتقديم أضحية وكان يساعده تابع ، وحـدث أن كان جايوس جراكوس حاضرا . فاذا بالتابع يصرخ فى وجه جايوس بالعبارة التقليدية كانت تقال عند تقـديم الأضحية « على الأشرار النجسـاء مغادرة المكان » وكانت اهانة كبرى لجايوس فثار أحد حراسه وانقض على تابع القنصل فقتله وبسرعة استغل أوبيميوس الفرصة واستصدر قرار السناتو الأخير (Senatus consultum ultimum) الذى هو بمثابة اعلان الأحكام العرفية ، وكون القنصل قوة مسلحة من رجال السناتو وعبيدهم وأتباعهم بالاضافة الى قوة من النبالة الكريتين . ثم دعا القنصل أوبيميوس كلا من جايوس جراكوس وفولفيوس فلاكوس للمثول أمام السـناتو للمحاكمة ولـكن الزعيمين الاشتراكيين أدركا أنهما لن يلقيا محاكمة عادلة ، فقررا المقاومة حتى النهاية ، فتحصنوا مع أتباعهم فوق تل الأفنتين (Aventine) عندئذ قرر القنصل مهاجمة المكان بقواته ونجح فى سحق أنصار جايوس وتمكن من قتل ٢٥٠ رجلا منهم ، ولقى فولفيوس فلاكوس حتفه أثناء محاولته الهرب ، أما جايوس فقد أمر أحد عبيده بقتله انتحارا على الطريقة الرومانية ، وقطعت رأس جايوس لتحمل الى أوبيميوس ، الذى أمر بصرف وزنها ذهبا كمكافأة لمن أحضرها ، ثم أقيمت المحاكمات الصورية ضد بقية الأتباع وصدرت أحكام الاعدام ضد ثلاثة آلاف منهم .

تعليق تاريخى على الأخوين جراكوس :

هكذا سقط جايوس جراكوس بعد عامين من العمل والتشريع ترك خلالهما أكبر الأثر فى جهاز الدولة وزعزع من سيطرة السناتو وخلق له التحدى لأول مرة ، وأعاد للتربيونية اســتقلالها ومهابتها حتى أصبحت من أخطر المناصب السياسية بل وتفوق منصب القنصلية ذاتها ، ويلاحظ أن بعض القرارات التى أتخذها جايوس كانت حلولا مثالية من أجـل الاصلاح ، والبعض الآخر قرارات انتقامية من السناتو ووصولية ولكن فى السياسة الرومانية من الصعب علينا أن نفصل بين الغاية والوسيلة .

لقد أصبح الاخوان جراكوس بموتهما أقوى مما كانا عليه لوعاشا لأن السناتو بارتكابه جريمته الشنعاء ضدهما رفعهما الى مرتبة الشهداء والقديسين ، وأقيمت لهم النصب التذكارية والتماثيل وتحـول المكانان اللذان سقطا فيهما الى مكانين مقدسين ، يحج اليها الزوار ، بل وقدمت لها الأضاحى وأقيمت لهما الصلوات وأصبحا يذكران على ألسنة الأشراف والعامة على السواء بالجلال والتقدير .

أما المؤرخـون المعاصرون فقد اختلفوا فى نظـرتهم الى الأخوين جراكوس ، كل حسب تكوينه واتجاهاته الفكرية ، فهنـاك من تحمس للأخوين جراكوس وأعتبرهما أنبياء للاشتراكية ، وهناك من أكال لهما الاتهامات ووصفها بالديماجوجية الانتهازية الرخيصة التى حاولت تخريب الوئام الطبقى فى الجمهورية ودس الفتنة واحداث صراع طويل مرير (١) ، وهناك من ينظر اليهما على أنهما ظاهرة عادية للعصر الذى عاشا فيه وحاولا حل مشاكله بالحلول المناسبة ، وانها لم يلجئا الى سلاح التلاعب الدستورى الا بعد أن اعترض السناتو طريقهما ، وأن مشروعاتهما ذاتها لم تكن ثورية وانما الثورى فيها هو الوسيلة التى استصدرت بها هذه القوانين . ويأخذ آخرون على الأخوين بأنهما كانا متعجلين مندفعين يريدان الاصلاح الفورى بينما كان السناتو لا يمانع فى الاصلاح التدريجى الهادىء (٢) ،كما أن

---

(1) R. Smith : The Failure of the Roman Republic, New York, Combirdge University ress, 1955, p. 80-85.

(2) op. cit. p. 88 ff.

اعتماد الأخوين على الغوغاء الأنانية والساذجة كان خطئا كبيرا ، لقد وحد السناتو نفسه مهددا بتحدى من نوع جديد يصدر من هيئة كان يسيطر عليها وهى نقباء العامة (١) ، ومن الجمعية الشعبية من أجل قلب الأوضاع فى الجمهورية واقامة حكم غوغائى قد يدمر الجمهورية (٢) • وللسناتو الحق فى التخوف من حكم الغوغاء الساذجة الانانية بدليل انها هجرت جايوس جراكوس عندما حاول أن يساوى بينهم وبين أشقائهم الايطاليين فى الحقوق • كما أن هنـاك من العلماء من يرى فى ظهور الأخوين جراكوس رد فعل للأزمة الاقتصادية العاتية التى سادت فى روما قبيل ظهورهما (٣) •

كما يعتقد البعض أن تيبريوس كان ثائرا أيديولوجيا تنبع أفكاره من تعليمه الرواقى ومن التزام أخلاقى وانسانى ، أما جايوس فكان يسعى لاقامة نظام ديموقراطى ديماجوجى شبيه بالديموقراطية الاثينية فى عصر ديماجوجى حيث يسيطر على العامة بالخطابة والبلاغة الخلابة(٤)، بل ويرى البعض فى جايوس صورة مبكرة لفكر يوليوس قيصر • ومهما يكن من أمر فقد ظل الأخوان جراكوس علامة بارزة فى التاريخ الرومانى كشهداء لقضية العامة ضد الأوليجارخية الارستقراطية •

سياسة السناتو بعد اختفاء الأخوين جراكوس :

حاول السناتو بقدر الامكان انساء الناس عما ارتكبه من جريمة بشعة ضد الأخوين جراكوس أملا فى اعادة الحال الى ما كان عليه قبل ظهورهما فترك مشروعاتهما دون أى مساس ، حتى المشروع الخاص باشتراك الفرسان فى محاكمات حكام الولايات ، وربما يفسر البعض ذلك بأن حقد السناتو كان ضد شخص الأخوين والطريقة الفجة التى

(1) Hugh Last, Gaius Gracchus. C.A.H., vol. IX, pp. 89193.

(2) Smith op. cit. p. 81-75.

(3) Henry C. Boren : «The Urban Side of the Gracchan laws, Economic American Historical Review vol. 63, pp. 890-902 (= Donald Kagan) op. cit., op. cot., pp. 218-222.

(4) Jercopino, «La Republique de 133 a 44 avant J.C., Histoire Romaine, Paris 1935, vol. 2, pp. 171-174, 179-181 (= Kagan) op. cit., pp. 227-230.

حاولا بها ارغام السناتو على الرضوخ لمشروعاتهما وليس ضد مشروعاتهما الاصلاحية ذاتها ، لأن السناتو كان يؤمن بضرورة الاصلاح ويتفهم المشاكل ولكنه أراد أن يكون الاصلاح هادئا وتدريجيا دون أن يحدث خلخلة فى نظام التوافق الطبقى الدقيق الذى حققه الرومان بعد كفاح طويل والذى هو انعكاس للحكمة وللمثالية الرومانية كما شهد بذلك كل من بوليبيوس ، والرواقى باناتيوس الروديسى .

بدأ السناتو بتقديم أوبيميوس القنصل القاتل الى المحاكمة ثم تبرئته بأنه ساعة قتله جايوس جراكوس كان مسلحا بسلطة قرار السناتو الأخير والذى يخول له حق القتل الفورى دون التقديم الى محاكمة وبلا مسئولية جنائية ، كما نجح السناتو فى الغاء قرار النفى الذى صدر ضد بوبيلليوس لايناس (Popillius Laenas) القنصل الذى أتهم باعدام عدد كبير من أتباع تيبريوس دون منحهم حق الاستئناف أمام الشعب ، وكان جايوس قد نجح فى ادانته خارج البلاد .

وما أن أدرك السناتو أن النفوس قد هدأت حتى بدأ فى تمييع القوانين الجراكية بطريقة خبيثة ، فمثلا أصدر فى عام ١٢١ ق . م تشريعا يسمح للمنتفعين بقوانين الاصلاح الزراعى بالتصرف فى أراضيهم سواء بالبيع أو بالرهن أو بالتنازل ومن ثم بدأ صحاب الاقطاعيات يسعون الى اغراء صغار الملاك من المنتفعين بقوانين الاصلاح الزراعى الى بيع أراضيهم وبذلك عادت مشكلة ملكية الأرض الزراعية تعود من جديد الى ما كانت عليه قبل ظهور الأخوين .

ثم أصدر السناتو قرارا آخر يحل اللجنة الثلاثية لتوزيع الأراضى وبوقف أى عمليات للمصادرة والتوزيع تتم داخل ايطاليا ، وكانت اللجنة بالفعل قد قاربت على الانتهاء من عملها ، ثم أصدر السناتو قرارا بتثبيت الملكية الزراعية لدى المنتفعين بقانون الاصلاح الزراعى والسماح بتملك أراضى جديدة بحد أقصى ٣٢٠ فدانا وكان هدف السناتو هو محاولة خلق طبقة جديدة من ملاك الأراضى الجدد حتى من بين المنتفعين بقانون

الاصلاح الزراعى . وبذلك نجح السناتو فى ابطال مفعول اصلاحات الأخوين جراكوس .

الاتجاه نحو التوسع فى استيطان بلاد الغال :

حتى قبل تربيونية جايوس جراكوس اتجه السناتو الى تشجيع احتلال جنوب بلاد الغال وانشاء المستوطنات الزراعية والتجارية خارج ايطاليا بهدف ربط ايطاليا بوادى الرون ، وكان أول تدخل للسياسة الرومانية فى جنوب بلاد الغال عام ١٢٥ ق . م أثناء قنصلية فولفيوس فلاكوس (Fulvius Flaccus) الذى استجاب لطلب من مارسليا لحمايتها من عدوان القبائل الكلتية ونجح فى الاستيلاء والسيطرة على المنطقة التى تربط بين شمال ايطاليا ووادى الرون خاصة بعد تأسيس قلعة قوية فى عام ١٢٢ وهى أكواى سكستياى (Aquae Sextiae) (١) مقاطعة آكس Aix الحالية فى جنوب فرنسا) .

وفى عام ١٢٠ ق . م نجح القائد الرومانى دوميتيوس أهينوباربوس فى تأمين جنوب بلاد الغال وأقامة طريق عسكرى يربط ما بين الرون وجبال البرانس فى أسبانيا سمى على اسمه وهو طريق دوميتيوس (Via Domitia) وعلى رأس هذا الطريق أنشأ مستوطنة رومانية اسمها ناربو Narbo وذلك فى عام ١١٨ ق . م وتعتبر ناربو أول مستوطنة رومانية تقام خارج حدود ايطاليا باستثناء مستوطنة يونونيا بالقرب من قرطاجة ، وبذلك نجح دوميتيوس أهينوباربوس فى تحويل جنوب بلاد الغال الى ولاية رومانية سميت باسم ولاية بلاد الغال النربونية (Gall ia Narbonensis) والتى يسميها بعض المؤرخين ولاية بلاد الغال القريبة .

وبانشاء المستوطنات الزراعية والتجارية كان السناتو يأمل أن يرضى فقراء الفلاحين بايجاد أراضى جديدة لهم خارج ايطاليا والهاء رجال الفرسان بالعمل فى مناطق غنية جديدة ذات ميدان خصب للكسب ، وفى نفس الوقت لتعويض النقص فى التجنيد عن طريق تدريب رجال الغال بعد نشر الحضارة الرومانية فى هذه المناطق .

(1) cf. C.H. Benedict., A. History of Narbo, 1941. p. 10 ff.

الحروب ضد يوجورتا تكشف عن الفساد والعجز :

كانت سلسلة المعارك التى اندلعت بين روما ومملكة نوميديا (الجزائر) فى شمال أفريقيا ما بين ١١١ ــ ١٠٤ ق ٠ م والتى قادها الملك النوميدى الداهية يوجورتا (Jugurtha) من أكبر العوامل التى كشفت عن الفساد والعجز المتفشى فى طبقة رجال السناتو الأوليجارخية ٠

بعد موت الملك ماسينيسا (Massinissa) عام ١٤٨ ق ٠ م ذلك الملك الذى حرض روما على تدمير قرطاجه ، قسمت مملكته بين أبنائه الثلاثة ، ثم آل حكمها الى واحد منهم بعد موت أخيه وهو الملك ميكيبسا (Micipsa) الذى حكم بالعدل والرحمة حتى موته عام ١١٨ ق ٠ م ، وقد فعل مكيبسا الكثير من أجل بناء نوميديا وتشجيع الزراعة فيها وجعل من عاصمته كرتا (Cirta) (مكانها الآن قسطنطينة أو مدينة الكف فى الجزائر) (١) ، مركز تجاريا هاما حيث كان يعيش عدد كبير من التجار الايطاليين ٠

وكان ماسينسا قبل موته قد أوصى بمملكته لاثنين من أبنائه هما ادهربال (Adherbal) وهيمبسال (Hiempsal) وابن أخيه يوجورتا (Jugurtha) الذى كان قد تبناه منذ بضع سنين ٠ ولكن يوجورتا كان أقوى من أعمامه وأقرب الى جده الكبير ماسينيسا أسد الصحراء ، وتدرب مع الجيش الرومانى تحت قيادة اسكيبيو ايمليانوس واشترك معه فى حصار نومانتيا ، ومن ثم كان على علاقة وثيقة مع عدد كبير من الضباط والقادة الرومان ، وكون لنفسه صورة دقيقة عن مشاكل الجمهورية الرومانية ونقط الضعف فيها ٠

ولم يستمر حكم الورثة الثلاثة طويلا اذ اتفقوا على تقسيم نوميديا فيما بينهم ، ولكن يوجورتا نجح فى تدبير مؤامرة قضى بها على عمه هيمبسال وضم الجزء الخاص به اليه ، ثم حارب عمه الثانى أدهربال وطرده من نوميديا وضم القسم الخاص به اليه ، وبذلك وحد مملكة نوميديا تحت قيادته ٠ وهرب العم ادهربال الى روما ليطلب من السناتو والشعب الرومانى

(١) ولكن كارليبه يرجح مكانها فى منطقة الكف بدلا من قسطنطينة
cf. R. Charlier, l'Antiquite Classique, 1950, p. 289 ff.

التدخل لصالحه عند ابن أخيه المتعنت ، ولكن السناتو لم يكن على استعداد للتدخل فى حرب ليست فى صالح الشعب الرومانى ، كما أن عملاء يوجورتا قاموا بشراء ذمم وضمائر عدد كبير من زعماء السناتو بالذهب . وبعد محاولات يائسة قام بها ادهربال ناقش السناتو الأمر وقرر فى عام ١١٦ ق . م تقسيم نوميديا بين ادهربال وابن أخيه يوجورتا . وأرسل لجنة الى هذه البلاد للاعداد للتقسيم والاشراف عليه ، وبالفعل وصلت اللجنة الى نوميديا عام ١١٦ ق . م وقسمت المملكة فأعطت الجزء الشرقى بما فى ذلك العاصمة كرتا (Cirta) الى العم الهارب ادهربال ، بينما أعطت الجزء الغربى الغنى بأراضيه الزراعية وبمصادرة الطبيعة وبرجاله الأشداء الى يوجورتا .

ولم يمض ثلاثة سنوات على ذلك حتى عاود يوجورتا الهجوم على حدود عمه وتوغل فيها ، وأقام حصارا عنيفا حول العاصمة كيرتا والتى كان يتواجد فيها عدد كبير من التجار الايطاليين حاولوا الدفاع عن المدينة خاصة وأنها كانت تتمتع بموقع استراتيجى حصين اذ كانت تقع على ربوة عالية ويحيط بها نهر ، وطلب ادهربال النجدة من السناتو ، ولكن السناتو كان مشغولا بقضايا الشرق وبلاد الغال ولا يريد التورط فى حرب جديدة فى أفريقيا ، فاكتفى بارسال لجنة للتحقيق ، واستقبل يوجورتا اللجنة بدبلوماسيته الرقيقة وقدم لها هداياه الفاخرة فعادت من حيث أتت دون أن توجه كلمة لوم له وتركت المدينة المحاصرة كيرتا لمصيرها المحزن عندما حاصرها يوجورتا بقوات كبيرة من رجاله حتى استسلمت بسبب المجاعة والأوبئة التى انتشرت فيها ، وما أن دخل يوجورتا المدينة حتى انتقم أشد انتقام ممن كانوا فيها ، وعمل فيهم قتلا بقسوة لم يشهد لها مثيل ، كما أنه قام بالقبض على عمه ادهربال وأمر بتعذيبه حتى الموت ، ولكن يوجورتا ارتكب خطأ كبيرا عندما قتل جميع التجار الايطاليين الذين كانوا موجودين فى العاصمة واشتركوا فى الدفاع عنها ، وعندما علمت روما بنبأ المذبحة ثار الغضب وقاد الفرسان ثورة ضد السناتو وكونوا لأول مرة بعد موت جايوس جراكوس جبهة متحدة من رعاع المدينة وطن

جايوس مميوس (Gaius Memmius) ⁽¹⁾ نقيب العامة عام ١١١ ق ٠ م
أن بعض زعماء السناتو تقبلوا الهدايا من يوجورتا وأنهم كانوا على علاقة طيبة
معه، ولما كان رجال الفرسان يحلمون بالتوسع التجارى فقد حرضوا السناتو على
اعلان الحرب ضد يوجورتا أملا فى ضم نوميديا لروما وفتحها أمام أعمالهم
وبالفعل اضطر السناتو مرغما لاعلان الحرب ضد يوجورتا وكلف القنصل
كاليورنوس بستيا (Calpurnius Bestia) باصطحاب جيش لقهر نوميديا ٠

الحروب الهزلية ضد يوجورتا :

لم يكن السناتو راغبا فى قتال يوجورتا أما تفاديا لحرب جديدة فى منطقة لها تاريخ مؤلم معهم وهى شمال أفريقيا ، أو لأن عددا كبيرا من رجال السناتو كان يعجب بيوجورتا الذى كان يربطه بهم صداقة ويشترى ذمم الآخرين بالهدايا الثمينة ، ولكن تحت ضغط العامة والفرسان الذين استغلوا مذبحة التجار الايطالية للتنديد بخيانة السناتو أعلنت الحرب على يوجورتا وكان الفرسان هم المحرضون لهذه الحرب أملا فى القضاء على يوجورتا وضم نوميديا لروما فينفتح بذلك مجال جديد للكسب والثراء ٠
وفهم يوجورتا الحال جيدا فقرر ألا يحرج السناتو أمام أعدائه من الفرسان والعامة فتظاهر بالتقهقر أمام القنصل بستيا ثم طلب عقد السلام ٠ وفى تمثيلية هزلية وافق القنصل وعقد اتفاق دفع يوجورتا بمقتضاه غرامة بسيطة لروما مقابل الاحتفاظ بمملكته دون مساس ٠ وعاد القنصل بستيا سعيدا بأنه ذهب وهزم وأجبر العدو على الاستسلام ودفع الغرامة وما أن علمت العامة والفرسان بأن الحرب ضد يوجورتا انتهت دون خلعه وضم مملكته

---

(١) تشير بردية تبتونس الشهيرة المؤرخة فى ١٧ امشير عام ١١٢ ق٠م الى قدوم شخصية كبيرة من اعضاء السناتو بأسم لوكيوس مميوس لزيارة الفيوم قادما من الاسكندرية وتطالب المسئولين فى تبتونس (ام البريجات بالفيوم) باكرامه بشدة لخطورة شخصيته واغلب الظن انه هو الزعيم الديموقراطى نفسه انظر :

P. Tebtunis, I. 33 ; Wilcken, Chrestomathie, 3 ; also P. Foucart, Un Senateur romain en Egypte sous le règne de ptolémée X, Mélanges Boissier (Paris 1903), pp. 197-207 ; also J. G. Winter, life and letters in the Papyri, An Arbor 1933, p. 7-8

وكذلك عبد اللطيف احمد علي – مصر والامبراطورية الرومانية فى ضوء الأوراق البردية – دار النهضة العربية – بيروت ١٩٧٤ ص ١٢ ٠

لروما حتى ثاروا وهاجوا واستقبلوا القنصل العائد بصيحات الاحتجاج واتهموه بالرشوة والفساد ومن ثم طالب نقيب العامة مميوس بتكوين لجنة للتحقيق ، وطلب استدعاء يوجورتا الى روما للادلاء برأيه ، والافصاح عن شركائه ، وبالطبع منحت الحماية ليوجورتا طوال مدة اقامته فى روما بقرار خاص من السناتو والشعب الرومانى .

يوجورتا فى روما :

وقبل يوجورتا الذكى هذه الدعوة ، وسافر الى روما بعد أن دبر كل أموره فيها مقدما بالرشوة ، ووقف فى الجمعية القبلية حيث قرئت عليه قائمة الجرائم والاتهامات التى ارتكبها ، ثم طلب منه النقيب مميوس أن يميط اللثام عن الذين قبلوا رشوته من القادة الرومان ، وقبل أن يفتح يوجورتا شفتاه ، انطلق صوت نقيب آخر يعترض على اقتراح مميوس ، وسواء كان ذلك بتدبير من السناتو أم بفعل ذهب يوجورتا ، فقد أعفى من الاجابة على هذا السؤال المحرج وبذلك فشلت خطة تحالف العامة والفرسان فى دعوة يوجورتا للادلاء بشهادته فى روما ، لكن يوجورتا الداهية لم يكن ليترك مجهود رحلة طويلة وفرصة نادرة مثل هذه لتذهب هباء ، فدبر وهو تحت الحماية الرومانية مؤامرة عن طريق عملائه للتخلص من أحد أبناء عمومته المطالبين بالعرش ويدعى ماسيڤا Massiva ، والذى كان يسعى فى روما للحصول على اعتراف بحقه فى ملك نوميديا . وتم الاغتيال ولما تكشفت الجريمة أمر السناتو بترحيله من روما فورا الى بلاده ويقال أن يوجورتا نظر الى روما وهو يبتعد عنها بالسفينة وقال ساخرا

Urbem venalem et mature si perituram emptorem invenerit.

« يا لك من مدينة للبيع ، ستنتهى بمجرد أن تجد المشترى » (١) .

وسواء كان المؤرخ الرومانى سالوستيوس قد نقل هذه العبارة بدقة عن قائلها أم أنها تخيل يعبر عن احساس المؤرخ ، فقد كانت هذه العبارة تصور الحقيقة الى حد كبير للأحوال التى آلت اليها الجمهورية فى آخر عهدها . أما السناتو فلكى يغسل يديه من جريمة الاغتيال الأخيرة فقد أعلن

---

(1) Sallustius. Bellum Jugurthinum, 35, 10.

رفضه لمعاهدة الصلح التى عقدها القنصل بسنيا وطالب باستمرار الحرب ضد يوجورتا .

يوجورتا يهزم الجيش الرومانى ١١٠ - ١٠٩ ق.م :

وبعد قرار السناتو بمعاودة الحرب ضد يوجورتا ، اصطحب القنصل سبوريوس البينوس Spurius Albinus جيشا قوامه أربعون ألف رجل وسار على عجل الى نوميديا . ولكن هذا القائد لم يحقق أى تقدم أمام مراوغة يوجورتا فاضطر الى العودة الى روما ليشرف على انتخابات العام الجديد وأوكل القيادة لشقيقه آولوس بوستوميوس Aulus Postumius وكان متعجلا متلهفا على جمع الأسلاب ، ومن ثم أغراه يوجورتا بالتقدم الى سوثول Suthul وهى منطقة بعيدة تقع فى أغوار الصحراء حيث كان يوجورتا يحتفظ بخزائنه الماليـة ، وهناك أوقعه فى مصـيدة وهزم الجيش الرومانى وأرغمه على الاستسلام وقبول شروطه التى تقضى بأن يخلى الرومان نوميديا خلال عشرة أيام ويعترفون بيوجورتا حليفا لروما .

وقد أثارت أنباء الهزيمة مشاعر الرومان خاصة الفرسان والعـامة ، ورفض السناتو نصوص الاتفاق المهين ، وعقد النقيب جايوس ما نيليوس ليميتانوس Gaius Manilius Limetanus محكمـة طارئة للتحقيق فى الفساد والتواطىء مع يوجورتا ،واختار أعضاءها من بين رجال الفرسان .وقد أصدرت المحكمة قرارها بادانة القادة بستيا ، وسبوريوس بوستوميوس ألبينوس وشقيقه أولوس بوستوميوس البينوس ، وأمرت بنفيهم الى خارج البـلاد .

وفى هذه الأثناء أسندت قيادة الحرب ضد يوجورتا الى قائد فذ هو الجنرال كونتوس كايكيليوس ميتللوس Quintus Caecilius Metellus الذى كان - بالرغم من انتمائه الى أسرة ارستقراطية - رجلا حازما أمينا ونزيها وصارما . وكانت مهمته شاقة ، اذ كان عليه أولا أن يعيد الثقة بالنفس الى جيش مهزوم ، ثم يعده بالتدريب الشاق لتحمل الحرب فى الصحراء المكشوفة تحت وهج الشمس المحرقة ، قبل أن يعود الى قتال العـدو .

ومن ناحية أخرى لجأ يوجورتا الى خطـة المراوغة أملا فى ايقـاع

غريمه الرومانى فى مصيدة ، ولكنه لم ينجح وتحولت الحرب الى مناوشات أشبه بجولات الملاكمة ، وكان يمكن للقـائد الرومانى أن ينتصر على يوجـورتا لولا أن الجمهور المتعجـل على النصر فى روما بدأ يقلق على التباطىء فى احراز النصر العسكرى الحاسم،والقبض على يوجورتا،ولم يفهم أن الحرب فى الصحراء ومع عدو ذكى لها طبيعة خاصة ، فأتهموا ميتللوس بأنه يعمد الى اطالة مدة الحرب من أجل كسب الشهرة والمجد لشخصه ، وكان المحرك وراء ازاحة ميتللوس عن القيادة هو احد مساعديه ويدعى جايوس ماريوس • اذ أوعز ماريوس الى التجـار الايطاليين المقيمين فى نوميديا بالكتابة الى ذويهم ومعارفهم فى روما لتوصـيل احتجاجهم على طريقة ميتللوس فى اطالة جولات الحرب بلا مبرر • وبالفعل نجحت خطته ونحى ميتللوس عن القيادة وأسندت الى جايوس ماريوس •

جايوس ماريوس يتولى قيادة الحرب ضد يوجورتا :

يعتبر جايوس ماريوس فاتحة عصر حفل بالرجال العظماء وبالأحداث المثيرة فى القرن الأخير من عمر الجمهورية ، والذين أصبح تاريخ حياتهم هو تاريخ روما ، وكتب عنهم المؤرخون وكتاب السير مجلدات • ومن هنا أصبح مؤرخو روما أقرب الى كتاب السير autobiog rapher ولهذا يعتبر مؤلف بلوتارخوس المسمى بسير العظماء المتوازية — والذى سبق الاشارة اليه عدة مرات — من أغنى مصادرنا التاريخية •

ولد ماريوس بالقرب من أربينوم (١) من أسرة متوسطة الحـال ولم يذهب لتلقى التعليم فى المدارس لفقرة ، وانما وجد أمله فى الانضمام الى صفوف الجيش والترقى فيه ابتداء من جندى تحت السلاح حتى وصل الى منصب قيادة جيش رومانى بعد ازاحة ميتللوس ، ولهذا كان مؤيدا قلبا وقالبا للعامة وللرعاع ضد الارستقراطية ، وظل حتى بعد أن وصل الى منصب القيادة العليا يحيا حياة الجنود المتقشفة ، ينام على الأرض ويأكل من نفس طعام الجنود ، وقد ساعده منظره المتهدل وسوقيته فى السلوك

(١) مدينة جبلية فولوسكية تطل على وادى نهر ليريس جنوب شرق
ادعى عالم الآثار الايطالى ليبوليتى انه تعرف على بيت شيشيرون فيها :
ادعى عالم الآثار الايطالى ايبوليتى انه تعرف على بيت شيشيرون فيها :
L. Ippoliti, Il luogo di nascita di Marco Tullio Cicerone Roma. 1936,



ماريوس

والحديث على أن يكسب شعبية كاسحة بين العامة وصغار الجنود . فضلا عن اعجاب الجنود به لمهارته الفائقة فى القتال لأنه كان بحق أول جندى رومانى محترف يترقى من تحت السلاح ويصل الى منصب قيادة جيش (١) ولهذا كان جهله بالثقافة العامة نقطة ضعف أثرت فى حياته السياسية .

لم يكن ماريوس يعرف أصول السياسة أو الدبلوماسية ، أو المراوغة القانونية والدستورية ، لقد ولد ماريوس جنديا ، وعاش ومات جنديا ، لأن الجندية كانت عمله الذى أخلص له وأولاه كل حبه ووفائه . لقد اشترك ماريوس مع سكيبيو أيميليانوس فى حصار نومانتيا ، ولفتت شجاعته وحبه للنظام وعنايته بسلاحه وبجواده نظر القائد سكيبيو ايميليانوس فجعله من ضباط القيادة العليا . وبالرغم من حقد ماريوس على القيادة الارستقراطية الا أنه عاش فى كنف رعايتها خاصة فى كنف أسرة ميتللوس (Metelli) تلك الأسرة التى ساعدته على الترقى فى صفوف الجيش . حتى وصل الى رتبة نقيب الفرقة tribunus militaris ، ثم غادر الجيش الى سلك الوظائف العليا فأنتخب كوايستورا ، ثم فى عام ١١٩ ق . م أصبح نقيبا للعامة ، وقام بأعمال كسب بها ثقة العامة خاصة عندما ألقى القبض على بعض أفراد أسرة آل ميتللوس تلك الأسرة التى رعته ، وذلك بتهمة عدم الالتزام بالقرارات التى استصدرها بخصوص طريقة التصويت . وبالرغم من فشله الذريع فى تولى وظيفة الأيديل الا أنه تمكن فى عام ١١٥ ق . م من الوصول الى البرايتورية ، وبعد انقضاء مدته أرسل كحاكم بدرجة بروبرايتور على أسبانيا البعيدة عام ١١٤ ق . م ، وبذلك انتقل ماريوس الى طبقة الحكام ، ولم يعد أصله الاجتماعى الوضيع عقبة أمام مصاهرته لأسرة آل يوليوس الارستقراطية (Iulii) فتزوج من جوليا (Iulia) ابنة سكستوس قيصر (Sextus Caesar) جد يوليوس قيصر ، وبالتالى كانت جوليا عمة يوليوس قيصر . وقد نجح ماريوس فى تأمين أسبانيا وبقى فيها حتى عام ١٠٩ ق . م عندما عينه ميتللوس نائبا عنه (legatus) كقائد للجيش الرومانى ضد يوجورتا ولكن كما رأينا راح ماريوس

(1) T. F. Carney : A Biography of Marius (Supplement no. 1, Proceedings of African Classical Association, 1962 ; also of B. A. Brunt, The Army and Land in Roman Revolution», J.R.S., 1967, p. 67 ff.

يحرض أصدقاءه من العامة ومن الفرسان ومن التجار الايطاليين فى أفريقيا ضد أسلوب ميتللوس العسكرى • بل راح يحثهم على ضرورة انتخابه قنصلا لعام ١٠٧ ق • م وقد رفض الجنرال ميتللوس أول الأمر أن يمنح ذلك الضابط الناكر للجميل أجازة ليسافر الى روما حيث يتقدم للانتخاب تنفيذا لنبوءة ادعاها وهى أن كاهنا فى يوتيكا أمره قائلا « اطلب وستجاب اسع وسوف تحصل ! » ، وتخلصا من الحاح ذلك الضباط العنيد ، تركه الجنرال ميتللوس يسافر الى روما حيث تمكن من انجاح نفســه لوظيفة القنصل أمام المجلس المئوى ، ثم منحتــه الجمعية القبليــة قيادة القوات الرومانية فى شمال أفريقيا بالرغم من معارضة السناتو •

ماريوس قنصل عام ١٠٧ يقود الحرب ضد يوجورتا :

بخبرته العريقة فى مجال الحرب ، أقبل ماريوس على الحرب يعــد لها ، ويتغلب على نقاط الضعف فى الجيش الرومانى ، وكان أول قرار جرىء اتخذه هو فتح الباب أمام جميع طبقات الشعب الرومانى لدخول الجيش والغاء الحواجز والتقسيمات الطبقية القديمة لأن الجيش الرومانى قبل ماريوس لم يكن فى الحقيقة سوى تجمع متطوعين يصطفون حسب ثرواتهم ويشترون سلاحهم وثيابهم من أموالهم الخاصة وينفقــون على أنفسهم طيلة أيام الحرب ، واذا طالت الحرب بدأ المتطوعون فى القلق فهم يريدون أن يفرغوا من القتال بسرعة للعودة الى حقولهم وأعمالهم وتخفيفا من عبىء النفقات • ولكن ماريوس جعل أساس الانضمام للجندية هو اللياقة البدنية وليس الثروة والطبقية ،لأنه أراد أن يجعل الجندية حرفة مهنية وليس خدمة تطوعية • وبالتالى أصبح المتطوعون جنودا محترفين ، يتقاضــون رواتب نظير خدمتهم ويتمتعون بمزايا الترحال والتنقل فضلا عن مكاسب الأسلاب والغنائم ، وبعد تسريحهم بعد ست عشرة عام يمنحون قطعة من الأرض الزراعية يفلحونها أو مكافأة مالية،ولذلك ساوى أمام جميع الرومان فى دخول الجيش وتغاضى عن كافة الفروق السياسية والاجتماعية والطبقية وجعلهم جميعا سواء فى الجندية لأفضل لجندى على آخر الا بالشجاعة والاقدام والالتزام بقوانين وقواعد الجندية الرومانية الصارمة ، وكان لذلك القرار نتائج سياسية وعسكرية شديدة الأثر على الأحداث • وقبل أن يغادر

ماريوس روما الى أفريقيا اختار قائدا مساعدا لجيشه هو لوكيوس كورنيليوس سوللا Lucius Cornelius Sulla والذى كان من الارستقراطيين وليس من العامة .

وفى صحارى شمال أفريقيا بدأ ماريوس فى تدريب مجندية على المشاق وقادهم ضد يوجورتا مكتسحا ومستوليا على عدد كبير من مدن نوميديا من بينها تلك القلعة التى كان يختزن فيها أمواله ، وأرغم يوجورتا وصهره بوخوس الحميم (Bocchus) ملك موريتانيا على الدخول معه فى معركة فاصلة سحق فيها قوة نوميديا وموريتانيا لدرجة أن ملك موريتانيا خلع نفسه من الحرب وطلب التصالح مع الرومان . كانت الحرب بالنسبة للرومان هى القبض على يوجورتا وانهاء القتال ، وذلك يستغرق سلسلة من المطاردات الخفيفة ومن ثم اختار ماريوس نائبه الجديد كورنيليوس سوللا لهذه المهمة ، فقام سوللا الماكر بتدبير حيلة ماهرة وهى أن طلب من ملك موريتانيا أن يدعو يوجورتا للحضور اليه ، والتشاور معه ، وبذلك تمكن من القبض على يوجورتا وتسليمه للقائد ماريوس . وحمل ماريوس أسيره معه فى روما ليقوده مغلولا فى موكب نصره ، يرتل فى أغلال الذل ، وهو يرتدى الرداء الملكى وبعد انتهاء موكب النصر الكبير ألقى ماريوس بأسيره فى السجن ، ثم أمر باعدامه فى زنزانة تولليانوم الشهيرة (Tullianum) عند سفح الكابيتول .

أما بوخوس ملك موريتانيا فقد منح الجزء الغربى من نوميديا كمكافأة له على الدور الذى لعبه فى القبض على يوجورتا ، أما النصف الشرقى من نوميديا فقد منح لشقيق يوجورتا الأبلة ، وكان يدعى جاودا (Gauda) . وهكذا رضيت الغوغاء والفرسان وهدأت نفوسها وفتحت أبواب نوميديا أمام رجال المال والأعمال الرومان .

ماريوس يصد هجوم التيوتون والكمبريين :

وما أن انتهت الحرب ضد يوجورتا ــ أو الحرب اليوجورتية ــ كما سماها كتاب الرومان ــ حتى استدعى السناتو ماريوس لرد خطر داهم هدد

أمن ايطاليا ذاتها ، ذلك هو خطر قبائل التيوتون (Teutones) والكمبريين (Cimbri) وكان ماريوس قد كوفىء على نجاحه فى شمال افريقيا باعادة انتخابه قنصلا لعام ١٠٤ ق٠م، وقبل أن تنتهى صلاحية قنصليته للعام الثانى حدث هجوم التيوتون والكمبريين فانتخب للمرة الثالثة قنصلا لعام ١٠٣ ق ٠ م ٠ وهو أمر لم يسبق له مثيل بل ظل انتخابه للقنصلية يتجدد تلقائيا حتى قضائه على هذه القبائل عام ١٠١ ق ٠ م ٠

كانت قبـــائل التيوتون والكمبريين قبائل جرمانية ، تقطن وسـط أوروبا الغربية ولكن الفيضانات والمجاعات دفعتهم الى الهجرة باسرهم وأمتعتهم جنوبا ٠ وكان رجال تلك القبائل الجرمانية طوال القامة ، شقر البشرة ، يتسلحون بدروع صغيرة وسيوف طويلة ويضعون على رءوسهم خوذات من البرونز ويحاربون فى صفوف متحاذية ويربط بينها سلاسل ٠ وكان هدف اندفاع هذه القبائل هو العثور على أرض جديدة ، واندفعوا جنوبا عبر الدانوب مخترقين جبال الألب وقد حاول قنصل عام ١١٣ ق٠م٠ وهو جنايوس بابيريوس كاربو أن يقضى عليهم،ولكن ذلك كلفه جزءا كبيرا من جيشه ، واضطرت القبائل المهاجمة خوفا من بأس روما الى الاتجاه غربا ، حيث استقروا حول شمال الألب بعد أن ضموا اليهم القبائل الجرمانية التى كانت تعيش فى جبال سويسرا ولم يمض وقت طويل حتى بدأت القبائل الجرمانية فى مهاجمة أعالى الراين ٠ ومنه اندفعت تغزو الشطر الشرقى من بلاد الغال النربونية ٠ وهناك تصدى لهم يونيوس سيلانوس (Junius Silanus) قنصل عام ١٠٩ ق ٠ م عندئذ طلب الجـرمان منه أن يبلغ السناتو بأنهم يريدون أرضا يستوطنوها مقابل خدمة روما ، والعمل كجنود مرتزقة لها ، ولكن السناتو رفض هذا الطلب ، عندئذ هاجموا جيش القنصل وشتتوه ٠ وفى عام ١٠٧ ق ٠ م عاودت هذه القبائل الهجوم على جنود بلاد الغال من الغرب،ودارت معارك عنيفة بينهم وبين الرومان ٠ ونجحت قبائل الغاليين فى تطـويق جيش رومانى بقيادة ماكسـيموس مانيليوس وزميله سرفيليوس كايبيو ، ونظرا لعدم تعاون الجنرالين الرومانيين ، خسر الرومان فى معركة آراوزيو (Arausio) مايقرب من ثمانين ألف قتيل ٠ وقد سببت هذه الهزيمة حالة من الذعر والرعب فى قلوب الرومان،وذكرهم بكارثة هجوم

الغالبين على روما واستيلائهم عليها ، ولم يكن أمام الرومان سوى انتخاب الجنرال ماريوس فى عام ١٠٥ للمرة الثالثة قنصلا لانقاذ البلاد من كارثة الكمبريين ، بل واستمر انتخابه للقنصلية تلقائيا خمس مرات أخرى ،، ولم يجرؤ أحد على منافسته فى شغل هذا المنصب طالما كان مشغولا بمطاردة الكمبريين والتيوتون بعيدا عن بلاد الغال وشمال ايطاليا .

ماريوس يبنى الجيش الرومانى من جديد :

سبق أن أشرنا الى الثورة التى أحدثها ماريوس عندما فتح باب التطوع للجيش الرومانى أمام جميع طبقات الشعب ، بصرف النظر عن الفوارق الطبقية أو الملكية وكيف حول الجيش من جيش متطوعين الى جيش محترفين ، وقد أدى ذلك الى زيادة عدد المتطوعين نظرا لازالة شرط الملكية ، وانضمت الغوغاء والعامة وفقراء الفلاحين أو الذين رهنوا حقولهم وأراضيهم ، وقد أغرى الراتب الجديد وأحلام السلب والنهب هؤلاء الفقراء أو المديونين بدخول الجيش أملا فى الخلاص من الفقر وفك ما عليهم من رهونات وتسديد ما عليهم من ديون . وقد دعم هذا الجيش الرومانى وأصبح جيشا دائما يقوم على جنود محترفين يخدمون فى الجيش مدة تتراوح ما بين ست عشرة وعشرين عاما .

كذلك أعاد ماريوس تنظيم الجيش على أساس الفرق Legiones بمفهوم جديد ، اذا أصبحت الفرق تتكون من خمسة أو ستة آلاف رجل مسلحين تسليحا ثقيلا ، وخلق فصائل الفرسان (Cohortes) وكانت كل فصيلة تتكون ما بين ٥٠٠ و ٦٠٠ فارس أى عشر الفرقة ، كما أدمج عناصر الفرقة لتحارب كقوة متحدة متعاونة ، وجعل لكل فرقة شعارا من الفضة يمثل النسر الرومانى الشهير ، تقاتل من أجل الحفاظ عليه مرفوعا . وعلم الجنود مدى قدسية هذا الشعار ومدى ضرورة حمايته والدفاع عنه حتى الموت من أجل شرف الوطن .

وعلى رأس كل فرقة جعل آمرا يختار من خيرة الضباط المحترفين وليس من هواة العسكرية من رجال السناتو كما كان الحال من قبل . ويدعى هذه الآمر قائد الفرقة legatus ، وضاعف ماريوس من تدريب الجنود وعلمهم الاشتباك مع العدو فى مبارزات أشبه بمبارزات الجلادين ،

كما ضاعف من التدريبات الشاقة والعنيفة مثل السير مسـافات طويلة والقيام بأعمال شاقة وعسيرة مثل حفر الخنادق وبناء التحصينات من أجل الحفاظ على اللياقة القتالية للجنود فى أكمل صورها . وقد أدت اصلاحات ماريوس للجيش الرومانى الى نتائج خطيرة ، اذ أصبح الجيش ينظر الى قائده من أجل وعودة بالمكافآت بعد انتهاء الخدمة ومن ثم أصبح أكثر ولاءا له من الدولة ذاتها ، ولذلك بدأ الجيش يدخل مجـال السياسة ويلعب دورا فعالا فيها .

ماريوس يسحق التيوتون والكمبريين :

وعندما أصبح ماريوس مسـتعدا . بدأ خطته لتصفية هذه القبائل الجرمانية التى وضعت خطتها لغزو ايطاليا عن طريق ثلاث جبهات . وهى أن يهاجم التيوتون ايطاليا عبر جنوب بلاد الغال وأن يندفع الكمبريين عبر ممر برنر (Brenner) ووادى اديجى (Adige) فى سهل البو ويقـوم قبائل التيجوريين (ligurini) بالهجوم من ناحية خليج الادرياتيك . وقد بدأ ماريوس بملاقاة أعدائه واحدا تلو الآخر . ففى عام ١٠٢ . م التقى بالتيوتون عند مدينة أكواى سكستياى (Aquae Sextiae) وعند منطقة ضيقة لاتسمح لأعدائه بالهروب حاصرهم،ثم استخدم تكتيك مشابه لتكتيك هانيبال ، وهى أن يجعل مقدمة جيشه تشاغل العدو بينما تتسلل المؤخرة لضرب دائرة حول العدو والقضاء على مؤخرته وأثبت التكتيك والتدريب العنيف كفاءته اذ يقال أن ماريوس سحق ما يقرب من مائة ألف غير الأسرى فى هذه الموقعة التى حددت مستقبل المعارك مع باقى القبائل الجرمانيـة المهاجمة فأنفرط عقدها ، وتبدد شملها .

ومن ناحية أخرى كان الكمبريون قد نجحوا فى عبور ممر برنر فى جبال الألب واخترقوا وادى نهر اديجى ودفعوا أمامهم الجيش الرومانى الذى كان يقوده القنصـل الارستقراطى كوتتوس لوتاتيوس كاتللوس (Quintus Luratius Catullus) الى جنوب سهل البو . وبعـد أن فرغ ماريوس من التيوتون ، أسرع لنجدة كاتللوس ، واتحد الجيشان فى جيش واحد ، أجبر الكمبريين على الدخول فى معركة فاصلة فى صيف عام ١٠١ ق . م قرب مدينة فركيللاى (Vercellae) فى سهل البو (بالقرب من تورينو)

انتهت بابادة الكمبريين ، ولما علمت قبائل التيجوريين (Tigurini) بمصير أشقائهم عادت الى موطنها فى جبال سويسرا . وبذلك أنقذ ماريوس ايطاليا من كارثة محققة ، مما رفعه الى مصاف الأبطال القوميين،اذ سمى كاميللوس الجديد ، ومنقذ روما ، بل أصبح معبود الجنود ، بل ومعبود الغوغاء التى هتفت به زعيما وراحت تهتف كالمجنونة ملقبة اياه بمنقذ روما ورفعته الى مصاف الآلهة الأسطوريين مثل رومولوس المؤسس وكاميللوس البطل الأسطورى ، وكان الفرسان والعامة من أشد أنصار ماريوس الذى لم يكن يميل الى طبقة الأشراف والنبلاء ، لكن ماريوس كان قائدا ومنظما عسكريا موهوبا ، بينما لم يكن يلم الكثير بالسياسة ، نظرا لانعدام ثقافته وقلة تعليمه ، وقد قيل أن ماريوس كان يعرف كيف يقود ويواجه العدو فى ميدان القتال ولكنه كان يتردد ويرتجف عندما يقف أمام السناتو أو الجمعية الشعبية ، لأنه كان لا يعرف الخطابة ولا قوة التأثير فى الناس ، كما عرف عن ماريوس التردد ، وعدم الحسم فى الأمور ، ولكنه كان يعشق الظهور والأضواء ومن ورائه جيش مخلص يريده أن يكون زعيما سياسيا ليوزع عليه الأراضى وينفذ وعوده . وكان الطريق مفتوحا أمام الدكتاتورية العسكرية ، وقد استطاب ماريوس منصب القنصل الذى كان قد تولاه حتى هزم التيوتون والكمبريين خمس مرات ، وأصبح يتوق لاستمراره فى ذلك المنصب للمرة السادسة والسابعة ولكن السناتو بدأ يعترض على ذلك فاضطر ماريوس الى الارتماء فى أحضان بعض الزعماء الثوريين من أمثال جايوس سرڤيليوس جلاوكيا (Gaius) Servilius Glaucia) ولوكيوس أبوليوس ساتورنينوس (Lucius) Apuleius Saturninus) بالرغم من كراهيته لهما .

عودة الأزمات والأخطار :

حتى وفى أثناء مقاومة التيوتون والكمبريين ، بدأت المشاكل تعود من جديد . وهذه الأخطار تتمثل فى أخطار خارجية وأزمة القيادة الداخلية . أما الأخطار الخارجية فتتمثل فى عودة اندلاع ثورة العبيد فى صقلية عام ١٠٤ — ٩٩ ق.م.عندما عاود العبيد المارقون الثورة على ظلم الحياة التى يحيونها ، وكانت ثورتهم لا تقل خطرا عن الثورة التى قامت

قبــل ذلك واستغرق اخمادها خمس ســنوات ، ويلقى البعض اللوم على ماريوس نفسه فى التسبب فى هياج العبيد • وذلك عندما طلب فى عــام ١٠٤ ق • م من ملك مملكة آسيا الصغرى الموالى لروما أن يرسل له عددا من القوات للمساهمة فى ردع القبائل الجرمانية المغيرة على ايطاليا ، وجاء رد الملك الأسيوى أن بلاده قد نضبت من الرجال لأن قراصــنة البحر يختطفونهم ليبيعونهم كعبيد وأن معظمهم متواجدون فى مزارع صــقلية وهنــا اســتصدر ماريوس قرارا من الســناتو موجها الى حاكم صقلية الرومانى يأمره باطلاق سراح العبيد المختطفين وبالفعل امتثل الحــاكم ، وأطلق سراح بضع مئات منهم ، ولكن تحت تحريض أصحاب الأقطاعيات عــدل الحاكم عن قرارة وطلب من باقى العبيد الذين طالبوا بالحرية أن يعودوا الى أسيادهم فثار هؤلاء العبيد ولجأوا الى التلال والجبال وأعلنوا المقاومة بزعامة تريفون (Tryphon) وأثينيون (Athenion) وتحــولت حركة التمرد الى حرب مقاومة استغرقت أربعة سنوات كاملة من ١١٤ ــ ١٠١ ق • م • استولى خلالها العبيد على الحقول ولم يستطع أحد مقاومتهم حتى الانتهاء من حــرب التيوتون والكمبريين ، عنــدئذ أرسلت قوات رومانية كبيرة للقضاء على الثورة وتم ذلك بعد خسائر فادحة • كذلك فان استفحال خطر قراصنة البحار فى شرق حوض البحر المتوسط سبب خللا كبيرا فى السلام والتجارة فى هذه المناطق • فمنذ زوال رودس كقوة بحرية وتجارية زاد خطر قراصنة كيليكيا وكريت وقاموا بهجمات على سواحل آسيا الصغرى وسوريا لاقتناص السكان وحملهم وبيعهم فى سوق الرقيق الدولى فى جزيرة ديلوس (Delos) التى قيل أن كل يوم كان يباع فى أسواقها ما يقرب من عشرة آلاف عبد • وكانت المزارع الرومانية هى التى تبتلع معظم هذه الاعداد الغفيرة من العبيد الأسرى • ولما أثار الملك نيقوميديس الثالث ملك بيثينيا هذه القضية ، ووضح للسناتو أن مايقرب من نصف رجاله القادرين على العمل قد اختطفهم القراصنة أصدر السناتو أمرا الى البرايتور ماركوس أنطونيوس (جد ماركوس أنطونيوس الشهير) لمهاجمة قواعد القراصنة فى شرق البحر المتوسط وتدميرها وذلك فى عام ١٠٢ ، وقد قام ماركوس أنطونيوس بدك هذه الحصون على طول ساحل

كيليكيا الذى حوله الى ولاية رومانية يمكن منها مطاردة القراصنة . ولكن هذه المجهودات حدت من خطر القراصنة ولم تقض عليهم قضاء تاما لأن روما أصدرت فى عام ١٠٠ أو ٩٩ ق . م أمرا باغلاق كل الموانىء التابعة لها فى وجه القراصنة .

أما عن أزمة القيادة فقد بدت ملامحها بظهور بوادر الضعف على السناتو خلال القرن الأخير ق . م ولم يعد يسيطر ويتحكم كما كان قبل ذلك ومما زاد الأمر سوءا لم يكن هناك من يحل محله ، والجمعيات الشعبية والقبلية كانت أما عازفة عن تحمل مسئولية توجيه دفة البلاد داخليا ، وخارجيا أو غير مؤهلة لهذه المهمة الخطرة ولا تهتم سوى بمسائلها الخاصة وهى مساواة العامة مع الاشراف . ولم تحاول هذه الجمعيات التفكير فى هدم السناتو أو نظام الحكم الاوليجارخى بالرغم من هجومها على بعض الأرستوقراطيين ، لأنها لم تربط بين هؤلاء الأفراد وبين الجهاز الذى كانوا يمثلونه . أيضا مع ضعف السناتو وتعصبه الأعمى للنظام الجمهورى القديم وعدم استعداده للتجديد أو التغيير ، فقد بدأ الفساد يدب فى أوصاله وعرفت الرشوة طريقها الى زعمائه كما وضح ذلك من قضية يوجورتا .

أما عن تحالف بروليتاريا المدينة مع رجال الفرسان والطبقة الوسطى لتحدى السناتو ، فقد كان تحالفا ضعيفا مؤقتا يقوم فى لحظات المصلحة بين الفئتين ثم سرعان ما يتفكك عراه بعد انتهاء الأزمة مع السناتو ، لقد حاول جايوس جراكوس أن يجعل هذا التحالف بين العامة والطبقة الوسطى دعامة أساسية لتحدى السناتو ولكن هذا الأمل لم يتحقق بالصورة التى كان يحلم بها جايوس ، وظهر تحالف العامة والفرسان أمام الأزمات فقط عند أثارة مسألة الحرب ضد يوجورتا واتهام بعض القادة وزعماء السناتو بالرشوة والفساد ، لكن بعد انتهاء الحرب وهزيمة يورجوتا انفصم عرى التحالف ، ويرجع السبب فى ذلك الى تناقض المصالح بين الفئتين فبروليتاريا المدينة لا تملك شيئا ، بينما يمتلك الفرسان الكثير ويتطلعون الى دعم امتيازاتهم السياسية فى وجه السناتو .

وبتدهور السناتو وضعفه وعدم وجود من يحل محله أو يقدر على أن

يحل محله أصبح الأمل معقودا على زعيم قوى وكان هناك بالفعل ماريوس لكن جهله بأساليب السياسية وفنونها وعـدم امتلاكه قوة الشـخصية السياسية والقدرة على الخطابة والجدل أضعف الأمل فيه كزعيم سياسى يملأ الفراغ الكبير •

لوكيوس ابوليوس ساتورنينوس والسناتو ١٠٣ — ١٠٠ ق٠م :

كان ساتورنينوس زعيما مفوها وشجاعا ، وكان يكره السناتو ، ويعارض تسلطه بالرغم من أنه كان ينحدر من أسرة ارستقراطية وربما كان بهذه الكراهية سببا خاصا اذ كان ساتورنينوس كوا يستورا مسئولا عن توزيع القمح فى ميناء أوستيا عام ١٠٤ ق • م وحدث أن ارتفع سعر القمح بسبب ثورة العبيد ولم يعد هناك قمحا كافيا فى الميناء لأطعام الشعب مما هدد بالمجاعة • وازاء ذلك القى السناتو اللوم عليه وجعله كبش الفداء فأزاحه عن منصبه وعين بديلا عنه رجـلا أكثر اخلاصا للسـناتو ومن ثم اتجه ساتورنينوس الى خـط مغاير فى مستقبله السـياسى اذا اتجه الى تولى التريبونية فى عام ١٠٣ ق • م ليلهب ظهر السناتو بالقوانين والتشريعات التى تدعم طبقة العامة من ناحية وكسب ماريوس وقواته اليه من ناحيـة أخرى • ففى عام ١٠٣ استصدر قرارا بتوزيع قطع صغيرة من الأراضى فى أفريقيا على المسرحين من جنود ماريوس ، ولما حاول نقيب العامة الآخر الموالى للسناتو الاعتراض على هذا المشروع أرغمه ساتورنينوس واتباعه بالقوة على مغادرة المكان لأن ساتورنينوس كان يحبذ استخدام العنف ضد معارضيه. واستصدر قرارا آخر أدان فيه كل من يتهاون فى كرامة الشعب الرومانى ويعتبر ذلك هزيمة يعاقب عليها القانون ، وقد كان المقصـود بهذا القانون فى الحقيقة الجنرالان مانيليوس وكاييبو اللذان فشلا فى صد التيوتون والكمبريين فى معركة أراسـيو عام ١٠٥ ق • م ، وكان كاييبو بالذات مكروها من العامة والطبقات الوسطى ، فبصرف النظر عن رعونته فى الحرب ضد التيوتون والكمبريين فقد اتهم بنهب المعابد المقدسة فى تولوز بيلاد الغال ، فقد قام أثناء قنصليته عام ١٠٦ ق • م باصدار قرار مناقض لقرار جايوس جراكوس ، اعاد بمقتضاه دخول رجال السناتو الى عضوية محكمة الابتزاز والرشوة لحكام الولايات • وقد قاد ساتورنينوس حركة

معارضة شديدة ضد كايبيو وقدمه للمحاكمة أمام الجمعية العامة ولما حاول بعض ترابنه العامة الموالين للسناتو الاعتراض على اجراءات المحاكمة طردهم الجمهور بالقوة •

وفى العام الثانى لتوليه التريبونية بدأ ساتورنينوس فى تنفيذ برنامج اصلاحى اجتماعى ، مثل اعادة قانون القمح المسعر للعامة ، وعلى أساس تقديرى أقل بكثير من السعر الرمزى القديم ، ووفق على هذا المشروع بالقوة أيضا بالرغم من اعتراض بعض نقباء العامة الموالين للسناتو واعتراض الكوايستور المالى •

كما أصدر مشروعا آخرا يقضى بانشاء سلسلة من المستوطنات للجنود المسرحين فى صقلية ومقدونيا وبلاد اليونان وفى شمال أفريقيا ومشروعا آخر يقضى بتخصيص الأراضى التى حررت من التيوتون والكمبريين الى جنود ماريوس المسرحين الذين قاموا بطرد هؤلاء الغزاة • وكان آخر مشروعات ساتورنينوس قرار بأعداد الجيش الرومانى عسكريا وتعبئته ضد القراصنة الكيليكيين وضد الملك ميتراداتيس السادس (Mithradatis VI) ملك بونطوس • وكان يمكن للأمر أن يمر لولا أن ساتورنينوس كان يشفع كل قرار من قراراته بعبارة تلزم أعضاء السناتو على قسم يمين الولاء لاطاعة وتنفيذ هذه القوانين وذلك خلال خمسة أيام والا تعرضوا للطرد من مناصبهم ، والغرامة والنفى من البلاد • ولهذا عمل السناتو جاهدا على تعطيل التصويت على هذه القرارات • ولما فشل السناتو فى الاعتماد على الترابنه الموالين له ، لجأ الى حيلة أخرى لتعطيل القرار وهى اعلان رؤية وسماع الرعد والبرق كنذير ، ولما أبلغ ساتورنينوس بذلك علق عليه ساخرا ومهددا للسناتو •

الزعماء الشعبيون يسببون حرجا لماريوس :

تركزت الانظار على ماريوس ، هل سينصاع لقرارات ساتورنينوس وزميله جلاوكيا ويقسم على الالتزام بالقوانين التى استصدراها • وقد كان ماريوس فى وضع حرج ، فهو يريد ارضاء الزعماء الشعبيين لأنهم فعلوا الكثير من أجل جنوده المسرحين لكنه فى نفس الوقت كان لا يريد أن يستعدى

عليه السناتو ، فضلا عن عقدة التردد التى كان يعانيها • لكنه فى النهاية أقسم يمين الالتزام للقرارات الجديدة « مادامت شرعية » • ولماذا لايقسم ماريوس على الالتزام لقرارات سنت لصالحة وصالح جنوده بالرغم من اعتراضه على مسلك ساتورنينوس وزميله جلاوكيا ؟

وقد تعرض ماريوس بسبب ذلك لحملة من النقد من جانب السناتو الذى بدأ يسقطه من نظره لعلاقته بساتورنينوس وجلاوكيا • وقد تعقد الموقف عندما حاول ساتورنينوس ترشيح نفسه لمنصب نقيب العامة للمرة الثالثة،وجلاوكيا لمنصب القنصل بالرغم من عدم مرور عامين على تولى الأخير منصب البرايتور • وكان السبب فى حرص ساتورنينوس وزميله جلاوكيا على ترشيح نفسيهما لهذه الوظائف هو الخوف من المصير بعد انتهاء حماية الوظيفة • ولما أحسا بأن السناتو يحرض العامة ضدهما ، وأن رجال الطبقة الوسطى انفضوا من حولهما خوفا من حدوث تشريعات ثورية تهدد مصالحهم وملكياتهم الخاصة ، كما انفض العامة عنهما لأن مشروعاتهما الاصلاحية كان مركزة حول الجيش والمسرحين وكان غالبيتهم من الأيطاليين الذين يحتقرهم ويكرههم العامة الرومان • ولما أحس جلاوكيا أن نقيب العامة السابق جايوس مميوس (Gaius Memmius) قد يثير ضدهما المشاكل استأجر فريقا من العصابات لاغتياله ، واستغل السناتو هذه الجريمة لاعلان حالة الطوارىء ، وأصدر السناتو قراره الأخير مطالبا ماريوس بالتدخل الفورى للقضاء على القتلة •

ولكن ماريوس لم يرد قتل حلفائه ، فى نفس الوقت لم يرد مخالفة السناتو فأقدم على حل وسط هو القبض على ساتورنينوس وجلاوكيا والزعماء الديمقراطيين وحبسهم فى مبنى السناتو حفاظا على حياتهم ، ولما علم زعماء السناتو والاشراف والفرسان اندفعوا نحو المبنى ودهموه بالقوة ونفذوا حكم الاعدام فى هذين الزعيمين،واحرج ماريوس حرجا شديدا،وسقط من أعين العامة والفرسان ، واتهموه بالضعف ، ولم يكن أمامه سوى مغادرة روما الى الشرق بحجة أن لديه أعمالا هناك وأمسك السناتو بزمام البلاد والحكم ، وأعلن ابطال كل قوانين ساتورنينوس وجلاوكيا •

السناتو يشدد من قبضته فى الحكم :

عادت الأحوال الى الهدوء بعد الصراعات . القلاقل التى شهدتها روما ابان نهاية القرن الثانى ، فقد سحقت ثورة العبيد التى اندلعت عام ١٠٣ فى صقلية وقضى عليها تماما فى عام ٩٩ ق . م ، كما قمعت القلاقل فى أسبانيا التى اندلعت ما بين عام ٩٧ - ٩٣ ق . م ، وعاد الهدوء الى هذه هذه الولايه بالرغم من هذا كان جنود ماريوس المسرحون ساخطين ويطالبون بالمزيد كذلك بدأ الايطاليون يطالبون بالحاح من أجل الحصول على الجنسية الرومانية وجاء رد السناتو عنيفا بطرد الأيطاليين من روما عام ٩٥ ق . م .

وقد استغل السناتو الهدوء النسبى الذى ساد بعد التخلص من ساتورنينوس بأصدار عدة قرارات مضادة ، بهدف تشديد قبضة السناتو على البلاد ، فمثلا صدر قانون عام ٩٨ ق . م يشترط مرور فترة سبع عشرة يوما بين اقتراح القانون والتصديق عليه من قبل الجمعية القبلية ، كما صدر قرار آخر يحظر صدور أكثر من قانون مرة واحدة (lex satura) بل يجب أن يصدر كل قانون منفردا وعلى حدة .

لكن بالرغم من هذا فان الأمور لم تكن كلها تسير سيرا حسنا لان طبقة رجال المال والأعمال من الفرسان راحت تدعم نفسها من أجل استنزاف الولايات وتحبط أى محاولة للحد من جشعهم ، ففى عام ٩٢ ق . م قدم الفرسان روتيليوس روفوس (Rutilius Rufus) للمحاكمة بتهمة الابتزاز والجشع بالرغم من أن روفوس كان مساعدا للوالى العادل النزيه موكيوس سكايفولا وساعدة فى محاربة جشع الفرسان فى آسيا ، وبالطبع كانت التهمه الموجهة الى روفوس ملفقة مقصودا بها انذار الفئة الاصلاحية الأمينة من الوقوف فى وجه الجشع والنهب والسلب الذى يقوم به الفرسان فى الولايات ، بل كان بمثابة دعوة صريحة لحكام الولايات للفساد والانتهازية وجمع ما يمكن جمعه من أموال .

محاولات ليفيوس دروسوس للأصلاح ٩١ ق.م :

ووسط هذا الجو الكئيب من الفساد المستشرى ، والتسلط الاوليجارخى والسخط الشعبى برز مصلح شاب هو ليفيوس دروسوس الصغير ابن

ليفيوس دروسوس النقيب الذى ساهم فى اسقاط جايوس جراكوس عام ١٢٢ ق ٠ م ، وكانت فلسفة ليفيوس دروسوس الاصلاحية تتلخص فى مبدئين : أولهما الحفاظ على مهابة وقدسية السناتو واعادة حقوقه وسلطاته اليه ، وثانيهما الدعوة لمنح الجنسية الرومانية لجميع الايطاليين ٠

ولدعم السناتو اقترح ليفوس دروسوس الصغير مضاعفة عدد الأعضاء الى ٦٠٠ عضو بضم ٣٠٠ عضوجديد من أغنياء رجال الطبقة الوسطى والفرسان ، وبذلك يمكن تكوين جبهة قوية من النبلاء والأغنياء ، كما اقترح أن تكون عضوية محكمة الابتزاز مشتركة من أعضاء السناتو الجدد والقدامى ، ومن بين أغنياء الفرسان ٠ ولكنه أضاف مادة الى القانون تنص على اعتبار الرشوة أو الفساد جريمة يعاقب عليها القانون ٠

كما حاول دروسوس كسب قاعدة شعبية له بين الجماهير بتخفيض تسعيرة القمح المخصص للعامة ، وانشاء عدة مستوطنات زراعية فى ايطاليا وصقلية وتوزيع مساحات من الأرض على المعدمين وهى نفس الأهداف التى دعى اليها أبوه ، كما خفض نسبة الفضة فى العملة الفضية ٠

ولما حاول ليفيوس دروسوس الصغير الحصول على موافقة الجمعية القبلية فى منح الأيطاليين واللاتين الجنسية الرومانية الكاملة، حدثت معارضة شديدة من جانب الرومان على اختلاف طبقاتهم ، فالسناتو لم يرد للايطاليين أن يشاركوه فى مجال الوظائف ، ولا الفرسان أرادوا للايطاليين الحصول على الجنسية، حتى لاينافسوهم فى مجال التجارة، أو فى مجال جمع الضرائب، أو عضوية محكمة الابتزاز ، أما العامة فقد كانت تحقد على الأيطاليين ، لأنهم يشكلون القاعدة الكبرى للمسرحين من الجنود ، والتى انهالت عليها الامتيازات خلال حكم ماريوس ، وكان الايطاليون ساخطين على الأوضاع فى الجمهورية ، فهم يكونون نصف تعداد الجنود الرومان ، وهم الذين خاضوا المعارك من أجل روما ، وحققوا لها الانتصارات ، ولكنهم لم يخرجوا بفائدة منها ، فهم محرومون من الوظائف العليا فى الادارة والجيش ، ولا يتمتعون بمزايا العامة من الرومان مثل الحصول على القمح المسعر أو مساحات من الأراضى ، أو يتحقق لهم الحماية من سوء معاملة الجنرالات

والضباط الرومان ، بل ليس لهم حق الاستئناف ضد الأحكام التى تصدر ضدهم من المحاكم الرومانية ، لأن كل ذلك كان من حقوق المواطنين الرومان .

وازاء المعارضة الشديدة من كافة الطبقات رفض مشروع ليفيوس دروسوس وأعلن القنصل ماركوس فيليبوس الغاء كل القرارات التى سنها ليفيوس دروسوس بحجة أنها نفذت بالعنف والقوة .

اغتيال ليفيوس دروسوس :

ولكن يبدو أن ليفيوس دروسوس لم يقنع بما حدث وحاول اعادة عرض قانون الجنسية الرومانية على المجلس القبلى مرة أخرى وقبل أن ينجح فى ذلك تعرض للمؤامرة لم يعرف من الذى دبرها ، اذ هاجمه رجل وطعنه طعنة قاتلة عند باب منزله ليلا . وهكذا مات ليفيوس دروسوس الصغير آخر مصلحى روما العظام ومفكريها المثقفين الذين حاولوا الاصلاح عن طريق التشريع وفى ظل القانون ، وكان البديل لفشل مشروعه فى منح الجنسية الرومانية للايطاليين حرب أهلية مريرة كلفت روما دماء غزيرة ثم اذعنت روما فى النهاية للايطاليين بنفس الشروط التى حاول ليفيوس دروسوس منحها لهم .

الحرب الأهلية الايطالية ٩٠ — ٨٨ ق.م :

ما أن انتشر نبأ اغتيال ليفيوس دروسوس الأصغر حتى انتشرت أعمال التمرد فى كافة أنحاء ايطاليا وراحت تهدد سلطة روما بدرجه لم يسبق لها مثيل ، لا ابان الحروب السمنية ، أو غزوة بيرهوس ، أو حتى حروب هانيبال ، اذ أحس الايطاليون أن الوعاء قد فاض بما فيه ، وأنه لابد من وقفة تحدى مع روما التى بنوا لها مجدها ولا تريد أن تعترف لهم بحقوق المواطنة الكاملة ، وكان اغتيال ليفيوس دروسوس هو نقطة التحول من المطالبة السلمية بالحقوق ، الى استخدام العنف والقوة فى المطالبة . وقد بدأت الثورة بكارثة عندما سافر البرايتور جايوس سرفيليوس كابيو الى مقاطعة ابروزى (Abruzzi) فى شرق ايطاليا وألقى خطابا عنيفا فى شعب مدينة اسكوليوم (Asculium) الذى كان يتزعم المناداة بالمساواة مع الرومان وتنتشر فيه الجمعيات الثورية . وكان خطاب البرايتور الرومانى

عدوانيا لدرجـة أن الاسكوليين فقدوا أعصابهم فانقضـوا عليه وعلى جنوده وفتكوا بهم فتكا ، ثم اندفعوا ففتكوا بالجالية الرومانية التى كانت تقيم فى المدينة • وسرعان ما امتـدت حركة التمرد والثورة ضـد روما جنوبا ، وانضـم اليها قبـائل المارسـيين (Marsi) ، والسمنيون وغيرهم من القبائل الايطالية . وأصبحت الثورة الايطالية ضد روما تمتد من سهل البو شمالا حتى مضيق ميسانا جنوبا (Messana) ، ولم يستثنى من ذلك سوى أصحاب الاقطاعيات الذين كانوا يسيطرون على أومبريا (Umbria) وكذلك اتروريا ، والأقاليم التى يسـكنها المستوطنون الاغريق فى كمبانيا . وبعض مناطق سهل لاتيوم التى انتشرت فيها الحضارة والثقافة الرومانية ، وسائر المستوطنات التى كانت تتمتع بامتيازات خاصة .

الثوار يقيمون الاتحاد الايطالى لمقاومة الرومان :

كان السمنيون الذين تربطهم بالرومان عداوة قديمة ومريرة يتزعمون حركة الثورة ، فدعوا هم أهل مارسيا الى قيام اتحاد ايطالى مستقل ، وعاصمة فدرالية واحدة لكل الاقاليم والقبائل الايطالية ، وتكوين قيادة موحدة للأشراف على حرب الاستقلال ضـد الرومان • وبالفعل أسس الثوار الايطاليون اتحادا فدراليا سموه ايطاليا Italia وجعلوا عاصمته كورفينيوم (Corfinium) فى أقليم أبروزى (Abruzzi) على بعد خمسة وسبعين كيلو مترا شرقا من روما ، وأقاموا نظامهم الادارى والتنفيذى على غرار النظام الرومانى ، اذ أسسوا سناتو يتكون أعضاؤه من خمسمائة عضـو يمثلون سائر المدن والقبائل المشتركة فى الاتحاد الجديد ، وجهازا تنفيذيا يرأسه قنصلان يساعدهما اثنى عشرة برايتور قضائى ،كلهم ينتخبون سنويا عن طريق مجلس الشـيوخ ، وتدعيما لاسـتقلالها سـكت الـدولة عملتها التى اتخذت رمزها صورة باخوس رب الخمر أو رأس فتاة تمثل ايطاليا ، أما الوجه الآخر لهذه العملة فقد كان يصور روح الكفاح ضد الرومان مثل القوات الايطالية وهى تقسم يمين الولاء أو الثور الايطالى الهائج يكتسح الذئبة الرومانية المذعورة .

وقد نجح الايطاليون فى تجنيد مائة ألف جنـدى كان معظمهم من الجنود الايطاليين الذين هربوا من الجيش الرومانى ، ومن ثم كان الجيش

الايطالى لا يقل فى قوته وقدرته عن الجيش الرومانى ، وتولى قيادته جنرالان من أعظم القادة العسكريين المحنكين هما القائد المارسى سيلو Silo والقائد السمنى موتيلوس (Mutilus) وبعد اكتمال الاستعداد سارت القوات الايطالية المتحدة فى ربيع عام ٩٠ ق • م قادمة من الشرق فى طريقها نحو روما ، ثم تفرعت الى قسمين : قسم يقوده السمنيون ، واتجه الى سهل كمبانيا ، وقسم يقوده المرسيون اتجه نحو سهل لاتيوم لتمزيق وعزل النواة الرومانية عن اطارها الذى تستمد منه قوتها ، لكن بالرغم من هذا فقد كانت روما تتفوق على أعدائها الايطاليين استراتيجيا وعسكريا واقتصاديا،فروما كانت تسيطر على المقاطعات غيرالأيطالية مثل الغال وأسبانيا وشمال أفريقيا وتستطيع استغلال مصادرها وتجنيد رجالها ومقاومة الايطاليين لسنين عديدة،كذلك فان روما كانت تسيطر على موانىء ايطاليا وبحارها وهذا يساعدها على سرعة الاتيان بالجيوش والمؤن من المقاطعات البعيدة ومن الولايات الواقعة خارج ايطاليا ، وفى الداخل كانت روما تسيطر على شبكة الطرق الرئيسية مما يساعدها على سرعة نقل قواتها لمحاصرة الثوار ، ومن الناحية الاستراتيجية فان روما تمتلك نقاط دفاعية قوية حتى داخل المناطق الثائرة مما أضاع من قيمة الانتصارات الايطالية ، وقلل من قدراتهم على الصمود والدفاع •

وبالرغم من هذا نجح الايطاليون فى تسديد ضربات موجعة للرومان ، خاصة خلال العام الأول للحرب • وقد يرجع ذلك الى حقد السناتو على ماريوس الجنرال الوحيد الذى يقدر على صد هذه الجيوش المعادية وانقاذ البلاد من كارثة قومية • وعندما اندلعت الحرب كان ماريوس لا يزال موجودا فى آسيا الصغرى وأرسل السناتو فى طلبه ولبى ماريوس النداء ، ولكن بدلا من أن تعهد اليه القيادة العامة للجيوش الرومانية جعلوه نائبا لقائد (Legatus) آخر اسمه روتيليوس روفوس Rutilius Rufus ، ولم يكن روفوس محنكا فى القيادة والتكتيك كما كانت خبرته بالمعارك قليلة ، ومن ثم رفض نصيحة ماريوس بالتمهل قبل الهجوم والتأكد من الاعداد والتدريب السليم قبل الاندفاع نحو المعركة • وكانت النتيجة معركة سريعة راح ضحيتها روفوس نفسه ، ولولا شجاعة وكياسة

ماريوس لقضى على معظم الجيش الرومانى الذى اشترك فى هذه المعركة . وما كان من السناتو الا أنه عين قائدا عاما آخر هو سرڤيليوس كاييو الذى لم يبق طويلا اذ سقط صريعا فى كمين أعده العدو .

أما فى الجبهة الجنوبية فلم تكن الأمور أحسن حالا . فقد أرسل الرومان جيشا يقوده القنصل لوكيوس يوليوس قيصر (والد يوليوس قيصر الشهير) ويساعده قائد مناوب يدعى لوكيوس كورنيليوس سوللا (Lucius Cornelius Sulla) لوقف تقدم السمنيين فى سهل كمبانيا وذلك فى عام ٩٠ ق . م .ولكن هذا الجيش فشل فى وقف العدو وتراجع متقهقرا عدة مرات . وأخيرا تمكن لوكيوس يوليوس قيصر من هزيمة السمنيين فى معركة قرب أكيرراى (Acerrae) ، لكن ذلك النصر لم ينقذ روما من حالة الخطر الذى هدد بعزلها عن سائر أجزاء ايطاليا خاصة وأن ثورات جديدة بدأت تشتعل فى بعض الأقاليم الايطالية التى كانت موالية لروما مثل أومبريا واترورِيا .

روما تذعن لمطالب الايطاليين :

وأخيرا لجأ لوكيوس قيصر الى وسيلة سياسية رائعة تخدم وضع روما العسكرى وهى استصداره قرارا يعرف بقانون يوليوس lex Julia الذى يمنح الجنسية الرومانية الكاملة للايطاليين واللاتين الذين ظلوا على ولائهم لروما وكذلك لمن يلقون السلاح ويعودون الى الوحدة معها . ثم زاد على ذلك أن أصدر النقيبان بلاوتيوس سلڤانوس وزميله بابيريوس كاربو قانونا يعرف بقانون بلاوتيا بابيريا (Plautia-Papiria) يمنح الجنسية الرومانية لرعايا روما المقيمين فى مناطق متحالفة معها بشرط أن يقوموا بتسجيل أنفسهم أمام برايتور رومانى فى ظرف ستين يوما ، وعلى هذا القياس استصدر جنايوس بومبايوس استرابو قنصل عام ٨٩ ق . م ووالد بومبى الكبير تشريعا يمنح الجنسية الرومانية لسكان ولاية بلاد الغال القريبة (Gallia Cisalpina) الواقعة جنوب نهر البو ، وكذلك منح الحقوق اللاتينية لسكان المنطقة الواقعة شمال نهر البو . وبهذه التشريعات بدأت الثورة الايطالية تهدأ وفقدت حدتها تدريجيا .

اخماد الثورة الايطالية :

لقد لمع ابان هذه الثورة الايطالية عدد من القادة والسياسيين الرومان منهم جنايوس بومبيوس سترابو الذى برز من اقليم بيكينوم واكتسب شهرة واسعة عندما جمع عبيده وأتباعه وقضى على حركة التمرد التى اندلعت فى منطقته وقد ساعده هذا النصر على ان ينتخب قنصلا عام ٨٩ ق ٠ م ، ثم ارسل على راس جيش لاخضاع مدينة اسكولوم صاحبة الشرارة الأولى فى الثورة ، ونجح بومبيوس سترابو فى حصارها ثم فتحها فى نهاية العام نفسه ٠ وزادت من شهرة هذا القنصل ضعف زميله فى القنصلية وفشله عسكريا ثم مقتله على يد القوات المارسية ، وبذلك ترك الميدان لبومبيوس سترابو ليكمل النصر فى وسط ايطاليا ويسحق المارسيين ٠ وبذلك اضحى من ابطال الحرب ٠

وفى الجبهة الجنوبية بدأ اسم ضابط آخر يلمع،هو لوكيوس كورنيليوس سوللا (Lucius Cornelius Sulla) خاصة بعد أن تولى رئاسة القيادة فى الجنوب بعد سفر لوكيوس يوليوس قيصر الى روما لاستصدار بعض القرارات السياسية لتهدئة الموقف ، وقد نجح سوللا فى تطهير كمبانيا من القوات السمنية ومطاردتهم حتى منطقة سمنيوم ذاتها ، وكاد سوللا أن يقضى تماما على السمنيين لولا مقاومة القائد الشهير سيلو الذى قاد المقاومة بشراسة صد الرومان ، وكان يمكن للحرب نأ تستمر طويلا لولا سقوط سيلو فى احدى المعارك ، وبموت هذا القائد المارسى الشهير لم يعد هناك قيادة ايطالية قوية ، وبدأت المعارك تخبو وبدأ الثوار يلقون السلاح تدريجيا وكان آخر معقل للثوار الايطاليين هو مدينة نولا (Nola) فى اقليم كمبانيا التى استمرت فى رفع لواء الثورة لعدة سنوات حتى سقطت،وبذلك أخمدت الثورة الايطالية ونجت روما من أخطر أزمة كادت ان تقضى عليها ٠

لقد كلفت هذه الحروب روما الكثير ، وذلك نتيجة لعناد السناتو وأنانية الطبقة الوسطى لرفضهم منح الجنسية الرومانية للايطاليين ، وكان يمكن تفادى هذه الحرب ، التى كلفت روما أكثر مما كلفتها حروب هانيبال ، ونتج عنها أزمات اقتصادية قاسية ، اذ ارتفع ثمن الغذاء والطعام وأصبحت

ايطاليا معرضة لخطر المجاعات ، وازاء هذا الارتفاع الشديد فى الأسعار لجأ الفقراء الى الاستدانة بالربا الفاحش ، وتراكمت الديون على الفقراء حتى عجزوا عن دفعها ، ولم يكن الفقراء والمعدمون وحدهم هم الذين تأثروا بالأزمة الاقتصادية بل تعرض لها أيضا حتى الأغنياء الذين تحول بعضهم الى فقراء تراكمت عليهم الديون ذات الفائدة المرتفعة ، وتدفق على العاصمة الألوف من اللاجئين الايطاليين ، وأصبحت أزمة الديون والفوائد من أخطر الأزمات التى خلفتها الحرب الأهلية الايطالية ، ولما حاول البرايتور سمبرونيوس اسيلليو فى عام ٨٩ ق • م أن يخفف من وطأة الديون على الناس وأعاد العمل بقانون قديم يرجع الى القرن الرابع ق • م يحرم التعامل بالربا ، قاومه جمهرة من الدائنين الغاضبين وقتلوه •

وبالرغم من كل هذه الكوارث لم يتعظ السناتو ، واستمر يعرقل قرارات منح الجنسية الرومانية للايطاليين واللاتين آملا فى أن يلغى هذه القرارات ، كما نجح فى ابطال قرارات جايوس جراكوس وساتورنينوس وليفيوس دروسوس ، فبعد انتهاء الحرب حاول اعاقة تنفيذ قرارات منح الجنسية ثم عاد وقرر تسجيل الايطاليين واللاتين فى قوائم منفصلة عن سجلات المواطنين الأصليين لتحديد نفوذهم فى المجالس وتحويلهم الى فئة من الدرجة الثانية من المواطنين •

لكن ذلك لا يمنعنا من أن نعترف أن الحرب حققت بعض النتائج الايجابية، اذ اضافت الى قوائم المواطنين فى الدولة نصف مليون مواطن جديد ، وأصبح سكان ايطاليا كلها — من نهر البو شمالا حتى مضيق ميسانا جنوبا — رومانا متساوين فى الحقوق والواجبات ، واختفت العقد الاجتماعية والطبقية الأقليمية بين أجزاء ايطاليا وبين روما ، وبدأت الفوارق العنصرية والحضارية تذوب فى بوتقة واحدة مكونة عنصرا متماسكا قويا له قومية ولغة وآمال سياسية واحدة هم الذين نسميهم بالرومان ، وهم الذين قامت على اكتافهم الامبراطورية الرومانية • وسمحت روما بانشاء الحكم الذاتى والمحلى فى المقاطعات والاقاليم المختلفة فى ايطاليا مع منحهم حق اختيار حكوماتهم المحلية بالانتخاب ، والتى كانت تتكون عادة من أربعة من كبار الموظفين عرفوا بهيئة الأربعة (Quattuor viri) بالاضافة الى ذلك

بدأت الاقاليم فى تشرب الروح الرومانية ــ فانتشر القانون الرومانى واللغة اللاتينية والسلوك الرومانى فى كافة أنحـاء ايطاليا فبـدأت الجنسـية الرومانية تكسب معنى وصفة خاصـة هو الذى اكسبها القيمة العالميـة فيما بعـد •

الحرب الأولى ضد مثراداتيس وانعكاسها على تطور الأزمة الداخلية :

ابان الصراع الداخلى الخطير واجهت روما خطرا خارجيا هدد مصالحها فى آسيا الصغرى ذلك هو خطر الملك مثراداتيس السادس (Mithradatis) ملك مملكة بونطوس الواقعة فى شمال آسيا الصغرى على طول الساحل الجنوبى للبحر الأسود حتى مملكة أرمينيا الصغرى وكابادوكيا جنوبا ، وكانت هذه المنطقة تتميز بجبالها ووديانها وسهولها الغنية ومراعيها ومواردها الطبيعية المتنوعة فضلا عن مناخها المعتدل •

كانت مملكة بنطوس كمعظم أقاليم آسيا الصغرى فى الأصل جزءا من الامبراطورية السورية السليوقية الهللينستية وذلك منذ عام ٢٨١ ق • م ولكن بعد معركة ماجنيزيا (Magnesia) عام ١٩٠ ق • م وبعـد عقـد صلح اباميا (Apamea) عام ١٨٨ ق • م آل الى روما معظم ممتلكات السليوقيين (Seleucids) فى آسيا الصغرى (١) ، بل وأصبحت روما القوة العظمى فى تلك المنطقة خاصة بعد ضم مملكة برجامون اليها فى عام ١٢٩ق•م بمقتضى وصية الملك اتاللوس الثالث ، وأصبحت روما تسيطر على بيثينيا (Bithynia) وبافلاجونيا ، وجالانيا ، وكابادوكيا ، بالاضافة الى برجامون وبونطوس ولم يعد ينقص روما سوى مملكة بارثيا (Parthia) وأرمينيا التى ظلت روما تتمنى لو ضمتها اليها حتى تصبح قبضتها مسيطرة من بحر قزوين شرقا حتى الدردنيل غربا • ولهذا ظلت المسألة البارثية والأرمنية من أهم معالم سياسة روما الخارجية حتى فى عصر الأمبراطورية ؛ ومن ناحيـة أخرى أثار الاستغلال الرومانى البشع والجشع لولاية آسيا الصغرى سخط سكانها ، وكانت المنطقة على استعداد للثورة ضد الرومان لو وجدت من يقودها ضدهم ، وجاءت المناسبة عندما استغل البارثيون فرصة تدهـور

---

(١) ابراهيم نصحى : تاريخ مصر فى عصر البطالمة ــ الجزء الاول الطبعة الرابعة ــ مكتبة الانجلو المصرية ــ القاهرة ١٩٧٦ ص ١٨٨ •

الامبراطورية السليوقية فاندفعوا فى عام ١٤٠ ق ٠ م فى سلسلة من الفتوحات ضد ايران وبلاد ما بين النهرين وافغانســتان ومنطقة شمال غرب الهند ، ووصلوا فى وقت من الأوقات الى حدود باكتريا شرقا ، ولم يثر توسعهم فى أون الأمر شكوك الرومان لأنهم كانوا يتوسعون فى مناطق نائية شرقا ، ولا يشكلون فى غزواتهم خطرا على ممتلكات ومصالح روما فى غرب آسيا الصغرى ، خاصة أن كان هناك دويلات فاصلة بين النفوذ البارثى فى الشرق وممتلكات روما فى الغرب من آسيا الصغرى ، وأهم هذه الدويلات الفاصلة أرمينيا وبونطوس ، ومادامت الأحوال هادئة فى هاتين الدويلتين الصغيرتين لم يكن هناك أى مبرر يزعج الرومان من خطر البارثيين ٠ أما أرمينيا فكانت مملكة مســتقلة وكان يحــكمها فى ذلك الوقت الملك تجرانيس الثــانى (Tigranis II) ، وظل يحكمها حتى عام ٩٤ ق ٠ م ، أما بونطوس فقد كانت مملكة غنية وجبلية ومنطوية على نفسها الا عندما تولى عرشها ملك شاب هو مثراداتيس السادس الملقب بالأب الطيب (Eupator) (١) فى عام ١٢٠ ق ٠ م مدعيا بأنه سليل أسرة ملكية فارسية عريقة الأصل ، فبدأ هذا الملك يضم اليه بعض المستوطنات الاغريقية الصغيرة الواقعة على ســاحل البحر الأسود ٠

ومن ناحية أخرى كانت كل من بارثيا وأرمينيا وبونطوس حاجزا بين ضغط قبائل الهون الســيبيرية التى كانت مدفوعة بدورها تحت ضغط القبائل الصينية وبين مناطق النفوذ الرومانى ٠ وكانت بارثيا بالذات أكثر خوفا وقلقا ولهذا لجأ ملوكها الى تشجيع قيام طبقــة من الأشراف وكبار ملاك الأراضى ، والاستقراطيين ، والعسكريين تتولى المساهمة عند الحاجة فى الدفاع عن البلاد ٠ هكذا دفعت الظروف البارثيين الى تكوين نظــام يعتبر الصورة المبكرة لنظام الاقطاع الذى ساد فى أوربا ابان العصــور الوسطى ، والأصل المباشر لنظام الاقطاع فى الدولة البيزنطية ٠

---

(1) Theodore Reinach Mithradate Eupator (1890) ; C.A.H., IX, Chapter V ; D. Magie, Roman Rule in Asia Minor, Princeton University Press, 1950, Chapter 8 and 9.

مثراداتيس السادس او مثراداتيس الكبير : ١٢٠ ق.م – ٦٣ ق.م

كما سبق أن أشرنا تولى عرش مملكة بنطوس الملك الشاب مثراداتيس السادس الملقب بالأب الطيب (Eupator) أو الكبير (Megas) وذلك فى عام ١٢٠ ق . م وعندما تولى الحكم كان قاصرا يشاركه فيه أمه وأخوه ، ولهذا فر هاربا منهما ليعيش حياة برية واعتمد فيها على نفسه حتى حذق فن الصيد والرياضة ، بل وفنون القتال وأصبح شبيها بالملوك النوميديين الفرسان من أمثال الأغليد ماسينيسا (Masinissa) ويوجورتا (Jugurtha) ولما بلغ رشده فى عام ١١٥ ق . م عاد الى عاصمة بلاده سينوب Sinope ودبر انقلابا فتك فيه بأمه وأخيه ، وبدأ عهدا جديدا فى البلاد وفى ظله بدأت مملكة بونطوس تنهض من عزلتها وهدوئها لتدخل فى مرحــلة التوسع فى ما بين ١١٠ – ١٠٦ ق . م وذلك بعد ضم عدد من المستوطنات الاغريقية القديمة الواقعة حول البحر الأسود اليها بحجة حمايتها من القبائل الأسكيثية (Scythians) والصرماتية (Sarmatians) (سكان منطقة الأستبس جنوب روسيا) ولم يكتف مثراداتيس (أو « عطية مثرا » كما يعنى اسمه حرفيا فى اللغة الاغريقية) بذلك ، بل أقام تحالفا مع جميع القبائل والشعوب القاطنة حول البحر الأسود بما فى ذلك الاسكيثين والتراقيين الذين يسكنون منطقة البلقان ، وما ان جاء عام ١٠٠ ق . م حتى أصبحت سواحل البحر الأسود تحت سيطرته تماما من مضيق الكوخ (Kerch) الى مصب الدانوب، وتحول البحر الأسود الى بحيرة لمملكة بونطوس ، فضلا عن ذلك أصبح تحت يد الملك متراداتيس السادس مصادر غنية ، خاصة أن تلك المنطقة كانت تنتج أجود أنواع القمح الذى عرفه العالم القديم ، وبالاضافة الى غابات الأخشاب الكثيفة التى منها كانت تبنى السفن التجارية والحربية ، كما ساعدت الكثافة البشرية على تجنيد جيش قوى مدرب وأسطول يتكون من ثلاثمائة سفينة .

لكن بالرغم من هذا بقى مثراداتيس يتطلع الى آسيا الصغرى التى تسيطر عليها روما وذلك لاكمال السيطرة على آسيا الصغرى من ناحية ، ومن ناحية أخرى كان سكان آسيا الصغرى الرومانية متحضرين وأذكياء مهرة

بعكس المناطق الشرقية التى استولى عليها مثراداتيس — وادرك هذا الملك أن كلما كانت نوعية المواطن أرقم فكرا وحضـارة كلما كان الطريق الى تحقيق الامبراطورية أقرب وأقصر • ومما نمى هذا الحلم فى نفس الملك أن السخط كان سائدا بين سكان ولاية آسيا الرومانية والتى كانت تشمل أقاليم كابادوكيا وجلاتيا وبافلاجونيا وبيثينيا نتيجة للاستغلال والجشع وأعمال القرصنة التى كانت تخطف السكان لبيعهم فى أسواق الرق وكانت روما هى المشترى الأول لهؤلاء العبيد فى ذلك الوقت • وقد واتت الفرصة الملك لتحقيق حلمه عندما كانت روما مشغولة كلية بالدفاع عن نفسها وعن ايطاليا ضد هجوم قبائل التيوتون والكمبريين •

بدأ مثرادتيس مشروعه باستطلاع نوايا روما وذلك عندما اقتسم مع الملك نيقوميديس الثانى Nicomedes II مملكتى بافلاجونيا ثم جالاتيا ، مستغلا انتشار أعمال الفوضى التى سادت فيهما ، ولم تتدخل روما ، ثم تجرأ وراح يخطط للاسـتيلاء على مملكة كابادوكيا بعـد تدبير مؤامرة أودت بحياة ملكها أرياثيس السادس (Ariarthes VI) ولكن نيقوميديس الثانى سبق مثرادتيس واحتل كابادوكيا بعد اغتيال الملك وطرد الوريث القاصر أريارثيس السابع وتزوج من أرملة الملك القتيل والتى كانت شقيقة لمثراداتيس نفسه ، ولما علم مثراداتيس بأمر خيانة نيقوميديس الثانى اندفع غاضبا واستعاد مملكة كابا دوكيا وأعاد أريارثيس السابع الى العرش • وسرعان ماضاق بالأخير ذرعا وقتله ثم عين أحد أبنائه ملكا على كابا دوكيا • لكن شعب كابا دوكيا لم يقبل هذه الاهانة وثار على الملك العميل وتحت تحريض الرومان انتخبوا واحدا منهم ملكا عليهم هو أريوبارزانيس الأول (Ariobarzanes) ، ولكن مثراداتيس كان يخشى تدخل الرومان ولا يريد أن يعطيهم هذه الفرصة فسارع بالتحالف مع صهره الملك تجرانيس الثانى ملك أرمينيا من أجل غزو كابا دوكيا وطرد الملك المنتخب أريوبارزانيس وبالفعل تم ذلك،وهنا تدخلت روما عندما صدرت الأوامر الى سوللا حاكم كيليكيا فى عام ٩٢ ق • م بأن يعيد الملك المخلوع الى عرشه مع أخذ تعهد على مثراداتيس وصهره تجرانيس بعدم التعرض لمملكة كابادوكيا أو تهديد استقلالها ولكن مثراداتيس تنكر لهذا الاتفاق وعندما هاجم كابادوكيا واستولى

عليها بل وعلى جارتها مملكة بيثينيا وذلك فى حوالى عام ٩٠ ق . م عندئذ كلف السناتو الجنرال مانيوس اكويليوس (Manius Aquilius) بطـرد مثراداتيس وقواته من المملكتين واعادة اريوبارزانيس الى عرش كابادوكيا وكذلك نيقوميديس الرابع الى عرش بيثينيا ، وقبل مثراداتيس ذلك صاغرا وكان يمكن ان ينتهى الأمر عند ذلك الحد لولا أن القائد الرومانى سمح فى عام ٨٨ ق . م للملك نيقوميديس بنهب بعض مناطق بونطوس ذاتهـا من أجل جمع مكافأة لائقة للجنود الرومان الذين أعادوه الى عرشه .

بداية الصراع بين مثراداتيس والرومان :

استشاط مثراداتيس غضـبا ازاء الاعتداء على بلاده وقرر أن يلقن الرومان درسا لن ينسوه ، فاندفع كالثور الهائج بكل قوته وسحق الملك نيقوميديس والقوات الرومانية معه ، بل وأسر قائدها مانيوس آكويليوس ، ولم يكتف بذلك بل استولى على مقاطعة برجاموم وضمها اليه ، وفى جرأة متناهية النظير اعدم القائد الرومانى بأن صب الذهب المصهور فى حلقه . وكان ذلك بمثابة الشرارة التى أشعلت النيران فى كافة أنحاء آسيا الصغرى فهبت شعوبها لتحيى المنقذ والملك مثراداتيس العظيم وتنفض عن كاهلها نير الاستعمار الرومانى الجشع الذى ظلت هذه الشعوب ترزح تحته طيلة أربعين عاما . وراح الأسيويون يفتكون بالجاليات الايطالية الموجودة فى مقاطعات آسيا الصغرى ، ويقال أن ثمانين ألف ايطالى ما بين عامل خراج وتاجر ومرابى لقوا حتفهم على يد الثوار . لقد كان اسم مثراداتيس يعنى بالاغريقية عطية مثرا الرب الفارسى الذى يمثل القتال والمقاومة ضد الظلم والظلام ، ولهذا تحول مثراداتيس فى أعين مواطنى آسيا الصغرى الى تجسيد لرب الكفاح نفسه ، جاء ليقود الحرب ضد الظلم والظلام والقهر الرومانى حتى ينتصر الحق والنور .

وهكذا تضخمت شخصية مثراداتيس وركبه الغرور ، وزادت أحلامه حتى غدت آسيا الصغرى وحـدها لا تسعها ، ومن ثم قرر أن يسـتغل سخط الاغريق وحقدهم على الرومان ليستولى على بلاد اليونان بصـفته

مخلصا ورسولا للحق والنور • ومن ثم أرسل عمـــلاءه الى أثينا وسائر مدن بلاد اليونان لبث الدعاية العدائية ضد الرومان والتبشـــير بمقدمة ، وفى نفس الوقت اندفع أســطوله الى بحر ايجه حيث رسا عنـــد ديلوس السوق الدولية للرقيق،فاستولى عليها،وأمر بقتل مالا يقل عن ٢٠٠٠٠ر٢٠ ايطالى كان معظمهم من كبار تجار الرقيق • وبذلك صفى هذه السوق الدولية للرق ، واختفى معها الثراء الفاحش الذى شهدته هذه الجزيرة ، وسرعان ما ثارت مدينة أثينا بزعامة اثنين من رجال الفلسفة هما أثينيون (Athenion) وأرسطيون (Aristion) ضد الحكم الاوليجارخى العميل للرومان وأعلنت تحالفها مع مثراداتيس الزعيم فى نفس الوقت الذى وصل فيه قائد أسطوله أرخيلاوس (Archelaus) واحتل ميناء بيرايوس وبدأ فى الاستيلاء على معظم أجزاء بلاد اليونان الجنوبية ، ثم وصل جيش آخر من المشاة متبعا نفس الطــريق الذى دخــل منه الفرس قديما ، ومتجها نحو بلاد اليونان الوسطى والجنوبية وهكذا وجدت روما نفسها فجأة فى موقف خطير للغاية بينما لم تكن قد استعادت بعد قوتها التى أنهكتها الحرب الأهلية الايطالية ، وأصبحت الأزمة الداخلية الاجتماعية فى روما متشابكة مع التهديد والخطر الخارجى •

المرحلة الثانية للثورة : مرحلة العنف والتصفية الدموية واغتصاب السـلطة •

اولا ـ المنافسة بين ماريوس وســوللا على قيـادة الحرب ضـد مثراداتيس :

حولت الحرب الأهلية الايطالية كلا من ماريوس وسوللا الى عدوين لدودين يمثلان وجهتى نظر متباعدة ، فبينما وقف سوللا مع السناتو وحزب الصفوة الأرستقراطى (Optimates) وأيده بشدة ، نجد ماريوس يتعاطف مع الثوار الايطاليين ويؤيد حقهم فى الحصــول على الجنسية الرومانية ، وما أن اكتشف السناتو ذلك فى سوللا حتى أيده وآزره وجعله رجله ، وساعده على تولى القنصلية عام ٨٨ ق • م ، ووجد فيـــه الارستقراطى العسكرى المخلص الجرىء والقادر على تصفية الشعبيين والفرسان الممثلين

فى حزب ماريوس ، وبالمثل وقفت العامة والفرسان من وراء ماريوس البطل العجوز الذى شارف وقتئذ على السادسة والسبعين من عمره لكنه كان لايزال طموحا يتحرق شوقا للشهرة وكسب الانتصارات •

ظهر الخلاف والمنافسة بين ماريوس وسوللا عند بحث السناتو تعيين قائد للحملة الرومانية المزمع ارسالها لتأديب مثراداتيس ، ففى عصر كان الجنرالات الرومان يقيسون انتصاراتهم السياسية بانتصاراتهم فى ميادين القتال ، حرص ماريوس على أن يحافظ على شعبيته التى كسبها عن طريق الانتصارات التى أحرزها فى المعارك العديدة التى خاضها سواء فى شمال أفريقيا أو ضد التيوتون والكمبريين ، خاصة أن اسم ماريوس لم يلمع بالدرجة التى لمع بها اسم سوللا ابان الحرب الأهلية الايطالية لعدم إقتناعه فى دخيلته بجدوى حرمان الايطاليين الذين منهم كان يتكون الجيوش الرومانية التى أحبها وأخلص لها ، ومن أجلها دخل مجال السياسية • أما سوللا ، فقد كان يتحرق للمجد والشهرة والسلطة من أجل اغراق نفسه فى البوهيمية واللذة والشراب والبذخ الصاخب والمقامرة والمغامرة • وكان من الطبيعى أن يختار السناتو سوللا لتولى قيادة الحرب ضد مثراداتيس •

تربيونية سولبكيوس روفوس عام ٨٨ ق•م :

وقبل أن يغادر سوللا ايطاليا تجمع الشعبيون حول شخصية قيادية ديماجوجية هى بوبليوس سولبكيوس روفوس (Publius Sulpicius Rufus) وكان روفوس ثوريا معجبا بليفيوس دروسوس الأصغر ويسير على خطاه • وبالرغم من أنه كان ينتمى الى أسرة عريقة فى الارستقراطية وثرية الا أنه تنازل عن نسبة فى عام ٨٨ ق • م لكى يرشح نفسه لمنصب تربيون العامة ويصبح ممثلا لهذه الطبقة وبالفعل تم له ذلك • وكان أول قضية أثارها بخطاباته النارية التى نالت اعجاب الجميع حتى شيشرون نفسه ، هى قضية الحظر الذى وضعه السناتو على المواطنين الايطاليين الجدد بحيث يسجلون فى سجل المواطنين الرومان فى ثمان قبائل فقط من الخمس والثلاثين قبيلة ، وطالب برفع ذلك الحظر لأنه يعزل الايطاليين ويجعلهم مواطنين من الدرجة

الثانية ، ومن ثم قدم روفوس مشروعا شاملا يتضمن أربعة تشريعات ثورية هي وجوب توزيع المواطنين الرومان الجـدد من الايطاليين على الخمس والثلاثين قبيلة ، واستدعاء كافة المنفيين السياسيين . وطرد أعضاء السناتو ممن تزيد ثروتهم على ألفي دينار روماني منعا لجشع الثروة الذي قد يؤدي الى الفساد والرشوة ، ثم النقطة الأخيرة والتي أشعلت فتيل النزاع السياسي وهي احلال ماريوس محل سوللا في قيادة الحرب ضد مثراداتيس ، وربما وضع روفوس هذه المادة من تشريعه من أجل كسب تأييد أنصار ماريوس من الجنود المسرحين حتى يحصل على تأييد المجلس القبلي . وبالفعل أصبحت لائحة روفوس قانونا بعد معارضة مريرة لم تخلو من العنف .

سوللا يقتحم روما بقواته :

في بادىء الأمر حاول سوللا احباط عملية التصويت على مشروع روفوس الخاص بتنحيته عن قيادة الحرب في آسيا الصغرى واحلال ماريوس محله وذلك باعلان يوم التصويت على هذا المشروع يوما حراما (Nefas) لا يجوز فيه عقد أي اجتماع ، ولما تكرر ذلك عدة مرات اضطر روفوس ورجاله الى استخدام العنف فهرب سوللا ولسخرية السياسية الرومانية لجأ الى بيت ماريوس الذي حماه بل وساعده على الهرب على أمل أن يذهب الى خارج البلاد . ولكن سوللا الحانق على تصرفات الشعبيين ذهب الى قواته التي كانت لا تزال تحاصر مدينة نولا (Nola) الايطالية ودعاها الى أن تتبعه ليحاصر مدينة روما في محاولة لتصفية أعدائه بالعنف ، وبالفعل أحرق عددا من احياء العاصمة حيث كان يوجد معاقل الشعبيين الذين حاولوا مقاومته ، وذبح وقتل أعدادا غفيرة منهم من بينهم سولبكيوس روفوس نفسه حيث علقت رأسه عظة وعبرة في الفورم ، أما ماريوس فقد نجح في أن يهرب حتى وصل الى منتورناي (Minturnae) حيث قبض عليه وهو يختبىء في الأحراش قرب الشاطىء ، وأرسل لتنفيذ حكم الاعدام فيه ، ويقال أن الجلاد الذي كان موكلا باعدام ماريوس بالبلطة كان عبدا من أسرى الكمبريين ، وما أن دخل على ماريوس في زنزانته وأطال فيـه البطل الروماني النظر

ثم سأله متهكما عما اذا كان يجرؤ على اعدام جايوس ماريوس ساحق الكمبريين ، فأرتعدت فرائص العبد ، وألقى بالبلطة وولى الادبار ، وشعر الرومان فى هذه المدينة بالخزى والعار أن يكلف عبد من الكمبريين باعدام بطل روما ومحقق النصر لها على الكمبريين فأطلقوا سراح ماريوس وسمحوا له بركوب سفينة ليهرب الى شمال أفريقيا .

أما سوللا فقد ألغى بجرة قلم قوانين سولبكيوس روفوس ، ثم حاول تهدئة الناس بسن قانون يحدد أقصى نسبة للفائدة على الدين بمقدار ١٠٪ ، وتلى ذلك عدة قوانين مضادة للاتجاه الشعبى وفى صالح السناتو والحزب الأوليجارخى منها جعل المجلس المئوى يستعيد السلطات التشريعية من المجلس القبلى بحيث أصبح للأغنياء ورجال الصفوة الذين كانوا يقيدون فى مقدمة القوائم المئوية اليد الطولى فى هذا المجلس المدعم بالسلطات الجديدة ومن ثم فقد الشعبيون سلاحهم التشريعى الذى كانوا يستخدمونه ضد السناتو ورجال الحزب الأوليجارخى ، ولم يكتف سوللا بذلك بل جعل استشارة السناتو قبل سن أى قانون أمرا ملزما وبذلك اصبح السناتو هو مصدر الحل والربط فى البلاد ، وحاول سوللا أن يتدخل فى انتخابات القنصلية ولكنه فشل ، فاكتفى بالحصول على تعهد من أحد القنصلين الجديدين وهو لوكيوس كورنيليوس كنا (Lucius Cornelius) Cinna) بألا يتعرض للقوانين التى أصدرها . وبعد أن اطمأن سوللا الى ذلك غادر البلاد فى طريقه الى قيادة الحرب ضد مثراداتيس .

القنصل كنا يقوم بانقلاب مضاد :

ما آن غادر سوللا ايطاليا حتى أفصح القنصل كنا عن تعصبه للحزب[1] الشعبى ولماريوس ، فأعلن ابطال كل قوانين سوللا واعادة تشريعات سولبكيوس روفوس من جديد،وأعلن اعادة قيد الايطاليين فى قوائم الخمسة وثلاثين قبيلة والتى هى مجموع قبائل المواطنين الرومان ، ولما حاول زميله فى القنصلية واسمه جنايوس أوكتافيوس (Gnaeus Octavius) الاعتراض عليه بمؤازرة ومساعدة السناتو حدثت اشتباكات دموية بين الحزبين ونجح

(1) H. Rennett : « Cinna and his Times (1923)., p. 27 f.

جنايوس أوكتافيوس فى طرد كنا من روما واعلانه عدوا للشعب الرومانى، فما كان من كنا الا أنه طلب معونة الايطاليين الذين كانوا يسيطرون على الجيش الرومانى الذى كان لا يزال يحاصر مدينة نولا فى كمبانيا ووجد مؤازرة شديدة من الايطاليين ومن القوات الرومانية ثم حذى حذو سوللا فاقتحم روما وأعلن عودة ماريوس من شمال أفريقيا .

وعاد ماريوس القائد العجوز اليائس والذى كان قد تخطى السبعين من عمره واندفع متحرقا الى الانتقام من تصفية رجاله ، عازما على أن يتوم بالمثل ، فاقتحم ميناء أوستيا وحاصر روما حتى سلمت ودخلها تحركه أحقاده القاتلة ، وقسوته التى تعلمها من حياة الحرب والقتال ، وحقده بسبب ماحدث له بالرغم مما فعله من أجل روما حتى أنه كان على وشك من يقتل على يد عبد من الشعوب التى هزمها ، فاستسلم لأحقاده وتعطشه للفتك بأعدائه ، فأعمل فى المدينة قتلا وذبحا وبدأ هو ومؤيدوه فى تصفية الأوليجارخيين من النبلاء وأعضاء السناتو بطريقة بربرية لا تعرف الرحمة وامتلأت شوارع روما بالجثث وامتلأ الفورم بالرءوس المعلقة ، وصودرت أملاك أعدائه وبيعت فى مزادات علنية (١) . وبعد أن أفرغ ماريوس كل مافى صدره من حقد وحنق ، حقق مطمعة وهو تولى القنصلية للمرة السابعة وذلك فى عام ٨٦ق.م ولكن شاء الحظ أن يسقط فريسة لمرض فتاك بعد أيام قلائل من توليه انتهى بموته ، وهكذا اختفى ماريوس من خشبة مسرح السياسة الرومانية بعد حياة حافلة فى السياسة والحرب .

سوللا والحرب ضد مثراداتيس :

وفى عام ٨٧ ق . م رسا أسطول سوللا عند ابيروس فى بلاد اليونان ومنها تقدم شرقا الى بيوتيا Beotia ويقود جيشه الذى قدر بثلاثين ألف مقاتل ، وهناك نجح فى سحق قوات الثائرين المؤيدين لمثراداتيس وهما أرسطيون وأرخيلاوس ، ومن بيوتيا تقدم الى آتيكا حيث حاصر أثينا لمدة

(١) بينما يرى الاستاذ بينت أن هذا الانتقام مبالغ فيه من جانب اعداء ماريوس بعد موته وأن عدد الذين اعدموا لم يزد عن اربعةعشرة ضحية نسب الى ماريوس وحده سبعة :
of H. Bennett, Cinna and his Times 1923 p. 20 also of T.F. Carney, Marius, p. 65 ff.

عام حتى أستسلمت واحتل ميناء بيرايوس بعد أن دمر تحصيناته ، وقد مثل سوللا بالمدينة الخالدة أبشع تمثيل ، حتى قيل أنه فتك بعشر سكانها ، ونهبت منازل المدينة ومعابدها ومكتباتها وحمل معه الكثير من الأعمال الفنية العظيمة والمؤلفات والمخطوطات الأدبية ، وعندما بعث مثراداتيس بجيش يبلغ تعداده ١٠٠٫٠٠٠ رجل ، اندفع مهرولا من تراقيا الى مقدونيا ، ثم جنوبا الى بيوتيا ، ثم قضى عليه سوللا نهائيا قرب خايرونيا عام ٨٦ ق.م(١) . وذلك لأن جيوش الشرق كانت لاتزال تتمسك بالتكتيك الهللينستى القديم وهو نظام الفيالق بالرغم من فشل هذا التكتيك خلال عدد من المعارك التى خاضتها دويلات الشرق الهللينستى ضد الرومان (٢) ، فبفضل استخدام سوللا لنظام الخنادق الدفاعية انتصر على جيوش مثراداتيس وأنصاره من الاغريق مرة أخرى فى أورخومينوس (Orchomenos) فى عام ٨٥ ق . م .

ولكن سرعان ما وصل القائد لوكيوس فاليريوس فلاكوس (Lucius Valerius Flaccus) ذلك القائد الذى بعث به القنصل كنا لاستلام القيادة من سوللا ، ورفض سوللا أن يسلم قيادة الحرب ، ولم يجد فلاكوس خيرا من أن يتفاهم مع سوللا بعد أن هرب عدد كبير من جنوده الى معسكر سوللا ، وفتك أسطول مثراداتيس بعدد آخر ، ومن ثم تقدم فلاكوس نحو مقدونيا فى طريقة الى آسيا الصغرى ثم عبر مضيق الهللسبونت (بحر مرمرة) (Hellespont) . حتى وصل الى بيثينيا Bithynia وهناك تمردت قواته عليه بتحريض من مساعدة فلافيوس فمبريا Flavius Fimbria وقتلت فلاكوس ، وتولى فمبريا القيادة حيث أدار المعارك بمهارة منقطعة النظير وهزم جيشا يقوده ابن مثراداتيس نفسه ، بل ووجد الطريق ممهدا الى برجامون ، ولما ذاع نبأ قرب وصول الجيوش الرومانية الى قلب آسيا

---

(1) Plutarch, Sylla, 11-21 ; Appian, Mithri datis 28—50.
غير ان معلومات بلوتارخوس اكثر اهمية بالنسبة لنا لانه نفسه من مواطنى خارونيا .

(٢) عن تفاصيل المعركة وتكتيك الجيوش المتقاتلة انظر :
N.G.L. Hammond, Klio' 1938, p. 186 ff.

الصغرى ، وانتشرت حركات التمرد ضد مثراداتيس بسبب طغيانه وتصلفه، ولما وجد مثراداتيس نفسه بين نارين ، سارع الى طلب السلام من سوللا الذى رحب به لأنه هو الآخر كان يتحرق شوقا للعودة الى روما للانتقام من كنا ومن أنصار الحزب الشعبى هناك •

وسرعان ما عقد اتفاق تسامح فيه سوللا كثيرا وذلك فى عام ٨٥ ق • م • اذ قبل مثراداتيس أن ينسحب من كل المناطق التى احتلها فى آسيا الصغرى ويسلم ثمانين سفينة من سفنه الحربية ويدفع غرامة للرومان قدرها ألفان تالنت (ما يقرب من مليونى ونصف مليون من الدولارات الامريكية)، وهذه الشروط اذا قيست بالفظائع التى ارتكبها مثراداتيس تعتبر متسامحة وكريمة • لكن العقاب الظالم أنزل به سوللا على سكان آسيا الصغرى اذ حملهم عقوبات مالية تفوق طاقتهم ، منها الالتزام بالانفاق على قواته خلال شتاء عام ٨٥ — ٨٤ ق • م • من غذاء وكساء ودفع مرتب يومى لكل جندى مقداره ست عشرة دراخمة ، ولم يكن أمام السكان الذين تعرضوا لأبشع عمليات النهب والاستعمار الرومانى سوى أن يتجهوا الى المرابين من الرومان ولا حاجة بنا الى الحديث عن جشعهم • وسرعان ما غرق سكان ولاية آسيا فى الديون المتراكمة ذات الفوائد العالية فأفلست المنطقة وباعت كل ما تملك حتى الأطفال من أجل تسديد الديون ولكن ذلك لم يشفع لهم وأخيرا ترك سوللا فى آسيا جيش القائد فمبريا الذى انتحر فى برجامون وعين قائدا جديدا هو ليكينيوس مورينا (Licinius Murena) ليقوم بدور قيادة الحامية الرومانية فى تلك المنطقة المليئة بالقلاقل •

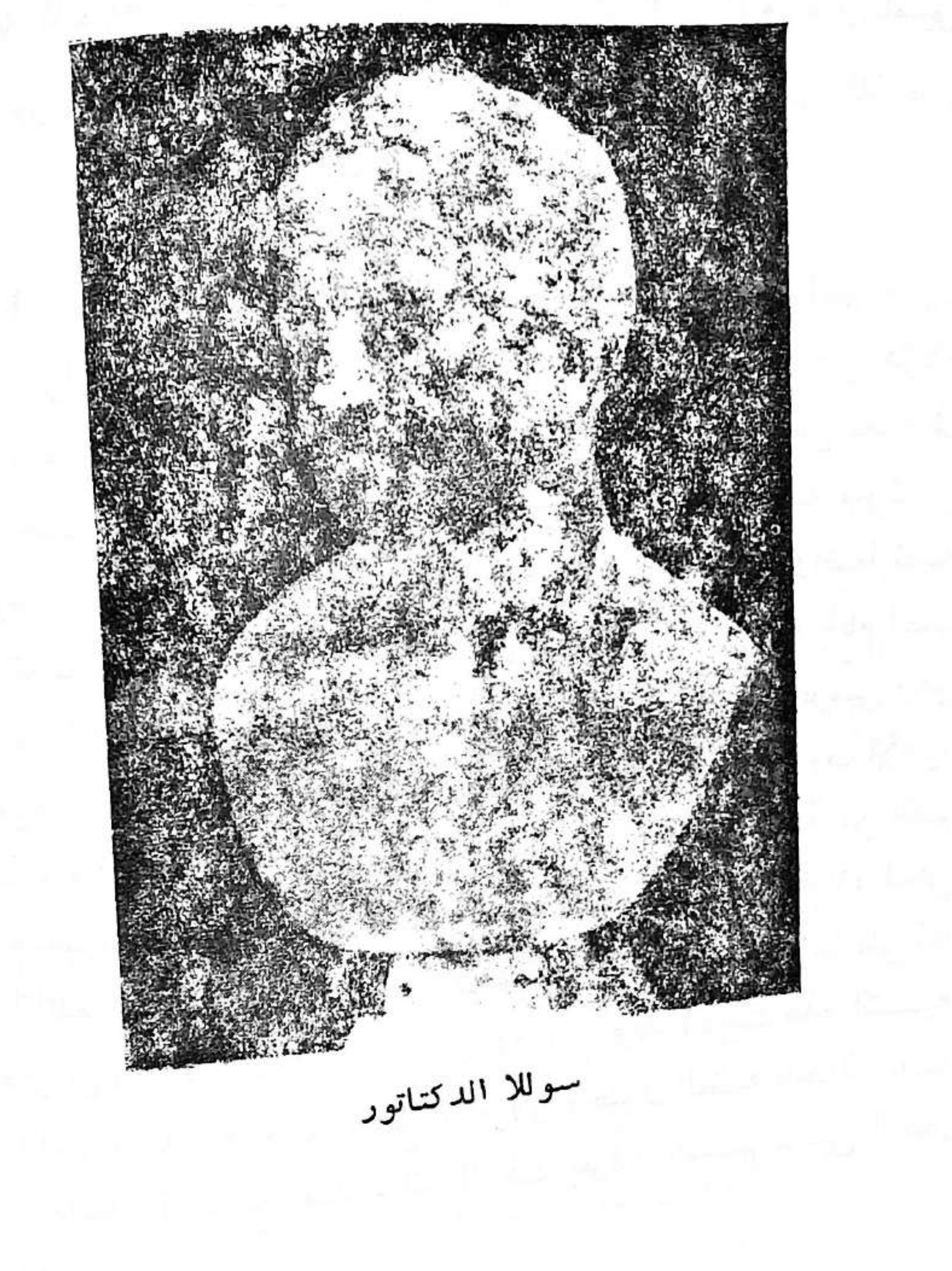
عودة سوللا الى ايطاليا واشتعال الحرب الأهلية (٨٣ ق•م) :

وفى ربيع عام ٨٣ ق • م • رست سفن سوللا فى ميناء برنديزى ونزلت قواته التى كان عددها يتراوح ما بين ثلاثين وأربعين ألفا والتى كانت أشد ولاء له من الوطن • وأعلن على الفور أنه يحترم كل المكاسب التى حصل عليها الايطاليون ، وكان ذلك محاولة منه لاضعاف مركز الحزب الشعبى

وذلك لأنه كان يعلم ان غالبية الايطاليين خاصة فى اقليم اترووريا وساميوم تقف من وراء الشعبيين ، فضلا عن أن عددا كبيرا من الايطاليين كان يعمل فى الجيوش الرومانية بما فى ذلك جيش سوللا نفسه .

وما أن وصل سوللا حتى استقبله أنصاره العسكريون بقواتهم يعلنون ولاءهم له واستعدادهم لخوض الحرب الأهلية معه ، وعلى رأس هؤلاء الأنصار صهره ميتللوس بيوس (Metellus Pius) الذى خرج من معقله فى ليجوريا حيث كان يختبىء ومعه قوة من رجاله ، كما تقدم اليه ماركوس ليكينيوس كراسوس (Marcus Licinius Crassus) الثرى واضعا نفسه وقواته تحت تصرفه وكان قد عاد لتوه من أسبانيا ، وبعد ذلك بأيام انضم اليه ضابط شاب اسمه جنايوس بومبيوس والذى نعرفه باسم بومبى وهو ابن بومبيوس سترابو قنصل عام ٨٩ ق . م . وأحد أبطال الحروب الأهلية الايطالية ، وكان بومبى قد جمع ثلاثة فرق على نفقته الخاصة من اقليم بيكينوم حيث منطقة نفوذ أسرته ، وتقدم يملؤه الغرور والخيلاء ليعلن الولاء لقائده سوللا ، وتملقا له أو تهكما عليه حيته جنود سوللا على أنه قائد مظفر بل وناداه بلقب الكبير (Magnus) وقد أعجبت هذه التسمية بومبى الذى عرف عنه حب المديح والغرور وجنون العظمة فاحتفظ بها كصفة دائمة وأصبح منذ ذلك الوقت يعرف باسم بومبى الكبير (Pompeius Magnus)

أما على الجانب الآخر فقد كان الزعماء الشعبيون يعانون من ضعف القيادة وذلك لأنهم كانوا سياسيين أكثر منهم عسكريين ، ومن بين الزعماء الشعبيين كاربو القنصل السابق الذى جمع على عجل جيشا تعداده خمسون ألف رجل ــ ينقصهم التدريب والولاء والقيادة ، كذلك كان يقود الشعبين القنصلا:ن لوكيوس كورنيليوس سكيبيو (Lucius) Cornelius Scipio) وجايوس نوربانوس (G.Norbanus) وبسهولة نجح سوللا فى هزيمة نوربانوس الذى لم يكن يعرف شيئا عن فن القيادة والحرب ، أما سكيبيو فقد لجأ الى سوللا هاربا ، أما القائد الشعبى سرتوريوس الذى كان مكروها من زعماء الحزب لكثرة نقده واعتراضاته فقد تخلصوا منه بأن أرسلوه الى



سوللا الدكتاتور

اسبانيا لمحاربة العصابات الأسبانية الثائرة . هكذا بفضل ضعف وتفرق الشعبيين وبفضل تفوق قوات سوللا وصلابة معاونيه واخلاص قواته ، اكتسح سهل كمبانيا واستولى عليه وضم اليه قوات أعدائه المهزومة .

وفى العام التالى عام ٨٢ ق . م . انتخب الشعبيون بابيريوس كاربو وجايوس ماريوس الابن قنصلين (وكان الأخير ابنا لماريوس بالتبنى) ، ولكى يقودا المعارك ضد سوللا ، راحا يجمعان ويجندان قوات ، واتجه كاربو الى اقليم سمنيوم لحمل السلاح معه ضد الاوليجارخيين أعداء مبدأ منح الايطاليين الجنسية الرومانية ، وبالفعل حشد قوة كبيرة من الجنود السمنيين أما ماريوس الابن فقد استخدم اسم ابيه ليجمع من حوله الجنود المسرحين ، وتفرق القنصلان للحرب على جبهتين كاربو فى الشمال وماريوس الابن فى الجنوب فى لاتيوم ، وقد حاول ماريوس الابن اعتراض قوات سوللا عند طريق آبيوس (Via Appia) ولكنه لقى هزيمة ساحقة ففر الى برانستى (Praeneste) ، ثم تحول سوللا الى شريكه كاربو فهزمه فى عدة معارك فى اتروريا انتهت بأن تعجل كاربو نهايته فترك المعركة وهرب الى موريتانيا بالرغم من أنه كان يستطيع — لو صمد — أن يهزم سوللا وانقاذ روما من دكتاتوريته الدموية ، و فى آخر محاولة للمقاومة حاول الشعبيون بالتعاون القبائل السمنية أن يقوموا بهجوم مضاد على روما من أجل تخفيف الضغط على برانستى ، ودارت معركة شرسة عند بوابة تل الكوللين حارب فيها السمنيون بجنون طوال الليل ، وألحقوا ضررا كبيرا بالجناح الذى كان يقوده سوللا بنفسه ، ولولا مسارعة كراسوس لانقاذه لهزم سوللا ، ولكن هروب كاربو جعل سوللا يحقق نصرا كاملا وساحقا على الشعبيين وسقطت مدينة برانستى فى يده ، وانتحر ماريوس الابن ، وتفرق شمل الشعبيين ولم يتبق لهم سوى جيوب متفرقة فى ايطاليا وأسبانيا وأفريقيا . وهكذا بالعنف والدم أصبح لوكيوس سوللا سيدا على روما بلا منازع .

سوللا يقيم دكتاتوريته الارهابية عام ٨٢ ق.م :

وبعد انتصاره فى معركة بوابة تل الكوللين . شرع سوللا فى استئصال أعدائه وتصفية معارضيه ومكافأة أصدقائه ، فأقام حمامات الدم والاستئصال فى برود شديد ودون وجه قانونى أو شرعى يبرر ذلك القتل والاستئصال اللا انسانى،وقد راح ضحية ذلك الآلاف من الأبرياء،ويروى لنا بلوتارخوس كيف ان أصوات وصرخات الضحايا كانت تغطى على صوت سوللا وهو يخطب فى السناتو حيث كان يتم الاعدام والتعذيب فى معبد الربة بللونا (Bellona) المجاور ، وكان الصراخ مؤثرا لدرجة أن بعض أعضاء السناتو أغمى عليهم ، ولما لاحظ سوللا الرعب فى عيون الأعضاء قال لهم فى برود تام ان ذلك ليس الا بعض المجرمين الذين أمر بتعذيبهم ثم عاد الى خطبته كأن شيئا لم يحدث (١) .

ولقد أدخل سوللا تقليدا جديدا هو قوائم المصادرة (Proscriptiones) التى كان يعلقها فى الفورم ، وتتضمن أسماء الضحايا الذين كان يباح دماؤهم وأموالهم وممتلكاتهم ، بل وخصص مكافآت لمن يقتلهم ، ويقال ان هذه القوائم قد شملت أسماء تسعين عضوا من أعضاء السناتو واثنى عشرة قنصلا سابقا أو من فى درجتهم ، بالاضافة الى ألفين وستمائة من رجال الفرسان ووجهاء الطبقة الوسطى ، وكثير من هؤلاء راحوا ضحية الوشاية والأحقاد الشخصية من جانب أصدقاء سوللا وبطانته ، كما راح البعض الآخر ضحية لثرائه حيث كان الوشـاة يطمعون فى مصادرة أموالهم والاستيلاء على أراضيهم بعد الوشاية بهم ، ويروى لنا بلوتارخوس قصة عضو السناتو كونتوس أوريليوس الذى تصادف مروره فى الفورم وراح يسلى نفسه بقراءة قوائم أسماء الضحايا ولدهشته وجد اسمه فيها فصاح حزينا : « أواه لقد وشت بى ضيعتى الألبينية (٢) ! » ، ولم يمض وقت طويل حتى تدلت رءوس كثيرة من فوق أسوار المدينة وعلى قوائم فى الفورم ، وبيعت ممتلكات الضحايا فى مزاد علنى صار هدفا لتلاعب اللجان المشرفة على البيع ، وبلغ به الحقد أن أصدر قرارا حرم فيه على أبناء الضحايا تولى

1) Plutarch, Sylla. 30—38.
2) Plutarch, Sylla 33

المناصب العامة وجمد حقوقهم كمواطنين • ولكن سياسة المصادرة والقتل فشلت فى تأمين المال والأراضى اللازمة لمكافأة جنوده المسرحين ، ومن ثم امتدت يده المنتقمة الى باقى أجزاء ايطاليا خاصة المدن التى رفعت فى وجهة السلاح فى اقليم سامنيوم وأتروريا ، فهدم أسوار مدنها وفتك بسكانها وباع عددا كبيرا منهم فى أسواق العبيد ، وصادر الممتلكات ، وفى الأراضى المصادرة فى هذه المناطق أسكن سوللاماية وخمسين ألفا من رجاله المسرحين أملا فى فرض الشخصية الرومانية بجانبيها الحضارى والعنصرى فى هذه المناطق الايطالية الثقافية والعنصر ، ولكى يدعم سوللا من شعبيته وزع المكافآت المجزية على أتباعه،الذين استروا الضياع الشاسعة المصادرة بأثمان رمزية مقابل الولاء له وللنظام الاوليجارخى الذى شرع فى بنائه ، ومن أجل ذلك أعلن عتق عشرة آلاف عبد من عبيد ضحاياه وضمنهم الى قائمة المواطنين المحررين ، وتيمنا بسيدهم وعرفانا بجميلة اتخذ هؤلاء العبيد المعتقين اسم كورنيلوس • ونتيجة لسياسة النهب والمصادرة والفتك بلا رحمة حاق الخراب بأجزاء مختلفة من ايطاليا خاصة اقليم سامنيوم الذى كان مشهورا برخائه وغنى مصادرة اذ تحول الى أرض قفرة وخرائب مهجورة ينعق فيها البوم والغربان •

وبعد أن هدأت العاصمة ، أوقف سوللا حمامات الدم وأعمال القتل والفتك والمصادرة وعاد يتحدث عن القانون والاصلاح وذلك بعد أن عين نفسه دكتاتورا على البلاد :

تشريعات سوللا وتنظيماته :

كان سوللا قد أوعز الى الجمعية المئوية أن تصدر فى عام ٨٢ ق • م • قبيل وصوله الى روما بقليل قرارا بتعيينه دكتاتورا لأجل غير مسمى حتى يتأتى له اصلاح الجمهورية واعادة بنائها ، وبناء عليه صدر قانون فاليريوس (Lex Valeria) والذى بمقتضاه أصبح سوللا أول دكتاتور يعين منذ فابيوس كونكتاتور الذى عين فى عام ٢١٧ ق • م • ومن ثم أصبحت كل تصرفات سوللا البربرية تصرفات مشروعة بمقتضى سلطاته كدكتاتور والتى

لايعوقها عرف ولا قانون ، أو حق الاستئناف ، أو حتى اعتراض تريبون العامة ، ولا تزول عنه الا باعتزاله أو موته .

وبعد أن تسلح سوللا بسلطة الدكتاتور شرع فى وضع مجموعة من القوانين التشريعية كما أعاد تنظيم الاجراءات القانونية التى بقى بعضها فى قوانين الاجراءات الحديثة والمعاصرة ، ولهذا يعتبر سوللا أيضا مؤسس علم القانون الجنائى وقانون العقوبات وواضع اجراءاته ونظمه ، ويمكن أن نقول باختصار انه اذا كان ماريوس قد خلق الجيش الرومانى ووضع تقاليده العسكرية فان سوللا هو واضع أساس القانون الرومانى ، لأنه هو أول من جعل للقوانين اجراءات وعقوبات ونظم ثابتة بالرغم من أن كثيرا من قوانين سوللا ودساتيره ماتت من بعده .

ويمكن حصر اصلاحات سوللا للجمهورية فى الجوانب التالية :

أولا — دعم نفوذ السناتو وزيادة عدد اعضائه :

وذلك منذ عام ٨١ ق . م عندما أصدر سوللا قرارا بزيادة أعضاء السناتو بمقدار ثلاثمائة عضو جديد ، اختيروا من طلائع الجماعات المئوية التى كان ينقسم اليها الشعب الرومانى أى من الأثرياء والوجهاء ومن الفرسان الايطاليين والرومان وبذلك أصبح عدد السناتو (١) ٥٠٠ عضو ، وبناء عليه زاد من جهاز الادارة فزاد من عدد الكوايستوريين (Quaestores) من اثنى عشرة الى عشرين ، وأصبح الكوايستوريون ينضمون تلقائيا الى عضوية السناتو بعد انقضاء مدة وظيفتهم . وكان هدفه من ذلك هو تقوية نفوذ السناتو وتعويض النقص فى رجاله الذين هلكوا ابان الحرب الأهلية ولأن جوهر النظام الذى كان سوللا يريد اقامته يقوم على الأولجارخية الرجعية التى أساسها هو السناتو .

ومن ثم أعاد أعضاء السناتو للعمل كمحلفين فى محاكم الابتزاز ، وحرم ذلك على الفرسان ، بل ونقل كل السلطات القانونية من الفرسان الى السناتو ولما زادت الأعباء الجديدة على السناتو لجأ الى زيادة أعداده وهو نفس

(١) عن أسماء بعض هؤلاء الاعضاء الجدد انظر :
E. Gabba, Athenaeum, 1951, p. 267 ff ; of also J. R. Hawthron, Greece and Rome 1962, p. 53 ff.

المشروع القديم الذين كان ليفيوس دروسوس قد دعى اليه • ومن السلطات الجديدة التى عادت للسناتو حق الاعتراض على أى قانون أو تشريع . وحق تعيين القناصل الذين انتهت مدة خدمتهم سواء فى القنصلية أو البرايتورية حكاما على الولايات بدرجة قنصل سابق أو قائمقام القنصل (Pro. Consule) ويتمتعون بسلطة الأمبريوم البروقنصلى (Imperium proconsulare) الذى يسرى مفعوله فى ولاياتهم ويسقط اذ دخلوا حدود ايطاليا • وفى نفس الوقت الذى شدد فيه من قبضة السناتو على الدولة قلم من أظافر التنظيمات الشعبية مثل الجمعية القبلية (Comitia Tributa) ، كما حد من سلطات نقباء وترابنة العامة كما سنرى فيما بعد • كما الغى وظيفة الرقيب التى كانت قيدا على السناتو وتعوق عمله •

كما أعاد سوللا تعديل قانون تولى (١) سلك الوظائف العامة فاحتفظ بنفس الترتيب الوظائفى وهو الكوايستورية ثم البرايتورية فالقنصلية ولكنه اشترط مرور عشرة سنوات بين تولى القنصلية واعادة الترشيح لها مرة أخرى ، كما وضع حدا أدنى من العمر لتولى الوظائف فمثلا اشترط أن يكون الكوايستور قد بلغ الثلاثين عاما والبرايتور الأربعين عاما والقنصل الثالثة والأربعين •

ثانيا ــ تنظيم الجهاز الادارى والتنفيذى :

كذلك زاد سوللا من اعداد الوظائف العليا فبالاضافة الى رفع عدد الكوايستوريين الى عشرين ، رفع عدد البرايتوريين القضائيين الى ثمانية واشترط أن يبقى القنصلان داخل ايطاليا طوال مدة ولايتهما (٢) وكذلك البرايتوريون ، كما حرم على القنصلين تجنيد جيوش الا بعد موافقة السناتو •

كذلك شملت التغيرات الادارية والوظائفية الجديدة تقليم أظافر

---

(١) ويرى آخرون أن شرط السن لمن يريد تولى وظيفة الأيديل كان السادسة والثلاثين و ٣٩ للبرايتور و ٤٢ للقنصل انظر :
E. Badiar, JRS, 1959, p 81 ff

(2) P.P.V.D. Balsdon, J.R.S. 1939, 58 ff.

ترابنة العامة والقضاء على سلطاتها المؤثرة ، فمثلا ليجعل منصب التربيون وظيفة غير جذابة لمن يطمعون فى تولى المناصب العليا اشترط على التربيون عدم تولى أى وظائف عليا فى الدولة بعد ذلك ، كما حدد سلطة التربيون بحماية الحقوق الخاصة ، وأبطل حق الترابنة فى سن القوانين ، لانه جعل ذلك من حق السناتو وحده ، كما حرم عليهم رفع الدعاوى أمام الجمعية القبلية (١) كما ألغى منصب الرقيب ليحرر السناتو من أى اعاقة أو مراقبة على تصرفاته .

ثالثا ـ تنظيم القضاء وسير العدالة :

وفى تنظيمه للعدالة وسير القضاء أبدع سوللا وذهب أبعد مما دعى اليه ليفيوس دروسوس ، فمثلا ألغى نظام المحاكمة أمام الجمعيات الشعبية وجعلها أمام المحلفين فقط وبذلك أعطى للسناتو سلطات التحكم فى سير العدالة وتصريف شئونها ، كذلك زاد من عدد المحاكم الخاصة التى كانت تنظر القضايا الخطرة والهامة الى سبعة محاكم وهى « محكمة الابتزاز (Quaestio de repetundis) ، ومحكمة الخيانة العظمى (Quaestio de maiestate) ، ومحكمة التلاعب فى الانتخابات (Quaestio de ambitu) ومحكمة التزوير (Quaestio de Falsis) ومحكمة التبديد و اختلاس المال العام (Quaestio de peculatu) ومحكمة الجنايات وا لجرائم (Quaestio de sicariis et veneficis) ومحكمة الاعتداء واستخدام القوة (Quaestio de peculatu) ، وبذلك أوجد سبعة محاكم متخصصة فى نظر المخالفات والجنايات بكامل أنواعها ؛ ولهذا زاد من عدد البرايتوريين القضائيين من ستة الى ثمانية ليضمن عددا كافيا من القضاة لرئاسة هذه المحاكم . وكما قلنا يعتبر اصلاح سوللا للقضاء أعظم أعماله لأنه وضع بها قواعد ثابتة للقانون الرومانى وأزال الغموض عند تطبيق بعض القوانين ، ووضح نصوصها وعقوباتها دون لبس أو خطأ .

---

(1) Livy, Perioch, 89.

رابعا ـ اعادة تنظيم حكم الولايات الخارجية :

قبل مجيء سوللا الى الحكم كان هناك تسع ولايات (Provinciae) رومانيه . ستة ، فى الغرب وهى : صقليه ، ولاية سردينيا ـ كورسيكا ، وأسبانيا القريبة ، وأسبانيا البعيدة ، ولاية افريقيا البروقنصلية (Africa proconsularis) ولاية بلاد الغال النربونية ، أو بلاد الغال البعيدة (Gallia Narbonensis) ، أما فى الشرق فقد كان هناك ثلاثة ولايات هى مقدونيا . وآسيا وكيليكيا بالاضافة الى قورينائية (Cyrenaica) التى آلت الى روما طبقا لوصية بطليموس آبيون عام ٩٦ ق . م ولكنها لم تضم كولاية الا فى عام ٧٤ ق . م ، ولما جاء سوللا قرر فصل المنطقة الواقعة ما بين جبال الالب والابنين فى شمال ايطاليا وجعلها ولاية قائمة بذاتها ، وعين عليها حاكما بدرجة بروقنصل وحامية عسكرية لحمايتها من القبائل التى كانت تغير عليها عبر منافذ الألب وأطلق عليها اسم ولاية بلاد الغال القريبة (Gallia Cisalpina) (١) والتى كان يحدها شمالا نهر الروبيكون . ولكى يعد القدر الكافى من حكام الولايات زاد عدد البرايتوريين من ستة الى ثمانية لأن البرايتور السابق كان يعين حاكما تماما مثل القنصل بعد انتهاء مدة ولايته .

وفى نفس الوقت حرص سوللا على تحديد سلطات حكام الولايات حتى لا يطغى أحدهم ويتحدى السناتو ويهدد بغزو ايطاليا بجيوشه الخاصة اذا ما رفض الاذعان لمطالبه ، ولذا حدد مدة تولى حكم الولاية الى عام واحد فقط وحرم عليه القيام بأى عمليات عسكرية خارج حدود ولايته بدون اذن أو تصريح من السناتو . لقد كان هدف سوللا وضع السلطة العسكرية فى يد السناتو وحده دون القناصل أو حكام الولايات ؛ وفى حالة نشوء أزمة تستدعى القوة العسكرية جعل من سلطة السناتو حق اعداد الجيوش واختيار القائد المناسب ومنحه السلطات الاستثنائية لمواجهة المشكلة أو الخطر الخارجى .

---

(١) لا يعرف بالضبط تاريخ انشاء هذه الولاية ويرى البعض انها فى عام ٨٩ ق.م او فى عام ٨١ ق.م عندما أعلن انه مد الحدود الوهمية (pomerium) ـ للسيادة الرومانية .
cf. Scullard, op. cit. p. 85 note 34 (p. 404).

ولكن فات على سوللا أن الخطر الحقيقى الذى واجه سلطة السناتو ونفوذه لم يجىء من القناصل وحكام الولايات بقدر ما جـاء من هؤلاء الجنرالات ذوى السلطات الاســتثنائية الذين ركبهم الغرور حتى رفعوا السلاح فى وجه السناتو ذاته •

اعتزال سوللا وموته عام ٧٨ ق٠م :

لم يكن يدور بخلد سوللا أن يجعل دكتاتورية مدى الحياة أو يحول الجمهورية الى النظام الملكى ويقلد ملوك الشرق الهللينستى لأنه بعد أن اطمأن الى عود النفوذ الى السناتو ووضع قواعد لهذا النفوذ الاوليجارخى بدأ يتخلى تدريجيا عن السلطة الدكتاتورية منذ عام ٨١ ق • م عندما قبل فى نهاية ذلك العام منصب القنصل مع شريك من أعوانه وهو ميتللوس بيوس Metellus Pius وذلك فى عام ٨٠ ق • م ، فى نفس الوقت الذى كان يحتفظ فيه بمنصب الدكتاتور ، وفى عام ٧٩ تنازل عن الدكتاتورية ذاتها والقنصلية معا وانعزل فى مزرعته الجميلة فى ريف كمبانيا وبالقرب من ميناء بويتولى (Puetoli) ليقضي مــا تبقى له من عمر فى متعــة وسرور بوهيمى لأنه انتهى أبيقوريا يؤمن باللذة ولا يقيم للحياة وزنا • وقضى لياليه فى صحبة زوجة ارستقراطية شابة اسمها فاليريا (Valeria) روى لنا بلوتارخوس كيف أنها سحرته بجمالها وشجاعتها عندما تجرأت على أن تقترب منه وهو جالس فى أحد مدرجات المسرح ليشاهد عرضا لمبارزات الجلادين ، ومدت يدها ونزعت من عباءته خيطا زائدا ، ولما نظر اليها سوللا فى دهشة واستفسار أجابته هل يضيره أن تنال منه بركة ؟ وسرعان ما استفسر عنها ، ولما علم أنها سيدة مطلقة تزوج بها ويقول بلوتارخوس « ولكن سوللا لم يشبع من هذا الزواج لأنه بقى فى صحبة الممثلات والموسيقيين والراقصات يعب معهم الخمر على الأرائك ليــلا ونهارا (١) » حتى سقط فريسة لمرض خبيث أدى الى وفاته على سريره عام ٧٨ ق • م وكان قد بلغ الستين من عمره وقد حرق جثمانه بعد احتفال مهيب اشترك فيه الجيش والشعب الرومانى بجميــع طبقاته ودفــن حيث

(1) Plutarch, Sylla, 36.

كان يدفن ملوك روما القدماء ويقال أنه أوصى أن يكتب على شاهد قبره عبارة تقول « لقد كافأت أصدقائى دائما بالخير وأعدائى بالشر » (١) .

تقييم تاريخى لشخصية سوللا ولاعماله :

لم يصدق سوللا عيناه وهو يرى نفسه يخرج من المخاطر سليما راضيا بما حققه ولذا أحس بالامتنان للآلهة التى رعته وحفظته طوال هذه المغامرات والحروب وحمامات الدم ولذا لقب نفسه بالسعيد Felix بل أنه أسمى ولده فاوستوس Faustus أى المحظوظ لأنه لو عاش قليلا لرأى وشاهد بعينيه أن كل ما بناه وكل ما سعى اليه وسفك فى سبيله الدماء البريئة قد انهار وتحطم كما تحطم الرياح العاتية كوخا من القش وقف فى طريقها ، وعادت المشاكل أكثر خطرا على الجمهورية وعلى الطبقة الاوليجارخية على السواء ، لأن البعض بدأ ينظر الى اصلاحات سوللا باستثناء الاصلاح القضائى وقوانين العقوبات على أنها اصلاحات رجعية كتب لها الفناء لأن الاوليجارخية نفسها كانت لا تقل فسادا عن غيرها من الطبقات ، ويقولون أن النظام الذى أقامه سوللا ليس نظاما له هوية سياسية بل كان نظاما ارهابيا بوليسيا يعتمد على سفك الدماء (٢) .

ولقد فاجأ سوللا الناس عندما خرج عليهم يعلن تخليه عن السلطة فى عام ٧٩ ق . م ثم صرف حملة الشعارات والحراس وراح يتجول بمفرده أو فى صحبة بعض من أصدقائه كمواطن عادى ، ويقال أنه وقف فى السوق

---

(1) Plutarch, ibid. 38.

ويرى باديان ان سوللا لم يعتزل السلطة مرة واحدة بل تدريجيا فظل دكتاتورا حتى نهاية عام ٨١ ق.م ثم قنصلا فقط حتى عام ٨٠ ق.م ، ثم قنصل عادى حتى عام ٧٩ ق.م

of Badian, Historia, 1962, p. 230

وعن طبيعة المرض الخبيث التى اصيب به سوللا انظر :

T. F. Carey, Acta Classica, 1961, p. 64 ff.

(2) Plutarch, 35 : Appian Bell. Civil, I, 82 , cf J.P.V.D. Bladsdon, JRS, 1951 pp. f.

(3) G. Ferrero. «The Greatness and Decline of Rome, (translated by A. E. Zimmern), New York, 1909, Vol. 2, pp. 110 — 117.

العامة يدافع عن اصلاحاته ويعلن استعداده أن يجيب على أى استفسار يوجه اليه بخصوص تصرفاته أو أعماله طوال فترة دكتاتوريته ولكن أحدا من الناس لم يجرؤ على فعل ذلك لأن الرعب والخوف كانا قد أصبحا عقدة واقعة واقعية فى نفوسهم ، ثم غادر روما الى بيته الريفى الساحر ليقضى ما تبقى من عمر فى حفلات صاخبة ماجنة ومآدب لم يعرف الرومان مثلها فى البذخ والتبذير .

كان سوللا من أعظم رجالات روما ولكنه كان أكثرهم غموضا ، فقد كان سلوكه نابعا من ايمانه العميق بتعاليم الفلسفة الابيقورية التى تنادى بالانطلاق والتعالى على الخوف والعقيــدة ، والانغماس فى المتعة واللذة البوهيمية وبذلك يقهر الانسان مشاكله وكل ما يعكر صــفوه أو يقلق باله ، والأبيقوريون كالوجوديين لا يكترثون بشىء لهذا الواقع مهما كان ويستسلمون للأحداث لأن ما هو واقع واقع وليس فى امكان الانسان سوى الاذعان لهذا الواقع . وهــكذا عاد الى أحضان الريف الهادىء الجميل الذى تغنى به شاعر الأبيقورية الأول لوكريتيوس ناظم القصيدة الفلسفية الشهيرة عن طبيعة الأشياء (De rerum Natura)

وكأبيقورى صميم اعتقد ســوللا أنــه انتصر لأنه محظوظ وأن ربــه الحظ السعيد (Fortuna) أحاطته برعايتها ووهبته السعادة المباركة (Felicitas) ، ولما كانت ربة الحظ السعيد « فورتونا » تتشابه فى أعيادها مع ربة الجمــال فينوس (Venus) (أفروديت الاغريقية) والتى اليهــا نسب الرومان أنفسهم وهى ذات الربة التى اختصها لوكريتيوس بالمديح واصطفاها عن غيرها من الأرباب والربات ، فقد ترجم الاغريق لفظ سوللا السعيد الى سوللا صفى أفروديت Sulla Epaphroditos وهكذا فتــح سوللا قلبه للسعادة الربانيــة واستجابت له ربة الحظ السعيد ورعتــه بجمالها حتى فى جعل موته سريعا وخاطفا دون ألم أو أذى .

لقد كان تحليل شخصية سوللا وتقييم أعماله موضوعا للجدل والآراء سواء بين المؤرخين المحــدثين أو القدامى على السواء ، فمثــلا يخبرنا الشاعر الهجائى جوفينال فى هجائيته الأولى كيف أن موضــوع نصيحة

سوللا بالتنازل عن الدكتاتورية، كان يكتب فيه تلاميذ المدارس الرومانية(١) ولقد قال عنه شيشيرون بأنه كان الرجل الوحيد الذى يملك القدرة على تحقيق السلم والسلطة لاعلان الحرب ، فى وقت كان الجميع ينظرون فيه الى الفرد الواحد الذى يحكم كل شىء (٢) ، بل أن جرأته صارت مثلا شائعا بين الرومان وهو سوللا استطاع ، أفلا أستطيع أنا ؟

(Sulla) potuit, Ego non potero)

أما بالنسبة للمؤرخين المحدثين ، فقد نظروا اليه من زوايا سياسية مختلفة مثلا ينظر اليه لاست Last على أنه رجل عظيم لا يقل فى عظمته عن الامبراطور أغسطس نفسه فى المهارة السياسية وفى الاصلاح والتنظيم وفى الجسارة العسكرية وفى وضع أساس العدالة العامة Iudicitia publica وان نقطة الضعف فى نظر « لاست » هى اهمال سوللا لطبقة العامة ومالها من تأثير،وكان يمكن له لوسعى اليها لسعت هى اليه ، لكنه أهملها،وغض الطرف عنها ، فيما عدا ذلك فقد نجح فى أعماله وضرب لخلفائه مثلا أن الاصلاح لابد وأن يجىء عن طريق القوة العسكرية المفروضة . ألم يفشل الأخوان جراكوس فى الاصلاح برغم التأييد الغوغائى والشعبى الذى كان يقف من ورائهما ؟ ! ولو كان لهما قوة عسكرية لنجحا فى اصلاحاتهما ، ويقول لاست لقد تعلم الامبراطور أغسطس مؤسس الامبراطورية من الأخوين جراكوس أهمية السلطة التريبيونية فى الحكم كما تعلم من سوللا أهمية الامبريوم أيضا . واذا كان نظام سوللا قد انهار من بعده فليس الذنب ذنبه انما ذنب الجيوش والقادة الطموحين ومن ثم كان على أغسطس أن يعالج هذه المشكلة ويعيد السيطرة على الجيش ويقيد نفوذه (٣) اذا فقد ساهم سوللا بأفكاره وأعماله فى بناء الامبراطورية ، لأن أغسطس مؤسسها استفاد من تجاربه .

أما ثيودور مومسن Theodor Mommsen فيرى أن سوللا كغيره من

(1) Juvenalis, Sat. I, 15—17 «Et nos Consilium dedimus Sullae Privatus ut altum dormiret.

(2) Pacis constituendae rationem et belli gerendi potestatem salus habeat, cum ommes in unum spectant, unus ommia gubernet ; (cicero, pro Roscio).

(3) Hugh Last C.A.H., Vol. 9, pp. 309—312 (C.U.P, 1932),

الأرستقراطيين كان يحركه الطموح ، ويداعب خياله منصب القنصل وهو الذى سعى اليه ، وساعده الحظ فى الوصول اليه ، عندما ألقى اليه بحرب يوجورتا،ثم بالحرب الأهلية التى برز فيها اسمه بينما شاء الحظ أن يخمد اسم ماريوس لتعاطفه مع الثوار ، ويذكر مومسن أن معاصريه وصفوه بأنه رجل نصفه ثعلب ونصفه الآخر ليث ، وأن نصفه الثعلبى كان أشد خطورة من نصفه الأسدى • ويدافع مومسن عن سوللا من الذين يتهمونه بأنه لم يكن سوى طاغية سفاكا للدماء وضعته الظروف والحظ على قمة السلطة ، ويرد على ذلك مبينا أن الارهاب والعنف كان وسيلة وفلسفة للاصلاح عند الأليجارخيين ، وأن سوللا لم يكن الجلاد بل بلطة الجلاد ، حيث نفذ مخطط الحزب الاوليجارخى بقدر ما ا ستطاع ، وقد استغلته الأرستقراطية التى وجدت بطلا شجاعا ناكرا لذاته واضعا روحه على كفه وشاهرا سيف المقاتل حينا وقلم المشرع حينا آخر ، مكرسا نفسه لخدمتها واستعادة هيبتها فاذا ما انتهى من ذلك سلم السلطة ليعيش حياته لنفسه • كذلك يدافع مومسن عن فضل سوللا فى انقاذ الوجود الرومانى ذاته وردع الخطر والفوضى الداخلية،حتى عادت الحياة والقوة الى جسم الجمهورية الهزيل ، بل وقادها نحو الامبراطورية ، واذا كان دستور سوللا قد انهار من بعده ولم يبق طويلا فهو فى ذلك مثل كرومويل الدكتاتور الانجليزى • ثم انه بدون اصلاحات سوللا لانهارت الجمهورية وغرقت فى بحر من الفوضى ، كما أن أمواج الثورة العاتية التى اجتاحت الجمهورية وهدمت كل شىء أمامها كانت أقوى من دستور واصلاحات سوللا التى لم تجد من يدافع عنها أو يحميها لأن الارستقراطية كانت هزيلة وضعيفة وغير قادرة عن الدفاع عن تراث سوللا لأن الأمواج كانت موجهة ضدها من كل ناحية ، فضلا عن ذلك ألم يبق فى علوم القوانين الرومانية بل والمعاصرة أثرا نافعا يذكرنا بفضل سوللا ؟

واذا كان البعض يتهمون سوللا بالدكتاتورية الدموية (١) والتصفوية فان مومسن يبين بأن سوللا كان واضحا وصريحا عندما فرضها علنا وليس بالطرق المقنعة ، كما فعل غيره من الطغاة والحكام ، وأنه فى انتقامه من

(1) Cf. M.I. Munro, J.R.S. 1932, p. 239 ff.

أعدائه السياسيين كان واضحا فى الاعلان عن قوائم هؤلاء الأعداء ، ولم يلجأ الى التآمر والاغتيال كما فعل غيره لأن الارهاب كان موجودا قبل سوللا وظل موجودا بعد سوللا لأنه كان منطق السياسة الرومانية فى العالم القديم ، وكل ما فعله سوللا هو أنه أعلن عن ضحاياه مقدما وفى النور لأنه كان شجاعا لا يخاف ، ألم يلجأ الاوليجارخيون الى العنف البربرى حتى ضد الأخوين جراكوس وأنصارهما والمصلحين الذين ساروا على هداهم ؟ ! أم يلجأ ماريوس نفســه الى سياسة العنف والتصفية ضــد الارستقراطيين ؟ ! ان التصفية الدموية ليست صفة فردية لسوللا ولكنها مرحلة من مراحل الثورة الرومانية لكن ذلك لا يعفينا من ادانة مثل هذا التصرف الذى جلب الكوارث على الانسانية وشجع الآخرين على تقليده لأنه أصبح سابقة مشروعة • لقد كان سوللا يتميز بصفات معينة أثرت فيه وفى سلوكه فقد كان انفعاليا يتحكم فيه دوافع الحب والكراهيــة ازاء الآخرين ، كما اعترف بنفسه فى العبارة التى كتبها على شاهد قبره ، كما كان قاسيا لا يرحم ، متطرفا فى العقاب دموى النظرة وله مزاج حاد وعنيف ، اذا ألقى عليه ذرة رمل ، رد بحجر ضخم ، تماما كما اعترف هو بنفسه فى القصة التى رواها للناس ونقلها لنا أبيانوس وهى حكاية الفلاح الايطــالى الذى حرق كل ثيابه ليتخلص من بعض البراغيث التى كانت تضايقه أثناء حرث حقله حتى يتفرغ للعمل [1] •

كذلك وجه مومسن نقــده الى سوللا بأنه لم يكن ملتزما حــتى بالقوانين التى سنها مثل قوانين الحد من البذخ والتبذير وقانون الخيانات الزوجية لأنه كان يعتبر نفسه فوق القانون ، بل انه كان مهملا غير منظم فى حياته الخاصة باردا وغير مكترث « كالتيس فى مواجهة الخطوب » كمــا كان متحيزا فى نظرته الى أصدقائه الذين كان يدافع عنهم ويبرر لهم أخطاءهم لدرجة أن أقام لأحد ضباطه المهزومين وهو مورينا قوس نصر كأنه قاهر ظافر ، ونفخ فى جنايوس بومبى ووصفه بالعظيم وهو يعلم أن ذلك يفوق قدراته الحقيقية ، بينما فتك بالكثيرين لأقل هفوة • ويقال أن السلطة هى التى أفسدت سوللا وحولته من رجل معتز بنفسه ، ذو طبيعة طيبة

(1) Appian, Civil, I 80 — 2

ونفس راضية ، الى طاغية متعطش للدمـاء متطرف فى استخدام القوة والعنف كما شهد بذلك معاصروه ، فبقدر ما كره وحقده على أعدائه بقدر ما أحب وتحيز وتعصب لأصدقائه الذين جنـوا من ورائه وعلى حسابه منـافع ومزايـا لا حصر لهـا ، ويعلل مومسن ذلك التصرف بأنه ربما يكون نابعا من الشعور باللامبالاه وعدم الاكتراث والقدرية المطلقة لدرجة أنه كان يعتبر النصر من صنع ربة الحظ وليس له فيـه أى دخل ، وأخيرا لم يكن سوللا ثوريا هداما بل كان مصلحا مرمما حاول قـدر الامكان ترميم الجمهورية [1] الأيلة للسقوط .

أما فريرو Ferrero فيرى أن سوللا لم يكن فى الأصل منحازا الى الحزب الارستقراطى ولكنه وجد نفسه بعد الحرب الأهلية منحازا الى الارستقراطية القديمة ، وذلك عندما تجمع حوله بقايا هذا الحزب وحيوه كزعيم ومخلص لهم ، وسرعان ما ظهر جيل من القادة العسكريين الشـبان من أمثـال بومبى وكراسوس وميتللوس بيوس اعتمد عليهم سوللا فى تنفيذ مخططاته تاركا جماعة الارستقراطيين القدماء لأنه أدرك أنهم يريدون استخدامه لتحقيق مخططاتهم ، يمثل اعلان سوللا الاعتراف بحقوق الايطاليين التى اكتسبوها هذا التحول ، وقد حاول سوللا أن يتفاهم مع الحزب الشعبى ولكن زعماء هذا الحزب تخوفوا منه مما جعل سوللا يعود مرة أخرى الى الارتماء فى أحضان الحزب الارستقراطى معتمدا على مساعديه من الضباط وقاد الثورة المضادة ضد الشعبيين . وفى المرحلة الأخيرة من حياته ترك العنف وعدم التفاهم ولجأ الى وسيلة جديدة تجمع بين العنف والتسايس من أجل اعادة بناء الجمهورية ومجتمعها الذى دمرت الحروب والثورة الأهلية معنوياته ، كما استطاع عن طريق الاغراء بالمال والثروة أن يضم اليه عددا كبيرا من رجال الحزب الشعبى ، الذين أصبحوا من أنصاره ، أما الذين رفضوا اغراءآته فقد آثروا الصمت خوفا منه ، ولم يصمد فى وجهه من زعماء الحزب الشعبى سوى سرتوريوس ، ولكن هذا الأخير أبعد الى أسبانيا فى مهمة هناك . وفى النهاية وجـد سوللا

(1) Theodor Mommsen, The History of Rome, (translated by W.P. Dickson), New York : Charles Seribner's Sons, 1911, Vol. 4,pp. 142-150

نفسه وقد قام بثورة كاملة وأصبح على قمة السلطة المطلقة معتمدا على جيش قـوى مخلص وأنصـار مخلصين ، وجماعة التفت حوله من أجل الكسب غير المشروع بينما ارتمى الحزب الشعبى محطما ومفككا عند قدميه ، وجلس السناتو ، يرقب باهتمام ما حدث لصالحه ، لأنه كان عاجزا عن أن يفعل شيئا .

ويرى « فريرو » أيضا أن تحولا حدث فى شخصية سوللا بعد توليه السلطة فقد كان هادئا متزنا ، مترفعا ومتعاليا وحادا فى الظاهر لكنه فى داخـله كان دموى المزاج ، عنيف الطبـع وقـد ظهرت هـذه الصفات المكبوتة نتيجة للحروب والصراع الذى دخله وتحول الى سفاح لا يعبأ بالتملق ولا بالمتملقـين ، ولا يثـق بأحـد حتى فى الحزب الارستقراطى نفسه ، واعتمد على أنصاره وقواته العسكرية فى برنامجه الاصـلاحى وبدون أن يكون وراءه أى حزب يشد من أزره أو يمده بايديولوجية معينة ، ولهـذا كان أول شىء فعله هـو أنه طلب من السناتو أن يعينـه دكتاتورا مطلقا الى أجـل غير مسمى ، وأذعن السـناتو لأنه لم يـكن يملك أن يرفض وصـدر قـانون فاليريوس Lex Valeria بمنحـه سلطة الدكتاتور ، وتلى ذلك قيامه بعمليـات التصفية والاستئصـال ضـد الحزب الشعبى وأنصاره ، وصـادر أمـوال ضحاياه وحـرم على أبنائهم دخول الوظائف العامة وأبطل عقود زواجهم من بنات الأشراف ، وسرعان ما امتـدت يده المنتقمـة الى أقاليم ايطاليـا وألحق ببعضهـا الخراب ، وأسكن جنوده المسرحين فى تلك الأراضى المصادرة كما لو كانوا يستعمرون أرضـا أجنبية ، وسرعان مـا التف حوله مجموعة غريبـة انتهازية من كـافة الطبقات والأوساط ابتـداء من الارستقراطيين المتطرفين من أمثال دوميتيوس أهينوباربوس الى رجال المال الجشعين من أمثـال كراسوس بما فى ذلك العبيد المحررين ، وتركهم سوللا ينهبون كالكـلاب المسعورة يشترون الضياع والعقارات المصادرة بأدنى الاسعار ومن ثم يرى « فريرو » أن سوللا انتهى باظهار احتقاره للارستقراطيين وللعـامة على السواء ، للأغنياء وللفقراء ، للرومان وللايطاليين للأشراف وللفرسان

اذ أنهم جميعا باتوا يرتعدون خوفا منه ورعبا ، يتزلفونه ويقدمون له فروض الطاعة والولاء ، ويرمقهم بنظرة كلها برود وعدم اكتراث ، مغرقا نفسه فى الملزات والحفلات الساخرة والمآدب الباهظة وفى صحبة صفوة النساء الأرستقراطيات ، واستغلت بطانته عدم اكتراثه فى جنى الثروات الباهظة خاصة أهينوباربوس وكراسوس ، وكانت وسيلتهم فى ذلك الوشاية بالابرياء الذين فتك بهم لادنى سبب ، واضطر كثيرون منهم الى الهرب خارج ايطاليا الى أسبانيا وموريتانيا وعند بلاط مثراداتيس ، أما من بقى منهم فى ايطاليا فظل ينتظر قدره لا يعلم ولا يدرى ما يخبئوه له غده ، ويضرب « فريرو » مثلا على تعنته مع من لا يحبهم لأدنى سبب فى تصرفه مع يوليوس قيصر الضابط الشاب عندما صب جام غضبه عليه لا لشىء الا لأن ماريوس كان متزوجا من عمته ، ووصل الغضب الى قمته عندما تزوج يوليوس قيصر من كورنيليا ابنة كنا الزعيم الشعبى ، عندئذ أمر الشاب الرومانى المتيم بحب زوجته أن يطلقها لأنها ابنة كنا عدوه ، ولما رفض يوليوس قيصر ، أوشك أن يدرج اسمه ضمن قوائم أعدائه ، وبالفعل هرب يوليوس قيصر خوفا على حياته لولا وساطة بعض الأصدقاء .

كانت فلسفة سوللا فى الاصلاح هى العودة بالمجتمع الرومانى الى ما كان عليه فى القرن الثالث ق . م . عندما كان المجتمع الرومانى لا يزال مجتمعا زراعيا تسوده الطبقية الحادة ، ولما تم له ذلك وشبع من التسلط اعتزل الحكم ليغرق نفسه فى البوهيمية فى بيته الريفى الجميل .

ويدافع « فريرو » عن سوللا ازاء الاتهام الذى يوجهه البعض له بأنه كان عسكريا طموحا ومغامرا ولا مبدأ له ، ويؤكد أن سوللا كان جمهوريا مخلصا بدليل أنه اعتزل الدكتاتورية عندما انتهى من مخططه الاصلاحى ، ربما لأنه كان يعرف عاقبة الدكتاتورية ، ويقول هذا المؤرخ أيضا أن الظروف هى التى جعلت دور سوللا محدودا فى التاريخ رغم طاقاته اللامحدودة ومن ثم لم يعد المثل الذى يحتذى به لأنه لم يأت بجديد . انما اصلاحاته كانت أفكارا نادى بها بعض المتطرفين الذين سبقوه ، وأنه كان غير مكترث الا للملذات والحياة البوهيمية ومن ثم

لم يترك من ورائه نظاما واضح المعالم لا جمهوريا ولا امبراطوريا بـل خلق نظام قمع وفتك ، ويعتقد « فريرو » أن المجتمع فى حاجة الى ثورة من حين لآخر تقلب الأوضاع رأسا على عقب كالأرض التى يجب أن تحرث من أجل قلب التربة طلبا لمحصول وفير ، ولـكن ما فعله سوللا لا يعدو أن يكون دمارا وخرابا ، ولذا جاء عمله وسلوكه متناقضا لأنـه وصل الى السلطة عن طريق ركوب موجة الحزب الارستقراطى ، ثم لجأ الى الرشوة وشراء ذمم الأنصار مستخدما الارهاب من أجل اعادة عقارب الساعة الى الوراء أيام كان المجتمع الرومانى لا يزال زراعيا فى جوهره وطبقيا فى تنظيمه • ولذا فلا غرابة فى أن اصلاحاته ذهبت مـع الريـح عندما ألقت بها رياح الثورة الاجتماعية بعيدا كالهشيم من العشب ، ولم يبق من اصلاحاته سوى ذكراه كرائد لفلسـفة الرعب والحـكم العسكرى المتصلف (١) •

أما جيروم كاركوبينو فقد وصفد نظام سوللا بأنه نظام ملكى مقنع غير معلن Monorchie manquée لأنه أدرك أن بهذا وحده يستطيع الاصلاح معتمدا على الارستقراطية والجيش وحزب الأنصار ، وأنه رجع عن مخططه فى اقامة الملكية عندما لمس تمرد الارستقراطية عليه فترك السلطة ، ليترك الارستقراطيين الأوليجارخيين يتحملون المسئولية وحدهم (٢) •

أما ستوكتون Stocktor فيعارض كاركوبينو فى أن سوللا أراد أن يؤسس نظاما ملكيا من تلقاء نفسه ، ولكنه سار فى طريق الحكم الفردى رغما عن أنفه Monarque malgré lui لأن الظروف هى التى دفعته الى السير فى ذلك الطريق ، كان الجميع ينتظرون كما قال شيشرون رجلا واحدا ليحكم كل شىء ويساعده فى ذلك طبيعته العسكرية الواضـحة والآمرة ، وهذا الطراز من القادة نقابله كثيرا فى التاريخ من أمثال كرمويل ، ونابليون ، وديجول ، وهو لم يحاول أن يسعى للدكتاتورية لذاتها ولكن احساسه بوجوب الاصلاح هو الذى سعى بالدكتاتورية اليه ، ولهذا جاء

(1) Guglielmo Ferrero, The Greatness and Dectine of Rome (translated by A.E. Zimmern) New York, 1909, Vol. 2, pp. 110— 117.

(2) Jérôme Carcopino, Sylla ou la monarchie manquée translated by Donald Kagan) Paris L'Artisan du luine, 1931, pp. 240 — 243.

قرار فاليريوس بمنحه الدكتاتورية من أجل اصلاح الجمهورية Dictator rei publicae constituendae causa وأنـــه بدون توليه السلطة لاتجـه العالم الرومانى نحو كارثة محققة ، والدليل على أنه لم يسعى اليها كهدف أنه تنازل عنها من تلقاء نفسه عندما أدرك انتهاء مهمته وعدم جدوى تلك السلطة المخالفة للعرف الديمقراطى الارســتقراطى ، واذا كان يوليوس قيصر الدكتاتور قد وصف سوللا فيما بعد بالجهل والرعونة ، لأنه ترك سلطة الدكتاتورية ، كما يذكر سويتونيوس (١) ، فان الحقائق قد أثبتت أن الجاهل هو يوليوس قيصر لأنه دفع ثمنا للتمسك بالدكتاتورية مدى الحياة ، لأن الرومان فى موضوعات الانشاء أيدوا وجهة نظر سوللا فى التخلى عن السلطة كما أشرنا من قبل ، كما أنه لم يكن من طبقة الارستقراطية ذات النفوذ ، بل كان من فقراء الارستقراطيين noblessé declinée ومن ثم لم يكن تحركة لخدمة طبقة الارستقراطية ذات النفوذ التى تسعى دائما الى احتكار السلطة وانما كان من أجل اصلاح الجمهورية على النهج الأرستقراطى .

---

(1) Suetonius, Divus Julius 77

(2) Donald Kagan, Problems in Ancient History, Vol. II: The Roman World, Cornal University, New York 1966, pp. 259 — 266.

الفصل الثاني

الصراع بين كراسوس وبومبى ويوليوس قيصر

المصادر التاريخية لتلك الفترة :

تعتبر فترة الثلاثين عاما التى تلت موت سوللا عام ٧٨ ق ٠ م وحتى هزيمة بومبى وسقوطه فى معركة فارسالوس عام ٤٨ ق ٠ م من أغنى فترات التاريخ الرومانى أحداثا وأكثرها مصادرا ووضوحا ، بل وأكثرها تعقيدا ٠ اذ تغير مجرى الأحداث بعد موت سوللا وأصبح تاريخ روما يصنعه ويتحكم فيه مجموعة من القادة السلطويين المتناحرين فيما بينهم ، وأصبح تاريخهم هو تاريخ روما وسلوكهم هو سلوكها ٠ ولم يستطع لا السناتو ولا الأليجارخيين وقلعتهم السناتو ، ولا الجمعية القبلية معقل الشعبيين أن يفعلوا شيئا ازاء طغيان هذه الشخصيات الفذة ، ومن أجل الدفاع عن الجمهورية المترنحة ، بل ساعد على ذلك غباء السناتو وقصر نظرته وتحيزه لبعض هؤلاء القادة والانعام عليهم بالسلطات الاستثنائية التى لا تتفق وقواعد الحكم الجمهورى وقوانين سوللا التنظيمية ، ومما ساعد على تضخم شخصية هؤلاء القادة ، هو أن من ورائهم وقفت جيوشهم مخلصة لهم أكثر من اخلاصها للجمهورية ، كما كشف القناع عن حقيقة مرة وهى أن الجيش الرومانى أصبح هو العامل الأساسى فى تسيير دفة شئون الدولة الداخلية ، والخارجية ، بل ومن الناحية الاجتماعية دخل الجيش طرفا فى الصراع الطبقى ، وذلك أنه منذ اصلاحات ماريوس للجيش انخرط فى صفوفه الفقراء والمعدمون والايطاليون والتفوا حول قادة علقوا على وصولهم للسلطة آمالهم فى حل مشاكلهم ، كما أدرك هؤلاء القادة أن الوصول الى المجد السياسى لا يمكن أن يتأتى الا عن طريق الانتصارات فى المعارك وردع الأخطار التى بدأت تحيق بالجمهورية من كل مكان ، وازاء ذلك وقف السناتو عاجزا عن الدفاع عن مصالح الجمهورية ، ورضخ الى تسليم السلطات المكثفة أو الاستثنائية والتى تتنافى وروح الجمهورية

الأصيلة الى بعض القادة الذين كان يأمل فى استقطابهم اليه بالرغم من أنه كان يشك فى نواياهم ، كما لجأ فى بعض الأحيان الى سياسة الوقيعة بين هؤلاء القادة حتى يصفى بعضهم البعض ، عله يتمكن هو فى تصفية الباقى منهم ، والعودة الى الجمهورية القديمة • ولذا يرى البعض أن مسئولية خلق هذا الخطر تقع على مسئولية السناتو الذى أذعن لهم جميعا ومنحهم السلطات الاستثنائية سواء فى المجال العسكرى أو المدنى أو الاثنين معا، كما تقع المسئولية أيضا على الشعبيين الذين نافسوا السناتو فى ذلك أملا فى كسب بعضا من هؤلاء القادة • ولذا يرى البعض أن هذه الفترة شهدت نهاية الجمهورية وسقوطها • ولكن الحق يقال لا يمكن أن نلقى بالمسئولية على السناتو وحده ولا على الجمعية القبلية معه ، ولكن يجب أن نضع فى الاعتبار الظروف والمبادىء التى سادت فى تلك الفترة العصيبة والتى شهدت أخطاء قاتلة ، فضلا عن الأزمات الداخلية والخارجية التى صنعت هذه الذئاب السلطوية الكاسرة والبعيدة عن روح الجمهورية القديمة وقوانينها الديمقراطية ، اذا استغلوا الأزمات السياسية والاجتماعية والاقتصادية ليزيدوا من مراكزهم وليطغوا على السلطة مستغلين أحد الحزبين المتصارعين •

ان مصادرنا التاريخية لهذه الفترة هى استمرار للمصادر التى اعتمدنا عليها فى الفترة السابقة ، ويجىء فى مقدمتها مؤلف بلوتارخوس عن سير العظماء بنظرته الأخلاقية فى التاريخ فكتب مثلا عن كراسوس ، وبومبى ، وسرتوريوس • الى جانب ذلك تهمنا خطب شيشيرون السياسية الكثيرة لأنه شاهد عيان عاصر الأحداث بل ولعب فيها دورا أساسيا كما سنرى ، كذلك من المصادر الأدبية الهامة مؤلفات الكاتب سالوستيوس Sallustius الذى تخصص فى تغطية أحداث الفترة ما بين ٧٨ — ٦٧ ق • م وهى وان لم يتبق لنا منها سوى مؤلف واحد كامل وهو الحرب ضد كاتيلينا ، الا أنها أساسية وهامة لأنه كتب عن الحرب ضد يوجورتا أيضا •

ومن المصادر التاريخية الهامة أيضا مؤلف كاسيوس ديو (Cassius Dio)

الذى أخذ كثيرا من مادته نقلا عن تيتوس ليفيوس خاصة أحداث القرن الأخير قبل الميلاد •

تزايد السخط على تشريعات سوللا :

كما سبق أن لمحنا لم ترض تشريعات سوللا الا فئة قليلة من الرومان ، اذ عادت السحب الى التجمع بعد موته ، وأخذت المشاكل تتجمع من جديد ، فمن ناحية عاد الحزب الشعبى وأنصار ماريوس الى الظهور مطالبين برد حقوقهم التى سلبها منهم سوللا باجرأته الدموية والتعسفية ، ومن ناحية أخرى بدأ جنود سوللا الذين وطنهم فى الأراضى المصادرة يشعرون ويدركون أن الزراعة والاستقرار لا تتناسب ونفسيتهم التى تعودت على الحركة والعنف والتنقل ، كما أدركوا أنها ليست بالمهنة المغدقة بالأموال كما كانوا يتصورون قبل توزيع الأراضى عليهم وبدأوا يحنون الى الحرب والعنف وما تدره عليهم من سلب ونهب وتأثير فى الأحداث ، أما بالنسبة لبروليتاريا العاصمة وفقراؤها ، فقد راحوا يطالبون بوجوب العودة الى توزيع القمح المخفض والذى ألغاه سوللا ، كما راحت طبقة رجال المال والأعمال من الفرسان Equesteri تنتقد علنا قوانين سوللا التى حرمتهم من الاستغلال والجشع توالت الأزمات الخارجية ، ففى الشرق عاد مثراداتيس السادس الى سوللا •

والى جانب الخطر الداخلى الذى حاق بالجمهورية بعد موت سوللا ، توالت الأزمات الخارجية ، ففى الشرق عاد مثراداتيس السادس الى استغلال الفرصة وراح يمد نفوذه فى آسيا الصغرى على حساب روما ، وفى أسبانيا أحد مصادر القمح الهامة قاد سرتوريوس (Sertorius) أحد زعماء ماريوس ثورة شعبية ضد السناتو والحكم الأوليجارخى وجمع حوله المعدمين ، والفقراء والمنفيين من أنصار ماريوس ، من كافة شواطىء البحر الأبيض المتوسط والذين رأوا فى القرصنة حرفة للكسب والعيش والاسترزاق ورمزا لاعلان السخط والثورة ضد الوضع الاجتماعى الظالم ، كما هبت ثورات العبيد فى كل مكان وزاد نفوذ القراصنة فى شرق البحر المتوسط وأصبحوا يهددون مصالح روما ذاتها •

وأخيرا بدأ أعضاء السناتو يتخلون عن التمسك باصلاحات سوللا لانهم كانوا يكرهون الدكتاتورية مهما كان دافعها ، وبل سر بعضهم لموت سوللا لأنهم أدركوا أنهم يستطيعون العودة للتحرك والتآمر كما كانوا يفعلون فى الماضى لانهم كانوا يعتقدون أن السياسة هى لعبة الارستقراطيين ، بحكم الوراثة وبحكم تاريخهم ووضعهم الاجتماعى وخبراتهم فى الحكم والسياسة . وقد وجد هؤلاء فى بومبى ضالتهم المنشودة . ووقفوا وراءه رغم علمهم بنواياه وطموحه ، بل وتغاضوا عن أخطائه .

تمرد ليبيدوس عام ٧٨ قبل الميلاد :

اذن كان من المتوقع ألا يسكت قطاع كبير من المجتمع الرومانى على الظلم الذى وقع عليهم من قبل اصلاحات سوللا ، فقد خلف العنف والكراهية والاحساس بالظلم بعد أن طرد أناسا من الوظائف وصادرا أملاك آخرين وضيق الخناق على جامعى الضرائب من رجال الفرسان ، وحرم غوغاء روما من التمتع بالقمح الرخيص .

وكان أول من رفع راية التمرد على قوانين سوللا واصلاحاته الرجعية هو القنصل ماركوس ايميليوس ليبيدوس (Lepidus) قنصل عام ٧٨ ق . م (١) بالرغم من أنه كان ينتمى الى أسرة أرستقراطية عريقة وأحد بطانة سوللا والذى جمع ثروة هائلة من الأملاك المصادرة وكوارث الضحايا ، كما أنه نهب صقلية عندما كان حاكما عليها ، ولما تزايد الهجوم عليه وطالبت أصوات بتقديمه للمحاكمة لجأ الى حيلة للتخلص من ذلك وهو الارتماء فى أحضان الساخطين واعلان راية العصيان على السناتو والحكم الأوليجارخى ومحاولة الظهور كقائد للجانب الثائر والمعارض ومن العجيب أن بومبى كان أحد المتحمسين له فى تلك الفترة . ولقد كان بومبى على النقيض من سوللا فقد كان ينتمى الى الطبقة الوسطى ولكنه كافح ليصل الى سطح المجتمع

---

(١) حفظ لنا سالوستيوس بعضا من الخطبة التى تضمنت تمرده على قوانين سوللا ويعتقد رايس هولمز انها القيت فى نهاية عام ٨٩ ق.م. وعن مصادر تمرد ليبيدوس وثورته على تشريعات سوللا انظر :

T. Rice-Holmes, The Roman public and the Founder of the Roman Empire, I, New York, oxford University Press 1927, Vol. I, P. 265.

مستخدما مميزاته النفسية والعقلية اذ كان شجاعا مقدما ، ومنظما ممتازا ، وجنديا جسورا وماهرا ولكنه كان متعجلا فى الوصول الى قمة السلطة مما جعله يرتكب أخطاءا كثيرة • لقد كان بومبى انتهازيا ولاؤه لنفسه ولطموحه ولا يكن حبا لا للسناتو ولا للشعبيين ولكنه لم يتورع فى أن يدخل لعبة السياسة ويركب الموجة الى حيث تتجه ، ولم يتورع فى أن ينحاز لأى فريق من أجل مصلحته ومكاسبه •

وما أن خبت النيران وتحول جثمان سوللا الى رماد حتى أعلن لبيدوس برنامجه الاصلاحى مستغلا السخط السائد على دستور سوللا من كافة طبقات الشعب الرومانى ومن أجل أن يضم اليه أنصارا جددا ، وقدم برنامجا اصلاحيا تضمن أربعة نقاط هى أن يعيد السناتو نظام توزيع الدولة للقمح الرخيص الثمن لفقراء روما ، والعفو عن المنفيين السياسيين من أنصار ماريوس والحزب الشعبى الذين ذهبوا الى المنفى طواعية أو اجبارا ، وارجاع الهيبة والسلطة الى منصب نقيب العامة بعد أن سلبها سوللا سلطاتها والعودة بها الى ما كانت عليه منذ الأخوين جراكوس ، ثم ارجاع الممتلكات والضياع والأراضى التى صادرها سوللا الى أصحابها • وقد أعلن السناتو أنه يقبل عودة قانون القمح والعفو عن المنفيين السياسيين ، لكنه رفض بشدة باقى المطالب ، وسرعان ما بدأ المنفيون يتوافدون فعاد ماركوس بيرنا (Marcus Peperna) ولوكيوس الابن ، كما عاد الضابط الشاب جايوس يوليوس قيصر • وبدأ النشاط يدب فى عروق الحزب الشعبى من جديد ، ونشطت الجماعات والنوادى السياسية (Collegia) وبدأت الدعوة الى التمرد والثورة ضد قبضة السناتو الأوليجارخية • بل اندلعت الثورة والتمرد بالفعل فى اقليم اتروريا الذى كانت مركز تجمع المعدمين وأنصار ماريوس ، حيث بدأ أصحاب الضياع المنزوعة فى الظهور ، ومطاردة جنود سوللا من أراضيهم ، وقد ظهرت رعونة السناتو عندما سلح جيشا وعين على رأسه القنصل ماركوس لبيدوس صاحب البرنامج الثورى ضد قوانين سوللا وطالبه بالقضاء على حركة التمرد التى كانت تتزايد قرب فلورنسا فى اقليم اتروريا ، وسافر لبيدوس الى غالة القريبة حيث ضم اليه أنصارا جدد ، ثم

سار الى اترוريا حيث كان نائبه العسكرى ماركوس يونيوس بروتوس فى انتظاره ، وبدلا من أن يسحق لبيدوس الثوار دعاهم للانضمام الى جيشه والسير الى روما لاجبار السناتو على قبول شروطهم وهى اعادة المهابة الى سلطة التربيون وقبول السناتو ترشيح لبيدوس لمنصب القنصل لعام ٧٧ ق ٠ ، ولما أرسل السناتو وسطاءه ، تفاوضوا مع لبيدوس وقبلوا شروطه مقابل أن يسرح جيشه ، ولما انتهت مدة قنصليته عاود لبيدوس المطالبة بوعد السناتو واعادة انتخابه قنصلا للمرة الثانية ٠ ولكن السناتو تنكر لوعده وأرسل جيشا لمحاربته يقوده شريكه فى القنصلية والموالى للسناتو وهو كونتوس لوتياتوس كاتللوس (Quintus Lutatius Catullus) وفى نفس الوقت أرسل السناتو بومبى لمواجهة ماركوس بروتوس مساعد لبيدوس ، ونجح كاتللوس بمساعدة جنود سوللا القدماء فى طرد لبيدوس وأعوانه من روما وطاردوه حتى اقليم اتروريا ، بينما بسرعة نجح بومبى فى هزيمة ماركوس يونيوس بروتوس والقبض عليه واعدامه ، ثم تعقب بومبى لبيدوس شمالا فى اتروريا وهزم لبيدوس عند مدينة كوسا (Cosa) وانفض معظم مؤيديه ، ففر الى سردينيا ومعه بطانته الخاصة وبعضا من جنوده ، ولكنه لم يعش بعد هذه الهزيمة طويلا ، أما ماركوس بيرنا الزعيم الشعبى فقد قاد بقايا قوات لبيدوس المندحرة الى أسبانيا ليضمها الى قوات سرتوريوس أحد زعماء الثوار الشعبيين والذى كان فى حالة حرب دائمة مع روما منذ عام ٨٠ ق ٠ م ، أما بومبى الذى بدأ نجمه يظهر فى سماء السياسة ولقبوه بالجلاد المتجول لقسوته فى تصفية أعدائه فقد رفض أن يصرف قواته ، بل احتفظ بها كوسيلة لارهاب السناتو ولاستغلالها عندما تحين الظروف ، وظل يتربص وينتظر الأحداث الجديدة حتى صدرت اليه الأوامر بالتحرك الى أسبانيا لقمع ثورة سرتوريوس ٠

الحرب ضد سرتوريوس فى أسبانيا :

ما من شك فى أن كونتوس سرتوريوس كان من أعظم الكفاءات العسكرية فى التاريخ الرومانى ، وكان من أشهر أتباع ماريوس ، حيث حارب معه ضد التيوتون والكمبريين ، وفى الحرب الأهلية الايطالية ، فتعلم منه كثيرا وكسب

خبرة عظيمة من هذه المعارك ، وكما أشرنا من قبل أن الزعماء الشعبيين كانوا يحقدون على سرتوريوس ، ولو كانوا وضعوه فى القيادة لربما تمكن من هزيمة سوللا عام ٨٣ ق • م وقضى عليه ، ولكن زعماء الحزب الشعبي تخلصوا منه ومن انتقاداته وهم فى ظروف هم أحوج فيها له ، وأرسلوه الى أسبانيا فى مهمة عسكرية هناك • ومنذ عام ٨٢ ق • م وحتى عام ٧٢ ق • م أى لمدة عشرة سنوات راح سرتوريوس يطبق (١) فى أسبانيا أفكار الزعماء الشعبيين والمصلحين من أمثال الأخوين جراكوس وفولفيوس فلاكوس ، بل بدأ فى صبغ أسبانيا بالصبغة الرومانية حضاريا وثقافيا ، ومنح الجنسية لعدد كبير من الأسبان، وسرعان ما قاد الثورة المضادة للاوليجارخية الرومانية، وتجمع حوله الثوار الأسبان وأحسوا أنهم كسبوا به قائدا عظيما ، وأحس هو أيضا بمدى قوته بعد ضم رجال حرب العصابات الأسبان اليه ، وكانوا متمرسين فى ذلك المجال ، وبدأ سرتوريوس يمزج روح الانضباط العسكرى الرومانية بتكتيك رجال العصابات ، فظهرت فاعلية هذا التكتيك الجديد ، وسيطر به على معظم أجزاء أسبانيا ، مما أثار القلق فى روما ، وكان سوللا قد أرسل أحد قادته الأكفاء لتعقب سرتوريوس والقضاء عليه وهذا القائد هو كونتوس ميتللوس (Ouintus Metellus) أحد قنصلى عام ٨٠ ق • م ، وعينه حاكما على أسبانيا البعيدة • ولكن ميتللوس فشل فشلا ذريعا فى القضاء على سرتوريوس وثورته ، كذلك فشل كل من جاء ليساعده ، وما أن جاء عام ٧٧ ق • م حتى كان سرتوريوس يسيطر على معظم أجزاء أسبانيا، وأعلن أنه الحاكم الشرعى لهذه المنطقة وأنه لا يرفع السلاح ضد الشعب الرومانى ولكن ضد تسلط السناتو ، بل وذهب الى حد انشاء مجلس شيوخ صغير من أنصار الحزب الشعبى الديمقراطى الذين تدفقوا على أسبانيا وملاءوا المناصب المدنية والعسكرية فى حكومة سرتوريوس والتى أقامها فى المنفى هناك ، بل ووجد

---

(١) جمع شولتن Schulten كافة المصادر عن الثورة السرتورية فى اسبانيا انظر :

A, Schulten : Fontes Historiae Hispaniae Antiquae, IV (1937) P. 160 ff.

سرتوريوس تعاطفا وتفهما من جانب قراصنة البحر المتوسط وكذلك من مثريداتيس السادس ملك بنطوس وأصبح مركز سرتوريوس أقوى بكثير بعد أن انضم اليه الزعيم الثائر بيرنا وبقايا قوات لبيدوس .

ولما أدرك السناتو مدى الخطر الذى يكمن فى تحدى سرتوريوس والشعبيين لسلطة الجمهورية الأوليجارخية ، وأدركوا عجز معظم القادة العسكريين الذين أرسلوهم لسحق الثورة فى أسبانيا ، لجأوا الى البطل الجديد بومبى ومنحوه بالرغم من صغر سنه سلطة الأمبريوم البروقنصلى بصفة استثنائية فى أسبانيا لكى يقود جيشا رسميا ضد سرتوريوس عام ٧٧ ق . م ، ولم يتردد القائد الطموح الانتهازى فى قبول العرض المغرى فمنحه سلطة لا تمنح الا للقناصل السابقين وهو الذى لم يتول أى منصب فى سلك الوظائف العليا من قبل ، وكان عرضا نادرا ، كما أن وضع جيش رسمى وقوى تحت ادارته كان سلاحا يستطيع رفعه ضد السناتو اذا تراجع عن منحه المزيد من السلطات ، ويفسر البعض هذا السلوك من جانب السناتو بأنه ضرب من ضروب المغامرة والمقامرة .

سار بومبى الى أسبانيا على رأس جيش يبلغ تعداده ٤٠٫٠٠٠ رجل ولكنه بقى عاجزا عن هزيمة رجال سرتوريوس الأكفاء والذين حنكتهم حرب العصابات ، وظلت الغلبة لسورتوريوس حتى عام ٧٤ق.م عندما نشط فجأة ميتللوس الذى كان لا يزال يحارب فى أسبانيا منذ أن أرسله سوللا وحقق عددا من الانتصارات على سرتوريوس كانت بداية التحول لصالح روما . أما بومبى فقد أرسل الى مجلس الشيوخ تهديدا يطلب المزيد من الدعم العسكرى والا انسحب من أسبانيا وعاد الى روما (١) ، وبالطبع ذعر السناتو

(١) عن تهديد بومبى بذلك انظر :

E. Badian, Foreign Clientale, P. 297.



تمثال من الرخام يعتقد انه يمثل بومبى الكبير

من هذا التهديد لأنه لم يكن يريد أن يرى بومبى يطرق أبواب روما بقواته ، فسارعوا وأرسلوا قوات كبيرة لدعم بومبى ،والحق يقال لقد غيرت هذه الامدادات مجرى الأحداث وظهر تأثيرها فعالا على الجيوش الرومانيه وبدأ بومبى يحقق انتصارات ويكسب جولات ضد سرتوريوس منذ عام ٧٣ق٠م٠ لكنه لم يتمكن من هزيمته هزيمة نهائيه ٠

وجاءت الفرصة عندما وقع خلاف بين سرتوريوس وقائده بيرنا خلال عام ٧٢ ق ٠ م انتهى بأن دبر الأخير مؤامرة راح ضحيتها سرتوريوس الذى كان قد بدأ يعانى من هروب الأسبان وعودة الثوار والأنصار الرومان الى ايطاليا ، ولم يجد بومبى صعوبة من القضاء على بيرنا والقبض عليه واعدامه وصادر وثائق هامة كانت فى حوزته ، ويقال أنه وجد بينها أدلة تثبت اشتراك شخصيات كبيرة من الرومان فى تشجيع الثوار فى أسبانيا ، ولكن بومبى آثر أن يحرقها ٠

ولما علم ميتللوس بهزيمة بيرنا وسحق الثوار سارع عائدا عام ٧١ ق ٠ م وعبر الألب مطالبا بحقه فى النصر الذى حققه على سرتوريوس فى أسبانيا والمرور تحت قوس من النصر كعادة القوات المنتصرة ، والحق يقال لقد ساهم ميتللوس مساهمة كبيرة فى تسهيل مهمة بومبى وبدون انتصاراته الطويلة ما تمكن بومبى من الانتصار ، لأن مهمة بومبى كانت اكمال الشوط الأخير من المعركة وهو فى ظروف أحسن بعد وصول الامدادات الضخمة اليه تحت التهديد ،كما أن الحظ وضع بين يديه حادثة الخلاف بين سرتوريوس رأس الثورة المفكر وبين بيرنا القوة المنفذة لأفكارها ٠

ثورة العبيد بزعامة سبارتاكوس (١) (٧٣ — ٧١ ق٠م) :

بينما كانت المخاطر تهدد روما فى شرق وغرب البحر المتوسط ، اندلعت ثورة عاتية قادها العبيد الجلادون، من داخل ايطاليا ذاتها ، وخرجت من ثكنات هؤلاء العبيد الذين كانوا يتمرنون فيها على المبارزة ، ليعرضوا

---

(١) لمناقشة مصادرنا عن ثورة العبيد انظر

Rice-Holmes, op. cit., I, P 386.

مهاراتهم أمام الجماهير الرومانية حتى يقتل أحدهم الآخر ، وقاد هذه الثورة عبد من تراقيا ربما كان يجرى فى عروقه دماء ارستقراطية واسمه سبارتاكوس، وكانت ثكنات العبيد الثوار فى كابوا بالقرب من جبل فيزوفيوس حيث البركان الخامد ، ولهذا لجأ الثوار الى هناك وحصنوا أنفسهم ووجهوا نداء الى عبيد الضياع بتحطيم الاغلال والانضمام الى الثوار ، وسرعان ما زاد عدد الثوار من سبعين عبدا الى سبعين ألف من الرفاق المتمردين بعد أن انضم الى الحشد الثائر بقايا الغاليين والجرمان والكلتيين الذين كان ماريوس قد هزمهم وعاد بهم أسرى ابان الحروب ضد الكمبريين والتيوتون، كما انضم اليهم الرعاة فى الجنوب ، وسلحوا أنفسهم تسليحا ثقيلا عن طريق سرقة الأسلحة من الجنود الرومان أو عن طريق شرائها من القراصنة ، وقد جعلت قسوة الحياة التى كان يحياها هؤلاء العبيد سلوكهم دمويا فتاكا ومدمرا بشكل يفوق ما كان يرتكب ضد الرومان حتى فى الحروب الكبرى واندفعوا كالطوفان جنوبا . وفى البداية لم يدرك السناتو مدى الخطر الحقيقى الذى يتمثل فى هؤلاء الثوار لأنه أرسل عددا من الجيوش غير المبالية ، ويقودها ضباط غير أكفاء، ومن ثم هزم سبارتاكوس وجنوده خمسة ضباط كبار من الرومان يحملون رتبة البرايتور وهى رتبة لا يعلوها سوى القنصلية ، بل هزم قنصلى عام ٧٢ ق . م ، ولما شعر السناتو بحقيقة الكارثة، لم يجد مجلس لسناتو بدا من الالتجاء الى كراسوس الثرى ، أحد كبار رجال سوللا وزعيم رجال المال والأعمال ، وعينه قائدا للقضاء على ثورة العبيد ، وأمده بستة فرق بالاضافة الى بقايا الجيوش التى هزمها سبارتاكوس،وقد لجأ السناتو الى كراسوس لأن بومبى كان لا يزال موجودا فى أسبانيا .

لقد كانت ثورة العبيد نتيجة طبيعية ومنطقية لسوء حالهم وقسوة معاملة أسيادهم الرومان لهم أثناء العمل فى الضياع الزراعية ، والمزارع المتخصصة ، ولم يكن سبارتاكوس — كما بالغ بعض المؤرخين ذوى المبادىء الاشتراكية والماركسية — لم يكن لا مصلحا اجتماعيا أو زعيما ثوريا ، بل لم يكن سوى مجرد زعيم متمرد على ظلم المعاملة ، ثم تجمع حوله أنصار

من عبيد المزارع وكان يمكن أن يضم اليه عبيد المنازل العاملين فى المدن ولكنه ركز على عبيد المزارع . وكان هـدف الثوار لا يزيد عن التجمع والعودة الى أوطانهم ، لأنهم تجمعوا فى كالابريا فى جنوب شرق ايطاليا أملا فى عبور بحر الادرياتيك الى تراقيا أو الى آسيا الصـغرى حيث موطنهم الأصلى ».

كان كراسوس مثل لوكوللوس (Lucullus) وبومبى ، وميتللوس أحد رجال سوللا ، بل كان العامل الأساسى فى انتصار سوللا على الحزب الشعبى عند بوابة تل الكوللين ، ولهذا كافأة سوللا ، وتركه يستفيد ويروى جشعه فى التملك عن طريق شراء الممتلكات المصادرة بأثمان رمزية فأصبح له ضياع شاسعة ، ومناجم غنية ، فضلا عن تعامله بالربا الفاحش ، لأنه كان ينتمى الى أسرة عريقة ذات تاريخ طويل فى مجال التجارة وادارة الأعمال وعرفت هذه الأسرة بآل الثرى (dives) ولهذا سمى بلقب كراسوس الثرى (Crassus dives) ، ولهـذا أصبح كراسوس من أغنى أغنياء الرومان ، خاصة أنه اشتغل أيضا بتجارة الرقيق المربحة ، حيث كان يشترى العبيد من القراصنة بأثمان زهيدة ثم يمرنهم ويبيعهم بأثمان باهظة ، بل أن جشعه دفعه الى حيلة خبيثة وهو تدريب فريق من العبيد على أعمال اطفاء الحرائق التى كانت تحدث كثيرا فى روما لأن معظم منازل ومبان المدينة كانت تسقف بالخشب والبوص ، فضلا عن عدم وجود فرق متخصصة فى الاطفاء وعندما كان كراسوس يعلم بوقوع حريق ، كان يسارع وعبيده المتخصصون الى مكانها ، ثم يبدأ فى مفاوضة أصحاب المنازل المحترقة أو التى على وشك من الاحتراق على بيعها بثمن بخس ، وعادة كان أصحاب المنازل المنكوبين يوافقون على ما يعرضه كراسوس ، عندئذ يأمر عبيده باطفاء الحرائق ثم يعيد بيعها بثمن غال ، واذا رفض أصحاب المنازل عرضه ترك النيران تأكلها دون أن يتدخل هو أو عبيده .

ولقد دخل كراسوس لعبة السياسـة لحماية مصالح الفرسان ورجال الأعمال الذين كانوا يطمعـون فى المزيد من الامتيازات التى تحقق لهم المزيد من الأرباح ، بل كانوا يطمعون فى الحصول على المزيد من المكاسب

السياسية التى يحجبها السناتو عنهم لأن السناتو كان ينظر اليهم باحتقار شديد لوضاعة أصولهم ولأن السناتو كان يعتقد أن هؤلاء الفرسان هم الذين استفادوا من الظروف السيئة ونهبوا الجمهورية وولاياتها وكونوا ثروات باهظة بأساليب لا أخلاقية • لكن أموال هؤلاء الفرسان كانت لها تأثير داخل مدرجات السناتو ، اذ لم يكن هناك عضو من أعضاء السناتو الا واستدان من كراسوس الثرى ، وكان كراسوس يسعى دائما أن يكلف بمهام عسكرية يحقق بها انتصارات ليعزز من مركزه السياسى ، ولهذا ضغط بنفوذه داخل السناتو حتى كلف بمهمة القضاء على العبيد وهى مهمة سهلة ومضمونه النصر ، تساعده على أن يرشح نفسه لمنصب القنصل اذ انتصر • وأن يقام له قوس نصر يمر من تحته كعادة القادة المنتصرين •

وبعد التدريب اللازم تعقب كراسوس — العبد الثائر سبارتاكوس جنوبا الى اقليم بروتيوم (Bruttium) وحاصره بين جبال الابنين من ناحية وبين خندق حفره بنفسه وبرجاله من ناحية أخرى ، ولكن سبارتاكوس نجح فى احدى ليالى الشتاء المظلمة من اختراق الحصار والسير الى اقليم لوكانيا وقد هز ذلك الحدث كراسوس وأثار الشكوك فى مقدرته عند رجال السناتو واستغل أنصار بومبى من رجال السناتو هذه الفرصة ليدفعوا برجلهم الى الامام فيكمل الشوط الأخير من المعارك ويكسب النصر تماما مثلما فعل فى أسبانيا ، وحتى يحرموا كراسوس من فرصة استغلال انتصاره فى مكاسب سياسية يصل بها الى القنصلية ، فحصلوا على قرار من السناتو بأن يتوجه بومبى وقواته المنتصرة الى جنوب ايطاليا لسحق ثورة سبارتاكوس ، ولم يتردد بومبى فى الامساك بهذه الفرصة النادرة ،وسار بجيوشه الى جنوب ايطاليا عام ٧١ ق • م ولم يكن هناك مبرر للرعب،وانتشار الذعر بعد كسر سبارتاكوس لحصار كراسوس لان كراسوس كان قد الحق ضربات مؤلمة بالثوار ، فضلا عن حدوث الشقاق بين العبيد الجرمان الكلتيين والعبيد الأسيويين ، وأصبح كل فريق يحارب بمفرده ، وكان كراسوس قد تمكن من سحق الجرمان والكلتيين ، ثم تمكن من هزيمة سبارتاكوس وعبيده الاسيويين والرعاة ، وصلب سبارتاكوس ،بعد تاريخ حافل من الانتصارات على مدى عامين هزم فيها تسعة جيوش رومانية •

أما بومبى الذى دخل الى المعركة متأخرا فقد قابل عند دخول اتروريا حشدا من العبيد الهاربين يبلغ تعداده خمسة آلاف متمرد ، فضرب حولهم الحصار بقواته وحصدهم عن آخرهم ، معلنا أنه قد أنهى ثورة العبيد الكبرى .

لقد أهمل كراســوس فى القبض على العبيد الفارين وارجاعهم الى أسيادهم ، وشغل نفسه باستعراض قوته ، ليرفع من روح جنوده المعنوية ، ويكسب تأييد السناتو والشعب الرومانى ، ولذا قام بصلب ستة آلاف عبد على طريق أبيوس (Via Appia) من كابوا حتى روما ، مما أعطى بومبى فرصة فى تصفية بقايا العبيد واعلان انتهاء الحرب ، وحقه فى المطالبة بقوس نصر . وبذلك نجح فى سرقة الأضواء من كراسوس الذى أصر بدوره على أنه صاحب النصر الأول .

لقد كان من نتائج ثورة العبيـــد بداية لفت الأنظار الى الأحـــوال السيئة التى كانوا يعيشون فيها والمطالبة بتحسين أوضـــاعهم ، وكذلك أوضاع الطبقات العاملة والكادحة من الناحية الاجتماعية ومعاملتهم معاملة انسانية ، أما من الناحية السياســـية فقد كانت نهاية ثورة العبيـــد بداية الكراهية والصراع بين بومبى وكراسوس لأن كليهما وصل الى أبواب العاصمة مطالبا بحقه فى دخولها فى موكب نصر .

قنصلية بومبى وكراسوس عام ٧٠ ق.م :

وعلى مشارف المدينة عسكر جيشان كل منهما (١) يطالب بالمرور تحت قوس النصر (triumphus) حيث تناديه الجمــاهير بالقــائد المظفر (imperator) ، وطالب كل من بومبى وكراسوس بالمكافأة من مجلس السناتو ، بل طالب كل منهما بحق الترشيح لمنصب القنصل لعام ٧٠ ق . م ،

---

(١) عن هذه الأزمة انظر :

R.E. Smith, Classical Quarterly, 1957,, P. ff.

وقد أحس مجلس الشيوخ بحرج شديد ازاء بومبى لأنه لم يكن مؤهلا لشروط القنصلية فهو لايزال فى السادسة والثلاثين بينما حسب قوانين سوللا لايجوز الترشيح لمنصب القنصل قبل الثالثة والأربعين ، كما أنه لم يسبق له التدرج فى سلك الوظائف العليا الممهدة للقنصلية بل ولم يتول حتى البرايتورية أو حتى الكوايستورية ، كل ما تولاه سلطات استثنائية عسكرية لمهام معينة مثل سلطة قائمقام البرايتور التى تولاها لقيادة الحرب ضد سرتوريوس وفى نفس الوقت كان كراسوس مؤهلا وتنطبق عليه الشروط لكن السناتو لم يكن يريد كراسوس أن يتفوق على بومبى ، فحاول تسويف الموضوع بالنسبة للطرفين ، ولكن بومبى لم يفهم ماعناه السناتو ، وظن أن السناتو قد خلا به فقرر أن ينتهز ويستغل قضية العامة لتهديد السناتو ، ووجد السناتو أنه من الصعب أن يطلب من رجل مثل بومبى كان يتمتع بسلطة قائمقام البرايتور أن يبدأ من أسفل سلك الوظائف من البداية ، وأخيرا لم يجد السناتو بدا من أن يلحق قوانين سوللا ويرشح بومبى قنصلا ، جنبا الى جنب مع كراسوس لعام ٧٠ ق ٠ م .

ولكن قرار السناتو جاء متأخرا فقد كان بومبى قد تورط مع العامة والحزب الشعبى ووعدهم بالعمل لارجاع المهابة الى سلطة التريبون وتزعم حركة زعماء العامة للمطالبة لاسترجاع حقوقهم والتى تكررت فى أعوام ٧٦ ، ٧٤ ، ٧٣ ق ٠ م ، وهكذا أصبح بومبى سجينا لعهوده ووعوده وبالفعل كانت قوانين سوللا قد بدأت تنهار بالنسبة لطبقة العامة وذلك عندما أصدر القنصل أوربيليوس كوتا قرارا عام ٧٤ بحق ترابنة العامة فى ترشيح أنفسهم للوظائف العليا ، وفى ٧٣ ق ٠ م ، أصدر القنصلان ترينتيوس وكاسيوس (Terentius and Cassius) قرارا يسمح بشراء القمح من صقلية فى برنامج التغذية العامة وتوزيعه على الفقراء بثمن رمزى .

ظهور شيشرون فى عالم السياسة الرومانية :

ولد شيشيرون فى عام ١٠٦ ق ٠ م (١) فى بلدة أربينوم (Arpinum) وكان أبوه أحد رجال الفرسان من أسرة ميسورة الحال ، ولذا فقد تلقى تعليما راقيا ، وسافر سعيا وراء المعرفة والثقافة الى بلاد عديدة ، اذ درس



المفكر الاديب والخطيب والسياسى ورجل القانون
ماركوس توللبوس - كيكيرو
« شيشيرون »

الفلسفة والبـلاغة فى مدارس أثينا ورودوس وآسيا الصـغرى ، ثم بدأ يتخصص للعمل فى مجال القانون • وسرعان ما أخذ نجمه يعلو فى سماء الأدب فى العاصمة ، اذ برز كأحد الخطباء القلاقل ، الذين ذاعت شهرتهم فى الآفاق ، وكأحد الكتاب المشاهير بل أصبح من أساطين الأدب والفكر الرومانى ، اذ ألف الكثير من الأبحاث والخطب القانونية فضلا عن بعض الأبحاث الأدبية الفلسفية مثل كتابه « عن الصداقة » (De Amicitia) وكتـابه « عن الشـيخوخة » (De Senectute) و « عن القوانين » (De legibus) و « عن الجمهورية » (De Re publica) وعن الواجبات » (De officiis) ، وكتابة الشهير « عن الخطيب » (De oratore) كمـا كتب خطـاباته الأدبيـة الشـهيرة التى لهـا عندنـا قيمـة تاريخية خاصة لأنها مذكرات ويوميات لسنوات هامة من التاريخ الرومانى بصورة تكاد تشابه ما تقدمه الصحف للباحث فى التـاريخ الحديث من الفـائدة الكبرى ، بل أن خطاباته مرآة تعكس سـيكلوجيته وعواطفه واحساساته ، ومناطق القوة ومناطق الضعف فى شخصيته ، وتعطينا صورة مثالية للشخصية العظيمة فى شجاعتها وأمانتها بشكل لم نعرفه من قبل اللهم الا فى اعترافات القديس أغسطين •

لقد كرس شيشيرون نفسه للدفاع عن المظلومين والضعفاء خاصـة سكان الولايات ، وبالرغم من اخلاصه للجمهورية القديمة الا أنه لم يتورع فى أن يكشف فضائحها ويزيح الستار عن الجرائم المالية والأخلاقية • ففى عام ٨٠ ق • م قبل بشجاعة أن يدافع عن أحد الأشخاص الذين كان رجال سوللا يهددونه دون أن يخاف من انتقام سوللا ، ولكن القضية الكبرى التى رفعته الى مصاف السياسيين ورجال القانون المشهورين قضية سكان صقلية ضد فيرريس فى عام ٧٨ ق • م (Verres) ، والتى قبل أن يكون وكيلا عن سكان الولاية ضد حاكمها الجشع ، وكرس دفاعه لها حتى جمع ما يكفى من الأدلة الدامغة حتى هرب فيرريس وذهب الى المنفى الاختيارى فى مارسيليا ، وكانت قضية فيرريس من أخطر القضايا التى عرضت أمام محكمة الابتزاز التى كان أعضاؤها طبقا لاصلاحات سوللا من بين رجال السـناتو •

كان فيرريس فى الأصـل زعيما شعبيا ديموقراطيا • ثم هجر الحزب الشعبى لينضم الى حزب سوللا الأوليجارخى ، وثمنا لوفائه كافأه سوللا بمنصب البرايتور عام ٧٤ ق • م والذى بمقتضاه عينة حاكما على ولاية صقلية ، وخلال الأعوام الثلاثه الذى قضاها حاكما على هذه الولاية ، جمع فيرريس ما يقـرب من أربعين مليون سستركيس رومانى • جمعها بطرق ملتوية وغير أخلاقية • فكان يقبل الرشاوى ويقاسم جامعى الضرائب ويدبر المؤامرات ضد أغنياء الجزيرة ليصادر أموالهم ، كما كان يبيع المناصب المدنية والدينية للأغنياء ، بل وكان يستثمر أموال الدولة لصالحه ولنفسه ، بل كان يجمع القمح مجانا من الفلاحين الصقليين أو بأثمان رمزية ثم بشحنه لروما ليباع بسعر السوق هناك ، حتى الأعمال الفنية لم تسلم من نهبه سواء على مستوى الأفراد أو المدن الاغريقية الجميلة فى صقلية بل أنه نهب المعابد أيضا • وكان جزاء كل من يفتح فمه أو يعارض جبروته السجن أو القتل لأنه كان يرشو القضاة ويتلاعب بالقانون لأغراضه الشخصية . وكانت كل أصابع الاتهام تشير اليه ولكنه استطاع أن يشترى الذمم ويسكت الأصوات الا صوت رجل القانون الشاب ماركوس تولليوس كيكيرو (Marcus Tullius Cicero) أو كما شاع عندنا فى اللغة العربية باسم شيشيرون • وكان شيشيرون قد عمل مفتشا ماليا — أى كوايستورا ماليا — فى صقلية حيث التقى بالناس و سمع الشكاوى وجمع الأدلة ليقيم الدعوى الشهيرة ضد فيرريس • وكانت القضية حديث عصرها ، لا لأنها قضية ابتزاز كان معروفا فى كل مكان من الولايات الرومانية ، ولكن لأن المتهم الأول لم يكن المقصود به فيرريس ، بل النظام الاوليجارخى كله ، بنواقصه وعيوبه وقد تجمع حول ڤيرريس أصدقاؤه ورجاله ، وحاولوا بكل الوسائل تبرئته ، بل وقام بالدفاع عنه رجل القانون الشهير هورتنسيوس (Hortensius) الذى استخدم كل مهارته ، لكن عزيمة المدعى العام ماركوس تولليوس شيشيرون لم تلن ، ولما وجد هورتنسيوس أن الأدلة دامغة ترك القضية وذهب ڤيرريس بمحض اختياره الى منفاه وذلك قبل الانتهاء من نظر القضية ، وهكذا لم يعاقب الرجل الذى اختلس من شعب صقلية الملايين وقتل الآلاف ، ومن ثم ألقى شيشيرون خطبته الثانية ضد ڤيرريس ووزعها كمنشور على الناس ،

فضح فيها الأساليب التى اتبعها فيرريس فى وسائل الابتزاز . وقبل أن ينتهى عام ٧٠ ق . م قدم القنصل أوريليوس كوتا (Tribuni aerarii) مشروعا ينص على الغاء تشريعات سوللا الخاصة بتنظيم محاكم الابتزاز من رجال السناتو وحكام الولايات السابقين ، وتكوين المحاكم المالية من جديد ، بحيث يكون ثلثها من رجال السناتو، والثلث الآخر من رجال الفرسان ، والثلث الأخير من مفتشى المالية الرومان (Tribuni aerarii) ، بل قام كوتا مستغلا ظروف القضية بعملية تطهير شاملة وطرد من السناتو ما يقرب من ست وأربعين شيخا كان يشك فى سلوكهم أو اتهموا بالفساد والرشوة .

الحروب الأخيرة ضد مثريداتيس ٧٤ — ٦٣ ق.م :

عادت الجبهة الشرقية مرة أخرى الى الاشتعال ، ففى عام ٧٥ ق . م ، مات ملك بيثينيا نيقوميديس الرابع (Nicomedes) دون أن ينجب ولدا يرث من بعده العرش ، وادعت روما أنه ترك وصية يوصى بها أن تؤول مملكته للرومان ، وبسرعة أعلن السناتو قبول الوصية واعلان بيثينيا ولاية رومانية وقد خشى مثراداتيس من عواقب ضم بيثينيا للرومان ، لأن ذلك قد يحرمه من الوصول الى البحر الاسود ، فحرض أحد المدعين بنوة الملك الراحل بالمطالبة بالعرش ، وسارع مثراداتيس السادس الى وضع السناتو أمام الأمر الواقع ، فسارع باحتلال بيثينيا قبل وصول الرومان (١) فنقض بذلك معاهدة السلام ،التى كان سوللا قد عقدها معه،بعد أن مر عليها أحد عشر عاما،والحقيقة أن الحرب بين روما ومثراداتيس كانت متوقعة من الطرفين ، لأن السناتو كان قد عرقل اقرار معاهدة داردانوس (Dardanus) التى عقدها سوللا مع مثراداتيس عام ٨٥ ق . م ، وبدأ مثراداتيس فى الاستعداد منذ

---

(١) هناك خلاف على موعد بدىء الحرب اهل هو عام ٧٤ ق.م ام ٧٣ ق.م ولكن الراى الأرجح أواخر عام ٧٤ ق.م وللمزيد عن هذه الحرب ومصادرها انظر :

T.S.R. Broughton, Magistrates of the Roman Republic. New York, American Philogical Association 1931, Vol II, P. 106 ; D. Magie : Roman Rule in Asia Minor, Princeton University Press. 1920. P. 323 ff.

ذلك الوقت ، لأنه أدرك أن نية السناتو هى العودة للحرب ، لأن سوللا عقد السلام تحت ظروف خاصة من أجل التفرغ لطرد وسحق الحزب الشعبى، ففتح معسكره للضباط والجنود الرومان الهاربين ليدربوا ويطوروا جيش مملكته، كما تحالف مع زوج ابنته تجرانيس الثانى ملك أرمينيا ، وأقام علاقات مع القراصنة الذين كانوا يستوطنون كريت وكيليكيا ومع سرتوريوس ثائر أسبانيا قبل اغتياله . كما تجمهر حوله القراصنة ودعموا أسطوله ، بل أن سرتوريوس أرسل بعض المدربين من ضباطه لتمرين جيش مثراداتيس . عندئذ أرسل السناتو قائدا من خيرة قواد سوللا وهولوكوللوس Lucullus قنصل عام ٧٤ حيث قاد الجيش الرومانى فى كيليكيا وآسيا الصغرى ضد مثراداتيس ، بينما عين السناتو زميله فى القنصلية أوريليوس كوتا حاكما على ولاية بيثنيا الجديدة ، ودعمه بأسطول قوى ، وفى نفس الوقت سلح ماركوس أنطونيوس الأب (ولد ماركوس أنطونيوس الشهير) بسلطات فوق العادة للقضاء على قراصنة كريت وكيليكيا حلفاء مثراداتيس ، ولكنه هزم هزيمة بشعة على أيدى القراصنة وأجبر على التوقيع على معاهدة مهينة للرومان رفضها السناتو فبقى منفيا حتى مات فى كريت . كما قام مثراداتيس بحصار قوات أوريليوس كوتا المتعجل وقتل ٣٠٠٠٠ من رجاله وأحرق سبعين سفينة من أسطوله . وأسر الباقى ثم حاصره قرب مدينة خالكيدون Chalcedon الواقعة على مضيق البوسفور فى مواجهة مدينة بيزنطة (اسطنبول الحالية) . وعندما وصل لوكوللوس بقواته بدأ فى اجبار مثراداتيس على فك الحصار عن خالكيدون ، بل وتتبعه حتى وقع مثراداتيس فى الفخ قرب مدينة كوزيكوس على البحر الأسود وقتل عددا كبيرا من جيشه الذى قيل أن حاوز فى عشية الحرب مايربو على ٢٠٠٠٠٠ رجل بفضل براعة لوكوللوس ذلك القائد الفذ الذى اشتهر بقوة نفوده وتأثيره على الاخرين . وبقوة اقناعه ، وتحقيق مايرغب ، وكأنه دكتاتور فعلى ،

أعجب به سوللا أشد الاعجاب لدرجة أنه أهداه مذكراته الخاصة . على أى حال نجح لوكوللوس فى تدمير أسطول مثراداتيس قرب جزيرة لمنوس ، وفر مثراداتيس لاجئا عند صهره تجرانيس الثانى ملك أرمينيا . وكان لوكوللوس على وشك من سحق تجرانيس لولا المصاعب والعراقيل التى وضعها رجال المال والأعمال فى طريقه . وذلك لأن لوكوللوس ادرك وشعر بمدى الظلم الذى يقع على ولاية آسيا الصغرى وشعوبها ، تلك الولايات التعسة التى فرض عليها سوللا غرامات باهظة مقدارها عشرين ألف تالنت ، واضطر سكان آسيا الصغرى الى الاستدانة من البنوك الرومانية بفائدة باهظة ، وفى أقل من خمس عشرة عام تراكمت الديون على السكان حتى وصلت الى ١٢٠ر٠٠٠ تالنت بزيادة مائة ألف تالنت عن المبلغ الأصلى ، واضطر الناس الى بيع أطفالهم من أجل تسديد ديونهم وأفلست المدن وهجرها السكان عندئذ قرر لوكوللوس أن يتخذ خطوات حازمة لرفع الظلم عن هؤلاء البؤساء ضحية جشع رجال المال من رجال طبقة الفرسان ، فأمر بتخفيض الديون الى ٤٠ ألف تالنت فقط وفرض ضريبة مقدارها ٢٥٪ من عوائد المحاصيل وعلى العبيد والعقارات تذهب لتسديد الديون العامة على المدن ، كما حدد فائدة الديون بـ ١٢٪ كمد أقصى ، وأعلن فترة سماح لمدة أربع سنوات تلغى فيها الفائدة لمساعدة المدن على تسديد أقساط الديون . كما أصدر قراراً وهو الا يجوز للمدين أن يسدد أكثر من ربع دخله وفاء لما عليه من ديون . وقد ظهر مفعول هذه الاصلاحات الحازمة عندما بدأ اقتصاد آسيا الصغرى يدخل فى دور النقاهة ، كما أكسبته هذه القرارات شعبية كبيرة بين سكان آسيا الصغرى أفقدت مثراداتيس رسالته التى كان يلعب بها على عواطف السكان للثورة ضد الرومان . ولكن هذه الاصلاحات أشعلت غضب رجال المال الرومان فبدأوا يتآمرون فى روما ضد لوكوللوس ويمنعون أى امدادات تصل اليه ، ثم طالبوا بعزله ونقل القيادة منه الى قائد آخر . أما لوكوللوس بعد أن دعم نفسه برضاء شعب آسيا انقض فى عام ٦٩ ق . م على أرمينيا لارغام مثراداتيس على الخروج من معقله . كما هزم صهره الملك تجرانيس فى عقر عاصمته تجرانوكرتا Tigranocerta وبينما كان النصر النهائى على مرمى البصر منه ، راح زعماء رجال الفرسان

ورجال الأعمال والمال يتآمرون ضده . ففى عام ٦٩ ق . م ، سحبت منه قيادة ولاية آسيا ثم سحبت منه ولاية كيليكيا عام ٦٨ ق . م ، ثم نقلت القيادة كلية الى القنصل جالابريو Galabrio من عام ٦٧ ق . م ، بل واندس عملاء روما الذين بعث بهم الفرسان لتحريض الجنود ضد قائدهم للقيام بالثورة ضد لوكوللوس .

بومبى يطهر البحر المتوسط من أوكار القراصنة :

ظهر خمول بومبى وجهله بأعمال القنصلية وتدبير شئون الادارة لدرجة أن الأديب ڤارو Varro كتب له بحثا يتضمن لوائح القانون الرومانى الخاص بالسناتو وبالقنصلية (١) ، أما شريكه فى القنصلية كراسوس فقد انغمس فى زيادة ثروته بشتى الوسائل ، وسرعان ما تحول خمول بومبى الى سأم عام ، وراح يبحث عن جبهة قتال يصول فيها ويجول ويظهر فيها عبقريته للشعب وللسناتو الرومانى ليبهر المعجبين به . ولكن لم يكن هناك مكان فالجبهة الشرقية يشغلها لوكوللوس وهى الجبهة التى كان يتوق بومبى لتولى قيادتها بحرقة .

وسرعان ما راح يتقرب الى العامة ، الذين بدأوا يستردون حقوقهم منذ عام ٦٧ ق . م حيث أعيد للتربونية سلطاتها القديمة ، ثم أصدر نقيب العامة جايوس كورنيليوس Gaius Corelius قرارا بالغاء أى محاكمات لاتصدر عن طريق البرايتوريين القضائيين وبذلك قطع الطريق على المحاكم الاستثنائية

---

(١) هو ماركوس تيرنتيوس ڤارو (١١٦ ـ ٢٧ ق.م) ولد فى منطقة سابينية ودرس الأدب اللاتينى وتخصص فى فقه اللغة بالذات ، ثم اولى البرايتورية القضائية ، وكان من الموالين لبومبى وحارب معه حتى النهاية ، ثم كسبه قيصر الى جانبه وعهد اليه بمشروع انشاء المكتبة الكبرى فى روما . عام ٤٧ ق.م . وبعد مقتل قيصر أعلنه أنطونيوس خارجا عن القانون وذلك فى عام ٤٣ ق.م واضطر الى الهرب حتى انتهت الحرب الأهلية ثم عاد للتأليف والكتابة ويقال ان فى عامة الثامن والسبعين احتفل بانتهاء مؤلفه التسعين بعد الاربعمائة .

والتى لاتمنح المواطن حق الاستئناف ، كما أضاف كورنيليوس على قراره أيضا وهو أن أى استثناء من القوانين يجب ألا يتأتى لا عن طريق السناتو ولكن عن طريق مجموع أصوات مائتين على الأقل من الأعضاء • وكان أكبر نصر حققه الحزب الشعبى هو صدور قانون جابينيوس Lex Gabinia الخاص بانشاء قيادة استثنائية لتطهير البحر الأبيض المتوسط من أوكار القراصنه ، واختيار بومبى قائدا عاما لهده المهمة، وقدوافق السناتو على مضض بسبب العلاقة الجديدة بين بومبى والشعبيين ، ولكنه أدرك مدى الخطورة التى يسببها القراصنة ، ومن الجدير بالذكر أن السناتو كان يغمض عينيه عن سلوك القراصنة فى البحر الأبيض لأنه كان يدرك أن تجارة القراصنة الأولى هى الرقيق الذين كانوا يباعون فى أسواق روما حيث كان أصحاب المزارع الشاسعة فى حاجة الى آيديهم الرخيصة ، ولكن خطر القراصنة تفاقم بدرجة ألحقت الضرر بأقتصاد روما ، وتحدت لأول مرة سلطتها على ولاياتها الشرقية ، فضلا عن تآمرهم مع مثراداتيس وهزيمتهم لأنطونيوس الكبير ، بل أصبحت التجارة فى حوض البحر المتوسط غير آمنة تماما • ووصل الأمر أن أسس القراصنة سلطة تشبه الدولة البحرية ، وراحو يتعاملون على أساس ذلك مع الملوك • بل ووصل بهم الحال الى مهاجمة الموانىء الرومانية عندما هاجموا ميناء سيراكوزة عاصمة صقلية ، حيث قاموا بخطف مسئولين كبار من الرومان بدرجة البرايتور فى زيهم الرسمى ، كما هاجموا جزيرة ديلوس وقطعوا الطريق على السفن الرومانية التى كانت تحمل القمح مما سبب نقصا فيه داخل الأسواق الرومانية ، فأرتفع ثمنه بدرجة هددت بالمجاعة وهذا أمر أقلق الشعبيين ورجال السناتو على السواء •

ومن كريت كان البروقنصل كايكيليوس ميتللوس Caecilius Metellus يعمل ببطء وباصرار على تطهير شرق البحر المتوسط من خطرهم ما بين عام ٦٨ و ٦٧ ق • م ولكن ليس بالسرعة المطلوبة لأن الرومان كان يفضلون

النصر الحاسم والسريع • وبعد صدور قانون جابينوس كان على بومبى(١) أن يطهر البحر الأبيض المتوسط كله • ويكمل المشوار الأخير تماما مثلما فعل من قبل ، مع ميتللوس ذاته فى أسبانيا ، ومع كراسوس فى القضاء على ثورة العبيد ، وقبل بومبى المهمة التى أوكلها اليه الحزب الشعبى شاكرا . وكان عليه أن يؤمن مجالا بحريا قدره خمسون ميلا • ووضع قرار العامة تحت تصرفه خمس عشرة ضابطا كبيرا بدرجة نائب قائد Legati ، كما وضع تحت تصرفه أسطولا قوامه مائتى سفينة ، وأعطى حق تجنيد ما يشاء من الرجال ، وأدرج لهذا المشروع ميزانية استثنائية قدرها ستة آلاف تالنت وهى ميزانية ضخمة • وقد حاول الحزب المحافظ وأعضاء مجلس الشيوخ عرقلة هذا المشروع ووقفوا ضده بشدة لأنهم كانوا يتشككون فى نوايا بومبى وعلاقته الجديدة مع الحزب الشعبى ، ولكن منطق الحزب المحافظ كان ضعيفا لأنهم سبق وأن وافقوا على منح نفس السلطة الاستثنائية لماركوس أنطونيوس الأن • وكان عضو مجلس الشيوخ الذى وقف يدافع عن بومبى وطالب بحزم منحه السلطة الاستثنائية هو جايوس يوليوس قيصر

وما أن صدر القرار حتى قام بومبى بتنفيذ المهمة بدرجة مذهلة ، اذ قسم البحر المتوسط الى مناطق عمل وتطهير ، وعين على كل منطقة ضابطا كبيرا من نوابه ، ثم حاصر مضيق الدردنيل من الشرق ومضيق جبل طارق من الغرب ثم سيطر على المنطقة ما بين شاطىء أفريقيا الشمالى وسواحل صقلية وبذلك ضيق الخناق على القراصنة وجعلهم يسقطون فى أيدى رجاله وقياداته العديدة ، وفى خلال أربعين يوما كان قد قضى فعليا على القراصنة فى شرق البحر المتوسط بعد معركة بحرية حاسمة قرب شواطىء كيليكيا Cilicia ، وبعد ثلاثة أشهر بالضبط من صدور قرار جابينيوس أعلن بومبى أن البحر الأبيض المتوسط قد أصبح خاليا تماما

---

(١) عن تفاصيل حملة بومبى ضد القراصنة انظر :

H.A. Ormerod, Liverpool Annals of Archaeology, 1923, P. 46 ff.

وقد عثر على بعض النقوش حديثا فى ليبيا فى قورينه متعلقة باجراءات حرب بومبى ضد القراصنة انظر :

J. Reynolds, Journal of Roman Studies, 1962, P. 97 ff.

من خطر القراصنة ، وكان ذلك أكبر نصر حققه بومبى لأنه وضع خططا سليمة ومنظمة ، وجند كافة امكانياته العسكرية والمادية ، وبذلك قضى على أكبر خطر ظل يؤرق روما لسنين طويلة وذلك فى وقت قصير • كما كان سلوك بومبى عاقلا اذ لم يفتك بالأسرى القراصنة كما فعل مع العبيد بل حاول كسبهم لخدمة روما ، وأوطنهم فى المناطق التى كانت تعانى نقصا سكانيا من أجل ازدهار الحضارة فى حوض البحر المتوسط وتوكيد سلطة روما عليه •

بومبى فى الشرق (٦٦ — ٦٢ ق•م) :

أذهل نصر بومبى الحاسم والسريع على القراصنة أعضاء الحزب الشعبى ،وأدركوا أهمية بومبى،فتجمعوا حوله ، وأشعروه بأنه رجلهم الأول وزعيمهم المفدى ، وسهلوا له عملية ازاحة لوكوللوس عن قيادة الحرب فى آسيا الصغرى بمساعدة الفرسان ، خاصة أن قطع المعونة العسكرية عن لوكوللوس قلبت ميزان الصراع مرة ثانية لصالح مثراداتيس الذى استرد معظم ممتلكاته وتقهقر لوكللوس مندحرا • ومكافأة لبومبى قدم أحد ترابنة العامة واسمه مانيليوس Gaius Manilius مشروع قرار فى عام ٦٦ ق • م يخول لبومبى سلطات عسكرية فوق العادة فى منطقة الشرق كله ، وتكليفه بقيادة الحرب ضد مثراداتيس بدلا من لوكوللوس وقد كانت فرصة جديدة لبومبى لكى يحرز نصرا سهلا ، خاصة أن لوكوللوس بعبقريته السياسية قد جعل المهمة سهلة للغاية • وبالرغم من معارضة السناتو ، الا أن يوليوس قيصر الذى كان يحظى باعجاب الناس منذ رفضه الانصياع لارادة سوللا لتطليق زوجته التى كان يحبها ، وهى ابنة الزعيم الشعبى الديموقراطى كنا Cinna ، تحدث قيصر مدافعا عن بومبى ، كما تحدث شيشرون مدافعا عن صديقه بومبى وألقى فى مديحة خطبة غراء حتى تمت الموافقة على المشروع •

ووصل بومبى الى الشرق صحبة جيش متأهب للقتال ، قوامه خمسون ألف رجل ، وهو ضعف تعداد الجيش المرهق الذى كان يحارب به لوكوللوس ، فضلا عن أسطول لا بأس به راح يمخر عباب البحر الأسود • وسحق

بومبى مثراداتيس وجيشه وهرب الملك الثائر ليحتمى عند صهره تجرانيس ملك أرمينيا ، ولما رفض صهره أن يأويه هرب الى كريميا Crimea على البحر الأسود فى منطقة القوقاز ، وبعد وقت قصير اغتيل وهو يحاول تدبير ثورة ضد الوجود الرومانى فى آسيا ويقال أنه هو الذى قتل نفسه وزوجاته وأبناءه ثم أخذ حياته بيده وحمل ابنه فارناكيس الثانى جسد أبيه الى بومبى ، الذى أمر بدفنه فى مدافن الملوك هناك •

بعد ذلك اتجه بومبى الى أرمينيا فغزاها حيث استسلم تجرانيس ملكها وأعلن ولاءه لبومبى وللشعب الرومانى ، وقبل بومبى هذا الولاء لنفسه وللجمهورية ، وفى ربيع عام ٦٥ توغل بومبى بقواته شرقا مطاردا بقايا جيوش مثراداتيس ، حتى المنطقة الواقعة بين البحر الاسود وبحر قزوين والتى كان يسكنها البارثيون Parthians حيث عقد معاهدة معهم (١) ، ثم استدار عائدا الى بنطوس وبدأ فى تنظيمها ، اذ قسمها الى قسمين : قسم ضم الجزء الغربى لولاية بيثينيا التى عين عليها ملكا مواليا له ، أما القسم الآخر فقد ضم الجزء الشرقى الذى عين عليه ملكا آخر •

بومبى فى الشرق الأوسط : ٦٤ – ٦٣ ق•م

بعد ذلك سار بومبى من آسيا الصغرى جنوبا الى سوريا للقضاء على حالة الفوضى التى كانت سائدة فى تلك المنطقة منذ أن طرد لوكوللوس تجرانيس الثانى منها ، وأعاد اليها ملكها أنطيوخوس الثالث عشر الذى كان ضعيفا مثل ملوك البطالمة المتأخرين ، ولذا ضاعت سلطته ، واستولى الطغاة على المدن وعاث قطاع الطرق واللصوص فسادا ، وعندئذ قرر بومبى عدم جدوى حكم أنطيوخوس الثالث عشر فعزله وأعلن ضم سوريا وفينيقيا كولاية جديدة من ولايات روما باسم ولاية سوريا Provincia Syria • بعد ذلك سار بومبى جنوبا الى فلسطين حيث كانت مملكة يهوذا تشهد صرعا بين شقيقين من اسرة

---

(١) عن رحلة بومبى فى القوقاز انظر :
Sir, W. W. Tarn, The Greeks in Bactria and India, P. 112.

المكابيين (Maccabees) من أجل العرش هما : هوركانوس Hyrcanus الذى كان يؤيده طبقة اليهود الفريسيين (Pharisees) ، وأرسطوبولوس Aristobulus الذى كان يؤيده طبقة اليهود الصدوقيين Sadducees والذى كان متعاطفا مع البارثيين ، واتخذ بومبى قراره بناء على مصلحة روما لأنه لا يفهم شيئا فى الصراع العقائدى والفكرى اليهودى (١) ، وكان هذا القرار مناصرة هوركانوس لأن أخاه كان متعاطفا مع البارثيين ، وذلك قد يغريه بالتعاون معهم ضد روما . وهكذا وضع بومبى حدا للصراع الذى شهدته مملكة يهوذا الصغيرة فى فلسطين بين الصدوقيين وهم الكهانة ، وكانوا متزمتين ، فهم يتمسكون بحرفية التوراة أو الخمس كتب الأولى من العهد القديم ، وكانوا يعادون الفارسيين الذين أضافوا الى التوراة فيضا من التفاسير والسنن ، والتقاليد الموروثة والتى نسخها الكتبة والأحبار من اليهود القدماء ، وهم الذين وضعوا أساس التلمود ، وكان معظمهم ينتمى الى الطبقة الوسطى والدنيا ، والتى رفضت التأغرق والأخذ بأساليب الحضارة الاغريقورومانية مثلما فعل الصدوقيون .

لقد كان نجاح بومبى فى الشرق الأوسط ساحقا لأنه لأول مرة ثبتت أقدام الامبراطورية الرومانية فى الشرق ، وظلت هذه الأقدام ثابتة فى سوريا حتى انقسام وسقوط الامبراطورية . لقد نفذ بومبى مهمته بسهولة لأن البارثيين لم يتحركوا ضده أو يعارضوا تصرفه ، كما أن مصر البطلمية القوة الثانية فى العالم الهللينستى كان أضعف من أن تقاوم ، بل كان النفوذ الرومانى فيها فى تزايد مستمر بهدف ضمها الى روما . كما أن جهود لوكوللوس العسكرية السابقة وفرت لبومبى مجهودا وطاقة عسكرية نشطة هى التى حقق بها فتوحاته فى الشرق بسهولة ، وكان يمكن لبومبى أن يتوسع أكثر من ذلك فى الشرق الأوسط لكنه كان يعرف أين يقف . واكتفى بضم الشرق الأوسط من ساحل البحر المتوسط غربا حتى نهر الفرات شرقا ، وتدفق على خزانة روما

(١) عن بومبى فى فلسطين انظر :
F.M. Abel, Histoire de la Palestine (1952) I, P. 269.
وتفسر بعض نصوص البحر الميت الى الاشارة الى بومبى انظر :
H. Burrow, The Dead Sea Scrolls (1956) P. 181.

أموال طائلة سواء كضرائب أو كغرامات بصورة لم تشهد الخزانة مثلها .
وساد السلام الرومانى لأول مرة منذ أن فتح الاسكندر الأكبر الشرق الأوسط ، فقد طهر البحر من القراصنة، والطرق من قطاعها ، وبذلك أصبحت التجارة فى مأمن تام وأنقذ سوريا من الفوضى ، وأمن سكان آسيا الصغرى وأزاح عنهم رعب الحرب ، كما أعاد تقسيم حدود الشرق الأوسط لصالح أصدقائه الحكام وعملائه من الملوك . كما خلق مجموعة من الولايات الصغيرة والعازله (Buffer-States) كى تقوم بدور الموانع بين الدويلات وبمهمة الانذار المبكر لروما ، وكقاعدة امداد للجيوش الرومانية. ووضع عليها ملوكا وحكاما يدينون لبومبى شخصيا بالوفاء والولاء . كذلك ازدهر الشرق الأسط ثقافيا لأن بومبى كان من عشاق الحضارة الاغريقية التى تنبع من المدن ، ولذا منح عددا من المدن الكثير من الامتيازات الخاصة أملا فى احياء الحضارة (١) الاغريقية الهللينستية .

اعداء بومبى يتآمرون عليه فى غيابه :

ظل السناتو ناقما على بومبى لتعاونه مع الحزب الشعبى من أجل حصوله على قيادة الحرب فى الشرق ، ومن ثم لم يترك نقيبى العامة اللذان قدما ذلك المشروع ، فتآمروا ضد جايوس مانيليوس حتى أدانوه وحكموا عليه بعقوبات ، وراح الحزب الارستقراطى يعض على أصابعه غيظا من بومبى وهم يشاهدونه يهدد مصالحهم ، أما الحزب الشعبى فقد بدأ هو الآخر يتشكك فى نوايا بومبى ويتساءلون عما اذا كانوا قد خلقوا ماردا سيقضى عليهم يوما ما ، وخاصة أن بومبى بدأ حياته كضابط صغير فى قوات سوللا عدوهم الأكبر وربما انتهى أمر بومبى الى ما انتهى اليه سوللا . وكان كراسوس منافس بومبى يحقد عليه ويثير هذه الشكوك حوله خوفا على أمواله وممتلكاته ، وتقل هذه الشكوك الى أنصاره من رجال المال والأعمال والى زعماء الحزب الشعبى والذى كان فيه يوليوس

---

(١) عن تنظيمات بومبى فى الشرق الأوسط انظر :
Magie, op. cit. Chapter XV ; A.A. Jones, Cities of the Eastern Roman Provinces, New York, Oxford University Press (1937) pp. 157 ff., pp. 202 ff., 258.

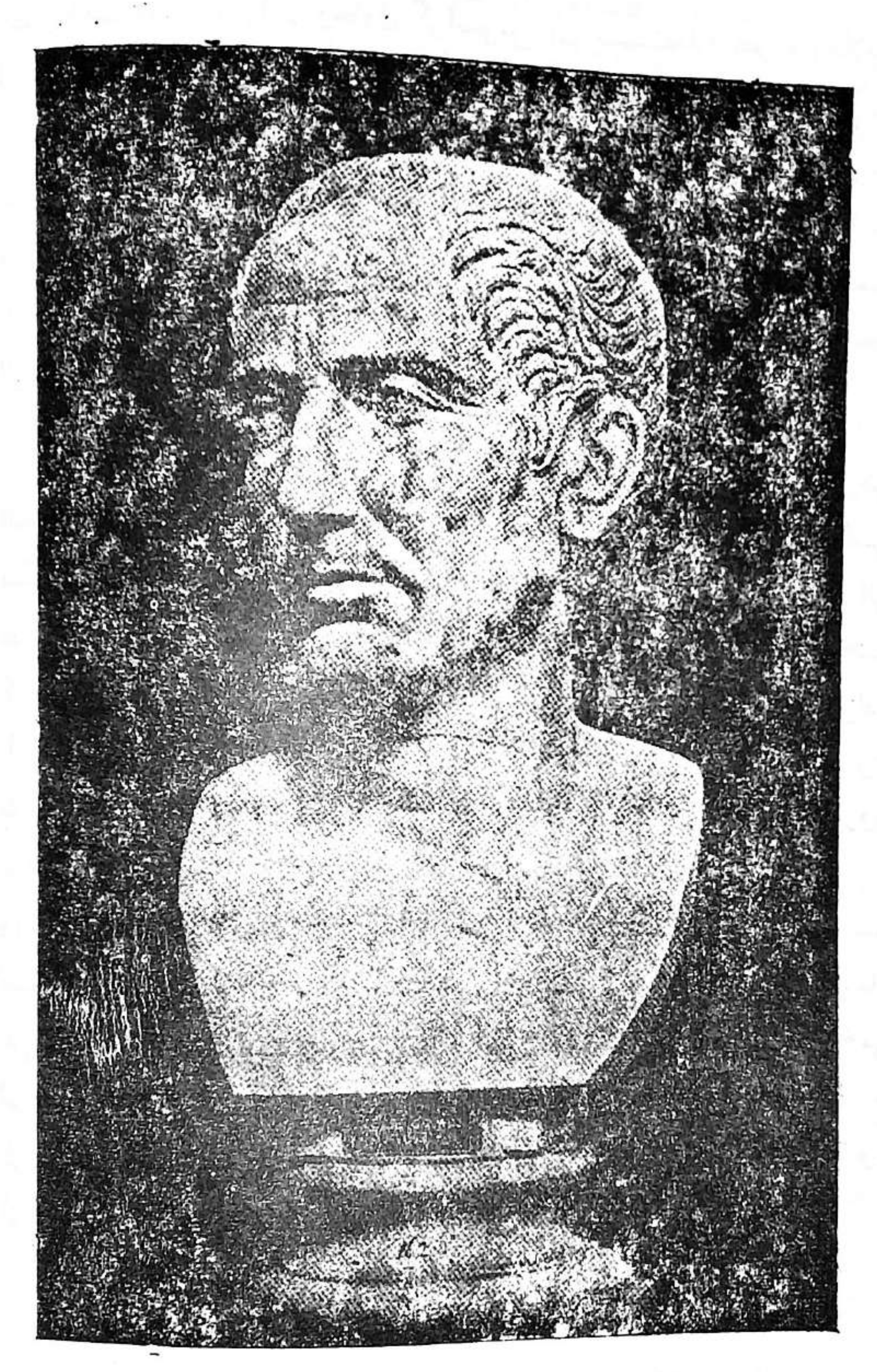
قيصر يلعب دورا بارزا . وحاول كراسوس أن يستخدم نفوذه وملايينه لتدعيم مركزه ومركز الحزب الذى يتزعمه . وذلك قبل وصول ومبى من الشرق خاصة أنه كان يشغل فى ذلك الوقت منصب الرقيب ، فعرض مشروع قرار استبدال الحقوق اللاتينية بالجنسية الرومانية الكاملة وذلك لسكان بلاد الغال ، حتى يحظى بنفوذ أكبر فى تلك المنطقة الغنية بالمال وبالرجال ، ولكن زميله فى المنصب اعترض عليه وقطع عليه خط الرجعة .

ولما فشلت محاولة كراسوس الأولى ، عاد وقدم مشروعا بوجوب فرض الجزية على مصر متعللا بأن بطليموس الثانى عشر الملقب بالزمار ليس ملكا شرعيا ، وكان رجال المال وجامعو الضرائب الرومان ينظرون الى مصر نظرة نهم ويتعجلون ضمها ، وأغلب الظن أن الوصية التى أبرزها كراسوس كانت مزورة قصد بها ابتزاز الملك الزمار الذى راح يتزلف الرومان ويلهث وراء زعماء السناتو مرسلا الهدايا النفيسة حتى يعترفون به ملكا شرعيا ، ويقال أن من أصدقائه كان بومبى وقيصر وشيشيرون صديق بومبى ، وقد نجح ذهب الاسكندرية فى اعاقة هذا المشروع ، ووقف شيشيرون له بالمرصاد ، وأعلن صراحة أنه ليس سوى مؤامرة ضد صديقه بومبى ، وكان رجال السناتو يفضلون هدايا ورشاوى الزمار عن أن تفتح مصر ويعيث فيها رجال الفرسان أعداؤهم فسادا . ومن ثم أعلن السناتو تشككه فى صحة هذه الوثيقة ، عندئذ لم يتورع كراسوس فى حقده على بومبى وخوفه من رجوعه من الشرق أن يمول أى حركة انقلاب قد تحدث فى روما ضد النظام كله .

تزايد مركز وشعبية يوليوس قيصر (١٠٢ ق.م - ٤٤ ق.م) :

طبقا لكتاب سويتونيوس عن سيره قيصر ، ولد هذا الزعيم الشعبى فى الثانى عشر من شهر يوليو(*) عام ١٠٢ ق.م من أسرة عريقة القدم

(*) وكان يسمى بالشهر السابع من التقويم الرومانى ، ولكن احتفاء باسم قيصر ، غير الرومان اسم ذلك الشهر الى اسم يوليو وهو الاسم العائلى لأسرة قيصر .



جايوس يوليوس قيصر - نابلس ايطاليا

تدعى نسبها الى الملك أنكوس ماركيوس ، بل ادعت أن أصولها ربانية عندما ادعت أن الأسرة تبدأ من نسل اينياس البطـل الاسطورى وابن فينوس ربة الجمال . لكن لأسباب لا نعرفها بقيت هذه الأسرة محجوبة عن الأضواء لوقت طويل ، لقد نشأ جايوس يوليوس قيصر فى جو يميل الى الحزب الشعبى فعمته جوليا (Julia) كانت زوجة ماريوس الزعيم الشعبى ، كما كان ينتمى بقرابة مماثلة للمصلح الثائر فولفيوس فلاكوس Fulvius Flaccus قنصـل عام ١٢٥ ق.م ، وقد تزوج جـايوس يوليوس قيصر من كورنيليا ابنة الزعيم كنـا Cinna والتى دفعه حبه لها واخلاصه من أجلها الى الوقوف فى وجه الدكتاتور سوللا رافضا طلاقها وقبل التحدى وهرب خوفا من الانتقام .

ولقد حاول المؤرخون المبالغة فى تاريخ يوليوس قيصر المبكر ، فكتبوا عن مغامراته وشجاعته،وتغلبه على المخاطر كأنه اينياس صغير ، صارع أمواج الحياة حتى وصل الى بر النضوج والكمال .

لكن لا نعلم شيئا عنه الا بعد عودته من المنفى بعد قبول السناتو لمطلب ليدوس الخاصة بالعفو عن المنفيين وذلك فى عام ٧٨ ق.م حيث انضـم الى الحزب الشعبى ، ونادى بعودة المهابة والسلطة الى التربيونية عام ٧٠ ق.م ، وفى عام ٦٨ – ٦٧ ق.م أرسل الى أسبانيا للعمل كمفتش مالى quaestor .ولكنهوجـد أنه فى حاجة الى دفعة قوية ليصـل الى الصفوف الأولى للحزب وللدولة . ووجد أمامه فرصة نادرة وهى التعاون مع كراسوس الثرى وذلك فى عام ٦٦ ق.م ، ووجد قيصر أنه يملك سحر الشخصية والعقل ، وكراسوس يملك الذهب،ومن ثم يمكن لهما معا من السيطرة على الحزب الشعبى ويمكنهما تكوين جيش من المقاتلين يكون تحت امرتهما فى أى وقت يريدونه . وقـرر قيصر وكراسـوس استغلال البروليتاريا الرومانية وظروفها الاقتصادية التعسة ، وكان معظم هؤلاء الرعاع على استعداد لبيع أصواتهم الانتخابية لمن يعدهم الخلاص من العوز والحاجة.كما وجدوافىالارستقراطيينالفقراء noblessé debasse منجما غنيا للحصول على أنصار . وكذلك من رجال الفرسان وجنـود سوللا الذين ضاقوا ذرعا بحياة الاستقرار والزراعة ويبحثون عن زعيم

جـديد وقائد عسكرى عظيم ، وحاول قيصر وكراسوس أيضـا كسب ضحايا سوللا الذين سلبهم أموالهم وتركهم فقراء لا يملكون شيئا ، من هؤلاء جميعا راح قيصر وكراسوس ينسجان حزبا ديمقراطيا قويا .

نتائج التحالف بين كراسوس وقيصر فى عام ٦٥ ق.م :

كما سبق أن أشرنا كان كراسوس يشغـل منصب الرقيب عام ٦٥ ق.م يشاركه فيها عضو من الشيوخ الورعين والمحافظين هو لوتاتيوس كاتللوس . وفى نفس العام كان قيصر يشغل وظيفة الايديل aedile . كما رشحا للقنصلية اثنين من اتباعهما هما كورنيليوس سوللا الصـغير أوترونيـوس بايتوس Autronius Paetus ، ولكن فجـأة حـدثت أزمة سياسـية كبيرة أثارت الرأى العـام فى روما ، وهى أدانة القنصلين الجديدين بقبول الرشوة ، وطولبا بالتنحى عن منصبهما فورا طبقا لقانون كالبورنيوس الذى صدر فى عام ٦٧ ق.م ، ولكن القنصـلين أعلنا أن الرشوة شيء شائع فى كافة الأوساط وبالتالى رفضا التخلى عن منصبهما ، ومنعا لأى تصرف آخر دبرا خيوط مؤامرة مع مغامر فاشل اسمه سرجيوس كاتيلينا الذى كانت تربطه صلة قرابة بقيصر ، ومانيليوس توركواتوس Manilius Torquatus وذلك فى عيـد رأس السـنة الرومـانية فى الأول من شهر ابريل عام ٦٥ ق.م وقد عرفت هذه المؤامرة باسم مؤامرة كاتيلينا الأولى ، والتى اتهم فيها قيصر وكراسوس بالاشتراك فيها ، لكن لم تثبت عليهم هذه التهمة . وقد بذل كراسوس جهده وأنفق ماله من أجل تبرئة أحد المتهمين فى هذه القضية وهو كالبورنيوس بيسو والعمل على تعيينه حاكما على أسبانيا حيث اغتيل هناك على يد احد الأسبان الثوار .

فى نفس الوقت كان قيصر يعمل بجد ونشاط من أجل زيادة شعبيته بين سكان العاصمة وذلك بالانفاق ببذخ على المهرجانات وكافة وسائل التسلية مستخدما سلطته كأيديل حينا وأموال كراسوس حينا آخر ، فعرض ٣٢٠ زوجا من الجلادين ليتصارعون بالسيف وحتى الموت أمام النظارة . وسلح المجـرمين الذين حكم عليهم بمصـارعة الوحوش وهم عـزل بأسلحة من الفضة ، ونصب تماثيل وبيارق ماريوس فى العاصمة ، مما أعاد

الحنين الى أيام ماريوس وكفاحه وتجمع حول قيصر بقايا أنصاره • وبدأ قيصر يظهر كرجل المستقبل القوى •

الصراع بين إنصار بومبى وأنصار قيصر وكراسوس :

كانت عودة بومبى هى عقدة كراسوس ، ومن ثم قدم الأخير عددا من المشروعات بهدف منح الجنسية الرومانية لمنطقة الألب القريبة Gallia Cisalpina الواقعة شمال نهر البو طمعا فى كسب شعبية بين سكان هذه المنطقة ذات الموقع الحيوى من ناحية ، ومنجم الرجال الاشداء ومصدر الثراء من ناحية أخرى ، وبالتالى يمكنه تجنيد جيش قوى مخلص ومسلح فيها ، والهبوط على روما اذا ما تعقدت الأمور ، ولكن لوتاتيوس كاتللوس زميله فى المنصب أحبط مشروعه فحسب بل وحصل على موافقة السناتو بطرد جميع الغاليين المقيمين فى روما • واذا كان المشروع قد فشل الا أنه حقق شعبية لا حد لها فى بلاد الغال لكل من قيصر وكراسوس • وبذلك ضمنا تجنيد جيوش مخلصة من هذه المنطقة • وكان المشروع الثانى الذى قدمه كراسوس وقد سبق الاشارة اليه وهو أن مصر قد أورثت للشعب الرومانى بمقتضى وصية بطليموس الحادى عشر عام ٨٠ ق•م ومن ثم يجب ارسال جباة الضرائب الرومان اليها • وكان قيصر يطمع فى أن يكون فيها جيشا يتبعه ، بينما كان كراسوس يطمع فى ذهبها وخيراتها، والشعب الرومانى فى قمح نيلها العظيم ، ولكن للمرة الثانية اعترض كاتللوس على المشروع ووقف شيشيرون وقفة المخلص لبومبى يدحض الادعاء بصحة الوصية التى قدمت لا دفاعا عن أحد بقدر اظهار اخلاصه لصديقه بومبى وهو غائب فى الشرق •

انتخاب شيشرون قنصلا ٦٤ ق•م :

أعلن شيشيرون عن نيته فى ترشيح نفسه لمنصب القنصل،وتقدم للترشيح منافسون له منهم كاتيلينا Catilina (١) وصديقه انطونيوس

(١) لكى يبرأ سالوستيوس قيصر من تهمة الاشتراك مع كاتيلينا فى قلب نظام الحكم ذكر ان افكار كاتيلينا الثورية ترجع الى قبل اعلان نيته فى ترشيح نفسه عام ٦٤ ق.م ، ويرى البعض ان سالوستيوس كان مهملا فى دقة تواريخ الحوادث كعادته انظر : Sallustius, Bellum Catilinum. 16, 4 ff.

هيبريدا Antonius Hybrida . وكان كاتلينا رجلا معروفا وينتمى الى أسرة عريقة ، ولكنه كان مغامرا عابثا ، صعب المراس ، وان صحت تهم شيشيرون له كان قاتلا متمرسا يجيد فن الاجرام ، لكنه كان أيضا رجلا قادرا وذكيا يتمتع بطاقة وقدرة وله تاريخ عسكرى حافل بالفخر والانتصار وله شعبيه عارمة بين العامة لا ينافسه فيها سوى قيصر . وكان كاتلينا قد اتهم على يدى المدعى العام بوبليوس كلوديوس الجميل (الذى كان ارستقراطيا عابثا مثلة) بالابتزاز والرشوة وذلك أثناء حكمه لولاية افريقيا بدرجة برايتور سابق عام ٦٧ ق.م . ولكنه برىء من هذه التهمة وعاد الى روما ليرشح نفسه للقنصلية ضد شيشيرون ، وفى أثناء الحملة الانتخابية خسر كاتلينا بسلوكه الاهواج وباندفاعه وحديثه عن الغاء الديون ، فضلا على أن سوء سمعته فى قضية الرشوة كانت قد سبقته الى روما ومن ثم سقط فى الانتخابات وكسب شيشيرون بأغلبية ساحقة . كما نجح مرشح كراسوس وهو انطونيوس بايتوس . ولكن شيشيرون كسب ولاء أنطونيوس بتعينه حاكما على ولاية مقدونيا وهو أكثر مما كان يحلم به .

مشروع روللوس (٦٣ ق.م) :

أوعز قيصر وزميله كراسوس الى أحد نقباء العامة واسمه بوبليوس سرڤيليوس روللوس Publius Servilius Rullus وكان رجلا من صلب الغوغاء ، كث الشعر ، يتدثر فى ثياب رثة ــ أو عزوا اليه بتقديم لائحة تشريعية ثورية (Lex Servilia) خاصة بمشروع للأراضى وحاول الحصول على الموافقة عليه فى شهر يناير عام ٦٣ حتى يفاجىء شيشيرون عندما يتسلم مهام منصبه بعدد من مشروعات القوانين الثورية التى تقدم بها نقباء العامة بتحريض من كراسوس وقيصر . وكان مشروع روللوس Lex Servilia يتضمن توزيع الأراضى الصالحة للزراعة داخل ايطاليا على عدد كبير من المعدمين ، واعطاء الملاك الجدد حق توريث ما يوزع عليهم ، كذلك شراء أراضى جديدة من ميزانية خاصة تكون من بيع ممتلكات الدولة العامة التى آلت الى الدولة فى الداخل وفى الخارج منذ أن تولى سوللا القنصلية عام

٨٨ ق ٠ م بالاضافة الى الغنائم ، والزيادة الجديدة التى جاءت نتيجة لغزوات بومبى فى الشرق وفى آسيا الصغرى • وذكر المشروع علانية ممتلكات روما فى صقلية وفى قرطاجة وفى كورنثا ومقدونيا وبرجامون حيث نص المشرع على أن يوكل الى عشرة برايتوريين تنفيذ ذلك والاشراف على اقامة المستوطنات ، كما تضمن عبارة غامضة أشارت الى احتمال ضم مصر وتوزيع أراضيها أيضا بقوة السلاح • وقد كان الهدف من المشروع هو ارضاء العامة والمعوزين ، وفتح مجال الثراء أمام الفرسان وجامعى الضرائب ، واعطاء قيصر فرصة لتعبئة جيش قوى سواء من مصر أو من بلاد الغال • وحدد المشروع فترة سريان مهمة أعضاء اللجنة العشرة الذين منحوا سلطة البرايتورية القضائية بعشرة سنوات ، ولكى يبعد بومبى من عضوية هذه اللجنة اقترح المشروع مثول المرشحين لهذه المهمة شخصيا قبل انتخابهم عن طريق ممثلى سبع عشرة قبيلة تختار بالاقتراع من بين القبائل الخمس والثلاثين التى تمثل الشعب الرومانى كله • كما كان من حق أعضاء هذه اللجنة انهاء عقود ايجار الضياع الشاسعة فى اقليم كمبانيا التى كان يتمتع بها الأغنياء وتقسيمها الى حصص صغيرة توزع على الفقراء والمعدمين •

ومنذ اليوم الأول الذى تولى فيه شيشيرون مهام منصبه ، هاجم مشروع روللوس بكل الوسائل المعنوية والقانونية ، والقى أربعة خطب ضد المشروع (١) وصل الينا منها ثلاث فقط مبينا الأهداف الخفية من وراء هذا المشروع ، ونجح شيشيرون ببلاغته فى التأثير على العامة وتحريضهم ضد المشروع بالرغم من أن المشروع أساسا صيغ لارضائهم ، واضطر روللوس يائسا الى سحبه قبل عرضه للتصويت عليه • لقد فطن شيشيرون الى أن المشروع لم يكن سوى مؤامرة ضد صديقه بومبى ، وأن جشع الفرسان وكراسوس وطمعهما فى أراضى وثراء مصر هو المحرك الاول لهذا المشروع ، وأنه لم يكن لمصلحة العامة ، وهناك أدلة كثيرة على ذلك(٢)•

E. Hardy, Some Problems of Roman History. oxford 1924. P. 68 ff.
والخطبة هى : De lege agraria .
(٢) ابراهيم نصحى ــ تاريخ الرومان ــ الجزء الثانى ص ٤٧٤ •

محاكمة رابيريوس :

وفى هذه الأثناء ، حدث حادث عقد الأمور اذ تقدم أحد رجال قيصر وهو نقيب العامة لعام ٦٣ ق٠م واسمه تيتوس لابينوس Titus Labienus مطالبا بمحاكمة أحد أعضاء السناتو وهو رابيريوس Rabirius بتهمة الخيانة العظمى (perduellio) لمسئوليته عن مقتل نقيب العامة ساتورنينوس Saturninus عام ١٠٠ ق٠م،والحقيقة أن رابيريوس نفذقرار السناتو الأخير Senatus Consultum ultimum الذى صدر ضد ساتورنينوس فى ذلك الوقت والذى خوله سلطة القتل بدون محاكمة ، واستغل قيصر هذه القضية بالرغم من عدم وجود أى عداء بينه وبين رابيريوس بهدف مهاجمة مشروعية صدور قرار السناتو الأخير ضد أى مواطن ليخول للقنصلين فى ذلك الوقت سلطة القتل دون اعطاء الضحية حق الاستئناف أمام الشعب ، ولكى يضمن قيصر ادانة رابيريوس عمل على عرض القضية على محكمة قديمة (Perdellio) ترجع الى أيام الملكية وتتكون من عضوين ، وقد نجح لابينوس فى استصدار قرار من مجلس القبائل لاحياء هذه المحكمة القديمة واختيار قاضيين ، ومن باب السخرية كان هذان القاضيان هما يوليوس قيصر وأحد رجاله ٠ وصدر قرار المحكمة باعدام رابيريوس صلبا ٠ وهنا تدخل شيشيرون بسلطته كقنصل(١) فاستصدر قرارا ببطلان الحكم الصادر ضد رابيريوس ، ولكن لابينوس قدم رابيريوس للمحكمة تحت ستار عدد من التهم الملفقة امام الجمعية المئوية بهدف اعادة محاكمته لقتله ساتورنينوس ، وهنا تطوع شيشيرون للدفاع عن رابيريوس ، وألقى احدى خطبه الشهيرة « فى الدفاع عن رابيريوس » ٠ التى بين فيها أن هدف حزب قيصر هو التهجم على قرار السناتو الأخير الذى صدر عام ١٠٠ ق٠م ، وعلى القنصل الذى نفذه ، ولما كان ماريوس زوج عمه قيصر أحد القنصلين فى عام ١٠٠ ق٠م فقد وجد قيصر حرجا شديدا فى استمرار المحاكمة ، فرتب مع البرايتور كيلر Celer مسرحية طريفة ، وهى أن يرفع الراية الحمراء فوق تلال يانيكولوم كرمز لفض المحكمة قبل التصويت على التهم ، وهى عادة قديمة ترجع الى

---

(1) cf E. Hardy : Some Problems of Roman History P. 99.

أيام كانت تحدث فيها الهجمات الأتروسكية على الرومان • وبالفعل تم ذلك وفض الاجتماع وذهب رابيريوس الشيخ العجوز الى بيته سالما • واذا كانت محاولة لابينوس قد فشلت الا أنها حققت نصرا للحزب الشعبى ولقيصر بالذات •

قيصر يصبح كاهنا أعظم :

حدث أن مات الكاهن الأعظم كونتوس ميتللوس بيوس فى شتاء عام ٦٣ ق•م ، وهو منصب سبق أن بينا أهميته خاصة لمن يسعون لتولى المناصب العليا • وبالطبع كان قيصر يتلهف لترشيح نفسه ، ولكنه وجد عقبة فى قانون سوللا الخاص بانتخابات الجمعيات الدينية لأنه كان ينص على أن ينتخب الكاهن الأعظم من بين الكهنة أنفسهم ، ولما كان قيصر بعيدا عن سلك الكهانة فى ذلك الوقت ومن ثم فلا يحق له أن يرشح نفسه كاهنا أعظم فقد لجأ الى تغيير قانون سوللا ، فأوعز الى تابعه لابينوس نفسه نقيب العامة بتقديم مشروع قرار ببطلان قانون سوللا والعودة الى قانون دوميتيوس Lex Domitia الذى صدر عام ١٠٤ ق•م والذى كان يجعل اختيار الكاهن الأعظم يتم عن طريق الانتخاب المباشر لممثلى سبع عشرة قبيلة تختار من القبائل الخمس والثلاثين • وقد أيد قيصر هذا المشروع حتى تم اقراره • ثم تقدم لترشيح نفسه ، وفاز على منافسيه بالرغم أن أحدهما كان كونتوس لوتاتيوس كاتوللوس أكثر رجال السناتو وقارا واحتراما مما يبين تزايد شعبية قيصر بين الرومان • ويقال أن الرشوة قد لعبت دورا فى نجاح قيصر ولكنه ليس هناك أدلة تثبت ذلك • وبالاضافة الى منصب الكاهن الأعظم ، نجح قيصر فى تولى منصب البرايتور القضائى وبالتالى أصبح أمامه منصب القنصل • وقد حاول قيصر أن يتقدم بمشروع يقضى باعادة الذين نفاهم سوللا واعادة ممتلكاتهم ورفع الحظر السياسى الصادر ضد أبناء ضحايا سوللا ، ولكن شيشيرون عارض هذا المشروع وأبطل المحاولة حفاظا على

مصالح الفرسان والنبلاء ومن أجل تفادى حدوث الفرقة الداخلية ، وتوكيدا لسياسة دعم الوفاق بين الطبقات بالرغم من أن شيشيرون كان قد أدان فى مناسبات سابقة أعمال سوللا ضد هؤلاء الأبرياء .

شيشرون يحبط مؤامرة كاتيلينا ٦٣ ق.م :

كان كاتيلينا كما سبق أن أشرنا رجلا صعب المراس ، شديد الاصرار على تولى القنصلية لأن فيها خلاصه من الديون المتراكمة عليه ، ولهذا أصر على ترشيح نفسه للقنصلية للمرة الثانية لعام ٦٢ ق.م ، ولكى يضمن فوزه بدأ يجمع حوله العناصر الساخطة من ضحايا الديون والربا ، وبقايا جنود سوللا القدماء ، واعضاء حزب ماريوس المنفيين وأبناءهم المبعدين سياسيا بقرار سوللا ، بالاضافة الى القتلة والمجرمين والمغامرين والباحثين عن السلطة أو الثروة [1] . وازاء ذلك بدا الأغنياء والموسرون يقلقون من مستقبل البلاد لو فاز كاتيلينا بالقنصلية ومن ثم لم يؤيده كراسوس أو يمول حملته كما فعل فى المرة الاولى . وكلما زاد ضجر وقلق الطبقة الوسطى كلما استغل شيشيرون ذلك فى انذار الناس بالمخاطر التى سوف تتردى اليها البلاد لو انتخب كاتيلينا قنصلا . ولما أدرك كاتيلينا أن الأمل فى فوزه ضعيف ركبه اليأس ، وتسلطت فيه عقدة الشر ، فلجأ الى تدبير مؤامرة لقلب حكومة شيشيرون ، وقدم شيشيرون الادلة على ذلك الى السناتو . بعضها جاءت — كما ادعى — عن طريق زوجة أحد المتآمرين ، وبعضها عن طريق الشائعات ، لكن لم يكن فى يدى شيشيرون وثائق ثابتة بالرغم من أن شيشيرون نقل الى السناتو معلومة وصلت اليه وهى أن أحد رجال كاتيلينا موجود فى اتروريا ليجند جيشا من الساخطين لكى يهجم به على روما ويستولى على السلطة بالقوة . ولكن السناتو وجد أن هذه الأدلة غير كافية لادانة كاتيلينا بالرغم من أن السناتو أعلن حالة الطوارىء وأصدر قراره الاخير Senatus Consultum Ultimum

---

(١) للمزيد من التفاصيل انظر :

E. Hardy, The Catilinian Conspiracy (= J.R.S., 1917, PP. 153-228).
Rice-Holmes, Roman Republic, P. 455.

كان كاتيلينا يعد بالفعل للاستيلاء على الحكم ولكنه كان ذكيا ماكرا اذ أجل اليوم المحدد لضربته حتى يؤلب الرأى العام ضد شيشيرون وبالتالى أصبح الرومان فى حيرة والشائعات متضاربة بعضها يؤكد أن كاتلينا يتآمر على الدولة بالفعل والبعض الآخر يتهم ششيرون بعدم الأمانة فى اتهام مواطن برىء بتهمة خطيرة • ثم تطور الموقف فجأة لصالح شيشيرون عندما زاره كراسوس وقدم له أدلة مكتوبة وصلت اليه عن طريق بعض المشتركين فى المؤامرة تدمغ كاتيلينا بالتآمر ، وبعد قليل وصلت أنباء مؤكدة أن مانيليوس قد جند جيشا بالفعل فى أتروريا وينتظر ساعة الصفر التى يحددها كاتيلينا • وبالرغم من هذا لجأ شيشيرون الى مراقبة خطوة كاتيلينا التالية دون التعجل باستخدام سلطاته الاستثنائية التى صدر بها قرار السناتو •

كانت خطوة كاتيلينا الثانية هى عقد اجتماع عام للمتآمرين لتنفيذ مخططه وتحديد مسئولية كل شريك ، فخصص بعضهم مثلا لاشعال الحرائق والبعض الآخر لاثارة الفوضى والفتن فى روما وفى ايطاليا ، ثم حدد اليوم الذى يصدر فيه أمره لمانيليوس بالسير الى روما لاسقاط حكومة شيشيرون واقامة حكومة كلاتيلينا بقوة السلاح • وقد حدد كاتيلينا طريقة اغتيال شيشيرون وسائر مساعديه ووجهاء روما ، وأوكل مهمة ذلك لاثنين من طبقة الفرسان من بين المتآمرين •

وسرعان ما نقلت زوجة (١) أحد الذين حضروا الاجتماع السرى تفاصيل ما دار بين كاتيلينا وشركائه فى المؤامرة ، وحددت لشيشيرون اليوم والساعة التى حددت لاغتياله وبداية العنف وفى اليوم الذى حدده كاتيلينا لاغتيال شيشيرون هرول الأخير الى السناتو حيث عقد اجتماعا

---

(١) عن تفاصيل هذه المؤامرة انظر : E.G. Hardy : The Catilinian Conspiraey, Oxford University Press (1924).

وقد ذكر سويتونيوس (Divus lulius, 9) أن شائعة عمت روما بان كراسوس كان سيصبح دكتاتورا بينما يتولى يوليوس قيصر مهمة قائد الفرسان كما ادعى ان قيصر كان يدبر ثورة فى بلاد الغال وكلا هاتين الشائعتين غير محتملتين انظر : P.A. Bunt, Classical Review (1957) p. 193 ff.

طارئا ، و ألقى فيه خطبته الأولى ضد كاتيلينا الذى كان حاضرا فى الاجتماع وخرج منه ليسافر الى اتروريا حيث يستعد مانيليوس وجيشه عندئذ أعلن السناتو أن كاتيلينا عدوا للشعب الرومانى ويجب القضاء عليه .

ولما كان كاتيلينا قد هرب ، فقد لجأ شيشيرون الى القبض على عملائه فى روما وايطاليا لأنه كان يعرف هويتهم من الأدلة والوثائق التى فى حوزته . خاصة أن بعضهم حاول الاتصال بوفد من زعماء الغال كان موجودا فى روما للتفاوض لكى يساعدوهم فى تنفيذ المؤامرة ، ولكن الوفد الغالى أبلغ شيشيرون ، وقدم له أدلة مكتوبة تؤكد ما يقولون . وهنا أمر شيشيرون بالقبض على أطراف المؤامرة وجاء بهم أمام السناتو حيث أجبرهم على الاعتراف أمام الحاضرين باشتراكهم فى المؤامرة ، وتعرفوا على توقيعاتهم الموجودة فى بعض الوثائق ، وسرت أنباء كشف شيشيرون للمؤامرة والقبض على كاتيلنا ، وتجمع الناس حول السناتو ينتظرون مصير المتآمرين ، أما شيشيرون فكان يقابل كلما شوهد بعاصفة من التصفيق .

نظر القضية أمام السناتو :

دار جدل عنيف فى السناتو حول مصير المتآمرين ، اذ طالب القنصل الجديد سيلانوس Silanus باعدامهم فورا وكان يؤيده عدد كبير من الحاضرين ، لكن يوليوس قيصر الذى كان قد انتخب لتوه برايتورا خالف معظم الشيوخ فى الرأى وكانت حجته أن المتآمرين المقبوض عليهم مدنيون وليسوا عسكريين وعلى ذلك لا يجوز اعدامهم الا بعد محاكمتهم مدنيا ثم استخدم قيصر بذكاء نصوص القانون الرومانى القديم الذى يكفل حق الاستئناف أمام الشعب للمواطن الرومانى ، كما طالب قيصر بتخفيف العقوبة المقترحة وهى الاعدام الى السجن المؤبد فى احدى المقاطعات النائية ، ومصادرة أموالهم . وكان قيصر مقنعا فى حديثه ، ساحرا فى خطابته حتى أن شيشيرون ومعظم رجال السناتو كانوا على وشك أن الموافقة على اقتراح قيصر . عندئذ تقدم كاتو الشيخ العجوز المحافظ السوداوى النظرة متحسرا على الماضى العظيم ، فهاجم الضعف والتراخى وأنصار الشفقة على قتلة محترفين كانوا سيغرقون البلاد فى بحر من

الفوضى والعنف والدماء . عندئذ انتصر المتشددون ، وصدر قرار باعدام المتآمرين وسيقوا الى الموت فى نفس اليوم فى زنزانة توليانوم تحت الكابيتول Tullianum حيث كان الاعدام ينفذ عادة فى المجرمين (١) .

لقد قضى هذا الحكم الرادع على المؤامرة ، فتفرق أنصار كاتيلينا وهرب معظم جيشه أما الباقون معه فقد ظلوا يحاربون حتى فنوا جميعا بما فيهم كاتيلينا عند سهول بستويا Pistoia قرب فلورنسا فى اقليم اتروريا.

قيصر يكسب شعبية عارمة :

لقد كان من الشجاعة أن يدافع قيصر علانية عن المشتركين فى الانقلاب فى وقت اتهم فيه باعتناق مبادىء ثورية ، ومن الغريب أن شيشيرون أشار فى ادعائه ضد كاتيلينا أنه قد حصل على معلومات هامة من كل من كراسوس وقيصر وقد ساعدة ذلك كثيرا فى الكشف عن المؤامرة . لكن موقف قيصر الشجاع أكسبه شعبية جديدة أضيفت الى مواقفه السابقة الشجاعة منذ رفضه الانصياع لسوللا لتطليق كورنيليا زوجته ، الى بذخه وكرمه ابان توليه الاشراف على المهرجانات عام ٦٥ ق.م ، الى ترميم الآثار التى أقامها ماريوس والتى كان اتباع سوللا قد دمروها وقد بدأ قيصر يجنى ثمار هذه الشعبية عام ٦٣ ق.م عندما انتزع بالانتخاب منصب الكاهن الأعظم من مرشحين منافسين أقوياء بالرغم من أنه كان لا يزال فى الثلاثينيات من عمره ، ولقد كان قيصر ذكيا معتدلا فى مواقفه حريصا على ألا يفقد حتى أعداءه ، واذا اختلف معهم فان اختلافه لم يكن أبدا قاطعا ونهائيا ، فمثلا أيد فى عام ٦٢ ق . م وهو يشغل منصب البرايتور قرارا قدمه أنصار بومبى يقضى بدعوة بومبى لأنقاذ الجمهورية فى حالة اذا ما كان كاتيلينا قد نجح ، وبالطبع كان مثل هذا المشروع بلا فائدة لأن ما حدث قد حدث ولكن قيصر أيده كمحاولة لكسب ود بومبى .

---

(١) التى لاست الضوء على سبب تعجل تنفيذ حكم الاعدام فى المتهمين وهو وجود تهديد لاطلاق سراحهم بالقوة كما شرح ملابسات الموضوع من الوجهة القانونية انظر : H. Last, J.R.S., (1943) p. 93 ff.

كما ظهر ذكاء قيصر وتعقله وتحكمه فى عواطفه فى تصرفه ازاء حادثة كلوديوس الجميل Publius Clodius Pulcher وكان هذا «الجميل» شابا ارستقراطيا منحلا ، وعابثا ، أراد أن يتكشف على بومبيا Pompeia زوجه قيصر الثالثة بصفتها زوجة الكاهن الأعظم ، فانتهز مناسبة الاحتفال بعيد الربة الطيبة (Bona Dea) الذى كان يقام فى بيت الكاهن الأعظم ولا تحضره سوى النساء فقط ، فما كان من هذا الشاب العابث الا أنه تنكر فى زى النساء واندس بين المحتفيات ولكن أمره اكتشف • وكان من حق قيصر أن يقيم ضد هذا الفتى دعوى تعرضه لأقصى العقوبات لأنها مخالفه دينية كبرى ، ولكن قيصر لم يفعل ذلك بل اكتفى بطلاق بومبيا بحجة أن زوجة الكاهن الأعظم يجب أن تكون فوق كل الشبهات • والحقيقة أن قيصر وجد أنه من الأفيد أن يوفر كلوديوس للاستفادة منـه فى الوقت المناسب بدلا من أن ينزل به العقاب بلا فائدة ، فأصبح كلوديوس عاشقا مطيعا لقيصر بينما حقد على شيشيرون لأنه شهد ضده وطالب بمحاكمته وانزال أشد العقاب به •

وأخيرا قبيل عودة بومبى بقليل عام ٦٢ ق • م استدان قيصر مالا كثيرا من كراسوس وغادر ايطاليا متجها الى أسبانيا ليتولى حكمها حيث تمكن من جمع ثروة طائلة سدد منها ديونه وجهز جيشا قويا مرنه على كـافة فنون القتال ، كما زاد من خبرته فى فنون الادارة والحكم • ولم يعـد الى روما الا فى عام ٦٠ ق•م •

شيشيرون أبو الوطن :

هكذا جنى شيشيرون ثمار احباطـه لمؤامرة كاتيلينا بظهوره بـدور المنقذ للجمهورية ، ولذا أصدر السناتو قراره باعلان عيد للشكر لسلامة الأمة ، ومنح البطل المنقذ شيشيرون لقب ابو الوطن Pater Patriae وهو لقب يعطى لحامله سلطة معنوية ، ووقار نفسى ، وعرفى تجعله فى منصب المواطن الأول بين أقرانه • وكان هذا قمة نجاح شيشيرون الرجل العصامى من أربينوم • ونقول عصامى لأنه شق طريقه فى عالم السياسة

الرومانية معتمدا على نفسه وعقله وذكائه وليس على ثرائه أو حسبه أو نسبه ، ولا عن طريق عبقرية عسكرية أو نفوذ سياسى ، حتى دخل السناتو وحقق شهرة فيه ، ثم حصل على القنصلية وقاد سفينة الأمة بسلام فى وجه الأعاصير والأنواء .

بالرغم من هذا كانت الأرستقراطية القديمة تنظر الى شيشيرون على أنه رجل جديد homo novus دخل مناطق مغلقة على الارستقراطية (١) ، لكنهم كانوا يعجبون ببلاغته ويتهكمون من تملقه لذاته ويتعالون عليه لأنه لم يكن أرستقراطيا . ولكنه وقف بكبريائه الأشم لا يعيرهم اهتماما ، مؤمنا بمستقبل الجمهورية وهو فى نظره الحفاظ على السناتو وعلى دوره القيادى ، والسناتو الذى كان يفكر فيه شيشيرون هو السناتو الذى يجمع بين الأصول النبيلة الأرستقراطية وبين القدرات والطاقات الجديدة من أمثال شيشيرون وبذلك يجمع السناتو بين عراقة الأصول والمهابة من ناحية ، وبين الطاقات المتفجرة والقدرات الخلاقة التى تظهر نبوغها بين المواطنين من غير رجال الطبقة الأرستقراطية . لقد حرص شيشيرون دائما على مبدأ الوفاق بين طبقات الشعب Concordia ordinum أو السلام الاجتماعى خاصة بين طبقة السناتو الأرستقراطية وبين أغنياء الطبقة الوسطى ، لأن هذا الوفاق سوف يحقق لروما السلام والاستقرار والحرية . لقد كان شيشيرون يدعو بالرغم من هذا الى الوفاق بين المواطنين المخلصين لقوانين الجمهورية من بين رجال طبقات الشعب لتكوين جبهة قوية ضد الثوار وأنصار الاعتداء على القوانين وعلى حريات وممتلكات الآخرين وعلى الأسس التى قامت عليها الجمهورية ، ذلك الاله الذى عبده شيشيرون باخلاص طوال حياته . كذلك كان من آراء شيشيرون استطلاع رأى الشعب الايطالى كله عن طريق الاستفتاء الايطالى Consenus Italiae حتى تدير روما الأمور بما يضع فى الاعتبار مصلحة الشعب الايطالى كله وليس من زاوية مصلحة روما وحدها .

(١) اطلق اعداء شيشيرون عليه تهكما « اول ملك اجنبى حكم روما منذ ايام الملك تاركوينوس وهذا يؤكد ماسبق ان ذكرناه ان اصول شيشيرون تعود الى العنصر الأتروسكى انظر ص ٦١ ملحوظة (١) .

كان شيشيرون ذا عقلية خلاقة فى أصول السياسة الرومانية ، بل وهو الذى صاغ الكثير من تعريفاتها واصطلاحاتها • ومن أعظم الكلمات الذى صاغها شيشيرون فى قاموس السياسة كلمة الحرية «libertas» بمفهومها السياسى (١) وكتعبير لممارسة الحقوق الدستورية للجميع فى ظل احترام القوانين مع الأقرار بامتيازات الطبقة الحاكمة فى نفس الوقت •

ويرى شيشيرون أنه اذا تحققت «الحرية» كنظام سياسى فان السلام والطمأنينة سوف يتحقق للمواطنين ، فى نفس الوقت يحافظ ذلك على كرامة وحقوق كل منهم وهو ما أسماه otium cum dignitate الطمأنينة مع الحياة الكريمة » •

ان نظرية شيشيرون فى فلسفة الحكم تقوم على اطاعة القوانين لأن الدولة الفاضلة فى نظره هى التى تسودها القوانين العادلة ويلتزم مواطنوها بهذه القوانين • وهذه القوانين تحقق للفرد العادى الحرية والأمن على النفس والمال ، وتحقق للدولة السلطة العليا ، ولرجال الحكم والادارة سلطة التنفيذ نيابة عن الدولة • وعن طريق الوئام بين الطبقات يسود السلام الاجتماعى والمحبة والازدهار وتختفى الحروب الأهلية والصراعات ، لقد كانت جمهورية شيشيرون لاتقوم على الفردية المطلقة ولا على الديماجوجية الغوغائية ، ولكن على الأرستقراطية العادلة ، التى تكفل الحرية والأمن والأمان لجميع المواطنين .

احتدام الخلاف بين السناتو وبين بومبى وكراسوس وقيصر :

قرب نهاية عام ٦٢ ق • م عاد بومبى من الشرق منتفخا يتيه كبرياء وغرورا بانتصاراته فى الشرق ، ومن ثم كان يتوقع التمجيد والتهليل من جانب السناتو والشعب الرومانى ، فقد قضى على خطر القراصنة ، وخلص روما للأبد من شرور مثراداتيس ، وزاد من دخل الضرائب المفروضة

(١) لشرح هذا الشعار انظر :

Cf. C. Wirtbuski, Libertas as a political idea at Rome during the late Republic and Early Principate, Cambridge University Press, 1950 p. 64, also c.f. J.R.S. (1954) p. 1 ff. ; Classical Quarterly 1960, p. 46.

كذلك انظر ابراهيم نصحى المرجع السابق ص ٤٩٢ واود ان اضيف ان فكرة شيشيرون تشابه فكرة بيريكليس عن الديمقراطية .



بوسيدونيوس رائد المدرسة الرواقية في روما
ومعلم كل من بومبى وشيشيرون ١٣٥ - ٥٠ ق.م

على دويلات الشرق من ٥٠ الى ٨٥ مليون دينار رومانى سنويا ، كما أعاد تنظيم بعض الولايات ، وأقام ولايات صغيرة وممالك عازلة للمراقبة والتبليغ وذلك على حدود الولايات الكبيرة،كما ضم اراض جديدة للدولة وأراد بومبى أن يقدم دليلا على حسن نواياه أزاء السناتو ، وليخرس ألسنة المدعين والمتشككين فى نواياه بأنه يسعى لاقامة مملكة يكون هو على رأسها ، (وفى الحقيقة كان ذلك اتهاما تقليديا وسلاحا يوجه ضد أى زعيم قوى سواء كان محافظا أو ثوريا) . فسرح قواته كلها بعد وصوله الى ميناء برنديزى بعد أن وعد جنوده بأنه سوف يحصل لهم على موافقة السناتو على توزيع الأراضى والمكافآت عليهم . وتنفس السناتو والحزب الشعبى الصعداء لأنهم كانوا يشكون فى نوايا بومبى الدكتاتورية . وقد سعد رجال السناتو أن يجدوا بومبى يدخل روما أعزلا بدون جيش قوى يفرض به على الأمة ارادته ، ومن ثم تذكروا له خروجه عن طاعتهم عام ٧٠ ق.م عندما انحاز الى الحزب الشعبى وأيد وهو قنصل شريك مع كراسوس عودة السلطات الكاملة لنقباء العامة لأول مرة منذ أن سلبها سوللا سرقوتها وقلم أظافرها . فى نفس الوقت راح كراسوس يؤلب عليه الحزب الشعبى مستخدما نفوذه خاصة أن كراسوس كان من الحاقدين على بومبى منذ أن سرق منه هذا الأخير بهجة الانتصار على العبيد كما أن الحزب الشعبى كان قد وجد ضالته المنشودة فى شخص جايوس يوليوس قيصر .

وبعد أيام من وصوله ، مثل بومبى أمام مجلس السناتو ، وكان يتصور أن المجلس سوف يقفز محييا اياه عن بكرة أبيه كما لو كان الاسكندر الأكبر قاهر الشرق ، ودهش بومبى عندما حيوه تحية باردة ، ثم عرض بومبى مطالبة المعتدلة والعاقلة وهى اقامة قوس نصر له باعتباره بطلا حقق انتصارات فى الشرق ضد ألد أعداء روما ، والموافقة على استصدار قرار بتوزيع الأراضى على جنوده المسرحين الذين وعدهم بذلك مطالبا أن تشترى الدولة من الأموال الزائدة والتى جاءت من زيادة دخل الجمهورية من ولايات الشرق — أراضى جديدة وكذلك الأراضى المصادرة منذ أيام الأخوين جراكوس وسوللا ، وتوزع بعد ذلك

على جنوده فى حالة عدم وجود أرض قابلة للتوزيع ، أما المطلب الثالث الذى عرضه بومبى وهو الموافقة على أعماله acta فى الشرق ، وهى تشمل التغييرات فى الحدود والمعاهدات والاتفاقيات التى عقدها فى الشرق . وبعد أن عرض بومبى مطالبه التى كان من الممكن اجازتها حفاظا على مبدأ الوئام بين الطبقات من أجل سلامة الأمة ولأنها فى مجملها عادلة ومعتدلة لولا الأحقاد الدفينة التى اطلقت من مخبئها . اذ وقف كراسوس العدو اللدود لبومبى متجاهلا وصول بومبى ومتجاهلا الحديث عن انتصاراته ومطالبه ، وراح يهطل شيشيرون بالمديح والثناء كبطل أنقذ الجمهورية ، وكانت فكرة كراسوس هو عزل شيشيرون عن بومبى لأنه كان المدافع الوحيد عنه ، ولما كان شيشيرون معروفا بحب التملق والمديح فقد سكت ولم يتدخل للدفاع عن مطالب بومبى وبذلك ضحى بمبدأ الوفاق بين الطبقات . ثم وقف القنصل ميتللوس كيلر Metellus Celer معترضا على مطالب بومبى وأيده فى ذلك القنصل المنتخب للعام التالى (عام ٦١ ق.م) وهو ميتللوس كريتيكرس Metellus Creticus ، وكان بينه وبين بومبى ضغينة شخصية قديمة . كما ظهر القائد لوكوللوس والذى كان معتزلا فى حدائقه الغناء لينتقم من بومبى لأن بومبى كما نعلم سرق منه النصر ضد مثراداتيس دون أن يوفيه حقه ومجهوده الذى بذله فى آسيا الصغرى قبل تولى بومبى قيادتها ، وطالب لوكوللوس بعدم الموافقة على مطالب بومبى جملة ، بل طالب بمناقشتها تفصيلا ، ثم انضم الى معارضى بومبى كاتو الأصغر ذلك الشيخ المتزمت الذى يعيش فى أوهام الجمهورية القديمة ، وفى مثالية الفلسفة الرواقية ، منبريا بكل ما أوتى من خبرة فى مجال القضاء وعلم السياسة وبلسان رومانى فصيح وبليغ ليقنع الحاضرين بالتروى وبمناقشة بنود معاهدات بومبى بندا بندا، وذلك يستغرق وقتا طويلا ، وبدأ السناتو يقيم العراقيل فى وجه مطالب بومبى خلال عامى ٦١ و ٦٠ ق.م . وقد ترك ذلك فى نفس بومبى مرارة لانه لم يكن يتوقع أبدا مثل هذه المعاملة المجحفة من قبل السناتو ورجال الطبقة الوسطى .

ولم يكن عرقلة مشروعات بومبى وأعماله وحدها هى هدف السناتو ، بل كان قصده أيضا تأديب كل من كراســوس ويوليوس قيصر ، خاصة أن المستقبل بدا للسناتو مشرقآ فى عام ٦١ ق . م وعادت اليه ثقته بنفسه بعد انتصار شيشرون،واحباطه لمؤامرة كاتيلينا ، وبعد تسريح بومبى لجيشه. ولما تقدم كراسوس الذى كان يتزعم رجال المال والأعمال وخاصة جامعى الخراج والضرائب بمطلبه الخاص بتخفيض النســبة المقــررة عليهم من الأموال نظير جمع الخراج والضرائب خاصة فى آســيا الصغرى نظــرا لسوء الأحوال الاقتصــادية فيها منــذ عــام ٦٠ ق.م رفضت الدائرة الارستقراطية هذا المطلب بشدة بالرغم من أن شيــشيرون تحــدث فى صالح المشروع من أجل مبدأ الوفاق بين الطبقات . ولم يرفض السناتو طلب كراسوس فحسب ، بل استصدر كاتو قرارا باعتبــار أى رشــوة يتقاضاها رجال الفرسان الذين يعملون كمحلفــين فى محــاكم الابتزاز جريمة يعاقب عليها القانون ومرة أخرى اعترض شيشــيرون على هــذا القرار الأخير من أجل الوفاق ، لكن المجلس أقره بأغلبية ساحقة . وخرج كراسوس غاضبا من السناتو وناقما عليه .

ثم جاء دور قيصر الذى كان يخاف السناتو من نواياه بحق . فقد عاد قيصر لتوه من أسبانيا بعد أن جمع مالا وفيرا سدد به ديونه المتراكمة ، وكان يتمتع بوقار شديد dignitas بين الناس ، وله شعبية عارمة سبق أن عرضنا لها ، كما حقق عدة انتصارات فى أسبانيا ضد بقايا الثوار وأعاد تنظيم ولاية أسبانيا مما أكسبه حق مطالبة الدولة باقامة قوس نصر كبطل لأنه حقق لروما المجد Gloria ، وكان الوقار والمجد هما سلاح الرومانى المتطلع لأرقى المناصب فى الدولة ، والى جانب المطالبــة بقــوس النصر والهتاف به بطلا وقائدا مظفرا imperator ، طالب قيصر بترشــيحه قنصلا عن عام ٥٩ ق.م مقدما بحجة أنه سوف يكون غائبا أثناء الانتخابات (in absentia) وكان من غير الممكن أن يدخل قيصر بقواته للاحتفال بالنصر وترشيح نفسه كقنصل فى نفس الوقت لأنه طبقا للتقليد الرومانى لا يجوز للعسكرى أن يتخطى حدود المدينة الوهميــة وهو فى ثيــابه

العسكرية ، ومن ثم ضحى قيصر بمطلبه بقــوس النصر وآثر أن يركز على الحصول على ترشيح نفسه و هو غائب كقنصل لعام ٥٩ ق • م • وهنا انبرى كاتو الأصغر لمطلب قيصر مشيرا بالرفض وبانيا رفضه على أساس قرار كان قد صــدر مؤخــرا يشترط فى الذين يريدون ترشيح أنفسهم للقنصلية بالمثول بأنفسهم أمام الناخبين ، وكان الهدف من اعاقة ترشيح قيصر هو الخوف من أن يصبح قنصلا ثم حاكما على ولاية وبالتالى يمكنه ذلك من تجنيد جيش قوى يهدد به السناتو اذا ما حاول الاعتراض على أفعاله خاصة وأن شائعات أعدائه لاحقته بأنه يسعى لاقامة الحكم الملكى • وامعانا فى عرقلة أحلام قيصر حتى ولو نجح فى القنصلية استصدر كاتو قرارا بوضع الطرق الجبلية والغابات الايطالية تحت نفوذ قنصلى عام ٥٩ ق • م بعد انتهاء مدة ولايتهما •

وبالرغم من أن كان هناك سوابق رشح فيها قناصــل أنفسهم وهم غائبين الا أن قيصر قرر التضحية بالاستعراض العسكرى وقوس النصر وحضر الى روما كفرد عادى ورشح نفسه نكاية فى السناتو وفى أعضــاء الحزب الارستقراطى • عندئذ شعر السناتو بأن قيصر رجل أبيقورى النظرة لايخاف أو يتردد وأن له أموالا طائلة على استعداد لانفاقها على الترشيح وله شعبية عارمة ، كما رشح قيصر زميلا له ثريا أيضا اسمه لوكيوس Lucceius ، قرر السناتو جمع الأموال من أعضائه ساهم فيها الجميع بما فى ذلك كاتو الرجل المترفع عن مثل هذه النقائض من أجل ترشيح رجــل من رجــال الســناتو المتزمتين واســمه كالبورنيوس بيبولوس Calpurniud Bibulus وهو رجل ساذج ضيق الأفق تربطه بكاتو صلة مصاهرة وبذل السناتو أقصى جهده لانجاح بيبولوس على الأقل ومن ثم يضمنون وجود من يعترض على قرارات قيصر وخاصة مشروعاته فى تعيين حكام الولايات ، وكان رد قيصر على تجمع السناتو ضده هو أنه دعا لقيام تكتل ائتلافى من القادة الساخطين وهم بومبى وكراسوس لكسب تأييدهما لترشيح نفسه لقنصلية عام ٥٩ ق • م مقابل العمل على تنفيذ ما يرغبونه وهو ما يعرف بالائتلاف أو التكتل الائتلافى الثلاثى الأول •

قيام الائتلاف الثلاثى الأول :

كان من السهل على قيصر أن يجمع بين بومبى وكراسوس برغم ما كان بينهما من عداء من أجل انشاء تحالف سرى لفرض ارادة القادة الثلاث ضد تكتل السناتو والارستقراطيين . فقد كان قيصر على علاقة طيبة مع كراسوس منذ البداية حيث تعاونا معا ، وخاصة أن قيصر كان يستدين دائما من ذلك الثرى ، كما كان قيصر على علاقة حسنة حتى ذلك الوقت مع بومبى ، اذا لم يجهر بالعداء ضده بل حرص على صداقته ، وكما رأينا وقف معه وبجواره فى أكثر من أزمة (١) .

ورأى قيصر أن الوقت قد حان لتحويل هذه الصداقة الى مزايا سياسية واقامة وفاق بين الزعماء على غرار وفاق شيشيرون بين الطبقات . فالتقى سرا بكل من بومبى وكراسوس واتفقا على اقامة حكومة ثلاثية أطلق عليها الرومان اسم حكومة الرجال الثلاثة triumviri ، واتفق الطرفان الاخران على استخدام نفوذهما لانجاح قيصر أثناء الترشيح للقنصلية عام ٥٩ ق.م مقابل أن يعمل قيصر بسلطته وبنفوذه وبالقوة لو استدعى الأمر على تأمين الحصول على موافقة السناتو بتوزيع الأراضى سواء الموجودة أم المشتراه على جنود بومبى المسرحين وتأمين الحصول على قرار بتخفيف الأموال المقررة على جباة الضرائب الرومان فى آسيا الصغرى (٢) وهو مطلب

(١) عن اهمية قيام الائتلاف الثلاثى الاول انظر :

R. Syme, The Roman Revolution, Oxford Clarendon Press, 1939 Chapter I.

ولا نعرف بالضبط تاريخ قيام هذا التكتل الثلاثى . لكن معظم المصادر تتفق على ان بومبى وقيصر اتفقا على ذلك اثناء انتخابات القنصلية لعام ٦٠ ق.م ثم تحول الاتفاق الشفوى الى ائتلاف ثلاثى واضح الاهداف فى اواخر عام ٦٠ ق.م .

Cf. Rice-Hollmes, Op. Cit. rol I, p. 474 ff.

(١) انظر :

J. P. Balsdon, J.R.S., 1962, p. 135 ff.

كراسوس ورفاقه • وقد استخدم قيصر نفوذه وأمواله وشعبيته بالاضافة نفوذ حليفية ، وبالفعل تم انتخابه قنصلا لعام ٥٩ ق • م كما نجح السناتو فى انجاح مرشحه بيبولوس • ولما بدأ قيصر فى تنفيذ وعوده وحاول زميله بيبولوس الاعتراض على مشروعاته طرده بالقوة من ساحة المدينة العامة ، كما فرض الرقابة على سلوك كاتو ، ومن ثم أصدر قيصر قانونا بالموافقة على أعمال بومبى جملة وتفصيلا • كما أصدر قرارا آخرا بتخصيص ثلث الأموال المقررة على جامعى الضرائب مقابل خراج ولاية آسيا الصغرى والواجبة الدفع للخزانة العامة • كما أصدر قيصر قانونين آخرين وزع بمقتضاهما أراضى الدولة بما فى ذلك أراضى سهل كمبانيا الغنى ager Companus على جنود بومبى المسرحين وعلى المعدمين (١) وطالب رجال السناتو باحترام هذه القرارات ولكنهم اعترضوا عليها وحاول بيبولوس للمرة الثانية أن يبطل هذه القرارات وذلك بقيامه بمظاهرة مدعيا أنه رأى طالعا نحسا يوم صدور هذه القرارات ولكن قيصر أبطل هذه المؤامرة بصفته كاهنا أعظم • وهكذا حول السناتو بغبائه بومبى من رجل السناتو الوفى الى عدوهم ورموا به فى أحضان الحزب الشعبى وفى أحضان يوليوس قيصر • كما عزز قيصر أواصر صداقته مع بومبى بتزويجه ابنته جوليا التى أحبها بومبى وكان لها تأثير كبير عليه •

ولما كان هدف قيصر الاسمى من تولى القنصلية هو حكم ولاية بلاد الغال بعد انتهاء ولايته ، فقد اتفق مع حليفه بأن يساعدا نقيب العامة الموالى لقيصر وكان اسمه بوبليوس ڤاتينيوس Publius Vatinius (٢)

---

(١) عن ترتيب صدور هذه القوانين انظر :
L.R. Taylor, A.J.P., 1951, p. 135 ff.
وعن تحديد تواريخ حوادث هذا العام السياسية انظر ايضا :
C. Meier, Historia, 1961, p. 68 ff.

(٢) عن تاريخ حياة هذا النقيب انظر :
L.G. Pecock, A. Commentary on Cicero «In Vatinium.
وهى الخطبة التى القاها شيشيرون عام ٥٦ ق.م دفاعا عن سستيوس الذى كان كوايستورا عام ٦٣ ق.م وساعد شيشيرون فى سحق مؤامرة كاتيلينا ، وكان فاتينيوس شاهد اثبات ضد هذا الرجل ومن ثم فضح شيشيرون تاريخ ڤاتينيوس الاسود وهو هجوم متحيز .

فى اصدار مشروع قرار يمنح بمقتضاه قيصر حكم ولاية بلاد الغال القريبة Galia Cisalpina وكذلك ولاية الليريكوم Illyricum لمدة خمسة سنوات • ولما خلا منصب حاكم ولاية بلاد الغال البعيدة Transalpina ضمت الى اختصاص قيصر قبل أن يرحل بقواته الى بلاد الغـال ليصنع مجده العسكرى فيها بحروبه التى حول فيها منطقـة بربرية الى ولاية رومانية مزدهرة بالحضارة واللغة اللاتينية •

تريبونيه كلوديوس Clodius الجميل :

هدد شيشيرون ورفيقه كاتو باثارة شرعية قوانين عام ٥٩ ق • م (١) اذا ما وضع قيصر يده على بلاد الغال • عندئذ وجد قيصر أن الوقت قد جاء لاستخدام كلوديوس الجميل الذى ابقاه لذلك اليوم • وكان كلوديوس هذا ارستقراطيا بحكم أسرته ، وعلى ذلك كقد كان غير مؤهل لتولى منصب تريبون العامة ولكن قيصر استغل سلطاته ككاهن أعظم واستطاع أن ينسب كلوديوس الى أسرة شعبية وبالتالى ساعد على انتخابه تريبونا للعـامة عام ٥٩/٥٨ ق • م وكانت مهمة كلوديوس كما حددها له قيصر هى التخلص من كاتو وششيرون ، وبالفعل نفذ كلوديوس المهمة وذلك بأن استصدر قرارا بضم جزيرة قبرص الى روما وتعيين كاتو لتنفيذ ذلك القرار وكان (٢) يعلم أن وطنيا مثل كاتو ملزم بآداب الواجب حسب تعاليم الفلسفة الرواقية التى كان يعتنقها ، وأنه مهما كانت المهمة صعبة فلن يجرؤ على رفضها وبالفعل غادر كاتو روما الى قبرص • أما بخصوص شيشيرون ، فلم ينس كلوديوس أنه كان قد شهد ضده فى فضيحة التسلل الى حفل النساء فى بيت قيصر domus publica عام ٦١ ق • م وعلى ذلك فقد دبر له طريقة أشـد قسوة وذلك بأن استصدر قرارا من السناتو بحرمان أى شخص حـكم باعدام أى مواطن رومانى بدون محاكمة — من الماء والنار Interdictio aquae et ignis أى بنفيه من البلاد ، وكان يقصد بذلك مسئولية شيشيرون

---

(١) O. cf. M Cary, Classical Quarterly, 1923, p. 103.

(٢) عن كاتو فى قبرص انظر :

S. I. Oost. Classical Philology, 1955, p. 98 ff.

عن اعدام بعض الذين اشتركوا فى مؤامرة كاتيلينا الفاشلة عام ٦٣ ق ٠ م ، وقيل أنهم كانوا عزل من السلاح ٠ واستجدى شيشيرون صديقه بومبى الذى أحس بحرج شديد ، ولما لم يجد منه استجابة غادر البلاد حزينا دون أن ينتظر حتى المحاكمة (١) وأصبح رسميا فى حكم المنفى ، وصودرت ممتلكاته والتجأ شيشيرون الى سالونيك Thessalonike حيث عرض عليه حاكم مقدونيا الحماية ، وبقى قيصر بجيشه معسكرا على أبواب روما حتى تأكد من مغادرة شيشيرون البلاد عندئذ رحل الى بلاد الغال ٠ بعد أن اطمأن على سلامة موقفه ، وعلى حليفيه ٠

ولما أحس كلوديوس بانتصاره استطرد ليستصدر قرارا يحرم حق قراءة الطالع على القناصل ٠ حتى لا يتكرر ما فعله بيبولوس - وأن يكون هذا الحق وقفا على العرافين والترابنه فقط ، ولاشباع النزعة الديماجوجية فى نفسه استصدر كلوديوس قرارا بتوزيع القمح مجانا على رعاع العامة فى روما ٠ وقد أحدث ذلك ضجة ٠ كما استصدر قرارا آخرا برفع الحظر عن الجمعيات السياسية Collegia وأصبح بذلك للغوغاء دور فى أحداث روما ، واستخدم كلوديوس اتباعه للتعرض لبومبى نفسه عندما بدأ ضمير القائد الكبير فى تأنيبه بخصوص ما حدث لشيشيرون مما اضطر بومبى الى تجنب الظهور فى الأماكن العامة طيلة تريبونية كلوديوس ، ولكن اتباع بومبى حثوه على التصرف وخاصة التريبون ميلو Milo الذى كان منافسا لكلوديوس وانتخب نقيبا للعامة فى عام ٥٧ ق ٠ م وتحت رجاء بومبى وافق قيصر على عودة شيشيرون من المنفى بشرط أن يكرس خطبه فى مديح التحالف الثلاثى، وبالفعل تمت عودة شيشيرون وردت ممتلكاته المصادرة اليه فى عام ٥٧ ق ٠ م ٠

(١) ومرة اخرى هاجم كلوديوس شيشيرون بحجة انه بنى قصرا لنفسه ورد شيشيرون على ذلك بدفاعه عن منزله :
Cf De domo sua (see edition by R.G. Nisbet (1936) note 19, 40.

مجلس الشيوخ يغرى بومبى بالفعل بالعمل لحسابه :

بدأ رجال السناتو يفكرون فى مصالحة بومبى ليكون رجلهم بعد نجاح الأخير فى اعادة شيشيرون من المنفى، وكانت خطتهم هى تحطيم التحالف الثلاثى باغراء بومبى بالمزيد من السلطات التى كان يعبدها ، ووجد مجلس الشيوخ الفرصة عندما حدثت أزمة فى أسواق الغلال عام ٥٧ ق ٠ م ، كادت تهدد بمجاعة فاستصدر السناتو قرارا يمنح بومبى سلطة الامبريوم كنائب قنصل لمدة خمس سنوات وأن يكلف بحل هذه الأزمة ، كما وضع تحت تصرفه ميزانية طارئة مقدارها ٤٠ مليون ستركيس Sesterces ، وانشرح صدر بومبى لهذه الثقة فقد كان يستمع لأنباء انتصارات قيصر المذهلة فى بلاد الغال وهى تجثو عند ركبتيها فى عام ٥٦ ق٠ م وبدأ بومبى يستمع الى الاتهامات التى كانت توجه من جانب الشيوخ ضد قيصر بأنه ارتكب أخطاء قانونية عام ٥٩ تلك الاخطاء — أن صدقت — كانت من أجل بومبى وكراسوس نفسيهما ، وأحس كراسوس بالحرج فأسرع الى بلاد الغال حيث كان يعسكر قيصر فى شتاء عام ٥٦ ق٠م ودعى بومبى للاجتماع بزميليه فى لوكا Luca من أجل انقاذ الائتلاف الثلاثى من التصدع بسبب اغراء السناتو لبومبى ٠

مؤتمر لوكا وتقوية التحالف الثلاثى : (٥٦ ق ٠ م) :

كان الغرض من مؤتمر لوكا هو ترضيه بومبى ، وتصفية الخلاف بينه وبين قيصر وكراسوس ، ومن الدواعى التى جعلت بومبى مستعدا لتصفية خلافاته مع قيصر حبه الشديد لزوجته جوليا ابنة قيصر واستعداده أن يضحى فى سبيل رضاها بكل غال ، وعرض قيصر وكراسوس على بومبى اغراءات تزيد عن عروض السناتو عليه ، اذا اقترح ابان هذا المؤتمر أن يتقدم كل من بومبى وكراسوس للقنصلية عام ٥٥ ق٠م ومنع أى مرشحين غيرهما بالقوة ، كما اتفق على أن تعطى القيادة على ولاية آسيا لكراسوس لمدة خمس سنوات وكذلك يعطى بومبى القيادة على أسبانيا القريبة والبعيدة لمدة مماثلة ، كما طلب قيصر من زميليه العمل على مد حكمه لولايتى

بلاد الغال لمدة خمس سنوات أخرى وبالفعل استطاعا عن طريق تريبون اسمه جايوس تريبونيوس Gaius Trebonius أن يحققا رغبة قيصر فى مؤتمر لوكا . وكشف القناع بعد مؤتمر لوكا عن التحالف الثلاثى ، ولم يجد شيشيرون المسكين أمامه الا أن يؤيد هذا التحالف ، وبذلك أسكت أحد الصوتين المعترضين ، وظل صوت كاتو وحده عالياً ،وكان قد عاد من مهمته من قبرص فى مطلع عام ٥٦ ق.م ، وعلى أى حال فقد أصبح البحث عن خليفة لقيصر لحكم بلاد الغال قبل الاول من مارس عام ٥٠ ق.م أمر مستبعدا وغير قانونى،لأن قانون تريبونيوس النقيب كان قد صدر بناء على قرارات مؤتمر لوكا .

وعاد قيصر الى العمل العسكرى فى بلاد الغال ، ففى عام ٥٥ق.م عاقب الجرمان وقلم أظافرهم ، كما قام بحملات لفتح بريطانيا عام ٥٥ر٥٤ ق.م ولكنه انشغل بقمع حركات التمرد التى سادت فى بلاد الغال عامى ٥٤ر٥٣ قبل الميلاد خاصة حركة التمرد الكبرى بزعامة فيركينجيتوركس Vercingetorix التى كادت تأتى على قيصر لولا لجوئه الى خدعة عسكرية الى جانب حزمه وصلابة قواته ، فقضى على مقاومة الغال تماما حتى أنه ما كاد عام ٥١ ق.م (١) يهل حتى ساد السلام فى بلاد الغال ، وأحسن قيصر معاملتهم بعد ذلك حتى أنهم أصبحوا من أخلص اتباعه وبدأ السلام يأتى أكله ، اذ بدأت بلاد الغال فى التمدن والأزدهار حتى أصبحت من أسعد ولايات الامبراطورية الرومانية بل ونواة الخضارة الأوربية كلها ، ولاتزال فرنسا تنعم بذلك الأرث الحضارى بفضل قيصر .

كراسوس يسير شرقا ليحارب البارثيين : (٥٣ ق.م)

لعبت دولة البارثيين دورا كبيرا فى أحداث السياسة الرومانية حتى أننا نجد من الضرورى أن نلقى نظرة عامة عنهم قبل تناول دورهم فى الاحداث السياسية التى تعرضت لها الجمهورية والامبراطورية من بعد ، يرجع أصل البارثيين الى قبائل بدوية شبه متجولة تتحدث لهجة فارسية وكانوا

(١) من حروب قيصر انظر : Rice-Holmes, op. cit, iii ; A.F.E. Adock, C.A.H., IX Chapter XVI.

يقيمون فى جنوب شرق بحر قزوين حوالى عام ٢٥٠ ق.م ولكنهم بدأوا فى فرض نفوذهم على بلاد ما بين النهرين وعلى الولايات الشرقية لدولة السليوكيين فى سوريا Seleucids التى كانت آخذة فى الأنهيار ، وكان البارثيون كالاسبرطيين أقلية بالنسبة للشعوب التى كانوا يحكموها، وبالرغم من أن الثقافة الهللينستية كانت قد غمرت هذه المنطقة (١) فى أعقاب غزو الاسكندر لدولة الفرس الا أن ثقافة البارثيين الهللينية كانت سطحية . وقد اشتهر البارثيون بتطويرهم لفنون القتال وخاصة الفرســان المحملة بالأسلحة الثقيلة والخفيفة. والمتتبع (٢) للعلاقات بين دولة بارثيا وروما ليجد أنها تبدأ منذ أن أرسل سوللا عام ٩٢ ق. م لهذه البلاد ســفارة وبقيت العلاقات طيبة حتى عام ٦٥ ق . م عندما رفض بومبى أن يسمح لدولة البارثيين بضم أراضى جديدة فى شمال بلاد ما بين النهرين Mesopotamia وفى عام ٥٥ أتى حــاكم ســوريا أولوس جابينيوس Aulus Gabinius على ما تبقى من علاقات عندما أيد أحد مدعى عرش بارثيا . وهكذا رأى كراسوس فى بارثيا مجال عمل عسكرى ليحرز نصرا يتفاخر به مثل قيصر بومبى ، بل ويقلد الاسكندر الاكبر فى فتوحاته للشرق فأعد جيشا وخرج لملاقات البارثيين فى خريف عام ٥٥ ق. م رغم معارضة السناتو ووسط سخط القنصل اتيوس Ateius ولعنه أعدائه وسخرية شيشيرون (٣) وكان كراسوس قد بلغ الستين من عمره ولا يقدر قوة البارثيين ، بل كان مدفوعا بما روى له عن الذهب الذى يملأ بلادهم ، والذى طمع أن يعود محملا به. فقد كان ــ كما سبق أن ذكرت ــ نهما جشعا .

---

(١) يقال أن الشعب البارثى كان يشاهد عرضا لمسرحية يوربيدس « الباخيات عندما زفت اليهم انباء انتصارهم على كراسوس » .

Plutarchus, cf. Crassus.

(2) Freya Stark : Rome on the Euphrates, John Murray, London, 1966, p. 114 ff.

(3) Cicero, Ad. Atticum., IV, 13.

هزيمة كراسوس فى كارهاى ٥٣ ق.م :

غادر كراسوس روما متجها الى بارثيا فى أواخر عام ٥٥ ق. م وبدأ فى مناورة البارثيين عام ٥٤ ق . م ولكنه توغل فى صحراء ما بين النهرين فى عام ٥٣ ق. م وعبر الفرات دون أن يحسب حسابا لبأس البارثيين ولا لحرب الصحراء (١) وأعد قائد البارثيين سوريناس Surenas قوات راكبة قوامها عشرة آلاف نابل ، تدعمها ألف جمل تحمل المؤن والعتاد وألف فارس مسلح بالحراب الطويلة ، وانقض الفرسان البارثيون على الجيش الرومانى قرب كارهاى Carrhae (حران الحاليـة) وهى مدينـة أشورية قديمة ، واعملوا فيه قتلا ، ولم ينج من الجيش الرومانى الذى كان قوامه أربعون ألفا الا خمسة آلاف جندى ، ودعى كراسوس لعقد مؤتمر صلح فى زيوجما (Zeugma) وأثناء ذلك غدر به وقتل (٢) ، وتلطخ الشرف الرومانى فى الصحراء ، وظل البارثيون هم الخطر الذى يؤرق الرومان منذ ذلك الوقت وحتى ثـلاثة قرون أخرى من الزمان ، بل واعتبرت كارهاى مأساة قومية وكارثة عسـكرية مثل معركة كاناى تماما . وهكذا أدى اختفاء كراسوس من على مسرح الأحداث فى روما الى مواجهة صريحة ومباشرة بين قيصر وبومبى وخاصة أن بومبى لم يعد يتسامح من أجل جوليا ابنة قيصر لأنها ماتت عام ٥٤ ق. م .

(١) عن كارهاى والبارثين وجهل كراسوس بطبيعة الحرب فى الصحراء انظـر : Sir, W. W. Tarn, C.A.H., IX, Chapter XIV ; N.C. Debevoise, A Political History of Parthia, 1938).

وعن الخيالة البارثين انظر : W.W.Tran, Hellenistic Military and Naval Development (1930), p.

ويصف مؤرخ صينى عاش فى القرن الأول الميلادى رسما مصورا رآه فى احدى مدى التركستان يمثل قوما يشبهون الرومان فى تنظيمهم وسلاحهم وهم يدافعون عن المدينة انظر : H.H. Dubs, A. Roman city in Ancient China, 1957 = Greece & Rome 1957, p. 137 ff.

ويرى دبس ان هؤلاء المدافعون ربما يصورون بقايا قوات كراسوس التى لجأت الى احد ملوك الصين للعمل عنده .

(٢) وعن التاثير الذى تركته هزيمـة كارهـاى على عـلاقة رومـا بالبارثين ، وعلى سير الأحداث السياسية فى الداخل انظر : D. Timpe, Museum Heleveticum,1975, p. 194 ff.

بومبى يصبح رئيسا للدولة Princeps (٥٢ ق٠م) :

عندما انتهت مدة قنصلية بومبى غادر العاصمة الى الريف الايطالى بحجة الاشراف على امدادات القمح وأرسل نوابا Legati عنه يحكمون ولاياته ٠ ولكن حدث أن تعرضت روما للفوضى ولم ينتخب أى أحد للقنصلية عام ٥٤ ق٠ م وكان سبب الفوضى الوقيعة بين اتباع النقيب كلوديوس واتباع منافسة ميلو ، وكان فى استطاعة بومبى أن يوقف الاقتتال الدامى بين الطرفين ولكنه فضل أن يتركهما لكى يقضى كل منهما على الآخر وحتى تكون مهمته سهلة فيها بعد ، ولكى يجبر مجلس الشيوخ على الرضوخ له ، لكى يكلفه بانقاذ البلاد ، بعد الانعام عليه بالسلطات الاستثنائية التى تثير دائما شهية بومبى ٠

وقد عطل هذا الاقتتال الانتخابات عام ٥٢ ق٠ م اذ حدث فى يناير عام ٥٢ ق٠ م أن فتك رجال ميلوبكلوديوس نفسه أثناء سيره فى طريق أبيوس Via Appiana ، وبدأ القتال الدامى عندئذ دعى مجلس الشيوخ بومبى للتدخل فلبى النداء وعين قنصلا بمفرده لأول مرة فى تاريخ روما Consul Solus حتى يختار هو بنفسه شريكه ، وبالفعل أعاد بومبى الطمأنينة الى المدينة المذعورة ، وقبض على ميلو وقدمه للمحاكمة بتهمة أثارة الفوضى ونفاه من البلاد ، وتربع بومبى على قمة المجد والسلطة ، فهو قنصل بمفرده ، وفى حوزته ولايات تمتد من أسبانيا الى ليبيا وكافة البلاد التى وضعت تحت اشرافه لتأمين وصول القمح ، فضلا عن ذلك فقد كان يحكم ولايته عن طريق مندوبين Legati ، وينفق على جيشه من الخزانة العامة ، وكان مركز القوى الوحيد ، وأضحى السناتو بدونه لا حول له ولا قوة ، ولذا أطلق عليه معاصروه لقب المواطن الأول Princeps ، وكأنه قد سبق أغسطس فى الوصول الى هذا المنصب النادر ، ولم يعترى بومبى الرغبة فى التسلط ، واقامة دكتاتورية ، لأنه كان جمهوريا مخلصا بالرغم من كل شىء ، لكنه كان مغرما بالمظاهر والعظمة ، ويعشق المديح والاجلال ، ولذا عمل على ازاحة قيصر من طريقه ولما كان قيصر العدو الأول للاشراف والارستقراطيين Optimates لذا تجمع هؤلاء حول بومبى ، وأوغروا صدره بالحقد على قيصر الذى

زادت شعبيته ونفوذه وأمواله بشكل يهدد مصالحهم ، وفى نهاية صيف عام ٥٢ كان بومبى واثقا من نفسه فعين والد زوجته الجديدة ميتللوس C. Metellus شريكا معه فى القنصلية .

بومبى يتحرش بقيصر :

كان هدف قيصر هو التقدم للترشيح لوظيفة قنصل للمرة الثانية لأن قيصر كان يعلم أن أعـداءه كثيرون ، وأنه لن يسلم من الأذى لو فقـد سلطة « الامبريوم » وعزم على عدم العودة الى روما بدون هذه السلطة التى تعطيه مناعة قانونية ، ولذا أوعز الى ترابنة عام ٥٢ بترشيحه للقنصلية وهو غائب in absentia ، وطبقا للقانون الرومانى كان لا يجـوز لقيصر التقدم للترشيح الا بعد مرور عشر سـنوات من شغله الوظيفة الأولى أى لا يجوز له التقدم للترشيح قبل عام ٤٨ ق٠ م ولكنه اتخذ من تعيين بومبى عام ٥٢ ق٠ م قنصلا ، وقنصلا بمفرده ذريعة بأنه لم يعـد هناك قانون ، لأن السناتو يستطيع اذا أراد أن يدوس على القوانين ويصدر الاستثناءات .

هكذا اقترب بومبى والسناتو وتفاهما ، وبدأ بومبى يسلك سلوكا غريبا تجاه قيصر . فمثلا رفض أن يتزوج مرة أخرى احدى بنات قيصر بعد موت جوليا ، ومن الغريب أن بومبى كان قـد أيد ترشيـح قيصر للقنصلية وهو غائب بشرط مرور عشر سنوات منذ تعيينه قنصلا ولكنه عاد فاستصدر قرارا يستوجب حضور كل المرشحين ، وكان معنى ذلك أن يمثل قيصر بدون سلطات أمام أعدائه ويصبـح تحت رحمتهم ولمـا شرحت له وجهة نظر قيصر اضاف بخط يده مذيلة تستثنى قيصر من هذا القانون ولكن هناك شك كبير فى شرعية اضافته هذه المذيلة على قانون صدر ، كما استصدر بومبى قانونا يحرم تعيين القناصل السابقين وكذلك البرايتورين Praetores حكاما على الولايات مباشرة بعد انقضاء مددهم بل استوجب مرور خمس سنوات وأعطى لمجلس الشـيوخ حق الأختيار من بين المرشحين من يراهم أكفاء للتعيين فى مناصب حكام الولايات .

وبناء على هذا القانون عين شيشيرون عام ٥١ ق٠ م حـاكما على ولاية كيليكيا ، وكان لبومبى وجهة نظر قيمة هى أن يمنع تبذير المرشحين

للاموال أثناء عملية الانتخاب ثم تسديدهم هذه الديون بعد انقضاء مدة القنصلية وتعيينهم حكاما على ولايات ومن ثم يدفعهم ذلك الى الاختلاس وجمع الأموال بطرق غير شرعية . ومهما كانت دوافعه فقد كان هذا القانون ضربة قاسية لقيصر الذى كان يعلم أن عودته لروما بدون سلطة (الأمبريوم القنصلى سوف يجعل منه ضحية لاعـدائه المتربصين به ، وعلى رأسهم كاتو وشيشيرون ، وكان قيصر قد حصل على وعود بعدم تعيين أى قنصل لخلافته قبل الأول من مارس عام ٥٠ ق ٠ م ، بينما كان بومبى ، قد جدد سلطته على أسبانيا لمدة خمس سنوات أخرى مما شجع قيصر فى الاصرار على تعين نفسه قنصلا وهو غائب قبل الأول من مارس عام ٥٠ ق ٠ م .

اعداء قيصر ينتهزون الفرصة :

ومما زاد الأمر تعقيدا أن أحد أعداء قيصر وهو القنصل ماركللوس Marcellus طالب باستدعاء قيصر فى أواخر عام ٥١ ق٠ م لأن عمله قد انتهى فى بلاد الغال (١) ولكن مشروع قراره فشل ، واعترض بومبى

---

(١) لا يزال التاريخ المحدد لانتهاء سلطات قيصر (legis dies) محل جدل بين العلماء وتحديد هذا اليوم له أهميته فى الصراع لان قيصر لم يرد ان يدخل روما بدون سلطاته ، والا انتقم منه اعداؤه،وكان من نتيجة الجدل ان أصبح امامنا مصادر كثيرة بخصوص ذلك الموضوع منذ ان بدأ مومسن الجدل فى مقاله Die Rechtfrage.

وهذه المصادر توجد ملخصة فى :

How and Clark, Cicero Select letters (1926) appendix V ; Rice & Holmes, Roman Republic pl. ii, p. 99. ;

وقد حدد مارش تاريخ يوم انتهاء السلطة فى اليوم الأول من شهر مارس عام ٥٠ ق.م

Cf. his The Founding of the Roman Empire, 1927, p. 275

اما آدكوك فحدد ذلك اليوم فى ١٣ نوفمبر عام ٥٠.

Cf. Classical Quarterly 1923, p. I4 ff.

اما ستيفنس Stevens فقد حدده ما بين يوليو واكتوبر عام ٥٠ق.م (A.J.P., 1938, p. 169

اما بولسدون Balsdon (J.R.S., 1939, 57 ff) يرى ان القانون لم يحدد يوما معينا تسقط فيه السلطة ، اما التون G. Elton (J.R.S., 1946, 18 ff) فبعد مناقشته للأراء السابقة ينتهى بالعودة الى راى مومسن Mommsen فى ان ذلك اليوم كان الثامن والعشرين من فبراير عام ٤٩ ق.م .

والمزيد عن هذه القضية انظر :

R. Sealey, Classical et Mediaevalia (1957) p. 75 ff., J.P. Cuff, Historia, 1958, p. 445 ff.

نفسه على عودة قيصر قبل الأول من مارس عام ٥٠ ق ٠ م وبدأ اتصالا مع قيصر بخصوص ذلك ، وكان من الواضح أن قيصر يريد التقدم للترشيح كقنصل لعام ٤٩ ق ٠ م وجاء الأول من مارس عام ٥٠ ق ٠ م ، ولم يرجع قيصر ووقف أحد أصدقائه وهو التريبون كوريو يعرقل أى محاولة لتعيين حكام فى الولايات التى يحكمها قيصر ، وبدأت محاولات مكثفة من جانب السناتو وبومبى لحمل قيصر على انهاء حكمه للولايات قبل تقدمه للانتخابات العامة ، وأثار قيصر مسألة التنازل عن السلطة ، مقابل أن يتنازل بومبى الذى كان يتمتع بقيادة جيش فى ايطاليا وقدم عروضا عن طريق التريبون كوريو [1] وهو أن يسرح قيصر جيشه ويعود الى روما بشرط أن يفعل بومبى مثله ٠ وكان مقصده احراج بومبى ، ووافق السناتو بالاجماع على ذلك فى ديسمبر سنة ٥٠ ق ٠ م ، ولكن القنصل ماركلوس عدو قيصر وصديق بومبى اعترض على ذلك ، بل واستصدر قرارا كلف بومبى بقيادة قوات الحكومة ، وفى الأول من يناير سنة ٤٩ ق ٠ م تحت ضغط المحافظين وأصدقاء بومبى أصدر السناتو قرار يدعو فيه قيصر للعودة وتسليم مهام قيادته وألا أعلنه عدوا للأمة ٠ ومن الطريف أن اثنين من الترابنة اعترضا على هذا المشروع وهما ماركوس أنطونيوس وكونتوس كاسيوس ، وأثار ذلك أعضاء مجلس الشيوخ فطردهما من الجلسة تحت تهديد الموت ، وفى السابع من يناير أصدر مجلس الشيوخ قراره الأخير وهو الانذار النهائى دعا فيه القنصلين وبومبى بصفته قنصل سابق وقائد للجيوش بحماية الأمة من قيصر عدوها ، وفر أصدقاء قيصر من المدينة وذهبوا لمقابلته فى بلاد الغال القريبة حيث كان يترقب الاحداث ، ومعه جيشه وأصدقاؤه ، وتقدم كاسيوس وأنطونيوس يطلبان منه الحماية ، ووجد قيصر فى ذلك عذرا للتدخل

---

(١) يرى و. لاسى W. Lacey ان نقيب العامة كوريو لم يكن من عملاء قيصر ٠ وانما كان رجلا محايدا سعى الى فض الصراع بدون صراع ، لأنه اقترح تكوين لجنة للاشراف على الطرق العسكرية حتى تؤمن انسحاب قيصر من بلاد الغال دون ان يتولى القنصلية ٠
W. K. Lacey, Historia 1961, p. 318 ff.

عسكريا لحماية مكاسبه تحت ستار حمـــاية ممثلى الشعب من عدوان الارستقراطيين •

اندلاع الحرب الأهلية بين قيصر وبومبى (٤٩ - ٤٦ ق.م) :

لقد وضع بومبى والسناتو قيصر فى مأزق حرج ، وجعلوا أمامه أمرين اما النصر أو الفنــاء ، كان قيصر يتمتع بما لم يتمتع به بومبى والسناتو معا فهو محبوب بين جنوده ويسيطر عليهم سيطرة كاملة كما كان له جنود فى كل مكان مسحورين بقيادته وباسمه وبعكس بومبى قائد قوات السناتو والذى كان عليه أن يتشاور مع زعماء السناتو قبل الاتيان بأى حركة ، كان قيصر حرا فى تحركه وسريعا فيه • وأسرع قيصر بمبادأة القتال حتى يفرض المعركة على أعدائه قبل أن يستعدوا ، وفى السابع من يناير عام ٤٩ عنــدما وصــله قرار مجلس الشــيوخ ، عبر نهر الروبيكون (١) الذى كان يفصل بين بلاد الغال وايطاليا وأصدر أوامره الى قواته فى بلاد الغال بالانضمام اليه ، وفتحت له المقاطعات الايطالية أبوابها دون مقاومة بل مرحبة ، ودفعت اليه الضرائب التى كانت تدفعها للحكومة فى روما ، وحاول السناتو معالجة الموقف بطلب المفاوضة مع قيصر وكرر قيصر طلبه السابق من أن يسرح هو وبومبى جيوشه وهو يعلم أن بومبى لن يقبل ذلك ،

---

(١) ويقال ان قيصر صاح غاضبا قبل اختراق الروبيكون « لقد القى بالنرد ! «Iacta est alea» اى انه خاطر وقامر فى لعبة حظ.
Suetonius, Divus Iulius, 33.

وعن مسئولية اندلاع هذه الحرب الاهلية لا يزال هناك جدل كثير ، بعضهم يلقيها على قيصر وسلطويته :

cf. Bellum Civile, I, 9, 2 (cf. Cicero Ad Atticum 7, II, I.

وبعضهم القاها على بومبى انظر :

Tacitus, Historia II, 36, I.

وبينما القى شيشيرون المسئولية على اطماع كل من بومبى وقيصر على السواء
Ad. Atticum, 7, 13, 4 ; 8, 11, 2.

للمزيد عن الجدل حول هذه المسئولية انظر :

Wirszbuski, Libertas, 77 cf; R. Syme, Roman Revolution, 47 ff.

وعن الدوافع التى دفعت بومبى للحرب انظر :

L.G. Pocock, Greece & Rome 1959, p. 68.

وعن دراسة موقف الأسر الرومانية التى ايدت الاطراف المتنازعة او التى بقيت محايدة انظر :

D R. Schakleton Bailey, Classical Quarterly, 1966, p. 353 ff.

وكان تصرفه العاقل ازاء الأراضى التى يستولى عليها يكسبه شعبية وتأييدا، والتقى قيصر بجيش رسمى قرب كورفينوم (Corfinum) فى وسط ايطاليا وانضمت قواته اليه ، واضطر بومبى الى مغادرة ايطاليا والاتجاه الى الشرق ليستعد ، ودخل قيصر روما واستولى على الأموال التى كانت مخصصة لجيوش بومبى بينما استولى ضباط قيصر على صقلية وسردينيا وشمال أفريقيا لتأمين الامدادات من القمح ، وسارع قيصر الى أسبانيا لملاقاة جيوش بومبى وبالفعل هزمها وانضم بعضها له وتشتت البعض الآخر ، كما حاصر ماسليا Massilia حتى سقطت ، وأنزل بها وبسكانها العقاب نظير الوقوف فى وجهه ، ثم عاد الى روما حيث عين دكتاتورا بمقتضى قانون خاص ، ثم أشرف على عملية الانتخاب ونجح كقنصل لعام ٤٨ ق . م وبعد ذلك خرج الى برنديزى Brundisium حيث كان يتجمع جيشه استعدادا للاقلاع الى ابيروس Epirus حيث كان يعسكر بومبى وقواته .

معركة فارسالوس Pharsalus (١) وموت بومبى :

بينما كان قيصر يحارب قوات بومبى فى أسبانيا ، أعد الأخير جيشا صغيرا فى مقدونيا قوامه تسعة فرق رومانية تساعدها قوات مساعدة من الحلفاء ، كما كان يمتلك أسطولا يسيطر على البحر الادرياتيكى ، وقد جمع هذه السفن من أصدقائه فى الشرق ، وبالرغم من ذلك فقد أبحر قيصر الى ابيروس واستولى على ميناء أبوللونيا وبقى الجيشان طوال فصل الشتاء لايتحاربان ، واكتفى بومبى بمنع وصول أى امدادات لقيصر حتى استطاع انطونيوس أن يصل بأمداد جديد لقيصر ، وحاول قيصر أن يبدأ القتال قبل أن تنفذ المؤن من معسكره وحاول محاصرة قوات بومبى فى ديراخيوم Dyrrhachium وفشل قيصر ، وتراجع الى تساليا يتعقبه بومبى ، وتحت الحاح رجال السناتو الذين اصطحبوه ، غامر بومبى بدخول معركة فاصلة ضد قيصر قرب مدينة فرسالوس القديمة حيث هاجم

---

(١) عن تفاصيل معركة فارسالوس انظر المناقشات التالية : M. Rambaud, Historia, iii (1955) p. 346 ff ; W.E. Gwatkin. T. A. P. A. 1956, p. 109 ff ; Y. Bequignon, Bull. Corresp. Hellen, 1960, p. 176 ff.

قيصر . ولكنه هزم وتشتتت قواته وهرب بومبى الى مصر ، وما كاد تطأ أقدامه شواطئها حتى أغتيل بناء على أوامر الملك البطلمى الذى كان يربطه بأبيه - بطليموس الزمار - صلات قديمة ".

مقتل بومبى فى مصر :

وصل بومبى الى مصر فى وقت غير مناسب ، فقد مات صديقه بطليموس الزمار الذى حماه ودافع عنه لكى يبقى على ملكه ، وغرقت مصر فى بحر من الحرب الأهلية بين أبناء الزمار وهما بطليموس الثالث عشر الذى كان عمره لايتجاوز الثالثة عشرة وأخته الكبرى كليوباترا السابعة التى طبقا لعادات العرش فى مصر كان من المفروض أن تكون زوجته وشريكته .

ولكن الشقيق حارب شقيقته من أجل الانفراد بالعرش وذلك تحت تأثير وزير الملك الصبى بوثينوس الذى كان يرفض أن تشارك كليو باترا شقيقها على العرش ، نظرا لما لمسه فيها من حب السيطرة والانفراد بالرأى وتحت تأثير الوزير وشعب الاسكندرية ، قام بطليموس الثالث عشر بطرد كليوباترا من الاسكندرية،فهربت الى صحراء سيناء،حيث جمعت جيشا خاصا للعودة الى العرش وبالفعل عبرت الحدود الى صحراء مصر الشرقية فى طريقها لغزو الاسكندرية . وخرج أخوها بجيشه لملاقاتها .

وبينما كانا الجيشـان يستعدان للالتحام رست سفن بومبى عنـد الشواطىء الشرقية المصرية وطلب من الملك الصبى السماح بالنزول فى مصر أملا فى أن يجد العون والمساعدة فى تكوين جيش يعـود به لملاقاة قيصر ، حيث قيل أن له أموالا فى مصر وحسابا منذ أن كان يتلقى الرشاوى من بطليموس الزمار . ولكن مستشارو الملك الصبى دبروا مؤامرة لاغتيال بومبى حتى لا يعطوا قيصر عذرا لغزو مصر واحتلالها بحجة أنها تؤيد عدوه ، وما كاد بومبى يضع قدمه فوق الأرض المصرية حتى قام أحـد الضباط الرومان بطعنه فى ظهره بالخناجر . وقام مستشارو الملك الصبى بفصل رأس بومبى عن جسده واحتفظوا بها محنطة حتى يقدموها الى قيصر الذى وصل الى الاسكندرية بعد ثلاثة أيام من مقتل بومبى .

هكذا قتل بومبى ومن أكبر أخطاء بومبى أن صموده فى المعارك لم يكن أبدا يناسب طموحه الذى دفعه للبحث عن مكانة تفوق القوانين بينما لم يكن يتوفر له من العزيمة والارادة والقوة القدرة على تحطيم هـذه القوانين . لقد خدعه شيوخ السناتو عندما ظن أنهم يتيمون به حبـا ، ولكنهم فى الحقيقة كانوا يتجمعون حوله لأنهم كانوا فى حاجة اليه ولأنهم رأوا فيه خطرا أقل من خطر قيصر . ولو قدر له أن ينتصر لتآمروا عليـه وقضوا عليه يوما ما .

تحليل لشخصية وأعمال بومبى الكبير :

ان نظرة فاحصة ومحللة لتاريخ حياة وأعمال بومبى الكبير منـذ بزوغ نجمه كضـابط عنيف ثائر ، خارج على كل التقاليد والقـواعد الدستورية للجمهورية الأوليجارخية ، يؤيد سوللا فى استخدام العنف من أجل تقويض دعائم النظام الجمهورى الأوليجارخى ، الى آخر أيامه عندما نصب نفسه مدافعا عن الجمهورية القديمة ذاتها ضـد الثوار من أمثال يوليوس قيصر ، مضحيا بنفسه وبمكاسبه لحمايتها رغم عدم اخلاص الشيوخ له ، ورغم علمه بعقمها ، وفسادها حتى سقط شهيدا لها ، بل أنه كان الشهيد الأول من أجلها قبل كاتو ذلك الشيخ المتزمت نفسه ، وسواء فعل بومبى ذلك عن عقيدة أو أملا فى مناصب وسلطات ، أو حقدا على قيصر ، فان ذلك التغير يمثل التطور أو التناقض فى شخص وسلوك ذلك القائد العظيم .

لقد كان بومبى قياديا وقائدا ، وزعيما قديرا ، أوتى موهبـة وقدرة خاصة فى مجال التنظيم والادارة ويشهد على ذلك أعماله وتنظيماته فى الشرق حيث أوجد الدعائم الثابتة للاستعمار والنفوذ الرومانى الذى ظل قويا حتى انقسام الأمبراطورية الرومانية وسقوطها بعد أكثر من خمسة قرون من الزمان . كذلك كان بومبى بنفس القدر رائعا فى حل المشاكل الادارية والاقتصادية للجمهورية وقد رأينا تصرفه السليم الذكى والحازم عندما أوكل اليه حل أزمة القمح حيث أنقذ الجمهورية من مجاعة محققة ،

بل وأعاد اليها السكينة والهدوء وقضى على الصراعات الدموية والهمجية بين العصابات السياسية ٠

لقد تمتع بومبى بشخصية ساحرة وجذابة سحرت كل من عرفه عن قرب ، وجعلت شيشيرون يسير فى ركابه مسخرا نفســه ولسانه وعبقريته القانونية للدفاع عنه وحمايته من أعدائه فى حضوره وغيابه ، وقد بكاه شيشيرون بحرقة وكتب بأسلوب يقطر حزنا وأسى على مقتله ، مسرفا بلا تحفظ فى الثناء عليه وعلى خلقه الرفيع ونبله الســامى وشــهامته ورجولته الفذة (١) ٠

لقد كان لبومبى كغيره من قادة التاريخ نقائصه وعيوبه ، كما كان له مزاياه ، فقد انتقده شيشيرون فى ثلاثة من خطاباته الأدبية الى صديقه أتيكوس أرسلها قبل الكارثة ، منتقدا أنانية بومبى واعتزازه بنفسه قبل مواطنيه وقبل سلامة الجمهورية ، وانه كان على استعداد لتعريض البلاد للخطر من أجل الفوز بالسلطة والاستئثار بالمجد والنفوذ حتى ولو قاد ذلك البلاد الى فوضى الحروب الأهلية (٢) وقد بلغ من غضب شيشيرون صاحب فكرة دولة الحرية libertas التى تحقق لمواطنيها الحياة الرغدة مع الكرامة Otium cum dignitate أن يسخر من بومبى ويتهكم عليه مشبها اياه بأخذ صعاليك الطغاة الأســيويين ، واسمه سامبسيكيرانوس Sampsiceranos وكان هذا الأخير رجلا وضيع الشأن الا أنه كسب شهرة جابت الآفاق على حد المثل العربى القديم « تسمع عنه ، خير من أن تراه ! » (٣) ٠

لقد كان بومبى فى تاريخه السياسى انتهازيا يركب الموجة أينما كانت متجهة من أجل مصلحته الشخصية دون أن يرتبط بمبدأ أو عقيدة ، فهو

(1) Cicero, Ad. Atticum, XI, 6.
(2) Op. cit, VII, 3, 4.
(3) Op. cit. VIII, 11 ; IX, 6.

حينما يخطب ود الديمقراطيين الشعبيين ، ثم يهجرهم للارتماء فى أحضان السناتو والحزب الأليجارخى وحينا يسلك الطريق المعاكس من أجل منفعته الشخصية ومن أجل السلطة والنفوذ الذى يرضى غروره ويشبع كبرياءه ويرفعه الى مرتبة تفوق مواطنيه ، حتى زيجاته المتعددة كانت أيضا لذات المنفعة السياسية ، ولهذا السبب اتهمه شيشيرون بأنه ويوليوس قيصر أبعد ما يكونا عن الفكر السياسى المثالى الذى تخيله سكيبيو يوما ما .

لقد كان بومبى شخصا عبوسا ، جادا لايعرف الهزل بعكس يوليوس قيصر وقد ساعدته تلك الصفة السلوكية على اكتساب صفة الوقار والمهابة dignitas التى يشترطها الرومان فى شخصية الزعيم ، كما حققت له انتصاراته السريعة كالبرق والتى أذهلت حتى أعداءه وجلبت له المجد والشهرة Gloria والوقار السلطوى والنفوذ Auctoritas ، كما كان شخصا يظهر ما لايبطن ، ويخفى فى صريرته أشياء تظهر فى سلوكه ولقد ذكر شيشيرون أن نقيب العامة كلوديوس ويوليوس قيصر يتفقان على أنه « يقول شيئا ثم يفعل شيئا آخر ، لكنه على الرغم من ذلك لايملك القدرة على اخفاء ما يريد ! » .

وبالرغم من انتصارات بومبى المذهلة فى المعارك التى خاضها الا أن البعض يرى أن هذه الانتصارات لم تكن نتيجة لمواهب عسكرية خارقة فى فن التكتيك مثل تحريك الجيوش فى الوقت المناسب والاستيلاء على المواقع واقامة التحصينات وغير ذلك من وسائل المراوغة والخداع الميدانى وتضليل العدو ، أو نتيجة للصمود العسكرى الطويل وهى كل الصفات التى تحققت فى شخص يوليوس قيصر ، وانما كانت انتصاراته نتيجة للحظ والصدفة لأن بومبى لم يكن يطيق المعارك الطويلة بل يتبع تكتيك الحرب القصيرة الخاطفة Blitzkrieg التى تأتى نتيجة لاعداد وحشد أكبر قدر من القوة العسكرية ضد هدف محدد وصغير لكى يحصل على انتصار مذهل ، يستخدمه لدعم مركزه السياسى ، وقد ساعده الحظ على ذلك فكان يقدم اليه فرصا نادرة لمعارك كافح فيها قادة آخرون وقبل أن يحققوا انتصاراتهم النهائية، يدخل بومبى بقواته وعنفه ليكمل الشوط الأخير

من المعارك وينسب لنفسه النصر الأخير • وقد ظهر هذا السلوك فى كل معاركة التى خاضها ضد مثراداتيس فى الشرق ، أو ضد سرتوريوس فى الغرب ، أو ضد قراصنة البحر المتوسط أو ضد ثوار سبارتاكوس العبد التراقى • ولهذا اتهموه بأنه سارق الانتصارات من الآخـرين وأنه كان يحصد ما لم يزرع ، مما أكسبه عداء كثير (١) من القادة العسكريين من أمثال كراسوس ولوكوللوس وميتللوس •

وبالرغم من هذا كان بومبى طيب القلب ، سليم الطوية ،يسهل خداعه(٢) بالتملق وبالاغراء بالسلطة ، خدعه الشيوخ عندما لوحوا له بالسـلطات الأستثنائية حتى ورطوه فى صراع ضد يوليوس قيصر ، الذى كان فى موقف يفـوق موقف السـناتو اخلاصـا ، وانتهى الصراع بسـقوط بومبى والقضاء عليه وسقط شهيدا لقضية السناتو حتى قبل كاتو الشيخ السوداوى النظرة المحافظ لدرجة التطرف ، ولا أقول شهيدا بل ضحية لصراع السناتو ضد قيصر • كما كان بومبى بطىء التصرف لدرجة البلادة والرعونة فى بعض المواقف مثل موقفه من نفى شيشيرون على يد كلوديوس بتخطيط من قيصر ، دون أن يفعل شيئا لانقاذه من النفى •

ويدافع البعض عن نهم بومبى وجشعه فى السعى وراء السلطة والنفوذ ويفسرون بأن ذلك كان ترجمة طبيعية لقـدراته ومواهبة العسـكرية والتنظيمية ويقولون أن الجرى وراء السلطة والنفوذ لم يكن صفة خاصة انفرد بها بومبى دون غيره من رجال العصر ، بل كانت سمة الحياة السياسية فى روما ابان تلك الفترة الديناميكية من تاريخ الشعب الرومانى ، وأنه

---

(1) Cf. Frank Bourne, A History of the Romans, Princeton University Heath and Company Boston (1966) p. 294.

هناك عملان جيدان عن بومبى ولكن للاسف موجزان اولهما تاريخ حياته كتبه بالألمانية وهو

(2) M. Gezler, Pompeius, 2nd edition Munich 1959 :

والآخر بالفرنسية : وتناول حياة بومبى وعصره وهو :

J. Van Ooteghem, Pompee Le Grand (1954).

لو قورن بغيره من زعماء عصره ، لبدى أكثر نزاهة وعزة فى سعيه للسلطة من غيره من أمثال كراسوس وكاتيلينا بل ويوليوس قيصر نفسه .
والدليل على ذلك ، أنه لم يسع لفرض السلطة الدكتاتورية الدموية عن طريق القوة العسكرية على طريقة سوللا بل كان عزوفا عنها بالرغم من أنه كان فى مقدرته أن يفعل ذلك ، خاصة عندما عاد من الشرق فى صحبة قواته العارمة والتى تمرست على القتال فى ظروف صعبة وشاقة وربط بينه وبينها رفقة السلاح واعجاب القائد لكنه عندما رسى فى ميناء برنديزى سرح قواته وسار الى السناتو أعزلا يطالب بحقوقه عن طريق الدستور والاجراءات المشروعة ولم يقدر السناتو ذلك النبل العظيم والنية الحسنة .
وبالرغم من مآخذ السناتو عليه ، كان جمهوريا مخلصا ووفيا ، بل استغل السناتو موقفه الضعيف ، وراح يتذكر له أخطاءه ويعرقل مطالبة .
ولهذا مدحه تاكيتوس المؤرخ الرومانى العظيم (١) ، ووصفه بأنه لا يقل عن سوللا أو ماريوس شأنا وتأثيرا فى أحداث تاريخ الرومان .

حقا ، لقد بدأ بومبى حياته شقيا ثائرا على الجمهورية ، خارجا على قوانينها وتقاليدها وقواعدها الدستورية واشترك مع سوللا الدكتاتور فى تقويض دعائمها ، ولكنه انتهى تقيا مدافعا عنها حتى الثماله « وهكذا أنهى الغدر حياة رجل شجاع ، لم يكن الغدر من شيمته » (٢) .

يوليوس قيصر فى مصر (٤٨ — ٤٧ ق . م) :

وصل يوليوس قيصر مطاردا بومبى الى مصر ، ورست سفنه فى مياه الاسكندرية فى أواخر يوليو عام ٤٨ ق . م دون أن يعلم بمأساة بومبى . وكان مع قيصر قوة صغيرة قوامها أربعة وثلاثون سفينة حربية وثمانمائة فارس ، وفرقة واحدة من المشاة معظمهم من الغاليين الجرمان يبلغ قوامها ٣٢٠٠ جندى . وما أن علم مستشارو الملك البطلمى بوصوله حتى خفوا لاستقباله وحمل ثيودوتوس رجل البلاط ومعلم الملك رأس بومبى ، فحزن

(1) Tacitus, Historiae, 11, 38, 1.

(٢) ابراهيم نصحى — المرجع السابق ص ٦٣٩ وما بعدها .

قيصر حزنا شديدا على مصير رومانى صديق سابق وعدو حالى ورثاه بكلمات حارة بل وأعلن الحداد وطلب بأن تدفن رفاته فى معبد يبنى له باسم الرحمة Clementia (١) • ثم قرر قيصر أن يستريح قليلا فى تلك المدينة التى كانت من أعظم مدن البحر المتوسط جمالا ورونقا • وراح يسير فى أسواقها وشورارعها فى موكبه يتقدمه حملة شارات السلطة الرومانية Lictores مرتديا عباءته الأرجوانية ، جاعلا مقره القصر ، مما أثار مشاعر أهل الاسكندرية ، وجرح كبرياءهم ، وظنوا أنه قد فتح مصر وهو على وشك من أن يعلنها ولاية رومانية مثلما فعل بومبى من قبل بولاية سوريا حيث قضى على عرش آل سليوكوس • واعتقد البعض أن قيصر جاء ليطالب بالأموال الخاصة به والتى كانت متبقية فى ذمة الزمار وفى وفى كلتا الحالتين خاف السكندريون أن يتحملوا أعباء مالية يفرضها عليهم أجلا أم عاجلا فى شكل ضرائب جديدة أو أن الفرسان الرومان الجشعين الذين ألحقوا الخراب بالشرق الهللينستى سوف ينطلقون فى اثره كالذئاب لترعى وادى النيل ، وقد أدى ذلك الى غضب السكندريين ثم تحول الغضب الى اشتباكات دامية بينهم وبين الرومان ، ولكن الحقيقة أن قيصر جاء الى مصر عن طريق قبرص لأنه كان يبالغ فى تقديره لقوة بومبى ، لأن مصر كانت حليفة لبومبى ، ولهذا حرص على أن يتأكد من سلامة الموقف قبل النزول الى البر المصرى ، فلما قدم له رأس بومبى ، ادرك أن رحلته الى مصر كانت عبثا • كما أن حاجته الشديدة الى المال للانفاق على قواته هى التى دفعته الى أن يتدخل باسم روما وبصفته دكتاتورا فى الصراع المحتدم بين الملكة المصرية كليوباترا السابعة وشقيقها الأصغر بطليموس الثالث عشر الملقب بديونيسيوس Dionysius ، وازاء ذلك الموقف المشتعل

---

(١) حتى وقت قريب كان الاوربيون يعتقدون ان رفات بومبى موضوعة فى اعلى عمود السوارى الموجود بمنطقة السيرابيوم (كوم الشقافة - حى كرموز) بالاسكندرية ، ومن ثم اطلقوا على هذا العمود خطأ اسم عمود بومبى Pompey's Pillar بينما ثبت من اللوحة الموجودة فى اسفل طبلة العمود انه اقيم فى عصر دقلديانوس فى حوالى عام ٢٩٧ ق.م .

طلب قيصر من نائبه دوميتيوس كالفينوس Domitius Calvinus الذى كان موجودا فى سوريا بنجدته بعـــدد من الفرق من بقايا جيش بومبى التى انضمت اليه بعد معركة فارسالوس (١) •

وكان من الطبيعى أن يبدأ قيصر فى تأمين الأوضاع فى الاسكندرية ومصر لأنها كانت فى حالة من الفوضى السياسية التى بالرغم أنها لم تصبح بعد ولاية رومانية الا أنها كانت فى مناطق نفوذ روما وتحت حمايتها • وكان النفوذ الرومانى يتزايد تدريجيا فى مصر منذ تدهور ملوك البطالمة •

ويرجع أصل المشكلة المصرية الى أن بطليموس الزمار كان قد أوصى بأن يكون الشعب الرومانى وصيا على ورثته ، عندئذ أعلن قيصر أنه جاء الى مصر ليمارس سلطته كوصى على العرش نيابة عن الشعب الرومانى ، ويقال أن الزمار كان قد وعد قبل مماته كلا من بومبى وقيصر بمكافآت ومبالغ باهظة مكافأة لهمـا على افشال احـدى القرارات التى قدمهـا كراسوس ومن بعده روللوس والتى كانت تطالب باحتلال مصر وفرض الجباية على شعبها ، لكن الزمار مات دون أن يفى بوعوده ، ثم أمر قيصر كليوباترا وأخيها بتسريح جيوشهما والمثول بين يديه فى القصر الملكى بالاسكندرية وقبول تحكيمه فى النزاع القائم بينهما وقبلت كليوباترا فورا الدعوة وتسللت زورق مستلهم من كل فن ، ورست ذات مسـاء عنـد ميناء القصر الملكى الخاص ثم لفت نفسها فى سجادة شرقية فاخرة حملها كاتم أسرارها أبو للودوروس Apollodorus ومقدما اياها كهدية للضيف الرومانى ، وأمام قيصر فضت السجادة ، وظهرت كليوباترا كما لو كانت أفروديت ربة الجمال وهى تخرج من زبد البحر ، ودهش قيصر من جرءتها،وسحره جمالها،وذكائها،واتقانها للعدد من اللغات،فسحرت فؤاده • وفى اليوم التالى بعث قيصر الى بطليموس الثالث عشر للمثول بين يديه ، ولكن الملك أثار أهل الاسكندرية بخيانة أخته ، لأنه كان يدرك أنها سوف تسحر الدكتاتور الرومانى وسيحكم لصالحها،وكادت أن تحدث فوضى

---

(١) انظر ابراهيم نصحى ـ المرجع السابق ـ ص ٦٤١ وما بعدها •

وقتال لولا أن قيصر خطب فى السكندريين المتجمهرين ، بأنه سوف يتلو عليهم وصية الملك الراحل التى جاء لتنفيذ بنودها والتى كانت تقضى بأن يتولى بطليموس الثالث عشر الحكم بالاشتراك مع أخته وزوجته كليوباترا السابعة باسم « الاخوين المنقذين » ولكى يكسب رضاء السكندريين وعد قيصر بضم قبرص الى مصر وتعيين أرسينوى شقيقة كليوباترا الصغرى وأخوها بطليموس الرابع عشر حكاما عليها (١) ونصح مستشارو الملك بأنه لابد وأن يمثل بين يدى قيصر ليرى ماذا سيفعل ، وفى نفس الوقت يقوم بوثينوس وزميلاه بجمع الأموال وتأليب المصريين ضد قيصر وطلبوا من الملك أنه اذا أحس فى أثناء الاجتماع بانحياز الرومانى لكليوباترا فعليه ان يعطيهم اشارة عندئذ يهجم اخيلاس بقواته المرابطة عند بيلوزيوم ، لاشعال الحرب ، وطرد قيصر . وفى أثناء الاجتماع أحس بطليموس الثالث عشر بانحياز قيصر الى أخته كليوباترا ، وذلك عندما أصدر قرارا بارجاع كافة السلطات والحقوق الخاصة بها اليها . وكانت كليوباترا قد أحست برغبة قيصر فيها فاستجابت له ، ورضيت أن تدفع جسدها ثمنا لاحتفاظها بالعرش مثلما كان أبوها يدفع الذهب للغرض نفسه وكان من نتيجة هذه العلاقة أن حملت كليوباترا من قيصر وأنجبت ابنا سمته هى قيصر وسماه شعب الاسكندرية تهكما قيصرون Kaisarion أى قيصر الصغير ، واكدت بنوة ابنها لقيصر رسميا ، اذ سجلت على نصوص معبد أرمنت أنها أنجبت قيصرون من آمون رع الذى ضاجعها فى صورة يوليوس قيصر (١) .

---

(1) Dio Cassius XLII, 34-35 , Lucan, Pharsalia X, 56, Plutarchus Kaizar XLIX.

انظر ابراهيم نصحى — المرجع السابق ص ٦٤٣ .

(2) Lepsius Denkmaler, IV, 60-65, pp. 2-11 =

ابراهيم نصحى المرجع السابق ص ٦٤٥ .

على أى حال كان بوثينوس قد حرض الشعب السكندرى على الثورة لأن السكندريين امتعضوا لهذا المتطفل الرومانى لتدخله فى مشـاكلهم الخاصة ، وفرض نفسه على خلافات الأسرة المالكة ، واستعراضه للسلطة الرومانية وتوجسوا خيفة أن يطالبهم بديون لا ناقة لهم فيها ولا جمل وهو لا يستحقها ، وأعطى الملك الاشارة وزحفت قوات أخيلاس من بيلوزيوم والتى كانت تتكون من ٢٠ر٠٠٠ من المشاة وألفين من الفرسان واتحدت جماهير المدينة وجيوش بطليموس النظاميـة ليخوضوا حرب الطرقات والمنازل ضد قوة قيصر الصغيرة نسبيا ، كما قام الأسطول المصرى بالتحرش بالسفن الرومانية التى كانت ترسوا فى ميناء المدينة الشرقى . وقد سجل قيصر أو أحد ضباطه هذه الحرب التى عرفت باسم حرب الاسكندرية وعرفها الكتاب باسم شروح لحرب الاسكندرية Commentario de Bello Alexandrino التى تعرضت فيها حياة قيصر للخطر أكثر من مرة ولم تنته الا فى يناير سنة ٤٧ ق . م بعد مقتل بوثينوس وأخيلاس وبطليموس الثالث عشر ، وذلك بعد وصول تعزيزات لقيصر من قبـل مثراداتيس ملك برجامون ، ومن أنتيباتر Antipater وزير الكاهن الأعظم فى مملكة يهوذا Judaea وبالرغم من هذا اضطر قيصر الى اشعال النار فى سفنه وقد امتدت النيران الى مكتبة المدينة فأتت على معظمها ، كما أن الفرق الجرمانية عبث بكثير من مبانى المدينة أثناء قتالها بل ويقال أنها كانت المسئولة عن حرق المكتبة . وعن طريق هذه النجدة كبح قيصر جماح القوات المصرية وأشاع الفوضى بين صفوفها ، وانتهت الحرب بموت الملك بطليموس الثالث عشر غرقا والقبض على أخته أرسينوى التى كانت قد انضمت اليه ضد أختهـا كليوباترا حيث حملها قيصر أسيرة معه الى روما عندما عاد اليها .

وبعد انتصار قيصر عين على العرش كليوباترا بالاشتراك مع أخيها الطفل بطليموس الرابع عشر ، ثم بقى يمتع نفسه مع كليوباترا ثلاثة أشهر

تقريبا اصطحبها خلالها الى رحلة نيلية لمصر العليا (١) ثم غادر مصر فى ربيع عام ٤٧ ق . م المبكر متجها الى فينيقيا حيث استدعى على العجل لمحاربة فارناكيس Pharnaces ابن مثراداتيس ملك بنطوس ، الذى راح يهدد آسيا الصغرى وكابادوكيا ، وترك قيصر فى مصر ثلاث فرق جرمانية وبالفعل هزم قيصر فارناكيس فى معركة زيلا Zela وبعد أن نظم قيصر شئون ولاية آسيا الصغرى ، اتجه غربا حيث كان أنصار بومبى على وشك أن تهزم قوات قيصر فى شمال افريقيا ، بعد أن قتلت نائبه كوريو Curio وراحت تتحفز لغزو ايطاليا بمساعدة الملك جوبا ملك نوميديا ولكن قيصر عاد الى روما أولا فى عام ٤٧ ق . م حيث حصل على قرار بتعيين نفسه دكتاتورا ، كما عين أنطونيوس قائدا لفرسانه ونائبا عنه فى حكم روما ، ولكن أنطونيوس فشل فى ادارة روما وحل الأزمة الاقتصادية الطاحنة التى نجمت عن الحرب الأهلية فاضطر قيصر الى العودة مرة أخرى الى روما فى سبتمبر من العام نفسه حيث أعاد النظام ونجح فى كسب رضا بعض الجنود المتمردين الذين انضموا اليه ثم قادهم الى شمال أفريقيا فى ديسمبر عام ٤٧ ق.م ، وبعد معارك عنيفة سقطت كل منطقة شمال أفريقيا فى حوزته حيث كان كاتو الأصغر مسئولا عن الدفاع عنها فى يوتيكا (تونس) ولما رأى كاتو قواته تنهار وتهرب الى صفوف قيصر وانفض الأنصار من حوله لم يمنعهم من الذهاب اليه بل فضل أن يأخذ حياته بيده وتبعه الملك جوبا وزعماء السناتو المشتركون فى قيادة بومبى ، ونفذ قيصر الاعدام فيمن وقعوا أسرى بين يديه . وبعد ذلك عاد قيصر الى روما حيث أقام

---

(1) Suetonius, Divus Iulius LII ; Appianus Bella Civilia, 11, 90

ابراهيم نصحى المرجع السابق ص ٦٤٤ . وربما لمح فرجيل الى ذلك عندما كان يتحدث عن غرام ديدو واينياس بقوله « لقد طلبت منه ديدو الفاتنة ان يتزوجها .. انهما الآن يتبادلان الحب ويستمتعان بفصل الشتاء» الى أن يقول « كلاهما لاه عن مملكته يستعبدهما شهوة دنيئة ! »

«regnorum Immores, turique, Cupidine Captos» ; Vergil Book IV, 194

انظر ترجمة الانياده ــ العمل السابق ص ٢٠٨ (ترجمة د. حمدى ابراهيم) .

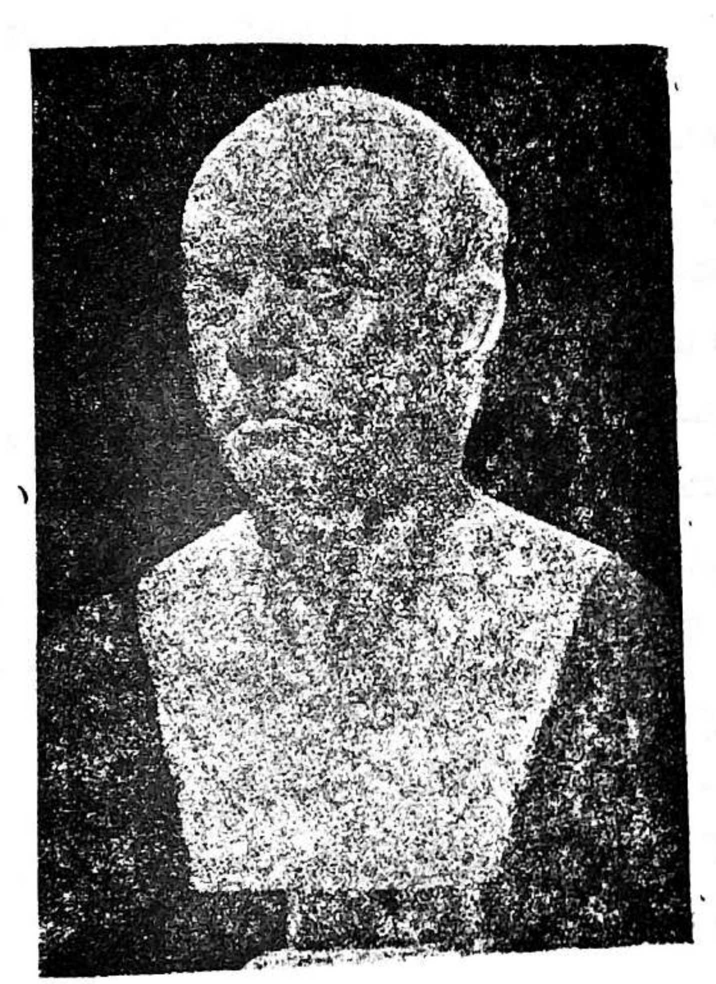
L.E. Lord, J.R.S., 1938, p. 18 ff

قوس نصر عظيم محتفلا بجملة انتصاراته فى بلاد الغال وعلى فارناكيس ملك بنطوس وعلى جوبا ملك نوميديا . وأصبح سيد الموقف بلا منازع . ومن ثم بدأ يضع حلولا لمشاكل الامبراطورية من وجهة نظره لأن الجمهورية كانت رسميا قد سقطت .

علاقة قيصر بالملكة كيلوباترا :

أشرنا الى العلاقة العاطفية والجنسية بين قيصر وكليوباترا والتى كان من نتاجها قيصرون الصغير، الذى نسبته كليو باترا علنا الى قيصر . ورأينا كيف أن كليوباترا أعطت قيصر كل ما يطلب من أجل الاحتفاظ بالعرش ، بل دفعها طموحها الى السيطرة على قيصر وتحقيق أحلامها فى امبراطورية كبرى تكون الاسكندرية عاصمتها ، وهو المشروع الذى حاولت بعد ذلك تحقيقه مع أنطونيوس بعد مقتل قيصر . وقد بلغ افتتان قيصر بها حدا قيل أنها تزوجها سرا طبقا للشعائر الاغريقية البطلمية ، وان كان أبقى هذا الزواج سرا لأسباب عديدة ، وفى الحقيقة بالرغم من أن كليوباترا كانت اسما زوجة لأخيها الطفل بطليموس الرابع عشر الا أنها تمسكت بزواجها من قيصر والذى كان متزوجا فى روما ، لم يكن هناك نص فى القانون الرومانى يمنع الجمع بين زوجتين لكن كان هناك نص يمنع شرعية الزواج بين الرومانى والزوجة الأجنبية التى لا يتمتع شعبها بعلاقات حق الزواج مع الرومان مثلما رأينا فى تنظيم روما لعلاقتها مع الايطاليين واللاتين وبعض الحلفاء . والدليل على ذلك أنها سافرت اليه للاقامة معه فى روما فى عام ٤٦ ق . م . ويرى بعض الباحثين أن قيصر أخفى اعلان زواجه رسميا فى روما خوفا من اعطاء خصومة ذريعة للثورة عليه وحتى لا يتهم بأنه يريد أن يصبح ملكا اذا تزوج من ملكة شرقية غير محبوبة من الرومان ، كما أن زواجه بها كان غير قانونى من وجهة نظر القانون الرومانى ، لأن الزواج تم طبقا للقوانين المقدونية أو الفارسية

حيث تخبرنا الوثائق البردية أن الجمع بين روجتين كان شائعا فى مصر وسوريا وسائر الممالك الهللينستية ، وعاشت كليوباترا تنتظر اليوم الذى يعلن فيه زواجها بقيصر رسميا ويصبح ابنها قيصرون وريث الامبراطورية الرومانية وتصبح بمقتضاه مصر سيدة على روما وليست احدى ولاياتها (١) .



كاتو اليوتيكى
(Cato of Utica)

سيد قدره وشهيد الجمهورية الاخير فى مفارك شمال افريقيا ديسمبر ٤٧ ق م .

(١) انظر ابراهيم نصحى المرجع السابق ص ٦٤٤ - ٦٤٨ .
وربما كانت كيلوباترا تنتظر من قيصر منحها الجنسية الرومانية بمقتضى سلطته كدكتاتور فيصبح عندئذ زواجها شرعيا ويصبح قيصرون وريثا رسميا لقيصر .

الفصل التاسع

دكتاتورية يوليوس قيصر ونهاية الجمهورية

كان انتصار قيصر على بومبى فى فارسالوس Pharsalus عام ٤٨ ق ٠ م انتصارا قاطعا ونهائيا ، حتى أن كثيرين من أتباع بومبى لم يروا فائدة من الاستمرار فى معاداة قيصر فعادوا الى معسكره طالبين العفو ، ومن بين هؤلاء شيشيرون ، ولكن انتصار قيصر كان بداية مشوار طويل ملىء بالمشاكل والصعاب ، والمعضلات ، التى خلفتها الحرب الأهلية ٠ كان على قيصر أن يواجه فلول الجمهوريين المندحرة والتى كانت قد بدأت فى التجمع واعادة التنظيم فى شمال أفريقيا تحت قيادة كاتو اليوتيكى Cato Junior وأتيوس فاروس Attius Varus وميتيللوس سكبيو Metellus Scipio ، كان على قيصر أيضا أن يواجه بعض الملوك الصغار فى الشرق الذين كان بومبى قد عينهم أو كللهم بجمائله فظلوا على عهده باقون وكان عليه أن ينظر فى أمرهم ٠

كما واجه قيصر مشاكل عديدة من ناحية تنظيم قواته ٠ فالعناصر الجمهورية التى انضمت الى قواته هربا من قوات بومبى بدأت تنشر تأثيرها بين جنوده الذين كلوا من طول الحروب والذين تأخرت عنهم المكافأة والعطايا التى اعتاد القواد الرومان أن يمنحوها لجنودهم بعد كل انتصار ٠ فكان عليه أن يسرح فريقا من جنوده وأن يكافىء فريقا وأن يعيد تشكيل فريق ثالثا ٠ وبالطبع تركت سنوات الفوضى السياسية بصماتها على الاقتصاد الرومانى فازدادت ديون الدولة وقل الدخل العام مما أدى الى انتشار الفقر بصورة قاتمة فى المجتمع الرومانى المفلس ٠ وزاد الأمر تعقيدا أن تدفقت حشود كبيرة من المهاجرين الى شواطىء البحر الأبيض المتوسط طلبا للحماية الرومانية ورغبة منهم فى أن يكونوا

« رومانا » . كان على قيصر اذن أن ينشىء نظاما سياسيا قويا يصحح به الأوضاع القائمة ويعيد الاقتصاد الرومانى الى حالته العادية . وبذلك فقد اتجه قيصر الى بنـــاء حكومة مركزية قادرة ، ومن ثم اضطر الى انشاء الدكتاتورية .

قيصر دكتاتورا :

تولى قيصر حكم الأدارة الرومانية كدكتاتور ، وبسلطات مطلقة من ٢٨ يوليو عام ٤٦ حتى الخامس عشر من مارس عام ٤٤ ق . م وهو يوم مصرعه ولم يواجه أى اعتراض على حكمه اللهم الا حركة تمرد قام بها أنصار بومبى فى أسبانيا انهمك فى القضاء عليها ما بين خريف عام ٤٦ الى ربيع عام ٤٥ ق . م ، لقد استطاع قيصر أن يقلم أظافر الحزب الأرستقراطى Optimates والذى كان يؤيد بومبى وقبـــل على مسئوليته أن يقيـــم حكما بديلا لحكم الأرستقراطيين . لقد حرص قيصر ألا يقع فيما وقع فيـــه سوللا Sulla من قبـــل وهـــو وضـــع السلطة فى أيدى مجلس الشيوخ وبدأ فى هدم دعائم الحكم القديم من أساسه ، ولكنه سقط مضرجا فى دمائه قبل أن ينتهى من اقامة حكما جمهوريا بديلا للحكم الأرستقراطى.

اعتمد قيصر فى حكمه على تأييد الجنود له وخاصة قدماء المحاربين Veterani كما اعتمـــد على اخلاص نفـــر من أتباعه الذين ارتبـــط مصيرهم بمصيره وكذلك على قوة مسلحة احتفظ بها شخصيا لحمايته . كما دعم قوته بأن أمن لنفسه عددا من الوظائف الشرعية وبعض السلطات الاستثنائية والشرفية . ويجىء على رأس هذه السلطات سلطة الدكتاتور Dictator وهى سلطة أباحها القانون الرومانى ولـــكن لفترة وجيزة وسبق أن عين فيها قنصل رومانى ابان حرب هانيبال وهو القنصل فابيوس كونكتاتور Fabius Cunctator أى فابيـــوس المتبـــاطىء وقـــد تولى يوليوس قيصر الدكتاتورية مرتين ، مرة عام ٤٩ ق . م ومرة عام ٤٧ ق . م ولكن فى عام ٤٦ عين دكتاتورا لمدة عشر سنوات وهـــذا لم يحدث مثله قط فى التاريخ الرومانى من قبل . ثم ما لبث أن عين فى العام الذى تلاه

دكتاتورا مدى الحياة (١) وفى نفس الوقت لم يترك قيصر ولو لمرة واحدة وظيفة القنصل منذ أن عين قنصلا عام ٤٨ ، وظل يقبل شريكا معه حتى عام ٤٥ ق ٠ م ثم بعد ذلك حكم كقنصل منفرد Consul solus وبالطبع بما أن قيصر اعتبر نفسه زعيما لقضية الديموقراطيين الشعبيين فقد حرص على أن يحتفظ لنفسه بمزايا وظيفة تربيون العامة والتى تعطى حاملها حصانة دستورية مميزة ، كما حرص على أن يجلس الى جوار الترابنة الآخرين فى المناسبات الشعبية والعامة ٠ ولكن من المشكوك فيه أن يكون قيصر قد تمتع بسلطات التربيون كاملة Tribunicia potestas كما يقترح (٢) المؤرخ كاسيوس ديو Cassius Dio ، بالاضافة الى ذلك كان قيصر كاهنا أعظم Pontifex Maximus للشعب الرومانى منذ عام ٦٣ ق ٠ م ، وفى عام ٤٨ حصل على كل المزايا الكهنوتية التى كان يتمتع بها الشيوخ المحافظين ٠ وفى عام ٤٨ أيضا عين رقيبا على الأخلاق والسلوك العام تحت اسم Praefectus morum لمدة ثلاثة سنوات ثم عدلت فيما بعد لتصبح مدى الحياة ٠ الى جانب هذه المناصب تمتع قيصر بحقوق كثيرة لا تقوم على منصب معين ٠ فمثلا منح حق تعيين كبار الموظفين سواء داخل الجمهورية ، أو فى الولايات التابعة لها كل عام ، وفى البداية كان يكتفى بتعيين نصف العدد ولكن بعد عام ٤٤ ق ٠ م أصبح يعين العدد كله ٠ كما حصل قيصر منذ عام ٤٨ ق ٠ م على حق اعلان الحرب وعقد معاهدات السلام دون الرجوع الى مجلس الشيوخ بالمرة ، وفى عام ٤٦ ق ٠ م حصل على حق ابداء رأيه قبل أى فرد آخر داخل السناتو Ius Primae Sententiae وفى عام ٤٥ ق ٠ م حصل على منصب القيادة العامة للقوات الرومانية وحق الاشراف على الميزانية العامة وفى عام ٤٤ ق ٠ م وصل به التسلط أن يبلغ للسناتو بأن يلتزم مقدما بأى معاهدة أو تصرف يقوم به قيصر مستقبلا ، كما بدأ الموظفون يقسمون له يمين الولاء قبل تسلمهم مهام مناصبهم ، ويتعهدون باطاعة أوامره ٠ كانت نتيجة تجمع هذه الوظائف والسلطات والامتيازات

(1) Ronald Syme, The Roman Revolution, Clarendon Press 1939, pp. 53-59.

(2) Cf. F.E. Adcock, C.A.H., IX, pp. 900 ff.

أن أضحى قيصر فوق القانون كما جعل باقى الموظفين فى درجة أتباع وحاشية له . وانهالت عليه ألفاظ التكريم ، بعضها أوعزها هو بنفسه الى أصدقائه وبعضها تملقه بها المتملقون من أعضاء مجلس السناتو خوفا منه ورياء له ، لدرجة أن اتهم بأنه يسعى لاقامة الملكية على الطريقة الهللينستية فى الشرق ومصر (١) .

فمثلا منحه السناتو شرف الجلوس فى مقعد القنصل سواء كان قنصلا أم لا كما لقب باسم أبو الوطن Pater patriae وأقيم له تمثال بين تماثيل ملوك روما القدماء ، كما نصب تمثال آخر له فى معبد كويرينوس Quirinus . كما أعاد الرومان تسمية شهر كوينتيليس Quintilis (٢) وهو الشهر الذى ولد فيه قيصر وسموه بشهر يوليوس (يوليو) تكريما له . كما أنشأت فرقة كهنوتية لعبادته ، وأقيم معبد للرحمة القيصرية وعين فيه كاهنا . كما منح حق بناء منزل على نمط المعبد (وهذا شرف دينى كبير) . ومن الملاحظ أن معظم هذه السلطات والحقوق حصل عليها قيصر بعد انتصاره على اتباع بومبى فى أسبانيا عام ٤٠ ق . م حتى لقب امبراطور Imperator (٣) الذى كان يتمتع به الجنرال المنتصر لكى يمر من تحت قوس النصر triumphus ثم يسلمه للدولة مع سلطة الامبريوم ، تمتع به قيصر

---

(١) وهو راى قديم اقترحه ادوارد ماير انظر :

Ed. Meyer Caesars Monarchie und das principat des Pompeius Berlin 1922.

ولكن ادكوك رد عليها وعارضها انظر :

Adecock, C.A.H., IX p. 718 f. also ct. R. Syme, cp. cit., Chapter IV ; J.R.S. 1944 p. 119 (Last).

(٢) وهو يعنى فى الأصل الشهر الخامس من السنة الرومانية عندما كانت السنة عشر شهور ولما اضيف شهران فى اخر السنة أصبح يقابل الشهر السابع من التقويم الرومانى القديم لكن بقى الاسم القديم كما هو كغيره من الشهور الأخرى انظر ص ٣٨ هامش ٢ .

(2) D. McFayden, The History of the title Imperator under the Roman Empire, 1920, p. 25ff.

(٣)

R. Syme,, Historia, 1958, p. 172 ff.

الى الأبد منذ عام ٤٩ ق ٠ م وحتى عام ٤٦ ق ٠ م عندما احتفل بانتصاره على الغال فى موقعة ثابسوس Thapsus ثم تمتع به مرة أخرى عام ٤٥ بعد انتصاره فى موقعة موندا Munda •

هل كان قيصر يحلم بان يكون ملكا :

اذا ما نظرنا الى سلطات قيصر المتعددة وخاصة تلك التى وصفت بأنها « للأبد » خالجتنا الشكوك بأن قيصر حلم بانشاء حكم شبه ملكى ولقد أشيع بأن قيصر هدف الى انشاء مملكة رومانية على نمط الممالك الهللينستية التى ذخر بها الشرق الأوسط وآسيا الصغرى وبلاد اليونان خاصة وأنه قلد ملوك هذه الممالك عندما سمح بتأليه نفسه • كما ظهرت صورته على النقود الرومانية وهو عمل لم يسبق لأحد من قبله أن قام به ، كما منح حق ارتداء أكليل الغار ، الذى كان يرتديه الأبطال المنتصرون ، وعباءة مزركشة بالذهب ، وأقيم له تمثال فوق الكابيتول وبنى بيته على طراز المعبد • ولكن بالرغم من هذا لا يتوافر لدينا دليل مادى واحد على أن قيصر أراد أن يكون ملكا أو صرح بذلك علانية بالرغم من تعدد المناصب والسلطات بدرجة لم يسبق لها مثيل فى التاريخ الرومانى ، ومن غير المعقول أن يطالب قيصر بلقب ملك Rex وهو يعلم علم اليقين مدى ما يثيره هذا اللقب من كراهية وامتعاض عند الرومان لأنه يذكرهم بتسلط الملوك الاتروسكيين ، ولماذا يطالب قيصر باللقب بينما يتمتع هو بالفعل بمميزاته وخصائصه Ornamenta ؟ لقد حدث بالفعل أن انفعل بعض الغوغاء عند ظهور قيصر فى أحد الأعياد فى شهر يناير عام ٤٤ ق ٠ م وهتفوا به ملكا • كما أن ماركوس أنطونيوس قدم له تاجا فى أعياد اللوبركاليا Lupercalia (١) فى شهر فبراير ولكن قيصر رفض

---

(١) وهو عيد قديم كان يقام فى روما فى الخامس عشر من فبراير وهو عيد الطهارة والتطهير الذى كان يقام على شرف الرب فاونوس Faunus من اجل البركة فى المحاصيل والمواشى ويشرف عليها كهنة التطهير حيث تذهب النساء الراغبات فى الحمل لكى يقرعوهن بسير من الجلد (Februa) وقد اشتق من هذه الكلمة القديمة الفعل اللاتينى (Februa اى يتطهر ثم اشتق اسم الشهر Februarius من الاسم اى شهر الطهارة وهو لا يزال شهر فبراير فى التقويم الافرنجى الحديث •

قيصر على الاطلاق أن يرتدى التاج ، وظل يحكم كدكتاتور حتى سقط قتيلا تحت طعنات خناجر الغدر والتآمر • ولم يسعى الى اقامة أسـ ة ملكية له ، ولا تخذ له وريثا أو ولى عهد ، بل لم يدر ذلك بخاطر قيصر ، ولم يفكر فيه حتى سقط قتيلا تحت ضربات الخناجر •

قيصر فى روما :

نعود لنكمل قصة قيصر ، بعد حرب الاسكندرية لم يرجع قيصر الى روما بل ترك شئونها الى أنطونيوس قائد فرسانه Magister equitum وهناك قضى شهرين يتمتع بشمس الاسكندرية فى صحبة ملكة مصر الجميلة ، ثم نظم مصر كما لو كان يعد لها لتكون ولاية من ولايات الامبراطورية ، ولما أدت معاشرته للملكة المصرية الى الحمل تخلص قيصر من ذلك بأن عقد قرانها اسما على أخيها بطليموس الرابع عشر الذى كان لا يزال صبيا فى الثالثة عشرة من عمره ثم خصص حامية لحراسة الملك والملكة •

قطع قيصر أجازته فى مصر عندما تفاقم خطر فارناكيس Pharnaces حفيد مثراداتيس ملك بنطوس العظيم • كان فارناكيس قد ورث عن أبيه بقايا مملكته فى جنوب أوكرانيا ، ولكن الأمير الصغير انتهز فرصة قيام الحرب الأهلية بين بومبى وقيصر وأخذ فى تحرير مملكته الأصلية فى آسيا الصغرى ، وبلغت به الجرأة أن هزم دوميتيوس كالفينوس Domitius Calivinus أحد كبار قواد قيصر • وغادر قيصر مصر حيث حط رحاله فى سوريا ، حيث أعرب عن شكره لمن ساعدوه فى حرب الاسكندرية بل وكافأهم ثم سارع الى مملكة بنطوس بجيش قليل العدد لدرجة أن فارناكيس تشجع وهاجم طلائع الجيش الرومانى وهنا ظهرت عبقرية قيصر العسكرية فى سرعة تحريك قواته وحصاره لقوات الملك فارناكيس التى لم تصمد أمامه طويلا ، وكتب قيصر رسالته التاريخية الى مجلس الشيوخ التى ضرب بها المثل لما قل ودل وقال قيصر فى هذه الرسالة ثلاث كلمات هى : أتيت ورأيت وهزمت •••

Veni, Vidi, Vici,

عاد قيصر الى روما فى خريف عام ٤٧ ق ٠ م وبدأ سلسلة من الاصلاحات المالية والادارية وخاصة قوانينه التى كانت فى صالح الدائنين ، وأن جاء ذلك مخالفا لموقفه السابق عام ٤٩ ق٠م ، وعلى أى حال فقد كان ظهور قيصر فى روما كافيا بعودة الأمور الى طبيعتها وقطع ألسنة الشك فيه ٠ لما عاد قيصر وجد أن جنوده المسرحين Veterani الذين أرسلهم الى روما بعد معركة فارسالوس يثيرون السخط ، ويتحفزون للقتال لأنهم لم يتعودوا على حياة الهدوء والسكينة ، وأخذوا يطالبون بالمكافآت ، وذهب قيصر لملاقاتهم ، وبشجاعة فائقة خاطبهم قائلا « أيها المواطنون » بدلا من أن يناديهم بقوله : « يارفاق السلاح » كما اعتاد ، ثم استدار عائدا ، وكانت هذه الحركة الدرامية كافية بأن أخرست الألسن وأضعفت القلوب وفعلت كلماته فعل السحر فى الجنود ، فهتفوا به معاهدين اياه بالولاء ، وكان قيصر فى حاجة اليهم بالفعل لأن فلول جيوش الجمهوريين كانت تتجمع مرة أخرى فى شمال افريقيا ٠

معارك شمال افريقيا :

ظل الجنرال أتيوس فاروس مخلصا لقضية بومبى حتى بعد موت هذا الأخير ، وظل يقود فلول قواته التى أخذت تتوافد على شمال أفريقيا ، وانضم الى معسكره كل العناصر السياسية الفارة بعد معركة فرسالوس ويتزعمها كاتو الصغير Cato Junior وسكبيو ميتللوس القنصل الأسبق الذى وضع خبراته الطويلة فى ميدان القتال تحت امرة الجمهوريين ، كما اعتمد الجمهوريون على عبقرية ضابط شهير اسمه لا بينوس Labienus ، وعلى فرسان الملك يوبا ملك نوميديا Numidia ، كان الضابط لابينوس مساعد قيصر الأيمن فى بلاد الغال ، ولهذا كان يعرف جيدا تحركات سيدة الأسبق ، ولذا كادت الهزيمة أن تلحق بقيصر نتيجة لتفهم هذا الضابط فلسفة قيصر العسكرية ٠ أما يوبا فقد كان متكبرا متفاخرا ذا سلوك بربرى فى قسوته ، وكان فى شمال افريقيا عطف وتعاطف على قضية الديمقراطيين الشعبين وخاصة فى مملكة نوميديا حيث استوطن جنود ماريوس القدامى بعد حروب يوجورتا (١١١ — ١٠٥) ، ولكن الجمهوريين أخطأوا ولم يحاولوا

أن يتصالحوا معهم بل حدث العكس من ذلك ، اذ أن يوبا لم يتردد فى أن يبيد قرى كاملة عن آخرها اذا ما تشكك فى نواياها وأحس بتعاطفها مع قيصر والديمقراطيين ، وقد أساء ذلك كثيرا للجمهوريين حيث ارتبطت أعمالهم بالهمجية والسلوك البربرى ، الذى يعافه الرومان ، وقد أفاد ذلك قيصر كثيرا . وساعده على الانتصار وتصفية المقاومة ضده .

قضى قيصر سبعة شهور وهو يحاول نقل قواته الى شمال أفريقيا حتى تجمعت لديه قوة قادرة على الدخول فى معركة حاسمة مع الجمهوريين، ولم يدع قيصر خلال هذه المدة فرصة واحدة الا وكسبها لكسب عطف المواطنين الأصليين فى شمال افريقيا عن طريق الرحمة Clementia والعفو . كما كسب الى جانبه أحد جنود كاتيلينا القدامى وهو بوبليوس سيتيوس Publius Sittius حتى استطاع قيصر فى ربيع عام ٤٦ مهاجمة مدينة ثابسوس Thapsus ، وهنا تقدم سكيبيو لملاقات قيصر لأنه ظل يتفادى أى مواجهة فعلية احتراما له وخوفا منه ، ومركزا على قطع الامدادات عنه ، واختار قيصر مكان وزمان المعركة بما يناسب جنوده . وكانت معركة فاصلة انتهت على أثرها قضية الجمهوريين ، وانتحر فيلسوفهم كاتو الأصغر فى مدينة يوتيكا Utica (تونس) وأصبح فى خيال الجمهوريين بطلا وشهيدا لأنه آثر الموت على أن يقبل شروط قيصر أو يطلب منه الرحمة . و فى الحقيقة كان كاتو سياسيا « معطلا » أى أنه يقف فى وجه المشروعات ويعارضها دون أن يقدم بديلا لحلها مما الحق الضرر بقضية الجمهوريين (١) .

---

(1) Cf. L.R. Taylor, Party Palitics in the Age of Caezar (Berkeley, California, University of California Press) 1949 pp 162-175 and Chapter VIII;

قيصر يتعقب اعداءه الى أسبانيا :

تدفقت فلول المنهزمين من أعــداء قيصر وعلى رأســهم لابينــوس Labienus الى أسبانيا للانضمام الى حركة المقاومة الكبرى لحكم قيصر ، والتى قام بتزعمها « البومبيون » بزعامة ابن بومبى الأكبر : جنايوس بومبى Gnaeus Pompey ، وقد انضم الشعب الأسبانى لهذه الحركة لسببين أولهما سوء تصرف والى قيصر فى أسبانيا وجشعه واسمه كاسيوس لونجينوس Cassius Longinus وفرضه ضرائب باهظة على الناس . وبالرغم من أن قيصر استبدل هذا الوالى بغيره عام ٤٧ ق . م الا أن الناس لم ينسوا قسوته وظلت حية فى خيال الأسبان ، والسبب الثانى أن الأسبان عرفوا بومبى جيدا وأحبوه لكرمه وتسامحه معهم بعد هزيمة سرتوريوس عام ٧٢ ق . م ، كما عرفوه من خلال حكمه الطويل لأسبانيا (من ٥٤ - ٤٩ ق . م) ولكن الجمهوريين لم يشعروا بالراحة ازاء ابن بومبى الذى كان قاسيا ومتسرعا فى تصرفاته فقد حاول مثلا أن يدبر مؤامرة لاغتيال شيشرون بعد أن انضم لمعسكر قيصر بعد معركة فرسالوس ، وكان جيش « البومبيين » يتــكون من ثلاث عشرة فرقة ويتمتع بقيــادة لابينوس Labienus العسكرية (١) ، أما قيصر فقد كان جيشه يتكون من ثماني فرق ، وكان قيصر يحاول كعادته فرض المعركة ولكن بومبى الابن كان يراوغ حتى تقابل الجيشان وجها لوجه تحت أسوار مدينة موندا Munda فى ١٥ مارس عام ٤٥ ق . م وكان قيصر مرهقا من طول المراوغة والالتحامات الشبيهة بحرب العصابات والتى تتناسب وطبيعة أســبانيا ذات التــلال والهضاب الخضراء ، وكانت المعركة طويلة قاسية ومريرة قاتمة وأخيرا تمكن قيصر بمساعدة الفرسان المور من تطويق جيش بومبى وأعمل فيه القتل والذبح فسقط ثلاث وثلاثين ألفا من جيش بومبى وقتل جنايوس وبقى أخيه سكستوس Sextus الابن الأصــغر لبومبى يحارب حرب

---

(١) كان لابينوس من ابناء اقليم بيكينوم مثل بومبى ، ولهذا يفسر البعض ذلك على انه سبب انحياز لابينوس لبومبى بالرغم من انه خــدم مع قيصر فى بلاد الغال فى اول حياته انظر :
R. Syme J.R.S., 1938, p. 113 ff.

العصابات لفترة طويلة معتمدا على العبيد الذين سحقهم أبوه من قبل كما أجرى قيصر سلسلة من مصادرة الأموال والممتلكات وتوقيع العقوبات بشكل لم يعهده أحد من قبل كافأ منها جنوده المخلصين له وأرسل ما بقى للخزانة الرومانية المفلسة .

قيصر والادارة :

مما لاشك فيه أن العمر السياسى الذى حدده القــدر لقيصر كان قصيرا للغاية فمنذ أن عبر قيصر نهر الروبيكون عام ٤٩ ق . م حتى سقوطه قتيلا عام ٤٤ ق . م حاول بناء دولة جديدة ولكن الوقت كان قصيرا . لقد أدرك قيصر ضرورة بناء الجمهورية سياسيا واجتماعيا على أساس قوى ومتين بالرغم من أن الحروب قد فرضت نفسها عليه فرضا وأعاقت عملية البناء فمثلا ظل يتحارب مع أتباع بومبى حتى مارس عام ٤٥ أى قبل عام واحد من تاريخ مصرعه ، ولكنه بالرغم من هذا استطاع أن يدبر الوقت اللازم للاصلاحات المالية والادارية . وكثيرا ما كان يخطط لاصلاحات اجتماعية وهو فى ميدان القتال .

لقد حصر قيصر مشكلات الجمهورية فى ثلاثة ميادين وهى الفقــر وتفاقم الديون والاهمال الادارى ، وكان عليه أن يعيد تنظيم الولايات الرومانية من أجل تحقيق مجتمع كبير يتمتع بالرخاء وبالسعادة ثم بعــد ذلك يخلق النظام السياسى القادر على ادارة هذه الولايات ، وقد أتم قيصر الشطر الأول وحاول فى الشطر الثانى ولكنه لم يعش لكى يتمه ، فبعــد معركة ثابسوس تولى مهامه كدكتاتور مؤقت ، ثم عين دكتاتورا مدى الحياة عام ٤٤ ق . م ، وكان هذا ايذانا بأنه كان مقبلا على عمل واصلاح ادارى كبير يتطلب منه التخلص من الاجراءات القانونية المعقدة ومن المشاكل الجوفاء التى تثيرها المعارضة وخاصــة الترابنة الطموحين ، ويكفينا أن نقرأ فى النصوص أنه منح الدكتاتورية من أجل ادارة مصالح الدولة العامة ، ومن أجل اعادة تنظيم الدولة لقد أدرك قيصر أنه فى حاجة الى وقت أكبر من

ذلك الذي استغرقه سوللا (٨٢ - ٧٩) ولو عاش قيصر طويلا لرأينا بوضوح الجهاز السياسى والادارى الذى كان يهدف الى خلقه .

اولا : مشكلة الديون :

أول مشكلة مدنية قابلت قيصر هى مشكلة الدائن والدين والمدين ، لقد تسببت الحرب فى كساد التجارة وافلاس الاقتصاد الرومانى ، كما رأينا ، ومن ثم انتشر الربا والمرابون وأصبح قطاع كبير من فقراء الشعب مدينين لقطاع قليل من المرابين وقد ، وقف المدينون الى جانب قيصر وأيدوه أملا منه فى تخفيف الديون عن كواهلهم بسبب بهاظة الفائدة الاستثمارية . وبالرغم من أن قيصر لم يكن ينوى التدخل فى حقوق الملكية الفردية الخاصة الا أنه حاول اصلاح ما أفسدته الحرب منذ عام ٤٩ ق . م ، وذلك عندما ألزم الدائنين بتقييم الممتلكات المرهونة على أساس يكفل لأصحابها حقوقهم وكرر نفس الشىء عام ٤٧ ق . م ، كما ألغى الفائدة على الديون طيلة مدة الحرب وكذلك الايجارات المجحفة . ولم يسمح بتكرار المأساة الاقتصادية التى حدثت بعد ظهور قوائم الممتلكات المصادرة من قبل سوللا حيث تلاعبت « اللجان » المشرفة على ذلك بالممتلكات ونتج عن ذلك ظهور فريق ممن أثروا من ممتلكات الضحايا ، ولكن قيصر كان يشرف عليها بنفسه أوعن طريق أقرب أصدقائه اليه ، من أجل على تعويض الذين صودرت أموالهم تعويضا مجزيا دون وسيط ، هكذا استطاع قيصر أن يعيد توجيه الاقتصاد الرومانى الى طريق السلامة وبعد أن كان مندفعا نحو هاوية سحيقة لا يعرف مداها ، وهو فى نفس الوقت لم يأت بتصرفات ثورية مجنونة كما طالب بعض الثوار بل بتصرفات معتدلة مقبولة للدائن والمدين على السواء . وهذا يمثل فلسفة الاعتدال التى كان يتصف بها سلوك قيصر .

ثانيا : قضية تزايد عدد غوغاء المدينة :

لقد أدرك قيصر بعقلية السياسى الطويل النظرة خطورة تدخل غوغاء المدينة فى الشئون السياسية ، كما قدر خطورة المواقف التى قد يورطوا

الدولة فيها ، وكانت قوائم الغوغاء هى قوائم المنتفعين بشراء القمح المخفض السعر ، فلجأ قيصر الى اعادة مراجعة الكشوف وأجرى تعدادا للفقـراء المقيمين فى روما وخفض عدد المنتفعين من ٣٢٠٫٠٠٠ الى ١٥٠٫٠٠٠ ، كما أعلن أن هذا العدد الأخير هو الرقم الأقصى الذى . تتحمله الدولة فى امداد القمح المنخفض ، كما أعلن أن أى طلب جديد سـوف يوضع فى قوائم الانتظار حتى يخلو لها مكان . وقد تخلص قيصر من باقى العدد عن طريق مشروع للتهجير واقامة المستعمرات . وبناء عليه فقد ألغى قيصر «الجماعات السياسية » التى كانت تكونها الفئات السياسية من الغوغاء والتى كانت تعرف باسم النوادى Collegia ، ولقد عرف قيصر مدى ما أصاب روما من جراء هذه النوادى عندما تصارعت عصابة كلوديوس Clodius وعصابة ميلو Milo وسالت الدماء غزيرة فى شوارع روما . ولكن قيصر ترك نقابات الحرفيين على حالها لأنها نقابات مهنية يرجع تاريخها الى وقت قديم فى المجتمع الرومانى كما أن كل جماعة كانت تلتف حول اله معين تجعله رئيسا شرفيا لها ، ومن أجل ذلك ابتعد قيصر عنها احتراما للديانة الرومانية كما أن قيصر ذاته كان يشغل وظيفة الكاهن الأعظم . ومن ثم لم يلمس نقابات الحرفيين بأى تغيير .

ثالثا : وضع تقويم ثابت للشعب الرومانى :

ومن أهم ما خلفه يوليوس قيصر هو اعداده لتقويم جديد بصفته كاهنا أعظم للرومان ، وكان التقويم الرومانى القديم يقوم على أساس السـنة القمرية مثل التقويم الاسلامى ونظرا للتباين بين السنة القمرية والسـنة الشمسية فقد كان مجلس الكهانة الرومانى الذى كان مشرفا على اعداد التقويم يضيف أياما الى الشهور Intercalary حتى تتطابق السنة القمرية مع السنة الشمسية ، وقد أثر عدم ثبات التقويم فى الأحـداث الرومانية تأثيرا كبيرا فقد استغل بعض السياسيين اضافة هذه الأيام لتغيير التواريخ

من أجل أغراض سياسية ، وخاصة أن مقدار الفرق بين السنة الشمسية والسنة القمرية يكاد يزيد على شهرين • عندئذ أضاف قيصر ست وسبعين يوما جديدة لعام ٤٦ ق • م وبذلك أصبح عدد أيام السنة الجديدة ٣٦٥ ١/٤ يوما ، وكان جغرافيو وعلماء الفلك فى الاسكندرية قد توصلوا الى ذلك العدد بعد تطوير السنة المصرية القديمة ، خاصة العالم الفلكى سوسيجينيس Sosigenes السكندرى الذى عاش فى عصر بطليموس الثالث ؛ وبذلك تطابقت السنة القمرية الرومانية مع السنة الشمسية ، وبدأ هذا التطبيق منذ أول يناير عام ٤٥ ق • م وقد قام هذا النظام الجديد على أساس التقويم المصرى القديم الذى اعتمد على دوره الأرض حول الشمس فى ٣٦٥ ، على أن تكون هناك سنة كبيسة كل أربع سنوات يبلغ عدد أيامها ٣٦٦ يوما على أن يضاف هذا اليوم لشهر فبراير بعد اليوم الثامن والعشرين منه ، ولا يزال هذا التقويم القيصرى أساس تقويم العام الافرنجى باستثناء التعديلات التى أجراها البابا جريجورس Gregorius عام ١٥٨٢ ميلادية • وقد كرم الرومان قيصر لذلك أطلقوا على الشهر السابع Quintilis من السنة الرومانية باسم شهر يوليو نسبة اليه (١) •

رابعا : مشروعات لاصلاح الاراضى وتعمير ايطاليا :

أجرى قيصر حركة تهجير كبرى من مدينة روما المزدحمة بالسكان الى الريف الايطالى الذى هجره الفلاحون طلبا لحياة المدينة الرغدة ولأنهم وجدوا أن ثمن القمح المسعر أرخص من ثمن القمح الذى يزرعونه • بدأ قيصر حركة التهجير الكبرى بعد أن أتم حصرا شاملا للاراضى البور والقابلة للاستصلاح • ولما أدرك قيصر أن الدولة فى حاجة الى مزيد من الايطاليين لتهجيرهم الى كافة أنحاء الامبراطورية من أجل ربطها بأواصر الدم ، شجع الأسر على الانجاب وأغدق على الأسر الكبيرة منها • كما أمن الطرق الريفية بتشغيل مواطنى روما كحراس على الطرق والغابات والادغال وبذلك أمن المسافرون شر عصابات العبيد المارقة والعاملة فى المزارع النائية • كما عنى بتشغيل العاطلين الرومان • كما أعاد قيصر

(١) انظر ص ٣٧٦ هامش رقم ٢ •

تخطيط مدن الأقاليم على أساس جـديد محتفظا بتراث هـذه الأقاليم العمرانى والتقليدى • كما عنى قيصر بنظام اللامركزية بتعيين موظفين فى الأقاليم لتخفيف الضغط على الحكومة المركزية • كما أنشأ هيئة للاحصاء السكانى Census حيث يقوم الموظفون بجمع الاحصاءات والتعداد ابتداء من القرية الى الأقاليم ثم ترسل الى المركز الأساسى للاحصاء فى روما وبذلك وفر الكثير من الاجراءات البيروقراطية ، وفى الحقيقة كان يوليوس قيصر يعتزم الكثير من الاصلاحات الخاصة بالريف الايطالى ولكن القدر لم يمهله ليكملها وكان من المستطاع أن نعرف الكثير عن خطط قيصر من وثائقه التى تركها ولكن ماركوس أنطونيوس جميع هذه الوثائق واستولى عليها وبالرغم من حرصة على الحصول على موافقة السناتو عليها الا أنه لم يفكر فى نشرها وبذلك حرمنا من أهم المصادر عن اصلاحات قيصر •

خامسا : خطط قيصر من أجل تحقيـق الرخـاء العام فى الـولايات الامبراطورية :

لم يعمل قيصر على رخاء روما وايطاليا فحسب بل اتجهت أنظـاره الى الولايات الرومانية أيضا فأخذ يقيم المستعمرات Coloniae ويرسل الرومان ليعمروها ، وليعطوا شعوب هذه الولايات مثلا يحتذى به فى بناء الحضارة ، وانتشرت هذه المستعمرات من أسبانيا حتى البحر الاسود ومن شمال غرب بلاد اليونان Achaea حتى افريقيا ، كان قيصر محافظا على وقار التقاليد فكان يستبعد أى مرشح لا تؤهله أخلاقه العامة لوظائف الدولة كما فتح الباب أمام كل الناس من أجل قيام رخاء لكل الناس بصرف النظر عن وضعهم الاجتماعى أو جنسيات شعوبهم •

كما أولى قيصر عناية بشمال افريقيا لأن وضعها كان فريدا بين ولايات الامبراطورية ولأن ماريوس كان قد أقام فيها مستعمرات لقواته حول مملكة نوميديا ، وبمرور الزمن تمكن هؤلاء المستوطنون الايطاليون من نشر الثقافة الرومانية وصبغ المنطقة بها ، عندئذ ضم قيصر منطقتهم التى أسماها بافريقيا الجديدة Africa Nova الى ولاية افريقيا الكبرى ، كما شجع ستيوس أحد الباقين من أتباع كاتلينا الذين استوطنوا شمال افريقيا — شجعه على انشاء سلسلة من المستوطنات حول نوميديا أنعم

على المستوطنين فيها بالجنسية الرومانية Civitas Romana وبالطبع ضمت هذه المستعمرات الى حوزة الامبراطورية الرومانية عندما ثبتت أقدامها وكان ذلك على يد الامبراطور أغسطس .

هكذا يقدر عدد الذين شملهم اصلاحات قيصر بـ ٨٠٠٠٠ من رعاع المدينة وصناعها وعاطليها ، ملأ بهم قيصر مدنا كثيرة خارج ايطاليا خاصة فى المدن التى تقع على المنافذ البحرية مثل سينوب Sinope وهيراكليا Heraklea على البحر الأسود ، وعلى خليج كورنثا ، وكذلك حول ساحل قرطاجه وحقق بذلك حلم جايوس جراكوس القديم فى نشر المستوطنات الرومانية ، ووثق عرى روما بالمستعمرات التى قامت فى أسبانيا وبلاد الغال القريبة اما بمنح المستوطنين القدامى الجنسية الرومانية لمساعدتهم لقيصر أو بالانشاء الفعلى لمستعمرات جديدة مثل مستعمرة أورسو Urso التى أقامها فى أسبانيا على بعض الأراضى المصادرة من أتباع بومبى (١) .

وبهذا أعلن قيصر أمام الحزب الشعبى أنه أتم ما حلم جايوس جراكوس بفعله ، كما أن قيصر استوعب أهالى البلاد الأصليين وعاملهم مثل الرومان تماما وكأنه كان يهدف بذلك الى خلق امبراطورية تجمع شعوب البحر الأبيض المتوسط تحت قانون ونظام سياسى واحد وثقافة واحدة ، كما رأى فى ضمه للمدن والموانى والثغور مستقبل الأسواق الخارجية للبضائع الرومانية وتمهيدا لتأمين التجارة العملية . كما

---

(١) لمزيد من التفاصيل عن هذه المستوطنات انظر :
F. Vittinghoff, Roemische Kolonization.. unter Caesar und Augustus, (1952) pp. 49—95, list on p. 148.

وعن مستوطنة اورسو الاسبانية انظر :
E.G. Hardy. Three Spanish Chartes, Oxford 1912, p 23 ff.

وعن النقود الرومانية والأدلة الاثرية على انتشار الاستيطان الرومانى على عهد قيصر ، انظر :
M. Grant, From Imperium to Auctoritas, London 1946.

وعن منح شعوب المستوطنات الجنسية الرومانية :
Sherwin-White, Roman Citizenship, p 136.

حرص قيصر على تحديد مدد وظائف حـكام الولايات لعام أو لعامين على الأكثر حتى يقطع عليهم فكرة الجشع وجمع الثروات وعدم التفكير فى الاستقلال عن مركز الامبراطورية ، كما حرص على أن يختار جامعى الضرائب فى الولايات من المواطنين المحليين حماية لهم من جباه الضرائب الرومان ، وهكذا وقف قيصر فى وجه محاولات الانفصال والاستقلال المحلى وبدأ فى ضم هذه الولايات الى صدر روما الأم وكأنهـا جزء لا يتجزأ من أرضها وسمائها ، وهكذا يمكن أن نقول أن قيصر سبق أغسطس فى فكرة انشاء سلام رومانى Pax Roman وامبراطورية عالمية ولكن القدر قد أبقى هذه الرسالة لأغسطس ابنه بالتبنى ليقوم بتحقيقها .

سادسا : خطط قيصر من اجل الجمهورية :

كما لاحظنا أن زمام الامور أصبحت تحت التصرف الشخصى لقيصر بعد انتصاره على بقايا أتباع بومبى فى معركة موندا عام ٤٥ق٠م ،وأصبح واضحا فى أعين الجميع أن قيصر لا يريد العودة الى نظام الحكم الجمهورى القديم الذى كان سائدا من قبل ،فلم يسمح لمجلس الشيوخ ولا للجمعية الشعبية بأن يمارسا سلطاتهما بحرية ، وكان يرفض ويغضب من أى محاولة لمناقشة أعماله أو التشكيك فى سلطاته ، وكما رأينا رغم أنه بدا ديمقراطيا شعبيا الا انه اختلف مع الديمقراطيين الشعبيين Populares فهو الذى قطع عليهم الطريق فى أن يفعلوا كما فعل الجمهوريون الأرستقراطيون فى عهد سـوللا وهو استغلال الكوارث الاقتصادية التى نزلت بأعدائهم الحزبيين فى جنى ثمار وثروات طائلة .كما أنه خذل أتباعه فى غزوفة عن اقامة جمهورية شعبية وفق الطراز الذى أراده الاخوان جراكوس . وهو الاعتماد فى السياسة والتنظيم على غوغاء المدينه وترابنة العامة . ولذا حقد عليه حزبه ذاتهوليس من الغريب أن نجد بين المتامرين عليه بعضا من رجاله لأنهم كانوا يؤمنون بالديمقراطية الغوغائية الوطنية المتطرفة ..بينما تطلع قيصر الى الأفاق العالمية،الى امبراطورية فى البحر المتوسط،ذات ثقافة رومانية واحدة ، دون النظر الى أجناس شعوبها . كما أنه مد يده الى أعضاء الحزب

الجمهورى الأرستقراطى لينتفى العناصر الكفء منها ولم يطع أوامر
الديمقراطيين الشعبيين الحاقده ، بل استخدم حق العفو كلما سنحت الفرص
بذلك . أما أعضاء الحزب القدامى فقد عافوا تصرفاته الدكتاتورية ، واعتبروه
تسلطا منه ، ورفضوا قبولها كما فعل كاتو الذى فضل الموت ، ولكن
قيصر كان رجلا أبيقوريا ويعلم أن لاحياه فى الحياة المحطمة . كما اتبع
تعليم هذه الفلسفة أن مايكون سيكون ، ولهذا صرف حرسه الخاص بالرغم
من أنه استخدم وسائل لا أخلاقية فى التحكم فى قوات الجيش ، ومنعها من
القيام بأى حركة تمرد ويبدو أنه لم يكن أمامه طريق غير ذلك . وكان مجلس
الشيوخ من أشد الساخطين على قيصر لأنه كان يرفض أن يكون امعة
ويلعب دورا ثانويا فى شئون الدولة وكان قيصر قد أدرك فشل مجلس
الشيوخ فى تسيير أمور الجمهورية ، فمثلا لم يستطع مجلس الشيوخ
السيطرة على الجيش والجنرالات كما أن قيصر لم ينس العداء التقليدى
بين السناتو والجنرالات اذ كان لا يزال فى ذاكرته كيف أن مجلس الشيوخ
نقض وعوده ورفض أن يقيم احتفالات النصر لبومبى عندما عاد من الشرق
وعلى أى حال أدرك قيصر أن مجلس الشيوخ (السناتو) جزء لا يتجزأ
من تراث روما السياسى والثقافى وأن هذا السناتو كان مدرسة لتخريج
المصلحين الاداريين والسياسيين على طول التاريخ الرومانى ولذا نظر قيصر
للسناتو نظرة المجلس الموقر للأمة المحافظ على تاريخها والمدرك
لمستقبلها ولكن أعضاء السناتو من أحفاد الأسر الأرستقراطية الكبيرة
عافوا أن يصبحوا أداة منفذة لأفكار نابعة من رؤوس الديمقراطيين
البرجوازيين .

كان قيصر يحلم بامبراطورية متماسكة تقودها عاصمة قوية نظيفة
عامرة جديرة بأن تكون حديث العالم . فعرفنا كيف حد من اعداد
غوغاء المدينة الغفيرة بانشاء المستعمرات الزراعية واستصلاح الأراضى .

كما وضع مشروعا لاقامة « دار للكتب » وعين الأديب فـارو Varro لتنفيذ هذا المشروع • كما أعـاد بناء الفورم Forum (سـوق المدينة العام ومركزها الثقافى والسياسى والتجـارى) كمـا كان يخطط لبنـاء المعابد والمسارح • كما وضع مشروعا لتسهيل الخدمة فى الموانى وتحسين التجارة وأمن طرق المواصلات حتى أنه فـكر فى حفر قناة عنـد برزخ كورنثـا حيث أقـام مستعمرة هنـاك (١) ، كما أشرف على ردم البرك والمستنقعات جنوب روما وتحويلها الى أراضى زراعية صالحة • وكـان قيصر ينوى اقامة اصلاحات خاصة بالجنسية الرومانية أيضا مثل منـح الجنسية الرومانيـة لبعض المـدن الايطاليـة وللمسرحـين من الجيش الرومانى وتشجيع قيام تهجير سكانى حول منطقة البحر المتوسط وتطعيم مجلس السناتو بالعناصر الجديدة وخاصة شيوخ بلاد الغـال وشـيوخ المدن اللاتينية مما زاد من امتعاض الأسر الأرستقراطية الرومانية وساعد على التآمر ضده للتخلص منه •

لقد أدرك قيصر كما أدرك أغسطس من بعـده أن السلام لا يتـأتى الا بتأمين حدود البلاد ، وبالفعـل أمن الحدود فى الغـرب ـ وجعـل حدوده الراين شمالا والأطلنطى جنوبا • كما أمن الحدود من الجنوب من حدود الصحراء الافريقية وكان قيصر يبغى تأمـين الشرق الأوسـط والبلقان وكان يخطط لهزيمة البارثيين Parthians الذيـن بدأ خطرهم يهدد ولاية سوريا قبل مصرعه بقليل •

مصرع يوليوس قيصر (١٥ مارس عام ٤٤ ق.م) :

لم تشأ الأرستقراطية الرومانية وقد قلم يوليوس قيصر أظافرها أن تدعه وشأنه ، وخاصة مجلس الشيوخ الذى تحـول على يد قيصر من « حاكم » الى « محكوم » وكان يتزعم هؤلاء الأرستقراطيين أتبـاع

(١) وهو المشروع الذى حاول نيرون تحقيقه فيما بعد .

كاتو الذى اعتبر شهيد السناتو كما شاركهم فى احساسهم رجال كثيرون (١) رفعهم قيصر اليه وأولادهم مناصب هامة سواء من الشعبيين أو من الجمهوريين الذين انضموا الى معسكره بعد معركة فرسالوس .

وبالفعل خطط هؤلاء للمؤامرة كان أقطابها جابوس كاسيوس Gaius Cassius وكان أحد ضباط بومبى الذين ضمهم قيصر اليه وعينه برايتورا Praetor عام ٤٤ ق . م كما ضم اليه ماركوس يونيوس بروتوس Marcus Junius Brutus أحد الأرستقراطيين الذين ينحدرون من بروتوس الكبير الذى تزعم حركة طرد الملك تاركوينوس المتغطرس والأسرة الأتروسكية المالكة .

وكان ماركوس بروتوس قد انضم الى معسكر قيصر بعد معركة فرسالوس وقد سر قيصر لذلك سرورا عظيما وأنزله منزلة احترام وتقدير وعندما طرق المتآمرون بابه لعبوا بعواطفه مذكرين اياه بسلفه العظيم وكيف خلص روما من طاغية وأن على الحفيد أن يسير على هدى « الجد » ومن المتآمرين أيضا رجال من معسكر قيصر نفسه مثل جايوس تريبونيوس Gaius Trebonius وديكيموس يونيوس

(١) فى الحقيقة كانت بواعث الجريمة متنوعة ، فبعض الذين اشتركوا فيها فعلوا ذلك بسبب ضغائن خاصة ضد قيصر ، وبعضهم كانوا من انصار بومبى المخلصين يسعون للانتقام بعد هزيمتهم على يد قيصر ، ولكن لم يكن هدف البومبيين من امثال كاسيوس وماركوس بروتوس ابدا احياء نظام بومبى ، بل كان هدفهم احياء الجمهورية والسناتو ، كما كان بروتوس متأثر باسطورة جده الذى طرد اخر الملوك ، وكان متأثرا ايضا بالتراث الاغريقى الذى كان يمجد قتلة الطغاة ، وقد ادعى البعض ان بروتوس اشترك فى المؤامرة لأنه كان ابنا غير شرعى لقيصر ورفض الاعتراف به ولكن لا يوجد دليل واحد على هذه الشائعة ، نعم لقد كان قيصر على علاقة غرامية بوالدة بروتوس واسمها سرڤيليا Servilia لكنها قامت بعد ميلاد بروتوس بكثير (ولد برتوس عام ٨٥ أو ٧٨ ق.م) ايام كان قيصر هاربا من سوللا ومجهولا . الى جانب ذلك اشترك بعض رجال حزب قيصر فى المؤامرة مثل ديكيموس بروتوس وجايوس تريبونيوس املا فى الارث بعد مقتله ، وبالفعل ذكروا فى وصية قيصر واوصى بمنحهم ولايات هامة . وبالرغم من ان المتآمرين لم يتصلوا بشيشرون الا انه أيد المؤامرة والمتآمرين

Cf. H. H. Scullard, From the Gracchi to Nero University Paperback, Methuen, London 1963, p. 417 (Note 29, p. 157).

بروتوس Decimus Brutus ، كما شارك فى المؤامرة ستون من أعضاء مجلس الشيوخ الساخطين ، واتفق المتآمرون على تنفيذ المؤامرة فى الخامس عشر من مارس عام ٤٤ ides of Mars (١) ، وكان قيصر قبل المؤامرة على وشك أن يغادر روما الى بلاد اليونان ليتولى قيادة الجيش الجرار الذى جمعه ويقدر بست عشرة فرقة ، وعشرة آلاف من الفرسان لكى يؤمن حدود الامبراطورية فى الشرق وليحارب البارثيين انتقاما لهزيمتهم لكراسوس . وقد قيل أن بعضا من اصدقاء قيصر حذروه بوجود مؤامرة للاعتداء على حياته تدبر خيوطها فى الخفاء ولكن قيصر كأيقورى يؤمن بما كان وما سيكون لم يستمع الى مثل هذه التحذيرات ورفض أن يدع أحد يسير فى صحبته لحراسته . وكان قيصر فى ذلك اليوم المشهود يهم بدخول السناتو ليستمع لمناقشة حول امكانية الانعام عليه بلقب ملك Rex فى الولايات الشرقية عندما أحاط به المتآمرون وقد استل كل منهم خنجره وما لبث أن أغمدوها فيه فسقط قيصر مدرجا فى دمائه تحت تمثال أقيم لبومبى بالسخرية القدر !

تقييم تاريخى لقيصر :

أشاد الكتاب الرومان الذين كانوا يسجلون وجهات نظر الجمهوريين الأرستقراطيين بكل من بروتوس وكاسيوس واعتبروهما مخلصين للأمة من الطغيان Tyrannicides ، وحماة للحرية الرومانية Libertas Romanna ، لأنهم كانوا يعتبرون كاتو الذين فضل أن يتجرع كأس الموت بيده على أن يشهد قيصر يسود ويتحكم فى الجمهورية أو يشهده يتخطى

(١) جعل الرومان فى كل ثلاثة ايام هامة يقوم عليها حساب اليوم فى الشهر وتحديد موقعه وهى « الكالند » Kalends فى اليوم الاول من الشهر والنونيس Nones اليوم الخامس ولايديس Ides الثالث عشر وفى شهور مارس ومايو ويوليو واكتوبر يكون النونيس فى السابع من الشهر وليس الخامس ويكون الأيديس فى الخامس عشر ، ويتم حساب اليوم بالنسبة لموقعه قبل هذه الأيام الثلاثة ، مثلا ٢٤ فبراير يحسب على انه ستة ايام قبل الكالند ، ولم يعرف الرومان نظام الأسبوع سبعة ايام لان هذه الفكرة عبرانية دخلت مع دخول المسيحية بل كان الأسبوع ايام لان

هذه الفكرة عبرانية دخلت مع دخول المسيحية بل كان الأسبوع ثمانية ايام nundina

أقواس النصر — اعتبروه بطلهم وشـهيدهم ، ولكن قيصر كان أعظم عبقرية سـياسية وعسـكرية وادارية أنجبتها روما حتى أنه يبـدو وقد سبق معاصريه بكثير (١) . لقد كان قيصر أديبـا ذا أسلوب واضح معبر نقى وصارم ، كما كان خطيبا مفوها حاز اعجاب شيشرون أشهر الخطباء . لقد كان عبقرية ذات جوانب متنوعة . فهو مفكر سياسى ومنظم ادارى وجنرال عسكرى واقتصادى كبير وعاشـق ولهان.(٢) كما كان أبيقوريا رفض أن يستعين بحرس أو أتباع وكان دائما يقول (لقد عشت بما فيه الكفاية) وقد يدهش المرء كيف كان قيصر يأمن لأناس كانوا يتربصون به ومعروف عنهم بأنهم قتلة الترابنة أمثال الأخوين جـراكوس لمجـرد أنهم أقسموا أمامه بالحفاظ على حياته أو لأنه كان يتمتع بحصـانة سلطة التريبونية ، ولا شك أن اهمال قيصر فى هذا ناتج من عقيدته الأبيقـورية القدرية . وقد قيل أنه تحدث عن الموت فى الليلة السابقة للمؤامرة وأنـه تمنى أن يجىء سريعا وخاطفا وقد كان (٣) ، كان قيصر بارد التفكير وكان هذا يقلق جنوده وضباطه ويجـن له جنـونهم بينما كانت الجمـاهير تعبده لهذا البرود والهدوء والتعقل .

---

(١) من أهم المصادر القديمة عن قيصر هى :

Suetonius, Divus lulius (Edited by H E. Butler and M. Cary 1927), Plutarch, life of Caesar (Edited by A. Garzetti in Italian 1954)

ومن المؤلفات الحديثة التى تناولت حياة قيصر وقيمت اعماله ، هى :

Warde Fowler, Julius Caesar (1904) ; M. Gezler, Caesar der politiker und Staatman (6 the edition 1960) to be translated into English

فضلا عن الدراسات الفرعية التى صدرت بها اعـداد خاصة من المجلات العلمية مثل :

Greece and Rome March 1957 (IV, I)

(٢) ذكر سويتونيوس Julius Divus, 52. بان كوريو الأب وصفه بانه رجل كل امراة وامراة كل رجل .

«mulierum virum et omnium Virorum mulierem appallat»

(٣) وفى مسرحية يوليوس قيصر وضع وليام شكسبير على لسـان هذا الزعيم هذا البيت من الشعر :

Cowards die many times before their deaths, The valiant taste of death but once !

وترجمة « يموت الجبناء مرات ومرات قبـل ان يلحق بهم المـوت اما الشجاع فلا يذوق كأس الموت سوى مرة واحدة » .

كان المتآمرون يعتقدون أن القانون الرومانى القديم يبيح دماء أى شخص يحاول أن يجمع حوله الغوغاء ليهدم نظـــام الدولة وقوانينها . وكانوا أيضا يعتقدون أن نبأ مقتله ســوف يحدث انفجارا فى العواطف المكبوتة التى تحن الى الأيام الخوالى للجمهورية ولكن خاب أملهم اذ علت الدهشة الجميع ولم يحرك أحد اصبعا عندما شــاع نبــأ مصرع قيصر ولم يعلم المتآمرون أيضا أنهم قتلوا فى شــخص قيصر الجمهورية والنظام الجمهورى ذاته الذين من أجلهقتلوه .

ان المؤرخ المعاصر لا يجد ما يبرر هذه الجريمة التاريخية ليس فقط من جانب أن فكرة الاغتيال السياسى منبوذة أساسا ، ولكن لأن مصرع قيصر حرم روما والرومان بــل والانسانية جمعــاء من عبقــرية متنوعة Versatile خلاقة . ان تهمة القضــاء على الجمهورية تهمة ضعيفة لأن الجمهورية التى قضى عليها قيصر كانت جمهورية الأقلية من أصــحاب رؤوس الأموال الطــائلة الذين كانــوا يستغلون الملايــين من ســكان الامبراطورية كما أنهم لم يعودا منذ وقت طــويل ممثلين للشــعب الرومانى بل لأنفسهم ومصالحهم ، ولقد فشــلوا كسياسيين فى ادارة الدولة أو حتى فى وضع حد للحرب الأهلية والفوضى الاقتصادية . ولم يعد الموقف يتطلب الاجــراءات القانونية المعقدة والروتينية بل يتطلب حــلا سريعا وعاجــلا من قوة حاسمة عسكرية ، وبعض المؤرخين يأخذون على قيصر اتباعه العنف والرشوة أو الطريقة الميكيافيللية (١) من أجــل الوصول الى الحــكم ، ولكن هؤلاء المؤرخين لا يقــدرون أنه لم يكن فى ذلك العصر من حل آخــر سوى ذلك الحل من أجل أن يصل الرجل

---

(١) كان قيصر مصابا بداء الصرع ويعانى من نوبات الاغماء الذى كان يصيبه اثناء حملاته فى اواخر ايامه

(Suetonius, Julius, 45), (J.H. Collins, Historia, 1955, p. 445)

ـ يرى كولنز ان السلطة افسدته فأصبح مصابا بجنون العظمة فى اواخر ايامه :

J.H. Collins, Historia, 1955, p. 445.

وعن علاقة قيصر بغيره وسلوكه فى آخر ايامه . انظر :

J.P V.D. Balsdon. Historia, 1958, p. 80 ff

المناسب للمكان المناسب ! كما كان قيصر يتمتع بالوقار المطلوب Dignitas وبعراقة الأصول والأنساب ، بالرغم من سيره فى ركاب الحزب الديمقراطى الشعبى .

لم يعرف التاريخ القديم منذ الاسكندر الأكبر عبقريا عسكريا مثلما عرف يوليوس قيصر ، فقد كان مخططا ومدبر عمليات رائع وخبير بفنون الأسلحة . كما أن سحر شخصيته (١) وشعبيته بين قواته خلق فى الجيش روحا معنوية esperit de corps ، كان قيصر معتدلا فقد تطلع الى تحالف الديمقراطيين الشعبيين ولكن ذلك كما رأينا لم يكن يعنى انصياعه التام لهم ، وان اتجاهه آخر أيام حكمه الى تركيز كافة السلطات فى شخصيته كان نتيجة طبيعية لكثرة السلطات الممنوحة له . كما أن المؤرخ الدارس لأحداث العالم القديم ، لا يستطيع أن يخفى اعجابه بشجاعة قيصر فى قبول التحديات وثباته وصموده فى مواجهتها حتى يحقق لنفسه النصر لقد كان قيصر شجاعا فى تحديه لسلطات الحزب الجمهورى الأرستقراطى المتسلط،وللسناتو الرجعى،ودخوله فى صراع معهم وقبوله تحمل مسئوليات بناء نظام جديد بديل للنظام الجمهورى وان لم يعش ليحققه ! كما أنه تحمل بشجاعة مسئولية حكم الملايين من الناس فى روما وحوض البحر الأبيض المتوسط . كما أن رجاحة عقله وسعة أفقه جعلته ينأى عن الانتقام وسفك الدماء مثلما فعل سوللا ، بل نادى بالعفو والرحمة Clementia التى أصبحت مضرب الأمثال وسواء كان دافعها الثقة بالنفس أو طيبة القلب أو رغبة فى توحيد الأمة .

لقد راح قيصر ضحية صراحته ووضوحه ، فهو لم يخف كما فعل خليفته وابنه بالتبنى فيما بعد رغباته فى أن يحكم منفردا بل أعلنها على

(1) F.E., Adocok, C.A.H., vol. 9 pp. 739 — 740.

الملأ نهارا جهارا • لقد فشل قيصر فى تحقيق حلمه بانشاء « وحدة وطنية » تضم كافة العناصر بما فى ذلك المحافظين خبراء السياسة ، ومن ثم لجأ الى النظام الفردى الدكتاتورى • لقــد وصل قيصر الى السلطة العليا وكان العمر قد تقدم به ، وبدأت صحته تعتل ، فضلا عن أنه لم يجد شــخصــا وفيا يثق فيه يشركه فى المسئولية معه • وهذا جعله فريسة سهلة لاعدائه ، ولم يذهب دم قيصر سدى اذ كان خليفته أغسطس أكثر اســتفادة من أخطائه فلم يعاد السناتو بل ضمه اليه وفرض عليه شخصيته وحكم من خلاله وعلى العكس من قيصر لم يعلن هدم الجمهورية بل أعلن اصلاح الجمهورية وبعثها فى ثوب جديد •

الفصل العاشر

روما بعد مصرع يوليوس قيصر

(حكم أنطونيوس واوكتافيوس ٤٤ــ٣١ ق ٠ م)

حماقة المتآمرين :

من أكبر الحماقات التى ارتكبها المتآمرون الجمهوريون بزعامة بروتوس وكاسيوس هو أنهم لم يحاولوا اقامة حكم بديل للنظام القيصرى • ولم يمر ببالهم عندما دفعهم الحقد على قيصر والتعصب الجنونى لحكم السناتو الى التدبير لاغتياله أن يدركوا مدى العواقب والنتائج التى قد تترتب على اغتيال زعيم تجمعت فى يديه كافة السلطات •

لقد كان تفكير القتلة ضيقا ونظرتهم الى الأمور قصيرة لأنهم كانوا يتخيلون ببساطة أن الجماهير سوف تندفع لتملأ الشوارع معلنة عن فرحتها بزوال الدكتاتور هاتفة للأبطال السياسيين القدامى من عهد سوللا بل وستحملهم على الأعناق ليتسلموا زمام الأمور ولكن ظنهم خاب (١) •

من الواضح أن هؤلاء الرجعيين المتزمتين من طبقة رجال السناتو المتيمين بالثقافة الاغريقية ــ من الواضح أنهم وجدوا سابقة أخلاقية لتبرير فعلتهم فى التاريخ والعرف الاغريقى حيث كانت هذه التقاليد تنظر الى قتل الطغاة Tyrannicide على أنه ليس جريمة بل عملا بطوليا شريفا •

(1) HH. Scullard : From the Gracchi to Nero, p. 158.

وبالطبع كانت سيرة البطلين الاثينيين هارموديوس وأرسطوجيتون (١) Harmodios and Aristogeiton حاضرة فى أذهـانهم • ولم يدرك هؤلاء السياسيون المتزمتون الفـارق الزمنى بين عصر الطغـاة فى بلاد ايونان وهو القرن السادس قبل الميلاد والعصر الذى عاش فيه قيصر وهو القرن الأول قبل الميلاد ، ولم يمر بأذهانهم أيضـا الفرق الشاسع بين نظام المدينة الدولة الاغريقى Polis الذى من أجله ارتكب هـذان الفتيان جريمتهما السياسية وبين النظام الذى كان سائدا فى روما •

لقد كان جوهر الحكم فى المدينة الاغريقية يقوم على جمهـرة كل المواطنين مجتمعين فى سوق المدينة يدبرون أمر مدينتهم • أما رومـا فقد كبرت واتسعت وتضاعف عدد سكانها ، حتى أصبح جمع المواطنين أمرا مستحيلا • وحيث بدأ الفصل بين الشعب والحكومة •

ولم يدرك المتآمرون أيضا أنه لا يوجد هناك من سبب يدعو الجماهير الى التفاؤل بعودة رجال السناتو الى الحكم لان ما حـدث فى روما من

---

(١) هم قتلة الطاغية هيبارخوس بن بيسستراتوس طاغية اثينا وتم اغتياله عام ٥١٤ ق.م .

(٢) (*) من اهم مصـادرنا عن الفترة ٤٤ ـ ٣١ ق.م هى ابيـانوس Appianos وديوكاسيوس Dio Cassius ولكن ابيانوس اكثر اهمية من كتابات ديوكاسيوس لانه نقل عن مصادر اصـلية ، كذلك فان خطابات شيشرون الى صديقه اتيكوس وخطبه النارية ضـد انطونيوس المعروفة باسم الفيليبيات وهى آخر اعماله تعتبر مصدرا وثائقيا لا غنى عنه كذلك فان الشعر الرومانى خاصة شعر ڤرجيل وهوراتيوس يلقيان ضوءا مفيدا على احداث تلك الفترة . وكذلك مذكرات اغسطس التى نقلها لنا كل من ليڤى وڤيلايوس باتركولوس تعتبر هامة او سلمنا بأنها أصلية كذلك فان مؤلف بلوتارخوس عن حياة انطونيوس بالرغـم من موقف الكاتب غير المتعاطف ، بل المعادى ، تعتبر هامة لانها تعطينا صـورة مثيرة عن حربه مع البارثيين لانه نقلها عن مذكرات احد ضباط انطونيوس كما اعتمد على مذكرات اوليمبوس طبيب كليوباترة الخاص ، كما ان مؤلف سويتونيوس عن حياة اغسطس لا يقل اهمية عن الأعمال السـابقة وفى النهاية بل فى البداية لابد من الاعتماد على اغسطس نفسـه اى على وثيقة أثر انقرة (Res Gestae) لكن المشكلة الاسـاسية فى تاريخ هذه الفترة هو عنصر التشـهير السـياسى الذى استخدمه اغسطس ضد خصمه خاصة بعد انتصاره وبالغ فى ضعف انطونيوس وخنوعه لكليوباترا ولحضارة الشرق ويمثل شعر ڤرجيل أنظف اشعار التشهير بالملكة المصرية وبانطونيوس . Vergil, Aeneid, Viii.

سوى ما هو الا نتائج أفعالهم وتصرفاتهم ، كما أن الدهماء لم تحمل لمولا درة واحدة من الحب أو الاعجاب ، وأن كثيرا من هؤلاء الجماهير كانوا ينظرون الى هؤلاء الشيوخ على أنهم المسئولين الأول عما حل بالبلاد من الداخل والخارج من فوضى سياسية وادارية وانهيار اقتصادى عانوا منه طويلا قبل مجىء قيصر ٠

لقد نسى المتآمرون أنهم مدينون بمناصبهم التى كانوا يتمسكون بها جيدا للرجل الذى حرضوا على قتله ، وأن الجمهور الرومانى كان يفهم ذلك جيدا ٠ كما نسى المتآمرون ومن ورائهم مجلس الشيوخ أن لقيصر جنود مخلصين يعسكرون خارج المدينة وينتظرون مكافآت من سيدهم الذى قتل ، وأن هؤلاء الجنود سواء كانوا تحت السلاح أو مسرحين Veterani كانوا كارهين لحكم هؤلاء الشيوخ بعباءاتهم الحمراء وخطبهم الرنانة ٠

لقد كان هؤلاء الجنود بزعامة ماركوس ايميليوس لبيدوس Marcus Aemilius Lepidus قائد فرسان قيصر Magister equitum والذى كان من أشد الناس اخلاصا لسيده ٠

على أى حال لم يحرك الجمهور ساكنا ولا حتى قوات قيصر وجنوده لأن هول ما حدث شل حركتهم لحين من الوقت ووسط الجماهير المأخوذة بالحدث وتحت صيحات الحرية Libertas شق المتآمرون طريقهم الى مقر الحكم فوق تل الكابيتول ، ولم يجسر السياسيون من أتباع قيصر على الخروج من ديارهم ٠ وأخيرا كسر ماركوس انطونيوس أحد ضباط قيصر المخلصين وزميله فى القنصلية هذا الصمت ودعى فى السابع عشر من مارس (أى بعد مقتل قيصر بيومين) مجلس الشيوخ لعقد جلسة طارئة ٠

(1) C.A.H., X, Chapter i—iii (1934).

لقد كان أنطونيوس مخلصا لقيصر ولكن ليس لدرجة الجنون الذى يدعوه لاغراق روما فى بحر من الدماء انتقاما لمقتل سيده . لقد أدرك أنطونيوس أن القوى المتصارعة متوازنة ، وأن لا أحد يقدر على السيطرة لا قتلة قيصر ولا رجال السناتو ، ولا الحزب القيصرى نفسه ، عندئذ أدرك أهمية المصالحة الوطنية .

وبالرغم من أن الأحداث لا تشهد بتفـوق أنطونيوس فى مجـال العسكرية والسياسية لدرجة تفوق العادة ، الا أنه بدا معتدلا فى كلتـا المجالين ، بل أن تصرفه خلال الأسابيع التى تلت مقتل قيصر شهدت له بالتعقل والتصرف السليم .

ولقد حاول أنطونيوس اقامة حكومة ائتلافية ترضى ، جميع الأطراف المتنازعة ، وأسرع أنطونيوس بكسب رضـاء قائد الفرسان ليبـدوس وضمه اليه ووعده بترشيحه لوظيفة الكاهن الأعظم Pontifex Maximus التى كان يشغلها قيصر نفسه . وما أن فرغ من ذلك حتى اتصل برجـال الحزب الجمهورى واستطاع أن يقنعهم بعدم جدوى الغـاء انجـازات قيصر وأن مثل هذا الالغاء سوف يؤدى الى فوضى سياسية عارمة .

عندئذ اتفق الطرفان على أن يعالجوا مقتل قيصر كما لو كان قضاء وقدرا طبيعيا ، وأن يوافق السناتو على أعماله الماضية وكل مشروعاته المستقبلة كما ضمن الاتفاق عـدم المساس بالقتلة والمحرضين للحـادث وعدم التعرض لوظائفهم التى كانوا يشغلونها أو وعدهم قيصر بشغلها .

هكذا خرج أنطونيوس قويا وزاد من قوته أن أرملة قيصر عهدت اليه شـخصيا بأوراق قيصر الخاصـة وبالميزانية الخاصة بالجيش وأصبح مطلق اليدين يتصرف كمـا يشاء تحت اسم « مشروعات قيصر » وبالفعل نفذ أنطونيوس مشروعات قيصر بخصوص اقامة المستعمرات الزراعيـة وتوزيع الأراضى على الجنود المسرحين بل ونشر بعضا من وثائق قيصر الأصلية أو التى تبدو أصلية ، ولكـن الكتاب المعاصرين لأنطونيوس لم يخفوا شكوكهم فى أن تكون هذه الوثائق من فعل أنطونيوس لتدعيم مركزه .

على أى حال تضمنت وصية قيصر جعل حدائقه المنتشره على ضفتى التيبر Tiber لتكون حدائق عامة للناس • كما أوصى بتوزيع ثلاثمائة سستركيس Sesterces (أى ما يعـادل خمس عشرة دولارا أو أجر شهرين ونصف شهر للعامل الرومانى العادى) لـكل مواطن رومـانى ، كما أوصى بتبنى ابن شقيقته جايوس أوكتاڤيوس Gaius Octavius وأوصى له بثلاثة أرباع ثروته (١) • ويذهب الربع الباقى الى بعض أقاربه ولكنه لم يوصى صراحة بشخص معين يرث الحكم أو حتى بنظـام سياسى يقام من بعده •

حادث خطبة التأبين :

كان من بين الشروط التى اتفق عليها أثناء المفاوضـات بين رجـال السناتو وأنطونيوس أن يلقى جثمان قيصر جنازة رسمية ، يكرم خلالهاكما لو كان بطلا • وكان من الطبيعى أن يلقى أنطونيوس بصفته القنصل الشرعى المتبقى خطبة التأبين (٢) •

---

(١) مصدرنا عن وصية قيصر هى سويتونيوس Suetonius التى ذكر فيها ايضا شرط ان يرث اوكتاڤيوس اسم يوليوس قيصر وعائلته وهنا يرى بعض المؤرخين ان الوراثة كانت مشروطة بحالة عدم وضع كالبورنيا زوجة قيصر الأخيرة لأى طفل من بعده ، بل ان بعضا من المؤرخين يشكون فى وصية التوريث وشرعيتهـا ويذهب شـمتنر (Schmithenner) الى ان فكرة الوراثة حصل عليها أكتاڤيوس بمهارته السياسية عن طريق قرار من الجمعية الشعبية وهى ضربة سياسية ذكية انظر
W. Schmitthenner, Oktavian und das Testament Cäsars, Münichen, 1952)

ولكن الراى الغالب الآن ، بالرغم من وجود صعوبة فى فكرة التوريث هو راى سويتونيوس فى ان قيصر اراد ان يكون أوكتاڤيوس ابنه بالتبنى ووريثه فى نفس الوقت ، انظر : F.E.F. Chivler, J.R.S., 1954, p. 126 ff.

(٢) طبقا لقول سويتونيوس (Div. lulius, 84,2) ان انطونيوس لكى يثير الجماهير على السناتو لم يلق خطبه تابينيه (Laudatio) وانما قـرأ على الناس احدى قرارات السناتو الخاصـة بتكريم قيصر والقسـم الاعظم بحماية شخصه الذى اقسمه السناتو ، ثم اضاف على ذلك بضع كلمات مؤثرة من صنعه ، اما ابيانوس (ii, 144-5 فنسب لأنطونيوس فى تلك المناسبة خطبـة معتدلة ، اما ديوكاسيوس (Xliv, 36) فنسـب الى انطونيوس خطبة تأبينية تقليدية اى مطولة ووطنية فى مديح قيصروتعداد محاسنه وهذا ما يتفق عليه شيشرون (Philos. 2.91) ، اما راى المؤرخين المعاصرين فيخرج المـؤرخ دويتش من مناقشته للموضـوع الى الاتفاق مع راى سويتونيوس انظر : M.E. Deutsch, University of California, Publications in Classical Ar-:haeotogy, 1928.

وبالرغم من أن خطبة أنطونيوس وصفت بأنها معتدلة الا أن منظر عباءة الزعيم الملوثة بالدماء ، وسجل أعماله وألقابه التشريفية والفعلية والأشاره الى القسم الذى كان رجال السناتو قد قطعوه على أنفسهم بالولاء له . الى جانب اعلان نصوص الوصيه التى تضمنت وقف حدائقه للجمهور ، وتوزيع الأموال على المواطنين كما أن منظر الجسد المسجى نفسه — أثار ثائرة الجماهير والدهماء . فاختطفوا جثمان قيصر بالفوة وأشرفوا على مراسيم حرقه حسب الشعائر الجنائزية السائدة وقتئذ — وكان ذلك فى ساحة المدينه Forum حيث دفنوا رفاته ولم يجرؤ أحد من المتآمرين على الظهور بل آثروا الانسحاب من المدينة .

كان أنطونيوس قد اتفق معهم على الاحتفاظ بمناصبهم التى كانوا يشغلونها أو التى وعدهم قيصر بشغلها . فمثلا كان يونيوس بروتوس Junius Brutus وكاسيوس يشغلان وظيفة برايتور Praetor وكان من المفروض أن يزاولا عملهما فى المحاكم داخل العاصمه . ولكن أنطونيوس حماية لأرواحهما أرسلهما الى ولايات الشرق للاشراف على جمع الغلال . أما ديكيموس بروتوس Decimus Brutus فقد عينه أنطونيوس حاكما على ولاية بلاد الغال القريبة كما وعده قيصر بذلك .

هكذا أصبح أنطونيوس الحاكم الفعلى والمسيطر الحقيقى على السلطات فى روما ، حيث كانت تساعده قوة قوامها ستة آلاف جندى مسرح تقوم بحراسته وتنفيذ أوامره ، وبسرعة أدرك أنطونيوس أن لبيدوس يدعو الى الثأر لمقتل قيصر والضرب بيد من حديد على يد كل من له يد فى هذه المؤمرة ، ولكن أنطونيوس تخلص منه بدبلوماسية ذكية بأن ساعد على انتخابه كاهنا أعظم كما وعده ، ثم كلفه باعداد حملة الى أسبانيا القريبة لوقف تقدم سكستوس ابن بومبى Sextus Pompeius الذى كان لا يزال يثير الشعب فى أسبانيا البعيدة وحيث ألحق الهزائم بحكامها .

وكان يبدو أن خطط قيصر كانت تتضمن مصالحة ابن بومبى وذلك بالعفو عنه والسماح له بالعودة الى روما وتعويضه عن ممتلكات أبيه المصادرة •

وطبقا لوصية قيصر كان يجب على أنطونيوس مغادرة البلاد لتولى منصب الحاكم على ولاية مقدونيا ولكن أنطونيوس خالف وصية قيصر باستصداره قانونا يمنح بمقتضاه لنفسه ولايتى بلاد الغال القريبة والبعيدة لمدة ست سنوات بينما حددت اصلاحات قيصر مدة الحكم البروقنصلى لعامين فقط ، كما سمح أنطونيوس لرفيق له هو دولابيلا Dollabella بحكم سوريا لمدة ست سنوات مثله • كما نقل أنطونيوس بروتوس الى ولاية مقدونيا بدلا من ولاية بلاد الغال القريبة • كما وعد بتعيين كل من بونيوس وكاسيوس حكاما على ولايتى كريت وقورينه بعد عودتهما من صقلية وآسيا الصغرى وبالفعل غادرا روما ولكن كان فى نيتهما الاستيلاء على ولايتى سوريا ومقدونيا وبداية الثورة ضد أتباع قيصر والوقوف فى وجه أنطونيوس الذى بدأ لهما كما لو كان يسير فى أعقاب طريق قيصر •

ظهور اوكتافيوس :

صحيح أن أنطونيوس خرج من الأحداث وكأنه الرجل القوى فى الحزب القيصرى ، ولكنه وجد فجأة نجما صغيرا يظهر فى سماء روما يهدد مطامعه ويبدد أحلامه ، ذلك هو الفتى جايوس أكتافيوس أحد أحفاد قيصر من شقيقته ، والذى أوصى بأن يكون ابنه بالتبنى ووريثه الشرعى

وكان أوكتافيوس فى الليريكوم (يوغوسلافيا) يتمرن على فنون القتال فى صحبة جيش أعد لمحاربة البارثيين • وبالرغم أن الفتى كان سقيما معتل الصحة الا أنه كان عنيدا ذا عزم لا يلين ولا ينثنى ، قاسيا لا يرحم ولا يقل طموحا وتطلعا الى السلطة عن يوليوس قيصر نفسه •

أخذ هذا الفتى يتدبر أمره فى برود ، اذ أنه كان يضع نصب عينيه قيادة الحزب القيصرى ، كما وضع فى حسبانه الصراع الذى يجب أن يدخله يوما مع أنطونيوس المنافس الوحيد له ، وبالرغم من تحذير أسرته سافر أوكتافيوس توا بعد علمه بمقتل قيصرا الى روما فوصل ايطاليا فى خريف عام ٤٤ ق . م ، وطالب على الفور باجراء الطقوس الدينية وباتخاذ الخطوات والاجراءات القانونية التى يصبح بعدها ابنا ليوليوس قيصر . وبالطبع وجد أنطونيوس حرجا كبيرا فى تأييد صبى ينوى الدخول معه فى صراع ، وخاصة أن أنطونيوس كان قد وضع يده على خزائن قيصر وراح ينفق من أمواله ببذخ ، لقد كان من الصعب التفرقة بين أموال الدولة وأموال قيصر . لأن الأخير كان تجسيما للدولة . ومن الطبيعى أن يتجه أوكتافيوس (الذى أصبح بعد اعتماد اجراءات التبنى يسمى جايوس يوليوس قيصر أوكتافيانوس Gaius Julius Caeser Octavianus) الى المتطرفين من الحزب القيصرى والذين لم يعجبهم تسامح أنطونيوس مع قتله قيصر ، ليجمعهم حوله بصفته وريثا شرعيا لقيصر ومطالبا بدم قتلته . ولكن اعلانه هذا كان ينقصه الأدلة لأن وصية قيصر لم تذكر شيئا بخصوص أن يرث أوكتافيوس اسم وممتلكات قيصر .

فلجأ الى جذب الجماهير حوله بالانفاق ببذخ على المهرجانات والألعاب الرياضية وصرف مستحقات الجماهير فى تركة قيصر ،ودفع مكافآت الجنود المسرحين من ماله الخاص ، مما أهبط من أسهم أنطونيوس السياسية حيث وجد الأخير نفسه بين شقى الرحى ، فمن ناحية شك فيه المتآمرون على حياة قيصر بأنه يطمع بشدة ويتطلع بعنف للوصول الى قمة السلطة . ومن ناحية أخرى هجرة رجال قيصر لتسامحه الذى فاق الخيال مع القتلة ، ولميله الى المسالمة ، ولجأوا الى الفتى الصغير أوكتافيوس والتفوا حوله وجعلوه فارسهم المرتقب ، وبدأ أوكتافيوس بالفعل فى اعادة تكوين الحزب القيصرى على حسابه الخاص وذلك ببيع بعض من ممتلكاته الخاصة وبالاستدانة من خزانة الحزب التى وضعت بين يديه عقب وصوله الى ميناء برنديزى .

وهكذا استطاع أن يجمع حوله رجالا معجبين ومخلصين له ، خاصة رجال طبقة الفرسان من رجال المال والأعمال • كل هذا تم على مضض من أنطونيوس الذى أساء تقدير ذكاء الصبى ومكره ، عندما فكر أنطونيوس فى الموقف الخطير الذى قد يترتب على ازدياد سلطة أكتافيوس وارتفاع أسهمه اذ أدرك أنطونيوس أنه لابد وأن يكون بالقرب من ايطاليا • ولهذا فضل أن يعين نفسه بمقتضى قانون استصدره حاكما على ولاية الغال القريبة بدلا من ولاية مقدونيا النائية ، لأنه اعتقد أنه يستطيع أن يجمع جيشا قويا هناك ويهبط على ايطاليا اذا ألم الخطب به مثلما فعل يوليوس قيصر تماما •

فى نفس الوقت كان أوكتافيوس يتطلع الى حكم هذه الولايات مصدر المال والرجال بينما تمسك السناتو بديكيموس بروتوس Decimus Brutus كحاكم لهذه الولاية ورفض اخلاءها لأى من رجال قيصر ، عندئذ أدرك أنطونيوس أن الأحوال تستدعيه للمسارعة للذهاب الى ولايته وخاصة بعد أن أحس بمناورات ومناوشات أوكتافيانوس السياسية خلال خريف عام ٤٤ ق • م عندما ذهب هذا الأخير الى مقاطعة كمبانيا التى كان يستوطنها جنود قيصر المسرحين واستطاع عن طريق ميزانية ضخمة أعدها خصيصا لذلك من أن يجمع جيشا لحسابه الخاص وسار الى روما بهذا الجيش الذى كان يتكون فى غالبيته من المجندين الجدد وليس الجنود القدامى ولكنه فشل فى الاستيلاء عليها مما دق نواقيس الخطر وأضاء النور الأحمر حول مستقبل الأمن فى البلاد •

وانقسم الحزب القيصرى الى جناحين جناح التف حول أوكتافيوس ورأى فيه روح قيصر تبعث من جديد حيث خلبهم اسم قيصر الذى اتخذه أوكتافيوس ، وسحرهم بذخه وسياسته الليبرالية ووعوده السخية بالمزيد من الخير والرفاهية ، وسرعان ما بدأت قوات انطونيوس فى الانضمام الى قوات أكتافيوس ،وأخذ الذين أثروا على حساب يوليوس قيصر فى تمويل الفتى وفاء لجمائل سيدهم الراحل •

أما الجنود المسرحين فقد سحرتهم شخصيته القوية وحزمه ، وذكرهم ذلك بسيدهم الراحل وحتى الجناح الثورى للحزب القيصرى رأوا فيه الثائر على التقاليد القيصرية المحافظة •

وزاد أوكتافيانوس من قوته بأن خطب فى نفس الوقت ود رجال حزب السناتو المحافظ لأنه أدرك مدى أهمية الخبرات السياسية التى تقبع فى رؤوس هؤلاء الشيوخ والاحترام الذى يفرضه شعرهم الأبيض وعباءاتهم الحمراء ، ولأنه أدرك عداءهم الشديد لانطونيوس وكراهيتهم له من أول وهلة ، وكما قلت كان أوكتافيوس يختزن كل القوى للحظة الصراع النهائى بينه وبين أنطونيوس •

ولما علم شيشرون بانقسام الحزب القيصرى على نفسه ، وكان فى طريقة الى بلاد الغال للانضمام لقوات بروتوس هناك ، قطع رحلته وعاد الى روما لينصب نفسه زعيما للحزب الجمهورى المحافظ ، وبسرعة دعى رجال حزبه الى تأييد ومبايعة أوكتافيوس للوقيعة بينه وبين أنطونيوس •

ولما سار أنطونيوس على رأس جيشه قاصدا بلاد الغال لطرد ديكيموس بروتوس منها فى ديسمبر عام ٤٤ ق • م ألقى شيشيرون سلسلة من الخطب النارية ضده بلغ عنفها وحنقها الى أن شبهها البعض بخطب ديموسثينيس الآثينى Demosthenes ضد فيليب المقدونى • ومن ثم سميت خطب شيشرون بالفيلبيات Philippica مما أوعز صدر أنطونيوس بحقد لا يرويه سوى دماء شيشرون نفسه •

تحالف السناتو مع أوكتافيوس ضد أنطونيوس : (معركة موتينا) :

كان من الطبيعى أن يهب رجال السناتو الجمهوريون للدفاع عن رفيقهم ديكيموس بروتوس فى بلاد الغال والذى لم يكن له من نصير سوى السناتو ، وكان جيش أنطونيوس قد ضرب حوله الحصار فى مدنية موتينا ولجأ السناتو الى لعبته القديمة باستخدام قائد ضد الآخر ثم التخلص من المنتصر ، فطلبوا من أوكتافيوس التدخل نيابة عنهم ، وتحت الحاح شيشرون الشديد الذى ظن أنه وجد زعيما بديلا لبومبى ينصاع

لتوجيهاته السياسية . والذى راعه المديح الذى أهطل به الفتى نظير هجومه على أنطونيوس — أصدر السناتو قرارا بمنح أوكتاڤيوس سلطات غير عادية وذلك بمنحه سلطة البروبرايتور الاستثنائية التى تخوله حق توجيه الجيوش النظامية للدولة ، كما منح حقوقا شرفية مساوية لحقوق وظيفة القنصل ، ولما أدرك شيشيرون أن هناك بعضا من رفاقه ممن كانوا يفكرون بصوت عال بأن اندفاعه خلف أوكتاڤيوس قد يخلق قيصرا جديدا أشد خطورة من أنطونيوس ، هدأهم شيشرون بعبارة غامضة قال فيها (١) «Laudandum adulescentem, Ornandum, Tollendum»

وترجمتها « سوف نمتدح الفتى (ويقصد أوكتاڤيوس) ، وننعم عليه بالمناصب ، ثم نتخلص منه » .

وانصياعا لأوامر السناتو قاد قنصلا عام ٤٣ ق . م وهما هيرتيوس Hirtius وبانسا Pansa جيشا لنجدة بروتوس ، ولما وجد أنطونيوس أن الجيوش قد أصبقت عليه من كل جانب انسحب من مدينة موتينا عابرا جبال الألب الى ولاية الغال البعيدة . بعد أن هزم مرتين فى التحامين صغيرين : جرح فى الأول القنصل بانسا الذى مات متأثرا بهذه الجراح ، وسقط هيرتيوس رفيقه ابان الالتحام الثانى وأصبح منصب القنصلين شاغرا .

وما أن علم شيشيرون ورفاقه بنبأ هزيمة أنطونيوس ، حتى هللوا فرحا واعتبروا ذلك بداية انتصار الحزب الجمهورى ، وزاد من فرحتهم أن أرسل القطب الثالث فى الحزب القيصرى ورفيق أنطونيوس — ماركوس لبيدوس الى مجلس الشيوخ مؤكدا حسن نواياه تجاه هذا المجلس وتجاه الجمهورية وسادت الشائعات بأن ولايات الشرق قد سقطت فى أيدى الجمهوريين .

ودبت الدماء فى عروق الحزب الجمهورى فتجاهل مجهودات أوكتاڤيوس وبدأ السناتو يصدر الأوامر ويتخذ الاجراءات ، فمثلا أصدر السناتو قرارا

(1) Fam, XI, 20, I.

بأن يتولى ديكيموس بروتوس مهمة مطاردة جيش أنطونيوس ، كما أصدر قرارا آخر باستدعاء ماركوس بروتوس وزميله كاسيوس من مهمة الاشراف على جمع القمح فى الشرق وعين الأول حاكما على ولاية كريت والثانى حاكما على ولاية قورينه Cyrene ، ولكن هذين الصديقين سلكا سلوكا مخالفا لمهمتهما الأساسية وانعكفا على تحرير جميع ولايات الشرق من رجال قيصر ابتداء من مقدونيا حتى سوريا التى شغرت رئاستها بعد سقوط حاكمها دولا بيلا قتيلا فى الصراع ، وأصبح تحت يدى كاسيوس وبروتوس قوة عسكرية وبحرية لا يستهان بها ، عندئذ منحهما السناتو سلطة الأمبريوم العليا Maius imperium على كافة ولايات الشرق ، كما حاول السناتو مصالحة سكستوس بومبى ، فوضع تحت امرته قوة بحرية وأصبح بروتوس وكاسيوس وكأنهما قنصلان ينفذان أوامر السناتو وكونا مجلسا للحرب ولاعادة النظام الجمهورى القديم الذى أسقطه قيصر •

عنذئذ وجد شيشيرون أن الجو ملائم لاعلان أنطونيوس عدوا للجمهورية وللشعب الرومانى • وجاء المشهد الأخير من التمثيلية السياسية التى أعدها شيشيرون ورجال الحكم الجمهورى الاوليجارخيين وهى التخلص من أوكتافيوس نفسه ، ولكن أساء هؤلاء الشيوخ تقدير هذا الشاب الذى أغضبه بشدة أن يسلم زمام جيوشه الى ديكيموس بروتوس ، ورفض الانصياع الى أوامر هذه الفئة الأوليجارخية المتزمتة وعافه أن يستخدم كمخلب القط ضد زميل له وشريك له فى حب قيصر ، فرفض مساعدة ديكيموس بروتوس والتفت الى السناتو مطالبا بتعيينه قنصلا حيث شغر منصب هيرتيوس وبانسا ، كما طالب باقامة قوس نصر له triumphus وتوزيع مكافآت على جنوده • وبالطبع رفض السناتو هذه المطالب ، ولم يتردد أوكتافيوس فى أن يسير متجها الى العاصمة لاحتلالها وبالفعل تراجع السناتو أمام قوة السلاح ووافق على ترشيحه قنصلا مع شخصية غامضة هى كوئتوس بديوس Quintus Pedius الذى كان أكثر ميلا لأوكتافيوس منه الى السناتو ، وتم ذلك فى ١٩ أغسطس عام ٤٣ ق•م

وبعد أن أصبح وأكتافيوس قنصلا ، اتضح أنه لم يكن يحمل ذات يوم أى احترام أو اعجاب للسناتو ، فما أن تسلم منصبه حتى أوعز الى زميله بديوس باصدار تشريعات ضد قتلة يوليوس قيصر تجعلهم خارجين على القانون ، ومنها اقامة محكمة جنائية للتحقيق فى مصرع القائد قيصر ، وأصدرت المحكمة حكمها بالنفى عليهم جميعا وكذلك على سكستوس بومبى .

كذلك استخدم أوكتافيوس نفوذه فى السناتو لنقض الأحكام والقرارات التى صدرت ضد أنطونيوس حتى يبدأ حوارا التفاهم والمصالحة مع أنطونيوس،وتكوين جبهة واحدة ضد حزب السناتو . ثم سار أكتافيوس الى الشمال بجيشه بعد أن أصبح قنصلا رسميا ، هكذا على مدى ثمان عشر شهرا منذ مقتل قيصر استطاع أوكتافيوس أن يكسب المنصب لجسارته وجرأته ، وعن طريق تخطيه للدستور والقوانين باستخدام القوة ورفع السلاح مستغلا غباء السناتو كلما سنحت له الفرصة .

قيام الائتلاف الثلاثى الثانى (٤٣ ق.م) :

ومن أهم التغيرات التى طرأت على الجمهورية الرومانية هو قيام الجيوش باملاء ارادتها على السناتو وعلى الأمة ، بل وعلى القادة ، ومن الملاحظ أنه بالرغم من كثرة الحروب الأهلية ومواقف المواجهة الا أن المعارك الحاسمة كانت قليلة وذلك لعزوف الجنود وتراخيهم فى القتال ، ولرغبتهم فى المصالحة بدلا من المواجهة ، خاصة وأنه لا يوجد عدو خارجى بل ان المتقاتلين أخوة رومان مثلهم . ظهر هذا الاتجاه بعد موت قيصر اذ عزف الجنود عن تشجيع القتال بين جنرالات قيصر ، لأن غالبية الجنود كانوا جنود قيصر القدامى الذين كانوا يريدون المحافظة على رسالة قائدهم الراحل . كما كان عدد كبير من الجنود حديث التجنيد وهذا الفريق من الجند عاف الدخول فى معارك ضد الجنود القدامى المحنكين فى فنون القتال .

وضــح هــذا التراخى أثناء هجــوم أوكتافيــوس على ايطاليــا عام ٤٤ ق • م ، ومحاولته الاستيلاء على روما ، وحال ذلك دون حدوث مذبحة وحرب أهلية • وتكرر هذا الموقف عندما وجد جنود قيصر أنفســهم يواجهون أنفسهم فريق مع أنطونيوس وفريق مع لبيــدوس حاكم بلاد الغال النربونية Narbonese Gaul والذى ذهب لمساعدة بروتوس حسب تعهده للسناتو ، وبدلا من أن يتبادل الجيشان الحراب والسهام تبادلا التحيات والعواطف وأجبرا زعيميهما على المصــالحة تحت لواء وحدة الحزب القيصرى •

وما أن سمعت الجيوش التى كانت فى أسبانيا وباقى بلاد الغال حتى سلكا مسلكيهما ، وهجرت القوات الحكومية التى كانت فى بلاد الغال بقيادة بلانكوس ، ديكيموس بروتوس وتركته وحيدا يتجول متخفيا حتى قتل ، وانضمت الى الاتحاد الجديد بين لبيدوس وأنطونيوس، وفى نفس الوقت سار أوكتافيوس بجيش جرار لحماية شــمال ايطاليا ، وتحت الحاح الجنــود التقت الجيوش الثلاثة ، جيش أنطونيوس ، لبيدوس ، وجيش أوكتافيوس فى احتفال عام ، وعلى مشهد من الجنود والضباط التقت القوات فى جزيرة تتوسط نهر رينوس Rhenus (نهر لافينو الحالى) بالقرب من مدينة بونونيا Bononia فى مؤتمر مصالحة كبير لتكوين تحالف ثلاثى بغرض الاتحاد والتعاون من أجل تكوين جبهة للوقوف فى وجه عدوهم المشترك • ومن أجل اعادة بناء الجمهورية لمدة خمس سنوات •

Triumviri rei publicae constituendae.

وعلى العكس من التحالف الثلاثى الأول الذى كان بين قيصر وبومبى وكراسوس والذى كان سريا وخاصا (أى غير قانونى أو شرعى) قام التحالف الثلاثى الثانى على أساس قانونى اذ أصدر أحد الترابنة قانونا فى ٢٨ نوفمبر عام ٤٣ ق • م يجعل منه ائتلافا شرعيا ويعرف هذا القانون بقانون تيتوس Lex Titia ويسرى مفعــوله لمدة خمســة سنوات قابلة للتجديد •

وبمقتضى هذا القانون منح هذا الائتلاف سلطة الأمبريوم وحق ترشيح القناصل والموظفين دون اللجوء الى موافقة مجلس السناتو ، كما قسم

القواد الثلاثة ولايات أوروبا الغربية فيما بينهم ، فمنح أنطونيوس ولايات بلاد الغال بينما منح لبيدوس ولاية غاليا النربونية وولايتى أسبانيا القريبة والبعيدة • أما أكتافيانوس فقد حكم ولايات سردينيا وصقلية وافريقيا •

وبناء على السلطة الجديدة استقال أكتافيوس من منصب القنصل كما تعهد بالاشتراك مع أنطونيوس للقيام بحملة ضد بقايا الجيوش الجمهورية فى الشرق بينما يبقى لبيدوس فى روما يقوم على ادارة شئونها •

قوائم مصادرة الأموال : Proscriptiones

عزمت حكومة الائتلاف الثلاثى الثانى على تجنب أخطاء التحالف الأول وتجنب أخطاء يوليوس قيصر ، اذ أدركوا أن فلسفة الرحمة Clementia التى اتبعها يوليوس قيصر مع خصومه السياسيين لم تجدى شيئا ، وأن الذين قتلوه لم يكونوا سوى صنيعة احسانه •

كما أدرك القواد الثلاثة خطورة أزدياد ثروة طبقة الفرسان التى أتخمت من جمع الأموال بالباطل من الولايات الرومانية وامكانية تمويلهم لحركات التمرد من أجل الاتيان بحكومة أوليجارخية محافظة تخدم مصالحهم •

ومن ناحية ثالثة كان القواد فى حاجة ماسة الى الأراضى والأموال لتوزيعها على جنودهم المسرحين • أضف الى ذلك أن تجاربهم مع طبقة السناتو تركت فى نفوسهم مرارة وغل لا يشفيه سوى تقليم أظافر هذه الطبقة المتزمتة •

وباختصار وجد الزعماء الثلاثة أنفسهم يسيرون فى طريق الثورة السياسية والاجتماعية التى قدر لها أن تسود الامبراطورية من أخمص القدم الى قمة الرأس محققة حلم الفلاسفة الاشتراكيين وهو اعادة توزيع الأرض مرة أخرى على السكان • ومن ثم بدأت الحكومة فى نشر قوائم تتضمن مصادرة الأموال والأراضى •

وقد شملت هذه القوائم ثلاثمائة عضوا من اعضـــاء السناتو ، وما يقرب من ألفين من رجال طبقة الفرسان ، وقد سجلت أناشيد الشعراء وروايات الناس مدى عنف المصادرة الذى شمل العدو والصديق معا ، ولكن الحق يقال ان الحكومة الثلاثية الثانية تجنبت سفك الدماء بقدر الامكان لأنها كانت تبغى رؤوس الأموال وليس رؤوس الرجال (١) ، كما أن الحكومة كانت تبلغ الأشخاص المسجلين فى هذه القوائم مقدما وتنصحهم بمغادرة البلاد ، وكانت لا تمانع فى انضمامهم الى معسكرات اعداء التحالف والتى كان يقودها بروتوس وكاسيوس فى الشرق أو الى سكستوس بومبى الذى كان يسيطر على أسبانيا ويهدد سردينيا وصقلية . وكان على رأس قوائم المصادرة شيشيرون الخطيب عدو أنطونيوس اللدود، والحق يقال أن شيشيرون أعطى فرصة لمغادرة البلاد ، ولكنه تباطىء فى ضيعته فى الريف الايطالى التى عشق هدوءها ، والتى استقى من وحيهــا الألفاظ البلاغية والأفكار الفلسفية (٢) .

والمعروف عن شيشيرون أنه كان يعانى فى حياته من التردد ، وعدم حسم الأمور الذى يمكن أن يقال أنه راح ضحيته وليس من المستبعد أن يكون أنطونيوس هو الذى حرض على قتله خصيصا انتقاما لحملة التشـــهير التى قادها ضده .

هكذا استقبل شيشيرون الموت بشجاعة الابيقورى ، كما استقبله رفيق صباه كاتو من قبل ، وكما استقبله بروتوس وكاسيوس من بعد . لقد

---

(١) بالرغم من هذا لم يخل الأمر من العنف وسفك الدماء خاصــة ما نسب الى ابيدوس وهو ما يؤكده ابيانوس (iv, 11-30) ويؤيده نقش اقامته زوجة تنعى زوجها الذى وقع ضحية لقوائم المصادرة و لدمغ سلوك لبيدوس القاسى وقد نشر هذا النقش دورى انظر :

M. Durry. Eloge d'une matrone romaine, Paris (1950)

وعن الترجمة لهذا الرثاء انظر :

Lewis and Rheinhold, op. cit. 484.

(2) Cf. H.A.K. Hunt, The Humanism of Cicero, Melbourne, 1954.

سقط شيشيرون وهو يدافع عن قضية خاسرة لأنه دافع لآخر نفس من حياته عن فئة من السياسيين القدامى ينخر فى عظامها السوس وتعج بالفسق والفساد ، والغريب أن شيشرون كان يعلم ويعرف ذلك ، ولكن اخلاصه الأعمى جعله يتلمس الأعذار والتبريرات لهذه الفئة حتى سقط قتيلا (١) •

ولم يكتف أعضـــاء الحكومة الثلاثية بنشر قوائم مصادرة الأموال بل ذهبوا الى أبعد من ذلك ففرضوا ضرائب على أصـحاب الممتلكات الذين لم تشملهم هذه القوائم ، كما اختاروا ثمان عشرة مقاطعة رومانية من أغنى المقاطعات لاقامة مستعمرات استيطانية لجنودهم المسرحين فيها ، لقد نجحت هذه السياسة فى تطهير ايطاليا من اعداء الائتلاف الثلاثى فقط ، ولكنها فشلت من الناحية الاقتصادية لأن كثرة السلع والعقارات المصادرة والمعروضة للبيع أدى الى هبوط عام فى الأسعار بدرجة تثير القلق •

والحق يقال أن الطرف الثانى المعادى للحكومة الثلاثية وهم بروتوس وكاسيوس لم يكونا أقل قسوة من تصرفات الطرف الأول • حقيقى أنهم كانوا يتصرفون فى ولايات سكانها غير رومان ، ولكنهم سلكوا تصرفا همجيا ازاء المدن والولايات التى نادت باحترام نصوص معاهدة الصداقة المعقودة بين روما وبينهم ، فهدموا هذه المدن عن آخرها ، ونهبوا معابدها ، وأصروا على جباية الضرائب المتأخرة منذ عشر سنوات فى الحال من ولاية آسيا ، وأغدقوا بهذه الأموال المصـــادرة على الثمان عشرة فرقة التى جمعوها ، وأفهموهم بأنهم محررين للجمهورية ، وساروا بهم غربا لملاقاة جيشا قيصريا متحدا يقود جناحيه كل من أوكتافيوس وأنطونيوس ويتمتع بروح عالية من النظام والثقة واللياقة •

(1) Cf. H. Frich, Cicero's Fight for the Republie, Copenhagen Levin 1946, p. 230 ff. also W.W. How, J.R.S., 1930, p 24 ff,

وعن حياة شيشيرون فى اواخر الجمهورية انظر :

G. Bossier, Cicero and his Friends (897) ; J.L. Strachan-Davidson, Cicero and the Fall of the Roman Republic (1894) ; E. G. Cicero of Arpinum (1914) ; Cowell. Cicero and the Roman Republic 1948, Pelican edition 1956 ; J. Carcopino, Cicero ; the secrets of his correspondence 1951.

معركة فيليبى Philippi (٤٢ ق٠م) :

قدر لبلاد اليونان دائما أن تكون ميدان القتال الذى تجرى على أرضه المعارك القليلة الفاصلة فى تاريخ الرومان ، وعلى أرض مقدونيا قرب مدينة فيليبى Philippi التقى الجيشان فى أكتوبر عام ٤٢ ق ٠ م ودارت رحى أعنف معركة عرفها تاريخ الجمهورية ٠

كان الجيش الجمهورى يتكون من ثمانين ألف مقاتل رومانى بخلاف القوات المتحالفة معه ، واتخذ هذا الجيش مواقعة على الهضاب الواقعة بين تراقيا Thracia ومقدونيا فى انتظار جيوش الحكومة الثلاثية التى بدأت تعبر البحر الادرياتيكى فى صيف عام ٤٢ ق ٠ م ، ودون أن تقيم أى اعتبار للقوات البحرية التى كان يمتلكها أعداؤهم ، وبدأت المعركة بالتحامات محدودة استطاع بروتوس أن يهزم قوات أكتاڤيوس فيها لأن صحة الأخير كانت معتلة وقتئذ ، بينما ألحق أنطونيوس الهزيمة بقوات كاسيوس الذى تشاءم من سير المعارك مستقبلا فغمرته موجة من اليأس والقنوط انتهت بانتحاره على الطريقة الرومانية ، وبقى بروتوس وحيدا وبعد ثلاث أسابيع من انتحار كاسيوس التقى الجيشان ودارت معركة فاصلة وعنيفة انتهت بهزيمة بروتوس وانتحاره أيضا بيده لا بيد عمرو ٠

لقد كان لبروتوس دوره الكبير فى احداث التاريخ الرومانى ولا يملك المؤرخ المتابع لسيرة عظماء الرومان الا أن يحس بالحسرة لذهابه اذ أنه كان آخر الرومان الحقيقيين ٠

لقد كان بروتوس آخر سيناتور جمهورى فى أيام الجمهورية الأخيرة ، فقد كان مخلصا اخلاصا أعمى لقضية حزبه السياسى ، كما كان معتزا بدمائه الارستقراطية حتى أن عاف مصاحبة شيشيرون نفسه ، لأنه ينحدر من أصول برجوازية جديدة Homo novus ، وهى نفس النظرة التى نظرها الى أكتاڤيوس ، ومما جعله يفكر فى المصالحة الوطنية التى كان يمكن تحقيقها مع أنطونيوس هو أن هذا الأخير كان ينحدر من سلالة عريقة كالسلالة التى انحدر منها بروتوس نفسه ، ولكن كبرياءه منعته

من اتخاذ مثل هذه الخطوة بالرغم من أنه استنكر فى أكثر من موقف أن يرفع الروماني السلاح فى وجه رومانى ، وكان يتوق فى أعماق نفسه الى وقف رحى الاقتتال لو أن البادرة جاءت من الطرف الآخر وخاصة من المعتدلين من حزب قيصر •

لقد وضع بروتوس همه كله فى الصمود ومقابلة العنف بالعنف ـ ولم يتوانى فى أن يضغط على الفقراء من سكان آسيا الصغرى من أجل الحصول على أكبر قدر من الأموال اللازمة لتجنيد الرجال والانفاق على الجيوش ، كما كان يلجأ فى أيامه المبكرة الى قرض أمواله لبعض الولايات المفلسة بفائدة غاية فى الجشع ، فمثلا بلغت الفائدة على ديونه لأهل مدينة سلاميس Salamis فى قبرص ٤٨٪ وكان غرضه آنئذ هو جمع الثراء من أجل أن يحيا فى رغد من العيش والنعيم عملا بتعاليم فلسفته الابيقورية •

هكذا بموت بروتوس اختفى من على مسرح الاحداث آخر فئة جمهورية محافظة متعصبة لرومانيتها أكثر من تعصبها لمبادئها السياسية • لقد كان بروتوس آخر هؤلاء العظام ذوى النظريات السياسية والفكرية ، كما كان منجما للثقافة ورمزا لشخصية الرومانى المحافظ القديم الجامد الفكر والذى يرفض بعنف تقبل الجديد •

تاليه يوليوس قيصر :

لم ينس أكتافيوس أن يبعث السرور فى قيصر وهو فى قبره ، فبنى له معبدا فى ساحة المدينة Forum حيث حرق جثمانه • كما أوجد بمقتضى قانون خاص عبادة يوليوس قيصر الذى اعتبر من بين آلهة الدولة البازرين وأصبح يسمى المؤلة يوليوس Divus Julius وقد صك الاغريق لفظا اغريقيا موازيا لهذا اللفظ اللاتينى وهو Sebastos وكان ذلك بداية لتأليه الاباطرة فيما بعد ، حتى أن أكتافيوس نفسه اعتبر فيما بعد ربا وباليونانية « ثيوس سباستوس Theos Sebastos Divus Augustus

تقسيم الولايات الرومانية بين الزعيمين .

وبعد معركة فيليبى جلس الشريكان أنطونيوس وأكتافيانوس لاقتسام الولايات العربية للامبراطوريه أما الشريك الثالث فقد أسقط من القائمه مؤقتا لازدياد الشكوك تجاهه بعد أن حامت حوله الشائعات عن قيام اتصالات سريه بينه وبين سكستوس بومبى الذى سبب أرقا دائما لروما منذ مقتل أبيه .

اتفق الشريكان على أن تدمج ولايه الغال القريبه Cisalpina Galia فى حدود ايطاليا جغرافيا وسياسيا نظرا لأهميتها الاستراتيجية ، أما ولايه الغال البعيدة (عبر الالب) Transalbina Galia فمنحت لأنطونيوس التى حكمها عن طريق نائب legatus ينوب عنه .

أما أكتافيانوس فقد منح ولايتى أسبانيا القريبة والبعيده وسردينيا كما وضعت أفريقيا تحت اشرافه لحين ثبوت براءة لبيدوس من الشائعات التى حامت حوله منذ صلح بونونيا .

ظل أنطونيوس رئيس التحالف الثلاثى بحكم السن والخبره وبحكم دوره الكبير ابان معركة فيليبى . ونظرا لذلك فقد اتفق الطرفان على أن شرقا أى أن يذهب أنطونيوس شرقا ليعيد تنظيم ولايات الشرق ويجمع الأموال اللازمة لتنفيذ المشروعات ، بينما يولى أوكتافيوس وجهه شطر روما ليتولى عملية توزيع الهبات والأراضى على الجنود المسرحين . ومن طرسوس فى كيليكيا Cilicia أرسل أنطونيوس رسميا فى طلب كليوباترا لتمثل بين يديه فى صيف عام ٤١ ق . م . وأغلب الظن أنهما كانا قد تقابلا عندما كانت الملكة خليلة لقيصر أو قبل ذلك ، وكما فعل سيده فعل أنطونيوس أى اتخذها عشيقة له وليس لدينا أى دليل على أنه كان متيما فى حبها منذ اللحظات الأولى . وبالرغم من أنه تبعها الى الاسكندرية فى شتاء نفس العام ولكنه لم يمكث بمصر طويلا اذ أنه غادرها لقضاء بعض مشاكله . ولم يعد اليها الا بعد أربع سنوات من ذلك التاريخ (١) .

---

(١) يعتقد البعض ان أنطونيوس شاهد كليوباترا لأول مرة عندما جاء كضابط صغير فى جيش جابينوس الذى اعاد الزمار الى عرشه عام ٥٥ ق.م.

اعمال اكتافيانوس فى ايطاليا :

كانت ايطاليا مسرحا لنشاط سياسى واقتصادى وعسكرى من جانب أكتافيوس ، هذا النشاط كان فى الحقيقة بداية خبرته بادارة الامبراطورية مستقبلا ، وان أفقدته هذه الأصلاحات كثيرا من شعبيته . أول ما بدر الى ذهنه هو توطين الجنود المسرحين فى الأراضى التى صادرها ، وكان ذلك خلال عام ٤١ ق . م . وبالطبع لم يدع الاقطاعيون الايطاليون الجنود المستوطنين يفلحون الأرض بسهولة بل تخلل ذلك صراعات ومشاجرات وعنف ومحاولات لطردهم من الأرض .

ومن الغريب أن أحد القنصلين عن هذا العام واسمه لوكيوس أنطونيوس Lucius (شقيق ماركوس أنطونيوس) أراد أن يستغل السخط المتزايد ضد أكتافيوس من جانب أصحاب الأراضى فبدأ بالاشتراك مع فولفيا Fulvia زوجة أخيه ماركوس أنطونيوس فى تحريض المزارعين ضد أوكتاڤيوس ، والذى كان عليه أن يوطن ما يقرب من مائة وسبعين ألفا من الجنود المسرحين . ولما وجد أن الأراضى المصادرة فى الثمان عشرة مقاطعة لم تكف لهذا الغرض بدأ فى مصادرات أخرى من ملاك صغار مما أدى الى تحول عدد كبير منهم الى معدمين وكاد الشاعر فرجيل أن يكون من بين هؤلاء المعوزين لولا وساطة شخصية سياسية قوية مقربة الى أوكتاڤيوس ، وهو مايكيناس الذى أصبح فيما بعد وزيرا للثقافة فى عهد امبراطورية أغسطس .

وعلى أى حال أدت عملية المصادرات سواء عن طريق القوائم أو وضع اليد الى تكتل الساخطين خاصة من طبقة السناتو الاوليجارخية التى نظرت الى أكتاڤيوس على أنه ثورى انتهازى ، لا تعرف الرحمة الى قلبه سبيلا ، وانتهازيته لا تقل عن انتهازية أنطونيوس نفسه ، أعلن لوكيوس أنطونيوس وفولفيا بصفتهما مسئولان عن ماركوس أنطونيوس أنهما ساخطان على تصرفات أكتاڤيوس ، وأنهما يتعاطفان مع الملاك الذين صودرت أراضيهم .

وبالطبع علم أنطونيوس بتصرفات زوجته وأخيه الا أنه غض النظر عنهما وآثر الصمت لأنه أحس أنه ملتزم تجاه زوجته وأخيه كما هو ملتزم تجاه أكتاڤيوس شريكه فى الأئتلاف الثلاثى".

وتطورت الأحداث بسرعة وبدأت المناوشات بين أتباع لوكيوس وفولفيا وجيش أكتاڤيوس ، وما أن لاحت فرصة أكتاڤيوس العسكرية حتى ضرب الحصار حولهما فى بيروسيا Perusia عام ٤٠ ق . م . حتى كاد أن يموتا مما اضطرهما الى الاستسلام ، عندئذ فك الحصار وسمح لفولفيا بالرحيل الى زوجها فى الشرق ، كما عفى عن لوكيوس، أما الباقون فقد عمل فيهم قتلا وتمثيلا بقسوة لم يعرف لها مثيل مما أدى الى تدمير المدينة ونهبها .

أما الناجون فى هذه المذبحة فقد فروا للالتحاق بمعسكر سكستوس بومبى الذى كانت قواته تحتل صقلية . وتعبيرا عن سخطه على أنطونيوس طلق أوكتاڤيوس زوجته كلوديا Clodia ابنة فولفيا زوجة أنطونيوس، واظهارا للرغبة فى مصالحة سكستوس بومبى تزوج سكريبونيا Scribonia احدى قريبات الاخير .

وكانت تلك هى الفرصة الاخيرة أمام سكستوس لعقد السلام ولكنه فقدها لعناده ، كما ألقت رياح الحظ بولاية بلاد الغال بين يدى أكتاڤيوس ، اذ مات حاكمها كالينوس Calienus نائب أنطونيوس فضمها أكتاڤيوس اليه ، ولما تأكد من حسن نية لبيدوس ، أعاد اليه حكم ولاية أفريقيا بشرط أن يترك فيها قوة تابعة له ، وكان طلاق كلوديا بادرة باندلاع الخلاف بين أكتاڤيوس وأنطونيوس .

صلح برنديزى : BRUNDISEUM

أثار نبأ فقدان ولاية الغال بما فيها من قوات غضب أنطونيوس الذى أغضبه تصرفات أكتاڤيوس ضد زوجته وأخيه فى بيروسيا،وطلاق أكتاڤيوس

لابنة زوجته كلوديا ، فتعبأت النفوس بالسخط وسرعان ما تحول هذا السخط الى استعداد للاشتباك العسكرى وخاصة أن أنطونيوس كان قد وجد المناخ مناسبا لهجومه على ايطاليا ، لأن أكتاڤيوس كان منهمكا فى التصرف ازاء البارثيين الذين استغلوا ظروفه وهجموا على ولاية سوريا ، وبالتعاون والتواطؤ معهم اخترقت قوات كونتوس لابينوس Qunints Labienus أحد ضباط بروتوس وكاسيوس ولاية آسيا الصغرى حتى وصلت الى أطراف حوض بحر ايجه •

عندئذ أبحر أنطونيوس بقواته الى ميناء برنديزى أواخر صيف عام ٤٠ ق • م • ولكن المدينة أقفلت أبوابها فى وجهه ، وبقى أنطونيوس يعسكر بقواته خارج أسوار المدينة ، مطالبا أكتاڤيوس بحقوق مساوية لامتيازاته فى ايطاليا ، متهما اياه بنقض العهد بينهما ، كما طالب أنطونيوس أيضا بقوات مماثلة لقوات أكتاڤيوس من أجل تدعيم نفوذ الامبراطورية فى الشرق ، واستولى أنطونيوس على بقايا الاسطول الجمهورى القديم وأصبح لديه قوة بحرية لا يستهان بها •

ومرة أخرى أملت الجنود ارادتها وقالت كلمتها بأن لا حرب بين رومانى ورومانى وطالبوا بالصلح بين الرفيقين المتخاصمين ، وتدخل الوسطاء لفض النزاع سلميا وأمكن التوصل الى صيغة صلح سميت بصلح برنديزى ، بمقتضاها أصبح أكتاڤيوس يحكم ولايات أسبانيا والغال وسردينيا وصقلية ودلماتيا Delmatia (ساحل يوغوسلافيا) ، بينما يحكم أنطونيوس ولايات شرق البحر الأيونى ، كما تركوا لبيدوس يحكم ولاية أفريقيا •

كما قبلت الأطراف المتنازعة أن يحكموا ايطاليا مجتمعين ، كما تدخلت دبلوماسية الزواج السياسى فتزوج أنطونيوس (لأن زوجته فولفيا كانت قد ماتت وقتئذ) اكتافيا .Octvia شقيقة أكتاڤيوس ، حتى تدعم هذه المصاهرة هذا الاتفاق والوفاق •

الحرب ضد سكستوس بومبى : (٣٩ — ٣٦ ق٠م) :

وما كاد أكتاڤيوس يخرج من ورطته الأولى ، حتى برز خطر سكستوس بومبى (١) من جديد والذى كان يحتل صقلية كما انتزع جزيرة سردينيا من أكتاڤيوس ، وبأستيلائه على صقلية مخزن القمح الشهير بالنسبة لروما، وبقطعه الطريق على السفن الرائحة والغادية ، أحدث سكستوس بومبى أزمة فى القمح ذلك الغذاء الرئيسى لدهماء المدينة Vulgus ، وهدد بقيام مجاعة ، ولم يجد أكتاڤيوس وأنطونيوس بدا من عقد صلح معه ولذا اجتمع الثلاثة فى ميسينوم Misenum عام ٣٩ ق ٠ م ٠

واتفق المجتمعون بأن يمنح سكستوس بومبى سلطة الامبريوم البروقنصلية (الحق الدستورى فى تسيير الجيوش) على صقلية وسردينيا وكورسيكا وولاية آخايا Achaea فى شمال البيلوبونيسوس لمدة خمس سنوات وأن يتمتع بحقه كقنصل Consul وكعراف Augur كما تعهد أنطونيوس وأكتاڤيانوس بتعويضه عن ممتلكات أبيه المصادرة فى روما وذلك مقابل أن يتعهد سكستوس بومبى بحماية البحر من خطر القراصنة ، وحماية سفن القمح الرومانية ، ولكنه كان من الغباء أن يضيع هذه الفرصة النادرة ونقض هذا الاتفاق بتعرضه لسفن الاسطول الرومانى التجارى ، عندئذ أدرك أكتاڤيوس ألا فائدة من مصالحة هذا المتمرد فأعلن عليه الحرب ٠

وفى مطلع العام التالى انقض أكتاڤيوس على سردينيا فاستولى عليها دون مقاومة تذكر ولكنه رد على أعقابه خاسرا عندما هاجم صقلية وتعرض لمرارة الهزيمة بسبب تفوق عدوه عليه بحريا ، فأوقف أكتاڤيوس القتال لحين الاستفادة من دروس المعارك السابقة ولانشاء قوات بحرية ، وبفضل جنراله الشهير ماركوس فبسانيوس أجريبا Marcus Vipsanius Agrippa (٢)

---

(١) عن سكستوس بومبى انظر :

M. Hadas., Sextus Pompey, New York, Columbia University Press, 1930.

وعن الجنرال اجريبا واعماله وحياته انظر :

M. Rheinhold, Marcus Vipsanius Agrippa, 1968.

استطاع أن يبنى عددا من الترسانات البحرية فى بحيرات لوكرينوس Lucrinus وأفرنوس Avernus بالقرب من ميسينوم وعمل على تحصينها من هجوم العدو التسللى واستطاع أن يبنى أسطولا بحريا قويا قادرا على الدخول فى معارك ضد سكستوس بومبى .

وبلغ من ذكاء أكتافيوس أن دعى الى عقد مؤتمر ثلاثى بينه وبين أنطونيوس ولبيدوس قرب تارنتوم Tarentum فى ربيع عام ٣٧ ق . م . طالب فيه أن يلعب كل شريك دوره فى حرب الرومان القادمة ضد سكستوس بومبى ، واستطاع أكتافيوس بدبلوماسيته الهادئة ، أن ينتزع من أنطونيوس تعهدا بأن يساهم بمائة وأربعين سفينة حربية مقابل أن يتعهد أكتافيوس بتجنيد عشرين ألفا من رجال القبائل الايطالية لصالح أنطونيوس من أجل الاستعانة بهم فى مشروعاته الحربية القادمة ضد دولة البارثيين ، وفى نهاية المؤتمر اتخذ المجتمعون قرارا بتحديد صلاحية التحالف الثلاثى خمس سنوات أخرى تنتهى مدتها عام ٣٣ ق . م .

وبدأ أكتافيوس المناوشة العسكرية ضد سكستوس بومبى فى أوائل عام ٣٦ ق . م . وبثقة مطلقة هاجم صقلية حيث أبحر لبيدوس من أفريقيا بأسطوله وحاصر ميناء ليليبايوم Lilybaeum وهو أقوى موانىء صقلية ويقع على الساحل الغربى للجزيرة . وفى سبتمبر عام ٣٦ ق . م . تمكن الاميرال ماركوس فبسانيوس أجريبا من ادخال أسطول سكستوس بومبى فى مصيدة بحرية ، وتدمير غالبيته قرب ناولوخوس Naulochus

عند الطرف الشمالى الشرقى للجزيرة (١) ، وبذلك فقد سكستوس بومبى سر قوته ففر الى آسيا الصغرى ، وبقى متخفيا عامين الى أن قبضت عليه قوات أنطونيوس وأعدمته فى الحال .

---

(١) يرى البعض ان الفضل يرجع فى ذلك الى مهارة ضابط اغريقى من سوريا اسمه سليوكوس الروسوسى Seleucus of Rhosas وقد كافأه أوكتافيانوس على ذلك بمنحه الجنسية الرومانية الكاملة فضلا عن اعفائه من كافة الضرائب ، وعن ذلك القرار وسائر مراسلات اكتافيانوس الى سليوكوس الروسوسى انظر :
Ehreberg and Jones, Documents, No. 301 = Lewis Rheinhold, t, 389 ff.

والحق يقال ليس هناك من دليل تاريخى يشير الى بطولة أكتاڤيوس فى هـذه المعركة الحاسمة التى وضعت نهاية لحرب سكستوس بومبى الطويلة التى كانت تقوم على مزج تكتيك حرب العصابات بالنظام الرومانى العسكرى ، وانما الفضل يرجع الى عبقرية أجريبا وتعاون ليبيدوس الذى ركبه الغرور فأعلن التمرد ضد أكتاڤيوس ، ولكن أكتاڤيوس كان يسحر أفئده الجنود ، بمجرد ذكر اسم أبيه يوليوس قيصر ، وطبيعى أن تنفض عن ليبيدوس جنده ، وتنحاز الى معسكر أكتاڤيوس . ووجـد ليبيدوس نفسه خالى الوفاض ، لا جند ولا مال ، فألقى بنفسه تحت قدمى أكتاڤيوس يطلب المغفرة ، فقبل أكتاڤيوس متفضلا أن يبقى عليه حياته بعد أن جرده من كافة وظائفه فيما عدا وظيفة الكاهن الأعظم الجوفاء ، ثم حدد اقامته فى قريـة باحـدى المقاطعات الايطالية وفـرض عليه حراسة حتى قضى نحبه فى عام ١٢ ق . م ، وضم أكتاڤيوس اليه كافة الولايات التى كان يتولى حكمها ليبيدوس .

أوكتافيوس يزيد من سلطانه ويدعم مركزه :

هكذا وجـد أكتاڤيوس نفسـه — بعـد أن تخلص من سكستوس بومبى وبعد أن أزاح عن طريقه ليبيدوس — وجها لوجه أمام أنطونيوس فتجددت الخلافات القديمة ودبت الحياة فى الصراع اذ أن تحت رماد المسالمة كانت تقبع النيران الحية ، وأن معاهدات الصداقة والمصالحة بين القائدين الرومانيين لم تكن الا ثلوجـا تغطى فوهة بركان يغلى ، والحق يقال كان موقف أكتاڤيوس أكثر قوة ، اذ وضع الحظ بين يديه نصف الامبراطورية الغربى ، وأحسن أكتاڤيوس صنعا بتحقيقه الأمن للايطاليين وتأمينه لوصـول القمح المستورد ولرعايتـه لقـدامى الجنود وخاصـة المسرحين منهم ، وعم السـلام وفى أعقا به الأمل والرخـاء لانصاره وأعدائه على السواء .

وكان أكتاڤيوس قد طلق سكريبونيا قريبة سكستوس بومبى عشية اندلاع الحرب بينهما بحجة أنها كانت كثيرة الشجار معه بالرغم من أنها

أنجبت له طفلة هى جوليـا Julia الشهيرة التى اشـتهرت بالاستهتار والانحراف فيما بعـد •

وبعد طلاق أكتاڤيوس لسنكريبونيا ، حـدث أن وقع أكتاڤيوس فى حب زوجة أحد الأشراف واسمه تيبريوس كلاوديوس نيرون ، وكانت أما لطفل هو تيبريوس (١) وتحت التهديد تنازل الزوج عن زوجته وابنها لأكتاڤيوس وتم زواجه من ليفيا فى شهر يناير عام ٣٨ ق • م ، وبزواجه منها أصبح أكتاڤيوس يفتخر بانتمائه الى أسرتين من أعرق أسر الرومان هما آل ليفيوس بحـكم بنوته ليوليوس قيصر (Livii) وآل كلاوديوس (Claudii) ، الى جانب أسرته الخاصـة الأصـلية وهى Octavii وكانت أسرة ريفية متواضعة ؛ وبذلك استطاع أن يخرس هجوم منافسه أنطونيوس بأنه ينحدر من أصـل وضـيع بل تفاخر بأنه يمثل المجتمع الرومانى على كافة طبقاته الاجتماعية •

كما جنى أكتاڤيوس ثمار عودته منتصرا من حربه مع سـكستوس بومبى فاحتفى به الشعب الرومانى باستقبال عظيـم (ovatio) كمـا كرمه السناتو فمنحـه شرف الجلوس فى مقـاعد الترابنة ، كمـا منحه الحصانة الجسدية Sacrosanctitas التى تخولها هذه الوظيفة لحاملها وكان ذلك فى عام ٣٦ ق • م • ومن ثم أعلن أكتاڤيوس أنه حقق السلام فى البر والبحر (٢) •

وفى نفس الوقت لم يترك أكتاڤيوس فرصـة واحـدة تمر دون أن يستغلها من أجل توطيد شعبيته بين السياسيين ، فحالف طبقـة رجال المال والأعمال وخاصـة الفرسـان Equesterii ، كما سـاعد آخرين على الارتقاء الى صـفوف الاسرة الارستقراطية والذين كانوا يلقبـون

---

(١) كما كانت هذه الزوجة التى تدعى احيانا ليفيا دروسللا فى شهرها الأخير من الحمل حيث وضعت ابنها الثـانى دروسـوس ، وعن طبيعـة وظروف هذا الزواج انظر :
Dio Cassius, 49, 15, 5.

(٢) عن تفسير كلمة فى البر والبحر انظر المقال الطريف :
A. Momigliano, J.R.S. 1942, p. 63 ff.

بالرجــال الجــدد Homines novi وباختصار كان هــذا الشاب الثائر يبحث عن كسب تأييد كافة الطبقات ، وخاصة الطبقات ذات الوزن السياسى والاجتماعى استعدادا ليوم حاسم ، يفصل بينه وبين عدوه الكبير أنطونيوس •

كما دعم أكتافيوس مركزه بالمزيد من الانتصارات فى البر والبحر ، وكان ساعده الأيمن فيها جنراله المخلص فبسانيوس أجريبا Vipsanius Agrippa القائد العسكرى المحنك والذى خدم سيده باخلاص وبتواضع ، ومن أهم الانتصارات التى حققها أجريبا ودعمت مركز أكتافيوس السياسى ، انتصاره على القبائل الاليرية (Ilyrians) بعد سلسلة من الحملات العسكرية ما بين (٣٥ و ٣٣ ق • م) انتهت باخضاع سكان القطاع الشمالى والساحل اليوغسلافى (الحالى) وهى منطقة أشتهرت بالقلاقل وبحركات التمرد والثورة [١] وعاد أكتافيوس من هذه الحملة العسكرية مدعم المركز والمكانة عسكريا وسياسيا •

حرب انطونيوس فى الشرق (٤٢ — ٣١ ق•م) :

عندما قسمت ولايات الامبراطورية ومنح أنطونيوس مهمة الاشراف على ولايات الشرق ، بدأ هذا القائد وكأنه يحمل على عاتقه المهام الكبرى للتحالف الثلاثى • وبالرغم من أن هذه المهمة بدت شاقة وعسيرة الا أن أنطونيوس لم يكن كفء لها • اذ كان أنطونيوس ينحدر من سلالة أرستقراطية فلم يحس بدافع العمل من أجل توطيد مركزه مثلما تحتم على أغسطس أن يفعل ، بل اعتمد على حسبه ونسبه كما كان أنطونيوس عاطفيا أغرق نفسه فى مشاكل كثيرة بسبب عدم اكتراثه وعدم تقديره لخطورة المسئوليات،وجريه وراء اشباع لذاته وشهواته،ولكنه كان سياسيا هوائيا أى أنه لم يلتزم بفلسفة معينة يربط نفسه بها ، بل ترك لنفسه الخيار دائما فى اختيار ماذا يفعل ولمن يوكل هذا العمل أو ذاك ، عموما

(١) وعن هذه الغزوات أنظر :

R. Syme, J.R.S., 1933, p. 66 ff. ; E. Swoboda Octavian und Illyricum(= J.R.S. 1934, p. 163 ff) ; W. Schmitter, Historia, 1958, p. 189 ff.

كانت سياسته السياسـة التقليدية الرومانية بالرغم من أن تنظيماته فى الشرق كانت ناجحة ومثالا احتذى به من خلفوه هناك • اذ بدأ أنطونيوس بجمع الأموال من آسيا الصغرى رغم حالة الفقر الشديد التى كانت تعانيه هـذه المنطقة من جـراء نهب كاسـيوس لهـا • ثم أعـاد تنظيم الامارات والملكيات العميلة لروما وعين حكاما لمس فيهم الولاء مثل هيرودس ملك مملكة يهوذا فى فلسطين •

ولكنه فقد نجاحه فى هذه التنظيمات بسلوكه المشين فى مصر، عندما نزل فى ضيافة كليوباترا فى شتاء عام ٤١/٤٠ ق • م حيث حرص على ألا يغضب أهل الاسكندرية والا يجرح كبرياءهم وكرامتهم الوطنيـة مستفيدا من الدرس الذى تلقاه سيده قيصر ، وظهر فى شوارع المدينة بدون حملة الشعار الرومانى Lictores الذى أشـعل لهيب ثورة الاسـكندرية عام ٤٨ ق• م وأدت معاشرته لهذه الملكة المصرية بأن أنجبت له طفلين ، ولدا وبنتا أطلق عليهما كليوباترا القمر (سيلينى) ، والاسكندر الشمس (هليوس) Helios (١) •

وما كان لأنطونيوس أن يغادر مضجع الملكة الدفىء (٢) لميدان القتال لولا هجوم البارثيين على آسيا الصغرى وسـوريا يتزعمهم الجنـرال

---

(١) يرى تارن ان هذا الاسم قد اختير بذكاء وتيمنا بسيرة الاسكندر العظيم قاهر بلاد الفرس لأن القاهر المقدونى كان يدعى انه ابن آمون رع رب الشمس المصرى ، ولما كان حلم انطونيوس وكليوباترا أن يكون ابنهما قاهرا عظيما مثل القاهر المقدونى فقد اختاروا له ذلك الاسم ، ويرى آخرون ان هذا الاسم اختير للفت نظر دعاة المخلص المنتظر ان هـذا هو الطفـل الموعود وللمزيد من هذا النقاش انظر :
W.W. Tarn, Journal of Roman Studies, 1923, p. 135 ff.

(٢) عن الملكة كليوباترا يمكن أيضا الاستفادة من المراجع التاليـة :
زكى على : كليوباترا سيرتها وحكم التاريخ عليها – القاهرة ١٩٥٨ •
O. von Wertheimer, Cleopatra, A. Royal Voluptary (1931).

الجمهوري لابينوس Labienus (١) عندئذ سارع أنطونيوس الى الشرق حيث استطاع أحد جنرالاته وهو فنتيدوس باسوس Ventidus Bassus أن يطرد الغزاة من آسيا الصغرى وسوريا ، وكان أنطونيوس يستعد لتأديب البارثيين Parthians وضم بلادهم الى الامبراطورية الرومانية تحقيقا لأحلام قيصر في توحيد العالم المتحضر . ولكن نشاط أكتافيوس في ايطاليا ، جعلته يؤجل مشروعه هذا . ويعود الى ايطاليا .وما تلا ذلك من حصار قواته في ميناء برنديزى ثم اشتراكه في مؤتمر الصلح في مسينوم عام ٣٩ ق . م . ثم مؤتمر تارنتوم عام ٣٧ . وبالرغم من هذه المؤتمرات فقد كان الخلاف واضحا بين القائدين . ولولا برود أكتافيوس وتحكم أنطونيوس في أعصابه . ومساعي أكتافيا (زوجة أنطونيوس وشقيقة أكتافيوس) وكانت امرأة عاقلة . لعبت دورا كبيرا لمنع القتال بين أخيها وزوجها أشبه بالدور الذى لعبته جوليا زوجة بومبى وشقيقة قيصر . ولولاها لا ندلع القتال بينهما في أكثر من مناسبة .

هزيمة أنطونيوس على أيدى البارثيين .

وبعد أن وقع أنطونيوس على نصوص صلح مؤتمر تارنتوم غادر ايطاليا ليستعد لغزو بلاد البارثيين وكان في الحقيقة يعتزم ذلك منذ عام ٣٦ ق . م .

ويبدو أن أنطونيوس درس حملة كراسوس Crassus واتعظ منها ومن أخطائها لأنه تجنب السير في صحراء ما بين النهرين ، واتخذ خط سير مخالف عبر شمال آسيا الصغرى مارا بأرمينيا لأنه اعتقد أن ملك أرمينيا الذى كان صديقا حليفا للرومان سوف يساعد في امداد الجيش ، ولكن هذا الملك واسمه أرتافاديس Artavades خيب آمال

(١) وقد بلغ من ثقة هذا القائد بنفسه أن سك عملة فضية تحمل صورته على الوجه الأول وعلى الظهر تحمل صورة احدى جياد البارثيين ، ثم نقش يقول « لابينوس القائد المظفر على البارثيين » . لصورة هذه العملة انظر :

E.A. Sydenham, Coinage of the Roman Republic. No. 1356—1357

أنطونيوس لأنه ترك فرسان الجيش البارثى لينقضوا على قوافل المؤن والامدادات العسكرية الرومانية ويعملون فيها تخريبا ونهبا .

وبالرغم من هذا استطاع الجيش الرومانى أن يشق طريقه عبر دولة البارثيين حتى قلعة فراسبا Phraaspa ، ولما أدرك أنطونيوس ما يمكن أن يحدث بسبب ثلوج الشتاء ونقص الرجال والعتاد انسحب بجيشه وهو كسير الفؤاد ، عبر المناطق الوعرة ، حتى يكون فى مأمن من هجمات الفرسان البارثيين واتبع فى ذلك خطة عسكرية تدعو للاعجاب بعبقريته وبشجاعته وبراعة قيادته واستطاع أن يؤمن عودة ما تبقى من جيشه الى الأراضى الارمينية .

ولكن الرومانى لا يعرف سوى النصر ـ فكان من الصعب ألا يتأثر مركز أنطونيوس ، وقد فقد فى هذه الحملة ما يزيد على عشرين ألف جندى من تعداد جيشه الكلى البالغ مائة ألف رجل ، وخاصة أن هذه الهزيمة الدامية حدثت فى وقت كان فيه أكتاڤيوس يحتفل بانتصاره على سكستوس بومبى ، ويؤمن الولايات الغربية لصالحه ، مما أوغر صدر أنطونيوس ضد شريكه .

وكعادة القادة المهزومين خلا أنطونيوس بنفسه ، وفكر فى حليفه الذى ترك البارثيين ينقضون عليه ينهشون فى جيشه دون أن يحرك ساكنا أو يرسل له امدادات وهو الذى دعمه بالسفن التى حققت له النصر على سكستوس بومبى ، كما حز فى نفسه أن يعيد أكتاڤيوس اليه ما تبقى من سفنه التى اشتركت فى الحرب ضد سكستوس بومبى ، وأقنع نفسه بأن الوعاء قد فاض بما فيه وان الحال وصل الى حيث لا رجعة فاما هو أو أكتاڤيوس ، وزاد فى الأمر انه بدأ يستمع الى الملكة المصرية كليو باترا التى وجد فى عطفها وحبها له عزاء فقرر أن يؤجل الحرب مع البارثيين ويعقد معاهدة مع أحد المتمردين البارثيين على ملكهم بعد أن قبض على ملك أرمينيا وحمله معه أسيرا ازاء غدره بالجيش الرومانى وخيانته .

أنطونيوس وكليوباترا :

كانت كليو باترا آخر ملوك البطالسة المقدونيين الذين حكموا مصر منذ وفاة الاسكندر الأكبر • وكانت هذه الملكة طموحة (١) تبغى اعادة بناء مجد مصر البطلمية بأى وسيلة ، واستخدمت فى ذلك دهاءها ، وذكاءها وجمالها ومالها وكل ما وهبته الطبيعة لها •

ومن الجدير أن نذكر القارىء بأن نظام الحكم المقدونى فى مصر كان نظاما أجنبيا استعماريا يقوم على الجنود المرتزقة وخاصة الاغريق من أجل بقائه ، ومن هذا يبدو أن البطالسة ساءهم استيلاء الرومان على الممالك الاغريقية وخاصة الشرقية منها لأنها كانت المصادر التى يجد منها هؤلاء الحكام جيوشهم • وفى نفس الوقت أدركت الملكة كما أدرك أجدادها أهمية المصريين الذين كانوا يكونون السواد الأعظم من شعب المملكة فعملت على خطب ودهم مثل تعلمها اللغة المصرية وبارتدائها الزى المصرى وادعائها بأن روح الربة ايزيس قد تقمصتها وأسمت نفسها بايزيس الجديدة • ومن الغريب أننا نجد ماركوس أنطونيوس يتخذ اسم ديونيسوس (٢) منذ عام ٣٨ ق • م •

ومن المعروف أن ديونيسيوس الاغريقى اعتبر صنوا لأوزوريس المصرى خاصة وأن أنطونيوس اتخذ هذا الاسم متأففا،لادراكه أن الرومان

---

(١) بالغ بعض المؤرخين فى حصافة كليوباترا وطموحها انظر
W.W. Tran, C.A.H. X, 76 ff (= J.R.S., p. 135)
كما رأى آخرون انها لم تكن بالصورة التى رسمتها بها الدعاية الأوغسطية ضد انطونيوس انظر :
R. Syme, Roman Revolution, p 274 f.

وعن كليوباترا انظر الكتاب الشيق :
H. Volkman, Cleopatra A. Study in Politics and Propaganda (English translation 1958).

كذلك ابراهيم نصحى « مصر فى عصر البطالمة » •

(٢) ليس من المستبعد ان تكون كليوباترا وراء هذه الفكرة تمهيدا لزواجها منه حيث كانت هى تتقمص شخصية الربة ايزيس ومن المعروف ان ايزيس كانت زوجة اوزوريس الذى عادله الاغريق احيانا بديونيسيوس رب الخمر والزراعة •

يمقتون تأليه البشر ابان حياتهم ، كما ظهرت كليوباترا متربعة على عرش مزدوج المقعد ، مصنوع من ذهب • وكان ذلك تمهيدا لزواجهما •

لقد أدركت الملكة المصرية مدى الورطة السياسية والعسكرية التى وقع فيها أنطونيوس كما أدركت أنها فى حاجة ماسة الى مزايا أنطونيوس ، وأن امبراطورية مصر العجوز قد تبعث حية على يدى فارس عنيف محنك مثل أنطونيوس • ويبدو أن أنطونيوس نفسه كان يحلم بذهب مصر وثرائها وخيرات أراضيها ، وكان يحلم لو تحقق له مثل هذا الثراء لاستطاع عن طريق عزيمته وارادته وخبرته فى اعداد الجيوش وتدريبها من أن يقيم امبراطورية شاسعة فى حوض البحر الأبيض المتوسط تستطيع أن تقف فى وجه غريمه اللدود أكتافيوس ، وكانت الاسكندرية عروس البحر الأبيض المتوسط — هى المدينة الوحيدة التى تستطيع لو أوتيت من القوة العسكرية والرجال المحنكين — أن تنافس روما ، وتتقاتل معها على امتلاك حوض البحر الأبيض المتوسط (١) •

ويبدو أن أنطونيوس الكسير الفؤاد ، روى همومه للملكة وما فعله أكتافيوس به ، كما روى لها غدر الاصدقاء به ، وأنه فى حاجة الى صديق وفى مخلص وحليف وحبيب وشريك، لقد عدد أنطونيوس لكليوباترا المواقف التى غدر فيها أكتافيوس به ، آخرها أنه لم يرسل له العشرين ألفا من الجنود التى وعد بارسالها اليه فى الشرق مقابل الاسطول الذى أعاره أنطونيوس له عقب صلح تارنتوم وتركه فريسة لوحشية البارثيين الضارية كما روى لها الألم والحسرة التى أحس بها أنطونيوس عندما رد اليه ما تبقى من أسطوله دون كلمة شكر أو رثاء أو تشجيع ، بل كان هذا بمثابة ملء جروحه بالملح •

أما أوكتافيا فقد كانت ممزقة العواطف بين حبها لزوجها أنطونيوس وحبها لأخيها أكتافيانوس ، ولم يرضها قلبها أن يغدر أخوها بزوجها ، فابحرت الى أثينا ومعها قوة رمزية قوامها ألفين من الرجال وادعت أن أخيها

---

(١) مصطفى عبد الحميد العبادى : مصر من الاسكندر حتى الفتح العربى — الانجلو المصرية القاهرة ١٩٦٦ ص ٩٩ وما بعدها •

أرسلها بهذه القوة الصغيرة فتقبل أنطونيوس القوة ولكنه أخبر زوجته أن مافعله أخوها به لم يترك لها مكانا فى قلبه بعد،وطلب منها أن تعود أدراجها الى روما لأنه لن يسمح لأخيها الانتهازى بأن يستغل حبه لها فى تقييده عما يجب أن يفعله ٠

وضع أنطونيوس لنفسه خطة قبل أن ينازل أكتاڤيوس ٠ وهى أن يرتب منزله ويعيد تنظيم شئون ولايته فى الشرق ٠ وبدأ ذلك عام ٣٥ ق ٠م ، حيث اســتطاع بمساعدة ملك ميديا من أن يلحق العقاب والهزيمة بملك أرمينيا الذى غدر بجيش أنطونيوس ، واحتفل أنطونيوس بانتصاره عام ٣٤ ق ٠ م ، لا فى روما ولكن فى قلب الاسكندرية حيث كان أنطونيوس فى أشد الحاجة الى ذهب كليو باترا بقدر ما كان فى حاجة الى قلبها لأن الملكة المصرية لم تبخل عليه بشىء لا بجسدها ولا مالها ، بل فتحت له خزائن القصر ليأخذ منها ما يشاء من أجل اعداد حملة عسكرية للانتقام من البارثيين، أى أننا يمكن أن نقول أن زواجه من كليوباترا كان يقوم على المنفعة أساسا الى جانب العاطفة والافتتان ، وأعلن أنطونيوس منفعلا وهو يخاطب جماهير مدينة الاسكندرية أن كليوباترا « ملكة الملوك » Regina Regum وحاكمة مصر وقبرص وكريت وبلاد الشام Koile-Syria كما أعلن أن ابنها الأكبر الذى لقبه أهل الاسكندرية سخرية بقيصرون Caesarion ابنا شرعيا ليوليوس قيصر وأنه شريك مع والدته فى[1] حكم مصر وقبرص ولقبه بملك الملوك Rex Regum ٠ وكان هذا تحد سافر لأكتاڤيوس ٠

---

(١) سك انطونيوس عملة خاصة لتخليد هذه المناسبة تحمل صورة كليوباترا وتحمل نفس العبارة بل وتحمل اسماء ابناءها كملوك ، وعلى الوجه الآخر للعملة ظهر انطونيوس كبطل ارمينيا ، انظر :

Sydenham Coins of the Roman Republic, No. 1210—11.

كذلك انظر صورة عملة اخرى تظهر جمال الملكة :

C.A.H., Plates, IV, p. 13.

كما وزع أنطونيوس على قيصرون وأولاده من كليوباترا بلادا يحكمونها فورع على قيصرون حكم مملكة أرمينيا وميديا وبارثيا، كما لقب أخيه الأصغر باسم ملك سوريا وفينيقيا Phoenicia وكيليكيا ، أما ابنته التى اشتهرت باسم كليوباترا القمر Cleopatra Selene فقد عينت ملكة على مملكة قورينا (شحات) فى ليبيا احدى المدن التى كانت تسير فى فلك مدينة الاسكندرية وسمى هذا التقسيم (بهبات مدينة الاسكندرية) •

ومن الملاحظ أن أنطونيوس لم يحتفظ بشىء لنفسه وأن ما أجراه من تقسيمات لا تتعدى أى اجراءات يقوم بها أى مسئول رومانى فى الشرق ، وأنه لم يخضع كلية لكليوباترا والا لما وقف فى وجه مطامعها فى فلسطين • لأن الملكة المصرية كانت تمقت بشدة هيرودس حاكم فلسطين اليهودى ، وكانت تتوق بشدة لضم فلسطين لمصر • ولكن أنطونيوس وقف فى وجهها ازاء هذا المطمع •

ولكن أكتافيوس الانتهازى لم يفته هذا التصرف ، ووصفها بأنه خيانة وتفريط فى ممتلكات الشعب الرومانى ، ولاقت دعايته السياسية قبولا من جانب الرومان الذين عافوا أن تقتطع بعض أجزاء ولايات الامبراطورية الشرقية لملكة أجنبية ولمن ؟ لكليوباترا التى كرهوها لكبريائها Surperbia وحبها للأبهة والترف حتى أن شيشرون سبق أن صرح فى رسالة الى صديقه أتيكوس أنه يكره الملكة (١) برغم وعدها له بأنها سوف تهديه مجموعة من مكتبة الاسكندرية •

ويقول شيشرون أيضا فى نفس الرسالة :

« ولا أستطيع أن أتذكر صلف الملكة نفسها عندما كانت فى الحدائق على الضفة الأخرى من التيبر — دون أن أشعر بألم شديد » • ومهما كان احساس شيشرون ازاء كليوباترا ، فان أكتافيوس جند بسهولة

---

(1) Cicero, Ad. Atticum, XV, 15.

انظر عبد اللطيف احمد على — المرجع السابق ص ١٢ •

عواطف الرومان الوطنية ضد أنطونيوس فحرمه من قدر كبير من الحب والاعجاب الذى كان يتمتع به بين صفوف الجيش والشعب الرومانى .

انهيار التحالف الثلاثى الثانى وبداية التحرش السياسى بين انطونيوس واكتافيانوس :

انتهت المدة القانونية للتحالف الثلاثى فى نهاية عام ٣٣ ق . م (١) . ولم يبد أى من الشريكين السابقين أنطونيوس وأكتافيوس اى رغبة فى تجديد مدتها مرة أخرى ، بل كتب أنطونيوس الى القنصلين طالبا الموافقة على تقسيماته فى الشرق وعرض رغبته على السناتو فى التنازل عن سلطاته كعضو فى الحكومة الثلاثية من أجل استعادة النظام الجمهورى القديم ، وتلقا قنصلا عام ٣٢ ق . م اللذان كانا من اتباع أنطونيوس رسالته ولكنهما عزفا عن الافصاح عما بداخل الخطاب خوفا من شدة العداء ضد أنطونيوس التى أثارتها دعاية أكتاڤيوس القوية .

وكان أكتاڤيوس قد قضى المدة ما بين عامى ٣٥ . ٣٣ ق . م منهمكا بحملات تأديبية ضد القبائل الأليرية شرق البحر الادرياتيكى ، وكان قصده بهذه الحملات تسخين قواته والاحتفاظ بنشاطها القتالى وضرب المثل الأعلى للجنود بشجاعته واقدامه وأصالة قيادته .

وكانت الأنباء قد جاءته عام ٣٣ ق . م وهو فى معسكره بأن أنطونيوس قد أغدق بالممالك والمدن على ابن يوليوس قيصر وأبنائه من الملكة المصرية كليوباترا ، فانفجر أكتاڤيوس غضبا . وكان قبل ذلك قد أعلن سخطه على أنطونيوس لاساءته معاملة أخته أكتافيا ، وفى نفس الوقت أرسل أنطونيوس

(١) وهنا واضح من عبارة اغسطس نفسه التى جاءت فى اثر انقرة وهى :

«triumvirum rei Publicae Constituendae Fui per Continuos annus decem».

وترجمتها : « لقد كنت عضوا فى الائتلاف الثلاثى لاصلاح الجمهورية وذلك لمدة عشر سنوات مستمرة » ولما كان هذا الائتلاف قد بدا فى اواخر عام ٤٣ ق.م فعلى ذلك يكون قد انتهى فى أواخر عام ٣٣ ق.م وللمزيد من المناقشات حول ذلك الموضوع . انظر

Rice-Holmes, Architect ol the Roman Empire. vol 2 New York Oxford Universitv Press 1931 p. 231 ff . cr G.E F Chivler, Historia, 1950, p. 410 ff

اليه ملحا فى طلب مزيد من موات الجيتر الرومانى . وفى طلب مزيد من الاقطاعيات الزراعية لتوزيعها على قدامى جنوده ، أو الذين تقدمت بهم السن ، ولم يعودوا قادرين على القتال . ولم يعطه أكتاڤيوس ردا مقنعا ، لهذا الطلب ومن ثم اندلعت الحرب الدعائية بين معسكرى أكتاڤيوس وانطونيوس ، كل منهما يشهر بالآخر ويحمله مسئولية ما يحدث وأصبح لكل من القائدين فريق وأتباع ومعسكر حتى داخل السناتو .

لقد كثرت الاتهامات والادعاءات حتى ضاعت الحقيقة ولذا فهى فترة مليئة بالمتناقضات والملابثات . مما تجعل مهمة المؤرخ لها غاية فى الصعوبة ومن أقبح مافعلته دعاية أكتاڤيوس القوية ، أنها شوهت صورة أنطونيوس الحقيقية ونجحت فى دمغة كرجل مهرج مستهتر لايكاد يفيق من سكره أو يرغب فى مغادرة فراش عشيقته . وبالطبع ليس هذا الا دعاية وتشهير (١) .

ومن الواضح أن عرض أنطونيوس بالتنازل عن سلطاته كعضو فى التحالف الثلاثى الثانى أثار شهية أعضاء مجلس السناتو وتجرأ أحد القنصلين وهاجم أكتاڤيوس ، وكاد مجلس السناتو أن يصدر قرارا يطالب فيه أكتاڤيوس بتسليم سلطاته على الفور ، لولا استخدام أحد ترابنه العامة — وكان صديقا لاكتاڤيوس — حق الاعتراض Intercessio وأبطل المشروع .

وردا على ذلك اقتحم أكتاڤيوس السناتو بقواته ، وبث الذعر داخل أروقته ، وخطب مهددا بالويل والثبور وعظائم الأمور اذا ما وافقوا على طلب أنطونيوس بانهاء سلطة الحكومة الثلاثية ، لأنه سيصبح هو نفسه بدون سلطات وشهر فى وجوههم بالسلاح كما شهر سلاح الدعاية السياسية من قبل وأفهمهم — بأنه سوف يلجأ لسلطات أخرى اذا ما وقف الدستور عقبه فى وجهه .

---

(١) عن أثر هذه الدعاية على الحقيقة التاريخية انظر :

K-Scott : Memoire of the American Academy at Rome, 1933, pp I ff. ; M.P. Charlesworth, Classical Quarterly, 1933. p. 172 ff. ff

ولم يكتف أكتافيوس بتحدي سلطات القنصلين اللذان فرا - ومعهم ما يزيد عن ثلث أعضاء مجلس السناتو الى معسكر أنطونيوس فى الشرق ، بل ذهب الى حد اقتحام معبد الربه الطاهرة فستا، وأرهب راهباتها العذراوات وانتزع وصية أنطونيوس من خزائن المعبد، ونشرها علانية على الناس ليفضح غريمة ، ولا نستبعد تزويره ودسة أمورا على نصوص الوثيقة الأصلية، امعانا فى التشهير بأنطونيوس وخاصة أن الوصية تضمنت رغبة أنطونيوس فى أن يدفن بمدينة الاسكندرية كما تضمنت طلبه برعاية أولاده من الملكة المصرية كليوباترا وهو أمر من المستبعد أن يكون أنطونيوس قد فعله .

وفى الحقيقة أن أكتافيوس نشر نصوص هذه الوصية سواء حقيقية كانت أم مدسوسة - كرد على ارسال أنطونيوس وثيقة طلاق رسمية لاكتافيا والذي فسره أكتافيوس على أنه اعلان للحرب عليه ، وقد أجاد خبراء الدعاية الاكتافية استخدام نصوص هذه الوثيقة فى التشهير بأنطونيوس .

فتح أنطونيوس أبواب (١) معسكره على مصراعيها لاستقبال السياسيين الفارين من بطش وانتقام أكتافيوس، وكان معظمهم من كبار رجالات الحزب القيصرى، وكبار شيوخ السناتو المحافظين ، وغيرهم من أصدقاء أنطونيوس حتى كادت كفة الميزان أن ترجح فى صفة ، ولكن أكتافيوس وخبراء الدعاية ركزوا على الهجوم على كليوباترا والحرص على ذكر اسمها كلما ذكر اسم أنطونيوس حتى يجندوا كراهية الرومان لها ولآل بطليموس ضد أنطونيوس .

وبعد أن تأكد أكتافيوس أن دعايته قد وصلت الى كل بيت الرومانى بدأ فى عام ٣٢ ق . م فى تأمين جبهته الداخلية بتوحيد وتكتيل كافة فئات الشعب الرومانى من خلفه . كما منح المخلصين من رجاله وأتباعه سلطات وملأ بهم أجهزة الدولة . كما ألغى كافة الأحزاب والتكتلات السياسية الأخرى . ووزع مندوبية فى كافة أجهزة الدولة .

---

(١) من اتباع اكتافيوس انظر Syme, op. cit. p. 292 f.

ومن اتباع انطونيوس : Ibid. p. 266.

ثم أحيا أكتافيوس تقليدا ضاربا فى القدم ، وهو أن يقسم الناس له يمين الطاعة والولاء Coniuratio كقائد أوحد لكافة التكتلات والتنظيمات السياسية فى ايطاليا كلها (١) .

ويرجع تاريخ قسم الولاء الى عام ٤٩٤ ق . م عندما انفجر عامة الشعب الرومانى بثورة كبرى لسوء أحوالهم الاقتصادية ولحرمانهم من الحقوق السياسية وقاموا بالانسحاب كاملا من الدولة الى سفح تل مقدس قريب من روما اسمه التل المقدس Mons Sacra وظلوا هناك حتى استجابت الدولة لهم ووافقت على منحهم حق مندوبين عنهم هم الترابنة

لقد كان قسم الولاء بالنسبة لأكتافيوس هو بمثابة السلطة الشعبية المطلقة ، لأن التحالف الثلاثى كان قد تعطل ، وتوقفت سلطاته ، ولما تأكد أكتافيوس أنه قد ضمن القاعدة الشعبية تحت سيطرته ، تجرأ وجرد أنطونيوس من سلطة الامبريوم ، وحذف اسمه من قائمة المرشحين للقنصلية لعام ٣١ ق.م فى هذه الأثناء كان خبراء دعايته قد مهدوا الجماهير معنويا لحرب جديدة مقدسة يقودها زعيم مقدس تقى ورع ضد آلهة النيل المتوحشة البربرية .

ومن الواضح أن أكتافيانوس لم يذكر اسم أنطونيوس عند اعلان الحرب بل أعلن الحرب ضد كليوباترا حتى لا يتهم بأنه أشعل حربا أهلية أراق فيها دماء الأخوة الرومان . ومن ثم أعلن أنها حرب مشروعة Bellum iustum ضد الملكة المصرية ، حتى تبدو معركته وكأنها دفاعا عن كرامة الشعب الرومانى وحقوقه ، وأنها ليست حربا عادية أو مستعدية بل حربا عادلة دفاعية لنصرة آلهة التيبر ، ورد اعتبارها وكرامتها ، وبدأ الاعداد لأسطول كبير لكى يغزو الشرق ويضم آخر مملكة هللينستية الى حوزة روما .

---

(١) عن اهمية هذا القسم فى توحيد ايطاليا كلها من ورائه انظر :
R. Syme, op. cit., p. 284.

موقعة اكتيوم Actium ونهاية انطونيوس :

وفى الشرق بدأ أنطـونيوس وكليوباترا كتفا لكتف يعبآن الجيوش فى مدينة افيسوس Ephesus على ساحل آسيا الصغرى ، أنطونيوس يدرب وينظم وكليوباترا تدفع ، وربما فسر ذلك اصرار أنطونيوس على بقائها وسط الجند بالرغم من اعتراض زعماء وقادة الرومان على ظهورها بين الجنود لافتين نظر أنطونيوس أن مثل هذا الشىء قد يدعم من دعاية أكتاڤيوس السياسية ،ويجعلها أقرب الى التصديق •

كما نصحوه بأن ظهور الملكة المصرية فى قيادة الجيش الرومانى سيهبط من الروح المعنوية للجنود لأنهم سوف يشـعرون أنهم يحاربون لتحقيق مطامع الاسكندرية وليس لعظمة روما ، ولكن ألم تكن كليو باترا هى الممولة لهذه الحرب الكبرى ؟ فكيف تترك مشروعا تستثمر فيه أموالها ؟ ومن افسوس استطاع أنطونيوس أن يجند جيشـا قوامه تسعين ألفا من الرجال وأسطول يبلغ تعداد سفنه خمسماية سفينة حربية،وأبحر بهما عبر البحر الايجى ولم يغامر أنطونيوس بالهجوم مرة واحدة على روما بل فضل أن يقضى فترة شتاء عام ٣١/٣٠ ق ٠م حول خليج امبراكيا Ambracia غرب بلاد اليونان فى مواجهة الحذاء الايطالى (١) •

وفى ربيع عام ٣١ عبر أكتاڤيوس البحر الادرياتيكى ، ومعه هيئة قيادته وقائد قواته الجنرال اجريبا وفى صحبتهم قوة عسكرية مماثلة لقوة أنطونيوس وواجه الجيشان كل منهما الآخر عند مدينة أكتيوم على ساحل امبراكيا •

وبدأت عبقرية أجريبا العسكرية فى العمل ، اذ بدأ يقطع الطريق على سفن الامداد التى كانت تحمل المؤن والعتاد لجيش أنطونيوس ، كمـا

---

(١) عن الراى القائل بأن انطونيوس خطط لمعركة فاصلة كان من الممكن أن يكسبها لو لم يخونه بعض رجاله ، انظر :
W.W. Tarn, J.R.S., (1931), p. 173.

احتل مراكز استراتيجية هامة على الساحل وبذلك زعزعت هذه الضربة مركز أنطونيوس العسكرى . وخاصة أن ما نصح به مستشاروا أنطونيوس قد حدث . اذ بدأت الجنود تهجر أنطونيوس الى معسكر أكتاڤيوس امتعاضا من ظهور كليو باترا ، ولم نعرف على وجه الدقة ماذا تلى ذلك ، ولكن من المحتمل أن أنطونيوس لم يطق الحصار حوله فقرر كسره وقبول المغامرة والمقامرة الكبرى بمواجهة أكتاڤيوس مرة واحدة ، وذلك بالدخول فى معركة بحرية لم تستمر طويلا بالرغم من أن دعاية أكتافيانوس قد هولت فى وصفها فيما بعد .

وبينما كان أسطول أنطونيوس يتناوش مع أسطول أجريبا ، انسحبت سفن كليوباترا (١) فجأة وبدون توقع لسبب غير معروف ربما أن مستشاريها نصحوها بأنها تقامر على فرس خاسر ، ولم يطق أنطونيوس أن يبقى وحده فى البحر فلحق بالسفن المصرية المنسحبة والتى استطاعت أن تتسلل عائدة مخترقة سفن أجريبا الى ميناء الاسكندرية ، وهكذا ترك أنطونيوس جنوده لقدرهم وهو أكبر خطأ ارتكبه أنطونيوس ، وبسرعة استسلم جيشه وانضم لجيش أكتاڤيوس ، وبذلك انهارت كل خطط أنطونيوس العسكرية .

ولما أدرك أكتاڤيوس أن صيده قد وقع فى الفخ ، وأن انتصاره على مرمى البصر تأنى ، ولم يتعجل ولعله كان يفكر فيما يجب عمله بعد انتصاره الساحق ولم يستأنف الحرب الا فى صيف عام ٣٠ ق . م ، حيث أبحر أسطوله

---

(١) عن هروب كليوباترا والأسطول المصرى ، انظر :

J. Kromayer, Hermes 1933 p. 361 ff. G. W. Richardson J.R.S., 1937, p. 153

بينما أشارت دعاية الشعراء بأن كليوباترا ولت مذعورة ، انظر :

E. W. vistrand, Horace Nineth Episode (1958) ; M. L. Paladini A proposito della tradizione sulla battaglia di Azio, Roma, 1958.

كذلك انظر عبد اللطيف أحمد على « مصر والامبراطورية الرومانية » دار النهضة العربية ، بيروت ١٩٧٢ ، ص ٣٠ — ٤٠ .

الى مصر بقصد احتلالها ووضع نهاية لحكم أسرة آل بطليموس التى سببت أرقا وقلقا لروما خلال القرن الأخير قبل الميلاد ٠

وحاول أنطونيوس عبثا الدفاع عن مملكة زوجتـــه المصرية ، ولكن هيهات ومن ثم استقبل الموت (١) بشجاعة الرومانى ويقال أنه فعل ذلك عندما أشيع أن كليوباترا قد أخذت حياتها بيديها ، ويقال أن كليوباترا هى التى أشاعت أنها قد انتحرت لكى تتخلص من أنطونيوس بعد أن انتهى دوره وحتى تتصل بأوكتافيوس طلبا للصلح ٠ ودخلت قوات أكتافيوس فى اليوم الأول من الشهر الثامن عام ٣٠ ق ٠ م ٠

أما كليوباترا فقد أمر أكتافيوس ، بالأبقاء عليها لكى يسير بها فى موكب نصره فى روما ، ودخلت قوات أكتافيوس مصر فى اليوم الأول من الشهر الثامن عام ٣٠ ق ٠ م ، وأى موكب نصر ذلك الذى تظهر فيه كليوباترا العظيمة أسيرة ذليلة تحتدج بالشماتة وتعرض للتهكم عن يمينها ويسارها وكان من المتوقع أن تنتحر كليوباترا ، ولكنها حبا للحياة ، أو من أجل أولادها حاولت فتح باب التفاهم والتفاوض والمزايدة مع أكتافيوس ، ولما صدها عن ذلك وأدركت أنه فولاذى الارادة والعزيمة لا ينثنى عن عزمه استقبلت الموت باحتضانها حية الكوبرا رمز التاج الفرعونى ، حتى تموت كما عاشت ملكة مصر (٢) ٠

---

* انظر محمد عواد حسين « المسألة المصرية فى السياسة الرومانية » ، حوليات آداب عين شمس ، المجلد الرابع يناير ١٩٦٥ ص ٢٤ - ٣٩ .

(١) وعن انتحار انطونيوس انظر :

cf J. Crook, J.R.S, 1957, p36 ff.

(٢) عن أيام كليوباترا الاخيرة انظر :

T. C. Skeat, J. R. S, 1953, p98 ff

وعن مناقشة الراى الذى طرحه شبيجلبرج ان اختيارها لحية الكوبرا لأنها خادمة رع رب الشمس عند المصريين وأن من يموت بها يصبح مؤلها ، انظر :

J. G. Griffiths, Journal of Egyptian Archaeology, 1961. p. 113 ff.

ويبدو أن أكتافيوس حزن لموتها،وأعلن أنه برىء من دمها . ولم يتردد أكتافيوس من ذبح قيصرون ابن يوليوس قيصر ، لأنه أدرك أن فى وجوده تحد لسلطته،وأنه قد يثير القلاقل يوما ما،أما أبناء كليوباترا من أنطونيوس هما الاسكندر هليوس (الشمس) وشقيقته كليوباترا القمر Selene فقد سيقا أمام عربة أكتافيوس ، أثناء موكب نصره الذى أقيم فى ١٣ ، ١٤ ١٥ من أغسطس عام ٢٩ق.م،والذى فيه حملت صورة لأمهما كليوباترا،رمزا لوجودها أسيرة فى هذا الموكب ، وبعد ذلك لا نسمع عن الاسكندر هليوس شيئا ، أما كليوباترا القمر ، فقد تروجت يوبا ملك موريتانيا ، وأصبحت ملكة على تلك الامارة الصغيرة .

هكذا وجد أكتافيوس تاج البطالمة محطما (١)، ومصر ملقاة تحت قدميه وخزائنها مفتوحة له ، فنهب منها ما استطاع أن ينهب ، وغطى من ذهبها تكاليف حملاته العسكرية السابقة ثم وزع على جنوده الهبات والمكافآت وأدرك أن مملكة بمثل هذا الرخاء والثراء يجب ألا تكون لأحد سواه وضعها ادارته الشخصية .

ولم يتردد أكتافيوس فى أن يعيد النظر فى التعديلات التى كان أنطونيوس قد قام بها فى الولايات الشرقية ، وبعد ذلك عاد الى روما عودة الابن الظافر الى صدر الأم الفخور ، وهبت الدولة بأكملها للترحيب به وأقيم له مهرجان نصر كبير ، استمر ثلاثة أيام متوالية،استعرض فيها انتصاراته على الشعوب غير الرومانية فى أوروبا وآسيا وأفريقيا .

---

(١) اسس اغسطس مدينة نيقوبوليس فى شرق الاسكندرية (بين الرمل وجليمونوبولو حاليا) حيث كان يعسكر قواته التى اتى بها من اكارنانيا وابيروس وقد سجل اكتافيوس شكره الى اميرال اسطوله سليوكس الروسوسى Seleucus of Rhosus وعن قراره بتوزيع المكافآت على الجنود ، انظر :

Ehrenberg and Jones, Documents, no 302=Lewis and Rheinhold, Rom. Civ, I, P302

هكذا وجد أكتافيوس نفسه وهو لم يبلغ الثالثة والثلاثين من عمره بعد وحيدا لا ينافس ، وتحت أقدامه ايطاليا كلها ، ومعها ممتلكاتها ماثلة لارادته ، فلا أحد يستطيع أن ينكر عليه حقه فى وراثة يوليوس قيصر أبيه كما أنه أنهى بانتصاره الحاسم فصلا مظلما من الحروب الأهلية بدأ منذ أيام تيبريوس جراكوس •

وتنفس الناس الصعداء فقد قصمت ويلات الحرب وضرائبها ظهورهم ولم يكن الرومان وحدهم هم الذين تحملوا عبء الحرب ، بل عانى معهم فيها أهل بلاد اليونان ومقدونيا وآسيا الصغرى لدرجة مجحفة ، وكانت روما وولاياتها على شفا الافلاس •

كما أحس أكتافيوس بحاجة الناس الماسة الى السلام، ونبذ القتال والاقتتال وأن الناس على استعداد لأن يعبدوه كرسول للسلام اذا ما حقق لهم وللعالم هذا الحلم •

وهلل الأدباء والشعراء لرسول السلام المنتظر ، وتغنوا بعهده الذهبى، ورخاء الحال على يديه • عندئذ، ومن هذه اللحظة، أدرك أكتافيوس أن عليه رسالة كبرى وهى أن يصنع روما من جديد — وأن شئت فقل — يصنع التاريخ •

وهكذا انتهت الجمهورية وبدأ عهد الامبراطورية الرومانية •

فهرست الكتاب

صفحة

صفحة

كتب اخرى للمؤلف

١ - الاغريق تاريخهم وحضارتهم .
الطبعة الثالثة ١٩٨٢

٢ - تاريخ الامبراطورية الرومانية السياسى والحضارى .
الطبعة الثانية ١٩٧٨

٣ - فن كتابة التاريخ وطرق البحث فيه .
الطبعة الأولى ١٩٨٢

٤ - تاريخ مصر من اقدم العصور حتى الفتح العربى .
الطبعة الثـانية ١٩٨٢

٥ - الامبراطورية الرومانية وشبه الجزيرة العربية .
(تحت الطبع)

٦ - صراخ الصامتين .
دراسة على وثائق وشكاوى الشعب المصرى على مر العصور .
(تحت الطبع)

رقم الايداع ٢٧٤٤ سنة ١٩٨٢

الترقيم الدولى ٨ ـ ٥٤ ـ ٧٢١١ ـ ١٩٧٧



المركز العربى للطباعة
٥٦ ش حسين الفخرانى من ش الفيوم
دار السلام ت : ٣٢٠٨٢٠٣ - ٣٢١٧٤٧٨٢

